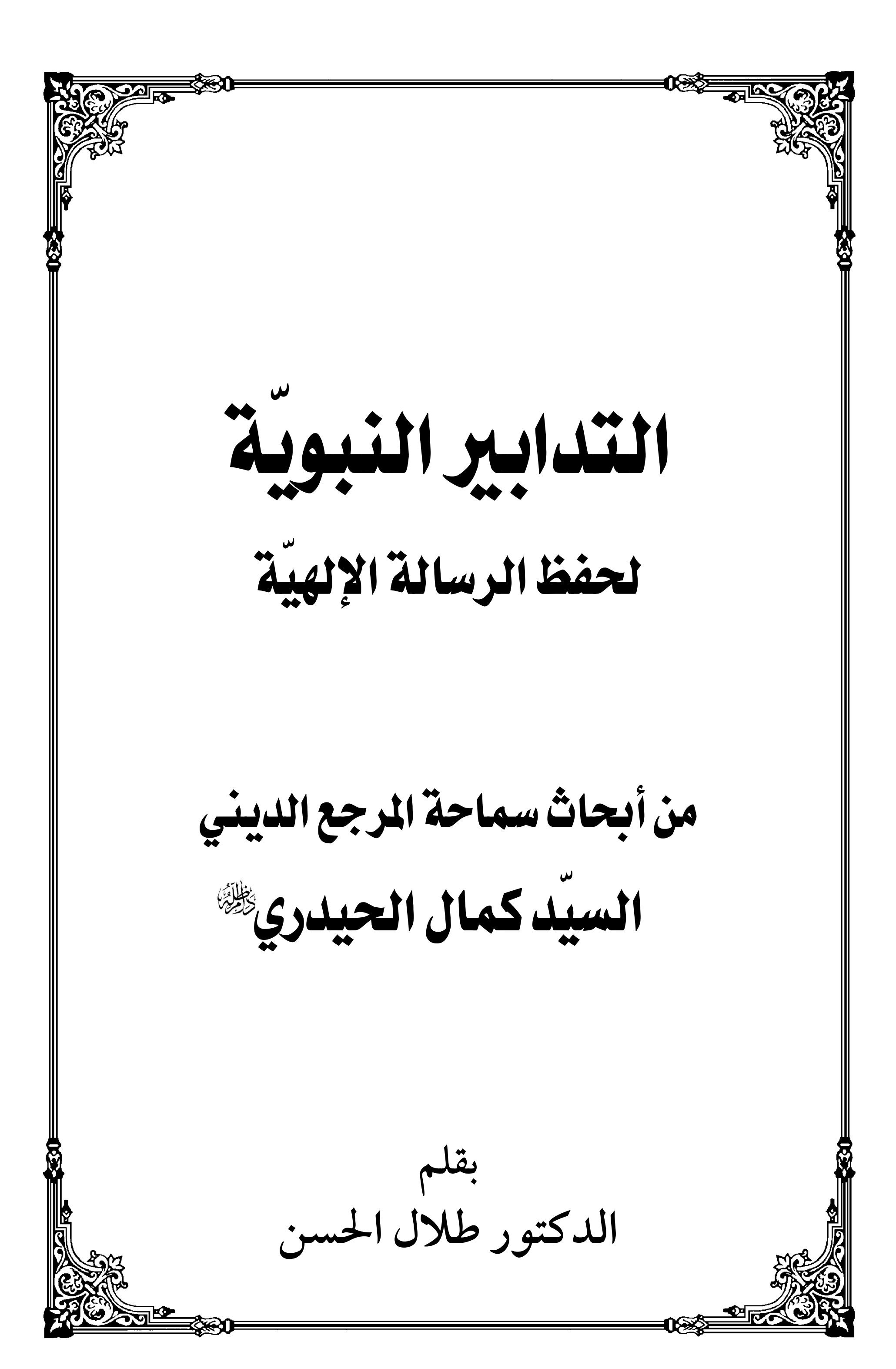


التدابير النبويّة

لحفظ الرسالة الإلهيّة

من أبحاث سماحة المرجع الديني

السيّد كمال الحيدري دام ظله

بقلم

الدكتور طلال الحسن

مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام

للفكر والثقافة

الكاظميّة المقدّسة ـ باب الدروازة

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

يطلب من

- مؤسّسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة؛ بغداد
  ٠٠٩٦٤-٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩
- مؤسّسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠١٤٢١١٩٤
- معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف
  ٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٤١٦٦٩
- مكتبة زين العابدين البصرة ـ الطويسة
  ٠٠٩٦٤-٧٧٠٦٠٧٢٢٧١
- مكتبة دار الأمير الناصريّة ـ الحبّوبي
  ٠٠٩٦٤-٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْـتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَـضُرَّ اللَّهَ شَـيْئاً وَسَـيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

مدخل

إنّ أيّ مدرسةٍ من المدارس الفكريّة أو الثقافيّة أو العقديّة لا يمكن لها أن تفصل حاضرها عن ماضيها، أو قل: لا يمكن فصل تشكيلات حاضرها عن تراثها؛ لأنّ كلّ ما في التراث من إيجابيّاتٍ أو سلبيّاتٍ هو منعكسٌ بالضرورة على الواقع المعاش، شئنا ذلك أم أبينا؛ فلا مفرَّ من الماضي ولا خلاص منه. وكما أنّ حاضرنا ضاربٌ في جذوره في الماضي السحيق، فكذلك مستقبلنا القادم فإنّ جزءاً كبيراً من جذوره وتشكيلاته تعود للحاضر المعاش، وحيث نحن نعيش أزمات الماضي فكريّاً وعقائديّاً وثقافيّاً وسلوكيّاً، ولدينا رغبةٌ عظيمةٌ وصادقةٌ في تجاوز مشكلات الماضي، أو تحييد آثارها في حاضرنا من باب المعالجة المتأخِّرة فلابدّ لنا أن نقي مستقبلنا من صراع الماضي وتمزّق الحاضر، والوقاية خيرٌ من العلاج.

فلا ريب أنّ حاضرنا هو نقطة انطلاقنا نحو المستقبل، كما أنّ حاضرنا نقطة انطلاقه هو ذلك الماضي المُبعثر، ولذا فنحن المسلمين عموماً، ما لم نفهم حقيقة ما جرى في صدر الإسلام ونُقيِّم ذلك، ونقرأه قراءةً موضوعيّةً علميّةً نقديّةً صحيحةً، قائمةً على أسسٍ ثابتةٍ ومنهجيّةٍ علميّةٍ مقبولةٍ عند أهل التحقيق وعند أهل المعرفة، فإنّه من العسير علينا تخليص حاضرنا من رشقات الماضي، فإذا ما قرأناه بموضوعيّةٍ وتحليلٍ ونقدٍ، نكون قد جنّبنا حاضرنا حالات التمزّق المستشرية، ووقينا مستقبلنا من تمزّقٍ أكبر وانهيارٍ أعظم.

فلأجل حاضرنا ووقايةً لمستقبلنا، جاءت هذه الأبحاث في التدابير النبويّة، والتي جاءت متزامنةً مع دراستنا الأساسيّة في مشروعنا الفكريّ الإصلاحي (مرتكزات أساسيّة لإعادة قراءة الفكر الشيعي)، الذي أسّسنا فيه عمليّة التحوّل من إسلام محوريّة الحديث إلى إسلام محوريّة القرآن.

هذا وقد قام ولدنا العزيز العلّامة المحقّق الدكتور طلال الحسن ـ دامت توفيقاته ـ بنظم أفكار هذه المادّة التي كانت متناثرةً هنا وهناك، وملء سطورها بموادّها الملائمة والسليمة، مع إضافاتٍ كثيرةٍ في المجالات المختلفة، فكانت نتيجة تلك الجهود الكبيرة والدقيقة والعميقة هذه الدراسة الماثلة أمامكم.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بيد ولدي العزيز الشيخ طلال إلى إكمال المشروع الذي بدأه بكتابة التفسير الكامل للقرآن الكريم ضمن المنهج والأسس التي وقفنا عندها تفصيلاً في كتاب «منطق فهم القرآن».

إنّه وليّ التوفيق

كمال الحيدري

١٣ جمادى الأولى ١٤٣٧ هـ

توطئة

تسالم العقلاء على كون الوقاية خيراً من العلاج، فما هي الإجراءات الوقائيّة التي اعتمدها النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله لحفظ المسيرة النبويّة في قبال العصف القادم والانقلاب المتوقّع، وقد وقع؟

في هذا الكتاب المنبثق في فكرته من سلسلة «إسلام محوريّة القرآن»[1] سنجد إجاباتٍ واضحةً ودقيقةً حول أهمّ تلك الإجراءات، التي لولاها لما بقي للإسلام ودعوة التوحيد عينٌ ولا أثر.

إنّ هذا الكتاب يعتمد مادّةً تاريخيّةً وروائيّةً لحقبةٍ في غاية الأهمّية والحسّاسيّة، وقد تناولها كثيرٌ من أعلام المدرستين بالبحث والتحقيق، وقد كانت لكثيرٍ منهم نوايا صادقةٌ في سبر الحقّ والوقوف على تفاصيل الموقف التاريخي من مسألة الخلافة والإمامة، ولكنّها أبحاثٌ قد وقعت في الأعمّ الأغلب في حيّز الدفاع

---

(١) نهض السيّد الأستاذ دام ظلّه بمشروعه الإصلاحي المتعلّق بالتراث الإسلامي، والذي سبق أن طرحه بشكلٍ موجزٍ تحت عنوان «إسلام القرآن وإسلام الحديث»، والذي طرحه بشكله التفصيليّ ضمن سلسلة «إسلام محوريّة القرآن»، وهي سلسلةٌ علميّةٌ وتحقيقيّةٌ تمرّ بمرحلتين أساسيّتين، هما: «مرحلة عرض النظريّة»، و«مرحلة الاستقراء والتطبيق». ومرحلة النظريّة ـ التي تمّ الفراغ منها ـ وقع عرضها في صورتين، هما: «العرض التجزيئيّ الترتيبيّ»، و«العرض المجموعيّ»، والأوّل يقع في خمسة أقسامٍ موزّعةٍ على خمسة كتبٍ مستقلّةٍ بعناوينها، والثاني في مجلّدين كبيرين يحملان عنوان «المرتكزات الأساسيّة لإعادة قراءة الفكر الشيعي»، لينتقل المشروع بعدها إلى المرحلة الثانية، وهي الاستقراء والتطبيق، وبذلك سيتمّ المشروع الإصلاحيّ في سلسلته الرئيسة، وهي: «إسلام محوريّة القرآن».

والسعي لإذعان الخصم، سواءٌ في طرح مدرسة أهل البيت أو في طرح مدرسة الصحابة، وقلّما تجد هدفاً أوسع مدى وأبعد نظراً.

إنّ القضيّة لا تعني رفع لواء الدفاع عن العترة أو رفع لواء الدفاع عن الصحابة، وإذا كان هنالك وجهٌ لتجيير القضيّة في دائرة الدفاع فلابدَّ أن يكون دفاعاً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله، فهو المعنيّ بالدرجة الأساس، أو قل: هو محور الحركة في كلّ ذلك، لأنّ كلماته محلّ قبول الطرفين، وطاعته واجبةٌ ولازمةٌ على الجميع، فإنّ طاعة أهل البيت ليست لازمةً لمدرسة الصحابة وفق مبانيهم، كما أنّ طاعة الصحابة ليست لازمةً لمدرسة أهل البيت وفق مبانيهم.

من هنا ينبغي التركيز على نفس الإجراءات والتدابير النبويّة الوقائيّة لحفظ مستقبل الأُمّة، فإنّ الله تعالى قد تكفّل بحفظ امتداده المباشر وهو القرآن الكريم، فوصلنا القرآن مصاناً من يد التحريف، ولذا فنحن نقطع بصيانته، وأمّا من يعتقد خلاف ذلك فإنّنا لا نتّفق معه بأيّ نحوٍ من الأنحاء.

وفي قبال ذلك التدبير الإلهي في حفظ امتداده، لابدّ أن يكون هنالك تدبيرٌ نبويٌّ لحفظ امتداده المباشر في الخلافة والإمامة، وهذا ما قام به النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، على أكمل وجه. ورغم الزيف التاريخي، وسلطة الحزب الحاكم المناوئ لتلك التدابير النبويّة، فإنّها قد أدَّت وظيفتها، فحفظت لنا الإسلام المحمّدي الصحيح، في مساحةٍ بقيت حيّةً ناطقةً بالحقّ، لم تعصف بها أمواج الفتن الهادرة، ولم تتذلَّل لأشدّ قوى الأرض عتوّاً، ولم تستكن لطواغيتها، فقدّمت رقابها واسترخصت دماءها دفاعاً عن عرين النبوّة، وعن عرين الامتداد الحقيقي لها، ممثّلاً بالخلافة الإلهيّة والإمامة القرآنيّة.

هذا ما يحاول تقديمه هذا الكتاب، في عرضٍ واضحٍ وبيانٍ راقٍ، وفي صراحةٍ نادرةٍ، وشجاعةٍ متّزنةٍ لم تفقدها الحماسة من اتّخاذ المواقف الحكيمة النبيلة، وقد حاول سيّدنا الأُستاذ الحيدري دام ظلّه سبر غور التاريخ والأخبار والرؤى

المطروحة في عرض تفاصيل تلك الحقبة ـ الشديدة الحسّاسيّة، والشديدة التعقيد، والشديدة التأثير على حاضرنا ومستقبلنا ـ بقراءةٍ راصدةٍ ناقدةٍ، فلم تكن محكومةً بسلطة الماضي، كما أنّها لم تكن متنكّرةً لتراثها. وهذه هي القراءة المسؤولة النافعة.

وأملنا أن نكون قد وُفّقنا في إنجاز هذه المهمّة العلميّة والتكليف الديني إزاء رسولنا الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله، وإزاء أصحاب مقام الخلافة الإلهيّة والإمامة القرآنيّة: الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

الدكتور طلال الحسن

١/ ربيع الثاني/ ١٤٣٦هـ

مقدّمة

من العلامات الفارقة في تشكّل عالم الدنيا: حضور الصراع واستدامته على المجالات كافّة، فلا يكاد يخلو مجالٌ حياتيٌّ من طبيعة الصراع والنزاع، وكأنّه ضرورةٌ حياتيّةٌ، أو قل: سنّةٌ كونيّةٌ في صيرورة وإدامة هذا الوجود، بل هو كذلك؛ ولذا نجد أوَّل من رصَد ظاهرة الصراع في عالم الحياة المادّية هم الملائكة، عندما شاءت الحكمة والقدرة الإلهيّة جعل آدم خليفةً لله تعالى في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فجاء الرصد الملائكي لواقعيّة ظاهرة الصراع: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. وهي ظاهرةٌ قد أقرَّها الله تعالى، ولم ينفها عن عالم المادّة، ولكنّ المصالح الكُبرى هي فوق مديات الصراع والنزاع، فجاء الجواب موجزاً وعميقاً: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وهكذا بدأت الحياة في صراعٍ من نوعين مختلفين تماماً، هما:

الصراع الإيجابيّ: العمل على انتخاب الأفضل.

الصراع السلبيّ: العمل على القضاء على الأفضل.

وقد كان الرصد الملائكي لظاهرة الصراع يدخل في النوع الأوّل من الصراع، فهم عليهم السلام كانوا يبحثون عن الأفضل، وهم من أجيال العصمة، فلا يطلبون إلّا الصحيح والأفضل، ولذلك حسموا صراعهم الإيجابي بتلقّي المعرفة الأسمائيّة من لدن الخليفة الإلهي الأوّل آدم الملكوت، وأدركوا ما خفي عنهم في حقيقة آدم الخليفة؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٣)، ثمّ خرُّوا لآدم هذا سُجَّداً بعد أن جاءهم الأمر بذلك؛

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾ (البقرة: ٣٤).

ومن خلال هذا التصالح بالسجود الواقع في قبال تلقّي المعرفة الأسمائيّة، نشأ صراعٌ آخر مستديمٌ، لم ينطلق من قاعدة البحث عن الأفضل، وإنّما انطلق من دائرة السوء والسعي للقضاء على الأفضل، وهو الصراع السلبي، وقد حمل لواء الصراع السلبي إبليس، ليفتح أوّل جبهةٍ في تاريخ الخلق بين الحقّ والباطل، وهي جبهة التمرّد على الحقّ، والتزمّت بالباطل، فكان العصيان الأوّل للأمر الإلهي؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤).

بهذا التحليل اليسير والعميق، يمكن تصنيف ظاهرة الصراع في عالم الحياة، فإنّه إمّا أن يكون صراعاً نحو الأفضل، ونموذجه الملائكة، أو يكون صراعاً للقضاء على الأفضل، ونموذجه إبليس. وليس بالضرورة أن يكون المنتمي للصراع الأوّل من الملائكة، كما ليس بالضرورة أن يكون المنتمي للصراع الثاني من الشياطين.

وبهذه الثنائيّة امتدّ الصراع بين البشر، وبالرغم من اتّخاذه أسماءً وعناوين مختلفةً، إلّا أنّه في حقيقته يحمل أحد الاتّجاهين (الصراع الإيجابي والصراع السلبيّ) ولأنّ السلب غالباً ما يطفح على السطح، فإنّنا نكاد لا نرى إلّا الصراع السلبيّ. وهو سنّةٌ إلهيّةٌ في عالم التكوين، فلم يستطع حتّى الأنبياء والرسل عليهم السلام القضاء على سنّة الصراع والتقاتل، بل هم أنفسهم عاشوا حياةً مليئةً بأبشع صور الصراع والتقاتل، فأصابهم من ذلك ما لم يُصب الآخرين، من تكذيبٍ وتشريدٍ وتجويعٍ وتقتيلٍ، وكانت المشيئة الإلهيّة في تجلية هذا الصراع بأشكالٍ مختلفةٍ، حتّى مع وجود الأنبياء عليهم السلام، ليتعمّق الصراع بعد رحيلهم؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ

بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ...﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وهنا تكمن الطامّة الكبرى، فالاختلاف ليس بالضرورة أن يكون ناشئاً من الجهل، فذلك صراعٌ قد يكون إيجابيّاً، كما هو حال الصراع الملائكي على انتخاب الأفضل، فانكشف جهلهم بالمعرفة الأسمائيّة التي تزوَّد بها هذا الخليفة، وإنّما الخلاف قد يكون ناشئاً من العلم نفسه!!! فيكون صراعاً للقضاء على الأفضل، **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ...﴾** (البقرة: ٢٥٣)، فوقع الصراع والاقتتال بعد مجيء البيِّنات!!

ولذلك تنصّ الروايات المستفيضة في قضيّة ظهور الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه بأنّ ظهوره سوف يكون محفوفاً بالصراع والقتال الشديد، مع أنّه من البيِّنات، وسوف يكون صراع الأُمّة معه منطلقاً من دائرة القضاء على الأفضل، كما أنّ صراعه عليه السلام مع الأمّة سوف يكون منطلقاً من دائرة العمل على انتخاب الأفضل، وشتّان بين الصراعين.

والخلاصة من ذلك: هو تجلّي الصراع والاقتتال بين البشر، ونتيجة هذا الاختلاف والصراع هو انقسام الأمّة على نفسها إلى قسمين، قسمٌ آمن بالتصحيح والبحث عن الأفضل، وقسمٌ كفر بالتصحيح وسعى للقضاء على الأفضل؛ قال تعالى: **﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾** (البقرة: ٢٥٣).

ولم يكن هذا الصراع والاقتتال تاريخيّاً طوته صفحات التاريخ، بل هو باقٍ إلى يوم القيامة، ولكن على نحو التيّار المتناوب، بين ارتفاعٍ وانخفاضٍ، وقد أشرنا إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام عاشوا هذا الصراع في حياتهم، واستفحل كثيراً بعد رحيلهم، ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو النبيّ الخاتم، بدعاً من الرسل، فجرى عليه ما جرى على الأنبياء وأممهم السابقة، حيث كان صلّى الله عليه وآله يعيش في أُخريات حياته الشريفة إرهاصات الانقلاب القادم،

وهو واقعٌ لا محالة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

فكان لابدَّ له صلّى الله عليه وآله من القيام بعدّة إجراءاتٍ وتدابير لمواجهة ذلك لأجل العمل على حفظ خطّ الرسالة النبويّة حتّى يأتي أمر الله وقضاؤه، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢).

نعم، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ (الإسراء: ٥). نعم، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ (الإسراء: ١٠٨)، وعندئذٍ سيخسر المبطلون، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: ٧٨)، وعندئذٍ سيفرح المؤمنون، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الروم: ٤)، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافّات: ١٨٢).

الفصل الأوّل

تدابير الحفظ من التكاليف النبويّة

- طبيعة التدبير ووظيفته
- التدابير النبويّة... وظيفةٌ أم توظيفٌ
- أسباب التدابير النبويّة لحفظ النبوّة والخلافة
- واقعيّة استفحال الظلم وقلّة الناصر
- العدوّ الظاهر والعدوّ الباطن
- أداء الأمانة وصيانة الهدف

طبيعة التدبير ووظيفته

اتّصفت مجموعة الإجراءات والتدابير النبويّة ـ أو الأعمّ الأغلب منها ـ بثلاثة أُصول، وهي: الدقّة، والمباشرة، والوضوح؛ تبعاً لوظيفته صلّى الله عليه وآله القائمة على هذه الأُصول، والتي أوجزها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقوله: «**طبيبٌ دوارٌ بطبّه قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوبٍ عميٍ، وآذانٍ صمّ، وألسنةٍ بكمٍ، متّبعٌ بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة**»[1].

والتعبير «دوّارٌ بطبّه»، كنايةٌ عن تجربته الثريّة والطويلة؛ فإنّ الطبيب الدوّار أكثر تجربةً من غيره[2]، كما أنّه تعبيرٌ مشيرٌ إلى تتبّعه للأمراض والعاهات لمكافحتها، وهذا من أدقّ وأعمق الصور الوقائيّة التي نهض بها الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، وقد عبّر بـ«أحمى مواسمه» لأنّ من أوّليات الطبّ القديم كون الكيّ هو آخر الدواء، وفي المقام عندما يصل الإنسان في رصيده الباطني إلى محطّة العمى، فلا علاج له سوى الكيّ المعنويّ، فمعنى «أحمى مواسمه»: أنّ مكواته في الكيّ حاميةٌ تستأصل المرض الوبيل من جذوره.

بهذا المستوى من الدقّة والمباشرة والوضوح، جرت طبيعة التدابير النبويّة في مواجهة الانحرافات القادمة، أو قل: في مواجهة العصف الجاهلي القادم بعد رحلة التوحيد الخالص، وهو عصفٌ لابدّ من وقوعه بحسب طبيعة الأشياء، بل ذلك ما أخبر عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ فقد جاء في المسانيد الصحيحة

---

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، جمع الشريف الرضي، تحقيق وتعليق: الشيخ محمّد عبده: ج١ ص٢٠٧، خطبة (١٠٨)؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٧ ص١٨. وقوله (مواسمه): جمع ميسم ـ بكسر الميم ـ وهو المكواة.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٧ ص١٨٣.

عنه أنّه قال: «**لتركبنّ سنن مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقُذّة بالقُذّة، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه.** فقيل له: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: **فمَن إذن**»[(١)].

وهكذا دبّ الخلاف والاختلاف بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله، ولم يدّخروا من الاختلاف شيئاً إلّا وأبرزوه، وليدخلوا في كلّ جحر ضبّ لا في جحرٍ واحدٍ. وفي ذلك يُطالعنا الإمام محمّد الباقر عليه السلام ببيان يُوضّح فيه الصورة المصداقيّة لوقوع الاختلاف في الأمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ «عن عمرو بن أبي المقدام عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ العامّة يزعمون أنّ بيعة أبي بكر حيث اجتمع الناس كانت رضا لله جلّ ذكره، وما كان الله ليفتن أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله من بعده؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: **أو ما يقرؤون كتاب الله؟ أو ليس الله يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ**

---

(١) ورد هذا الخبر بألفاظٍ متفاوتةٍ قليلاً، وكلّها تحمل معنىً واحداً أو متقارباً جدّاً في كتب الفريقين معاً. انظر: صحيح البخاري: ج٨ ص١٥١؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٨ ص٣٢٢ ح١١٨٠٠؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٧ ص٩١٣ ق٢ ح٣٣١٢؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٥ ص٦٦٤ ح٨٤٩٦ «هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه»؛ سنن الترمذي: ج٤ ص١٣٥ ح٢٧٧٩؛ تفسير الطبري، تحقيق صدقي جميل العطّار: ج١٠ ص٢٢٥ ح١٣١٦٣.

من لا يحضره الفقيه، للصدوق: ج١ ص٢٠٣ ح٦٠٩؛ كمال الدين وتمام النعمة، للصدوق: ص٥٣٠؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص١١٣.

والقُذّة ـ بضمّ القاف وتشديد الذال ـ : ريش السهم، يقال: «القذّة بالقذّة» إذا تساويا في المقدار، حيث يقدر كلّ واحدةٍ منهما على قدر صاحبتها، وهو مثلٌ يُضرب للتساوي بين الشيئين وعدم التفاوت بينهما.

شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)؟ قال: فقلت له: إنّهم يفسّرون على وجهٍ آخر. فقال: **أو ليس قد أخبر الله عزّ وجلّ عن الذين من قبلهم من الأمم أنّهم قد اختلفوا من بعدما جاءتهم البيّنات حيث قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾** (البقرة: ٢٥٣).

وفي هذا ما يستدلّ به على أنّ أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله قد اختلفوا من بعده، فمنهم مَن آمن، ومنهم مَن كفر»[١]، تبعاً لسنّة الله تعالى في خلقه بعد إرسال الرسل ومجيء البيّنات.

وفي مطالعةٍ سريعةٍ ويسيرةٍ للأُمم السالفة، نجدها أمماً متمرّدةً منقلبةً على خطّ الأنبياء، حتّى أنّ بعضهم انقلبوا والنبيّ بين ظهرانيهم، كما هو الحال في قصّة موسى على نبيّنا وعليه آلاف التحيّة والثناء، فكادوا أن يفتكوا بهارون النبيّ عليه السلام لولا حكمته وحنكته، وكاد أن يقع مثل هذا الانحراف الخطير في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم امتنع كبار الصحابة عن الالتحاق بسريّة أُسامة، حتّى اضطرّ النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى التنديد بمن تخلّف عن جيش أسامة[٢]،

---

(١) الروضة من الكافي، للكليني: ج١٥ ص٦١٣ ح٣٩٨.

وليس المراد من الكفر في الحديث: الكفر الذي يقابل الإسلام، بل سياق مثل هذه النصوص يقتضي حمل الكفر فيها على العاصي، كما أشار إليه سيّدنا الشهيد الصدر، حيث قال: إنّ الذي يبرّر هذا الحمل هو «ما دلّ على كون الضابط في الإسلام: التصديق بالله والرسول، المحفوظ في المخالف أيضاً». [بحوثٌ في شرح العروة الوثقى: ج٣ ص٣٩٧].

(٢) سيقف السيّد الأستاذ دام ظلّه، عند سريّة أُسامة بن زيد وملابساتها، وكيف أنّها كانت من ضمن التدابير النبويّة، وذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ضمن عنوان

فغيّبوا وجوههم لحين حلول ساعة صفرٍ جديدةٍ قرنوها بوفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، لتبدأ رحلة العود إلى ماضٍ مظلمٍ انكشفت ظلمته بجهاد النبيّ صلّى الله عليه وآله ودماء الشهداء رضوان الله عليهم.

إذن فالرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله يترقّب عصفاً جاهليّاً جديداً، أكثر إيلاماً وأعمق جرحاً وأشدّ ظلمةً من الجاهليّة الأُولى، فروّاد الجاهليّة الأولى كانوا جهلةً في كلّ شيءٍ، وأمّا روّاد الجاهليّة الجديدة فإنّهم فقهاء ومفسّرون ومحدّثون وقادة معارك تاريخيّة، هم من عليّة القوم، لا يُشقّ لهم غبارٌ في سابقة، ولهم باعٌ طويلٌ في القدرة على احتواء المقابل، ترهيباً وترغيباً.

ومن الواضح لكلّ ذي بصيرةٍ: أنّ منطق التاريخ أمام هذا العصف الجديد يقتضي التسلّح بإجراءاتٍ وتدابير تواجهه أو تخفّف من شدّته، بحيث يحفظ الإسلام المحمّدي ولو بأشخاصٍ يُعدّون على الأصابع.

وأمّا فيما يتعلّق بوظيفة تلك الإجراءات والتدابير فإنّها جاءت لتحقّق ستّة أهدافٍ منظورةٍ تحفظ المسيرة النبويّة وامتدادها، وهي:

الهدف الأوّل: التنبيه على المخاطر القادمة

كان لابدَّ من التأكيد والتنبيه على المخاطر القادمة، وأنّ العاصم للأُمّة من وقوع تلك المخاطر في حينها هو وجود النبيّ صلّى الله عليه وآله، وأمّا بعده فإنّ الأحداث ستبقى حبلى بانقلاباتٍ خطيرةٍ، على مستوى الفكر والثقافة والسياسة والعلاقات الاجتماعيّة.

فإذا ما وقعت هذه الانقلابات[1] فلابدَّ من البحث عن الحلول النبويّة

«الإجراء الثالث: تولية أصغر الصحابة سنّاً على كبارهم».

(١) وقد وقعت ولا ريب، والمؤسف في ذلك هو أنَّ الأمّة ـ كعادتها ـ تعيش الحدث بعد وقوعه، فلا تقبل تحذيراً ولا تستجيب لتنبيه، وإن كان من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه

الناجعة، وأمّا إذا تُرك الحبل على الغارب، وتُركت الأمور عائمةً، فإنّ الأمّة ستجد نفسها في بحرٍ متلاطم الأمواج، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠).

ومثل هذا الموقف السلبي لا يمكن القبول به في المقاسات النبويّة، فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله من وظائفه الإلهيّة بيان كلّ ما يقع في طريق هداية الإنسان فيطلب العمل به والتمسّك به، كما عليه بيان كلّ ما يقع عائقاً في طريق الهداية ويأمر باجتنابه، وإذا كان هذا الأمر على مستوى الأحكام الشرعيّة الجزئيّة، فكيف بالأمور الدينيّة الكبرى وقيادة الأمّة وحفظ حاضرها ومستقبلها؟

ولذلك لمّا وقع الانقلاب وبدأ الانحراف يتعمّق يوماً بعد يوم، حتّى وجدوا في زمن الخلافة الراشدة والي الكوفة يصلّي بهم سكران[1]، وآخر يقول لبني

وآله، وليس ذلك منها تكذيباً له والعياذ بالله، وإنّما لشدّة إهمالها، أو لأنّها لا تريد أن تصدّق بحصول مثل هذه الانقلابات، مع أنّ القرآن صرّح بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

(١) كان ذلك هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخا عثمان بن عفّان لأمّه أو بالرضاعة، والذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ (الحجرات: ٦)، ولّاه عثمان الكوفة، وله قصّةٌ مشهورةٌ جدّاً عند المؤرّخين، حتّى رواها بعض المحدّثين، كالإمام أحمد بن حنبل والنسائي وغيرهما، وكانوا يُذيّلون هذه الرواية بقولهم: إنّها من حديث الثقات، وقد رويت في أكثر من خمسين مصدراً. ومفادها: أنّه صلّى بهم صلاة الصبح أربع ركعاتٍ ثمّ التفت إليهم وقال لهم: هل أزيدكم؟ وكان يقنت في صلاة الفجر بهذه الأبيات: (علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا).

فشهد عليه رجلان بذلك عند عثمان، ولما استقدمه عثمان لقيه الإمام عليّ عليه السلام فأقام عليه الحدّ بعد أن شهد عليه اثنان. [انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة

أرومته: تلقّفوها تلقف الكرة[1]، وآخر يرى أرض العراق بستاناً لقريش، عندئذٍ

الحديثة: ج٢ ص٣٩٥ ح١٢٣٠، إسناده صحيحٌ على شرط مسلم؛ إرواء الغليل: ج٨ ص٤٨ ح٢٣٨٠؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٣ ص٢٤٨ ح٥٢٦٩؛ سنن البيهقي: ج٨ ص٣١٨؛ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد حميد الله: ج٥ ص٣٣؛ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، طبعة دار الكتب العلميّة: ج٣ ص٦٣٨؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج١١ ص١٢٦؛ تهذيب الكمال، أبو الحجاج المزي: ج٣١ ص٥٧؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر الشافعي: ج١١ ص٣١٣؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ): ج٢ ص٥٢؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري: ج٥ ص٩١؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٦٥؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص١٧٤؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي: ج٢ ص٣٣٤، وص٣٤٤؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت: ٧٤٨هـ): ج٣ ص٤١٤؛ ج٦ ص٤١٤؛ وغير ذلك من المصادر كتاريخ أبي الفداء، وتاريخ الخلفاء، والسيرة الحلبيّة] .

وشرب الخمر لم يقتصر على الوليد الفاسق، وإنّما كان ظاهرةً مستشريةً عند بني أُميّة، حتّى أنَّ معاوية بن أبي سفيان مؤسّس الدولة الأمويّة كان يشرب الخمر في حكومته وولايته!! فقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن بريدة قال: «دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش، ثمّ أُتينا بالطعام فأكلنا، ثمّ أُتينا بالشراب فشرب معاوية، ثمّ ناول أبي، ثمّ قال ـ أي: بريدة ـ ما شربته منذ حرّمه رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ قال معاوية: كنت...» . [مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٨ ص٢٥ ح٢٢٩٤١؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ح٣ ص١٣٩، حوادث سنة: ٣٣؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١ ص١١٤ـ١١٥؛ تاريخ الطبري: ج٣ ص٣٦٥؛ تاريخ الإسلام: ج٣ ص٤٣١؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٥ ص٢٣، رقم: ٦١٦؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٥ ص٥٢].

(١) روى الشعبي أنّه: لما دخل عثمان رحله بعد عقد البيعة له، دخل عليه بنو أميّة حتّى امتلأت بهم الدار، ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحدٌ من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من

تذكّر المسلمون وجه تلك الإجراءات النبويّة، فصار يومهم كيوم الأحزاب الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فقد أخبرهم القرآن بوقوع الانقلاب الخطير، كما أخبرهم النبيّ صلّى الله عليه وآله بوقوع ذلك في حديثٍ تقدّم عرضه، جاء فيه: «**لتركبنّ سنن مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل...**»[1].

الهدف الثاني: تنبيه الأمّة إلى ارتباط الانحراف بالمعطيات المادّية

إنّ وقوع الانحراف وعدمه راجعٌ للمعطيات المادّية الواقعيّة، فالمسألة ليست غيباً محضاً ليكونوا في أمنٍ وأمانٍ من الانحراف، وبعبارةٍ أُخرى: إنّ الأمّة برمّتها ستكون مسؤولةً عن الأحداث القادمة، فلابدّ أن يكون لكلّ فردٍ دورٌ إيجابيّ في مواجهة العصف الجاهلي الجديد؛ قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ (الصافّات: ٢٤).

الهدف الثالث: التنبيه على عدم الاغترار بالكثرة

لا ريب أنّ الحقّ لا يُقاس بالكثرة أبداً، فقليلٌ من عباد الله الشكور، وأكثرهم للحقّ كارهون، فلا الكثرة ممدوحة، ولا القلّة مذمومة، ولذلك لابدّ

عذابٍ ولا حسابٍ، ولا جنّةٍ ولا نارٍ، ولا بعثٍ ولا قيامةٍ، إنّما هو الملك! [انظر: تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٥؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣؛ مروج الذهب، المسعودي: ج١ ص٤٤٠؛ تاريخ أبي الفداء: ص٤٢٢].

«وقد دخل أبو سفيان بن حرب مرّةً على عثمان بعدما عمي، فقال: هاهنا أحدٌ؟ قالوا: لا، قال: اللهمَّ اجعل الأمر أمر جاهليّة، والملك ملك غاصبيّة...». [تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢٣ ص٤٧١].

(١) تقدّم تصدير الحديث.

أن يُعرف الرجال بالحقّ، لا أن يعرف الحقّ بالرجال؛ فلا يقال هذا أوّل رجل أسلم، وذلك بالعدل أقوم، وذلك بالقربى أرحم، فإنّ الكلام كلّه في متابعة القرآن ووصايا الرسول صلّى الله عليه وآله، التي جاءت فصيحةً صريحةً مستفيضةً في العترة الطاهرة من أهل بيته عليهم السلام.

الهدف الرابع: بيان استبدال الانقلابيّين الضلال بالهداية

كان لابدّ من بيان أنّ أصحاب الانقلاب الكبير سيستبدلون الضلال بالهداية، فتكون نصرتهم ومبايعتهم والذبّ عنهم تعبيراً آخر عن نصرة الباطل ومبايعته والذبّ عنه، ولا ينبغي الاغترار بالأسماء الكبيرة، فإنّ الهدى لا يُعرف بهم، وإنّما هم بالهدى والحقّ يُعرفون، كما تقدّم، فيكون السير في ركبهم سيراً في ركب الضلال، وأنّ هذا الضلال سيورثهم الذلّ في الدنيا والخسران في الآخرة.

الهدف الخامس: التأسّي بالنبيّ صلّى الله عليه وآله في حفظ الإسلام

ومن الوظائف والإجراءات والتدابير: أنّها جاءت لترسيخ فكّرة التأسّي بالنبيّ صلّى الله عليه وآله في العمل على حفظ الإسلام الأصيل، وتقديم جميع التضحيات لحفظ الخطّ القرآني المُمثَّل بالناطقين به والعاملين بنصوصه.

الهدف السادس: إعطاء فرصة التصحيح على مدى التاريخ

ومن الوظائف الأُخرى: إعطاء فرصة التصحيح على مدى التاريخ، فإنّ الانقلاب ضرورةٌ تاريخيّةٌ، فرضتها سلسلة الفشل المتواصل في مسيرة الإنسان النوعي، والتي عاش إرهاصاتها وذاق مرّ نتائجها السواد الأعظم من الأنبياء والرسل، ولكنّ المواجهة والتصحيح المتواصل هو الآخر ضرورةٌ تقتضيها الفطرة السويّة كما تقتضيها الرسالة السماويّة في الخلق، ولذلك فإنّ المواجهة والتصحيح تكليفان شرعيّان لابدّ من النهوض بهما، فلا يُقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤)، فإنّ الآية ترفع عنّا أوزارهم من خلال عدم سؤالنا يوم القيامة عنها، ولا تمنعنا من السؤال عنها والوقوف على ظروفهم ومواقفهم، ولذلك علينا أن نوجّه أسئلتنا بشجاعةٍ ووضوحٍ لتلك الثلّة التي جنحت بالأمّة في أبشع انحرافٍ وأخطر انقلابٍ في التاريخ.

وعليه فنحن في كلّ عصرٍ ومصرٍ مسؤولون عن مواجهة تلك المواقف التاريخيّة وتقييمها، لاسيّما وأنّها تمسّ بصورةٍ جوهريّةٍ وبشكلٍ مباشرٍ ديننا عقيدةً وشريعةً وسلوكاً، فمن أراد أن يكون سلبيّاً تابعاً للمنطق الأموي الذي يُثقّف رعاياه على السكوت عمّا جرى بين الصحابة والأصحاب فذلك شأنه، وهو مسؤولٌ عن فعله، ومن أراد أن يكون إيجابيّاً فلابدَّ من التحقيق والتدقيق والبوح بالموقف الصحيح، ولا فرق عندنا ـ من حيث التكليف ـ بين مَن واجه ذلك الانحراف في وقته وصدع بالحقّ، وبين مَن قام بذلك في عصورنا هذه، بل لعلّ المتأخّر هو أعظم أجراً عند الله؛ لأنّه يواجه بموقفه ثقافةً عارمةً، وخدعةً تاريخيّةً أسموها بعدالة الصحابة، فهو يسبح ضدّ تيّارٍ معاكسٍ شديدٍ، وكما جاء في الخبر عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**ثواب العمل على قدر المشقّة فيه**»[1].

وبكلمةٍ واحدةٍ نقول: إنّ الوعي الرسالي يقتضي من الإنسان المسلم الوقوف على تاريخيّة ووسائل نقل تراثه الديني إليه، بل لكي يخرج الإنسان من دائرة الهمج الرعاع الذين ينعقون وراء كلّ ناعقٍ، لابدّ له من قراءة سطور الماضي بعينٍ راصدةٍ ورؤيةٍ ناقدةٍ؛ ليتبيّن له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وأمّا ما يُراد لنا من الالتزام بقراءة وفهم الصحابة والمتابعة على طبقهم قولاً وعملاً فذلك قولٌ بائسٌ لا يراد منه سوى إماتة العقل وإلغاء المنطق، بل هو إلغاءٌ

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمّد الليثي الواسطي: ص٢١٨.

مبرمجٌ لإنسانيّتنا، ونحن لا نجد أنفسنا مضطرّين لإلغاء عقولنا ووجداننا. على أنّ السواد الأعظم من الصحابة كانوا أُمّيين بحسب الاصطلاح العامّ (القراءة والكتابة) فضلاً عن الاصطلاح الخاصّ (التخصّص في المجالات المعرفيّة) فكيف يتسنّى لعاقلٍ متابعة أفهامٍ تعود في الغالب منها إلى تلك الفئات التي يصعب عليها أن تتلمذ في أيسر الجامعات والحوزات الدينيّة، فضلاً عن عسر بل استحالة أن يكون الواحد منهم أُستاذاً متوسّط الحال فيها، وهذا لا يتنافى مع مواقعهم المعنويّة ومكانتهم وسابقتهم الجهاديّة، فالأمر لا يتعلّق بالمناقب، وإنّما بالفهم الديني.

من هنا ينبغي الخروج من تلك العتمة التي يختبئ في ظلمتها جهّالٌ سمّوا أنفسهم علماء زوراً وبهتاناً، وما هم سوى مقلّدةٍ لا يفقهون سوى ترديد الأقوال. وحريّ بأبنائنا وهم يعيشون في عصر العلم، أن يفقهوا معنى العلم الذي يتنافى تماماً مع خندقة التقليد الأعمى، والذي يُمكن تسميته أيضاً بالتقليد السلبي[1].

هذا ما يتعلّق بوظيفة الإجراءات والتدابير النبويّة، وسنقف لاحقاً، على الأسباب أو الخلفيّات التي استدعت مثل تلك الإجراءات والتدابير.

التدابير النبويّة... وظيفة أم توظيف

الوظيفة هي أداء عملٍ موكولٍ بصاحبه، ولابدّ من إنجازه، وأمّا التوظيف فإنّه تسخيرٌ لعملٍ ما في صالح هدفٍ يقصده الفاعل؛ من قبيل الصلاة، فتارةً ننظر إليها كوظيفةٍ نأتي بها للخلاص من التكليف، وتارةً يأتي بها المؤمن لتوظيفها في تحصيل الكمال، كما يأتي بها المنافق لتوظيفها في خداع الناس بالحالة الإيمانيّة، فتكون الصلاة بالمنطق الوظيفي عملاً مطلوباً لنفسه، وتكون بالمنطق

---

(١) تعرّض السيّد الأُستاذ دام ظلّه إلى مفهوم التقليد الأعمى أو السلبي، وفصله تماماً عن التقليد الإيجابي الموافق لتحقيق حالة التفقّه في الدين، وذلك في كتابه: «فقه العقيدة».

التوظيفي سبيلاً لتحصيل ما هو أبعد من ذلك، أي: أبعد من إنجاز التكليف نفسه، وبالتالي فإنّ الصلاة التي لا تحقّق إلّا هدف الامتثال هي مجرّد وظيفة، وأمّا إذا حقّقت هدفها الحقيقي في تحصيل الكمال فهي توظيفيّةٌ وليست مجرّد وظيفة، ولا ريب أنّ الصلاة الصحيحة غير المقبولة لا تخرج عن كونها وظيفة، وأمّا الصلاة الصحيحة المقبولة فإنّها وظيفةٌ وتوظيف[1].

والآن لنا أن نسأل عن طبيعة تلك التدابير النبويّة: هل هي مجرّد وظيفةٍ وأداء تكليفٍ، أم هي توظيفٌ فحسب، أم هي وظيفةٌ وتوظيف؟

الصحيح في المقام: هو أنّ وظيفيّتها وتوظيفيّتها مقرونتان بالمكلّفين؛ ففي ضوء استجابتهم لتلك التدابير، تكون تلك التدابير وظيفةً وتوظيفاً، وأمّا في ضوء إحباطها أو إهمالها أو التغافل عنها فإنّها لا تعدو عن كونها وظيفةً إلهيّةً وتكليفاً شرعيّاً نهض به الرسول صلّى الله عليه وآله ضمن مقتضيات رسالته الإلهيّة، وليست تكلّفاً شخصيّاً منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: ٨٦)، وهذا ما لا يناسب شخصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله بصفته خاتماً للأنبياء ورسالته خاتمة الرسل.

ولذلك فإنّ واقع الحال ـ وهذا ما نجده من خلال القراءة الموضوعيّة للمعطيات التاريخيّة ـ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان قاصداً بذلك الوظيفة والتوظيف معاً، كما أنّ هذه المعطيات تسجّل بنفسها أنّ تلك الإجراءات والتدابير قد نجحت في توظيفيّتها، حيث لم تسمح لإسلام الحزب الحاكم والإسلام الأموي أن يتفرّدا في صناعة الحاضر والمستقبل للإسلام والمسلمين، وإنّما نشأ هنالك تيّارٌ معارضٌ ملتزمٌ بكلّ الإجراءات النبويّة، ويعمل بمقتضيات الوصايا الإلهيّة والنبويّة، وقد حُفظ هذا التيّار بقدرٍ كبيرٍ في مدرسة أهل البيت

---

(١) لم تكن هنالك سابقةٌ على هذا الكتاب للتفريق بين الوظيفة والتوظيف وتطبيقهما على الصلاة الصحيحة والصلاة المقبولة.

رغم محدوديّة الأفراد آنذاك وضعف الإمكانيّات، إلّا أنّها كانت تجربةً ناجحةً في حفظ الهدف التوظيفي، حتّى صارت تلك الإجراءات من أهمّ ملامح مدرسة أهل البيت، بل هي حجر الزاوية في حركتها الفكريّة والعقديّة والشرعيّة والسلوكيّة، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال تصوّر مدرسة أهل البيت بدون تلك الإجراءات النبويّة، وهذا ما يعني: أنّ مدرسة أهل البيت هي الوليد الشرعي للرسالة والنبوّة، وما دونها فهو وليد اجتهاداتٍ فرديّةٍ قامت على مفردةٍ مشتركةٍ، وهي مواجهة تلك الإجراءات النبويّة والعمل على التشكيك بها وتقويضها، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبيرٍ في صناعة منظومةٍ فكريّةٍ وعقديّةٍ وشرعيّةٍ وسلوكيّةٍ مجرّدةٍ من مقتضيات تلك الإجراءات النبويّة، ولذلك فهم ـ في أفضل أحوالهم ـ يرون أنّ تلك الإجراءات فيما لو صحّت، لا تعدو عن كونها وظيفةً قام بها النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهم غير معنيّين بها، لأنّ قريش في رؤيتهم قد اختارت لنفسها وأنّها قد وُفِّقت في ذلك الاختيار[1] وإن كان ذلك الاختيار

---

(١) رُوي أنّ عمر بن الخطّاب سأل عبد الله بن عبّاس: «أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمّد؟ قال ابن عبّاس: فكرهت أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني. فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فقلت: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في كلام وتمط عنّي الغضب تكلّمت. فقال: تكلّم يا ابن عبّاس. فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجلّ لها لكان الصواب بيدها غير مردودٍ ولا محسود... فقال عمر: بلغني أنّك تقول إنّما صرفوها عنّا حسداً وظلماً. فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين (ظلماً) فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأمّا قولك (حسداً) فإنّ إبليس حسد آدم، فنحن ولده المحسودون ـ إلى أن قال ابن عبّاس ـ يا أمير المؤمنين! إنّ لي عليك حقّاً وعلى كلّ مسلم، فمَن حفظه فحظُّه أصاب، ومن أضاعه فحظّه أخطأ. ثمّ قام فمضى». [تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٨٩؛ العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي (ت: ٣٢٧هـ): ج٢ ص٢١٤؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير

مخالفاً لاختيار الله ورسوله! كما هو واقع الحال.

إذن فقد وظّف الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله إجراءاته وتدابيره النبويّة ـ وليست الشخصيّة ـ في حفظ رسالة الإسلام من التشويه الكامل، وقد كان النموذج المتفرّد في عيّنة الحفظ متمثّلاً بأئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين دفعوا أعمارهم الشريفة قتلاً وسبياً وسجناً وتشريداً وتجويعاً وترويعاً لحفظ أمانتهم الإلهيّة، فكانوا هم الشاكرين والشكورين حقّاً وتصديقاً، والمشار لهم في قبال المنقلبين المقصودين في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤). ولا ينبغي العجب من قلّة الشاكرين في قبال المنقلبين، فذلك ممّا نصّ عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

أسباب التدابير النبويّة لحفظ النبوّة والخلافة

تقدّمت بعض الإشارات اليسيرة حول خلفيّة القيام بالتدابير النبويّة لحفظ النبوّة والإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، سواءٌ في ضمن الأهداف الستّة المتقدّمة[1]، أو ضمن بيان حقيقة التوظيف، ولكنّنا هنا نريد التعرّض أو الكشف عن مساحاتٍ جديدةٍ كامنةٍ وراء اتّخاذ تلك الإجراءات والتدابير الكثيرة والمتضافرة لحفظ النبوّة والرسالة من الأدعياء، وحفظ الخلافة من الطامحين والطلقاء وأبناء الطلقاء، ولعلّ فيما سنقف عنده ـ بشكلٍ مختصرٍ ـ ما يفتح أمامنا نوافذ لدراساتٍ

الجزري: ج٣ ص٦٣؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٢ ص٥٣].

(١) هنالك فرقٌ دقيقٌ بين أهداف الإجراءات النبويّة وبين أسبابها، فالأهداف مقاصد مستقبليّة، وأمّا الأسباب فهي الخلفيّات التي اتّخذت في ضوئها تلك الإجراءات، أو قل: إنّ الأسباب هي علّة اتّخاذ الإجراءات، أمّا الأهداف فهي ثمراتها المنظورة.

تحقيقيّةٍ موسّعةٍ في كلّ سببٍ دعا النبيّ صلّى الله عليه وآله لاتّخاذ تلك التدابير الوقائيّة اللازمة لحفظ النبوّة والرسالة والمسيرة من التحريف والتزييف الكامل.

ولذلك سوف نعمل على تقديم تحليلٍ يسيرٍ لكلّ سبب من تلك الأسباب؛ ليكون مادّةً علميّةً متاحةً للباحثين، ومساحةً جديدةً داعيةً للتأمّل في الأحداث، من خلال التزوّد بهذه الأبجديّات الجديدة لقراءة ذلك الحدث التاريخي الأخطر في تاريخ الأُمّة، والذي جرّ على الأمّة ويلاتٍ ومصائب تترى، وهو حدث الانقلاب على الوصيّة الإلهيّة والنبويّة في الخلافة والإمامة من بعده صلّى الله عليه وآله.

١. الفشل التاريخي لحركة الإنسان

قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ (الأحزاب: ٧٢)، والفهم المُيسّر لهذه الآية الكريمة: هو أنّ الله تعالى أراد أن يأتمن على خلقه حفظ سلّم الكمالات الإلهيّة وسبل الوصول إليه، وهو مقام الخلافة الإلهيّة، وذلك من خلال امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فنطق كلٌّ بحسبه ومقدرته، فأبت السماوات والأرض والجبال ـ تكويناً ـ عن حمل تلك الأمانة الثقيلة، وأشفقن منها؛ لضرورة وقوع التقصير، ونطق الإنسان وحده بمكنته على تحمّل الأمانة، وهو من حيث الاستعداد كان مؤهّلاً لذلك، فالعرض تكوينيّ والقبول تكوينيّ أيضاً، إلّا أنّ الإنسان أُعطي العقل ولم يُسلب الاختيار، فاغترّ الإنسان ـ بوجوده النوعي ـ بما أُعطي فكان ظلوماً جهولاً.

وهذا الفشل التاريخي لحركة الإنسان الكماليّة، غالباً ما يُوجد إرهاصاتٍ أشبه ما تكون بالهدوء الحذر قبل حلول العاصفة، وقد سجّلت لنا السنّة النبويّة تلك المشاكلة بين الأمم في التسابق على السقوط والفشل، وقد مرّ بنا ما أخبر عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لتركبنّ سنن مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل،**

والقُذّة بالقُذّة، حتّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه، فقيل له: يا رسول الله**!** اليهود والنصارى؟ قال: **فمن إذن**»[(١)].

فذلك الميل للانحراف والغفلة والتغافل هو ديدن الإنسان النوعي، فكان لابدّ من اتّخاذ الوسائل المختلفة لتنبيه الأُمّة إلى ذلك الخطر المتوقّع، بل الواقع لا محالة، فيأتي التنبيه لكي لا تغرق سفينة الإسلام وتضيع خارطة الطريق الأخيرة لإنقاذ الإنسان من الضلال.

وهكذا جاءت التدابير النبويّة لمواجهة تلك الرياح العاتية التي عصفت بالإنسان في جميع الأزمنة السابقة، ولاريب أنّها لم تكن تعمل على إغلاق دائرة النكوص وعدم السماح بتكرار التجارب الفاشلة ـ وإن كانت تطمح لذلك ـ وإنّما كانت تهدف بالدرجة الأساس ـ أو قل: كان هدفها القريب هو ـ العمل على عدم اندثار صورة الإسلام الحقيقيّة ولو من خلال حفظه في ثلّةٍ قليلةٍ، وقد نجح النبيّ صلّى الله عليه وآله في تحقيق ذلك.

٢. عدم ترك مجالٍ للاحتجاج عليه

لقد واكب رسول الله صلّى الله عليه وآله سيرة القرآن الكريم في الكشف عن خبايا المستقبل القريب من جهة، كما هو الحال في آية انقلاب الأمّة على أعقابها[(٢)]، ومن جهةٍ أُخرى قد بالغ صلّى الله عليه وآله في إتمام الحجّة المطلوبة منه، وفقاً للقاعدة القرآنيّة: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء: ١٦٥)، فعرَّف بالإمام المفترض الطاعة الذي لا يجوز

---

(١) تقدّم تخريج الخبر من طرق الفريقين، مع بيان معنى كلمة «القذّة».

(٢) كشف القرآن الكريم عن ذلك في أكثر من آية، وقد كان أيسرها وأشهرها آية الانقلاب، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...**﴾ (آل عمران: ١٤٤).

للأُمّة الائتمام بغيره كما لا يجوز لهم في صلواتهم استقبال غير الكعبة قبلةً، فمَن اتّخذ سوى ذلك وليجةً فهو من الظالمين؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠).

كما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد حذَّر الأمّة من الانقلاب على ما اختاره الله تعالى ورسوله لهم، وقد كان على الأمّة الاستجابة لتحذيره صلّى الله عليه وآله، وعدم الانسياق إلى التغيير والتبديل، وإلَّا: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٨١)، ولذلك فإنّ عدم ترك مجالٍ للأمّة جمعاء أن يحتجّوا عليه بعدم تحذيرهم قد تعاطى معه الرسول صلّى الله عليه وآله بلياقةٍ عاليةٍ وكياسةٍ عظيمةٍ، فما أبقى لهم وجهاً يحتجّون به غداً، ولم يُبقِ لهم عذراً يُنجيهم من المساءلة والعقاب، فيكون انقلابهم بالرؤية الإلهيّة مدحوراً، ومنقلبهم الأخير معلوماً، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)، والعاقبة للمتّقين.

٣. إعلام الطامحين والطلقاء بكشف مخطّطهم الإقصائي

إنّ الالتفات الجادّ إلى ما تضمره النفوس المناوئة ـ الطامحين والطلقاء وعامّة المنافقين ـ وإعلامهم عمليّاً بكشف مخطّطاتهم الإقصائيّة، سيجعلهم في مرمى تلك الإجراءات، كما سيعطيهم فرصةً جديدةً للإنابة والتوبة عن ذلك، أو على أقلّ التقادير سيجعلهم يُفكِّرون في تغيير مخطّطاتهم بنحوٍ تُحفظ فيه المظاهر الإسلاميّة والممثّلين الشرعيّين للخلافة والإمامة، وهذا ما تحقّق فعلاً، فقد حُفظت المظاهر كما حُفظ الممثّل الشرعي للخلافة في زمن الطامحين، وهذه فترةٌ زمنيّةٌ كافيةٌ لتأسيس قاعدةٍ متينةٍ لتيّار إسلام محوريّة القرآن، وقد ظهرت تجلّيات

ذلك من خلال تلك الثورة العارمة التي أعادت الخلافة لأهلها، وجعلت الطلقاء على خطرٍ عظيمٍ كاد أن يذهب بهم إلى الأبد.

٤. قِصَر المساحة الزمنيّة للتبليغ

وهذا من الأسباب الأكيدة، فإنّ ضيق المساحة الزمنيّة المتاحة للنبيّ صلّى الله عليه وآله واستشرافه لما سيقع في المستقبل، يجعله يتّخذ خطواتٍ سريعةً باتّجاه تنبيه الأمّة إلى الخطر المحدق بها، وإذا ما لاحظنا تتابع الأحداث وتفاقم المواجهات مع المشركين واليهود في الخارج، ومع المنافقين والمندسّين في الداخل، نجد أنّ فرصة التبليغ للخطوات المستقبليّة كانت ضيّقةً جدّاً، ولكنّنا مع ذلك كلّه نجد ما اتّخذه الرسول صلّى الله عليه وآله بحكمةٍ وحنكةٍ من ساعة انطلاق دعوة الإسلام وحتى بعث سريّة أُسامة، كان يسير باتّجاه تولية الوليّ الشرعي، وقد كان الأمر ثقيلاً على الطامحين والطلقاء، لذلك نجدهم يختلقون صراعاتٍ داخليّةً بعضها مُسيءٌ للإمام عليّ عليه السلام؛ للتمويه على تلك الوصايا وللتشكيك بتلك الإجراءات، ولو اتّسعت الرقعة الزمنيّة لحياة الرسول الأعظم لوجدنا نماذج أُخرى من التدابير ـ رغم كفاية ما تقدّم منه، بل إنّها أكثر ممّا تحتاجه الأُمّة، فكان ذلك منه مبالغةً في التعريف والتنبيه ـ وقد كان صلّى الله عليه وآله يدرك قصر مدّته أو يتوقّع وقوع ذلك، فكان يُكثّف من المواقف التعريفيّة ويتحيّن الفرص لاتّخاذ إجراءٍ وقائيّ ضدَّ عودة الجاهليّة بلونها الأموي الجديد[١].

---

(١) إنّها الجاهليّة الجديدة التي بيّن بعض ملامحها أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته المسمّاة باللؤلؤة، جاء في آخرها: «**ألا وإنّي ظاعنٌ عن قريب، ومنطلقٌ إلى المغيب، فارتقبوا الفتنة الأمويّة، والمملكة الكسرويّة، وإماتة ما أحياه الله، وإحياء ما أماته الله**». [كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، الخزاز القمّي الرازي (ت: ٤٠٠هـ): ص٢١٢].

وهذه هي خلاصة الإسلام الأموي، أو قل: هي خلاصة الجاهليّة الأمويّة. وبهذه الجاهليّة الأمويّة ـ كما يرى السيّد الأستاذ دام ظلّه ـ «نجح الأمويّون في تدجين العقل

إذن فالتبرير المنطقي لكثافة التعريفات وتواتر الإجراءات هو قِصَر مدّته صلّى الله عليه وآله، ورغم معاناته العظيمة وما كان يلقاه من أذىً نفسيّ وتشكيكٍ في رسالته ووصاياه، وأنّه كان يقرأ ذلك في عيون رجالٍ كبارٍ سبق منهم أن اتّهموه بالكذب أو الخطأ أو العصبيّة لعشيرته! ولكنّه ماضٍ في تبليغ رسالته؛ تبعاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

٥. السير على طريقة الرسل، والرسول ليس بدعاً منهم

إنّ اتّخاذ تدابير الحفظ لا يخرج عن كونه مهمّةً نبويّةً سلكها عامّة الأنبياء والرسل، ولا ريب أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله لم يشذّ عنهم في ذلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف: ٩)، فكانت تلك الإجراءات الوحيانيّة من مقتضيات النبوّة، وقد عرفنا أنّه صلّى الله عليه وآله ماضٍ في تبليغ رسالته، وبالتالي فإنّ عدم اتّخاذ إجراءات الحفظ سيكون خروجاً عن القاعدة النبويّة وشذوذاً عنها، وكيف يُتصوّر ذلك في حقّه صلّى الله عليه وآله وهو النبيّ الخاتم، وهو بحسب كماله المعرفي والمعنوي سيّد الأنبياء والمرسلين؟

تذييل

لا ريب أنّ هنالك أسباباً أُخرى لم نسلّط عليها الضوء، وهي بحاجةٍ إلى

الإسلامي عموماً والعقل العربي خصوصاً... حتّى آل الأمر في بعض المقاطع الزمنيّة أن يُعلَن وبصورةٍ رسميّةٍ المنع من إعلان الولاء والحبّ لآل محمّد، وما زالت بعض المساحات الإسلاميّة تعجّ بهذا النفس الناصبي، فترى مجرّد ذكر الإمام عليّ أو فاطمة أو الحسن والحسين كفيلاً بوصم صاحبه بالرافضيّة، بما تحمله هذه الكلمة ـ عندهم ـ من لوازم تبديعيّةٍ وتكفيريّة، حتّى عزف عن ذلك خيار الأُمّة خشية تبديعهم أو تكفيرهم!.

استقراءٍ وتنقيبٍ، وهذا ما ينبغي الاهتمام به من قبل المعنيّين بقراءة الإسلام، وليس الهدف رفع أرصدة الأسباب أو الإجراءات، وإنّما لما تتضمّنه من فوائد جمّةٍ في الكشف عن حيثيّات مجتمع بيئة النزول الذي لازلنا ننهل منه ديننا فكراً وعقيدةً وشريعةً وسلوكاً.

واقعيّة استفحال الظلم وقلّة الناصر

هنالك شعورٌ عميقٌ يعيشه الكثير من أبناء الأُمّة، لاسيّما في الوسط السنّي المتمثّل بمدرسة الصحابة، وهو أنّ تصوير مساحة الظلم الواقع على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وقلّة ناصريه، فيه مبالغاتٌ كبيرةٌ، فلا القوم كانوا خصوماً، ولا أهل البيت كانوا معارضةً، وغاية الأمر أنّ الإمام عليّاً عليه السلام قد لحق به أذىً نفسيّ؛ لعدم استشارته في أمر الخلافة، فكان شكواه من ذلك لا من أمر خلافة أبي بكر نفسه، وقد تجاوز الإمام عليّ عليه السلام هذا الأذى النفسي بعدما علم بضرورة تخليف أبي بكر؛ حفظاً للأُمّة من ظهور فراغٍ حكوميّ قد يؤدّي بالمغرضين إلى خلق اضطراباتٍ وأعمال عنفٍ قد تعصف بالإسلام بأسره.

هكذا يقرأ البعض مشهد موقف الخلفاء والصحابة من الإمام عليّ وموقف الإمام نفسه منهم، في محاولةٍ لتمييع الصراعات وتذويب النزاعات التي كانت لا ترقى إلى مستوى تدوينها، فضلاً عن عدم صلاحيّتها للتناول في تلك القرون الطوال والسنين العجاف، وكان الأولى بها الترك لا التنقيب والمداولة.

والواقع: أنّ هذا المنطق قد يبدو في ظاهره موافقاً تماماً لمنطق الأمويّين، إلّا أنّه في حقيقته أبعد من ذلك، فالأمويّة ـ فكراً وسلطةً ونفوذاً ـ كانت وما تزال تعمل على تفرقة الأمّة، ومنطق القتل والدم والإرهاب الفكري وقتل الشخص والشخصيّة دأبهم ومحور حركتهم التاريخيّة، ومنه تفهم مكنون دعاتهم المعاصرين من التكفيريّين وخوارج العصر الذين ما عاشوا همّ الوحدة بين المسلمين قطّ، وإنّما

هم سرطانٌ قاتلٌ يحرق في دماء المسلمين منذ طلوع قرنهم ذي الثدية[1].

إذن فهنالك فكرٌ معاصرٌ أبعد من الفكر الأموي المفرّق، أو قل: هو ما بعد الأمويّة بمراحل، يحمل جيناتٍ أمويّةً متطوّرةً، يريد أن يقدّم لنا قراءةً عن حقبة الخلافات والاختلافات بتلك الصورة الساذجة التي لا تترك للحقّ منفذاً، ولا تزيّف للباطل وجهاً. إنّها قراءةٌ تريد منّا تعطيل عقولنا، والتسليم المطلق لعمليّة التفريغ المدروس للواقع من محتواه، فيصنعون لنا باطلاً يسمّونه حقّاً، ويُغيّبون عنا حقّاً يسمونه فتنةً وباطلاً.

---

(١) ذكر ابن أبي الحديد أنّه جاء في الصحاح المتّفق عليها: «أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بينما هو يقسم قسماً، جاء رجلٌ من بني تميم يدعى ذا الخويصرة، فقال: اعدل يا محمّد، فقال عليه السلام: **قد عدلت.** فقال له ثانيةً: اعدل يا محمّد، فإنّك لم تعدل. فقال صلّى الله عليه وآله: **ويلك! ومَن يعدل إذا لم أعدل!** ثمّ قال صلّى الله عليه وآله: **سيخرج من ضئضئ هذا** (أي: من جنس هذا) **قومٌ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم إلى نصله** (حديدة السهم والسيف) **فلا يجد شيئاً، فينظر إلى نضيه** (السهم قبل أن ينصل ويريش) **فلا يجد شيئاً، ثمّ ينظر إلى القذذ** (ريشة السهم) **فكذلك، سبق الفرث والدم** (مثالٌ لخروجهم من الدين) **يخرجون على حين فرقةٍ من الناس، تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم عند صومهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم. آيتهم رجل أسود ـ أو قال أدعج** (شدّة سواد العين مع اتّساعها) ـ **مخدج اليد** (نقص في يده) **إحدى يديه كأنّها ثدي امرأةٍ أو بضعةٌ تدردر** (أي: تجيء وتذهب)». [انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٢٦٥؛ الإصابة، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلميّة: ج١ ص: ٣١٩، ٣٧٥، ٤٧٢، ٤٧٣؛ الأعلام، للزركلي: ج٢ ص١٧٣؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٧ ص٤٧ ح١١٠٠٨؛ صحيح البخاري: ح٦١٦٣، صحيح مسلم: ح٢٣٤١، المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٢ ص٤٩٨ ح٢٧٠٦].

وقد ظفر به الإمام عليّ عليه السلام في معركة النهروان فقتله، ولمّا أخرجوه من القتلى ورآه الإمام، سجد عليه السلام لله تعالى شكراً.

فالأمويّة وإن كانت تخفي عداءها للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله إلّا أنّها لا تخفي عداءها لعترته الطاهرة، أمّا الأمويّة العصريّة فإنّها تريد أن تعقد مصالحةً بين الأمويّة السالفة وبين العترة الطاهرة ـ أو قل: بين القاتل والمقتول ـ من خلال تزييفٍ مدروسٍ وصناعة تراثٍ جديدٍ شرع بالتأسيس له ابن حنبل، وأكمل فصوله ابن تيميّة، وباشر بتطبيقه محمّد بن عبد الوهاب.

التزييف الأموي الجديد ـ الحنبليّ التأسيس، التيميّ التفصيل، الوهّابيّ التطبيق ـ يريد منّا أن نحمل ثقافتنا عن أهل البيت بتلك الرؤية الأمويّة في واقعها، فنسمع ونطيع ولا نسأل ولا نتأمّل. إنّه تزييفٌ لا يمكن له أن يحقّق نجاحاته إلّا بتعطيل العقل تماماً، ولذلك تجد أتباع الأمويّة المعاصرة يُساقون كالخراف إلى مذبح الولاء الكاذب الذي يتساوى فيه بحسب الظاهر عليٌّ عليه السلام مع معاوية، والحسين عليه السلام مع يزيد، وأمّا بحسب الباطن ـ ومن خلال مقولاتٍ تيميّةٍ وهابيّةٍ ـ يُقدّمون عليّاً بصورة رجلٍ شاذٍّ وصاحب فتنة، ويُقدّمون حسيناً بصورة رجلٍ خارجٍ على إمام زمانه. إنّها مصالحةٌ لا تبقي ولا تذر من الحقّ شيئاً.

وبهذه الرؤية المزيّفة يريدون النفوذ إلى وجدان المسلم، متمترسين بأسلحتهم الضاربة: التفسيق والتضليل والتكفير والتقتيل والتمثيل!.

وحيث إنّهم يتقاطعون مع الفطرة الإنسانيّة السليمة، فسيجدون قواطع وموانع كثيرة، أهمّها العقل والتنقيب والتحليل، فقتلوا العقل بالمتابعة العمياء للسلف، وأوقفوا التنقيب بدعوى العمل بقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٤)، وحرّموا التحليل لأنّه وجهٌ من وجوه التأويل، والتأويل لا يعلمه إلّا الله تعالى! وهكذا يُجرَّد الإنسان من عقلنته للأمور وتدبّره فيها ليكون إمَّعةً وآلةً تنفّذ مآربهم، مع أنّ طلب الحقّ فريضةٌ عينيّةٌ على كلّ إنسان، ولكي تصل للحقّ لابدّ من التفكّر

والتدبّر وإعمال العقل.

والأدهى من إماتتهم للعقل والمنطق: هو أنّهم يريدون منّا متابعتهم في ذلك، بل ويتّهمون غير المتابع لهم بالمروق عن الدين، وهكذا يكون الباطل البيِّن حقّاً عندهم لزموه وألزموا الآخرين به، ويكون الحقّ البيّن باطلاً عندهم نأوا عنه وبدّعوا متابعته، ولنعم ما قيل من حكمةٍ عظيمةٍ ودقيقةٍ وعميقةٍ، وهي: «حين سكت أهل الحقّ عن الباطل، توهّم أهل الباطل أنّهم على حقّ»[1]، إنّها لحكمةٌ بالغةٌ، تدعونا إلى عدم السكوت عن باطلٍ أبداً ولو دعا الأمر إلى فتح جميع الملفّات التاريخيّة؛ للوقوف على الحقّ الأبلج وإيقاف الناس عليه، ودحر الباطل بكلّ أشكاله وعناوينه، حتّى وإن سقطت قاماتٌ عاليةٌ، فالحقّ لا يُعرف بالرجال وإنّما يُعرف الرجال بالحقّ[2].

إنّ مظلوميّة أهل البيت عموماً ومظلوميّة الإمام عليّ عليه السلام خصوصاً لهي أشهر من نارٍ على علم، فإذا وقع الظلم عليهم فعلينا أن نعرف مَن ظلمهم، وبأيّ شيءٍ ظلمهم، فهل سلبوا منهم مالاً أو أمراً دنيويّاً محضاً لنسكت عنه ونترك أمره ليوم التلاقي، أم إنّهم قد سلبوا منهم ما يتعلّق بأمر ديننا ودنيانا؟ أليس الأمر متعلّقاً بالخلافة من بعد رسول الله والإمامة على الأمّة، فهل مثل هذا

---

(١) قيل بأنَّ هذه الحكمة منسوبةٌ إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٢) قال الحارث بن حوط الراني للإمام علي عليه السلام بعد معركة الجمل: أتظنّ طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل؟ فقال عليه السلام: «**يا حارث! إنّه ملبوسٌ عليك، وإنَّ الحقّ والباطل لا يُعرفان بالناس، ولكن اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف مَن أتاه**». [انظر: فيض القدير في شرح الجامع الصغير، محمّد عبد الرؤوف المناوي: ج١ ص٢٧٢؛ تفسير القرطبي، مؤسسة التاريخ العربي: ج١ ص٣٤٠؛ أنساب الأشراف، تحقيق الشيخ محمّد باقر المحمودي: ص٢٣٨، رقم: ٣٥٨؛ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلّي: ج٢ ص٣٨؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢١٠].

التراث العظيم الذي تناهبوه ـ حتّى صار بنو أميّة ينزون على منبر الرسول صلّى الله عليه وآله نزو القردة ـ يتطلّب منّا البحث والتحقيق والتدقيق ومحاسبة المغتصبين لسلطان آل محمّد والناهبين له، أم يتطلّب منّا السكوت على الرؤية الأمويّة التقليديّة أو إنكاره من رأس على الرؤية الأمويّة المعاصرة المتطوّرة؟

لنستمع أوّلاً إلى بعض كلمات صاحب المظلوميّة الكبرى، وهو يسرد لنا بعضاً من مواجعه وآلامه عليه السلام، وفي أكثر من موضع:

قال ابن أبي الحديد: «واعلم أنّه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول، نحو قوله: **مازلتُ مظلوماً منذ قبض الله رسوله حتّى يوم الناس هذا**. وقوله: **اللّٰهُمَّ أخز قريشاً فإنّها منعتني حقّي، وغصبتني أمري**، وقوله: **فجزى قريشاً عنّي الجوازي، فإنّهم ظلموني حقّي، واغتصبوني سلطان ابن أمّي**. وقوله وقد سمع صارخا ينادى: أنا مظلومٌ، فقال: **هلمّ فلنصرخ معاً، فإنّي مازلتُ مظلوماً**. وقوله: **وإنه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى**. وقوله: **أرى تراثي نهباً**. وقوله: **أصغيا بإنائنا، وحملا الناس على رقابنا**. وقوله: **إنّ لنا حقّاً إن نعطَه نأخذه، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى**. وقوله: **مازلت مستأثَراً عليَّ، مدفوعاً عمّا أستحقّه وأستوجبه**»[1].

وكان من دعاءٍ له يكشف فيه عن حجم مظلوميّته وأثرها في نفسه، عليه السلام: «**اللّٰهُمَّ إنّي أستعديك على قريش ومَن أعانهم؛ فإنّهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنتُ أولى به من غيري، وقالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه، وفي الحقّ أن تمنعه، فاصبر مغموماً، أو مُت متأسّفاً، فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ ولا ذابٌّ ولا مساعدٌ إلّا أهل بيتي، فضننتُ بهم عن المنيّة، فأغضيتُ على القذى، وجرعتُ ريقي على الشجا، وصبرتُ من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم وآلم للقلب**

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٣٠٦.

من وخز الشفار»[(١)].

وكان يختصر مظلوميّته بكلمةٍ موجزةٍ، وهي قوله عليه السلام: «**ما لقي أحدٌ من الناس ما لقيت»**[(٢)].

وهو مع ذلك كلّه، كان يختار لنفسه أن يكون مظلوماً ما دام هو على يقينٍ من دينه، وقد حاول معاوية أن يُعرِّض بالإمام عليه السلام من خلال التذكير باقتياده لبيعة أبي بكر، فأجابه عليه السلام: «**وقلت: إنّي كنت أُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش حتّى أبايع، ولعمر الله لقد أردتَ أن تذمّ فمدحتَ، وأن تفضح فافتضحتَ، وما على المسلم من غضاضةٍ في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه»**[(٣)].

وأمّا ما جرى عليهم من التقتيل والسبي والتشريد في واقعة كربلاء بسلطة

---

(١) المصدر السابق: ج١١ ص١٠٩. والاستعداء: الاستعانة والانتصار، والرافد: المعين، والوخز: الطعن الخفيف، والشفار: جمع الشفرة، وهو السكّين العظيم.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص١٠٣.

(٣) المصدر السابق: ج١٥ ص١٨٣.

وقد أثار عليه السلام في مظلوميّته مفهوماً غير مألوف، فلطالما شكت الأمم من ظلم رعاتها، ولم يُعهد في التاريخ شكاية الرعاة من ظلم رعيّتها لها، ولكنّه عليه السلام قد أصابه ظلمٌ كبيرٌ من رعيّته، فعبَّر عن ذلك بقوله عليه السلام: «**كنت أرى أنّ الوالي يظلم الرعيّة، فإذا الرعيّة تظلم الوالي**». [جامع الأحاديث (الجامع الصغير والجامع الكبير)، جلال الدين السيوطي: ح٣٢١١٨؛ كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي: ج١٣ ص١٨١ ح٣٦٥٤١].

وأخيراً فإنّ تاريخ مظلوميّته عليه السلام قد امتدّ إلى زمان طفولته، فقد كان يلحق به بعض الظلم وهو طفل صغير، فعنه عليه السلام: «**ما زلت مظلوماً منذ ولدتني أمّي، حتّى أنّ عقيلاً ليصيبه رمدٌ فيقول: لا تذروني ـ لا تتركوني ـ حتّى تذروا عليّاً، فيذروني وما بي من رمد**». [وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي: ج١٢٨ ص٤٨٦ ح١٠؛ علل الشرائع: ج١ ص٤١، باب: ٤٠، ح٣].

الإسلام الأموي الذي بذَرَتْه السقيفة وسَقَتْه الخلافة، فلا يتسنّى لأحدٍ إنكاره، وما لحقهم[1] ولحق ذراريهم من السادة العلويّين من الظلم والقتل والتشريد والتجويع والتعذيب في أصقاع الأرض فلازلنا نعيش تتمّة فصوله.

وفي الوقت الذي تتعاظم فيه المظلوميّة الكبرى، نشهد قلّة الناصر في العدّة والعدد؛ فذلك أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ما إن فقهت الأمّة دورها في التغيير وأعادت الأمور إلى نصابها حتّى هاج بعض الصحابة والصحابيّات لحربه، ففرّقوا الأمّة وتسبّبوا بقتل خمسةٍ وعشرين ألفاً من المسلمين، وما إن أُحرق الجمل ونُسف نسفاً وانطوت صفحة الناكثين حتّى فُتحت صفحة القاسطين المنافقين، فرفع معاوية عقيرته مطالباً بدمٍ كان هو أحرص الناس على هدره، فساقوا الجيوش لتأكل الأخضر واليابس، وما كاد النصر أن يتحقّق حتّى خرجت دسائس معاوية في شرذمةٍ عطّلت العقول فكانت النهروان وكان المارقون، فنهض لها بثباتٍ، وأطفأ فتنتهم ومحق نائرتهم، وما كاد لينهض لدحر النفاق والقاسطين بعد قطع دسائسهم حتّى وقعت الجريمة الكبرى باغتياله عليه السلام وتفرّق الجيش عن الإمام الحسن ووقوع الهدنة، لتبدأ أبشع صفحات التاريخ وأشدّها ظلماً وسوداويّةً ومأساويّةً، فما أُوذي بيتٌ في الإسلام كما أُوذي أهل البيت عليهم السلام، وكأنّ القرآن الكريم لم يُوصِ بمودّتهم في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ (الشورى: ٢٣)، ولم يُوصِ

(١) روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنّه خطب بأهل الكوفة بعد استشهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال: «**لقد حدّثني جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنّ الأمر يملكه اثنا عشر إماماً، من أهل بيته وصفوته، ما منّا إلّا مقتولٌ أو مسموم**». [كفاية الأثر، الخزّاز القمّي: ص١٦٢].

وعن أبي الصلت الهروي أنّه سمع الإمام عليّ الرضا عليه السلام يقول: «**والله ما منّا إلّا مقتولٌ شهيدٌ**». [من لا يحضره الفقيه، للصدوق: ج٢ ص٥٨٥ ح٣١٩٢].

رسول الله صلّى الله عليه وآله بالتمسّك بهم في عرض التمسّك بكتاب الله، كما هو صريح حديث الثقلين، بل وكأنّ الله تعالى ورسوله قد أوصيا بقتل رجالهم وسبي نسائهم وتشريد عيالهم، بل ولو أوصى بذلك لما فعلوا بهم أكثر من ذلك، وهذا ما صرّح به بقيّة السيف في كربلاء الإمام عليٌّ السجاد عليه السلام يوم عاد من التقتيل والسبي والتشريد، فخطب بأهل المدينة: «**أيّها الناس أصبحنا مطرودين مشردين مذودين شاسعين عن الأمصار كأنّا أولاد تركٍ وكابل، من غير جرمٍ اجترمناه، ولا مكروهٍ ارتكبناه، ولا ثلمةٍ في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، إن هذا إلّا اختلاق، والله لو أنّ النبيّ تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبةٍ ما أعظمها، وأوجعها وأفجعها، وأكظّها، وأفظّها، وأمرَّها، وأفدحها؟ فعند الله نحتسب فيما أصابنا، وما بلغ بنا، إنّه عزيزٌ ذو انتقام...**»[١].

وهذا ما أكَّده الإمام القرطبي في ذيل قول النبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث الثقلين: «**وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي ـ ثلاثاً ـ...**»، حيث قال: «وهذه الوصيّة، وهذا التأكيد العظيم، يقتضي وجوب احترام آل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأهل بيته، وإبرارهم وتوقيرهم ومحبّتهم، وجوب الفروض المؤكّدة التي لا عذر لأحدٍ في التخلّف عنها.

هذا مع ما عُلم من خصوصيّتهم بالنبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وبأنّهم جزءٌ منه، فإنّه أصلهم الذي نشأوا منه، وهم فروعه التي نشأت عنه، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: **فاطمة بضعةٌ منّي، يُريبني ما يُريبها**[٢].

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، السيّد ابن طاووس (ت: ٦٦٤هـ): ص١١٧؛ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، الشيخ محمّد باقر المجلسي: ج٤٥ ص١٤٨؛ لواعج الأشجان في مقتل الحسين، محسن الأمين العاملي (ت: ١٣٧١هـ): ص٢٤٤.

(٢) ورد هذا الحديث النبويّ الشريف بألفاظٍ متقاربةٍ في المعنى، في أهمّ المصادر الروائيّة.

ومع ذلك فقابل بنو أميّة عظيم هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق، فسفكوا من أهل البيت دماءهم، وسبوا نساءهم، وأسروا صغارهم، وخرّبوا ديارهم، وجحدوا شرفهم وفضلهم، واستباحوا سبّهم ولعنهم؛ فخالفوا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في وصيّته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته، فوا خجلهم إذا وقفوا بين يديه، ويا فضيحتهم يوم يُعرضون عليه»[١].

العدوّ الظاهر والعدوّ الباطن

مهما امتلك العدوّ الظاهر من إمكاناتٍ وسلطاتٍ فإنّ خطره يبقى دون خطر العدوّ الباطن، فالعدوّ الظاهر يمكن رصده ويمكن تحديد زمان ومكان مواجهته، وهو على إمكاناته في الرصد تبقى لديه مساحاتٌ مجهولةٌ، بخلاف العدوّ الباطن فإنّه يجرى في جسد الأمّة جريان الدم في الشريان، فخطره عظيمٌ وكبيرٌ وقريبٌ، وهذا ما يستدعي التركيز عليه وتحديد سبل المواجهة معه.

ونظراً لخطورة الحالة النفاقيّة ـ بصفتها حالةً باطنيّةً خدّاعةً ـ فقد ركّز عليها القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فقد أشار القرآن الكريم إلى الحالة النفاقيّة في موارد كثيرةٍ، منها إشارته الواضحة إلى الحالة النفاقيّة التي كان عليها بعض أهل المدينة.

إنّ مكمن الخطورة في كون المنافق يعيش في وسط الأمّة ويتظاهر بما هم عليه من الإيمان ولكنّه يستبطن كفراً؛ قال تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (المنافقون: ٢)، ومَن كان كذلك فإنّه يتحيّن الفرص لأداء دوره الحقيقي في القضاء على كلّ حالةٍ صحّيةٍ، وأخطر أدواره التي

[انظر: صحيح البخاري: ج٤ ص٢١٠؛ صحيح مسلم، ط. دار الفكر: ج٧ ص١٤١؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٦٠ ح٣٩٦١؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٧٨].

(١) المُفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، تأليف: أبي العبّاس القرطبي: ج٦ ص٣٠٤؛ فيض القدير، المناوي: ج٣ ص٢٠.

يُمكن أن يمارسه هو دور الخذلان والتخذيل، ودور الجاسوسيّة والتنكيل، كما هو حالهم في معركة الأحزاب، يوم سعى المنافقون لخلخلة الجبهة الداخليّة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾ (الأحزاب: ١٣)، ولذلك استحقّ المنافقون العذاب مرّتين وإن كانوا من أهل المدينة؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)، ولعلّ أشد ما عاناه الرسول صلّى الله عليه وآله في تبليغ رسالته هو ممّا لحقه من المنافقين، وقد كان الكثير منهم يحرصون على ترقّب الأخبار، فتجدهم يصطفّون في الصفوف الأُولى في الصلاة، وتجدهم آخر الملتحقين في صفوف القتال؛ ليوجدوا مناخاً من التشكيك.

وقد انقسم المنافقون إلى فئاتٍ، فئةٌ قد فضحت أنفسها بحماقاتٍ منها، وفئةٌ قد فضحها القرآن في موارد عدّة، وفئةٌ فضحها رسول الله صلّى الله عليه وآله، وفئةٌ لم تُفضّ بكارتها، وإن كانت لها إرهاصاتٌ يلتقطها اللبيب، وهي الفئة التي تشبه النار الكامنة تحت الرماد، وقد تجلّت مواقفها في مواطن متعدّدةٍ، لتواجه جميع الإجراءات والتدابير النبويّة في حفظ الخلافة والإمامة.

لقد كان الرسول صلّى الله عليه وآله يعلم جيّداً: أنّ الطلقاء ما أسلموا إلّا خوفاً ونفاقاً، فكانوا عدوّاً شبه ظاهر، وكانوا منبوذين في الوسط الإسلامي، ولذلك كانوا لا يمثّلون خطراً قريباً، وإن كانوا هم الأخطر من جميع الأعداء، ولكن هناك من يقف خلفه، وينطوي على سرٍّ عظيمٍ، وهنا مكمن الخطر، قد تجده زاهداً أو عابداً أو ناصحاً أو شفيقاً على الإسلام، ولكنّه ينتظر دوره للتمهيد التاريخي لعودة الجاهليّة الجهلاء، ولأجل خفائهم وعدم إمكان التصديق بنفاقهم لو أُميط اللثام عنهم، وانجلت الغبرة عن خبث سريرتهم، لأجل ذلك فقد سلك النبيّ صلّى الله عليه وآله عدّة طرقٍ لكشف حقيقتهم

للأُمّة ولو بعد حين، ولعلّ من أهمّ إجراءاته في الكشف عنهم كانت فيما يلي:

الطريق الأوّل: تسمية المنافقين لبعض خواصّه

قد عرَّف النبيّ صلّى الله عليه وآله بعض الخواصّ من أصحابه بأسماء المنافقين الذين خفيت حقيقتهم على الأمّة، وكان أشهر من عُرف بذلك هو حذيفة بن اليمان المسمّى بصاحب سرّ النبيّ[١]، فقد كان النبيّ صلّى الله عليه وآله قد أسرَّ له أسماء المنافقين، وما سيقع من فتنٍ هي كائنةٌ في الأمّة[٢].

وقد سئل الإمام عليّ عليه السلام عن حذيفة فقال: «**عُلِّمَ أسماءَ المنافقين، وسأل عن المعضلات حين غُفِل عنها، تجدوه بها عالماً**»[٣].

وقد كان حذيفة يُعطي دلالاتٍ على نفاق الشخص عند موته، فلم يكن يصلّي عليه، وإذا دُعي للصلاة عليه امتنع؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (التوبة: ٨٤)، وقد كان ذلك الأمر يُسبّب له حرجاً كبيراً، لاسيّما إذا مات صحابيٌّ كبيرٌ قد خفي نفاقه على الأمّة وعلمه حذيفة[٤].

---

(١) المشهور عند الفريقين: أنَّ حذيفة بن اليمان هو صاحب سرّ النبيّ صلّى الله عليه وآله، والمراد بالسرّ: ما أعلمه من أحوال المنافقين. [انظر: صحيح البخاري: ج٥ ص٩٩ ح٢٣١؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٣٩؛ سبل السلام (شرح بلوغ المرام) محمّد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ): ج١ ص٢٩؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص٣٦١؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٥ ص٦٠٨ ح٨٣٦٠؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٧ ق٢ ص٦٣٨ ح٣٢١٠].

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص٣٦٤.

(٣) المعجم الكبير، للطبراني: ج٦ ص٢١٤.

(٤) حتّى روي أنّ عمر كان إذا مات ميّتٌ يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلّى عليه، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضره. [انظر: الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج١

وقد ورد في بعض الأخبار أنّ عمّار بن ياسر كان يعلم بأسماء بعض المنافقين وكذلك السيّدة أمّ سلمة كانت تعلم بعضهم، وكان بعض الصحابة يسألون عمّاراً ويسألون أمّ سلمة كما يسألون حذيفة عن ذلك، وقد ورد أنّ عمر بن الخطّاب قد سأل أمّ سلمة وحذيفة عن ذلك(1).

الطريق الثاني: جعل بغض عليّ عليه السلام علامةً للنفاق

اتّفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدّثين، على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد قال في حقّ أمير المؤمنين عليّ: «**لا يبغضك إلّا منافق، ولا يحبّك إلّا مؤمن**»(2)، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام نفسه أنّه قال في ذلك: «**عَهِدَ إليَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»(3)، قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(4).

وقد كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يُقسم على ذلك، كما جاء في رواية النسّائي في الخصائص عن زرّ بن حبيش، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «**والله الذي خلق الحبة وبرأ النسمة، إنّه لعهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أنّه لا**

ص٢٧٨؛ أُسد الغابة، لابن الأثير: ج١ ص٤٦٨؛ السيرة الحلبيّة: ج٣ ص١٤٣].

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٦ ص٢٩٨؛ ج٦ ص٣١٧؛ فتح الباري، ابن حجر: ج٨ ص٤٨٧، باب: كتابة العلم؛ تفسير القرطبي: ج١ ص٢٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٨٣.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل (الطبعة الحديثة): ج٢، ص٧١، ح٦٤٢؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠٦ ح٣٨١٩، باب: ٩٤؛ صحيح مسلم: ح١٤٤؛ صحيح ابن حبان: ج١٥ ص٣٦٧ ح٦٩٢٤، إسناده صحيحٌ؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٤ ص٢٩٨ ح١٧٢٠؛ السنن الكبرى، للنسائي: ج٥ ص١٣٧ ح٨٤٨٧؛ الإصابة، ابن حجر، دار الكتب العلميّة: ج٤ ص٤٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٣٩١.

(٤) انظر: سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠٦ ح٣٨١٩.

يحبّني إلّا مؤمن، ولا يبغضني إلّا منافق»[١].

حتّى أنّ جملةً من الصحابة كان يتّخذ هذه الصفة دليلاً على تشخيص المنافقين، فهذا الصحابي أبو سعيد الخدري[٢] كان يقول: «ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا ببغضهم لعليّ بن أبي طالب»[٣]، وكذلك الصحابي عبد الله بن مسعود كان يقول: «كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ببغضهم لعليّ بن أبي طالب»[٤].

وهكذا الحال مع الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري، حيث يقول: «ما كنّا نعرف المنافقين إلّا ببغضهم عليّاً»[٥].

وقد روي ذلك أيضاً عن عبد الله بن عمر[٦]، وعن أبي الدرداء[٧]، وعن أبي

---

(١) خصائص أمير المؤمنين، النسائي (٣٠٣هـ)، مكتبة نينوى الحديثة، طهران: ص١٠٤.

(٢) الصحابيّ الفقيه والمُحدِّث سعد بن مالك المدني الأنصاري الخزرجي، يُكنى بأبي سعيد الخُدري، والخُدري ـ بضم الخاء وسكون الدال ـ منسوب إلى خُدرة من بطون الأنصار، حضر مع أبيه في أُحد التي استشهد فيها أبوه، وعمره (١٣) سنة، فعزّاه رسول الله بقوله: «**آجرك الله في أبيك**»، توفّي سنة (٧٤) هجريّة ودُفن بالبقيع، وهو ابن أربعٍ وتسعين، كان من أصحاب بيعة الشجرة، عاش ومات على الاستقامة، شهد مع الإمام عليّ عليه السلام الجمل وصفّين والنهروان، وهو ممّن يروي حديث المارقة الخوارج، وقد وصف المخدج ذي الثدية منهم، وقتله يوم النهروان على صفته التي أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام. [انظر: اختيار معرفة الرجال، للطوسي: ج١ ص٢٠٠].

(٣) سنن الترمذي: ص٢٩٩.

(٤) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الخطيب البغدادي: ج٣ ص١٥٣.

(٥) الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٢ ص٤٦٤؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٢٣؛ تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي: ج٢ ص٦٧٢.

(٦) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٢٩٦.

(٧) انظر: تذكرة الخواصّ، للسبط ابن الجوزي الحنفي: ص١٧.

ذرّ الغفاري[(١)]، وغيرهم كعبد الله بن عباس والزبير بن العوّام وزيد بن أرقم.

الطريق الثالث: بيان صفة المنافقين

وهذه هي الطريقة القرآنيّة، حيث ركَّزت على إبراز الصفات التي تشكّل مفهوم المنافق، وقد سلك النبيّ صلّى الله عليه وآله هذه الطريقة في بيان صفات المنافق مع زيادة تفصيل، وإذا ما تأمّلنا في كلماته صلّى لله عليه وآله حول المنافقين نجدها منطبقةً على ثلّةٍ من الصحابة، وكأنّه كان يستلّ الصفة منهم ثمّ يُطلقها، وهذا ما يحتاج إلى متابعةٍ دقيقةٍ لكلماته وتأمّلٍ عميقٍ فيها.

ولنا بعد هذا أن نتأمّل في جميع مَن ساهموا في سلب حقّ الإمام عليه السلام في الخلافة، وفي جميع مَن حاربه، وفي جميع مَن جرّدوه من مناقبه وامتيازاته، فهل أبعدوه وحاربوه وشكّكوا فيه حبّاً به أم لشيءٍ آخر تفرضه طبيعة أفعالهم، فمنهم مَن يهدّد بحرق داره إن لم يُبايع، ومنهم مَن يقول له إنّ مروان بن الحكم خيرٌ منك، ومروان قد لعنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو في صلب أبيه، وأمّا مَن أعلن شتمه ولعنه سُنّةً على المنابر فمعلومٌ أمره[(٢)]، فهل هذا كلّه حبٌّ به؟!

أداء الأمانة وصيانة الهدف

إنّ الهدف الأقصى من الصيرورة إلى اتّخاذ إجراءات الحفظ للنبوّة والخلافة هو أداء الأمانة وصيانة الهدف، وهذا ما يجب علينا التأسّي به، وأداء الأمانة واجبٌ شرعيّ لا خلاف فيه؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّه يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ (النساء: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿**فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا**

---

(١) انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٩. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه! [المصدر السابق] .

(٢) انظر: معالم الإسلام الأموي، محاضرات آية الله السيّد كمال الحيدري، بقلم: علي المدن: ص١٦١ فما بعد، تحت عنوان «سبّ علي عليه السلام وبغضه»، وما قبل ذلك أيضاً.

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، وحفظ الأمانة من صفات المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ (المؤمنون: ١ـ٨)، فمن لم يفعل فقد خان أمانته، وقد نهى الله تعالى عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنفال: ٢٧)، وفي حفظ الأمانة صيانة الهدف السامي، وفي الخيانة ضياعٌ للهدف، وبعبارة أُخرى: إنّ في حفظ الأمانة حفظاً لسبيل الهداية، وفي خيانتها فتحاً لأبواب الضلالة، فيكون حافظ الأمانة شريكاً في هداية كلّ مهتدٍ، ويكون خائن الأمانة شريكاً في ضلالة كلّ ضالّ.

وما نريد من الأمانة والحفظ هو حفظ الوصايا الإلهيّة، فلا نكون كبني إسرائيل الذين نقضوا العهود والمواثيق، فلعنهم الله وأحلَّ بهم غضبه، ولا ريب أنّ الوصايا الإلهيّة هي ميثاقٌ غليظٌ لا يمكن التنصّل عنه، فمن فعل فهو مفسدٌ في الأرض، وهو من الخاسرين؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (البقرة: ٢٧)، بل وعليه اللعنة وله سوء الدار؛ قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (الرعد: ٢٥).

وقد حافظ النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ بحفظ جميع مواثيقه ـ على تأدية الوصايا الإلهيّة المتمثّلة بالوظيفة النبويّة والوظيفة التبليغيّة لتهيئة الخليفة من بعده والتعريف بإمام الأمّة الذي يلي الأمر من بعده؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً**﴾ (الأحزاب: ٧)؛ وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ**

الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

وقد أخذ الله تعالى على الأمّة الوفاء بما أخذه الرسول صلّى الله عليه وآله عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الحديد: ٨).

ولعلّ من أروع صور حفظ الأمانة وصيانة الهدف وأدقّها في أفعال النبيّ صلّى الله عليه وآله: ما قام به من إجراءاتٍ حكيمةٍ مكَّنت الأُمّة من عبور خطر تحريف الإسلام أو انزياحه بشكلٍ كاملٍ، حيت تمكّنت إجراءاته ـ والتي سيأتي تفصيلها ـ من حفظ خطّه السويّ في الأمّة ممثّلاً بفئةٍ قليلةٍ سرعان ما تمكّنت من تكثيف طاقاتها ونشر معالمها بعدما خاضت صراعاً مريراً مع الأمويّة بكلّ أشكالها، وقدّمت التضحيات الجسيمة في حفظ الوصايا النبويّة، ابتداءً من العترة الطاهرة وبعض الصحابة وبعض التابعين، وهم يواجهون العتوّ الأموي الذي ما انفكّ عن شعارهم الاستئصالي: «لا والله إلّا دفناً دفناً»[1]، والغطرسة المروانيّة

(١) هذا الشعار رفعه معاوية بن أبي سفيان، فما ادّخر جهداً في القضاء على تراث النبيّ وآله صلوات الله عليهم. انظر: الموفّقيات، ابن بكّار الزبيري (ت: ٢٥٦هـ): ص٥٧٧؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٥ ص١٢٩؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٤٥٤؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج٢ ص٤٦؛ كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي (ت: ٧٢٦هـ): ص٤٧٤؛ النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، محمّد بن عقيل العلوي (ت: ١٣٥٠هـ): ص١٢٤.

جديرٌ بالذكر: أنَّ هذا الشعار الذي أطلقه معاوية، ورواه المغيرة بن شعبة، حتّى لو افترضنا جدلاً بأنَّ معاوية لم يقله فإنَّ أعمال معاوية ـ خصوصاً وأعمال بني أميّة عموماً في طمس معالم الإسلام، وطمر سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ غير خافيةٍ على كلّ مطّلعٍ منصفٍ، فالإسلام الأموي هو التعبير الدقيق عن العودة العمليّة لزمن الجاهليّة وثقافتها وقيمها الدانية، القائمة على أُسس الغزو والثأر وانتهاك حرمات الإنسان، وأمّا ما فعله بنو أُميّة في أهل البيت عليهم السلام، فهو أعظم وثيقةٍ على قيام إستراتيجيّة بني أُميّة على

التي طالما استعبدت الناس، ولم تُبقِ حرمةً إلّا وانتهكتها.

نعم، حُفظت الأمانة وصين الهدف بدماء الشهداء الخالدين، ابتداءً من السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، فهي الشهيدة الأُولى في طريق حفظ الأمانة وصيانة الهدف، وشهيد المحراب الأوّل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ومروراً بملحمة الشهادة التي ما شهد لها التاريخ مثلاً ولا شبيهاً، وهي ملحمة كربلاء، حيث قُتل الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وإخوته وأصحابه، وسُبيت نساؤه، وسيقت من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى الشام، يتصفّح وجوههنّ الناس.

ولك أن تسأل: هل للقائمين بهذه الأعمال، من قتلٍ وتمثيلٍ وسبيٍ، نصيبٌ من الإسلام؟ بل هل لهم نصيبٌ من الإنسانيّة، فضلاً عن الإسلام؟[1]

طمر معالم الإسلام ومدرسة أهل البيت، وقد نجحوا في تربية أجيالٍ عاشت لقرونٍ طويلةٍ، وإلى يومنا هذا، تؤمن بالإسلام الأموي، معتبرةً إيّاه بأنّه هو الإسلام الحقيقي، وما عداه فهو لا يخرج عن كونه بدعةً وضلالاً!

(١) لنقرأ ما قاله العلّامة الآلوسي في أفعال يزيد وبني أميّة، قال: «أقول: الذي يغلب على ظنّي: أنَّ الخبيث ـ يقصد يزيد ـ لم يكن مصدّقاً برسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأنَّ مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيّه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيّبين الطاهرين في الحياة وبعد المات، وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالةً على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قذر؛ ولا أظنّ أنَّ أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين إذ ذاك ولكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلّا الصبر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولو سُلِّم أنّ الخبيث كان مسلماً فهو مسلمٌ جَمَعَ من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصوّر أن يكون له مثلٌ من الفاسقين، والظاهر: أنّه لم يتب، واحتمال توبته أضعف من إيمانه، ويلحق به ابن زيادٍ وابن سعدٍ وجماعة، فلعنة الله عزّ وجلّ عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومَن مال إليهم إلى يوم الدين، ما دمعت عينٌ على أبي عبد الله الحسين. ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجليّ عبد الباقي أفندي العمري الموصلي، وقد

ونحن بعد تلك التضحيات الجسام لا يسعنا أن نخلد للراحة والدعة، وإنّما لابدّ من السير قدماً باتّجاه حفظ تلك الأمانة وصيانة ذلك الهدف، فعندئذٍ نكون مسلمين، وعندئذٍ نكون مؤمنين، وعندئذٍ نكون أهلاً بإنسانيّتنا، وأهلاً لصناعة المستقبل، فلا نسمح لأمويّةٍ جديدةٍ تتحكّم في عقول الأمّة ووجدانها، وتمسك بحاضرها ومستقبلها، ولا نسمح بمروانيّةٍ جديدةٍ، أو قل: لا نسمح بالإسلام الأموي أن يقود الأمّة نحو الضلال والمجهول.

سئل عن لعن يزيد اللعين:

يزيـد على لعني عريضٌ جنابه   فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضلّيل فليقل: لعن الله عزّ وجلّ مَن رضي بقتل الحسين ومَن آذى عترة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بغير حقّ ومَن غصبهم حقّهم، فإنّه يكون لاعناً له؛ لدخوله تحت العموم دخولاً أوّليّاً في نفس الأمر، ولا يخالف أحدٌ في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارّ ذكره وموافقيه، فإنّهم على ظاهر ما نُقل عنهم لا يجوزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله تعالى عنه، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد». [روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي: ج٢٦ ص٣١٨، سورة محمّد صلّى الله عليه وآله، ذيل الآية: ٢٣].

الفصل الثاني

التدابير النبويّة في مواجهة أدعياء النبوّة

- أهمّية تدابير حفظ النبوّة
- تنوّع تدابير حفظ النبوّة

التدبير الأوّل: حفظ الرسالة من أدعياء النبوّة

التدبير الثاني: حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة المفهوم

التدبير الثالث: حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة المصداق

التدبير الرابع: حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة التهديد

- حفظ الرسالة من الافتراء حفظ للقرآن من التحريف

أهمّية تدابير حفظ النبوّة

ممَّا تقدّم اتّضحت جوانب عديدةٌ يتبيَّن من خلالها عظمة الإجراءات والتدابير النبويّة وأهمّيتها، ولو لا هذه التدابير لما حُفظت الأمانة ولما صين الهدف، وأمّا ما نريد إضافته لذلك وبيانه في المقام فثلاثة أمور، وهي:

الأمر الأوّل: إنّ الإجراءات النبويّة بحسب المتابعة والاستقراء والتحقيق، قد انطلقت منذ أوّل الدعوة المحمّديّة للإسلام، واستمرّت إلى آخر يوم في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله، ممَّا يعني أنّها لم تكن أمراً طارئاً فرضه الوضع الصحّي في أُخريات حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهذا يدلّ على وعيه الرسالي العظيم لمسيرة الإنسان من جهة، ولتأدية وظيفته ومهامّه على أكمل وجه.

الأمر الثاني: وممّا تقدّم نستفيد نوعاً من عدم الملاءمة بين كثافة تلك التدابير وطول مساحتها الزمنيّة وبين نكوص الأمّة وانقلابها، وصار الحقّ كنجمةٍ غائرةٍ في ظلامٍ دامسٍ، وهذا ما يُملي علينا درساً عظيماً في المضيّ على الحقّ وإن كانت النتائج محدودةً في آنها؛ فالكثرة لم تكن مقياساً للحقّ، كما أنّ القلّة ليست مقياساً للباطل، ولو طالعنا سيرة الأنبياء سنجدهم ـ في الغالب ـ يُغادرون الحياة وهم لم يُوفّقوا إلّا لهداية القليل، أو أنّهم يعيشون سنواتٍ طويلةً لا يتأثّر بهم إلّا القليل القليل، وهذا شيخ الأنبياء نوحٌ عليه السلام أمضى قرابة ألف عامٍ في تبليغ الحقّ لقومه حتّى بلغ الجيل العاشر من ساعة انطلاق دعوته، ولم يؤمن به أكثر من ثمانين إنساناً، ولو لاحظنا عصورنا هذه فإنّ مساحةً واسعةً لا تقرّ بكلمة التوحيد رغم وصول صوت الحقّ لهم أو لأغلبهم في عالمٍ صار أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة.

إذن فالدرس الأساسي المستفاد من عدم الملاءمة أعلاه، هو ضرورة الصمود في إعلاء كلمة الحقّ، وعدم التأثّر بالزيادة والنقصان في العدّة والعدد، سواءٌ في ساحة الأنصار أو في ساحة الأعداء. ولنعم القول ما قاله أمير المؤمنين عليّ عليه

السلام: «**أيّها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله**»[1]، ولا يفتّ في عضدك تخاذل قومٍ عن نصرتك، ولا يُعيق حركتك سكون آخرين، «فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى»[2].

الأمر الثالث: إنّ التركيز على بيان الإجراءات النبويّة لحفظ النبوّة من الأدعياء، وحفظ الخلافة الإلهيّة من الدخلاء، يمنح المتأخّرين ممَّن كانوا ضحيّة التعتيم الإعلامي الخطير فرصةً جديدةً ومنصفةً لهم في العود للحقّ ومجانبة الباطل، ونحن لا نسعى لمجرّد أداء التكليف في ذلك ـ وإن كان ذلك كافياً على المستوى الشخصي ـ وإنّما نريد تضافر الجهود وتراصّ الصفوف لمواجهة العبء التاريخي والركام السوداوي الذي خلّفته السياسات السابقة، والتي مزّقت الصفوف وقطّعت الأوصال، فذلك هدفٌ سامٍ يصبو إليه كلّ ذي عقلٍ سليم.

لابدّ أن نتخلّص من الاجترارات التاريخيّة من الفريقين معاً، ولابدّ من التخلّص من التعصّب للقراءات الشخصيّة الموروثة، التي شكّلت وجداناً وعقائد وأحكاماً وأخلاقاً وسلوكاً أجنبيّاً عن حاضرة الإسلام. فإذا ما أمسكنا بحاضرة الإسلام وحضارته، وهو القرآن الكريم، وانعتقنا من ذلك الزيف التاريخي العظيم المساحة، العميق الغور، والطويل المسافة، فإنّنا سوف نُبصر نور القرآن الحقيقي الذي يهدي للتي هي أقوم، ولذلك فنحن لا نجد طريقاً آخر، ولا بدائل عن ذلك، رغم إدراكنا العميق بأنّنا نشقّ طريقاً صعباً ووعراً، تحيط به

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص١٨١، رقم: ٢٠١.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٦١، رقم: ١٦١.

قال الشيخ محمّد عبده: «مثلٌ معناه: إذا أصبح النائمون وقد رأوا السارين واصلين إلى مقاصدهم، حمدوا سراهم وندموا على نوم أنفسهم، أو إذا أصبح السارون وقد وصلوا إلى ما ساروا إليه حمدوا سراهم ـ وإن كان شاقّاً ـ حيث أبلغهم إلى ما قصدوا، والسُّرَى (بضمٍّ ففتح): السير ليلاً». [المصدر السابق].

ظلماتٌ تاريخيّةٌ فرضتها حكوماتٌ سلطويّةٌ قاتلةٌ، وجعلتها ثقافاتٍ تقتات منها الرعيّة، فما عادت ترى الرعيّة إلّا ما تراه تلك الحكومات الظالمة، سواءٌ في متبنّياتها التي تلتزم بها أو في رؤيتها للآخر.

إنّ الحقيقة التي لابدّ أن نعيها بعمقٍ، هي: أنّ الانقلابات المتتالية على الإجراءات النبويّة، سواءٌ ما تعلّق منها بأصل النبوّة أو ما تعلّق منها بفرعها المتمثّل بالخلافة الإلهيّة، هي انقلاباتٌ على النبوّة نفسها، لأنّها تتضمّن تكذيباً للنبوّة وإقصاءً لها. ولو ملكوا طريقاً لمحوها ومحو اسم صاحبها، لما تأخّروا عن ذلك؛ فكان الطريق الأمثل أمامهم هو إفراغ النبوّة من محتواها، وإبداله بمحتوىً جديدٍ تفرضه السلطات الحاكمة. وهكذا صار الفقيه عندهم يفتي طبقاً لسياسات السلطة، ويُفسّق ويُكفّر وفق أهواء السلطة أيضاً. وهذه المتابعة أمرٌ طبيعيّ جدّاً، بل لا يُتوقّع غيره؛ لأنّ معالم النبوّة الواصلة إليهم مجرّد هيكلٍ فارغٍ من محتواه الحقيقي، وما يتضمّنه لا يخرج عن كونه إسقاطاتٍ عاشتها الحكومات السالفة مصاغةً بأدوات متكلّمين ومتفقّهةٍ ظنّها عامّة الناس سنّةً إلهيّةً نبويّةً، وهذا ما يجعلنا نؤكّد أهمّية بيان التدابير النبويّة في حفظ النبوّة والخلافة، لأنّها طريقٌ أمثل للخروج من التدجين التاريخي العقيم.

تنوّع تدابير حفظ النبوّة

لم تتّخذ التدابير النبويّة لحفظ النبوّة شكلاً واحداً، ولم تسلك طريقاً واحداً، وإنّما اتّخذت أشكالاً مختلفةً وطرقاً عديدةً؛ نظراً لاختلاف المشارب والأفهام والاستجابة لدى الناس، فهنالك من تحكمه العاطفة الصمّاء، وهم كثرة، وهنالك من يحكمه العقل المحض، وهم قلّة، وهنالك من يحكمه العقل والعاطفة بنحوٍ متّزنٍ، وهم صلحاء الأُمّة.

ولذلك يصبح للتنوّع الإجرائي واقعيّةٌ وموضوعيّةٌ تفرضها طبيعة التنوّع في

استعدادات المخاطبين، ومراعاته أمرٌ تقتضيه الحكمة، وإذا ما لاحظنا وحدة الهدف الجامعة للتنوّع الإجرائي نكتشف حكمة المجري لها ووعيه العالي، ومنه يتّضح قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[١]؛ لأنّ الهدف هو الهداية وليس التعريف بمديات العقل النبويّ، ولذلك ورد أيضاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**ما كلّم رسول الله صلّى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قطّ**»[٢].

بمعنى: أنّ الحديث مع الناس إنّما يكون على قدر ما تدركه عقولهم من المعارف والحقائق؛ مراعاةً لما يناسبها، ومجاراةً لما يبلغ إليه فهمها وينتهى إليه دركها، ولذلك قد تجده ـ صلّى الله عليه وآله ـ يُلبس المطالب الصعبة بكسوة الأمثال لعلهم يفهمون[٣]، وفقاً للقاعدة القرآنيّة: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الحشر: ٢١).

التدبير الأوّل: حفظ الرسالة من أدعياء النبوّة

لا ريب أنّ ادّعاءات النبوّة قد انطلقت في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله، كما هو الحال في ظهور مسيلمة الكذّاب في اليمامة، وظهور ذي الخمار الأسود العنسي

---

(١) الأُصول من الكافي، للكليني: ج١ ص٥١ ح١٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني: ج١ ص٢٩.

قال الميرزا أبو الحسن الشعراني: «يدرك أرباب العقول الكاملة ـ فضلاً عن الأنبياء ـ أموراً لا يمكن تعليمها لعامّة الناس بوجهٍ أصلاً؛ لعدم استعدادهم لفهمها، فيجب عليهم تخصيص تعليمها بمن يجدون فيه استعداداً تامّاً، ويدركون أيضاً أموراً يمكن تعليمه للناس في صورة مثلٍ وتعبيرٍ قريبٍ إلى أذهانهم، وأعظم الآفات للعامّة تمكّن العادات ومغالطة الأوهام وعدم تدرّبهم في فكّ العقل عن الوهم، ولكلّ شيءٍ في ذهنهم لوازم غير مترتّبةٍ عليه واقعاً، ولا يُتوقّع منهم ما يعسر على المتدرّبين في العقليّات». [المصدر نفسه].

«عيهلة بن كعب»[(١)] في صنعاء، وظهور طليحة بن خويلد[(٢)]، الذي تعاظم أمره بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، واشتدّ خطره بعد أن اجتمعت معه بعض قبائل العرب، منها غطفان وأسد وطيّ وكنانة، إلّا أنّ هذه الادّعاءات لم تلقَ أصداءً كبيرةً أو قبولاً طيّباً، لأسبابٍ كثيرةٍ، كان أهمّها وجود النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقد تكاثرت هذه الادّعاءات بعد وفاته صلّى الله عليه وآله مباشرةً، كما هو الحال في ظهور سجاح بنت الحرث التميميّة[(٣)] التي التحقت بمسيلمة وتزوَّجت به.

---

(١) عيهلة (عبهلة) بن كعب بن عوف العنسي، كان أسود الوجه فسمّي الأسود للونه، متنبّئٌ مشعوذٌ، من أهل اليمن، أسلم لمّا أسلمت اليمن، وارتدّ في أيّام النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكان أوّل مرتدٍّ في الإسلام، وادّعى النبوّة، وأرى قومه من شعوذته ما استهواهم بها، فاتّبعته مذحج، وتغلّب على نجران وصنعاء، وأحدث فتنةً عظيمةً. قُتل قبل وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله بعدّة أيّام، وكان ظهوره في سنة: ١٠هـ، فكانت مدّة أمره من أوّله إلى مقتله سنة (١١هـ) ثلاثة أشهر فقط. [انظر: الأعلام، للزركلي: ج٥ ص١١١؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص٣٣٦].

وقد اخترع له الراوي الكذّاب سيف بن عمر عدّة أساطير ليرفع بها شأنه وليشوِّش بها على المسلمين. [انظر: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، مرتضى العسكري: ج٢ ص١٣٦].

(٢) طليحة بن خويلد الكذّاب، قدم هو وقبيلته سنة تسعٍ من الهجرة المدينة فأسلموا، ولمّا رجعوا ارتدّ طليحة وادّعى النبوّة، فوجَّه النبيّ صلّى الله عليه وآله إليه ضرار بن الأزور فضربه ضرارٌ بالسيف يريد قتله، فنبا السيف فشاع بين الناس أنَّ السلاح لا يؤثّر فيه. ولمّا توفّي النبيّ صلّى الله عليه وآله كثُر أتباعه، وكان فصيحاً يتلو على الناس أسجاعاً، وسنَّ لهم أحكاماً، وقد بلغت به الجرأة أن هاجم المدينة في عهد الخليفة أبي بكر، فقاتله خالد، وانهزم بعدها إلى الشام، ومات في عهد الخليفة عمر. [انظر: الأعلام، الزركلي: ج٣ ص٢٣٠؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٢ ص٧٧٣، رقم: ١٢٩١؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٢ ص٤٧٧، رقم: ٢٦٣٩].

(٣) سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميميّة، متنبّئةٌ مشهورةٌ، كانت شاعرةً عارفةً بالأخبار، نبغت في عهد الردة (أيّام أبي بكر) وادّعت النبوّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وكانت في بني تغلب بالجزيرة، ولها علمٌ بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب، فتبعها

وقد كان من أهمّ التدابير لمواجهة هؤلاء الأدعياء السابقين واللاحقين: ترسيخ خاتميّة النبوّة في الفكر والوجدان، فصار كلّ مُدّعٍ للنبوّة ـ في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله أو بعدها ـ يُواجَه بتلك الحقيقة العقائديّة التي قام عليها إجماع الأُمّة ولا يختلف عليها اثنان، وقد كان ذلك في قوله صلّى الله عليه وآله لمّا جاءه نفرٌ من اليهود «فقالوا: يا محمّد! أنت الذي تزعم أنّك رسول الله، وأنّك الذي يوحى إليك كما أوحي إلى موسى بن عمران عليه السلام؟ فسكت النبيّ صلّى الله عليه وآله ساعة، ثمّ قال: **نعم، أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيّين، وإمام المتّقين، ورسول ربّ العالمين**»[(١)].

عن ثوبان عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**وإنّما أخاف على أمّتي الأئمّة المضلّين، وإذا وضع في أمّتي السيف لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتّى يلحق قبائل من أمّتي بالمشركين، حتّى تعبد قبائل من أمّتي الأوثان، وإنّه سيكون في أمّتي كذّابون ثلاثون كلّهم يزعم أنّه نبيّ، وأنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أمّتي على الحقّ ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم حتّى يأتي أمر الله عزّ وجلّ**»[(٢)].

جمعٌ من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم، كالزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، وشبث بن ربعي الرياحي، وعمرو بن الأهتم، فأقبلت بهم من الجزيرة تريد غزو أبي بكر، فنزلت باليمامة، فبلغ خبرها مسيلمة الكذاب فتزوّج بها، فأقامت معه قليلاً، وأدركت صعوبة الإقدام على قتال المسلمين، فانصرفت راجعةً إلى أخوالها بالجزيرة. ثمّ بلغها مقتل مسيلمة، فهاجرت إلى البصرة وتوفّيت فيها، وصلّى عليها سمرة بن جندب والي البصرة لمعاوية. [انظر: أعلام الزركلي: ج٣ ص٧٨].

(١) أمالي الصدوق: ص٢٥٤ ح٢٧٩.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٧ ص٧٩ ح٢٢٣٩٥، إسناده صحيحٌ على شرط مسلم؛ سنن أبي داود، طبعة دار الفكر: ج٢ ص٣٠٢ ح٤٢٥٢؛ سنن الترمذي: ج٣ ص٣٣٨ ح٢٣١٦؛ وقريبٌ منه ما رواه ابن بطريق (ت: ٦٠٠هـ) في:

قال الترمذي: هذا حديث صحيح[١].

وروى الطبراني عن حذيفة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**يكون في أمّتي دجّالون كذّابون سبعة قرّة منهم أربعة نسوة، وأنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي**»[٢]، فهنا تأكيدٌ كبير لنفي النبوّات من بعده صلّى الله عليه وآله، وهذا ما تمّ تأكيده أيضاً في حديث المنزلة أيضاً[٣].

وهذه الأحاديث صحيحة؛ لموافقتها لقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ (الأحزاب: ٤٠)، فيكون الإجراء الأوّل نبويّاً مؤيّداً بالقرآن، أُريد به حفظ النبوّة من الأدعياء، وقد كان لهذا الإجراء أثرٌ عظيمٌ في مواجهة ذلك، كما أنّه من الإجراءات الوقائيّة لحفظ الناس من الافتتان ببعض الشخصيّات الكبيرة التي لو كان باب النبوّة مشرعاً لاستحقّوا أن يكونوا كذلك، وهم الأئمّة الاثنا عشر من أهل البيت عليهم السلام وفي طليعتهم الإمام عليّ عليه السلام، وقد جرت على يدي الإمام عليّ عليه السلام من الكرامات ما قد تُوهم البعض بمقام النبوّة

عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: ص٤٣١ ح٩٠٤.

(١) سنن الترمذي: ج٣ ص٣٣٨ ح٢٣١٦.

(٢) المعجم الأوسط، للطبراني: ج٥ ص٣٢٧؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص١٦٩ ح٣٠٢٦؛ صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني: ج١ص٧٨٢، رقم: ٤٢٥٨؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٤ ص٦٥٤ ح١٩٩٩.

(٣) وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام بعد أن خلّفه على المدينة في غزوة تبوك، وقال المنافقون قد قلاه، فحدّث النبيَّ بذلك فأجابه: «**ألا ترضى أن تكون منّي كهارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي**». [صحيح البخاري ح٣٧٠٦، وح٤٤١٦؛ صحيح مسلم: ح٦٦١١ـ٦٦١٢، و٦٦١٤؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٤٥ ص١٤ ح٢٧٠٨١؛ أمالي الطوسي: ص٥٩٨ ح١٦؛ الطبقات الكبرى: ج٣ ص٢٥؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص١٧٨؛ ميزان الاعتدال: ج٤ص٢٣٥، رقم: ٨٩٧١].

له، حتّى أنّ بعض علماء أهل الكتاب عندما كانوا يسألون الإمام عن أُمورٍ معقّدةٍ خفيّةٍ فيُجيبهم الإمام عليه السلام ببيانٍ واضحٍ، أو يرون منه ما يُدهشهم، كانوا يقولون له: بأنّ هذا لا يصدر إلّا من نبيٍّ أو وصيّ نبيّ، فيكون هذا الإجراء دافعاً لتوهّم مثل هذا الاحتمال.

التدبير الثاني: **حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة المفهوم**

لقد واجه النبيّ صلّى الله عليه وآله موجة الكذّابين عليه بقوّة؛ لأنّ الكذب عليه لن يُبقي حجراً على حجر، فكان لابدّ من التصدّي، ولكن بطرقٍ تناسب مقتضيات الرسالة القائمة على أساس هداية الأُمّة، ولذلك يبدأ النبيّ صلّى الله عليه وآله بتنبيه الأمّة إلى ظاهرة الكذب عليه، كما في قوله: «**أيّها الناس قد كثرت عليّ الكذابة، فمَن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[1]، والتعبير بـ«كثرت» فيه دلالةٌ خطيرةٌ على استفحال القضيّة وخطورتها، وحيث إنّ الكذب عليه ليس كذباً عاديّاً، وإنّما كذبٌ يتهدّد الرسالة نفسها، فقد بيَّن صلّى الله عليه وآله حكمه. والذي يبدو من ظاهر الحديث أنّ لهؤلاء موقعاً في الأمّة؛ فالأفراد الذين لا خلاق لهم هم فاقدو التأثير وعاجزون عن إقناع الأمّة، كما يبدو أنّهم على كفاءةٍ عاليةٍ في الكذب والتدليس، بحيث استطاعوا أن يوجدوا لهم مناخاً مخيفاً

---

(١) ورد هذا الحديث «**كثرت عليّ الكذابة**» في مصادر روائيّةٍ وتفسيريّةٍ كثيرةٍ من كتب مدرسة أهل البيت، منها: أصول الكافي: ج١ ص٦٢ ح١، باب: اختلاف الحديث؛ كتاب الغيبة، للنعماني: ص٧٥ ح١٠، وهو حديثٌ مشهورٌ أيضاً، وصفه البعض بأنّه من أوثق الأحاديث. انظر: أضواء على السنّة المحمّديّة، محمود أبو ريه: ص٣٢٠.

وأمّا الشطر الآخر من الحديث، وهو قوله صلّى الله عليه وآله: «**من كذب عليّ متعمّداً...**» فقد بلغ من الشهرة والاستفاضة درجةً كبيرةً جدّاً، بل هو حديثٌ متواترٌ عند الفريقين بالاتّفاق؛ نظراً لكثرة طرقه ورواته، حتّى ألّف بعض الأعلام كتاباً في ذلك. [انظر: طرق حديث «**من كذب عليّ متعمداً**»، للطبراني؛ كتاب الموضوعات لابن الجوزي ج١ ص٥٠].

استدعى التصدّي له ومواجهته، كما يظهر أيضاً أنّ لهؤلاء مخطّطاتٍ وأجنداتٍ بعيدةً وليست مجرّد طموحاتٍ شخصيّةٍ، وأنّ هؤلاء الكذّابين كانوا من الصحابة؛ لأنّه صلّى الله عليه وآله يقول «**كثرت عليّ الكذابة**»، أي: في حياته، ولا يعقل أنّه يُندّد بالمشركين، وإنّما يريد أشخاصاً مِن حوله يتسلّحون بعنوان الصحبة، والناس تُصدّقهم لذلك.

وقد أوضح لنا هذه الحقيقة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عندما سأله سائلٌ عن أحاديث البدع وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فكان ممَّا أجابه: «**وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجالٍ ليس لهم خامس: رجلٌ منافقٌ مظهرٌ للإيمان، متصنّعٌ بالإسلام لا يتأثّم ولا يتحرّج**[١]**، يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله متعمّداً، فلو علم الناس أنّه منافقٌ كاذبٌ لم يقبلوا منه ولم يصدّقوا قوله، ولكنّهم قالوا صاحب رسول الله صلّى الله عليه وآله رأى وسمع منه ولقف عنه، فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثمّ بقوا بعده عليه وآله السلام فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولّوهم الأعمال وجعلوهم حكّاماً على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا**»[٢].

كما يظهر أنّ هذه الظاهرة قابلةٌ للتطوّر والتوسّع وأنّها لن تتطوّق بالتهديد المذكور في الخبر، ولذلك نجد الإمام أمير المؤمنين يؤكّد استمرار هذه الظاهرة البغيضة، حيث يقول عليه السلام في ذيل الحديث المرويّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**ثُمَّ كُذب عليه من بعده**»[٣]، بل إنّه صلّى الله عليه وآله قد أكّد

---

(١) «لا يتأثّم» أي: لا يخاف الإثم، و«لا يتحرّج» أي: لا يخشى الوقوع في الحرج.

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص١٨٨ فما بعد، رقم: ٢١؛ أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٦٢ ح١، باب: اختلاف الحديث؛ تحف العقول، الحسن بن علي بن شعبة الحرَّاني: ص١٩٣؛ المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي المعتزلي (ت: ٢٢٠هـ): ص٣٠١.

(٣) الأصول من الكافي، للكليني: ج١ ص١٥٩ ح١٩٣، باب: اختلاف الحديث؛ الخصال،

استمرار الكذب عليه في حديثٍ خطيرٍ جدّاً؛ لأنّه قد لوَّح فيه إلى حقيقةٍ مرّةٍ، وهي أنّ مِن الصحابة مَن هم من روّاد الكذب عليه، وقد حدّد زمان وقوع الكذب ابتداءً من زمانه فما دون. عن عبد الله بن عباس قال: قام رسول الله صلّى الله عليه وآله فينا خطيباً فقال: «**الحمد لله على آلائه وبلائه... أيّها الناس إنّه سيكون بعدي قومٌ يكذّبون عليّ فلا تقبلوا منهم ذلك، وأمورٌ تأتي من بعدي يزعم أهلها أنّها عنّي، ومعاذ الله أن أقول على الله إلّا حقّاً، فما أمرتكم إلّا بما أمرني به، ولا دعوتكم إلّا إليه، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون...**»[1].

فالنبيّ صلّى الله عليه وآله كان تتناهى إليه أخبارٌ مكذوبةٌ عليه، وكان يكتفي في هذا المستوى بالمعالجة في دائرة المفهوم دون أن يذكر مصداقاً أو واقعةً يكتشف من خلالها السامعون شخصيّة الكذّابة عليه.

التدبير الثالث: حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة المصداق

وهنا يحدّد لنا الرسول صلّى الله عليه وآله مصاديق معلومةً ممّن كانوا يكذبون عليه، وهذا الإفصاح إمّا أن يكون بصورةٍ مباشرةٍ منه؛ من قبيل:

١. **لعنه لمروان وأبيه**؛ جاء عن عبد الرحمن بن عوف: أنّه كان لا يولد لأحدٍ مولودٌ إلّا أتى به النبيّ صلّى الله عليه وآله فدعا له، فأُدخل عليه مروان فقال: «**هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون**»[2]، قال الحاكم النيسابوري: هذا حديثٌ

للشيخ الصدوق: ص٢٥٥ ح١٣١.

(١) تفسير فرات الكوفي: ص٣٠٦؛ بحار الأنوار، للمجلسي: ج١٦ ص٣٧٤ ح٨٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٧٩؛ الروضة من الكافي، للكليني: ج٨ ص٢٣٨ ح٣٢٤؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، للدمشقي الباعوني الشافعي (ت: ٨٧١هـ): ج٢ ص١٩١؛ كتاب الفتن، نعيم بن حماد المروزي: (ت: ٢٢٩هـ): ص٧٣.

صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(١)]، أي: على شرط الشيخين، البخاري ومسلم.

وفي خبرٍ آخر أخرجه الحاكم عن عائشة، قالت: «رسول الله صلّى الله عليه وآله لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فضض من لعنة الله عزّ وجلّ»[(٢)]، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي رواية النسائي وابن كثير أنّهما ذكرا هذا الحديث وأوردا في ذيله: «فمروان فضض من لعنة الله»[(٣)].

٢. لعنه للحكم بن أبي العاص؛ وقد استأذن الحكم مرَّةً على النبيّ صلّى الله عليه وآله فعرف النبيّ صوته وكلامه فقال: «**ائذنوا له، حيّة أو ولد حيّة، عليه لعنة الله وعلى مَن يخرج من صلبه إلّا المؤمن منهم وقليلٌ ما هم، يشرفون في الدنيا ويضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطَون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق**»[(٤)]، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٣. لعنه لأبي سفيان وولديه؛ عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن، في كلّهن لا يستطيع إلّا أن يلعنه[(٥)].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٧٩.
جديرٌ بالذكر: أنَّ هذا اللقب المشين، الذي كُتب على جبين مروان وأبيه، صار علماً لهما، حتّى أنَّ عامّة الناس عندما يمرّ بهم ذكر مروان، كانوا يتصايحون يقولون: الوزغ ابن الوزغ! [انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٥ ص٦٧، ترجمة عبد الله بن حنظلة].

(٢) انظر: المستدرك، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٨١؛ فتح الباري، العسقلاني: ج٨ ص٤٤٣؛ الدرّ المنثور، السيوطي: ج٦ ص٤١؛ فتح القدير، للشوكاني: ج٥ ص٢١].

(٣) السنن الكبرى، النسائي: ج٦ ص٤٥٩؛ تفسير ابن كثير: ج٤ ص١٧٢.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٧٢؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٨١؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٣٥٧ ح٣١٧٢٩؛ بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٥ ص٤٣٧ ح٩٢٤١.

(٥) الخصال، للصدوق ص٣٩٧ ح١٠٥؛ شرح نهج البلاغة، للمعتزلي: ج٦ ص٢٩٠؛

ومرّةً رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله أبا سفيان على جملٍ أحمر، ومعاوية يسوقه، وعتبة أخوه يقوده، فقال: «**اللّٰهُمَّ العن الراكب والقائد والسائق!**»[1].

أو يكون الإفصاح عن أسماء الملعونين بصورةٍ غير مباشرة، وذلك بالاعتماد على صيغة سؤال تُذكر فيه بعض الأسماء، من قبيل: ما أخرجه ابن سعد والطبراني عن المنقع بن الحصين التميمي أنّه قال: «أتيت النبيّ بصدقة إبلنا فأمر بها فقُبضت، فقلت: إنّ فيها ناقتين هديّةً لك، فأمر بعزل الهديّة عن الصدقة، فمكثت أيّاماً وخاض الناس أنّ رسول الله باعثٌ خالد بن الوليد إلى رقيق مضر فمصدّقهم ـ أي: ليأخذ منهم الصدقات الواجبة وهي الزكاة ـ فقلت: والله ما عند أهلنا من مال! فأتيت النبيّ صلّى الله عليه وآله فقلت له: إنّ الناس خاضوا في كذا وكذا، فرفع النبيّ يديه حتّى نظرت إلى بياض إبطه وقال: **اللّٰهُمَّ لا أحلّ لهم أن يكذبوا عليّ**»[2].

الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص٤٠٨. وقد ورد لعنه صريحاً على لسان رسول الله عليه وآله مع مجموعةٍ أُخرى من مشركي قريش. [انظر: سنن الترمذي: ج٤ ص٢٩٥ ح٤٠٩٠؛ الدرّ المنثور، السيوطي: ج٢ ص٧١؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١١ ص٤٩٤؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٥ ص٢٩٨؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص٥٦٤؛ تفسير الطبري، تحقيق: صدقي جميل العطّار: ج٤ ص١١٦؛ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار منتقى الأخبار، محمّد بن علي الشوكاني: ج٢ ص٣٩٨].

(١) ورد هذا الحديث بألفاظٍ متشابهةٍ، مع بعض الزيادة أو النقيصة. [انظر: المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص٧٢؛ شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، للقاضي أبي حنيفة النعمان: ج٢ ص١٤٧ ح٤٤٧؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٢٨٩].

وفي خبر آخر: أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله نظر يوماً إلى أبي سفيان مقبلاً، وخلفه ابنه معاوية، فقال: «**اللّٰهُمَّ العن التابع والمتبوع، اللّٰهُمَّ عليك بالإقيعس**، يعني: معاوية». [شرح الأخبار، أبو حنيفة النعمان: ج٢ ص١٤٦ ح٤٤٦].

(٢) طرق حديث «**من كذب عليّ متعمّداً**»: ص١٥٢؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٢٠ ص٣٠٠؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٧ ص٦٣؛ الآحاد والمثاني، لأحمد بن أبي

ولو راجعنا تاريخ خالد بن الوليد نجد فيه ما يُوحي بأنّه كان هو صاحب الترويج لذلك، لِيُوحي للناس بأنّه هو القائد العسكري المُعتمد عند الرسول وأنّه المُقدَّم على مَن سواه، وقد كان حريصاً على نشر سطوته ونفوذه، فقد كان الرجل طموحاً، وقد صدرت منه جرّاء ذلك أمورٌ قد تبرَّأ منها النبيّ صلّى الله عليه وآله، كما في قصّته المشهورة مع بني جذيمة بن عامر(١)، وقد جاء في بعض

عاصم بن الضحّاك (ت: ٢٨٧هـ): ج٥ ص١٠٥، رقم: ٨٨٣؛ التاريخ الكبير، محمّد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ): ج٨ ص٥٣ ح٢١٢٤؛ الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ): ج١ ص١٤.

(١) لما بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر، وقد كان بين خالد والقوم ثأرٌ يعود لزمان الجاهليّة، فاستقبلوه وعليهم السلاح، وقالوا: يا خالد إنّا لم نأخذ السلاح على الله وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر فإن كان بعثك رسول الله صلّى الله عليه وآله ساعياً فهذه إبلنا وغنمنا فاغدُ عليها، فقال: ضعوا السلاح. قالوا: إنا نخاف منك أن تأخذنا بإحنة الجاهليّة، وقد أماتها الله ورسوله. فانصرف عنهم بمَن معه فنزلوا قريباً، ثمّ شنّ عليهم الخيل فقتل وأسر منهم، ثمّ قال: ليقتل كلّ رجل منكم أسيره فقتلوا الأسرى، ثمّ جاء رسولهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع عليه السلام يده إلى السماء وقال: **اللّهُمَّ إنّي أبرأ إليك ممّا فعل خالد**، وبكى، ثمّ دعا عليّاً عليه السلام فقال: **اخرج إليهم وانظر في أمرهم**. وأعطاه سفطاً من ذهب ففعل ما أمره وأرضاهم. وفي روايةٍ أُخرى أنّه قال صلّى الله عليه وآله: «**اللّهُمَّ إني أبرأ إليك ممّا فعل خالد**»، قالها مرّتين. وقد ورد هذا الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ في أكثر من خمسين مصدراً من مصادر الفريقين، في الحديث والتفسير والتاريخ، منها: [مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٠ ص٤٤٤ ح٦٣٨٢؛ صحيح البخاري: ح٤٣٢٩، وح٧١٨٩؛ أيضاً: ج٥ ص١٠٧، كتاب المغازي، باب: بعث النبيّ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة؛ وأيضاً: ج٨ ص١١٨؛ سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي: ج٨ ص٢٣٧؛ السنن الكبرى، للنسائي: ج٣ ص٤٧٤ ح٥٩٦١؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ج٩ ص١١٥؛ المصنّف، للصنعاني: ج٥ ص٢٢١ ح٩٤٣٤؛ ج١٠ ص١٧٤ ح١٨٧٢١؛ صحيح ابن

المدوّنات التاريخيّة أخبارٌ عنه تشير إلى مواقف غير محمودةٍ تجاه أمير المؤمنين علي وأهل بيته عليهم السلام، سواءٌ في حياة الرسول صلّى الله عليه وآله أو بعدها.

وأمّا الأخبار التي وردت عنه صلّى الله عليه وآله بلعن أشخاصٍ دون تسميتهم، فيقول: «**اللّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً...**»، فكثيرة جدّاً[1]، وإنّما أُخفيت أسماؤهم لعظيم خطرهم وكبير مكانتهم، وإلّا لو كانوا من الضعفاء لفضحوهم في الأخبار،

حبّان: ج١١ ص٥٣ ح٤٧٤٩؛ تفسير ابن كثير: ج١ ص٥٤٨؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص١٤٨؛ الثقات، للبستي: ج٢ ص٦٢؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٣٤١؛ تاريخ ابن خلدون: ج٢ ص٣٢١؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص٢٥٥].

ولكي يحفظ البخاري ماء وجه خالد وتبرير فعله الذي برئ منه الرسول صلّى الله عليه وآله، فقد روى أنّه قد دعاهم إلى الإسلام فلم يُحسِنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتل منهم ويأسر. [صحيح البخاري: المصدر السابق].

(١) من قبيل ما جاء في غزوة تبوك، حيث همَّ أربعة عشر منافقاً أن يفتكوا برسول الله في ظلمات الليل عند عقبةٍ هناك، «ولمّا انصرف النبيّ صلّى الله عليه وآله من هذه الغزوة إلى المدينة كان في الطريق ماءٌ يخرج من وشلٍ بوادي المشقق، يكفي للراكب أو للراكبين، فقال رسول الله: **مَن سبقنا إلى ذلك الماء فلا يسقينّ منه شيئاً حتّى نأتيه**. فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين واستقوا ما فيه! فلمّا أتاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وقف عليه فلم ير فيه شيئاً، **فقال**: **من سبقنا إلى هذا الماء؟** فقيل له: يا رسول الله فلان وفلان وفلان، فقال: **أو لم أنههم أن لا يستقوا منه شيئاً حتّى آتيه**. ثمّ لعنهم رسول الله صلّى الله عليه وآله ودعا عليهم، ثمّ نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصبّ...».

[انظر: البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٥ ص٢٣؛ سيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله، ابن هشام: ج٤ ص٩٥٤؛ صحيح البخاري: ح٤٥٥٩ و٤٥٦٠؛ الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص١٠٩، رقم: ٤٧٥٩، ترجمة عبد الله بن شبل الأنصاري؛ السيرة النبويّة، ابن كثير: ج٤ ص٣٢؛ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمّد بن عبد الله بن يحيى بن سيّد الناس: ج٢ ص٢٦٠؛ معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: ج٥ ص١٣٥؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٣٧٣؛ وعدّة مصادر أُخرى].

ولكنّهم ـ بحسب قرينة الإخفاء من قبل الرواة، وقرينة عدم جدوى اللعن منه صلّى الله عليه وآله بدون ذكر أسمائهم، حيث كان صلّى الله عليه وآله يلعنهم لِيُبيِّن للأمّة واقع حالهم، ولو لم يكن مقصوداً منه لما رفع صوته بلعن فلان وفلان وفلان، ولجعل الأمر سرّاً بينه وبين ربّه ـ كانوا من عليَّة القوم، بل هم ممَّن ثـُنيت لهم الوسادة وسيق الناس لطاعتهم بالنطع والقوّة والإرهاب أو ممَّن كانوا قد بالغوا في العداء لرسول الله صلّى الله عليه وآله فحفظ لهم المنافقون والطغاة من الحكّام جميلهم السابق بالعداء، فرفعوا أسماءهم وأبقوا اللعن ليستوي هؤلاء مَع من سواهم باحتمال وقوع اللعن عليهم، وقد غفلوا أنّ دائرة الملعونين على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله تكاد أن تكون محصورةً بين المنافقين عموماً والطلقاء خصوصاً.

حفظ كرامة الملعونين على حساب كرامة النبيّ

لما افتضحوا بهذا اللعن الصريح وضعوا عنه حديثاً جعلوا فيه تلك اللعنات تزكيةً ورحمةً وصلاةً للملعونين(١)! في محاولةٍ لاستغفال العقول أرادوا منها إصابة

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول: **«اللّٰهُمَّ فأيّما مؤمنٍ سببته فاجعل ذلك له قربةً إليك يوم القيامة»**. [صحيح البخاري: ج٧ ص١٥٧، باب: قول النبيّ: من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة]؛ وروى مسلم: عن أبي هريرة أيضاً أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: **«اللّٰهُمَّ إنّي أتّخذ عندك عهداً لن تخلفنيه، فإنّما أنا بشرٌ، فأيُّ المؤمنين آذيته أو شتمته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة»**. [صحيح مسلم: ج٨ ص٢٥]، وهكذا صار الملعونون أوفر حظّاً من غيرهم وأربح تجارة! وبمثل هذه الروايات الرخيصة صار أبو هريرة راوية الإسلام! وهي رواياتٌ غصّ بها الكثير من رواتها فاحتاروا في توجيهها ـ كما هو حال النووي في شرحه على مسلم: ج١٦ ص١٥٢؛ وفي سنن البيهقي: ج٧ ص٦٠ ـ بعدما اكتشفوا أنّها مسيئةٌ لشخصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على تكذيبها إمّا لحفظ كرامة الملعونين أو خشية اتّهامهم بالرفض بحسب منطق الإسلام الأموي. [ينظر تفصيل المسألة في كتاب: السلطة

هدفين، وهما:

الهدف الأوّل: تخلية ساحة الملعونين من تبعات اللعنة؛ فالذي لعنه رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يصلح أن يكون والياً أو قاضياً أو حاكماً أو خليفةً، فرفعوا اللعن وجعلوه تزكيةً ليرتقي هذه المناصب جملةٌ من الملعونين.

الهدف الثاني: التشكيك بعصمة النبيّ صلّى الله عليه وآله فهو عندهم بشرٌ مثلنا يُخطئ ويُصيب، ولا نعلم إذا كانوا للّعن مستحقّين فلِمَ رفعه عنهم، وإن لم يكونوا مستحقّين فلِمَ صدر منه ذلك، وهو أمرٌ قادحٌ بالعدالة فضلاً عن رفع العصمة. وكيف يُتصوّر منه اللعن لأحدٍ غير مستحقٍّ له وهو القائل صلّى الله عليه وآله: «**سباب المسلم فسوق**»[(١)]، والقائل: «**مَن لعن مؤمناً فهو كقتله**»[(٢)]، والقائل: «**من لعن شيئاً ليس له بأهلٍ، رجعت اللعنة إليه**»[(٣)]؟

كيف يصدر منه اللعن لمجرّد غضبٍ لا عن وجه حقٍّ؟ أليس هذا ضرباً من الإساءة لشخص النبيّ صلّى الله عليه وآله؟ بل كيف يتقبّلون ذلك وهم أنفسهم يروون عن عائشة قولها: «ما لعن رسول الله صلّى الله عليه وآله مسلماً من لعنةٍ تذكر، ولا انتقم لنفسه شيئاً يؤتى إليه إلّا أن تُنتهك حرمات الله عزّ وجلّ، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ إلّا أن يضرب بها في سبيل الله...»[(٤)].

وصناعة الوضع والتأويل: دراسةٌ تحليليّةٌ تطبيقيّةٌ في حياة معاوية بن أبي سفيان، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: علي المدن].

(١) هذا الحديث المتواتر روته أُمّهات الكتب. انظر: صحيح البخاري: ج١ ص١٩؛ صحيح مسلم: ج١ ص٨١؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٢٢؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٢ ص٣١٣؛ سنن ابن ماجة: ج٢ ص١٢٩٩؛ وغيرهم كالطبراني والحاكم النيسابوري والدارقطني.

(٢) صحيح البخاري: ج٤ ص٥٧.

(٣) سنن الترمذي: ج٣ ص٢٣٦ ح٢٠٤٤؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٢ ص٦٢: ح٥٢٨.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٤١ ص٤٥٠ ح٢٤٩٨٥؛ صحيح

وعلى ذكر عائشة فإنّها ـ كما تقدّم ـ قد عيَّرت مروان بن الحكم بلعن رسول الله صلّى الله عليه وآله له وهو في صلب أبيه، فإذا كانت اللعنة منه تزكيةً ورحمةً للملعون، فما وجه تعييرها لمروان؟ والأدهى من ذلك كلّه: هو أنّ عائشة كيف لها أن تُعيِّر مروان بلعن رسول الله له وقد ورد اسمها في جملة رواة أحاديث استحالة اللعن إلى زكاةٍ ورحمةٍ وأجر؟!

فقد وضع الإسلام الأموي على لسانها أنّها قالت: «دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله رجلان، فكلّماه بشيءٍ لا أدري ما هو فأغضباه، فلعنهما وسبّهما! فلمّا خرجا قلت: يا رسول الله، مَن أصاب من الخير شيئاً، ما أصابه هذان. قال: **وما ذاك؟** قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما. قال: **أو ما علمتِ ما شارطتُ ربّي عليه؟ قلت: اللّهُمَّ إنّما أنا بشر، فأيّ مسلمٍ لعنتهُ أو سببته فاجعله له زكاةً وأجراً**»[1].

ولم يبقَ للأمويّين وأتباعهم إلّا أن يصنعوا لنا حديثاً قدسيّاً ينسبون فيه لله تعالى رفع اللعنات الجارية في القرآن، لتنجو شجرتهم الملعونة في القرآن من لعنها المؤبّد فتصير زكيّة[2]، ولتتحوَّل أذيّتهم التاريخيّة للرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام إلى زكاةٍ ورحمةٍ للأمويّين، فتكون عشرات الآيات

البخاري: ج٢ ص١٨١، باب: صفة النبيّ من كتاب المناقب؛ صحيح مسلم: ج٧ ص٨٠، باب: مباعدته للآثام.

(١) صحيح مسلم: ج٨ ص٢٤، باب: مباعدته للآثام؛ وفي الطبعة المحقّقة من صحيح مسلم: ج٤ ص٢٠٠٧ ح٨٨، كتاب البرّ والصلة، باب: من لعنه النبيّ صلّى الله عليه وآله.

(٢) راجع تفاسير الفريقين في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٦٠)، وجملةً من كتاب التاريخ والسيرة، منها: تفسير القرطبي: ج١٠ ص٢٨٣؛ تفسير ابن كثير: ج٣ ص٥٢؛ الدرّ المنثور: ج٤ ص١٩١؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٣ ص٢٣٩ـ٢٤٠؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٤ ص١١٣؛ تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٥؛ الاختصاص، المفيد: ص١٧٨.

الواردة في اللعن منسوخةً ببركة الوضع والدسّ الأموي. ثمّ إنّ علينا أن نستغفر الله تعالى ونحن نتلو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً**﴾ (الأحزاب: ٥٧)؛ لأنّ الله تعالى جعل لعناته زكاةً لهم ورحمةً، وهنيئاً للذين يكتمون البيّنات المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٩) بالنسخ الأموي فقد عمّ الخير في رفع اللعنات عنهم وعن أتباعهم ومَن والاهم إلى يوم الدين!

اللعن سنّةٌ قرآنيّةٌ اقتفى أثرها النبيّ صلّى الله عليه وآله

جديرٌ بالذكر: أنّ سنّة اللعن كان فيها النبيّ صلّى الله عليه وآله مقتفياً لأثر القرآن الذي اشتمل على موارد لعنٍ كثيرة، طالما استعمل فيها الصفة؛ ليدلّنا على كونها ملاكاً في تحقيق اللعن؛ من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٩).

وعليه فما جاء على لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله من اللعن، سواءٌ بلغة المفهوم أو بلغة المصداق فذلك ممّا جاء به القرآن وسنّه، ولا معنى للمنع من لعن الظالمين والمنافقين والأفّاقين والمعترضين على الله وعلى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فذلك المنع فيه مخالفةٌ صريحةٌ للقرآن، كما هو واضح.

التدبير الرابع: حفظ الرسالة من الافتراء عليها بلغة التهديد

ورد على لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله تهديداتٌ كثيرةٌ لم يُسمِّ فيها أشخاصاً بأعينهم وإنّما لوَّح بسلوكيّاتهم المعروفة عنهم، وهذه سنّةٌ قرآنيّةٌ اقتفى أثرها النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقد اختلفت موضوعات التهديد، ولكنّ الموضوع الأهمّ من بينها هو ما يتعلّق بالافتراءات الواقعة أو المتوقّعة منهم، من قبيل التهديد بالنار لمن كذب عليه متعمّداً، وقد مرّ علينا ذلك في التدبير الثاني.

حفظ الرسالة من الافتراء هو حفظٌ للقرآن من التحريف

واحدةٌ من أهمّ ثمرات حفظ الرسالة من الافتراء عليها هي حفظ القرآن من التحريف، فإنّ الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن وصيانته من التحريف، ولكنّ هذا الحفظ يحتاج إلى أسبابٍ ووسائل، فكان واحدٌ منها مواجهة المفترين والكذّابين الذين يكذبون على رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ مَن يكذب في سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يُستبعد منه أن يفتري على القرآن، ولو طالعنا الأخبار فإنّنا نجد رواياتٍ كثيرةً تسير بهذا الاتّجاه، فبعض الصحابة كانوا يدّعون وجود آياتٍ قرآنيّةٍ لم تُدوّن، إمّا توهّماً منهم أو لسببٍ آخر غير معلوم، من قبيل ادّعاء بعض كبار الصحابة وجود آية الرجم في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وأنّها حُذفت من القرآن المدوّن[1].

ولا ريب أنّ الطعن بالرسالة هو تعبيرٌ آخر عن الطعن بالقرآن، كما أنّ الطعن بالقرآن هو الآخر طعنٌ بالنبوّة، فكان حفظ الرسالة حفظاً للقرآن، والعكس صحيحٌ أيضاً، وهذا ما جعل الرسول صلّى الله عليه وآله يُركِّز كثيراً على هذا الحفظ المُتبادل، فالطعن بالنبوّة ليس مجرّد طعنٍ بشخص النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإنّما يُراد منه ما هو أبعد من ذلك. وواحدةٌ من ثمرات هذا الحفظ

---

(١) كان الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب يقول: «إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بالحقّ وأنزل عليه الكتاب، فكان ممّا أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضةٍ أنزلها الله... وأيم الله لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله عزّ وجلّ، لكتبتها»، وآية الرجم هي: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة». [انظر: صحيح البخاري: ج٨ ص٢٦؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٥ ص٤٧٢، ح٢١٥٩٦ سنن أبي داود: ج٢ ص٣٤٣ ح٤٤١٨؛ المحلّى، ابن حزم الأندلسي: ١١ ص٢٣٦].

المتبادل هو ضرورة القول بتدوين القرآن في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله، فتدوينه ضرورةٌ عقلائيّةٌ لحفظه من الخطأ والدسّ والتغيير، فلا يُترك كتاب الله لأيادٍ أقلّ ما يُقال فيها هو أنّها يقع منها الخطأ حتّى وإن سلّمنا بنزاهتها وأمانتها، ولكنّ احتمال الخطأ واردٌ جدّاً، فكيف يُترك القرآن لظروفٍ غير موضوعيّةٍ ويُطلب منها حفظ القرآن من كلّ خطأ؟ أليس في ذلك خدشٌ في مهامّ النبوّة؟

إذن فالقول بتدوين القرآن بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه مسّ خفيّ بنبوّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وإن لم يكن مقصوداً، لا بمعنى إنكارٍ لها، وإنّما بمعنى المساس بإتمام وظائفها، كما أنّه قولٌ فيه مسٌّ بالقرآن، فإنّ الحفظ المتبادل يستدعي عكسه تماماً، أعني عدم الحفظ المتبادل؛ فإذا وقع مسٌّ بأحدهما، وقع ذلك في الآخر.

الفصل الثالث

التدابير النبويّة لحفظ الخلافة من الانقلاب المرتقب

(حقبة الخلفاء الثلاثة)

- التدبير الأوّل: تنصيب الخليفة والإمام من بعده
- التدبير الثاني: إبعاد الطامحين عن ساحة تولّي الخلافة
- التدبير الثالث: تولية أصغر الصحابة سنّاً على كبارهم
- التدبير الرابع: ترسيخ قاعدة لكلّ نبيٍّ وصيّ
- التدبير الخامس: التعريف بأعلم الأُمّة من بعده
- التدبير السادس: قرن الخليفة الشرعي بالقرآن
- التدبير السابع: عليّ عليه السلام قسيم الجنّة والنار
- توصيفات نبويّة لصحابةٍ داعمةٍ للتدابير النبويّة

توطئة

إنَّ البحث في الإجراءات والتدابير التي اتّخذها النبيّ صلّى الله عليه وآله لحفظ الخلافة الشرعيّة من الطامعين فيها عموماً، ومن الانقلاب الأموي عليها خصوصاً، يعتبر من المحاور الأساسيّة لفهم تلك الحقبة التاريخيّة العصيبة في مواقفها، والمليئة بالتناقضات والصراعات في تفاصيلها، والمعقّدة في نتائجها، وهي الفترة التي تلت وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، كما أنّها تعتبر من أهمّ مفاتيح الكشف عن إرهاصات الانقلابات المتتالية على الخلافة الشرعية، وعليه فما لم نتوقّف عند تلك الإجراءات النبويّة الإلهيّة لحفظ الإسلام المحمّدي الأصيل من التشويه، وحفظ الأمّة من الانحراف والانزلاق إلى أُتون الفتن، ودرء المخاطر عنها، فإنّنا لا نستطيع أن نفهم ملامح تلك الأرض البركانيّة التي أفرزت سجالاتٍ تاريخيّةً بين خلفيّاتٍ جاهليّةٍ وبين قيمٍ إلهيّة.

فما هي هذه التدابير، ومتى انطلقت، وكيف تلقّتها الأُمّة؟

هنا في هذا الفصل، سوف نتعرّض للتدابير النبويّة لحفظ الخلافة الشرعيّة من الانقلاب عليها، وسوف ننطلق من فترة الخلفاء الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان)، أمّا هذه التدابير فهي:

التدبير الأوّل: تنصيب الخليفة والإمام من بعده

لا ريب أنَّ الأُمّة في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله لا زالت قريبة عهدٍ بالجاهليّة، وذلك خطرٌ كامنٌ يُهدِّد واقع الأُمّة، لاسيّما وأنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لم يُقاتل المنافقين ولم يقضِ عليهم، وقد بيَّن القرآن أنَّ شطراً منهم من أهل المدينة؛ في قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ**

عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)، وهذا هو الفصيل الأوّل من فصائل العدوّ الداخلي المتربّص بالأحداث، المترقِّب لوفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله لينقضّ على الإسلام بوسائله المختلفة.

وأمّا الفصيل الثاني من العدوّ الداخلي، وهو أخطر الفصائل على الإطلاق، فإنّه فصيل الطلقاء الذين دخلوا الإسلام في آخر عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله عندما ضاقت بهم الحيل وفقدوا جميع وسائل المواجهة، بعدما بذلوا من المال والأنفس الشيء الكثير في محاربة الإسلام.

لا ريب أنَّ الطلقاء الذين تجاوز عددهم الألفين قد ضُربت مصالحهم ومواقعهم، فأضمروا للإسلام أحقاداً وأضغاناً مضاعفة، وصاروا يتحيَّنون الفرص، وهم الذين أسَّسوا للإسلام الأموي، ليعيدوا الأمّة إلى جاهليّةٍ جديدةٍ.

وأمّا الفصيل الثالث من العدوّ الداخلي فيتمثّل بالأعراب الذين دخلوا الإسلام أفواجاً دون أن يتمكّن الإيمان من قلوبهم؛ قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**...﴾ (الحجرات: ١٤)، فهؤلاء قد شكَّلوا حاشياتٍ داعمةً لجميع الانقلابات التي شهدتها تلك الفترة على الإسلام المحمّدي الأصيل.

وأمّا الفصيل الرابع فيتمثّل بالذين في قلوبهم مرض[١]، وهم الفصيل الذي ما زال ينطوي على شكوكٍ في التوحيد وفي النبوّة وفي المعاد، فإذا ما وقع تهديدٌ شديدٌ للإسلام راودتهم تلك الشكوك وظنّوا بالله الظنون؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ**

---

(١) استعمل القرآن الكريم اصطلاح «**الذين في قلوبهم مرض**» في معنيين؛ الأوّل: المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، والثاني: ضعاف الإيمان الذين ما زالت الشكوك تعصف بهم؛ ففي وقت السلم يتجلَّى إيمانهم، وفي وقت الحرب أو الشدائد تتجلّى شكوكهم. وما ذكرناه أعلاه هو المعنى الثاني منهما. (منه دام ظلّه).

الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (الأحزاب: ١٢)، فالذين في قلوبهم مرضٌ هم غير المنافقين في المقام، فالمنافقون لم يؤمنوا بالله تعالى طرفة عينٍ أبداً، وأمّا الذين في قلوبهم مرضٌ فقد آمنوا ولكنَّ إيمانهم كان ضعيفاً، وشكوكهم لم تنقطع عنهم، وهم سريعو التأثّر بكلمات المنافقين، ففي الآية أعلاه إنّما كان الذين في قلوبهم مرضٌ يردّدون كلمات المنافقين تأثّراً بهم واستجابةً لنزعاتهم التشكيكيّة الداخليّة.

الفصيل الخامس يتمثّل بالمرجفين[1]؛ قال تعالى: **﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾** (الأحزاب: ٦٠)، وهم روَّاد الإشاعات في المجتمع الإسلامي، دأبهم التثبيط والتشكيك وإثارة اللغط والخوض في الأخبار السيّئة وترويج الفتن؛ بغية إيقاع الناس في اضطرابٍ، من غير أن يصحّ عندهم شيءٌ ممّا يبثّونه من سموم، فإذا ما أرسل رسول الله صلّى الله عليه وآله سريّةً، أو ذهب هو صلّى الله عليه وآله في غزوةٍ[2]، بثّ المرجفون في الأمّة أخباراً كاذبةً عن هزيمة المسلمين. فهؤلاء إن كانوا من المتخلّفين عن الجيش شكّكوا الأمّة في انتصار الجيش، وإن كانوا في الجيش شكّكوا المجاهدين في إمكان تحقيق النصر؛ لأنّهم ينطوون على روحِ انهزاميّةٍ خطيرةٍ، ومحكومون بروح التشاؤم والسوداويّة، لا يرون للغيب سلطةً ونفوذاً في تغيير النتائج.

قال الشيخ الطوسي: «الإرجاف: إشاعة الباطل للاغتمام به، والمرجفون هم

---

(١) الإرجاف من الرجفة، وهي الزلزلة؛ لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت. [انظر: تفسير غريب القرآن، فخر الدين الطريحي: ص٣٩١].

(٢) الفرق بين السريّة والغزوة: أنَّ السريّة لا يكون الرسول صلّى الله عليه وآله مشاركاً فيها، بخلاف الغزوة.

الذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة بها يشغلون به قلوب المؤمنين...»[١].

الفصيل السادس، وهو الفصيل الذي يمثّل الخلايا النائمة التي سيأتي دورها في وقتٍ لاحقٍ، يحملون علوماً مختلفة في التاريخ والسيرة، ويتمتّعون بالأناة والدهاء، يخدعون الراعي والرعيّة بأنّهم من الناصحين للإسلام وهم لا يحملون إلّا العداء للإسلام والمسلمين، ويدسّون السمّ الزعاف، ويتمثّل هذا الفصيل بالسواد الأعظم من الذين أسلموا من أهل الكتاب، لاسيّما اليهود منهم، فقد شكّلوا طابوراً خامساً[٢] بعدما تمكّنوا من الوصول إلى مواقع خطيرةٍ سمح لهم في بثّ إسرائيليّاتهم المفتراة على الدين والتاريخ والأخلاق.

وأمّا بالنسبة للعدوّ الخارجي، فمن الواضح أنَّ الدولة الإسلاميّة الفتيّة كانت محاطةً بأعداءٍ كبارٍ وقوىً عالميّةٍ كبيرةٍ، تتمثّل بإمبراطوريّة الروم وإمبراطوريّة الفرس، وهما تريدان القضاء على دولة الإسلام الحديثة العهد التي تتهدّدهما، وتتوعَّد بإزالتهما، وهذه قضيّة تاريخيّة مسلَّمة.

والآن لو دقّقنا النظر في جميع هذه المعطيات وأضفنا لها حقيقةً تاريخيّةً لا ريب فيها، وهي عظمة الشخصيّة القياديّة للرسول صلّى الله عليه وآله وحنكته وحكمته وحرصه الشديد على إتمام مهامّه النبويّة ورسالته السماويّة، وتوفير الأسباب الموضوعيّة لحفظ الدعوة والأُمّة من الانحراف الخطير....

لو نظرنا ودقّقنا في كلّ ذلك، سيتّضح لنا ضرورة اتّخاذ إجراءٍ يكون قادراً على مواجهة العدوّ الداخلي بفصائله الستة، ومواجهة العدوّ الخارجي المعلوم الحال؛ من هنا تأتي ضرورة تنصيب خليفةٍ له وإمامٍ على الأُمّة، فإنّه مع وجود معطيات كهذه، يستحيل فرض ترك الأُمّة سدىً، وليس من المسؤوليّة بشيءٍ أن

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ج٨ ص٣٦١.

(٢) الطابور الخامس: اصطلاحٌ يراد به مجموعةٌ من الجواسيس المدسوسة، التي تعمل لجهاتٍ معاديةٍ للدولة، أو الجهة المتواجدين فيها.

يكون لسان حال النبيّ صلّى الله عليه وآله أن افعلوا ما شئتم من بعدي، وأنّ أمر الخلافة والإمامة والرعيّة متروكٌ لكم، فذلك أمرٌ يأباه المنطق السليم والسيرة العقلائيّة، لاسيّما ونحن نتعبَّد بحكمٍ شرعيٍّ يتعلَّق بفرض كتابة الوصيّة على كلّ مسلمٍ قبل موته فيما يعنيه أمره؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠)، وإذا كان صحيحاً ما يروونه من أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يُورِّث مالاً وذهباً، فبماذا ستكون وصيّته غير الخلافة والإمامة؟

ولذا فإنَّ أدنى درجات الإدراك العقلي والمنطقي والفهم العقلائي يرى أنّه لابدَّ من اتّخاذ التدابير في قبال هذه المخاطر العظيمة، التي تُهدّد بزوال كيانٍ امتدّ بناؤه على مدى ثلاثٍ وعشرين سنةً، ولو راجعنا سيرة الخليفة الأوّل أبي بكر نجده قد أدرك هذا الحدّ الأدنى من ضرورة اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ بالتوصية لمن بعده، فعيَّن من بعده عمر بن الخطّاب. فلو لم يكن يحسّ بالخطورة مِن ترك موقع الخلافة والقيادة والولاية في الأمّة بلا قائد، فإنّه لا معنى لتعيينه عمر من بعده، ولو كان الرسول صلّى الله عليه وآله لم يُعيِّن خليفةً من بعده فما هو وجه تعيين أبي بكرٍ لعمر من بعده، مخالفاً بذلك سنّة الرسول المدَّعاة في المقام[1].

وهنا ينبغي أن نتساءل: هل كان أبو بكر أكثر درايةً وتدبيراً بشؤون الأُمّة من الرسول صلّى الله عليه وآله، أم كان أكثر حرصاً منه، أم أنَّ تلك الظروف الموضوعيّة لضرورة التعيين لم تكن فعَّالةً بعد رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأنّها انفتقت وظهرت إلى السطح في حياة أبي بكر؟

الواقع أنَّ الظروف الموضوعيّة التي عاشها أبو بكر، كان أهون بكثيرٍ من

---

(١) بل حتّى لو قلنا بأنَّ أبا بكر لم يُعيِّن عمر، فلا أقلّ أنّه قد رشّحه للخلافة من بعده، وعليه: فلِمَ لم يفعل رسول الله صلّى الله عليه وآله ذلك؟ وإن فعل ذلك ـ وقد فعل ـ فمن هو الذي رشّحه لهذا المقام الخطير؟ (منه دام ظلّه).

تلك الظروف الملزمة بتعيين الخليفة في زمن الرسول صلّى الله عليه وآله، فإنَّ المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وقليلي الإيمان والطلقاء واليهود، كانوا جميعاً لا يطيقون ظهور رجلٍ آخر يذكِّرهم برسول الله صلّى الله عليه وآله في كمالاته العقليّة والروحيّة والبدنيّة، ولم يكن هنالك شبيهٌ به غير أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فلمّا آل الأمر إلى أبي بكر هدأت الضغائن وسكنت الأحقاد وأُغمضت عيون طلب الثأر بقتلى المنافقين والطلقاء في بدرٍ وأُحد والخندق وحنين، فقد كان الهدف الأوّل لهم هو إقصاء بقيّة النبيّ صلوات الله عليهم، وإبدالهم برجالٍ منهم يصبرون عليهم أيّاماً أو عدّة سنين يُمهّدون فيها للعودة في أوّل فرصةٍ تتاح لهم، وهكذا اشتدّ عود الطلقاء في عهد عثمان واستفحل أمرهم في عهد معاوية، ليحقّقوا ما خطّطوا له سلفاً، ولتعود الأُمّة إلى جاهليّةٍ جديدةٍ بقشر إسلاميٍّ سبق وأن أسميناه بالإسلام الأموي.

ونظراً لوقوع عمر في حرجٍ شديدٍ من تعيين رجل من بني أُميّة خليفةً على المسلمين، ولم يزل لحن الطلقاء عالقاً في عقل الأُمّة ووجدانها، فكان لابدَّ من القيام بإجراءٍ يحفظ لهم سياسة التبعيد للعترة الطاهرة من جهة، ويُقرِّب المسافات للطلقاء الطموحين من جهةٍ أُخرى، فكانت الشورى الصوريّة والوصيّة الباطنيّة، فإنَّ أمر الشورى لن ينال فيه سعدٌ وطلحة والزبير وعبد الرحمن شيئاً، وهذا معروفٌ ومعلومٌ لكلّ ذي عقل، وقد أثبته هؤلاء بصورةٍ عمليّة، حيث الانحصار بعليّ عليه السلام وعثمان، وحيث إنَّ سعداً وعبد الرحمن لا يرغبان بعليّ[1] فكان

---

(١) وهنا يكشف لنا الشيخ محمّد عبده عن سرّ عدم ميل سعدٍ وعبد الرحمن للإمام علي؛ يقول: «وكان سعد من بني عمّ عبد الرحمن كلاهما من بني زهرة، وكان في نفسه شيءٌ من عليّ كرّم الله وجهه من قبل أخواله؛ لأنّ أمّه جنّة بنت سفيان بن أميّة بن عبد شمس، ولعليٍّ في قتل صناديدهم ما هو معروفٌ مشهورٌ. وعبد الرحمن كان صهراً لعثمان لأنَّ زوجته أمّ

لابدَّ من إعطاء أفضليّةٍ لجهة عبد الرحمن بن عوف، فإذا تعادلت النقاط فعليكم بالكفّة التي فيها عبد الرحمن، وهذا هو التعيين الباطني[١]، والذي أفضى أو كرَّس الحزبيّة والقبليّة، ممَّا نتج عنها انتكاساتٌ خطيرةٌ، كان أسوؤها وصول بني أميّة لسدّة الحكم.

وهنا يُصوِّر لنا الشيخ العلايلي الشورى الصوريّة والتي أُريد منها وصول بني أميّة للحكم: «فممّا لا ريب فيه أنَّ عدم النصّ على الخليفة، أو تعيين الانتخاب في عددٍ مخصوصٍ، أوجد حزبيّةً وبيلةً، وهيَّأ لها أن تعمل أسوأ أعمالها، ولم تقف عند حدود النجاح في الانتخاب فحسب، بل استقرَّت على وجهٍ دائمٍ لتقضي على الخصوم وعلى الأحزاب المناوئة، وهذا ما يُفسِّر مقالة أبي سفيان (زعيم العصبة الأمويّة) حين تولَّى عثمان: «يا بني أميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة»؛ ما يشعرنا بأنَّ الحزب الأموي كان موجوداً من قبلُ، وكان يعمل تحت ستر

كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختاً لعثمان من أمّه». [نهج البلاغة: ج١ ص٣٤].

(١) لقد كان عمر في شوراه السداسيّة شديد الاحتياط في تحقيق إزاحة الخلافة عن الإمام عليّ، حيث كان يتوقّع أن يُبايع طلحة عليّاً تأثّراً بصديقه الزبير الذي كان ينتصر لعليّ، وعندئذٍ سوف تتعادل الكفّتان، الزبير وطلحة لعليّ، وسعد وعبد الرحمن لعثمان، فوضع عمر حلًّا لهذا الاحتمال، فقال عليكم بالكفّة التي فيها عبد الرحمن بن عوف؛ وإلّا فإنّ طلحة كان منحرفاً عن عليّ عليه السلام، وهذا ما جعله قريباً من عثمان رغم عدم ميله الشخصي لعثمان، إلّا أنّه رغب بعثمان بسبب هذا التوافق في الانحراف عن عليّ عليه السلام؛ قال الشيخ محمّد عبده كاشفاً عن سرّ عدم ميل طلحة للإمام علي: «وكان طلحة ميّالاً لعثمان لصلاتٍ بينهما ـ على ما ذكره بعض رواة الأثر ـ وقد يكفي في ميله إلى عثمان انحرافه عن عليّ لأنّه تيميّ وقد كان بين بني هاشم وبني تيم مواجد؛ لمكان الخلافة في أبي بكر». [نهج البلاغة: ج١ ص٣٤].

الخفاء، ويحيك في الظلماء؛ وإلَّا فبأيّ سببٍ كان يرجوها لهم؟ وليسوا بأهل سابقةٍ في الإسلام، ولا أيادي لهم معروفةٌ سوى المظاهرة ضدّ رسول الله؟!»[١]، فكانت الشورى العمريّة شورى لا تُشير بوصلتها إلّا لعثمان! وبها تحقَّق المطلوب.

جديرٌ بالذكر: أنَّ هنالك خبراً أسماه ابن أبي الحديد بـ«قصّة الشورى» يعكس لنا بوضوحٍ ترشيح عثمان للخلافة لا غير، وما عداه فلا فرصة له، وذلك عندما جمع أصحاب الشورى وبيَّن عدم صلاحيّتهم للخلافة بصورٍ مختلفةٍ، وسنوجز الخبر بمقدار الحاجة. يقول الخبر: فدخلوا عليه وهو ملقىً على فراشه يجود بنفسه، فنظر إليهم فقال: أكلّكم يطمع في الخلافة بعدي! فوجموا... فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم!

ثمّ ذكر ما يُسقطهم عن الاعتبار، فبدأ بالزبير واصفاً إيّاه بأنّه مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان ويوماً شيطان! ثمّ أقبل على طلحة ـ وكان له مبغضاً ـ فقال له: لقد مات رسول الله صلّى الله عليه وآله ساخطاً عليك! ثمّ أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال: إنّما أنت صاحب مقنب ـ سائس خيول ـ وصاحب قنص وقوس وأسهم، وما زهرة والخلافة وأمور الناس!

ثمّ أقبل على عبد الرحمن بن عوف فقال: وأمّا أنت يا عبد الرحمن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعفٌ كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر! ثمّ أقبل على عليّ عليه السلام فقال: لله أنت لولا دعابةٌ فيك!

ثمّ أقبل على عثمان، وهنا يُسلّمه عمر راية الخلافة بقوله له: هيها إليك[٢]! كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملتَ بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابةٌ من ذؤبان

---

(١) الإمام الحسين، عبد الله العلايلي: ص٣٠.

(٢) يعني: خذها إليك.

العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً، ثمّ قال لعثمان وكأنّه فرغ من تحويل الخلافة له: فإذا كان ذلك فاذكر قولي، فإنّه كائن[1].

ولم ينسَ الخليفة عمر بن أبي الخطّاب أموراً ثلاثة أخرى أراد تحقيقها من وراء هذه الشورى، وهي:

الأمر الأوّل: أن يُوجد لعليّ عليه السلام منافسين جداً لم يكن بعضهم يحلم بوزارةٍ في الخلافة فضلاً عن الخلافة، كسعد بن أبي وقّاص، ولم يكن البعض الآخر يطمح لموقع قيادةٍ في جيشٍ أو إمارة بلدةٍ صغيرةٍ في العراق أو الشام، وهما طلحة والزبير[2].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٥.

وقد روي الخبر بألفاظٍ قريبةٍ في عدّة مصادر أُخرى. انظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٤ ص٤٣٩؛ تاريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة النبويّة)، ابن شبه النميري البصري (١٧٣ـ٢٦٢هـ): ج٣ ص٨٧٩ـ٨٨١؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٥ ص٧٣٧ ح١٤٢٦٢، وص٧٤٠ ح١٤٢٦٦؛ التذكرة الحمدونيّة في التاريخ والأدب، لأبي المعالي محمّد بن حمدون البغدادي (ت: ٥٦٢هـ): ج٣ ص١١٠؛ العدد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة، رضي الدين علي بن يوسف المطهّر الحلّي: ص٢٥٢.

وقال ابن أبي الحديد: ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان ـ الجاحظ ـ في كتاب «السفيانيّة»، وذكره جماعةٌ غيره في باب فراسة عمر، وذكر أبو عثمان في هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال: وروى معمر بن سليمان التيمي عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عبّاس، قال: سمعت عمر بن الخطّاب يقول لأهل الشورى: إنّكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية حينئذٍ أمير الشام.

(٢) وهذا ما أشار إليه الإمام عليّ عليه السلام في أشهر خطبةٍ له، وهي الخطبة الشقشقيّة، حيث يمرّ بفترة خلافة عمر قائلاً: «**فصبرتُ على طول المدّة وشدّة المحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعةٍ زعم أنّي أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل**

الأمر الثاني: أن يُثبت للأُمّة زهده في الخلافة فلم يُعيِّن ابنه عبد الله خليفةً من بعده ولم يسمح بترشيحه للخلافة من بعده بصورةٍ مباشرةٍ، وقد عكس ذلك في إدخاله في الشورى، فجعله أهلاً للاستشارة في أمر الخلافة دون حقّ الترشيح أو التصويت.

الأمر الثالث: أراد أن يُلمِّح للأُمّة بصلاحيّة ابنه عبد الله بن عمر للخلافة بمجرّد إدراج اسمه في الشورى، ولذا لم يعد عبد الله بن عمر مجرّد ابن خليفة، فذلك لقبٌ لم ينتفع به أولاد أبي بكر بعد تعيين عمر، وإنّما صار عبد الله بن عمر ابن خليفةٍ ومرشّحاً للخلافة ولو بعد حين؛ نظراً لصغر سنّه آنذاك في ثقافة قريش الحاكمة بتصغير وتحقير صغير السن ولو كان كفوءاً، وهي الثقافة التي تحكّمت بالمسلمين، وقد كانت أحد الأسباب الظاهريّة في إقصاء عليّ عليه السلام.

ولأجل هذه الأمور الثلاثة نجد أنَّ سعداً لم يبايع عليّاً خليفةً بعد عثمان، لأنّه كان يرى في نفسه أهليّةً لذلك بعد ترشيح عمر له في الشورى، بل وإنَّ ذلك التلميح لصلاحيّة عبد الله بن عمر لعب دوره أيضاً، فلم يُبايع عليّاً خليفةً بعد عثمان، لأنّه كان يرى في نفسه أهليّة ذلك، ولم يكفّ عبد الله بن عمر عن طموحه طيلة خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ولكنّه لمّا علم بوصول معاوية للخلافة رفع الراية البيضاء وكفَّ عن ذلك؛ لعلمه بأنَّ منافسة بني أُميّة في سلطانهم الجديد يعني قتله لا محالة، لإدراكه أنَّ الفرق عظيمٌ بين أن يكون معارضاً لعليّ عليه السلام فلا يُمَسّ بسوء في نفسه وماله وعرضه، وبين أن يكون معارضاً لمعاوية فيكون في خطرٍ شديدٍ على نفسه وماله وعرضه، وهذه هي محصّلة تلك الشورى السداسيّة التي ما كانت إلّا سقيفةً جديدةً، وما أكثر السقائف في التاريخ؟ وقد نجحت السقيفة الثانية في مقاصدها كما نجحت الأُولى.

منهم حتّى صرت أُقرن إلى هذه النظائر». [نهج البلاغة: ج١ ص٣٣].

وعليه فلو كان الرسول صلّى الله عليه وآله قد ترك الأُمّة سدى لا بتعيين خليفة، فلِم لم يلتزم أبو بكر وعمر بذلك، لِمَ لم يقولا تأسّياً برسول الله صلّى الله عليه وآله وبحسب رواية أهل السنّة: عليكم بكتاب الله وسنّة نبيّه؟ لِمَ لمْ يقولا للأُمّة: اختاروا لأنفسكم خليفة، وأمركم شورى بينكم؟.

والأكثر من ذلك: لِم لم يعترض الصحابة على أبي بكر تعيينه لعمر من بعده، وعلى عمر لتعيينه لعثمان من بعده بشورى صوريّة، ولِم لم يذكّروهما بسنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله المدّعاة في عدم التعيين؟

كلّ ذلك يُشير إلى الطريقة العقلائيّة التي تبانى عليها الخلق في النصب والتعيين، فوجدوا أنَّ ما فعله أبو بكر وعمر في أصل التعيين صحيح، وهو ما فعله الرسول صلّى الله عليه وآله، ولكنّ القوم أبوا ما أراده الله ورسوله في ذلك، مع أنَّ القرآن يهتف بالأُمّة آناء الليل وأطراف النهار: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إذن فعقليّة الإنسان عموماً، وعقليّة المسلمين خصوصاً ـ بعدما عرفت من لزوم الوصيّة ـ قائمةٌ على أصل النصّ والتعيين لا على أصل الانتخاب والشورى، وإلا لوقع الاعتراض الشديد على أبي بكرٍ وعمر.

إذن ووفقاً لجميع المعطيات الآنفة، يتبيَّن لكلّ منصف: أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان قد اهتمّ بموقع الخلافة والإمامة من بعده، ولم يتركه سدىً، أو يُرجئه إلى ظروفٍ غامضةٍ في قبالة تلك التحدّيات الخطيرة، خصوصاً إذا علمنا أنَّ موقع الخلافة والإمامة والولاية على الأمّة يُعدّ من أهمّ الواجبات الدينيّة.

بعد هذه الجولة التحليليّة، نقف عند كلمات الزعيم الروحي والباني الفكري للسلفيّة الوهّابيّة، والداعي الأكبر للإسلام الأموي، وهو الشيخ ابن تيميّة، حيث تعرَّض لهذه المسألة في سياسته الشرعيّة، فقال: «ولاية أمر الناس من أعظم

واجبات الدين، بل لا تمام للدين والدنيا إلّا بها، فإنَّ بني آدم لا تتمّ مصلحتهم إلّا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض... حتّى قال النبيّ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم...»[1].

ولنا أن نقول تعليقاً على كلمات ابن تيميّة:

أوّلاً: إذا كانت ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين فكيف يجعلون رسول الله صلّى الله عليه وآله مقصِّراً في هذا الأمر، حيث ترك الأمّة سدىً، بلا راعٍ ولا خليفة؟ فسبحان الله الذي أجرى الحقَّ على أقلامهم وعلى ألسنتهم وهم لا يشعرون!

ثانياً: أُيريد ابن تيميّة من وراء هذا الأمر تصحيح الإجراء الذي قام به أبو بكر وعمر وبنو أُميّة قاطبةً وبنو العباس، وتخطئة الرسول صلّى الله عليه وآله؟

فإمّا أن يكون قد قصد ذلك تبعاً لظواهر كلامه أو أنّه كان يقرّ بأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد عمل بمبدأ الوصيّة ولكنّه ـ أي: ابن تيميّة ـ لم يجرؤ على البوح بذلك؛ ولذلك حاول ابن تيميّة تصحيح الموقف اعتماداً على روايةٍ ضعيفةٍ تحكي عن صلاة أبي بكر بالناس في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله لتكون قرينةً على ترشيح أبي بكرٍ للخلافة.

ثالثاً: إذا كان قول ابن تيميّة مقبولاً عندهم فإنّه لا يثبت الأمر فقط بل يترقّى فيه، فلا تمام للدين والدنيا إلّا بالولاية، فلماذا يعترض تلامذته ومريدوه المعاصرون عندما نُفسِّر قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**﴾ (المائدة: ٣)، بأنَّ المراد من النعمة وتماميّة الدين هو الخلافة والإمامة والولاية لا غير، فهذا ابن تيميّة يقول: «بل لا تَمامَ

(١) السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعيّة، ابن تيميّة: ص٢٣٢. والحديث وارد في سنن أبي داود، برقم: ٢٦٠٨، و٢٦٠٩. قال النووي في رياض الصالحين: ص٢٩٩، إسناده حسن. وكذا الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج٣ ص٣١٤ ح١٣٢٢.

للدين والدنيا إلّا بها...»؟

رابعاً: وإذا كان سفر أنفارٍ في يومين أو ثلاثة، يحتاج إلى قائدٍ أو إلى أميرٍ أو إلى وليّ، فما بالك بخاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وهو يترك أمّةً بأسرها بلا قائد، وبعد جهادٍ طويلٍ وبذلٍ للأنفس والأموال والأوقات الثمينة، فأيّ حكمةٍ في تركه لكلّ هذا العطاء العظيم بلا راعٍ ولا خليفةٍ ولا إمام تعود إليه الأُمّة؟

إلى هنا يكون قد اتّضح بأنَّ التدبير الأوّل الذي اتّخذه النبيّ صلّى الله عليه وآله لحفظ الخلافة الشرعيّة وحفظ الإسلام بل وحفظ الأُمّة من الانقلاب عليها، هو عين ما تعتقده مدرسة أهل البيت في ضرورة تنصيب إمامٍ من بعده، وقد فعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث نصّب عليّاً خليفةً له وإماماً على الأُمّة من بعده. وهذا الإجراء لم يكن وليد ساعة الفراق، وإنّما كانت له مقدّماتٌ طويلةٌ، وموارد عدّة، بدأت منذ ساعة انطلاق الدعوة الإسلاميّة في مكّة، وتحديداً في المورد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فسُمِّي الحديث بحديث الإنذار[١]، مروراً بحديث الغدير بعد حجّة الوداع، والتي يُمكن أن نُسمِّيها بحجّة البلاغ؛ حيث تمَّ فيها التبليغ بخلافة الإمام عليّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله على الأُمّة[٢]، وانتهاءً بحديث

---

(١) سيأتي الحديث عن آية الإنذار وحديث الإنذار.

(٢) حديث الغدير أشهر من نارٍ على علم، في مضمونه وأسانيده، ونظراً لكثرة ناقليه نُرجع القارئ الكريم إلى كتاب «الغدير»، للعلامّة الأميني، فإنّه قد كُتب لأجل هذا الحديث، وعنوانه شاهدٌ عليه، وأمّا إطلاق اسم «حجّة البلاغ» على حجّة الوداع فذلك مأخوذٌ من الآية النازلة في تلك الحادثة، وهي بيعة غدير خمّ، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧)، وسيأتي الحديث موجزاً عن حديث الغدير، علماً بأنَّ السيّد الأستاذ دام ظلّه، قد تعرّض لحديث الغدير بشكلٍ تفصيليّ في دروسه التخصّصيّة

رزيّة الخميس الذي وقع قبل رحلته صلّى الله عليه وآله بأيّامٍ قليلةٍ جدّاً، عندما اجتمع المسلمون عنده، فضلاً عن عشرات المواقف التي عيَّن فيها رسول الله شخصيّة الخليفة من بعده توصيفاً وتشخيصاً، من قبيل حديث الثقلين وغيره.

التبليغ لإمامة عليّ من البعثة إلى الحجّ إلى الرحلة

لقد بالغ رسول الله صلّى الله عليه وآله في نصحه للأمّة، ولم يترك ثغرةً في بيان شخصيّة الخليفة من بعده، وقد اقتضى التخطيط الإلهي الحكيم الدقيق أن تشرع الدعوة الإسلاميّة بالتبليغ لخلافة عليّ عليه السلام لرسول الله صلّى الله عليه وآله على الأمّة وتُختتم بذلك أيضاً، وما بين الدعوة والرحلة سجَّل النبيّ صلّى الله عليه وآله الموقف الإلهي والرسالي من خلافة الرسول وتحديده بشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام، ولعلّ أهمّ موقفٍ مرّ في حياة الرسول في تشخيص الخليفة فيما بين لحظة الشروع بالدعوة والختم والرحلة هو موقف التبليغ لذلك في الحجّة الوحيدة التي حجّها رسول الله صلّى الله عليه وآله علناً بعد الهجرة، وهي حجّة الوداع، أو قل: هي حجّة البلاغ؛ لما سيأتي، وقد كنّا قد نبّهنا إلى أنَّ الإجراء الأوّل لم يكن وليد ساعة الفراق، وإنّما كانت له مقدّماتٌ طويلةٌ، وموارد عدّةٌ، بدأت منذ ساعة انطلاق الدعوة الإسلاميّة في مكّة، ومروراً بحديث الغدير بعد حجّة الوداع، وانتهاءً بحديث رزيّة الخميس التي وقعت قبل رحلته صلّى الله عليه وآله بأيّام قليلة.

من هنا فقد اخترنا التعرّض إلى هذه المواقف الثلاثة التي سجَّل فيها الرسول صلّى الله عليه وآله أعظم حادثةٍ وموقف، وهو انتخاب الخليفة له من بعده على

العليا، والتي لم تُطبع بعد، والتي تعرّض فيها بشكل تحليليّ ونقديّ للآراء المذكورة في الحديث، سنداً ومتناً، ومنها رأي ابن تيميّة في ذلك. وما نأمله أن تتاح الفرصة لأحد طلّاب السيّد الأستاذ دام ظلّه، لتحرير تلك الدروس في كتابٍ جامعٍ لحديث الغدير.

الأمّة، ولم تكن هذه المواقف الثلاثة توصيفيّةً للخليفة، وإنّما كانت تشخيصيّةً تعيينيّةً لا تقبل الخطأ أو التوهّم، وهي:

الموقف الأوّل: البيعة لعليّ بالخلافة في آية الإنذار

وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فسُمِّي الحديث بحديث الإنذار؛ للقرينة السياقيّة في الآية، وهي مفردة «وَأَنذِرْ»، حيث دعا النبيّ صلّى الله عليه وآله عشيرته إلى دار عمّه أبي طالب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث فيه تفاصيل كثيرةٌ حول الطعام وما وقع فيه من كرامةٍ للنبيّ صلّى الله عليه وآله، والخبر طويلٌ نأخذ منه محلَّ الشاهد.

روى أحمد بن حنبل: «تكلَّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: **يا بني عبد المطلب، إنّي والله ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟** فأحجم القوم عنها غير عليٍّ وكان أصغرهم، إذ قام فقال: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه. فأخذ رسول الله برقبته، وقال: **إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.** فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[(١)].

وهو خبرٌ صريحٌ في كون الإمام عليّ عليه السلام هو أخا رسول الله صلّى الله عليه وآله ووصيّه وخليفته، حيث أكَّد هذا المعنى مرّتين في الخبر نفسه، ثمّ ذكّرهم بلازم ذلك في قوله: «فاسمعوا له وأطيعوا».

ولأنَّ الطبري أراد أن يُوفّق بين نقل الحقيقة والخبر الصحيح فيها، وبين ما

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل: تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج٢ ص١٦٤ ح١٣٧١. قال عنه المحقّق: إسناده صحيحٌ.

يشفع له عند القوم لكي لا يرمونه بالتشيّع والرفض ـ ولعلّه خشي أكثر من ذلك، كأن يقع له ما وقع للنسائي من قبل ـ فقد روى نفس الخبر في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ولكن مع فذلكةٍ تحقّق له هدف الوقاية والحفظ، فأبدل من الخبر ما يغيض القوم في الوصيّة والخلافة، فقال في تفسيره: «ثمّ تكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: **يا بني عبد المطلب، إنّي والله ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي وكذا وكذا؟**». وهكذا تحوّل الخبر الصحيح من «**على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟**» وبتدليسٍ من الطبري إلى «**على أن يكون أخي وكذا وكذا؟**».

ثمّ لّما أحجم القوم عنها جميعاً ونهض ابن بجدتها عليّ عليه السلام وهو غلامٌ حدث السنّ، مُلبّياً دعوة النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك. فأخذ برقبتي، ثمّ قال...»، وهنا يأتي الفصل الآخر من فصول التدليس الطبريّ ليُوافق ما تقدّم منه فرواه بهذا النحو: «ثمّ قال: **إنَّ هذا أخي** وكذا وكذا، **فاسمعوا له وأطيعوا**، قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمّرك أن تسمع لابنك وتطيع»[١].

ولأنَّ الطبري عالمٌ كبيرٌ وثقةٌ أيضاً فلم يستطع القوم تجاوز ما نقله، ولكن اكتفى الكثير منهم بنقل الخبر الوارد في تفسيره وليس في تاريخه! وليت الكثير ممَّن نقلوا هذه الحادثة قد نقلوا الخبرين معاً كما فعل الطبري، ولكنّهم اكتفوا برواية «أخي وكذا وكذا»[٢]، إلّا القليل منهم ممَّن رووا الخبر بألفاظه

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي: ج١٧ ص٦٦٣، ذيل الآية: ٢١٤ من سورة الشعراء. وسيأتي تخريج هذا الخبر في مصادره الأُخرى.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ج٣ ص٥٣؛ السيرة النبويّة، ابن كثير: ج١ ص٤٥٩.

الصحيحة[(١)]، ممَّن دفع بعضهم ـ في هذا التصريح وغيره ـ ثمناً غالياً من الاضطهاد والتجاوز عليهم، من قبيل الحاكم الحسكاني، ولعلّ هذا الخبر هو واحد من أسباب وخلفيّات تقديم تفسير الطبري على تاريخه.

وقد روي هذا الخبر بألفاظٍ أُخرى تستبطن الدلالة على الوصيّة والخلافة، إذا ما ضممنا له الخبر الذي طالما تشبّث به القوم في دفع حقوق السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في وراثة أبيها، حيث رووا في ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة**»[(٢)].

ولم يكتفِ ابن كثير ـ الأمويّ الولاء ـ بالتدليس المنقول، فراح يطعن بأصل الخبر لأنَّ فيه راوياً شيعيّاً!

(١) روي هذا الخبر بهذه الألفاظ في: شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٨٦؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٩؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص٦٢، وص٦٣؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٣ ص٢١٠، وص٢٤٤؛ السيرة الحلبيّة، الحلبي الشافعي: ج١ ص٣١١؛ جامع الأحاديث (الجامع الصغير والجامع الكبير)، جلال الدين السيوطي: ح٣٣٩٨٤؛ تاريخ أبي الفداء: ص١٧٣؛ حياة محمّد، محمّد حسين هيكل: ص١٠٤.

وأمّا في كتب مدرسة أهل البيت فقد روي الخبر في مصادر كثيرة، منها: علل الشرائع، للشيخ الصدوق: ج١ ص١٧٠ ح٢؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، للمفيد: ج١ ص٤٩، حديث الدار؛ أمالي الطوسي: ص٥٨٢ ح١١؛ مجمع البحرين: ج٣ ص٤٨٠؛ الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي: ج٢ ص٢٧٨، وص٢٨٤؛ فضلاً عن عشرات المصادر الأخرى في التفسير والفقه والتاريخ.

(٢) ورد هذا الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ في مصادر حديثيّةٍ وتفسيريّةٍ كثيرةٍ، منها: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٢ ص٤٦٣؛ صحيح البخاري: ج٤ ص٤٢؛ ج٥ ص٢٣؛ صحيح مسلم: ج٥ ص١٥٢؛ سنن الترمذي: ج٣ ص٨٢؛ تفسير الثعالبي: ج٤ ص٨؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٣ ص٣٢٢؛ ومصادر أُخرى.

وهنا يأتي خبر النسّائي ليثبت أنّه جعل عليّاً عليه السلام وريثاً له، فإذا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يُورّث مالاً، وما تركه صدقة، فما الذي سيرثه الإمام عليّ عليه السلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله غير الخلافة؟ لاسيّما أنَّ الخبر لم يقتصر على ذكر التوريث، وإنّما بيَّن كون عليّ عليه السلام هو وزير رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قال النسّائي في رواية الخبر: «إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: **فأيّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟** فلم يقم إليه أحدٌ، فقمت إليه وكنت أصغر القوم[1]، فقال: **اجلس**، ثمّ قال ثلاث مرّات، كلّ ذلك أقوم إليه فيقول: **اجلس**. حتّى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي، ثمّ قال: **أنت أخي وصاحبي ووارثي ووزيري**»[2].

والغريب أنَّ البعض بالغ في التدليس وطمس الحقيقة فاكتفى بختم الحديث بكلمة الإمام عليّ عليه السلام: «**فلم يقم ثلاث مرّات، كلّ ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس، حتّى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي**»[3]، ولم نعلم من المزّي ما الذي حصل بعد أن ضرب رسول الله صلّى الله عليه وآله بيده على يد عليّ؟! وإن كنّا نعلم سرَّ إخفاء الحقيقة وخلفيّة هذا النوع من التدليس[4].

---

(١) الرواية يرويها النسّائي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، والمتكلّم هنا هو الإمام عليّ.

(٢) السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٢٥ ح٨٤٥١؛ خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، النسائي، تحقيق أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلا، الكويت: ص٨٤.

(٣) تهذيب الكمال، أبو الحجّاج المزي: ج٩ ص١٤٦.

(٤) قال الشيخ الصافي: «الرواية مشهورةٌ مستفيضةٌ أخرجها جمعٌ من الحفّاظ وأكابر المحدّثين، واختصرها بعضهم، كما أبدل الطبري في تفسيره قوله صلّى الله عليه وآله: **فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟** بلفظ: «فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا»، وقوله صلّى الله عليه وآله: **إنّ هذا**

الموقف الثاني: البيعة لعليّ بالخلافة في آية البلاغ

سجَّل الفريقان معاً حادثة البيعة لعليٍّ بالخلافة في غدير خمّ، وقد وقع ذلك بعد حجّة الوداع مباشرةً، وهي التي سمّيت بحجّة البلاغ أيضاً؛ لاقترانها بآية البلاغ، وتحديداً قبل افتراق المسلمين بعد أداء مناسك الحجّ مع النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقد كان النبيّ قد أمره الله تعالى بالإعلان عن ذلك، ولمّا خشي صلّى الله عليه وآله أن يُكذَّب من قبل البعض جاء الأمر القاطع بضرورة التبليغ لعليّ بالخلافة والإمامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧)، فأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بالناس أن يجتمعوا في مفترق طرقٍ قبل أن يتفرَّقوا إلى أوطانهم وقبائلهم، وكان ذلك في مكانٍ يُقال له «غدير خمّ»، ولأجل ذلك سُمِّي حديث البيعة لعليّ عليه السلام بالخلافة بحديث الغدير، وهو حديثٌ تضافرت الروايات على نقله، والتي صرَّحت بنزول آية البلاغ على رسول الله صلّى الله عليه وآله بعد المسير من حجّة الوداع،

أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، بلفظ: «إنَّ هذا أخي وكذا وكذا». والطبري، وهو الذي روى الرواية كاملةً وتامّةً في تاريخه، يرويها بهذا الصورة المحرّفة المشوّهة المجملة حتّى لا يفهم القارئ مغزاه، ولا يُعرف خليفة رسول الله صلّى الله عليه وآله المنصوص عليه في هذه الروايات وفي غيرها من الأحاديث، أو لا يرميه أهل العناد والنصب بالرفض والتشيّع، ولا يفعلوا به ما فعله أهل دمشق بالنسائي صاحب السنن والخصائص العلويّة... وهذا إن لم يدلّ على شيءٍ، فقد دلّ على أنّ السياسة هي القوّة التي تعيّن منهج سير العلم والحديث والتفكّر. فمثل هذه الكلمة القاطعة: (**إنَّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا**)، لا يجوز سياسيّاً نقله والتحدّث به؛ لأنّها إعلان إبطال الحكومات المستبدّة التي قلبت نظام الإدارة والحكم، وأحيت سنن الأكاسرة والقياصرة». [لمحات في الكتاب والحديث والمذهب: ص٣٠٩ فما بعد].

وفي أثناء خطبة الغدير، وقد رُوي هذا الخبر من عدّة طرقٍ تنتهي إلى عددٍ كبيرٍ من الصحابة[١].

وهناك دعا رسول الله صلّى الله عليه وآله الناس إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن أخذ بضبع الإمام عليّ فرفعها حتّى نظر الناس إلى بياض إبطيه، وقال صلّى الله عليه وآله: **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّٰهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله**، ثمّ لم يتفرّق المسلمون حتّى نزلت هذه الآية: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**﴾ (المائدة: ٣)، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ**[٢]. وقد سجَّل حسّان بن ثابت الأنصاري ـ شاعر الرسول صلّى الله عليه وآله ـ هذا الحدث التاريخي بأبياتٍ يُصوِّر فيها بيعة الناس لأمير المؤمنين علي[٣].

---

(١) منهم: الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأبي سعيدٍ الخدري، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري، وعمّار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبو هريرة الدوسي، وعبد الله بن عبّاس. ويمكن مراجعة كتاب الغدير، للشيخ عبد الحسين الأميني النجفي: (ج٢ ص٣٤، فما بعد)، حيث روى الخبر في ثمانيةٍ وثلاثين طريقاً، ومن كتب الفريقين معاً.

(٢) انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٨ ص٢٩٠؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٤٣؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ص١٥٧، وص٢١٠، وص٢١٥؛ تذكرة الخواصّ، للسبط ابن الجوزي الحنفي: ص٢٩؛ فرائد السمطين، الجويني الشافعي: ج١ ص٣١٥؛ الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٢ ص٢٥٩؛ الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي: ج١ ص٧٥؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (ترجمة الإمام عليّ): ج٢ ص٧٥، وص٥٧٧، وص٥٨٠.

(٣) حيث أنشد حسّان في ذلك:

الموقف الثالث: البيعة لعليّ عليه السلام بالخلافة في ساعات الوداع

يعتبر حديث رزيّة الخميس من الأحاديث المشهورة، وقد رواه الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، وذلك قبل رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله بأيّامٍ قليلةٍ، عندما اجتمع المسلمون عنده؛ قال عبد الله بن عباس: «لما اشتدّ بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وجعه قال: **ائتوني بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده**. قال عمر: إنَّ النبيّ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا أو كثر اللغط. قال صلّى الله عليه وآله: **قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع**. فخرج ابن عباس يقول: إنَّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه»[1]، وفي قولٍ آخر رواه البخاري نفسه: «هجر رسول الله»[2].

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخمٍّ وأسمع بالرسول مناديا
يقول فمَن مولاكمُ ووليّكمْ ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا
إنّك مولانا وأنت وليّنا ... ولن تجدن منّا لك اليوم عاصيا
فقال له: قم يا عليّ فإنّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمَن كنت مولاه فهذا وليّه ... فكونوا له أنصار صدقٍ مواليا
هناك دعا اللهم والِ وليّه ... وكن للذي عادى عليّاً معاديا

(تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ص٣٣)

(١) وهو خبر ذكرته عشرات المصادر بما فيها الصحاح، ونكتفي بالإرجاع إلى أحدث كتابٍ تمّ تحقيقه، وهو: الجامع الصحيح للبخاري: ج١ ص٦٠ ح١١٤، باب: كتابة العلم، رقم: ٣٩؛ وفي الطبعة القديمة لصحيح البخاري: ج١ ص٣٧؛ ج٥ ص١٣٧؛ ج٨ ص١٦١.

(٢) صحيح البخاري: ج٢ ح٣٠٥٣، كتاب الجهاد والسير، باب: هل يستشفع إلى أهل الذمّة ومعاملتهم، وفي الطبعة القديمة: ج٤ ص٣١. وهذه من أهمّ الطرق التي يستعملها البخاري لتضييع مضمون الخبر الذي لا تميل إليه نفسه أو لا يوافق ما يعتقد به، وهو أنّه يضيّع الروايات في عناوين لا يلتفت إليها، وليراجع أهل التحقيق هذه القضيّة، حيث سيجدون أنَّ الحقيقة شيءٌ والعنوان شيءٌ آخر. (منه دام ظلّه).

وفي قولٍ آخر: «ما له أهجر»[١]، وفي قولٍ آخر: «ما شأنه أهجر»[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ح٣١٦٨.

(٢) المصدر السابق: ح٤٤٣١.

روى البخاري خبر رزيّة الخميس ستّ مرّاتٍ، فإذا جاء لفظ «غلبه الوجع» يُصرِّح بأنَّ القائل هو عمر، وإذا جاء لفظ «هجر، أهجر» يُدلِّس فيُخفي اسم عمر؛ لما تحمله من معنىً مشينٍ لا يليق بمقام النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولكي يُوهم بأنَّ القائل شخصٌ آخر، مع أنَّ هذا الخبر لا معترض فيه على رسول الله صلّى الله عليه وآله غير عمر، وكأنَّ البخاري لم يجد كلمة «هجر، أهجر» مناسبةً ولا تليق بمقام عمر، فأشفق عليه في ثلاثة مواضع فلم يذكر اسمه، ولكنَّ عمر وجدها تليق به، بل ووجدها مناسبةً لتطلق على رسول الله صلّى الله عليه وآله!

مع أنَّ محصّلة روايات الحادثة تدلّ على وحدة الحادثة، وتدلّ على وحدة الرادّ على رسول الله صلّى الله عليه وآله، كما أنَّ التقارب النسبي بين كلمة «هجر» وكلمة «غلبه الوجع»، وتسمية عمر وحده في الحادثة كلّها، كلّ ذلك ينتهي بنا إلى نتيجةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ القائل لكلمة «هجر، يهجر، أهجر؟» هو عمر نفسه، وأن الرواة حاولوا ترميم الموقف، فأبدلوا الكلمة بكلمة أُخرى لا تحمل تلك الإساءة لشخص النبيّ صلّى الله عليه وآله.

ولذلك صار القوم بصدد توجيه الكلمة، بعد أن قصر باعهم عن ردّ نسبتها لعمر بن الخطّاب، حتّى أنَّ ابن تيميّة الحرّاني ـ المتشدّد جدّاً ـ لم ينكر نسبة كلمة «الهجر» لعمر، فسار في أمره إلى طريقين، الأوّل حاول فيه إنكار أصل الحادثة!! مع أنّها منقولةٌ في الصحاح والسنن! ولّما وجد الأمر غير مُستساغٍ صار إلى التوجيه والتأويل، فقال في توجيه كلمة «هجر»: «وأمّا عمر فاشتبه عليه هل كان قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من شدّة المرض؟ أو كان من أقواله المعروفة؟ والمرض جائزٌ على الأنبياء، ولهذا قال: (ما له أهجر؟)، فشكّ في ذلك، ولم يجزم بأنّه هجر، والشكّ جائزٌ على عمر؛ فإنّه لا معصوم إلّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لاسيّما وقد شكّ بشبهةٍ، فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان مريضاً، فلم يدر أكلامه كان من وهج المرض كما يعرض للمريض؟ أو كان من كلامه المعروف الذي يجب قبوله؟» [منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة: ج٦ ص١٩].

وقد كانت كلمته «يهجر، هجر» هي آخر سهمٍ أطلقه عمر من كنانته في مواجهة الإجراءات النبويّة لحفظ الخلافة والإمامة من بعده، فقد سبق ذلك إطلاق نبالٍ أُخرى كان منها الطعن في تأميره لزيد بن حارثة ثمّ الطعن في تأميره لأُسامة بن زيد، وغيرها.

هذا وقد سلك البخاري طريقاً ملتوياً للتعمية، فأراد أن يُركِّز كلمة الشفقة والرأفة ـ التي تقوّلوها لعمر ـ في ذهن القارئ، فنقل في الجزء الأوّل ما يلي: «قال عمر: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا»، ثمّ خشي البخاري من نقل العبارة الصحيحة فنقلها بعد تجريد القائل عن هويّته، ورمى الكرة في ملعب الصحابة، حيث جعلنا نحتمل في كلّ واحدٍ أن يكون قد قالها، وقد فعل كلّ ذلك دفاعاً عن عمر، فقال البخاري في الجزء الرابع مرّتين: «فقالوا هجر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال دعوني»، ثمّ أراد البخاري أن يُعمّي حتّى على كلمة «غلبه الوجع» فنسبها للصحابة بلا تعيين، لكي لا يبقى عمر متّهماً بها وحده، وهذا ما فعله في الجزء الخامس، حيث يقول: «فقال بعضهم: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله»، مع أنَّ القرائن المتكرّرة وهي: «عندكم كتاب الله» و«حسبنا كتاب الله» تفصح عن شخصيّة قائلها، وأنّه لا قائل لكلمة «الهجر» أحدٌ غير عمر.

ولّما وجد أنّ هذا التحميل لا يبدو مقبولاً، وأنّ القارئ قد يعود لما تقدّم فيستنبط كون القائل لكلمة «هجر» هو عمر نفسه، فعاد البخاري ليؤكّد أنَّ عمر لم يقل غير كلمة «غلبه الوجع»، وذلك في الجزء الأخير من صحيحه، حيث يقول: «قال عمر: إنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غلبه الوجع وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله»، وهكذا حوَّل البخاري كلمة الإساءة التي من أجلها انتفض النبيّ صلّى الله عليه وآله وأمرهم بالخروج منه، حوّلها إلى كلمةٍ تدلّ على الشفقة والرأفة، ولا ريب أنّ مثل هذا النقل فيه تحريف، وأنّه لا يصدق عليه النقل بالمعنى.

جديرٌ بالذكر: أنَّ البخاري وغيره ممَّن سار على نهج التغيير في كلمة «الهجر» أرادوا حفظ كرامة الخليفة عمر بنفي الكلمة عنه، فكانت النتيجة هي هتك كرامة الصحابة الذين حضروا في تلك الحادثة؛ لأنَّ كلمة «الهجر» نسبوها إلى المجموع، هكذا «فقالوا: إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يهجر»! وقد كان ابن تيميّة ـ على تشدّده المعروف ـ أكثر

فمرّةً قالوا عنه: غلبه الوجع، ومرّةً قالوا: هجر، والهجر بمعنى الهذيان، حيث يتكلّم المتكلّم وهو فاقدٌ لصوابه، فرسول الله صلّى الله عليه وآله ـ بمقتضى مضمون الحديث ـ أراد أن يُنجّيهم من الضلالة، ولكنّ ثلّةً من الصحابة ـ نطق باسمهم عمر ـ قد أبوا ذلك، وإنّما أبوا ذلك لأنّهم يعلمون جيّداً من مجموعة وصايا سابقةٍ[1]، منذ انطلاق الدعوة في مكّة وإلى يومهم ذلك، ممَّا جاء في حديث

شجاعةً من البخاري وغيره، فقبل نسبة الكلمة إلى عمر، وصار إلى توجيه واقع الحال فيها، بدلاً من التعمية والإنكار. (منه دام ظلّه).

(١) روي عن ابن عبّاس أنّه في حوارٍ ساخنٍ مع عمر بن الخطّاب قد ذكر فيه هذا الأمر، حيث يقول: «دخلت على عمر في أوّل خلافته وقد ألقي له صاعٌ من تمر على خصفة، فدعاني إلى الأكل، فأكلت تمرةً واحدةً وأقبل يأكل حتّى أتى عليه... ثمّ قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلّفت ابن عمّك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعنِ ذلك، إنّما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغرب ـ يجذب الماء بالدلو العظيمة ـ على نخيلاتٍ من فلان وهو يقرأ القرآن. قال: يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شيءٌ من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله نصّ عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلّى الله عليه وآله في أمره ذرو، من قولٍ لا يثبت حجّةً، ولا يقطع عذراً! ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعتُ من ذلك؛ إشفاقاً وحيطةً على الإسلام، لا وربّ هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبداً، ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلّى الله عليه واله أنّي علمتُ ما في نفسه، فأمسك، وأبى الله إلّا إمضاء ما حتم». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٢ ص٢٠؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج٢ ص٤٧]. قال ابن أبي الحديد معلّقاً على الخبر: ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه مسنداً. [المصدر السابق]، وقال الأربلّي معلّقاً على الخبر: «قلت: يشير إلى اليوم الذي قال فيه: آتوني بدواةٍ وكتف...

الإنذار وحديث المنزلة وحديث الغدير وحديث الثقلين[1]، وغيرها، من أنَّ

فقال عمر رضي الله عنه: إنَّ الرجل ليهجر». [المصدر السابق].

ولنتأمّل في كلمة عمر لا بن عبّاس: «لقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعتُ من ذلك»!! والمراد من قول عمر: «كان رسول الله في أمره ذرو»: أنّه كان رسول الله يرفع من شأن عليّ. وهكذا قد نجح عمر في كلمته «إنَّ النبيّ ليهجر» في إلغاء الوصيّة المنظورة، بإسقاط حجّية القائل واتّهامه بأنّه يهجر.

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة عند مدرسة أهل البيت والصحيحة بل المستفيضة عند مدرسة الصحابة، وقد ورد بألفاظٍ متقاربةٍ، منها ما رواه الترمذي عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**». [سنن الترمذي: ج٣ ص٥٤٣، تحقيق ناصر الدين الألباني؛ وفي الطبعة القديمة: ج٥ ص٣٢٨ ح٣٨٧٦]. ولمراجعة تحقيق متن وسند حديث الثقلين يُراجع كتاب: «حديث الثقلين سنداً ودلالة... قراءةٌ في أبحاث سماحة المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، رسالة ماجستير للطالب: أسعد حسين علي الشمري».

نشير فقط: أنّ العلّامة الألباني قد روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقّ الإمام عليّ عليه السلام قوله: «**أنت وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**». ثمّ علّق: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وخرَّجه أحمد من طريق الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو كما قال. [انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٢٦٣ ح٢٢٢٣].

فالحديث قد صحّحه الحاكم النيسابوري الذي يعمل على شروط الشيخين، وصحّحه الذهبي، وصحّحه الألباني، وقد روى الألباني هذا الحديث بصيغٍ عديدةٍ، وقد صحّحها معبِّراً بقوله: قلت صحيحٌ على شرط مسلم، قال الحاكم وأقرّه الذهبي. ومن هذه الصيغ: قوله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ عليّاً منّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**»، وأيضاً: «**ما تريدون من عليّ، إنّ عليّاً منّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**»، وفي تعبير آخر: «**وهو وليّكم بعدي**». [انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٢٦٢؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلميّة: ج٦ ص٤٨٧ ح٩١٧٨]. (منه دام ظلّه).

النبيّ صلّى الله عليه وآله سيُؤكِّد الوصيّة بالخلافة لعليّ عليه السلام، فأرادوا أن يُوهموا الأُمّة بأنّه توفّي صلّى الله عليه وآله ولم يُوصِ لأحد.

ردود الفعل ضدَّ التدبير الأوّل وإخبار النبيّ بذلك

وهنا ينبغي السؤال عن موقف الصحابة من هذا الإجراء الذي اتّخذه رسول الله صلّى الله عليه وآله في تنصيب خليفةٍ من بعده، هل رضخ الصحابة لذلك أم أنّهم أبدوا اعتراضاتٍ كثيرةً وبأشكالٍ مختلفةٍ؟

في قراءة سريعة للتاريخ والأخبار الواردة في هذا المورد، نجد أنَّ السواد الأعظم لم يُبدِ اعتراضاً حول هذا الأمر، وذلك لأسبابٍ كثيرةٍ، منها:

السبب الأوّل: إنَّ البعض منهم كان صادقاً في طاعته لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فلا يرون غير ما يراه رسول الله في هذا الأمر، لاسيّما وأنَّ الشخص الذي تمّ تعيينه هو الأهل لهذا المنصب الرفيع وكُفؤٌ له، فضلاً عن كونه قرشيّاً، وله سابقةٌ عظيمةٌ، ومِن أقرب قُربى النبيّ صلّى الله عليه وآله.

ولكنّ هؤلاء المؤيّدين كانت نسبتهم قليلةً، وأنّ الكثير من هذا القليل لم يكن من ذوي التأثير الكبير أو الخطر العظيم في صناعة القرارات الخطيرة، إمّا لزهدهم وعزوفهم عن بهرجة الحياة، أو لأنسابهم غير النافذة، أو لأنّ أكثرهم من خارج أهل مكّة والمدينة، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله نسبتهم التقريبيّة.

السبب الثاني: إنَّ الكثير ممَّن سكتوا لم يكن سكوتهم طاعةً لرسول الله صلّى الله عليه وآله، ولا حبّاً بعليّ عليه السلام، ولا بغضاً بالمنافسين، وإنّما لأنّهم لم تكن لديهم حظوةٌ لإبداء رأيهم في مثل هذا الأمر، بسبب طول عدائهم للإسلام وكونهم قد دخلوا الإسلام مكرَهين، من قبيل الطلقاء الذين يكنّون أحقاداً دفينةً لم يجدوا لإظهارها بأقوالٍ وأفعالٍ فرضتها المناسبة آنذاك، فسكتوا مترقّبين، وإذا

ما أبدى بعضهم حركةً ماكرةً بعد رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله يُشمّ منها رائحة النصرة للإجراء النبويّ فذلك ليس صحيحاً، لأنّها حركةٌ قُصد بها إيقاع الفتنة في الأمّة، ومحاولةٌ يائسةٌ لتفريق الأمّة.

السبب الثالث: إنَّ الكثير ممَّن سكتوا ولم يُبدوا اعتراضاً ليس لتأييدهم، وليس لعداءٍ سابقٍ منعهم، وإنّما لأنّهم لا يمتلكون موقعاً مؤثّراً، أو لا يرون لأنفسهم موقعاً، وبذلك يكون كلامهم سلباً أو إيجاباً غير مُجدٍ، ولا يُغيِّر في الواقع شيئاً، وهم عامّة الناس.

السبب الرابع: إنّ البعض ممّن سكتوا وإن كانوا يحملون روحاً عدائيّةً للنبيّ صلّى الله عليه وآله عموماً وللإمام عليّ عليه السلام خصوصاً، إلّا أنّهم خافوا من نزول قرآنٍ فيهم يفضحهم، فيمنعهم من المنافسة مستقبلاً على الزعامة.

المعترضون على تعيين الإمام عليّ عليه السلام خليفةً للرسول

وأمّا المعترضون تاريخيّاً على ترشيح الإمام عليّ عليه السلام للخلافة وتعيينه إماماً لهم فإنّهم ينقسمون على ثلاثة أقسام، وهم:

القسم الأوّل: الذين كانت تحرّكهم الروح القبليّة، فظنّوا أنَّ تنصيب عليّ ليس من قبل الله تعالى وإنّما هو من باب القرابة من النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكأنّ الأمر مجرّد رغبةٍ من النبيّ لإبقاء أمر الخلافة في بني هاشم، ومن أمثلة ذلك ما صدر من الحارث بن النعمان الفهري، فقد روى القرطبي: أنَّ الحارث بن النعمان: «لمّا بلغه قول النبيّ صلّى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام: **من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**، ركب ناقته فجاء حتّى أناخ راحلته بالأبطح ثمّ قال: يا محمّد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك، وأن نصلّي خمساً فقبلناه منك، ونزكّي أموالنا فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كلّ عامٍ فقبلناه منك، وأن نحجّ فقبلناه منك، ثمّ لم ترضَ بهذا حتّى فضّلت ابن عمّك علينا!

أفهذا شيءٌ منك أم من الله؟! فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **والله الذي لا إله إلّا هو، ما هو إلّا من الله.** فولّى الحارث وهو يقول: اللّهمَّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم. فوالله ما وصل إلى ناقته حتّى رماه الله بحجرٍ... فقتله، فنزلت: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ (المعارج: ١)[1].

القسم الثاني: هم الذين كانوا يؤذون عليّاً عليه السلام بأساليب مختلفة، تارةً بالعزوف عنه، وتارةً بشكايته لرسول الله صلّى الله عليه وآله، والانتقاص منه، كما في قصّة بريدة[2]، وتارةً أخرى بادّعاء عدم اجتماع النبوّة والخلافة في بيتٍ

(١) تفسير القرطبي: ج١٨ ص٢٧٨؛ نظم درر السمطين: ص٩٣؛ تفسير ابن أبي حاتم الرازي: ج١٠ ص٣٣٧٣، رقم: ١٨٩٨٣، و١٨٩٨٤؛ فيض القدير، المناوي: ج٦ ص٢٨٢ ح٩٠٠٠؛ شواهد التنزيل، الحاكم: ج٢ ص٣٨١ ح١٠٣٠؛ السيرة الحلبيّة: ج٣ ص٢٧٤؛ وقريب منه في: الروضة من الكافي، للكليني: ج٨ ص٥٧ ح١٨؛ فضلاً عن عشرات المصادر الحديثيّة والتفسيريّة والتاريخيّة في مدرسة أهل البيت.

وقد روي أنَّ مثل هذا الموقف السلبي قد صدر من صحابةٍ كبارٍ؛ فعن عمران بن حصين الخزاعي: أنّ بريدة دخل عليه في منزله لمّا بايع الناس أبا بكر، فقال: «يا عمران، أترى القوم نسوا ما سمعوه من رسول الله صلّى الله عليه وآله في حائط بني فلانٍ من الأنصار إذ كان رسول الله صلّى الله عليه وآله ومعه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فجعل لا يدخل عليه أحدٌ يسلم عليه إلّا ردّ، ثمّ قال له: **سلِّم على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب.** فلم يرد على رسول الله صلّى الله عليه وآله أحدٌ إلّا عمر، فإنّه قال: أعن أمر الله أم أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: **عن أمر الله وأمر رسوله**». [أمالي الطوسي: ص٢٨٩ ح٨؛ شرح الأخبار، أبو حنيفة النعمان التميمي المغربي: ج٢ ص٢٥٨ ح٥٦٢].

(٢) عن سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبّاس عن بريدة قال: «خرجتُ مع عليّ إلى اليمن فرأيت منه جفوةً، فقدمت على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فذكرتُ عليّاً فتنقّصتُه، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتغيّر وجهه، قال: **يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟** قلت: بلى يا رسول الله، قال: **من كنتُ مولاه فعليّ مولاه**». مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة

واحد[1]. وما ذلك إلّا حسدٌ له أو بغضٌ له، وتارةً بالحسد الصريح له[2]، أو لضغينةٍ دفينةٍ[3]، أو لأنّهم ما كانوا يرجون منه مالاً ولا ولايةً ولا خلافةً من بعده، فعدلوا عنه طمعاً في تحصيل ذلك من غيره![4] أو لأنّهم كانوا يُحقّقون

الحديثة: ج٣٨ ص٣٢ ح٢٢٩٤٥.

(١) أوّل من ادَّعى هذه الدعوى الباطلة هو عمر بن الخطّاب، وقد احتجّ عليه عمران بن الحصين وبريدة الأسلمي، حيث قال له بريدة ـ وكان رجلاً مفوّهاً جريئاً على الكلام ـ: «يا عمر، قد أبى الله ذلك عليك، أما سمعته يقول في كتابه: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً**﴾ (النساء: ٥٤)، تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٨٩، سطر: ٢٣، حوادث سنة: ٢٣، فقد جمع الله عزّ وجلّ لهم النبوّة والملك. قال: فغضب عمر حتّى رأيت عينيه توقّدتا... فقمنا، وما زلنا نعرف في وجهه الغضب حتّى مات». [شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج٢ ص٢٦٠؛ نهج الإيمان، زين الدين علي بن يوسف بن جبر: ص٤٦٤؛ اليقين والتحصين، رضي الدين علي بن الطاووس الحسني (ت: ٦٦٤هـ): ص٢٧٣].

(٢) سُئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً**﴾ (النساء: ٥٤)، فقال عليه السلام: «**نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله أجمعين**». الأُصول من الكافي، للكليني: ج١ ص٥٠٩ ح١، باب: إنَّ الأئمّة عليهم السلام ولاة الأمر وهم الناس المحسودون.

(٣) وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لذلك في خطبته الشقشقيّة، حيث يقول في سبب ميل بعض الصحابة عنه وتقديم عثمان عليه: «**فصغى رجلٌ منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هنٍ وهنٍ**». [نهج البلاغة: ج١ ص٣٥]. قال الشيخ محمّد عبده: «والضغن: الضغينة؛ يشير إلى سعد بن أبي الوقّاص، والذي مال إلى صهره هو عبد الرحمن بن عوف، وأمّا قوله «مع هن وهن» فيشير إلى أغراضٍ أُخر يكره ذكرها». [المصدر السابق].

(٤) حتّى أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد وجَّه كلمةً لاذعة لعبد الرحمن بن عوف لمّا صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عليّ عليه السلام: «**والله ما**

بإقصائه الحدّ الأدنى من رغباتهم ولو آل الأمر لغيرهم[١].

القسم الثالث: هم الطبقة الطامحة بمقام الخلافة، ولم يجدوا منافساً حقيقيّاً لهم غير عليّ عليه السلام؛ لسابقته وبطولاته وعلمه وقربه من رسول الله ولكثرة ما جاء في حقّه من الآيات المادحة والروايات النبويّة المستفيضة في فضائله ومناقبه، حتّى قال في حقّه أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: «لم يرد في حقّ أحدٍ من الفضائل من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر ممَّا جاء في علي»[٢]، فهؤلاء كانوا يتربّصون بالأحداث ويحاولون الوقوف

فعلتها إلّا لأنّك رجوتَ منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دقّ الله بينكما عطر منشم». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٨]، ففسد الحال بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن، فلم يكلّم أحدهما صاحبه حتّى مات عبد الرحمن، والمراد من «صاحبكما» هو عمر، ومن «صاحبه» هو أبو بكر، في إشارةٍ لطيفةٍ إلى أنَّ عمر إنّما بايع أبا بكر بالخلافة حينها ليردّها عليه في الغد. وهذا ما أشار له الإمام عليه السلام في كلمةٍ له خاطب بها عمر: «**احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه**». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص١١]. وأمّا معنى «منشم»، فقد قال الأصمعي: منشم، بكسر الشين: «اسم امرأة كانت بمكّة عطّارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عطر منشم، فصار مثلاً». [الصحاح تاج اللغة، إسماعيل بن حمّاد الجوهري: ج٥ ص٢٠٤١].

(١) وهذا ما دعا عبد الرحمن بن عوف إلى أن يشترط على الإمام عليّ عليه السلام شرطاً يعلم مسبقاً أنّه لا يقبله منه، وهو العمل بسيرة الشيخين، فرفض الإمام عليه السلام ذلك وقال: «**بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي**». [انظر: الفصول في الأُصول: ج٤ ص٥٥؛ البداية والنهاية: ج١٠ ص٢١٢، سنة: ٢٤؛ تاريخ الإسلام: الذهبي: ج٣ ص٣٠٥؛ فتح الباري: ج١٧ ص٤٤؛ شرح نهج البلاغة: ج١ ص١٨٨].

(٢) راجع: الصواعق المحرقة، دار الكتب العلميّة: ص١٢٠، الباب التاسع، الفصل الثاني

أمام أيّ محاولة للتنصيب، ومنهم من أدرك الخطّة النبويّة في إرسال كبار الصحابة في سريّة أسامة بن زيد لتؤول الأمور إلى الإمام عليّ عليه السلام بهدوءٍ وسلام، ولكنّ المانعين الطامحين للخلافة عصوا أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله ولم يلتحقوا بسريّة أسامة إلّا بعد التهديد النبويّ[١]، ولمّا وقعوا في الإحراج التحقوا بالجيش مكرهين، وعملوا على تأخير حركة السريّة، بل منعوه من التحرّك واختلقوا له الأعذار، حتّى اشتكى أُسامة هذا الأمر للرسول صلّى الله عليه وآله مراراً، فلم يستجب المانعون حتّى سمعوا بأنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يحتضر فتركوا الجيش ودخلوا المدينة وعقدوا تلك الصفقة في السقيفة الأُولى.

وقد روي في أصحّ الكتب عند علماء المسلمين عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ما سيقع من انحرافٍ خطيرٍ، فقد صرَّحت كتب الصحاح بأنَّ كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار سوف يتغيَّرون ويُغيِّرون ويُبدِّلون بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولعلّ أهمّ ما ورد في ذلك ما رواه البخاري نفسه عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**أنا فرطكم على الحوض، وليرفعنّ رجالٌ منكم ثمّ ليختلجنّ دوني، فأقول يا ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[٢]،

في فضائل علي عليه السلام؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٠٧؛ فتح الباري: ج٧ ص٥٧؛ فيض القدير: ج٤ ص٤٦٨؛ ينابيع المودّة: ج٢ ص٣٧١؛ ج٢ ص٣٨٥.

(١) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٣٣٨؛ الملل والنحل، لأبي الفتح محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني: ج١ ص٣٢؛ كتاب الاستغاثة (مخطوط)، لأبي القاسم الكوفي: ج١ ص٢٠؛ كتاب المواقف، الإيجي: ج٣ ص٦٥٠؛ شرح المواقف، الجرجاني: ج٨ ص٣٧٦؛ شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ج٦ ص٥٢؛ المهذّب، عبد العزيز الطرابلسي: ج١ ص١٣. وسيأتي بيان المسألة (تصوير بعث سريّة أسامة) في الفصل الثالث من الكتاب، ضمن عنوان «الإجراء الثالث: تولية أصغر الصحابة سنّاً على كبارهم».

(٢) صحيح البخاري: ج٧ ص٢٠٦؛ ج٨ ص٨٧؛ صحيح مسلم: ج٧ ص٦٧؛ وعشرات

وفي قولٍ آخر عن محمّدٍ بن مطرفٍ عن أبي حازمٍ عن سهل بن سعدٍ قال: «قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **إنّي فرطكم على الحوض، مَن مرَّ عليَّ شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبداً، ليردنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني ثمّ يحال بيني وبينهم** ـ قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عيّاش، فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها ـ **فأقول: إنّهم منّي، فيُقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي**»[1].

وفي روايةٍ أُخرى عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أنّه كان يحدّث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**يرد عليّ يوم القيامة رهطٌ من أصحابي، فيُجلَون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى**»[2].

قد يُقال بأنَّ هؤلاء الذين ارتدّوا من أصحابه صلّى الله عليه وآله قليلون فلا يُلتفت إليهم، إلّا أنَّ أبا هريرة نفسه يُجيب عن ذلك وبنقل البخاري نفسه؛ عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «**بينا أنا قائمٌ فإذا زمرةٌ حتّى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم، فقال: هلمّ، فقلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثمّ إذا زمرةٌ حتّى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم، فقال: هلمّ، قلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم**»[3].

المصادر الأخرى.

(١) صحيح البخاري: ج٧ ص٢٠٧؛ ج٨ ص٨٧؛ صحيح مسلم: ج٧ ص٦٥.

(٢) صحيح البخاري: ج٧ ص٢٠٨.

(٣) المصدر السابق.

قال ابن منظور الأفريقي: «وفي حديث الحوض: فلا يخلص منهم إلّا مثل همل النعم، الهمل: ضوالّ الإبل، واحدها: هامل، أي: إنّ الناجي منهم قليلٌ في قلّة النعم الضالّة»[1].

إذن فهذه الروايات تذكر الصحابة، وأنّ منهم الكثير قد ارتدّوا على أدبارهم القهقرى، والارتداد لابدَّ أن يكون في أمرٍ عظيمٍ جدّاً، فهو ليس ذنباً عاديّاً أو انحرافاً يمكن تداركه، وإنّما انحرافٌ على مستوىً من الخطورة بأن تُردّ شفاعة النبيّ صلّى الله عليه وآله فيهم ولا تُقبل، «**فأقول: يا ربّ أصحابي**»، أي: إنّه صلّى الله عليه وآله يتشفّع لهم، ولكنّ الجواب: «**فيقول: إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى**»!.

هذا مع أنَّ أعلام الرواة يروون بأنّه صلّى الله عليه وآله قد ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أُمّته؛ فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**»[2]، فيكون أُولئك الذين حُرموا من الشفاعة قد ارتكبوا أمراً عظيماً قد خلط الأوراق وأربك الأُمّة، ولذلك فما نتصوّره في المقام هو أنَّ القضيّة التي ارتدّوا فيها وغيَّروا وبدَّلوا وأحدثوا إنّما كانت قضيّةً محوريّةً أساسيّةً بحيث استحقّوا عليها دخول النار وحُرموا من أجلها من الشفاعة الكبرى، وهي مخالفتهم العمل بالوصيّة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالخلافة والإمامة، وهذه المخالفة العظيمة التي غيَّرت وجه التاريخ وأعطت الفرصة كاملةً لقيام إسلامٍ جديدٍ، وهو الإسلام الأموي، لا يمكن بأيِّ حال من الأحوال أن تُبرَّر باسم الاجتهاد، فيكون لمن أصاب منهم

---

(١) لسان العرب: ج١١ ص٧١٠.

(٢) سنن الترمذي: ج٤ ص٤٥ ح٢٥٥٢ ح٢٥٥٣؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٠ ص٤٣٩ ح١٣٢٢٢؛ سنن أبي داود: ج٢ ص٤٢١ ج٤٧٣٩؛ من لا يحضره الفقيه، للصدوق: ج٣ ص٥٧٤ ح٤٩٦٣.

أجران ولمن أخطأ أجرٌ واحدٌ، وإلّا سوف تُبرَّر جميع الانقلابات التاريخيّة على الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

إذن فرسول الله صلّى الله عليه وآله قد بلَّغ الأمّة بشأن الوصيّة، وحذّر من الارتداد على الأعقاب، وقد كان جلّ الصحابة يسمعون ذلك، فهو صلّى الله عليه وآله يُحذّرهم بشكلٍ مباشرٍ، أعني: أولئك الذين كانوا يحيطون برسول الله، كبار الصحابة والمهاجرين، من أهل الحلّ والعقد من الأمّة، ولو كان الأمر لا يخصّهم فلا معنى لتحذيرهم، وكأنّه صلّى الله عليه وآله أراد أن يُوصل لهم رسالةً مباشرةً بأنَّ ما يُخطّط له البعض هو عارفٌ به، وأنَّ مصير هؤلاء ـ ما لم يتوبوا عن أصل النيّة فيه فضلاً عن الفعل ـ هو النار وعدم نيل الشفاعة مطلقاً، فهم في النار، كما هو حال الكفّار والمنافقين.

إنَّ هذه المعطيات تدلّنا على حقيقةٍ مؤلمةٍ، وهي أنَّ الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله كانا يُريدان شيئاً، وهو خلافة عليّ عليه السلام وإمامته، وأنَّ عليّة الصحابة كانوا في سرّهم يريدون شيئاً آخر، فكان إجماعهم قائماً على إقصاء الإمام عليّ عليه السلام، وهذا ما يُفسِّر لنا كثرة التأكيدات من قِبل النبيّ صلّى الله عليه وآله على خلافة عليّ عليه السلام وإمامته ومناقبه في أكثر من موردٍ وموقفٍ[(١)]. فلو علم منهم القبول لما كانت هنالك حاجةٌ شديدةٌ لتلك التأكيدات، وهنالك خبر ترويه مجموعةٌ من كتب مدرسة الصحابة يُصرِّح فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله بأنّ هؤلاء لا يرغبون بخلافة عليّ، وبحسب الخبر «ما أراكم فاعلين»، وهو خبرٌ يرويه لنا الزعيم الأقدم للسلفيّة الإمام أحمد بن حنبل، حيث

---

(١) ولكي لا يقولوا بأنّنا لم يتّضح لنا مقام عليّ وصلاحيّته للخلافة والإمامة، ولذا فقد أغلق رسول الله صلّى الله عليه وآله أمامهم أبواب الاعتذار، وقد تقدَّم منّا نقل كلمة ابن حنبل وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: «لم يرد في حقّ أحدٍ من الفضائل من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر ممَّا جاء في عليّ». تقدّم تصديره. (منه دام ظلّه).

ذكر عن الإمام عليّ عليه السلام قال: «قيل: يا رسول الله من نُؤمِّر بعدك؟ قال: **إن تؤمّروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن تؤمّروا عمر تجدوه قويّاً أميناً، لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمّروا عليّاً ولا أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهديّاً يأخذ بكم الطريق المستقيم**»(١)، وقد روى الحاكم الحسكاني جزءاً من هذا الخبر في شواهده وقال عنه: حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٢)، كما شهد بصحّة إسناده الأستاذ أحمد محمّد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد بن حنبل(٣).

جديرٌ بالذكر: أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان على علمٍ ودرايةٍ بالإجراءات المضادّة لتدابيره، من قبل الخصوم والطامحين، وقد أخبر بما سيقع في الأُمّة، حتّى أنّه عرَّف الإمام عليّاً عليه السلام بما سيجري عليه وعلى أهل بيته عليهم السلام من بعده، وقد نُقلت هذه الأخبار في كتب الفريقين معاً.

وهذه الضغائن قد ترجمها الخصوم عمليّاً، حتّى بلغ بهم الأمر مبلغاً عظيماً، وهذا ما عبَّر عنه الرسول صلّى الله عليه وآله في خبرٍ آخر بالغدر؛ فعن حيّان الأسدي قال: سمعت عليّاً يقول: «قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إنَّ الأمّة ستغدر بك بعدي**»(٤)، وفي المستدرك: «**إنَّ الأمّة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على**

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص١٠٩؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٧٦؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٨٢ ح١٠٠؛ ص٨٣ ح١٠١؛ ص٨٤ ح١٠٢؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٢٠؛ الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٤٦٨.

(٢) انظر: شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٨٣ ح١٠١.

(٣) انظر: المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمّد شاكر: ج١ ص٥٣٧ ح٨٥٩.

(٤) مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٣٧؛ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، نور الدين الهيثمي: ص٢٩٦ ح٩٨٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠

ملّتي وتُقتل على سنّتي، من أحبّك أحبّني، ومن أبغضك أبغضني، وإنَّ هذه ستخضب»[(١)]، قال الحاكم: «مِن هذا»، يعني: لحيته من رأسه، ثمّ علّق على الخبر: صحيح[(٢)].

من هنا يتأكّد لنا حجم المؤامرة، وأنّها لم تكن وليدة وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وأنَّ الخصوم كانوا على استعدادٍ كاملٍ لتقديم كلّ التضحيات في سبيل إيقاف الإسلام المحمّدي، وأنّهم لا سبيل أمامهم غير إزاحة الإمام عليّ عليه السلام حتّى إن اقتضى الأمر الغدر به وبأهل بيته!

هذا، وقد حذّر رسول الله صلّى الله عليه وآله بعض الصحابة الخُلَّص ممَّن علم منهم عدم الحياد عن الوصيّة، كأبي ذرّ الغفاري، حيث قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**يا أبا ذرّ كيف أنت عند ولاةٍ يستأثرون عليك بهذا الفيء؟** قال: والذي بعثك بالحقّ، أضع سيفي على عاتقي وأضرب به حتّى ألحقك. قال: **أفلا أدلّك على ما هو خيرٌ لك من ذلك؟ تصبر حتّى تلحقني**»[(٣)]. وهذا يعني أنَّ

ص٣٢٦ ح٤٧٣٤؛ التاريخ الكبير، محمّد بن إسماعيل البخاري: ج٢ ص١٧٤ ح٢١٠٣؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١١ ص٢١٦، رقم: ٥٩٢٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٤٧؛ تذكرة الحفّاظ: ج٣ ص٩٩٥؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج١ ص٣٧١ ح١٣٩١؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٤٤؛ ج٧ ص٣٦٠؛ أمالي الطوسي: ص٤٧٦ ح٩.

(١) المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٤٢؛ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمّد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ): ج١٠ ص١٥٠.

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٣.

(٣) المعجم الأوسط، للطبراني: ج٣ ص٥٩؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٥ ص٤٤٤ ح٢١٥٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١ ص١٤٨؛ ج٦٦ ص١٩١؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٨ ص١٩١؛ المجموع (شرح المهذّب)، محيى الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ): ج١٩ ص١٩٤؛ نيل الأوطار، الشوكاني: ج٧ ص٣٥٨؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١٠ ص٨٣ ؛ اختيار معرفة الرجال، للطوسي: ج١ ص٥٠.

خروج أبي ذرّ على الظلمة المستأثرين بالفيء لم يكن ممنوعاً عليه، وإنّما كان يطلب له السلامة، لأنَّ ما سيلقاه منهم من إساءاتٍ وتجاوزاتٍ لا يقدر هو على تغييرها، وسوف يُساء له دون أن تُحرِّك الأُمّة ساكناً.

وقد لاحظنا هذه الضغائن والبغض والنفرة، وذلك الغدر التاريخي بحقّ الإمام عليّ عليه السلام، كيف أنّه لم ينطفئ حتّى بعد أن أزاحوه عن مقامه المفروض على الأُمّة قرآناً وسنّةً، فعادوا ليقفوا ضدَّه ويبغوا عليه في جَمَلهم وصفّينهم ونهروانهم؛ إكمالاً منهم لسلسلة المؤامرات التاريخيّة ضدَّ الإسلام المحمّدي الأصيل، وقد كان وقوفهم السلبي في خلافته عليه السلام أشدّ وأعظم من وقوفهم في إزاحته، لأنَّ الخطّ الأموي وجد أنَّ عودة الإمام عليّ عليه السلام إلى الواجهة واستلامه مقاليد الحكم سوف يُسقط جهوداً كبيرةً بذلوها خلال ربع قرنٍ مضى، غيَّروا فيها ما غيَّروا، حتّى لم يسلم شيءٌ من التغيير والتبديل(١)،

---

(١) ولذلك شواهد كثيرة جدّاً؛ فعن عمران بن حصين أنّه قال لمطرف بن عبد الله لما صلّيا خلف الإمام عليّ عليه السلام: «لقد صلّى صلاة محمّد، ولقد ذكّرني صلاة محمّد». [صحيح البخاري: ح٧٨٦؛ صحيح مسلم: ح٧٥٩؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ج٢ ص٦٨]. وقد شهد بهذا بعض خصومه، كأبي موسى الأشعري لمّا صلّى خلف الإمام عليّ عليه السلام، حيث قال: «ذكّرنا عليّ صلاةً كنّا نصلّيها مع النبيّ صلّى الله عليه وآله، إمّا نسيناها وإمّا تركناها عمداً». [صحيح البخاري: ج٢ ص٢٠٩؛ صحيح مسلم: ج١ ص٢٩٥؛ سنن النسائي: ج١ ص١٦٤؛ سنن أبي داود: ج٥ ص٨٤؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٢ ص٢٤٤ ح١٩٤٩٤؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٢٩٦؛ فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٢٠٩؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج١ ص٢٤١]. وعن الزهري أنّه قال: «دخلنا على أنس بن مالك بدمشق وهو وحده يبكي، قلت: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئاً ممّا أدركت إلّا هذه الصلاة وقد ضُيّعت». [صحيح البخاري: ج١ ص١٣٤؛ الجامع الصحيح سنن الترمذي: ج٤ ص٦٣٢؛ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص١٧٥].

ولذلك فلا مجال أمامهم سوى إعلان الحرب عليه؛ دفاعاً عن موروثهم الجاهلي ومشروعهم الأموي، وردعاً للإسلام المحمّدي الذي سلب عنهم امتيازاتهم، ولم يكتفوا بحربه والقضاء على شخصه، وإنّما صاروا بصدد القضاء على شخصيّته، فصار سبّه ولعنه سنّةً أمويّةً تردّدها الأجيال، شبَّ عليها الصغير وشاب عليها الكبير، ولا زال لهذا الإرث الأموي نعراتٌ في بعض أوساطنا الإسلاميّة، فتراهم إذا ما ذكر اسم الإمام عليّ عليه السلام أو واحدٍ من أهل بيته اشمأزَّت نفوسهم، وإذا ما ذُكر خصومه انبسطت!

حتّى أنّ الزعيم الحقيقي للسلفيّة والمنظّر للإسلام الأموي ابن تيميّة الحرَّاني صرّح بأنَّ الكثير من الصحابة كانوا معادين للإمام عليه السلام، فقال: «إنَّ كثيراً من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ـ يعني: عليّاً ـ ويسبّونه ويقاتلونه»[1]،

وقد دخل أبو الدرداء يوماً على زوجته وهو مغضب «فقالت له: ما أغضبك؟ فقال: والله لا أعرف فيهم مِن أمر محمّد شيئاً إلّا أنّهم يصلّون جميعاً». [صحيح البخاري: ج١ ص١٦٦؛ مسند الإمام أحمد، الطبعة القديمة: ج٦ ص٢٤٤؛ فتح الباري: ج٢ ص١٠٩].

حتّى أنَّ عبد الله بن الزبير الذي كان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، كان يقول: «كلّ سنن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد غُيِّرت، حتّى الصلاة». [كتاب الأمّ، محمّد بن إدريس الشافعي: ج١ ص٢٠٨؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٦ ص٣٣ ح١٦١٠٨]. وقد أوجز لنا التابعي الحسن البصري حجم مخالفة الأُمّة لرسول الله صلّى الله عليه وآله في العهد الأمويّ، حيث يقول: «لو خرج عليكم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله ما عرفوا منكم إلّا قبلتكم». [جامع بيان العلم وفضله: ج٢ ص٢٤٤].

ومنه يتّضح وجه قول الإمام الصادق عليه السلام: **«لا والله ما هم على شيءٍ ممّا جاء به رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا استقبال الكعبة فقط»**. [المحاسن، أحمد بن محمّد البرقي: ج١ ص١٥٦ ح٨٩]، أي: إنّهم أحدثوا في ذلك كلّه تغييراً ما، ولذلك كانت الأُمّة بحاجةٍ إلى فتوحاتٍ أُخرى تمسّ واقعها بدلاً من فتوحاتٍ يُصدَّر فيها الإسلام الأمويّ.

(١) منهاج السنّة، لابن تيميّة: ج٧ ص١٣٧.

ولعلّه كان مأنوساً بذلك البغض والسباب والقتال له، وقد غاب عنه[١] حديثٌ قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله في الإمام عليّ عليه السلام، قال فيه ابن أبي الحديد: «وقد اتّفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدّثين، على أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: **لا يبغضك إلّا منافق، ولا يحبّك إلّا مؤمن**»[٢].

وينبغي أن يُعلم بأنَّ تلك المواقف السلبيّة من قبل بعض الصحابة فضلاً عن بني أُميّة، لم تكن وليدة جهلٍ بشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام، بل هي وليدة العلم القطعي بأنَّه يمثّل الامتداد الحقيقي لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فكان لابدَّ لهم من العمل على إزاحته، وقد ألفت الإمام عليّ عليه السلام إلى حقيقة علمهم بمقامه وصلاحيّته للخلافة والإمامة في خطبته الشهيرة الشقشقيّة، حيث جاء فيها: «**أما والله، لقد تقمّصها ابن أبي قحافة، وإنّه ليعلم أنَّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عنّي السيل، ولا يرقى إليّ الطير...**»[٣].

---

(١) أو لم يغب، فبغضه للإمام عليّ لا ينبغي تبريره، ولنعم ما قاله هو عليه السلام: «**إنَّ الله عزّ وجلّ أخذ ميثاق كلّ مؤمنٍ على حبّي، وميثاق كلّ منافقٍ على بغضي، فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني**». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٨٣].

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٨٣.

وهذا الحديث النبويّ الصريح والصحيح رُوي في أمّهات الكتب الحديثيّة والتفسيريّة والتاريخيّة، منها: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص٩٥ ص١٢٨؛ سلسلة الأحادث الصحيحة، للألباني: ج٤ ص٢٩٨ ح١٨٢٠؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠٦ ح٣٨١٩؛ سنن النسائي: ج٨ ص١١٦؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٣٣؛ فتح الباري: ج١ ص٦٠؛ السنن الكبرى، للنسائي: ج٥ ص١٣٧ ح٨٤٨٧؛ ج٦ ص٥٣٤ ح١١٧٤٩؛ المعجم الأوسط، للطبراني: ج٢ ص٣٣٧؛ ج٥ ص٨٧؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٨ ص٤١٦؛ الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٤٦٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٥١ خطبة: (٣).

والخلاصة من كلّ ذلك: أنَّ مساحة القبول والرفض بذلك التنصيب الإلهي النبوي لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام خليفةً للرسول صلّى الله عليه وآله وإماماً على الأُمّة من بعده، كانت خاضعةً لتلك المعطيات، والتي تبدو أنّها كانت تسير باتّجاهٍ معاكسٍ؛ نتيجةً لنكوص النخبة والأمّة، ولتكون بداية الفتن التي ستعصف بهم وكأنّها قطعٌ من الليل المظلم، يتبع بعضها بعضاً، ولم تنجلِ غُبرتها إلّا والأمّة ممزَّقةٌ أشتاتاً.

موقف الإمام عليّ عليه السلام من حقّه في الخلافة

بعد أن عرضنا تلك المعطيات الدالّة على عدم التزام عموم الأُمّة بوصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله في خلافة الإمام عليّ له وإمامته عليه السلام على الأُمّة من بعده، وقبل الوقوف على التدبير الثاني من التدابير النبويّة لحفظ الخلافة من الانقلاب عليها، لابدَّ لنا من الكشف عن دور الإمام عليّ عليه السلام في تعزيز موقفه من صلاحيّته بما أُوصي إليه، ومن ثمّ الكشف عن دور الإعلام الأموي في تشويه صورة دفاع الإمام عليه السلام عن حقّه في ذلك.

بمراجعةٍ يسيرةٍ للتاريخ والأخبار الواردة في الانقلاب الذي حصل بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله يتبيَّن أنَّ صاحب الحقّ في الخلافة والإمامة، وهو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لم يدّخر جهداً في إظهار حقّه وأولويّته بذلك، وقد وثَّق لنا الإمام عليّ عليه السلام في خطبه وكلماته، ولم يُبقِ للقوم حجّةً أو عُذراً في تولّيهم، ولم يترك لهم سبيلاً شرعيّاً، وما كان ذلك منه طلباً لحقٍّ شخصيّ له في الخلافة، وإن كان ذلك حقّه وحده بكلّ المعطيات والمقاييس، وإنّما كان ذلك جزءاً من تكليفه الشرعي، فعندما عُيِّن الإمام خليفةً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وإماماً على الأُمّة بالنصوص القرآنيّة والنبويّة، لا مجال للتراجع عن ذلك، فتراجعه يُعدّ معصيةً عظيمةً، كما هو الحال في الأنبياء، فعندما يُرسَل واحدٌ

منهم لأُمّةٍ فليس له التراجع عن ذلك، لأنّه ليس مُخيَّراً بين القبول والرفض، فنكوصه يكون ذنباً عظيماً، بل ذلك كبيرةٌ ما بعدها كبيرةٌ في المقاسات النبويّة.

من هنا فإنَّ المدوّنات التاريخيّة والأخبار الروائيّة لو خلت ـ جدلاً ـ من ذكر أيّة بادرةٍ للاعتراض أو المواجهة فإنّه بمقتضى إمامته النبويّة والإلهيّة لابدَّ أن يكون قد دافع عن حقّه ووظيفته الدينيّة، فكيف إذا كانت المدوّنات التاريخيّة والأخبار الروائيّة مليئةً بالمواقف الجليّة التي سجَّل فيها اعتراضه الشديد، وتنديده وعزوفه عن الانقلابيّين، حتّى أنّه لم يضع يده في أيديهم إلّا بعد مضيّ ستّة أشهرٍ كاملةٍ، وهي فترةٌ كفيلةٌ بإيصال صوته لأرجاء الأُمّة، ومع ذلك فينبغي الوقوف عند مواقفه الجليّة في اعتراضه على تولّي الطامحين للسلطة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وسنقتصر على تسجيل بعض مواقفه ومواقف أهل بيته ومواقف بعض الصحابة.

الموقف الأوّل: عند سماعه بالسقيفة وأحداثها

لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله «قال عليه السلام: **ما قالت الأنصار؟** قالوا: قالت: منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ. قال عليه السلام: **فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وصَّى بأن يُحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم.** قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟ فقال عليه السلام: لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصيّة بهم. ثمّ قال عليه السلام: **فماذا قالت قريش؟** قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلّى الله عليه وآله. فقال عليه السلام: **احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة**»[1].

وبهذا يكون قد عبَّر عن نفسه بالثمرة؛ للدلالة على أولويّته بالخلافة والإمامة، فلم يقبل منهم حجّتهم في تقدّمهم عليه في الخلافة لمجرّد كونهم من

(١) نهج البلاغة: ج١ ص١١٦، رقم: ٦٧.

قريش، فإنَّ بني هاشم هم هامة قريشٍ وطليعتهم، والعترة الطاهرة ممثّلةً بسيّدها عليّ بن أبي طالب هي سنامهم، وعلى حدّ تعبيره عليه السلام: «**ينحدر عنّي السيل، ولا يرقى إليّ الطير...**»[١].

الموقف الثاني: عندما آلت الأُمور لعمر بوصيّة أبي بكر

بايع المسلمون عمر بالخلافة بين راضٍ ومكرهٍ ومطمئنٍّ ومتخوّفٍ، وجميعهم ينظرون ما يكون من عمر في اليوم الجديد، وأيّاً كان الأمر فإنّه بعد أن تمّت البيعة لعمر، طاف بالناس طائفٌ من الوجوم والانكسار، وخيّم على المدينة جوٌّ من الركود والسآمة، لا يدري الناس ما يطلع به عليهم عمر من أمور[٢].

وقد صدق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في إخباره الغيبي يوم تمّت البيعة لأبي بكر بتخطيطٍ من عمر نفسه، فقال له الإمام: «**احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً**»، ليسجِّل رفضه القاطع للبيعتين معاً.

ولو لاحظنا بعض تصرّفات أبي بكر في خلافته لوجدناها تسير باتّجاه تخليف عمر له، بل إنّ عمر قد مارس الحكم الفعلي في حياة أبي بكر، وفي أكثر من حادثة، كما هو الحال في قصّة المؤلّفة قلوبهم وفي قصّة الذين اقتطع لهم أبو بكر أرضاً. فقد جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر «فقالا: يا خليفة رسول الله! إنّ عندنا أرضاً سبخةً ليس فيها كلاءٌ ولا منفعةٌ، فإذا رأيت أن تقطعناها؟ لعلّنا نحرثها ونزرعها. فأقطعها إيّاهما، وكتب لهما عليه كتاباً، وأشهد فيه عمر وليس في القوم، فانطلقا إلى عمر ليشهداه، فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما، ثمّ تفل فيه ومحاه. فتذمّرا، وقالا مقالةً سيّئةً، قال عمر: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يتألّفكما والإسلام يومئذٍ ذليل، وإنّ الله قد أعزّ

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣١، رقم: ٣.

(٢) انظر: عمر بن الخطّاب، عبد الكريم الخطيب: ص٧٦ـ٧٧.

الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما إن رعيتما، فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمّران، فقالا: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل هو، ولو شاء كان ـ إلى أن قال أبو بكرٍ لعمر ـ...: قد كنت قلتُ لك: إنّك أقوى على هذا منّي، ولكنّك غلبتني!»[١].

وهكذا عاشت الأمّة وضعاً مركَّباً في الحكم، وهو ما اشتمل على تمهيدٍ باطنيّ للخلافة القادمة بقيادة عمر نفسه، وقلَّما كان يجرؤ أحدٌ على إبداء المخالفة أو الاعتراض، اللهمَّ إلّا كلماتٌ صدرت من بعضٍ كانت لهم فيها مآرب أُخرى[٢]؛ حيث تمّ تهيئة الأجواء للقبول بخلافته القادمة، وكأنَّ أمرها قد حُسم

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج٩ ص١٩٥؛ المبسوط، السرخسي: ج٣ ص٩؛ الإصابة: ج٤ ص٦٤٠، رقم: ٦١٦٦، ترجمة عيينة بن حصن؛ وقد روى هذا الخبر أيضاً المتّقي الهندي عن مسند عمر عن عبيدة. وممَّن روى هذا الخبر الدكتور الصلابي. انظر: فصل الخطاب في سيرة ابن الخطّاب: ص٩٤، وقد حاول الصلابي أن يُبرِّر هذا الموقف الضعيف لأبي بكر وتحكّم عمر بالأمور بأنّه «دليلٌ لا يقبل الشكّ أنّ حكم الدولة الإسلاميّة في عهد الخلفاء الراشدين كان يقوم على الشورى»! [المصدر السابق]. ومثل هذا التوجيه ليس بمستبعدٍ عن الصلابي وهو القائل في كتابٍ آخر له: «فأبو بكر رضي الله عنه سيّد الصدّيقين وخير الصالحين بعد الأنبياء والمرسلين، فهو أفضل أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأعلمهم وأشرفهم على الإطلاق»! [أبو بكر الصدّيق شخصيّته وعصره، الدكتور علي محمّد الصلابي: مقدّمة الكتاب]، وما هذا منه إلّا قليلٌ، فهو المنافح عن بني أميّة في كتابه «الدولة الأمويّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار»، والذي جاء في مقدّمة كتابه قوله: «وضحت صفات معاوية... والتي من أهمّها: العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليّته الفذّة وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله»!! فهو يتحدّث عن ورع معاوية وخشيته من الله!

(٢) من قبيل ما نسبوه لطلحة بين عبيد الله أنّه دخل على أبي بكر «فقال له: بلغني يا خليفة رسول الله استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف

خلال السنتين وبضعة أشهر التي حكم فيها أبو بكر.

وأمّا الموقف الثابت للإمام عليّ عليه السلام فهو الرفض الكامل لخلافتهم، فلم يمنحهم الشرعيّة أبداً، وقد حاول البعض إشراك الإمام عليّ عليه السلام في قيادة معركةٍ بعد مقتل أبي عبيدة الثقفي في معركة الجسر فشقّ ذلك على عمر وعلى المسلمين، فدعا عمر الناس واستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثمّ قال لعليّ: ما ترى يا أبا الحسن: أسير أم أبعث؟ فقال: **سر بنفسك فإنّه أهيب للعدوّ وأرهب له**، ولكنّه لم يخرج بنفسه!

ثمّ دعا العباس في جلّةٍ من مشيخة قريشٍ وشاورهم فقالوا: أقم وابعث

إذا خلا بهم وأنت غداً لاقٍ ربّك فسائلك عن رعيّتك؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، أبالله تخوّفني؟ إذا لقيت ربّي فساءلني قلت: استخلفت عليهم خير أهلك. فقال طلحة: أعمر خير الناس يا خليفة رسول الله! فاشتدّ غضبه، فقال: إي والله، هو خيرهم وأنت شرّهم، أما والله لو ولّيتك لجعلت أنفك في قفاك ولرفعت نفسك فوق قدرها حتّى يكون الله هو الذي يضعها، أتيتني وقد دلكت عينك تريد أن تفتنني عن ديني وتزيلني عن رأيي، قم لا أقام الله رجليك، أنا والله لئن عشت فواق ناقة وبلغني أنّك غمضته فيها أو ذكرته بسوء لألحقنّك بخمصات قنة حيث كنتم تسقون ولا تروون، وترعون ولا تشبعون، وأنتم بذلك مبتجّحون راضون، فقام طلحة فخرج. [أنساب الأشراف: ج١٠ ص٨٩؛ أُسد الغابة: ج٣ ص٦٦٥، خلافة عمر وسيرته؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٦١٩، سنة: ١٣؛ ج٢ ص٦٢١؛ شرح نهج البلاغة: ج١ ص١٦٥؛ مجمع النورين، المرندي: ص١٩٨].

وما نراه في المقام: أن هذه الرواية هي من وضع محدّثي بني أُميّة، فالأمويّون لا يغفرون لكلّ من ساهم بقتل عثمانٍ أو حرّض عليه، ومن الواضح أنّ طلحة كان في طليعة المحرّضين، بل والمشاركين في قتله، فكان لابدّ من تحطيم صورته، والغريب أنّه لم يسعفه محاربته للإمام عليّ في الجمل، هذا أوّلاً، وثانياً: إنّهم أرادوا دفع تلك الصفة الألصق بعمر، ويعرفها القاصي والداني، وهي الفظاظة والغلظة، فجاءت التزكية على لسان أبي بكر وبقلمٍ أمويٍّ ذكيّ.

غيرك ليكون للمسلمين وعيّنوا له سعداً بن أبي الوقاص، فقال عمر: أعلم أنّ سعداً رجلٌ شجاعٌ ولكنّي أخشى أن لا يكون له معرفةٌ بتدبير الحرب، ثمّ أشار عليه عثمان بأن يبعث عليّاً بقيادة الجيش، فأجابه عمر لذلك وقال له: القه وكلّمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا، فخرج عثمان فلقي عليّاً فذاكره ذلك، فأبى عليّ عليه السلام ذلك وكرهه[1].

ومن الواضح أنّ عليّاً لا يُتهم في شجاعته، فهو ابن بجدتها، وقد قام الإسلام بسيفه، ولذلك فإنّ وجه رفضه هو أنّه كان يأبى أن يسير في جيوشهم ويكره ذلك، لأنّ هذا الأمر يمنحهم الشرعيّة، كما أنّه يُصيّره جنديّاً سرعان ما سيعزلونه للحطّ من شأنه، ولكنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان لهم بالمرصاد، فحكموا خمساً وعشرين عاماً دون أن يتمكّنوا من الحصول على موقفٍ واضحٍ في تأييدٍ له يمنحهم الشرعيّة.

والموقف الآخر الذي أثبت به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام رفضه القاطع لخلافة عمر هو رفضه لقبول الخلافة المشروطة بالعمل وفقاً لسيرة الرسول صلّى الله عليه وآله وسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر، فإنّ قبوله بذلك يتضمّن منح الشرعيّة لهما ولو كانت متأخّرة، إلّا أنّ عبد الرحمن بن عوف لم ينجح في هذا أيضاً، كما أنّه لم ينجح في إعادة خطّة عمر الذي حلب حلباً نال شطره، فلم ينل ابن عوف شطراً من عثمان، بل مات ابن عوف وهو في خصومةٍ حادّةٍ مع عثمان، استجاب الله تعالى لدعاء عليّ عليه السلام فيه[2].

---

(١) انظر: مروج الذهب، المسعودي: ج٢ ص٣٠٩.

(٢) قال له الإمام عليّ عليه السلام: «**والله ما فعلتها إلّا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دقّ الله بينكما عطر منشم**». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٨]. وقد تقدّم تفسير معنى «عطر منشم».

الموقف الثالث: عندما صيَّرها عمر شورى صوريّة

وهذا ما نجده واضحاً في خطبته الشقشقيّة، حيث يقول: «**فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعةٍ زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم حتّى صرتُ أُقرن إلى هذه النظائر**»[١]، وقد كشف الإمام عليّ عليه السلام مؤامرة عبد الرحمن بن عوف بقوله: «**ليس هذا بأوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون، والله ما ولّيته الأمر إلّا ليردّه إليك**»[٢]، وإذا ما علمنا أنّ عمر قد رجّح كفّة عبد الرحمن عند التساوي في الأصوات، فإنّه تتّضح خيوط المؤامرة جليّاً، وإذا ما وصلت الخلافة لعثمان فإنّ بني أميّة لن يفرّطوا فيها ولو أُبيدوا عن بكرة أبيهم، ولولا قيام الثورة على عثمان وقتلهم إيّاه وانتشار الرعب في قلوب بني أُميّة بعد قتل سيّدهم لما وصلت الخلافة للإمام عليّ عليه السلام قطّ.

الموقف الرابع: عندما آلت الأمور لعثمان

لقد أبدى الإمام عليّ عليه السلام رفضه القاطع لما آلت إليه أمور الخلافة لعثمان بمكيدةٍ أدار خطواتها عبد الرحمن بن عوف ودبّرها من قبل عمر بجعل الشورى السداسيّة، التي ما جُعلت إلّا لإقصاء الإمام عليّ عليه السلام بعدما وجد عمر أنّ التنصيب المباشر لعثمان سوف يخلق ضجّة، لاسيّما وأنّه لم يخلق أجواءً تمهيديّةً لعثمان كما خلقها أبو بكر لعمر، ولم يخلقها عثمان لنفسه كما خلقها عمر لنفسه، بل إنّ عثمان في قرارة نفسه ما كان يحلم بهذا الموقع، ولكن المخطّط التاريخي لعودة بني أُميّة لم يكن له أن ينجح إلّا عبر عثمان، فهو صحابيّ أمويّ لم يقاتل رسول الله، وهو ضعيفٌ أمام عشيرته، فيكون مجرّد سلّمٍ يتسلّق من خلاله

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٩٤.

بنو أُميّة إلى هدفهم الذي كُتبت حروفه الأولى في سقيفة بني ساعدة.

لمّا يئس عبد الرحمن بن عوف من إقناع الإمام عليّ عليه السلام بقبول الخلافة المشروطة بالعمل وفق سيرة أبي بكر وعمر، تقدّم لعثمان وقال له: ابسط يدك يا عثمان، فبسط يده فبايعه، وفي رواية عاصم بن بهدلة عن أبي وائل قال: «قلت لعبد الرحمن بن عوف: كيف بايعتم عثمان وتركتم عليّاً؟ فقال: ما ذنبي بدأت بعليّ فقلت له: أبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر، فقال: فيما استطعت، وعرضتها على عثمان فقبل!»[١]، ثمّ قام القوم فخرجوا، وقد بايعوا إلّا عليّ بن أبي طالب، فإنّه لم يبايع[٢].

وأمّا عثمان فقد خرج على الناس ووجهه متهلّل، فرحاً بنجاح المخطّط التاريخي وتفويت الفرصة ـ بزعمه وفهمه ـ على الإمام عليّ إلى الأبد، وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فقد كان كاسف البال منزعجاً، ولم يخرج حتّى أسمع ابن عوف ما يستحقّه وما يُوقفه على حجم مكيدته للإسلام والأمّة ولأهل البيت، فقال له: **«يا ابن عوف! ليس هذا بأوّل يومٍ تظاهرتم علينا من دفعنا عن حقّنا والاستئثار علينا! وإنها لسنّةٌ علينا، وطريقةٌ تركتموها»**[٣].

وفي خبر الطبري والنميري: «فقال عليّ: **حبوته حبو دهر، ليس هذا أوّل يومٍ تظاهرتم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون. والله ما ولّيت عثمان**

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١ ص٥٦٠ ح٥٥٧؛ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج١٣ ص١٧٠؛ الفصول في الأصول: ج٤ ص٥٥؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص٣٢؛ تاريخ المدينة، ابن شبه النميري البصري: ج٣ ص٩٣٠؛ تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٩٧؛ تاريخ ابن خلدون (القسم الأوّل): ج٢ ص١٢٦؛ أمالي الطوسي: ص٥٥٧؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣.

إلّا ليردّ الأمر إليك»[1]، وهذا ما كان يأمله عبد الرحمن بن عوف من عثمان، بعد أن استوعب ابن عوف السيناريو السابق في تعجيل البيعة من عمر لأبي بكر، ولكنَّ ابن عوف لم ينل بغيته، وبطل سيناريو بيعته، بل لم تدر الأيّام إلّا ووقعت القطيعة الشديدة بينه وبين عثمان!

والآن لنتأمّل في بصيرة الإمام عليّ عليه السلام وهو يكشف للأُمّة كيد ومؤامرة القوم، وكيف أنّ عبد الرحمن لم يكن أكثر من أُلعوبةٍ لخطّةٍ دبّرها عمر في شوراه المزعومة «فلما انصرف أمير المؤمنين عليّ إلى رحله، قال لبني أبيه: **يا بني عبد المطّلب! إنّ قومكم عادوكم بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله كعداوتهم النبيّ في حياته، وإن يطع قومكم لا تؤمّروا أبداً، ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلّا بالسيف**. فدخل عبد الله بن عمر وقد سمع الكلام كلّه، فقال: يا أبا الحسن، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض! فقال: **اسكت ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديماً وحديثاً، ما نازعني ابن عفّان ولا ابن عوف**: فقام عبد الله فخرج»[2].

ولم يهنأ ابن عوف بخلافةٍ صنعتها الشورى العمريّة، فسرعان ما دقّ الله تعالى بينه وبين عثمان عطر منشم، فصار أحدهما لا يطيق الآخر، حتّى أنَّ عثمان لّما عاد ابن عوف في مرضه الذي مات فيه، أشاح ابن عوف بوجهه عنه وما كلّمه، ولكن هيهات ثمّ هيهات، فمضى هو ـ ومن دبّر له من قبل ـ يحمل على عبئه تاريخاً أسود خطّه بنو أُميّة بظلمهم وظلامهم، ويا ابن عوف: ﴿**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ (ص: ٣).

وقد بان الزكام الأموي في الساعة الأُولى من البيعة لعثمان، فقد روى

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٩٧؛ تاريخ المدينة، ابن شبه النميري البصري: ج٣ ص٩٣٠؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٣ ص٧١.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج٩ ص٥٤؛ السقيفة وفدك، الجوهري البغدادي (ت: ٣٢٣هـ): ص٨٨.

الشعبي الأموي النزعة أنّه: لما دخل عثمان رحله، دخل إليه بنو أميّة حتّى امتلأت بهم الدار، ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحدٌ من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذابٍ ولا حساب، ولا جنّةٍ ولا نارٍ، ولا بعثٍ ولا قيامة!»[1].

الموقف الخامس: عندما انتخبته الأُمّة خليفة

اعتاد السياسيون عرض برامجهم في إدارة أمور الدولة على الأُمّة لاستقطابهم وكسب أصواتهم، وعند الفوز يظهرون أمامهم ظهور الأبطال، ثمّ سرعان ما يتنصّلون ـ في الأعمّ الأغلب ـ عن الأعمّ الأغلب من عهودهم ووعودهم.

وفي المقام لم يعرض الإمام عليّ عليه السلام برنامجه، وإنّما جاء الثوار به على رغم أنوف قادة الحزب الحاكم، ولكنّه عليه السلام قرّر في أوّل حكومته أن يُؤكّد أنّ سيرته هي سيرة رسول الله، ولا شيء غير ذلك، فكان لابدّ له من إبطال السيرة السابقة، ولذلك نهض بقوّةٍ وعرّف الأمّة بأخطاء الخلفاء السابقين عليه، والمظنون أنّه أراد أن يؤكّد تلك الحقيقة التي لم يتنازل عنها أبداً، وهي عدم شرعيّة السابقين عليه.

إنَّ منطق الثورة قد سجّل حقيقةً لامعةً، وهي أنَّ عليّاً عليه السلام، المُنصّب خليفةً وإماماً للأُمّة ـ قرآناً وسنّةً ـ عاد ليحكم وبمنطق الثورة ضدّ الاستبداد الأموي. فالإمام عليّ عليه السلام لم تصنعه سقيفة، ولم يأت بكلمةٍ ممّن كانت خلافته فلتةً وقى الله شرّها[2]، ولم يأت بتدبيرٍ دفينٍ سابقٍ وتنفيذٍ من طامعٍ

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) خطب عمر بن الخطّاب ذات يوم فقال: «إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتةً وقى الله شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٢٦؛ صحيح البخاري ح٦٨٣٠؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج١ ص٤٥١ ح٣٩١، قال المحقّق

لاحق، أو قل: لم تحكمه شورى صوريّة.

أو قل هو لم يحكم بمنطق «**احلب حلباً لك شطره**»، وإنّما حكم بمنطق الثورة التي أنصفته، ولولاها لما عرف الإمام عليّ عليه السلام طريقاً للخلافة في ظلّ الاستبداد الأموي الذي بلغت صفقاته إلى حدّ أن يقول بعض أعضاء الحزب الحاكم والفاسد: أرض السواد بستان قريش![1]؛ لأنّهم ملكوا البلاد والعباد بحدِّ السيف وشهوة المال، حيث امتلكوا ناصية الأمور بما يُطلق عليه في عصورنا هذه بالأحكام العرفيّة، التي هي تعبيرٌ آخر عن الأحكام الدامية[2].

شعيب الأرنؤوط عن هذه الرواية: إسناد حديث السقيفة صحيحٌ على شرط مسلم، رجاله ثقاتٌ رجال الشيخين غير إسحاق بن عيسى الطباع فمِن رجال مسلم؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: ج٣ ص٥٠؛ غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي: ج٣ ص٣٥٥؛ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج٣ ص٤٦٧]. وقد تحيَّر العسقلاني والنسائي وابن حبّان وغيرهم في توجيه هذه الكلمة الدالّة على عدم صلاحيّة أبي بكر للخلافة، وبلسان عمر المؤسّس لخلافتهما معاً، وقد كانت فلتةً بالفعل؛ ومن آثار تلك الفلتة تولّيه اللاحق له. [انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج١٢ ص١٣٢؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٤ ص٢٧٢؛ صحيح ابن حبان: ج٢ ص١٥٨].

(١) نُسبت هذه الكلمة لأكثر من شخص، إلّا أن المشهور فيها نسبتها لسعيد بن العاص الأموي، حيث قال: إنّما هذا السواد بستان قريش! فقال له مالك الأشتر: السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا تزعم أنّه بستان لك ولقومك! [الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي (ت: ٢٠٠هـ): ص٤٥؛ تاريخ ابن خلدون: ج٢ ص١٤٠، وص١٤٢؛ تاريخ الإسلام الذهبي: ج٣ ص٤٣١].

والمراد من أرض السواد: أرض العراق، وقد سُمّي بذلك لصلاح أراضيه للزراعة، فكان لون الزرع شديد الخضرة مائلاً للسواد، والعرب تسمّي ذلك بالسواد.

(٢) قال العلّامة العلايلي: «وينبغي أن لا يفوتنا التنبيه على أنَّ نظام الحكم في عهد الملوك الأمويّين لم يكن إلّا ما نسمّيه في لغة العصر بنظام الأحكام العرفيّة، وهذا النظام الذي يهدر الدماء ويرفع التعارف على المنطق القانوني، ويهدّد كلّ امرئ في وجوده، وفي هذا

ولنتأمّل في تشخيصه عليه السلام الدقيق للحكومات السابقة:

أوّلاً: وصفه لحكومة أبي بكر بقوله: «**حتّى مضى الأوّل لسبيله فأدلى بها إلى فلانٍ بعده... فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته. لشدّ ما تشطّرا ضرعيها...**».

ثانياً: وصفه العميق الدقيق لحكومة عمر بقوله: «**فصيّرها في حوزةٍ خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم، فمُني الناس لعمر الله بخبطٍ وشماس، وتلوّنٍ واعتراض، فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعةٍ زعم أنّي أحدهم. فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم حتّى صرتُ أُقرن إلى هذه النظائر؟!**».

ثمّ يصف حكومة عثمان بقوله: «**إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته...**»[1].

وهنالك مواقف أخرى للإمام عليّ عليه السلام قد بيَّن فيها حقّه الشرعي في الخلافة، وما جرى عليه بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله[2].

العصر إذا كان يتّخذ في ظروفٍ استثنائيّةٍ ولحالاتٍ خاصّةٍ، يستهدف بها الإرهاب وإقرار الأمن، فقد كان في العهد الأموي هو النظام السائد ـ إلى أن يقول ـ كان الصراع بين علي ومعاوية ليس صراعاً شخصيّاً فقط، بل صراعٌ بين مبدأين في مواقف حاسمة، صراعٌ بين الخلافة التي معناها النيابة عن الأمّة، وهي تتضمّن معنى الرعاية والحدب والانتفاء من الاحتكام، وبين الملك الذي معناه الغلبة والسيطرة وجمع الحرّيات باليد الواحدة وضغطها إلى درجة الانحناء أو الإجهاز». [الإمام الحسين، العلايلي: ص١٢ـ١٣].

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣٢، خطبة رقم: ٣.

(٢) والتي من أبرزها موقفه عليه السلام عند مطالبة القوم منه بيعة أبي بكر، فقد روي أنَّ أبا بكر

قد أرسل قنفذاً للإمام عليّ يدعوه ليبايع «فقال عليّ: **سبحان الله؟ لقد ادّعى ما ليس له.** فرجع قنفذ، فأبلغ الرسالة، فبكى أبو بكر، ثمّ قام عمر فمشى معه جماعة، حتّى أتوا باب فاطمة، فدقّوا الباب، فلمّا سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: **يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطّاب وابن أبي قحافة.** فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر، وبقي عمر ومعه قومٌ فأخذوا عليّاً ومضوا به إلى أبي بكر. فقالوا له: بايع. فقال: **إن أنا لم أفعل فمه؟** قالوا: إذن والله الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك! فقال: **إذن تقتلون عبد الله وأخا رسوله.** قال عمر: أمّا عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا، وأبو بكرٍ ساكتٌ لا يتكلّم. فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه». وقد ورد هذا الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ، وتارةً بشكلٍ مفصّلٍ وأخرى بشكلٍ مختصر، ولكنَّ جميعها تؤدّي إلى نفس الفكرة والمضمون. [انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ج١ ص١٩ـ٢٠؛ تلخيص الشافي، للشيخ الطوسي: ج٢ ص١٤٤ـ١٤٥؛ أعلام النساء، عمر رضا كحالة: ج٤ ص١١٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٥٦؛ ج٦ ص١١؛ الفتوح، ابن الأعثم: ج١ ص١٣؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٢٦؛ ومصادر أخرى نقلت الخبر المفصّل وبألفاظه عن كتاب «الإمامة والسياسة»]. وفي هذا الخبر دلالةٌ واضحةٌ على رفض الإمام عليّ عليه السلام لبيعتهم، حتّى مضى لداره ولم يُبايع.

ومنها أيضاً: عندما ذهب عمر ومعه جماعةٌ إلى بيت فاطمة، فانطلقوا بعليّ ومعه ثلّةٌ من بني هاشم، وعليّ عليه السلام يقول: «**أنا عبد الله وأخو رسول الله صلّى الله عليه وآله،** حتّى انتهوا به إلى أبي بكر. قيل له: بايع. فقال: **أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم المقادة، وسلّموا إليكم الإمارة، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلّا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.** فقال عمر: إنّك لست متروكاً حتّى تبايع. فقال له عليّ: **احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه.** فقال له أبو بكر: فإن لم تبايعني لم أكرهك». [وقد ورد هذا الخبر في: الإمامة والسياسة: ج١ ص٢٨؛ السقيفة وفدك، الجوهري: ص٦٢؛ شرح نهج البلاغة: ج٦

نحن الشعار والأصحاب

من روائع ما ورد عنه عليه السلام خطبة عرَّف بها بتلك الذيول التي خاضت بحار الفتن، فغرقت في ظلمات جهلها، وصارت السنّة عندهم بدعة،

ص١١]. وفي الخبر دلالةٌ واضحةٌ على رفضه القاطع لبيعة أبي بكر، وأنّه بقي على موقفه فلم يبايع، كما أنّه نصٌّ صريحٌ في الكشف عن سرّ حرص عمر على أخذ البيعة منه لأبي بكر، وهذا من فراسة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومعرفته ببطانة القوم، وقد نُسب للإمام عليّ عليه السلام أنّه لما علم باحتجاج القوم بالقرابة في بيعة أبي بكر، قال:

فإن كنتَ بالشورى ملكتَ أمورهم ... فكيف بذاكا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقربى حججتَ خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبيّ وأقرب

كما روي أيضاً: أنّه لما نصح أبو عبيدة الجراح عليّاً بتقديم البيعة لأبي بكر لكبر سنِّه وطول تجربته، قال عليّ عليه السلام: **الله الله يا معشر المهاجرين، لا تُخرجوا سلطان محمّدٍ في العرب عن داره وقعر بيته، إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ الناس به؛ لأنّا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعيّة، المدافع عنهم الأمور السيّئة، القاسم بينهم بالسويّة، والله إنّه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحقّ بعداً**. [انظر: المصادر السابقة].

إنَّ ما جاء في هذه الروايات التي تتعلَّق ببيان موقف الإمام عليّ عليه السلام من خلافة أبي بكر، يعتبر من الوسائل المهمة في حفظ الخلافة الإلهيّة، وعدم القبول ببديلٍ عنها، كما أنّها من الرسائل الصريحة للأجيال القادمة في ما ينبغي أن نتّخذه من إجراءاتٍ في المنافحة عن الخلافة الإلهيّة، فنحن وإن كنا ولا زلنا نعمل للمصلحة العامّة لكافّة المسلمين، ونعمل على رأب الصدع ونبذ الخلاف والاختلاف المشين، إلّا أنَّ ذلك لا يمنعنا البتّة من بيان الموقف الصحيح والصريح من الخلافة الإلهيّة النصّية الشرعيّة والخلافة غير الشرعيّة، فالنصيحة للأمّة ليس بالسكوت عمَّا انتهت إليه وإن خالف الحقّ، وإنّما النصيحة ببيان الحقّ، ولا نلزم أحداً بما نقول، فليس من الإنصاف إرغام الناس على ما نعتقد، ولكن ليس من الإنصاف أيضاً ممارسة الخداع معهم والتدليس عليهم. (منه دام ظلّه).

والبدعة سنّة، فصمت المؤمنون ونطق الضالّون، ثمّ عرَّف بمقامه الشامخ؛ قال عليه السلام: «**قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السنن، وأرز المؤمنون، ونطق الضالّون المكذّبون. نحن الشعار والأصحاب، والخزَنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً**»[١]، وقد أمرنا الله تعالى بأن نأتي البيوت من أبوابها في قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٩)، وقد ورد في الحديث الصحيح عند الفريقين قوله صلّى الله عليه وآله: «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب**»[٢]، قال الحاكم النيسابوري: هذا حديثٌ صحيح الإسناد.

فمن جاء من غير باب الإمام عليّ عليه السلام وأراد أن يدخل مدينة العلم الممثّلة بالنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله والإسلام، فإنّه مجرّد سارق، والسارق تُقطع يده، لا أن تُقبّل يده.

قال ابن أبي الحديد: «وهذا حقٌّ ظاهراً وباطناً، أمّا الظاهر فلأنّ من يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأمّا الباطن فلأنّ مَن طلب العلم من غير أستاذٍ محقّقٍ فلم يأته من بابه، فهو أشبه شيءٍ بالسارق»[٣].

ولك أن تسأل: لماذا علينا أن نأتي من بابه وحده؟

والجواب جاء في ذيل هذه الخطبة حيث قال: «**فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، فليصدّق رائدٌ أهله، وليحضر عقله،**

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص٤٣، خطبة رقم: ١٥٤؛ شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ج٩ ص١٦٤.
أرز المؤمنون: انقبضوا، وأمّا الشعار فهو ما يلي الجسد من الثياب، وهو أقرب من سائرها إليه، ومراده اختصاصه برسول الله صلّى الله عليه وآله، فهو بطانته.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٩٦ ح٤٦٩٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص١٦٤.

وليكن من أبناء الآخرة، فإنّه منها قدم وإليها ينقلب...»[١].

وقد أوضح محمّد عبده معنى الكرائم بقوله: «والكرائم: جمع كريمة، والمراد: أنزلت في مدحهم آياتٌ كريماتٌ. والقرآن كريمٌ كلّه، وهذه كرائم من كرائم»[٢].

ثمّ كشف الشيخ عبده عن سرٍّ كونهم لا يُسبقون إذا صمتوا، بقوله: «لم يسبقهم أحدٌ إلى الكلام وهم سكوت، أي: يهاب سكوتهم فلم يجرؤ أحدٌ على الكلام فيما سكتوا عنه»[٣]، أي: ليس لأحدٍ أن يطال ما سكتوا عنه، علماً وعملاً.

أين يُتاه بكم؟ بل كيف تعمهون؟

وفي خطبةٍ أُخرى يصف أُناساً سمّوا أنفسهم علماء وهم جُهّال، ولعلّه أراد بهم من نصّبوا أنفسهم للناس أعلاماً من دونهم، وهم أئمّة الضلال؛ يقول عليه السلام: **«وآخر قد تسمّى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلّال، ونصب للناس شركاً من حبائل غرورٍ وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحقّ على أهوائه، يُؤمِّن من العظائم، ويُهوِّن كبير الجرائم، يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع! وأعتزل البدع وبينها اضطجع! فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتّبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، فذلك ميّت الأحياء»**[٤].

ثمّ يُنبّه للخطر العظيم من متابعة الناس للواجهات المزيّفة، لاسيّما مع وجود العترة الطاهرة، الذين هم أعلام الدين، حيث يقول: «**فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم؟! بل**

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص٤٤، خطبة رقم: ١٥٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّ وأعلام الدين وألسنة الصدق؟! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش»(١).

فهلمّ إليهم مسرعين، وانهلوا من فيضهم الأسنى وعلومهم الغرَّى، كما تسرع الإبل العطشى إلى الماء، فإنّهم لا يخرجونكم من هدى ولا يدخلونكم في ضلال.

على بيّنة من ربّه ومنهاج نبيّه والطريق الواضح

هكذا يصف أمير المؤمنين نفسه، فقوله وفعله وسكوته محكومٌ لتلك البيّنة من ربّه وخاضعٌ لمنهاج نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله، وعلى الطريق الواضح الذي لا تشوبه شائبة؛ قال عليه السلام: «**وإنّي لعلى بيّنةٍ من ربّي، ومنهاجٍ من نبيّي. وإنّي لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً**»(٢)، قال محمّد عبده: «اللقط: أخذ الشيء من الأرض، وإنّما سمّى اتّباعه لمنهاج الحقّ لقطاً، لأنّ الحقّ واحدٌ والباطل ألوانٌ مختلفةٌ، فهو يلتقط الحقّ من بين ضروب الباطل»(٣).

ثمّ يُبيّن أنّ أهل البيت هم وحدهم من يجب التمسّك بهم من دون الناس جميعاً، حيث يقول: «**انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتّبعوا أثرهم، فلن يُخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى. فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا**»(٤)، والسمت ـ بالفتح ـ طريقهم

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص١٥١ـ١٥٤، خطبة رقم: ٨٧.

قال الشيخ محمّد عبده: «تؤفكون: تقلبون وتصرفون بالبناء للمجهول، والأعلام: الدلائل على الحقّ من معجزات ونحوها، والمنار: جمع منارة، والمراد هنا: ما أقيم علامةً على الخير والشرّ، ويتاه بكم: من التيه بمعنى الضلال والحيرة، وتعمهون: تتحيّرون». [المصدر السابق].

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص١٨٧ـ١٨٩، خطبة رقم: ٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

أو حالهم أو قصدهم، واللبد هو الالتصاق بالأرض، كنايةً عن التريّث وعدم النهوض[١].

هذا ما نقرأه في سيرة الإمام عليّ عليه السلام، فهو ناطقٌ بالحقّ ولا يخشى في الله لومة لائم، دأبه الصدق وطريقته الوضوح، ونظراً لشدّة هذا الوضوح نجد أتباع الإسلام الأموي يثيرون الشكوك بكلماته، بل ويطعنون بها عن طريق تكذيب أصل هذه الكلمات والخطب، فهذا زعيم الإسلام الأموي في عصره ابن تيميّة يقف في مواجهة هذه الخطب الفاضحة لذلك الانحراف التاريخي الخطير فيقول: «وأهل العلم يعلمون أنّ أكثر خطب هذا الكتاب مفتراةٌ على عليّ»[٢].

إذن فالإسلام الأموي الوهّابي يختصر على أتباعه الطريق، فيتّهم كتاب نهج البلاغة بعدم الصحّة، وأنّ أكثره مفترىً على الإمام عليّ، وكأنّ الإمام قد ارتكب خطلاً أو وقع في زللٍ فيدفع ابن تيميّة عنه ذلك، والواقع أنّه أراد أن يدفع عن الانقلابيّين زللهم وخطلهم، فلم يكن عنده سوى تكذيب هذه الخطب!

وهذا ما يكشف لنا عن عظيم بصيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله عندما أفصح عن أمرٍ خطيرٍ يتعلّق بخلافة عليّ عليه السلام وإمامته، وهو أنّ هذه الأمّة لن تولّي عليّاً أمورها، رغم أنّه على الهدى، حيث تقدّم قوله صلّى الله عليه وآله: «**وإن تؤمّروا عليّاً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهديّاً، يأخذ بكم الطريق المستقيم**»[٣]، وتعليق الحاكم على جزءٍ من هذا الخبر، قال: حديثٌ صحيحٌ على

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٧ ص٧٧.

(٢) منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة (طبعة ٤ مجلدات): ج٤ ص١١٤؛ وأيضاً في (طبعة ٨ مجلدات): ج٧ ص٨٧.

(٣) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج١ ص٥٣٧ ح٨٥٩؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٥ ص١٧٦؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٢؛ ج٤ ص١٥ ح٤٤٩١؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٨٢ ح١٠٠،

شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد شهد بصحّة إسناده ـ كما تقدَّم ـ مُحقّق كتاب مسند أحمد بن حنبل.

وفي ضوء المنهج الأموي الذي أثّر في نفس البخاري ومسلم وأخذ منهما مأخذاً عظيماً، يكون من المنطقي جدّاً عدم تخريج مثل هذا الخبر وغيره من الأخبار الدالّة على حقّية وأحقّية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وعلى هذا المنهج الأموي سار ابن تيميّة وأتباعه، في تكذيب الأخبار الواردة في حقّ عليّ عليه السلام ولكن بطرقٍ مختلفةٍ، إمّا بعدم تخريجها على طريقة الصحيحين! أو بالطعن فيما هو مشهورٌ من الأخبار ووصفها بأنّها مفتراةٌ، على طريقة ابن تيميّة! ولكنّ الحقيقة الواضحة الناصعة لا يخدشها سراب كلماتٍ حاقدةٍ، والشمس البهيّة الساطعة لا يضرّها سحبٌ سوداء حسودةٌ زائلةٌ، وقد طوَّق رسول الله صلّى الله عليه وآله سرابيّة الكلمات والسحب السوداء بطوقٍ فاضحٍ لا انفكاك عنه، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**عَهِدَ إليَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله: أنّه لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»، قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1].

لا يقاس بآل محمّد من هذه الأمّة أحد

وهنا يصدع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بأمرٍ يقطع الطريق أمام الطامحين، ممّن يرون في أنفسهم أحقّية التقدّم على أهل البيت عليهم السلام، إذ لا يُقاس بآل محمّد أحدٌ من سائر أبناء الأمّة؛ لأنّهم أساس الدين وموضع الولاية والوصيّة والوراثة، فإذا ما رجعت الأمور لهم، يكون الحقّ قد رجع لأهله، ونُقل إلى منتقله الحقيقي والصحيح.

وص٨٣ ح١٠١، وص٨٤ ح١٠٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٢٠؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٨.

(١) تقدّم تخريج الحديث.

قال عليه السلام: «**لا يقاس بآل محمّد صلّى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحد، ولا يُسوَّى بهم مَن جرت نعمتهم عليه أبداً؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفئ الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله، ونُقل إلى منتقله**»(١).

الخلافة والإمامة في عليّ وآل عليّ

وهنا يُشخّص المصداق فيمن تصلح له الخلافة والإمامة، فالخلافة والإمامة في هذا البطن العلوي من هاشم من قريش، ولا يصلح لها سواهم؛ لسابقةٍ وكفاءةٍ أحرزوها، ولاجتباءٍ إلهيّ اقتضته الحكمة الإلهيّة القائمة على بناءٍ قِيَميّ ومصالح عليا، لا نملك إزاءها إلّا الامتثال والطاعة، وقد نبّهت روايات العترة عليهم السلام على هذا الانحصار بهم في أكثر من مناسبة؛ قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**إنَّ الأئمّة من قريش، غُرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم**»(٢).

ولكن لماذا لم تستجب الأُمّة لهم؟ ولماذا قد أزاحوها عن حوزتها ووضعوها في غير موردها؟ هنا يُجيب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بكلماتٍ واضحةٍ جليّةٍ تكشف عن مأساة الموقف وفضاعة الجريمة، حيث يقول: «**آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً، وتركوا صافياً وشربوا آجناً**»(٣).

ولكنّ ذلك ما جناه وأسّس له السابقون، فما بال اللاحقون؟

قال عليه السلام: «**إنّها صحبة المنكر والألفة به، كأنّي أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، وبَسِئَ به ووافقه، حتّى شابت عليه مفارقه، وصبغت به خلائقه،**

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٢٧، خطبة رقم: ٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧، خطبة رقم: ١٤٤.

(٣) المصدر السابق. والآجن: الماء المتغيّر اللون والطعم.

ثمّ أقبل مزبداً كالتيّار لا يبالي ما غرَّق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق»(١).

ثمّ يستنهض الهمم للخروج من ظلمات ما أسّس له السابقون، حيث يقول: **«أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى، أين القلوب التي وهبت لله وعوقدت على طاعة الله؟»**(٢).

أخيراً: كيف دفعهم قومهم عن مقامهم وهُم أحقّ به؟!

وهنا يسأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به؟ فقال: **«أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدّون برسول الله صلّى الله عليه وآله نوطاً، فإنّها كانت أثرةً شحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم الله والمعود إليه القيامة.**

ودع عنك نهباً صيح في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل

وهلمّ الخطب في ابن أبي سفيان، فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه، ولا غرو والله فيا له خطباً يستفرغ العجب ويكثر الأود»(٣).

وفي الاستشهاد بشعر امرئ القيس لطافةٌ واضحةٌ، فإنّه يريد القول: أيّها السائل دع عنك حديث الناهبين لتراثنا ومقامنا ممّا سلف من القوم الماضين، تعال إلى ذيلهم معاوية الذي ما كفاه أخذ ما تقدّم فجاء لينهب ما بقي(٤).

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص٢٧، رقم: ١٤٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٨٩. قوله: «بَسِئَ به»: ألفه واستأنس به، فيقال: «ناقة بسوء»، أي: ألفت الحالب ولا تمنعه.

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص٢٧، خطبة رقم: ١٤٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٦٣، خطبة رقم: ١٦٢.

(٤) كان امرؤ القيس ـ أحد أفضل شعراء المعلّقات ـ جاراً لخالد بن سدوس، فأغار عليه بنو جديلة فذهبوا بأهله وإبله، فشكا لمجيره خالد، فقال له: أعطني رواحلك ألحق بها القوم فأردّ إبلك وأهلك، فأعطاه، ثمّ أدرك خالدٌ القوم فقال لهم: ردّوا ما أخذتم من جاري،

وفي مورد آخر حين سأله الأشعث بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنّي سمعتك تقول: ما زلتُ مظلوماً! فما منعك من طلب ظلامتك والضرب دونها بسيفك؟ قال عليه السلام: «**يا أشعث منعني من ذلك، ما منع هارون عليه السلام إذ قال لأخيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾**»(١).

فهل يُتصوّر بعد ذلك كلّه أنّه عليه السلام قد بايع القوم أو رضي بفعلهم؟

من هنا يرى الشيخ المفيد: أنَّ المحقّقين من علماء الإماميّة قد ذهبوا إلى أنّه عليه السلام لم يبايع ساعةً قطّ ، وأنّه قد حصل الإجماع على تأخّره عن البيعة(٢)، وفي ذلك يقول الشيخ الطوسي: «والشيعة مجمعون على أنَّ إباءه عليه السلام عن البيعة لم يكن متخصّصاً بستّة أشهر، وأنّه لم يبايع أحداً أبداً»(٣).

الموقف السادس: مواجهة الزهراء البتول عليها السلام لما جرى في السقيفة

كان للزهراء سلام الله عليها موقفٌ واضحٌ وجليّ من خلافة أبي بكر، وقد حاججته في أكثر من مورد، معلنةً سخطها وعدم رضاها بالإجراءات التعسّفيّة

فقالوا: ما هو لك بجار، فقال: والله إنّه جاري وهذه رواحله، فقالوا: رواحله؟ فقال: نعم. فرجعوا إليه وأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ! وقيل بأنّ خالداً قد أكمل عمليّة النهب فذهب برواحله. فيكون عليه السلام قد كنّى عن السابقين ببني جديلة الذين سرقوا الأكثر من الأهل والإبل، وقد كنّى عن معاوية بمن أجهز على المتبقّي، وهي الرواحل؛ وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ جدّاً إلى أن ما سبق من نهبٍ هو ربع قرن من عمره الشريف، وأمّا ما لحق فهو المتبقّي القليل من عمره.

(١) المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، محمّد بن جرير الطبري الإمامي: ص٣٧٠، رقم: ١٢١؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص٢٨٠. والآية: ٩٤ من سورة طه.

(٢) انظر: الفصول المختارة، المفيد: ص٥٦.

(٣) اختيار معرفة الرجال، للطوسي: ج١ ص٢١٤.

للحزب الحاكم، حتّى أنّها وصفتهم بأوصافٍ عكست فيها بصيرتها بهم، فضلاً عن شجاعتها وذودها عن الحقّ وتفانيها في قضيّتها، ولم يتغيّر موقفها إلى آخر لحظةٍ في حياتها، حيث سجّلت ذلك أمام نسوةٍ جئن في عيادتها؛ قلن لها: كيف أصبحت يا ابنة رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ وهنا تُقارن بين عزوفها عن الدنيا وبين تكالب القوم عليها، فتقول مجيبةً: «**والله أصبحت عائفةً لدنياكم، قاليةً لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحدّ، وخور القناة، وخطل الرأي، وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم: أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. لا جرم! قد قلّدتهم ربقتها، وشنّت عليهم غارتها، فجدعاً وعقراً وسحقاً للقوم الظالمين!**».

ثمّ تغتنم بنت رسول الله فرصة الردّ لبيان سرّ تكالبهم على الدنيا وما ستؤول الأمور إليه، وهو أنّهم استأثروا بالحكم غصباً وعدواناً، فأزاحوا الخلافة عن موضعها الذي لا يصلح لها سواه، فتقول: «**ويحهم! أنّي زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة ومهبط الوحي الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين**».

ثمّ تبيّن خلفيّة العزوف عن أمير المؤمنين عليّ، وهو أنّه الشديد في ذات الله، الشجاع القويّ الذي لا تأخذه فيه لومة لائم، فلا يجامل في الحقّ ولا يداهن، حيث تقول: «**وما نقموا من أبي حسن، نقموا والله منه نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمّره في ذات الله عزّ وجلّ، والله لو تكافوا عن زمامٍ نبذه رسول الله صلّى الله عليه وآله لاعتلقه، ولسار بهم سيرا سجحاً لا يكْلُم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً، قد تخيّر لهم الريّ غير متحلٍّ منه بطائل إلّا بغمر الماء وردعه سورة الساغب، ولفتحت عليهم بركات السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون**».

ثمّ تستعرض البديل الذي تمخّضت عنه سقيفتهم، فتصفه بأوصافٍ مرعبةٍ، لم تبقِ فيها ما يُرجى له فيه من خيرٍ أو صلاحٍ، ثمّ تصف القوم الذين ارتضوه بالمفسدين، وأنّه ساء ما كانوا يحكمون، حيث تقول عليها السلام: «**ألا هلمّ فاسمع،**

وما عشت أراك الدهر العجب! وإن تعجب وقد أعجبك الحادث، إلى أيّ إسناد استندوا؟ وبأيّة عروةٍ تمسّكوا؟ لبئس المولى ولبئس العشير ولبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا الذنابى والله بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قومٍ يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٢)، **﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** (يونس: ٣٥)؟».

ثمّ تبيّن محصّلة فعلهم، وما سيؤول إليه الأمر في المستقبل القريب والبعيد، وكأنّها تقرأ أوراقه سطراً سطراً وكلمةً كلمةً، حيث تفصح عن مكنون القادم، وهو نتاج فعل القوم، وأن المتمسّكين بهم ـ سابقاً ولاحقاً ـ سيتّضح لهم عظيم جرم السابقين المؤسّسين لذلك الجرم التاريخي بزحزحة الخلافة عن موردها ودوحتها وحوزتها إلى قومٍ لا يحسنون صنعاً بغير الهادي لهم، حيث تقول:

«**أما لعمر الله لقد لقحت، فنظرةٌ ريثما تنتج، ثمّ احتلبوها طلاع القعب دماً عبيطاً، وزعافاً ممقراً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنّوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيفٍ صارمٍ وهرجٍ شاملٍ واستبدادٍ من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً**».

وأخيراً تأخذها الزفرات الحارقة؛ لعظيم جرم القوم بحقّ العترة، فتصفهم بالعمى وأنّهم قوم لا يرعوون، ولا يُرجى منهم العود للحقّ والقبول به، بل هم كارهون للحقّ، راغبون عنه، مقبلون على الدنيا وبهرجتها، بجاهٍ وسلطانٍ، وظنّهم أنّهم يحسنون صنعاً، حيث تقول: «**فيا حسرةً عليكم وأنّى لكم وقد عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾** (هود: ٢٨)**! والحمد لله ربّ العالمين، وصلاته على محمّدٍ خاتم النبيّين وسيّد المرسلين**»[1].

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٦ ص٢٣٣؛ معاني الأخبار، الشيخ الصدوق: ص٣٥٤ ح١، باب: معاني قول فاطمة عليها السلام لنساء المهاجرين؛

إنَّ هذه الخطبة المليئة بالحرارة والزفرات والألم، تعكس لنا حجم المؤامرة، وعظيم الخسارة، ولو تأمّلنا في آخر سطورها «**أما لعمر الله لقد لقحت... وجمعكم حصيداً**» سنكتشف أيّ بصيرةٍ كانت عليها بنت الرسالة، فما قالته وقع بأبشع صوره، من سيفٍ مصلتٍ على رقاب الناس بالظلم والاستبداد، والهرج الشامل، يأكل فينا القاصي والداني، ولا شيء غير الذلّ والهوان!

الموقف السابع: مواجهة الإمام الحسن عليه السلام لأبي بكر

كان سنّ الإمام الحسن في أوّل خلافة أبي بكر ستّ سنوات، فرأى أبا بكر وهو يخطب على المنبر، فقال له: انزل عن منبر أبي، فقال أبو بكر: صدقت، والله إنّه لمنبر أبيك لا منبر أبي، فبعث الإمام عليّ عليه السلام إلى أبي بكرٍ يخبره بأنّه غلامٌ حدثٌ، وأنّا لم نأمره، فقال أبو بكر: صدقت، إنّا لم نتهّمك[1].

وهنا يُسجّل الإمام الحسن ـ وهو طفلٌ حدثٌ ـ موقفاً واضحاً وصلباً من خلافة أبي بكر، كما أنَّ أبا بكر يسجّل اعترافاً خطيراً بأنَّ هذا المنبر ليس منبره ولا منبر أبيه، بل ليس له أن يرتقيه، ومن الواضح أنَّ المنبر ما هو إلّا كنايةٌ عن الخلافة، وكون الاعتراض الحسني الطفولي كان عفويّاً ولم يتلقّاه من أبيه الإمام عليّ، فإنّه دالّ على عدم خفاء الأمر، فإنّه يعرفه الكبير والصغير، ولذلك لم يُبدِ أبو بكر اعتراضاً.

الموقف الثامن: مواجهة الإمام الحسين عليه السلام لعمر

كان سنّ الإمام الحسين عليه السلام عند تولّي عمر الخلافة سبع سنوات،

السقيفة وفدك، الجوهري البغدادي ؛ ومصادر أُخرى. والمراد من «القعب»: القدح، و«العبط»: الدم الخالص الطريّ، و«الذعاق» أو «الذعاف» أو «الزعاف» هو السمّ القاتل أو الداء القاتل، و«الغبّ»: المعاقبة، و«الجأش»: الارتفاع والاضطراب.

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٤٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص٣٠٧.

فلما رآه على منبر رسول الله صلّى الله عليه وآله صعد له وقال ـ كما ورد في سير أعلام النبلاء ـ: **انزل عن منبر أبي، واذهب الى منبر أبيك**. فقال: إنّ أبي لم يكن له منبر! فأقعدني معه، فلما نزل: قال: يا بني مَن علّمك هذا؟ قال: **ما علّمنيه أحد**. قال: أيّ بني! وهل أنبت على رؤوسنا الشعر إلّا الله ثمّ انتم!» ثمّ علّق الذهبي على النصّ بقوله: إسناده صحيح[1].

الموقف التاسع: امتناع ثلّة من الصحابة عن بيعة أبي بكر

إنّ الذين أنكروا على أبي بكر خلافته للرسول صلّى الله عليه وآله كانوا قليلين جدّاً، والسبب في ذلك يعود إلى ثلاثة أمور، هي:

الأمر الأوّل: كثرة المنقلبين، والطامحين للخلافة، كما هو حال الصراع بين المهاجرين والأنصار، وإنّما سكت عامّة المهاجرين وعامّة الطلقاء عن ذلك لأنّهم اكتفوا بالقدر المتيقّن، وهو عزل الإمام عليّ عليه السلام عن سدّة الحكم، وأمّا الأنصار فقد نشب صراعٌ داخليّ بينهم، وقد أدرك الأوس أنّ الأمر عسيرٌ عليهم، فعجّلوا للبيعة لنيل امتيازاتٍ في الخلافة القادمة، وأيضاً لإبعاد غريمهم التقليدي سعد بن عبادة الخزرجي، وقد أشار القرآن الكريم إلى عموميّة الانقلاب في قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي**

---

(١) انظر: معرفة الثقات، أحمد بن عبد الله العجلي (ت: ٢٦١هـ): ج١ ص٣٠٢؛ تاريخ بغداد: ج١ ص١٥١؛ تاريخ مدينة دمشق: ج١٤ ص١٧٥؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٦ ص٤٠٤؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٣٠٠؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٢٨٥؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٦٩؛ تاريخ المدينة، ابن شبه النميري البصري: ج٣ ص٧٩٨؛ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، لابن عساكر: ص٢٠٠ـ٢٠٣، ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٤٢ ح٣٦.

اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

الأمر الثاني: قوّة الإرهاب الذي مارسه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، حيث كانا يمرّون بالناس فيأخذون أياديهم فيمسحون بها على يد أبي بكر عنوة[١]، وكان الناس يستجيبون خوفاً من الحزب الحاكم وطمعاً في الغنائم والمناصب.

الأمر الثالث: هنالك من الصحابة مَن لم يرتضوا الأمر ولكنّهم لم يبدوا اعتراضاً، لسببين؛ الأوّل: حرصهم على الابتعاد عن الفتنة، والثاني: شعورهم بأنّ اعتراضهم لا يغيّر في المعادلة شيئاً، بل لا يجلب لهم سوى المتاعب.

ولذلك فالقليل منهم أبدى اعتراضه ودفع الثمن وعرّض نفسه للانتهاك، والتعديات والتجاوزات الكثيرة، من قبيل عمّار بن ياسر وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، والزبير بن العوّام، وهؤلاء مواقفهم واضحةٌ ومُسجّلةٌ في أغلب المدوّنات التاريخيّة، ولذلك سوف نسلّط الضوء على واقعتين من الاعتراضات الصريحة على تولّي أبي بكرٍ لأمور الخلافة، وهما:

أوّلاً: اعتراض مالك بن نويرة

لمّا بويع لأبي بكر، دخل مالك بن نويرة إلى المدينة لينظر مَن قام بأمر الخلافة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وكان يوم الجمعة، فلما دخل المسجد وجد أبا بكر يخطب على منبر رسول الله صلّى الله عليه وآله، فلما نظر إليه قال: هذا أخو

---

(١) قال البراء بن عازب: «كنت أتردّد إلى بني هاشم وهم عند النبيّ صلّى الله عليه وآله في الحجرة، وأتفقّد وجوه قريش، فإنّي كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائلٌ يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائلٌ آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعةٌ من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانيّة لا يمرّون بأحد إلّا خبطوه، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبى...». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص٢١٩].

تيم؟! قالوا: نعم، قال مالك: فما فعل وصيّ رسول الله صلّى الله عليه وآله الذي أمرني رسول الله صلّى الله عليه وآله باتّباعه وموالاته؟

فقال له المغيرة بن شعبة: إنك غبت وشهدنا، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال مالك: والله ما حدث شيء، ولكنّكم خنتم الله ورسوله.

ثمّ قال مالك لأبي بكر: لماذا رقيت منبر رسول الله صلّى الله عليه وآله ووصيّ رسول الله عليه السلام جالس؟

فقال أبو بكر: أخرجوا الأعرابي البوّال على عقبيه من المسجد.

فقام إليه عمر وخالد وقنفذ، فلم يزالوا يكزّون في ظهره حتّى أخرجوه من المسجد كرهاً بعد إهانةٍ وضربٍ، فركب مالك راحلته وهو ينشد:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر

ثمّ لمّا قامت حروب الردّة اتّهموه بالارتداد؛ لأنّه امتنع من دفع الزكاة لهم، وقال بأنّه يسلّمها للوصيّ الشرعيّ وهو عليّ، فبعث أبو بكر له خالداً فقاتله وقتله، ودخل بزوجته، وسبى عياله، وغنم أمواله، متّهماً إيّاهم بالردّة، فجاء أبو قتادة وعبد الله بن عمر، فشهدا لمالك بالإسلام، وأنّ خالداً قد اعتدى عليه فقتله وزنى بزوجته، فقال عمر: والله لأرجمنّه بأحجاره، قتل مسلماً وزنى بامرأته، فأجابه أبو بكر بأنّ خالدا قد تأوّل فأخطأ، فطلب عزله فامتنع أبو بكر، ثمّ ردّ أبو بكر السبي والمال ودفع لأهل مالك دية مالك[1].

---

(١) وردت قصّة مالك بن نويرة وكيفيّة قتله والاعتداء على زوجته وسبي نساء قبيلته وسوق أموالهم، بل والتمثيل بجثث قتلاهم، وبجثّة مالك خصوصاً، حيث جعلوا رؤوسهم أثافي تحت قدور الطعام، بأمرٍ من خالد نفسه، وقد تحيّر الطبري في سرّ عدم احتراق رأس مالك بن نويرة فقال بأنّ له شعراً كثيفاً منع من وصول النار لرأسه! فما كان يجرؤ على عدّ ذلك كرامةً لمسلمٍ مؤمنٍ لم ينقلب على عقبيه.

ثمّ أُغلق الستار على قصّة مالك بحفنة دنانير من أبي بكر، فلمّا ولي عمر الأمر قيل بأنّه عزل خالداً لذلك السبب، فإذا كان خالد قاتلاً لمسلمٍ عمداً وزانياً بامرأةٍ مسلمةٍ وهو محصن، فهل عقوبته العزل عن قيادة الجيش، ثمّ أين وعيده: لأرجمنّه بأحجاره!

ثانياً: اعتراض بريدة بن الحصيب الأسلمي

ومن الذين أنكروا على أبي بكرٍ بريدة بن الحصيب الأسلمي، حيث إنّه كان في الشام عند انعقاد البيعة لأبي بكر في السقيفة، فلما قدم من الشام وسمع بالأمر جاء إلى أبي بكر وقال له: يا أبا بكر هل نسيت تسليمنا على عليّ أمير المؤمنين بإمرة المؤمنين واجبةً من الله ورسوله؟ فقال أبو بكر: يا بريدة إنك غبت وشهدنا، وإنّ الله يُحدث الأمر بعد الأمر، ولم يكن الله ليجمع لأهل هذا البيت النبوّة والملك.

فقال بريدة: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً**﴾ (النساء: ٥٤)، فقد جمع لهم ذلك[1]، وقد كان بريدة يُفسِّر كلمة (الحكمة) بالنبوّة، فيكون المراد هو أنّ الله تعالى آتى آل إبراهيم الكتاب والنبوّة والملك.

ويمكن مراجعة قصّة مالك بن نويرة في: تاريخ الطبري: ج٢ ص٥٠٢؛ الثقات، لابن حبّان: ج٢ ص١٦٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٦ ص٢٥٦؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٢١٨؛ الفضائل، سديد الدين شاذان: ص٧٥ فما بعد؛ وسائل الشيعة، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي: ج١ ص١٦.

جديرٌ بالذكر: أن القاتل الفعلي لمالك هو ضرار بن الأزور الأسدي بأمرٍ من خالد بن الوليد، وقد كان ضرار ممّن شرب الخمر مع أبي جندب، فكتب فيهم أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر فأمره بإقامة الحدّ عليهم. [انظر: الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٣ ص٣٩٢].

ولا نعلم هل أقام ابن الجراح الحدّ عليهم أم تأوّل لهم؟!

(١) نهج الإيمان، لابن جبر: ص٤٦٤؛ الصراط المستقيم، زين الدين العاملي: ج٢ ص٥٣.

ثمرات تصدي الإمام عليّ عليه السلام للمشروع الانقلابي

قد يرى البعض أنّ معارضة الإمام عليّ لم تحقّق هدفاً واضحاً، بل إنّها ضعَّفت موقفه وقلَّلت من فرصة عودته للواجهة والأحداث؛ وذلك لازدياد مساحة الخلاف وعدد الخصوم له.

وهذا التحليل والتوجيه صحيحان جدّاً، ولكن من منطلقٍ دنيويّ، وليس من منطلق الحقّ، فالصحيح في الرؤية الإلهيّة يختلف شكلاً ومضموناً عن الصحيح في الرؤية الدنيويّة، وعليه فمثل الإمام عليّ عليه السلام ليس له إلّا اتّباع الحقّ واتّخاذ الموقف المطابق للرؤية الإلهيّة، ولذا فإنّ الموقف الصحيح هو ما اتّخذه الإمام في أحلك الظروف، وفيه قد حقّق أعظم هدفٍ في المحصلة الإلهيّة، وهو الهدف الذي لا يمكن التنصّل عنه أو المداهنة فيه.

وليس مطلوباً من الإمام عليّ عليه السلام أن يحقّق نتائج رقميّةً على ساحة التغيير، فالإمام الحسين عليه السلام لم يحقّق هدفاً مادّياً في ساحة المعركة التي استشهد فيها مع أهله وأصحابه، ولكنّه لابدّ له من مواجهة الباطل، فهذا هو الهدف بعينه، سواءٌ تحقّق النصر المادّي والتغيير الرقمي أو لم يتحقّق.

ولو كانت الأُمور تقاس بالمعطيات المادّية والرقميّة ومساحة التغيير الظاهري لبطلت الكثير من بعثات الأنبياء عليهم السلام، الذين استشهد الكثير منهم في مواجهة الظلم والطغيان، بل إنّ الأنبياء الذين حقّقوا نجاحاتٍ مادّيةً قليلون جدّاً، وكان السواد الأعظم منهم قد عانى من قتل شخصه أو قتل شخصيّته؛ قال تعالى: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾ (البقرة: ٨٧).

ولذلك فالمقاييس مختلفةٌ تماماً بين المنطقين الإلهي والدنيوي، ومثل الإمام عليّ عليه السلام ـ وهو ابن بيت النبوّة ومختلف الملائكة ومعدن العلم ـ لا يليق

به إلّا مواكبة المنطق الإلهي، فإذا ما رأى باطلاً فإنّه لا يسكت عنه البتّة، وكيف يسكت عن حقٍّ ويداهن باطلاً وهو التالي لكتاب الله القائل في ذلك: ﴿**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٤٢)؟

ومع ذلك كلّه وبمنطق المستشكلين الدنيوي سوف نُبيّن بعض ثمرات تصدّي الإمام عليّ عليه السلام للمشروع الانقلابي، وهي غير الانتصار لمبدأ الحقّ، وغير ضرورة مواجهة الباطل، وهي:

أوّلاً: تدعيم مواجهة الخصوم: لقد أعطى الإمام عليّ عليه السلام جرعةً عاليةً من الشجاعة لمواجهة الخصوم، وقد ظهرت هذه الجرعات على شكل نوباتٍ متفاوتةٍ في كلمات وأفعال بعض الصحابة، ولو سكت الإمام عن باطلهم من أوّل الأمر لما كان منهم من يجرؤ على إبداء اعتراض، كما أنّ هذه الجرعة العالية قد شكّلت خزيناً عالياً للثائرين على عثمان، فلو كان موقف الإمام من خلافتهم إيجابيّاً لتمكّنت السلطة الحاكمة من قمع الثوّار؛ لعدم وجود سابقةٍ في مواجهتهم، وعدم وجود حالةٍ مغايرةٍ لهم.

ثانياً: تحييد التجاوزات: لو كان موقف الإمام هو السكوت لشهدنا تجاوزاتٍ عظيمةً، سياسيّاً ودينيّاً واجتماعيّاً، ولكنّهم لم يجرؤوا مع وجود الإمام عليّ عليه السلام وهو المعارض لهم، بل وغير المبايع لهم، فكان وجوده بهذا الموقف السلبي تجاههم يشكّل تهديداً خطيراً لهم، ولذلك فقد حافظوا على المظاهر الدينيّة بقدر المستطاع، ولولا الإمام عليّ لشهدنا انتهاكاتٍ شديدةً، حتّى أنّ عثمان وعمّاله لمّا ظهرت انتهاكاتهم الشرعيّة وجدوا الإمام عليّاً وأنصاره لهم بالمرصاد، وقد كان وجود الإمام أشدّ عليهم من جبال مكّة على قلوبهم.

ثالثاً: مواجهة الاستضعاف والاغتيال: لو سكت الإمام عن حقّه لاستضعفوه أكثر وعملوا على اغتياله؛ لأنّه الوحيد الذي يمثّل الإسلام المحمّدي المواجه لتمرّدهم وانقلابهم، أو هو الصرح الوحيد الذي يقضّ مضاجعهم ويهزّ ضمائرهم

ويذكّرهم بتلك العهود والمواثيق التي قطعوها في بيعتهم له عليه السلام في الغدير، يوم سلَّموا عليه بالإمارة عليهم، فهو المرآة المتبقّية من ذلك التراث المحمّدي الطاهر، يُرجع صوتُه صوتَـهم في الأيّام القلائل الماضية، حيث ردّدوا لدفع شبهةٍ علقت بهم: «بخٍ بخٍ لك يا علي، أصبحت مولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ»، أو: «هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ»[1]، فلو سكت عن حقّه وأظهر ضعفاً واستكانةً لقتلوه في ليلةٍ مظلمةٍ، ولكنّهم اصطدموا بجبلٍ شامخٍ لا يعير لهم أهمّيةً كبرى، فزرع في قلوبهم الخشية منه، وفشلوا في زرع الخشية منهم في قلبه.

كما أنّهم لم يجدوا من يجرؤ على اغتيال عليّ عليه السلام؛ لشدّته وشجاعته وفطنته، ولم يجد القوم جنيّاً آخر ليغتاله كما اغتال سعد بن عبادة[2].

ولعلّ من لطائف مؤمن الطاق أنّ ساذجاً سأله: ما منع عليّاً أن يخاصم أبا بكر في الخلافة؟ فأجابه: يا ابن أخي خاف أن تقتله الجنّ!![3].

---

(١) ورد هذان الخبران بألفاظٍ متقاربةٍ في المعنى، وجميعها صادرةٌ على لسان عمر بن الخطّاب. انظر: المصنّف، لابن أبي شيبة: ج٧ ص٥٠٣ ح٥٥؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل: ط١ ج٣ ص٤٣٠ ح١٨٤٧٩ قال شعيب الأرنؤوط في ذيل هذا النصّ: صحيح لغيره؛ فيض القدير، المناوي: ج٦ ص٢٨٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٢٢٢؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٩ ص٣٢٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٥ ص٢٢٩؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٢٤٩؛ وأمّا في مصنّفات مدرسة أهل البيت فقد ورد الخبران في عشرات المصادر، ويمكن مراجعة كتاب «الغدير» للأميني، للوقوف عليها.

(٢) انظر: المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي: ص٢٣٣.

(٣) مؤمن الطاق لقب لمحمّد بن علي بن النعمان الأحول الصيرفي الكوفي، من أصحاب الإمام السجّاد والإمام الباقر والإمام الصادق عليهم السلام، لُقِّب بذلك لأنّه كان له دكّانٌ في طاق المحامل بالكوفة، وقد لقّبه المخالفون بشيطان الطاق لإلجائه إيّاهم إلى

رابعاً: لو سكت الإمام عن حقّه وبايع القوم عن رضىً منه، لخسر قاعدته ومكانته في قلوب المستضعفين الذين عاش معهم في الأيّام أعظم أيّام جهاده، ولخلق حالةً من الإحباط الشديد، بل لزرع اليأس فيهم، ولذلك فهو بمعارضته للحزب الحاكم بقوّة، قد حفظ تلك المكانة التي جعلتهم يتذكّرون بها رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهذا الدور التذكيري مارسه عمليّاً جميع أفراد أهل البيت عليهم السلام، فالزهراء مثلاً كانت تحاكي في مشيتها مشية رسول الله؛ لتذكّرهم به، وعليّ عليه السلام كان لا يترك موقفاً إلّا وذكّرهم بحديثٍ لرسول الله فيه أو في أهل بيته، وهذا ما دعا القوم إلى إصدار مرسومهم الخاصّ بالمنع عن التحديث بالسنّة، وكان يهدفون من وراء ذلك إسكات عليّ، وظنّهم أنّهم نجحوا في ذلك، وما عرفوا أنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يعيش كلمات الرسول صلّى الله عليه وآله في كلّ حركاته وسكناته.

خامساً: لو سكت الإمام عليّ عليه السلام عن حقّه الشرعي لأغلق الأبواب بوجه المنافحين عنه إلى الأبد، ولأبطل حجّة المتبنّين لمشروعه والذابّين عنه، ولصار المدافع عنه بعده أشبه ما يكون بملكيٍّ أكثر من الملك نفسه، ولأغلق الأبواب أمام مواجهة كلّ باطل، ولصار الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، وفي ذلك تضييعٌ للمسيرة الحقّة، بل وإبطالٌ لجميع التدابير النبويّة لحفظ الخلافة الإلهيّة والإمامة القرآنيّة.

المضيق، فلا يترك لهم طريقاً في المناظرة. وأمّا قصّة الجنّ البريء من دم سعد براءة الذئب من دم يُوسف فقد جاءت روايةٌ صريحةٌ بأنّ عمر بن الخطّاب قد أرسل رسولاً إلى سعد ليقتله إن لم يبايع أبا بكر، فلما أبى سعد قتله الرسول. [انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: ج٤ ص٢٤٧]، وهنالك خبرٌ يحكي أنّ والي الشام الأموي دسّ له رجلاً في الليل فرماه بسهمٍ قتله فيه، ولكي يهربوا من مطالبة الخزرج بدمه نسبوا قتله للجنّ، وحكوا على لسان الجنّ شعراً، وبهذه المسرحيّة الجنّية ضحكوا على عقول أجيالٍ من المسلمين، حتّى عدّها بعض السذّج من كرامات أبي بكر في أعدائه!

سادساً: لو سكت الإمام عن حقّه الإلهي في خلافة رسول الله صلّى الله عليه وآله لأثبت للناس والتاريخ بأنّه ما كان مستحقّاً لهذا الحقّ، بل لأثبت عمليّاً ـ والعياذ بالله تعالى ـ خطأ القرآن الكريم وخطأ الرسول صلّى الله عليه وآله في تنصيبه، ولذلك كنّا ـ ولا زلنا ـ نقول بأنَّ الإمام عليّاً عليه السلام ما كان يتسنّى له إلّا ما قام به من المعارضة الشديدة، فهو بذلك أثبت أنّه الإمام الحقّ، وأنّه جديرٌ بالتنصيب الإلهي والنبويّ له خليفةً للرسول صلّى الله عليه وآله وإماماً للأُمّة، فخلافته وإمامته ليستا حقّاً شخصيّاً ليغضّ الطرف عنه، ولا إرثاً مادّياً ليتسنّى له قبولها أو رفضها، وإنّما هي تكليفٌ إلهيّ لا يمكن التنصّل عنه، فيكون السكوت منه تعبيراً آخر عن الخروج والتمرّد على الرسوم الإلهيّة، وحاشاه أن يفعل ذلك.

سابعاً: رغم أنّ الإمام عليّاً قد عبّر عن رفضه للانقلاب قولاً وعملاً فإنّنا لا نعدم النافين لذلك، فهذه الأبواق الأمويّة وجهاز الإعلام الأموي في العصور كافّة ـ من معاوية ومنابره، مرورا بابن تيميّة، وانتهاء بالأمويّة الوهّابيّة ـ كانوا وما زالوا يهربون من زيفهم وبطلان حكوماتهم وعدم شرعيّتها بالقول بأنّ عليّاً لم يثبت عنه أنّه قد طالب بهذا الحقّ، وأنّه سالم وبايع كبقيّة المسلمين.

فهذه الافتراءات والتمحّلات الأمويّة لازالت تُحشى بها ذاكرة المسلم مع وجود تلك الإجراءات النبويّة ومعارضة الإمام عليّ عليه السلام للحزب المتسلّط والمغتصب للخلافة، فكيف سيكون الأمر لو افترضنا سكوته ومسالمته ومبايعته؟

جديرٌ بالذكر: أنّنا لو تأمّلنا قليلاً في سرّ التزمّت الأموي الوهّابي بهذه الترّهات لاكتشفنا أنّهم مُعبّؤون ببغضٍ شديدٍ لشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام، ومن أهمّ أسباب بغضهم له: اطّلاعهم الأكيد على رفضه لهم جملةً وتفصيلاً، فهو عليه السلام لم يبايع لهم خليفة، ولم يقرّ لهم بحقّ، ولم يكن يرى فيهم إلّا ما يراه رسول الله صلّى الله عليه وآله، أعني تلك الصورة المخزية التي أثقلت كاهلهم، وهي أنّهم طلقاء أولاد طلقاء، وأنّ الخلافة محرّمةٌ عليهم، بل هم لا يصلحون

لشيءٍ سوى أن يكونوا أداةً للجريمة والقتل والإرهاب، قديماً وحديثاً.

ثامناً: إنّه بمعارضته الرائدة فضح أدعياء العلم والدين ممَّن كتموا الحقّ عن درايةٍ وعلمٍ منهم، فأراد أن يكون دالّاً شاخصاً أمام هؤلاء؛ كيلا يقولوا ما ثبت لنا أنّه صاحب حقّ، فكشف بمعارضته زيفهم، وما عاد لأحدٍ منهم إنكار حقّه، فأكّد معرفتهم السابقة به، ووضعهم على مفترق طرقٍ بين الحقّ والباطل، ففشلوا في اختبارٍ صار لهم غصّةً فيما بقي من أيّامهم؛ قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ١٤٦)، وقد كان منهم مَن ضربته بيضاء لا تواريها العمامة[1].

والآن نكتفي بهذا القدر، ففيه الكفاية لكلّ ذي عينين، ولو شئنا الإطالة لسجّلنا عشرات الثمرات المترتّبة على تصدّي الإمام عليّ عليه السلام للمشروع الانقلابي، ووفقاً للمنطق الدنيوي الرقمي، عسى أن تتاح فرصةٌ أُخرى لتجلية ما خفي على الآخرين، أو ما عميت عيونهم عنه[2].

---

(١) روي: «أنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام قد ناشد الناس الله في الرحبة بالكوفة، فقال: **أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول لي وهو منصرفٌ من حجّة الوداع: من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللّهُمَّ وال من والاه، وعاد من عاداه**، فقام رجالٌ فشهدوا بذلك، فقال عليه السلام لأنس بن مالك: **لقد حضرتها، فما بالك!** فقال: يا أمير المؤمنين كبرت سنّي، وصار ما أنساه أكثر ممّا أذكره، فقال له: **إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العمامة**، فما مات حتّى أصابه البرص، فكان لا يرى إلّا مبرقعاً». [انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٩ ص٢١٧]. وقد ورد الحديث «**من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهُمَّ وال من والاه وعاد من عاداه**» في كتاب «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني: ج٤ ص٣٣٠، رقم: ١٧٥٠، وقال فيه الألباني: «صحيحٌ، انظر طرقه وشواهده في الكتاب فهي كثيرة». [المصدر نفسه].

(٢) أقول: إنَّ من جملة ثمرات تصدّي الإمام: أنّه لولا تصدّيه عليه السلام لذلك الانقلاب لما أُدرج اسمه في الشورى السداسيّة، وهذا الإدراج وإن كان لا يشكّل قيمةً واقعيّةً عند الإمام

تصوير دور الإعلام الأموي لموقف الإمام عليّ من حقّه في الخلافة

سعى الإعلام الأموي إلى إيصال مواقف الإمام عليّ عليه السلام في الخلافة والإمامة بصورةٍ مشوَّهةٍ جدّاً، حتّى بلغ به الأمر من التحريف للحقائق أن جعل الإمام عليّاً مدافعاً عن شرعيّة خلافة أبي بكر وعمر، وأنّهما كانا أولى وأحقّ منه بذلك، وأنَّ مَن فضّله عليهما أقام عليه حدّ المفتري، فوضعوا على لسانه عليه السلام: «**ألا من فضّلني على أبي بكرٍ وعمر بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري، ألا إنّ خير الناس أو أفضل بعد نبيّها صلّى الله عليه وآله من هذه الأمّة أبو بكر ثمّ عمر...**»[١].

عليّ عليه السلام، إلّا أنّه وفق المعطيات المادّية والرقميّة لم يكن للحزب الحاكم أن يروا فيه أهليّة الحكم لو كان موقفه السكوت عن حقّه؛ لأنّهم سوف يتوقّعون منه السكوت تارةً بعد أُخرى حتّى لو جعلوا معاوية على رؤوس الناس بعد عمر مباشرةً، ولكنّهم لم يجرأوا على حذف اسمه من الشورى، فأثبتوه صوريّاً لإيهام الأمّة، ووضعوا مخطّطاً محصّلته النهائيّة إقصاء الإمام عليه السلام من الوصول للخلافة، والحمد لله الذي جعل الخلافة تنقاد لعليّ عليه السلام عن طريق شورى الأمّة بعد قيام تلك الثورة العارمة، ولم يجعل خلافته وليدة شورى صوريّة، ولم يجعل لأحدٍ فضلاً في عنقه في تولّيه للخلافة، ولكي لا ينطق ثغر الدهر بأنّه لولا فلان لما صار عليّ عليه السلام خليفة، وليبقى ثغر الدهر ناطقاً إلى الأبد.

ومن الثمرات الأخرى: أنّه لو سكت عليه السلام عن حقّه الشرعي، ولم يُظهر أحقّيته بالخلافة لتجاوزوا عليه أكثر، إمّا بجعله قائداً هامشيّاً، أو قاضياً في قرية، ولذلك كان موقفه السلبي منهم، وثباته على موقفه، عاملاً كبيراً في تأجيج المنافسة وإشعارهم بموضعه ومكانته، وبل وجعلهم في حرجٍ شديدٍ إزاء الأمّة.

ومن الثمرات الأخرى: أنّه عليه السلام قد نجح كثيراً في جعل الطامحين للخلافة والمغتصبين لحقّه يعيشون في صراعٍ نفسيّ مستمرّ، فلو سكت ورضي بانقلابهم فسيشعرهم بصحّة موقفهم، ولكنّ المواجهة بالرفض والصمود في الموقف جعلهم يتلوّعون من غصّة اغتصاب الخلافة، كما أنّه أثبت في وجدان الأمّة حقيقة ذلك الانقلاب.

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٠ ص٣٦٩؛ فضائل الصحابة، ابن حنبل: ج١

ولكي يضربوا ثلاثة عصافير بحجرٍ واحدٍ، يُرفع من شأن أبي بكر وعمر، ويُحطّ من شأن الإمام علي، ويُعطى لمعاوية مقدارٌ من الحقّانيّة في بغيه على إمام زمانه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقد وضعوا على لسان الإمام عليّ نفسه أنّه قال: «أوّل مَن يدخل الجنّة من هذه الأمّة أبو بكر وعمر، وإنّي لموقوفٌ مع معاوية في الحساب»[١]، ولم يكفهم ذلك حتّى ساووا أبا بكر وعمر بالنبيّ صلّى الله عليه وآله، فهم سواءٌ عندهم، فقد رووا عن أبي أمامة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **«أُريت البارحة كأنّي أُدخلت الجنّة فخرجتُ من إحدى أبوابها الثمانية فإذا أنا بأمّتي قيامٌ فعرضوا عليّ رجلاً رجلاً، وإذا بميزانٍ منصوبٍ فوُضِعتْ أمّتي في كفّة الميزان ووُضِعتُ في الكفّة الأخرى فرجحتُ بهم، ثمّ وضعت أمّتي كلّهم جميعاً في كفّة الميزان ووضع أبو بكر الصديق في الكفّة الأخرى فرجح بهم، ثمّ وضع جميع أمّتي في كفّة الميزان ووضع ابن الخطّاب في كفّة الميزان فرجح بهم، ثمّ رفع الميزان»**[٢].

ثمّ رووا الدواهي العظمى بإخلاص عمر وحده وغالوا فيه، حتّى ضمنوا له النجاة وحده من دون سائر الأُمّة، بما فيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله فيما لو نزل بهم عذابٌ عظيمٌ، فرووا في يوم بدر عنه صلّى الله عليه وآله: «إن كاد ليصيبنا في خلاف ابن الخطّاب عذابٌ، ولو نزل عذاب ما أفلت إلّا عمر»[٣].

ص٨٣ ح٤٩، وص٢٩٤ ح٣٨٧؛ تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ص٤٦.

حتّى أنَّ المأمون العبّاسي قد استنكر ذلك في مناظرةٍ طويلةٍ مع محبِّي الخلفاء وخصوم العترة. [انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق: ج١ ص٢٠٢].

(١) الضعفاء الكبير (ضعفاء العقيلي): ج١ ص١٣٠، رقم: ١٦٢.

(٢) المعجم الكبير، للطبراني: ج٨ ص٢١٤؛ كتاب السنّة، ابن أبي عاصم الضحّاك الشيباني (ت: ٢٨٧هـ): ص٥٢٥ ح١١٣٨؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص٥٨.

(٣) تفسير القرطبي: ج٨ ص٤٧؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج٤ ص٦١؛ الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٣ ص٢٠٣؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص١٦٩؛ تأويل

ولأنَّ مكافأة الوضع لها مناطٌ واحدٌ لا غير، وهو صناعة المواجهات مع العترة الطاهرة، والشدّة في ذلك، فكان ولابدّ من تقديم عمر على الأوّل والثالث، فهو صانع المواجهات قديماً وحديثاً، وهو الأشدّ في ذلك، فهو زعيم الإقصاء الحقيقي للإمام علي، وهو المهدِّد بحرق داره وإن كانت فيها فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله[1]!!

وقد أثبت للإسلام الأموي ذلك في مواقع لا يجمعها كتاب، وهو الموطِّد للحكم الأموي والمساهم الأكبر في صنع ترسانتهم، وصانع فتى قريش، وهو الذي منحهم حكماً ذاتيّاً، وقد عرفنا من الأمويّين شدّة وفائهم لخصوم الإمام عليّ وعترته الطاهرة عليهم السلام، ولكي تصحّ تلك المواجهات وتأخذ شرعيّتها وتنفذ إلى وجدان الأمّة بصبغةٍ أمويّةٍ، فقد كان لابدّ من جعل عمر ـ وعلى لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ المحدَّث الأوحد في الأمّة، الذي تتكلّم الملائكة على لسانه، ومعلّمها الأوحد، وهو الذي اختصّه الله تعالى بسريان الحقّ على لسانه لا غير، وهو الذي يفرّ منه الشيطان دون سائر الخلق!!

مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ): ص١٤٩.

(١) روى ابن قتيبة أنَّ أبا بكر تفقَّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند عليّ عليه السلام، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار عليّ، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب! وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها!! فقيل له: يا أبا حفص، إنَّ فيها فاطمة؟ فقال: وإن!!! فخرجوا فبايعوا إلّا عليّاً. [انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٣٠». وقد رويت حادثة التهديد بإحراق الدار في عدّة مصادر منها: العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: ج٤ ص٢٥٩، وص٢٦٠؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٢٠٨ ص٥٧٩ ح٣٨٢٠٠؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج١ ص٥٤، رقم: ٤٣؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٣٤؛ ج٢ ص١٩؛ تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٠٢؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ج١ ص٥٨٦].

وهو الذي باهى الله به خاصّة، من دون سائر الناس في عشيّة عرفة، وهو الذي عليه قميص يجرّه لمبلغ علمه والتزامه بالدين، وسائر الناس عليها قُمص ما يبلغ الثديين، أو دون ذلك!!

وهو الذي ما طلعت الشمس على رجلٍ خيرٍ منه، وهو أوّل من يصافحه الحقّ، وأوّل من يأخذ بيده فيدخله الجنّة[1]، وغير ذلك من عشرات المناقب المزيّفة التي لم يتّسع الوقت لابن تيميّة لإبطال واحدةٍ منها أو المناقشة فيها؛ لأنّه قد تفرّغ تماماً لإبطال مناقب أهل البيت!

وقد نجحوا كثيراً في صياغة الوجدان العامّ وتحريكه بهذا الاتّجاه، لأهدافٍ سيأتي بيانها، فكان دأبهم قائماً على عدّة أمورٍ لها الصدارة عندهم في القول والعمل، وهي:

أوّلاً: ملء سلال الخلفاء بمناقب يواجهون بها مناقب أهل البيت عليهم السلام التي حفظها الصحابة ومنعهم الخلفاء من التحديث بها باسم الخوف من الخلط بين كلام رسول الله وبين القرآن.

ثانياً: تحسين صورة الطلقاء الذين فضحهم القرآن فسمّاهم بالشجرة الملعونة[2]،

---

(١) انظر: كتاب السنّة، ابن أبي عاصم الشيباني: ص٥٦٦ـ٥٧٢، باب: في فضل عمر بن الخطّاب، ح١٢٤٥، وح١٢٤٧ـ١٢٥١، وح١٢٥٣، وح١٢٥٧، وح١٢٦٠ـ١٢٦١، وح١٢٧٣ـ١٢٧٤؛ وهلّم جرّا!؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٣٦ ح٤٥٤٥؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني: ج٥ ص٥٠٦، رقم: ٣٤٨٥.

وانظر أيضاً: مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص٦٩، باب: منزلة عمر عند الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ أُسد الغابة، لابن الأثير: ج٤ ص٦٤؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي: ١٩٩؛ المعجم الأوسط، للطبراني: ج٢ ص١٤٧ ح١٢٧٣.

(٢) راجع تفاسير الفريقين في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ

وفضحهم رسول الله صلّى الله عليه وآله فسمّاهم بالطلقاء[١]، ووصفهم بالقردة[٢]، وحرَّم عليهم الخلافة[٣].

ثالثاً: مواجهة العترة الطاهرة طعناً بمناقبهم، وقتلاً لأشخاصهم وشخصيّاتهم، وتشريداً وتجويعاً لأتباعهم ومحبّيهم.

رابعاً: دسّ الأخبار الكاذبة على ألسنة أهل البيت في مدح وتقديم الخلفاء، وأنّهم لم يختصّهم رسول الله بشيء.

أهداف الإعلام الأموي من التركيز على خلافة الثلاثة

تحرَّك الإعلام الأموي ضمن خمسة محاور، هي:

المحور الأوّل: طمس معالم الإسلام المحمّدي ومحاربة ممثّليه.

المحور الثاني: اتّخاذ الخلفاء الثلاثة سلّماً للوصول للحكم[٤].

المحور الثالث: إيجاد مرجعيّاتٍ بديلةٍ من الصحابة والتابعين في قبال مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام، وعلى المستويات كافّة (في الحكم والفكر والعقيدة والشريعة والأخلاق).

المحور الرابع: صناعة التاريخ المزيّف، بقلب الحقائق واختلاق المواقف الكاذبة والمناقب المزوَّرة، ودسّ الأخبار الكاذبة.

المحور الخامس: إعادة تأهيل بني أميّة، وإضفاء صبغة الاحترام والتقدير لهم، وذلك من خلال الطعن أو توجيه الأخبار الفاضحة لهم.

إلّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٦٠).

(١) راجع كتب السيرة في موضوع فتح مكّة.

(٢) راجع تفاسير الفريقين في أسباب نزول سورة القدر.

(٣) انظر: مقتل الإمام الحسين، للخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ): ج١ ص١٨٥.

(٤) انظر: الإمام الحسين، للشيخ عبد الله العلايلي: مقدّمة الكتاب. فقد أورد فيها بياناتٍ في غاية الأهمّية، تتعلّق باتّخاذ الخلفاء الثلاثة من قبل بني أميّة سلَّماً للوصول للحكم.

وقد نجحوا كثيراً في تحقيق مآربهم هذه، فخدعوا الأُمّة على امتداد قرنٍ من الزمن[1] في تشكيل رؤيةٍ دينيّةٍ مغايرةٍ تماماً للرؤية الدينيّة الإسلاميّة الأصيلة، وقد مرَّت بنا بعض كلمات ثلّة من الصحابة والتابعين في وصف الإسلام الأموي في عصرهم، وكيف أنّهم لم يُبقوا من الدين الأصيل سوى القبلة الواحدة، بل سعوا في بعض أيّام ملكهم إلى تحويل القبلة من البيت الحرام إلى بيت المقدس[2].

---

(١) استمرَّت حكومة بني أُميّة منذ تولّي معاوية سدّة الحكم عام (٤١هـ) أكثر من ثمانين عاماً، حيث سقطت الدولة الأمويّة عام (١٢٨هـ)، ولكنّنا لو لاحظنا الانطلاقة الفعليّة لحكومة بني أُميّة فإنما بدأت منذ تولّي عثمان الخلافة عام ٢٣هـ، حيث سلَّط آل أبي معيط وآل أبي سفيان على رقاب الناس، فإنَّ حكومتهم تكون قد بلغت قرناً كاملاً من الزمن بعد حذف مدّة حكم الإمام عليّ عليه السلام التي لم تتجاوز الأربع سنوات وبضعة شهور.

(٢) روى المؤرّخون أنَّ عبد الملك بن مروان كان في أوّل حكمه وظهور ابن الزبير عليه في الحجاز والعراق قد سعى لبناء قبّة على الصخرة التي في القدس، وأمر أتباعه بأن يحجّوا هناك ويطوفوا بالصخرة بدلاً من البيت الحرام، فما كان يأذن للشاميّين بالذهاب إلى الحجاز خشية أن يأخذ ابن الزبير البيعة منهم، حيث كان الأخير يُجبر الحجّاج على بيعته!. قال اليعقوبي: «ومنع عبد الملك أهل الشام من الحجّ، وذلك أنّ ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكّة، فضجّ الناس، وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام، وهو فرضٌ من الله علينا! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم أنّ رسول الله قال: لا تُشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أنّ رسول الله وضع قدمه عليها لّما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبّةً، وعلّق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيّام بني أميّة». [تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٦١؛ ويُنظر أيضاً: حياة الحيوان، للدميري المصري (ت: ٨٠٨هـ): ج١ ص٦٦؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج١٢ ص٤١، سنة: ٦٦].

ولو لاحظنا المحور الثاني نجده يُركِّز على الخلفاء الثلاثة، كما أنَّ المحور الثالث له صلةٌ وثيقةٌ بهم، فإنَّ الأمويّين الطلقاء قد فقدوا كلّ فرصة للوصول بعد أن لحقهم عار الطلقائيّة، ولم يكونوا يحلمون بأكثر من السكوت عنهم جرَّاء ما قاموا به من حروبٍ ضاريةٍ ضدّ الإسلام، وقد أسلموا الأمور لبني هاشم، بحسب فهمهم القبائلي، وما كانوا يظنّون أنَّ أحداً سيتقدَّم على بني هاشم في خلافة الرسول صلّى الله عليه وآله، لاسيّما مع وجود عليّ عليه السلام، ولكنّهم وجدوا أنفسهم أمام فرصةٍ تاريخيّةٍ بعد وصول أبي بكر للخلافة ومن ثمّ عمر، وقد تأكَّدت لهم هذه الفرصة بعد وصول عثمان بن عفّان الأموي، ولو آل الأمر إلى الإمام عليّ بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله لما خطر في بالهم شبح الوصول، وهذا ما أشار له الإمام عليّ عليه السلام بعدما تمَّت البيعة لعثمان وأُقصي هو بواسطة عبد الرحمن بن عوف، حيث قال عليه السلام: «**إنَّ الناس إنّما ينظرون إلى قريش فيقولون: هم قوم محمّد وقبيلته، وأمّا قريش بينها فتقول: إنّ آل محمّد يرون لهم على الناس بنبوّته فضلاً، ويرون أنّهم أولياء هذا الأمر دون قريش، ودون غيرهم من الناس، وهم إن ولّوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولته قريش بينها، لا والله لا يدفع الناس إلينا هذا الأمر طائعين أبداً**»[1].

إذن فالتأكيد على خلافة الثلاثة وشرعيّتها يمثّل جواز المرور لبني أميّة في الوصول للحكم، وقد كانت هنالك إرهاصاتٌ لهذا الجواز تلقَّفوها على شكل برقيّاتٍ مباشرةٍ وغير مباشرة، فعند تولِّي أبي بكر الخلافة لم يفته أن يرضي أبا

ولعلّهم فعلوا ذلك خشية أن يتأثّروا بالمسلمين القادمين من العراق، فتُكشف أُكذوبتهم التاريخيّة التي صنعها معاوية لهم، حيث كان معاوية يُروِّج للشاميّين بأنّ بني أُميّة هم قرابة الرسول الواجب مودّتهم، وهم أهل البيت.

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٨.

سفيان؛ لعلمه بموقعه في قريش، وأنّ عشيرة بني تيم ـ عشيرة أبي بكر ـ لا ترقى إلى مقام عشيرة بني أُميّة في لغة قريش، فأبرق له البرقيّة الأُولى المطمئنة لهم بمستقبلٍ زاهرٍ، وهي تنصيب يزيد بن أبي سفيان والياً على ما تمَّ فتحه من الشام، ولما مات يزيد بالطاعون في خلافة عمر أبرق لبني أُميّة رسالة تطمين، فولَّى معاوية بن أبي سفيان على الشام بأسره، ولم يكتف معاوية والأمويّون بذلك، فكان لابدّ من امتيازٍ لمعاوية الوالي على سائر الولاة الآخرين، وهكذا أُرسلت البرقيّة الثالثة بعدما علم أنَّ معاوية يخرج بموكبٍ ويرجع بموكبٍ، حتّى أنّه تجاوز بموكبه عمر وعبد الرحمن يوم ذهبا للشام راكبين على حمار، فتعجَّب عمر من معاوية وموكبه ودار بينهما حوارٌ أنهاه عمر بكلمةٍ أباح له فيها كلّ شيء، ولتكون بداية الحكم المستقلّ، فإنّه لم يحاسبه في شيء ممَّا رآه منه من التشبّه بقيصر، ولا عاقبه في أمر، بل تركه يفعل ما يشاء بكلمةٍ مروريّةٍ واحدةٍ: «**لا آمرك ولا أنهاك**»[1]، وإذا ما عرفنا ما تتناقله الأخبار من شدّة عمر ـ لاسيّما على ولاته ـ نعلم بأنّه لأمرٍ ما قد آثر معاوية هذا الإيثار المنقطع النظير، وهو الموقع الذي عزَّزه عثمان له، ولمّا عزله الإمام عليّ عليه السلام من ولاية الشام رفع معاوية قميص عثمان مطالباً بدمه، وواقع الأمر هو المطالبة بامتياز عمر له الذي أرجع بني أُميّة الطلقاء للواجهة، فاتّخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً، على حدّ تعبير رسول الله صلّى الله عليه وآله[2].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٣٣؛ تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٥؛ الاستيعاب: ج٣ ص١٤١٧، رقم: ٢٤٣٥، ترجمة معاوية بن أبي سفيان؛ تاريخ الإسلام: للذهبي: ج٥ ص٢٣٣.

(٢) عن أبي ذرّ الغفاري قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**إذا بلغت بنو أميّة أربعين رجلاً اتّخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دخلاً، وكتاب الله دغلاً**». [المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٤ ص٤٧٩؛ مسند الشاميّين، الطبراني (ت: ٣٦٠هـ): ج٢

ثمّ توالت البرقيّات العمريّة لترشيح معاوية للخلافة وتوطيد الأمر له، فيقول في رفع شأنه أمام عليّة القوم وأركان دولته: «إنّه فتى قريش وابن سيّدها»[١]، وعندما يتذاكر الصحابة أخبار كسرى وقيصر وما كانا عليه، كان عمر يهتف بهم: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية»[٢]، وكان عمر يشير إلى قوّة معاوية وقدرته على فضِّ الخلافات بشكلٍ غير مباشر، ليوحي للأُمّة بأنّه الوحيد القادر على توحيدها، فيُخاطب أهل الشورى: «إذا اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام»[٣]، حتّى بلغ به الأمر أن يستعدي أهل الشام على أهل العراق[٤]، في إشارةٍ منه إلى قوّة معاوية.

وأمّا عثمان فقد فتح الأبواب لبني أُميّة قاطبةً، وأزاح عنهم جميع الخطوط الحمر، حتّى صاروا هم الحكّام الفعليّين للدولة، وعاثوا في الأرض فساداً[٥]،

ص٣٣٨ ح١٤٥١؛ كتاب الفتن، نعيم بن حماد المروزي: ص٧٢؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١٠ ص٩٠؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٧ ص٢٥٣؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٧١؛ ومصادر أخرى].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص١٢٥؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٨ ص٣٩٧.

(٢) تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٤.

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٥ ص٥٣٥؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٩ ص١٢٤؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٥ ص٧٣٥ رقم: ١٤٢٥٦؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٧٠، رقم: ٤٦٨٩، ترجمة عبد الله بن أبي ربيعة.

(٤) فقد خطب يوماً قائلاً: «يا أهل الشام استعدّوا لأهل العراق». [انظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٢ ص١٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٦٦؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١٢ ص٣٥٤، رقم: ٣٥٣٦١؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي: ج٢ ص٢٤١؛ المعرفة والتاريخ، لأبي يوسف الفسوي (ت: ٢٧٧هـ): ج٢ ص٥٢٩؛ وعدّة مصادر أخرى].

(٥) عندما اجتمع الثائرون على عثمان وطالبوه بإجراء إصلاحاتٍ مناسبةٍ، اعترضهم مروان

وقد رفع عثمان شعار «صلة الرحم»؛ ليُقرِّب آل أُميّة، فصاروا هم الولاة والقادة وأهل الحلّ والعقد[١]، أو مَن يدين بالولاء لهم، وباسم الرحم قرَّبوا الحكم بن العاص طريد رسول الله وعدوّ الله ورسوله، ليدخل معه مروان الذي تسبّب بقتل عثمان في حادثةٍ مشهورة[٢]، وهكذا وصل أكثر بطون قريش بغضاً للرسول صلّى الله عليه وآله ولأهل البيت عليهم السلام لسدّة الحكم[٣].

بعد هذه الجولة يتّضح وجه عناية بني أُميّة بالخلفاء الثلاثة، فلولاهم لما كان لبني أُميّة الطلقاء ذكرٌ ولا مقام، ثمّ لّما وجد بنو أُميّة أنفسهم ليسوا أصحاب دين، وإنّما هم أصحاب سياسةٍ ودولةٍ فقد اعتنوا كثيراً بالخلفاء الثلاثة وصحابة آخرين

بصفته الحاكم الفعلي، فتحدَّث معهم بلغة الملك الحاكم المستعبد للآخرين، فقال: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه، كلّ إنسانٍ آخذٌ بأذن صاحبه إلّا من أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، ارجعوا إلى منازلكم، فإنّا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا». [تاريخ الطبري: ج٥ ص١١٠؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص١٧٣، سنة: ٣٥؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٣ ص١٦٥].

(١) يُنظر في ذلك: الإمام الحسين، للشيخ عبد الله العلايلي. حيث تعرّض الشيخ رحمه الله في مقدّمته القيّمة إلى مدى نفوذ بني أميّة وكيفيّة استحواذهم على مراكز السلطة في عهد عثمان بن عفّان، وأمّا في زمن معاوية فقد صار العراق المسمّى عندهم بأرض السواد بستاناً لهم، وأطلق الحكم للطلقاء، وصار الناس أشبه بالعبيد لهم، وهذا ما أعلنه يزيد بن معاوية بشكلٍ فاضحٍ يوم أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيدٌ له!

(٢) انظر: الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٦ ص١٥٧، ترجمة عثمان بن عفّان.

(٣) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنَّ أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمّتي قتلاً وتشريداً، وإنَّ أشد قومنا لنا بغضاً بنو أميّة وبنو المغيرة وبنو مخزوم**». [المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٤ ص٤٨٧، حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١٠ ص١٥٢؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٤٦٩، رقم: ٣٠٥؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص١٦٩، رقم: ٣١٠٧٤].

يلتقون كثيراً مع الأهواء الأمويّة، فصنعوا منهم رموزاً كبيرةً في قبال أهل البيت، حتّى بلغ بالأمويّين أن يعملوا على وضع أحاديث على لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله وعلى لسان بعض الصحابة وبعض التابعين في مناقب ومزايا لثلّةٍ خاصّةٍ من الصحابة في مقدّمتهم الخلفاء الثلاثة، تجاوزت في بعضٍ منها حدود الأدب مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، وسنأتي على ذكرها في دراستنا التطبيقيّة لإسلام القرآن، ولم يغفل أصحاب المشروع الأموي تسجيل مناقب ومزايا لمؤسّس الدولة الأمويّة، ليتحوّل من كاتب رسائل إلى كاتب وحي، وليتحوّل إلى خالٍ للمؤمنين من دون سائر الأخوال الآخرين، حتّى وإن كان الخال أخاً لعائشة.

وقد نجح الأمويّون في تدجين العقل الإسلامي عموماً والعقل العربي خصوصاً ، وتطويعه وفق هذه الرؤية التبديعيّة في قبال الإسلام المحمّدي الأصيل، حتّى آل الأمر في بعض المقاطع الزمنيّة أن يُعلن وبصورةٍ رسميّةٍ المنع من إعلان الولاء والحبّ لآل محمّد، ولازالت بعض المساحات الإسلاميّة تعجّ بهذا النفس الناصبيّ، فترى مجرّد ذكر الإمام عليّ أو فاطمة أو الحسن والحسين كفيلاً بوصم القائل بالرافضيّة، بما تحمله هذه الكلمة ـ عندهم ـ من لوازم تبديعيّةٍ وتكفيريّة، حتّى عزف خيار الأُمّة عن ذلك؛ خشية تبديعهم أو تكفيرهم!

وأمّا المحور الخامس المتعلّق بإعادة تأهيل بني أميّة من خلال الطعن بالأخبار الفاضحة لهم، أو توجيهها وتأويلها، لتنشأ عندنا أوّل مدرسةٍ تأويليّةٍ للحديث بصبغة أمويّة، فقد بذل الأمويّون الغالي والنفيس في شراء الذمم المصغية لهم، من حملة أقلامٍ ومحدّثين وخطباء؛ للعمل على طمس كلّ ما ورد في بني أُميّة من أخبارٍ نبويّةٍ فاضحةٍ لهم، رافعين شعار «الكفّ عمّا شجر بين الصحابة»، وخداع الأمّة بحرمة الخوض فيما جرى بينهم اعتماداً على قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٤) دون أن يُفرِّقوا بين عدم مُساءلتنا عمّا وقع بينهم من فتنٍ ومخالفاتٍ شرعيّةٍ صريحةٍ، وبين

جواز السؤال عمَّا جرى بينهم بصفتهم حلقة وصل بيننا وبين الرسول صلّى الله عليه وآله، فتجد الجُهَّال منهم ـ وإلى يومنا هذا ـ يُرعبون السائل عن أحوالهم بهذه الآية، وكأنّه خاض في الذات الإلهيّة!

حتّى أنَّ الذهبي ـ الزعيم الإعلامي الأسبق لبني أُميّة ـ قد بالغ في هذا الأمر، فيرى ضرورة طيّ ما جرى بين الصحابة وإخفائه، بل لابدَّ من إعدامه؛ لتصفو القلوب، وتتوفّر على حبّ الصحابة، والترضّي عنهم، وكتمان ذلك متعيّنٌ عن العامّة، وآحاد العلماء، ثمّ يمنح الإذن في مطالعة ذلك للعالم المنصف لبني أُميّة، الذي لا يحمل غيضاً تجاههم، وبشرطٍ حتميّ، وهو أن يستغفر لهم قبل وبعد مطالعة ما جرى بينهم، مع ملاحظة ضرورة الطعن في مجمل الأخبار المسيئة لهم وتضعيفها![1]، ولم يألُ ابن تيميّة ـ وهو باني أمجاد الإسلام الأموي ـ

---

(١) يقول الذهبي بعد سلسلة الدفاع: «كما تقرّر الكفّ عن كثيرٍ ممّا شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمرّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكنّ أكثر ذلك منقطعٌ وضعيفٌ، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيُّه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفّر على حبّ الصحابة، والترضّي عنهم، وكتمان ذلك متعيّنٌ عن العامّة وآحاد العلماء، وقد يرخَّص في مطالعة ذلك خلوةً للعالم المنصف العريّ من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم... فالقوم لهم سوابق، وأعمالٌ مكفِّرةٌ لما وقع منهم، وجهادٌ محَّاءٌ وعبادةٌ ممحِّصةٌ، ولسنا ممّن يغلو في أحدٍ منهم، ولا ندّعي فيهم العصمة». [سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٠ ص٩٢ـ٩٣]. فهو من بابٍ يقرّ بوجود شجارٍ حادّ بينهم وخلافاتٍ كثيرةٍ، وينفي عنهم العصمة، ثمّ يطلب منا أن نجمِّد عقولنا ونكسر أقلامنا، فلا نقرأ ولا نحلّل ولا ننقد، وإنّما علينا أن نستغفر حتّى لمعاوية! فلا نقول بأنَّ طلحة والزبير وعائشة نكثوا البيعة وخرجوا على إمام زمانهم وتسبّبوا بقتل أكثر من خمسةٍ وعشرين ألفاً من المسلمين، وإنّما علينا أن ندعو لهم ونستغفر لهم! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يطلب منّا الذهبي والمنافحون عن بني أميّة أن نستغفر للثائرين على عثمان؟ فقد كان فيهم صحابةٌ أيضاً، ولا ندري لو كان طلحة والزبير قد خرجوا على

جهداً في الذود عن الطلقاء عمَّن نفاهم رسول الله ولعنهم وهم في صلب آبائهم، من قبيل الحكم وأبنائه، حتّى أنّه حاول أن يكذّب أمّهات الكتب في التاريخ والسيرة النبويّة التي سجّلت نفي الرسول صلّى الله عليه وآله للحكم، وقال بأنّه هاجر بنفسه![1].

جديرٌ بالذكر: أنّنا قد كنّا فصّلنا القول في هذه المسألة في دراسةٍ سابقةٍ[2]، فليراجع في ذلك.

وهكذا تربَّت أجيالٌ وأجيالٌ على هذه الصياغات الترقيعيّة القائمة على تزييف التاريخ وقلب الحقائق، حتّى صار تكذيب ما ورد في ثلّةٍ من الصحابة عموماً، وما ورد في بني أميّة خصوصاً هو الأصل المُتَّبع، بل صيَّروا بني أميّة للأمّة قدوةً وأسوةً، فيُوثـّق المتزلّف لهم ويُتّهم المجانف لهم![3]

عثمان وقاتلوه فهل سيستغفر لهم الذهبي وابن تيميّة وأتباع الإسلام الأموي المعاصرون؟

(١) يقول ابن تيميّة: «وقد طعن كثيرٌ من أهل العلم في نفيه، وقالوا: هو ذهب باختياره، وقصّة نفي الحكم ليست في الصحاح ولا لها إسنادٌ يُعرف به أمرها»!! [انظر: منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة: ج٦ ص٢٦٥ـ٢٦٧، وص٢٦٩] علماً بأنَّ ابن تيميّة لم يقبل ولا طعناً واحداً في أيّ رجلٍ من بني أميّة، ضارباً بالمدوّنات التاريخيّة وكتب السيرة والحديث عرض الجدار، وكعادته عندما يتفرّد بقوله ولا يجد له موافقاً فإنّه ينسب قوله للعلماء! ليوهم القرّاء ـ لاسيّما غير المحقّقين ـ بأنَّ ما يقوله عليه سيرة العلماء أو عليه إجماع الأمّة، مع أنّه قولٌ شاذٌ لم يقل به سواه.

(٢) انظر: السلطة وصناعة الوضع، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري.

(٣) وقد لخصّ ابن أبي الحديد الخطوات التي قام بها بنو أميّة وعلى رأسهم معاوية لتأسيس إسلامٍ لا يمتّ الى الإسلام الحقيقي الأصيل بصلة إلّا من حيث الاسم. ويمكن بيان تلك الخطوات بالنحو الآتي:

الخطوة الأولى: الوقوف أمام نشر فضائل عليّ وأهل بيته.

قال: «روى أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدايني في كتاب الأحداث، قال: كتب

معاوية نسخةً واحدةً إلى عمّاله عام الجماعة: أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورةٍ وعلى كلّ منبرٍ، يلعنون عليّاً ويبرءون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته».

الخطوة الثانية: الإكثار من وضع الأحاديث في فضائل عثمان

قال: «كتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق، أن أنظروا مَن قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقَرِّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجلٍ منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك، حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكِساء والحِباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحدٌ مردودٌ من الناس عاملاً من عمّال معاوية، فيروي في عثمان فضيلةً أو منقبةً إلّا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً».

الخطوة الثالثة: الإكثار من الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين. قال: «ثمّ كتب الى عمّاله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجهٍ وناحيةٍ، فاذا جاءكم كتابي هذا، فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله»؛ من هنا قال ابن أبي الحديد: «فرُويت أخبارٌ كثيرةٌ في مناقب الصحابة مفتعلةٌ لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلي معلّمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ماشاء الله».

ولذا قال: «فظهر حديثٌ كثيرٌ موضوعٌ وبهتانٌ منتشرٌ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّةً القرّاء المراءون، والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والشكّ فيفتعلون الأحاديث ليحْظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيادي

أسباب عدول الإمام عليّ عليه السلام عن أخذ حقّه بالسيف

كان الإمام عليّ عليه السلام مأموراً بالتصدِّي للحكم بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، بصفته الإمام المنصوص عليه، والمُنصّب من قبل رسول الله، وكان من المُؤمَّل جريان الأمور كما أراد له رسول الله أن تجري، وقد اتّخذ لذلك إجراءاتٍ كثيرةً، إلّا أنّ التيّار المواجه للإجراءات النبويّة والمعادي للإمام عليّ والرافض لموضوع تصدّيه للخلافة قد استفاد من الخلاف الواقع في السقيفة وحسم الموقف لصالحه في تسمية أبي بكر خليفة، وهذه النتيجة التي فُوجِيء بها الإمام عليّ جعلته يبحث عن أنصارٍ لمواجهة الموقف، وكان له حُسن ظنّ بالأنصار، فقريش كانت مناوئةً له، فلازالت ذاكرتهم مملوءةً بصرخات المشركين من قتلاهم في بدرٍ وأُحدٍ والخندق وحُنين، وكان الأنصار ألين وأرأف وقد ناصروا رسول الله صلّى الله عليه وآله وبذلوا مهجهم دونه، بخلاف قريش فإنّها ما ادّخرت جهداً في حربها ضدّ رسول الله، وما أسلم أكثرهم إلّا عنوةً، وهكذا مضى الإمام عليّ طالباً النصرة منهم لأخذ الحقّ وإعادة الأمور إلى نصابها، ولكنّ الأنصار اعتذروا له بلطف، حيث قالوا: قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كنت سبقت إلينا ما عدلنا بك أحداً، فأجابهم: **«أكنتُ أترك رسول الله ميّتاً في بيته لا أجهّزه، وأخرج إلى الناس أُنازعهم في سلطانه»**[1]، وكانت فاطمة عليها السلام مؤيّدةً لموقف الإمام عليّ في

الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنّون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلةٌ لما رووها ولا تديّنوا بها.

ثمّ أيّد ابن ابي الحديد ما جاء في كلام المدايني، بما رواه ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم ـ في تاريخه هذا الخبر فقال: «إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيّام بني أميّة، تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يرغمون به أنوف بني هاشم». [شرح نهج البلاغة: ج١١ ص٤٤]. (منه دام ظلّه).

(١) الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص١٩؛ السقيفة وفدك، الجوهري البغدادي: ص٦٣؛

الاشتغال بتجهيز أبيها صلّى الله عليه وآله، حيث كانت تقول للأنصار: «**ما صنع أبو حسن إلّا ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسبهم عليه**»[1].

إذن فالإمام عليه السلام لم يسكت عن حقّه، ولم يُبايع قطّ، بل طلب النصرة، ولّما فقد الناصر إلّا القليل ذهب لبيته وأعلم الناس بأنّ من يريد نصرته يلحق به في بيته، ولكن لم يلحق به إلّا القليل جدّاً، وكان الحزب الحاكم يترقَّب الموقف، وكان يظنّون بأنّ الموقف قد يتبدّل، لاسيّما بعد خروج السيّدة فاطمة ومخاطبتها للأنصار والمهاجرين، ولما أحسّوا بالخطر قرّر الحزب الحاكم الانقضاض على بيت النبوّة وسوق عليّ عليه السلام وإجباره على البيعة، وقد فعلوا ذلك وهدّدوا بحرق الدار، ووقعت تلك المأساة العظيمة، التي أودت بحياة سيّدة نساء العالمين، ولما توفّيت فاطمة أعرض الناس عن أمير المؤمنين عليه السلام، حتّى أنّه لم يجد فيهم مُسلِّماً عليه! خوفاً من بطش الحزب الحاكم أو طمعاً بالجائزة، وكلّهم كانوا يعلمون بأنّ الخليفة الحقّ هو عليّ، وما صفقات أكفّهم وهي تضرب على يد عليّ عليه السلام بالبيعة خليفةً لهم في غدير خمّ ببعيدةٍ عنهم، ولذلك لّما خطبت سيّدة نساء العالمين فاطمة بالقوم عندما منعوها حقّها في فدك، وخاطبت الأنصار، قالوا: «يا بنت محمّد لو سمعنا هذا الكلام منك قبل بيعتنا لأبي بكر ما عدلنا بعليّ أحداً». فقالت: «**وهل ترك أبي يوم غدير خمٍّ لأحدٍ عذراً**»[2].

وقد كان الإمام عليّ عليه السلام يطلب الخلافة لا لأجل نفسه ولا للخلافة نفسها، وإنّما يطلبها لأجل الإسلام وتتميم مسيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإلّا فالحكومة وموقعها لا تهتزّ لها شعرةٌ في رأسه، ولنقرأ بتأمّلٍ ما رواه ابن عباس عنه،

شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص١٣؛ الفتوح، ابن الأعثم الكوفي: ج١ ص١٣؛ أعلام النساء، عمر رضا كحالة: ج٤ ص١١٤؛ الغدير، الأميني: ج٧ ص٨١.

(١) جميع المصادر السابقة.

(٢) الخصال، للشيخ الصدوق: ج١ ص٢٠١، الباب: ٣، رقم: ٢٢٨.

قال: «دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمة هذا النعل**؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: **والله لهي أحبُّ إليّ من إمرتكم إلّا أن أقيم حقّاً أو أدفع باطلاً**»[١]، ثمّ خرج عليه السلام فخطب الناس.

نعم، إنَّ مشكلة عليّ عليه السلام الحقيقيّة هي أنّه لم يتغيّر ولم يتبدّل بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، بقي كما هو ذلك الفتى المُضحّي، الذي نذر نفسه للإسلام، وصارت التضحية والفداء لغته، وصار طلب الشهادة مقصده، لم تُغيّره صفراؤها وبيضاؤها، بخلاف المنقلبين على أعقابهم، الذين أعجبتهم البهرجة وبريق الذهب المُجبى من أرض الفتوحات.

يقول الإمام عليّ عليه السلام في توصيفٍ دقيقٍ لواقع الحال بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله: «**حتّى إذا قبض الله رسوله صلّى الله عليه وآله رجع قومٌ على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتّكلوا على الولائج، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي أُمروا بمودّته، ونقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنوه في غير موضعه**».

ثمّ يُبيِّن حقيقتهم وبطانتهم وسوء سريرتهم، فيقول: «**معادن كلّ خطيئة، وأبواب كلّ ضاربٍ في غمرة، قد ماروا في الحيرة، وذهلوا في السكرة، على سنّةٍ من آل فرعون، من منقطِعٍ إلى الدنيا راكن، أو مفارقٍ للدين مباين**»[٢].

الإمام عليّ عليه السلام يُجيب عن سبب عدم خروجه بالسيف

احتجّ بعض الناس في مسجد الكوفة، فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة ـ الخلفاء ـ كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ «فبلغ ذلك عليّاً عليه السلام، فأمر أن ينادى بالصلاة جامعةً، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٨٠، خطبة رقم: ٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ج٢ ص٣٦، خطبة رقم: ١٥٠. والمراد من «الولائج»: دخائل المكر والخديعة، و«الغمرة» هي الشدّة.

فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: معاشر الناس، إنّه بلغني عنكم كذا وكذا. قالوا: صدق أمير المؤمنين قد قلنا ذلك. قال: فإنّ لي بسنّة الأنبياء أسوةً فيما فعلت؛ قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، قالوا: ومَن هم يا أمير المؤمنين؟ قال:

أوّلهم إبراهيم عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (مريم: ٤٨)، فإن قلتم: إنّ إبراهيم اعتزل قومه لغير مكروهٍ أصابه منهم، فقد كفرتم، وإن قلتم اعتزلهم لمكروهٍ رآه منهم، فالوصيّ أعذر.

ولي بابن خالته لوطٍ عليه السلام أسوةٌ إذ قال لقومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠)، فإن قلتم: إنّ لوطاً كانت له بهم قوّةٌ فقد كفرتم، وإن قلتم: لم يكن له قوّةٌ، فالوصيّ أعذر.

ولي بيوسف عليه السلام أسوةٌ إذ قال: ﴿...رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، فإن قلتم: إنّ يوسف دعا ربّه وسأله السجن لسخط ربّه، فقد كفرتم. وإن قلتم: إنّه أراد بذلك لئلّا يسخط ربّه عليه، فاختار السجن فالوصيّ أعذر.

ولي بموسى عليه السلام أسوةٌ إذ قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١)، فإن قلتم: إنّ موسى فرَّ من قومه بلا خوفٍ كان له منهم، فقد كفرتم. وإن قلتم إنّ موسى خاف منهم، فالوصيّ أعذر.

ولي بأخي هارون عليه السلام أسوةٌ إذ قال لأخيه: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ (الأعراف: ١٥٠) فإن قلتم لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم. وإن قلتم استضعفوه وأشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم، فالوصيّ أعذر.

ولي بمحمّد صلّى الله عليه وآله أسوةٌ حين فرّ من قومه ولحق بالغار من خوفهم وأنامني على فراشه، فإن قلتم فرَّ من قومه لغير خوفٍ منهم فقد كفرتم، وإن قلتم خافهم وأنامني على فراشه ولحق هو بالغار من خوفهم فالوصيّ أعذر»[1].

(١) علل الشرائع، للصدوق: ج١ ص١٤٨ ح٧؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص٢٧٩؛ الفضائل،

تحليل الشهيد الصدر لعدم خروج الإمام بالسيف

لقد تعرَّض أُستاذنا الشهيد الصدر قدّس سرّه[١] إلى موقف الإمام عليّ عليه السلام من البيعة لأبي بكر، حيث إنّه وقف عليه السلام عند مفترق طريقين، كلٌّ منهما حرج، وكلٌّ منهما شديدٌ عليه، الأوّل: أن يعلن الثورة المسلّحة على أبي بكر، والآخر: أن يسكت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا.

وهنا لابدّ من التعاطي بجديّةٍ مع واقعيّة الثورة، وما ستفضي إليه من نتائج.

فمن الواضح أنَّ الحاكمين ـ بجبلّتهم ـ لم يكونوا ينزلون عن المراكز التي ارتقوها ـ ولو غصباً ـ بأدنى معارضة، وهم مَن عرفناهم حماسةً وشدّةً في أمر الخلافة، ومعنى هذا أنّهم سيقابلون المارقين لهم بشدّة، ويدافعون عن سلطانهم الجديد، وإن انتهى بهم المآل إلى حرق دار المعارضين وترويع بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله، هذا **أوّلاً**.

وثانياً: إنَّ من المعقول جدّاً حينئذٍ أن يغتنم بعض الطامحين للخلافة الفرصة لبثّ الخلاف وتفريق الأُمّة، كما هو حال سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، حيث يغتنم الفرصة ويعلنها حرباً أخرى في سبيل أهوائه السياسيّة، وقد سجَّلت المدوّنات التاريخيّة أنّه هدّد الحزب المنتصر أو أقطاب السقيفة بالثورة عندما طلبوا منه البيعة لأبي بكر، فقال: «لا والله حتّى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنان رمحي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومَن أطاعني ولو اجتمع معكم الإنس والجنّ ما بايعتكم»[٢].

كما أنَّ الحبّاب بن المنذر ـ بعد أن أخذه الحسد من سعد بن عبادة ـ كان هو الآخر يهدّد بأن يعيدها جذعة[٣]، ولا يُستبعد بعد إثارة الفتن أن تؤول الأمور إلى

سديد الدين شاذان: ص١٣٠؛ ومصادر أخرى.

(١) انظر: فدك في التاريخ، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر: ص١٠٢ـ١٠٤.

(٢) تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٤٤.

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٤٣.

كوارث عظيمة، لاسيّما والقوم قريبو عهدٍ بالجاهليّة.

وثالثاً: ما كان يُشكِّله الأمويّون وتكتّلهم السياسي في سبيل الجاه والسلطان من خطرٍ كبيرٍ، وما كان لهم من نفوذٍ في مكّة في سنواتها الجاهليّة الأخيرة، فقد كان أبو سفيان زعيمها في محاربة الإسلام، كما أنَّ عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أميّة كان أمير مكّة المطاع في تلك الساعة، والذي كان ينتظر الإشارة من أبي سفيان ليعلنها جاهليّةً جديدةً، بل قد تحرّك ابن أسيد فعلاً بعد وصول خبر وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، حيث استخفى وارتجّت المدينة وكاد أهلها يرتدّون[1]، ولم يظهر إلّا بعد أن عرف أنّ أبا سفيان قد رضي ـ بعد سخط ـ وانتهى مع الحاكمين الجُدد إلى نتائج في صالح البيت الأموي، كان منها تسليم الشام لبني أُميّة، فظهر للناس وأعاد الأمور إلى مجاريها[2].

في ضوء هذه المعطيات يتّضح الوضع الحرج الذي كان يعيشه الإمام عليّ عليه السلام، فكان عليه السكوت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا.

التدبير الثاني: إبعاد الطامحين عن ساحة تولّي الخلافة

لا ريب أنَّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله ـ فضلاً عن كونه مؤيَّداً بالوحي وبالسداد الربّاني ـ كان قائداً تاريخيّاً، ومن أبرز ملامح نبوغ حسّه القيادي للإنسان والأمّة هو أنّه كان يقرأ الأحداث ويستشرف المستقبل، وكان صلّى الله

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٣ ص١٢٣.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٣٧. وهكذا هدأت ثائرة أبي سفيان بعد أن ولّى الخليفة الأوّل ابنه يزيد على الشام، فقال أبو سفيان: وصلَتْه رحم، ثمّ فهم الخليفة الثانية عمر الدرس جيّداً، فلما مات يزيد بالطاعون خرج الأمر منه بتولية معاوية على الشام، بل ومكّنه من الشام ما لم يُمكّن والياً له على أيّ مكانٍ آخر، حتّى بلغ الأمر به أنّه أسلم له أمور الشام فلم يأمره بشيءٍ ولم ينهه عن شيءٍ كما تقدّم! (منه دام ظلّه).

عليه وآله ينظر بعينٍ ثاقبةٍ وبصيرةٍ حادّةٍ إلى مستقبل الإسلام وهذه الدعوة الوليدة وهي لازالت تعيش في وسطٍ وبيئةٍ حُبلى بالأحداث الجسام ومحفوفةٍ بمخاطر داخليّةٍ وخارجيّةٍ، وهذا ما دعاه صلّى الله عليه وآله إلى اتّخاذ تدابير عمليّةٍ لحفظ مستقبل الإسلام والمسلمين من الانحرافات التي قد تودي به وتعود الجاهليّة الجهلاء، فكان لابدّ من رجوع الأمر في الحركة الإسلاميّة والدعوة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامي قيادةً وحكومةً وإدارةً إلى أيادٍ أمينةٍ قريبةٍ من أجواء الوحي، وضليعةٍ بخفايا الأمور، شجاعةٍ مقدامةٍ لا تعيش لنفسها، ولم يكن هنالك وفقاً للمعطيات التاريخيّة في الرسوم الإلهيّة والنبويّة غير أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لقيادة الإسلام والأمّة وحفظهما من الانقلابات المرتقبة، والتي كان أخطرها وأشدّها الانقلاب الأموي الجاهلي الذي لا يبقي ولا يذر، كما أثبت لنا التاريخ ذلك.

وقد تقدّم منّا بيان التدبير الأوّل الخاصّ بتنصيب الخليفة والإمام من بعده، وأمّا التدبير الثاني في حفظ الخلافة فقد تمثّل بإبعاد الطامحين والخصوم جميعاً عن ساحة الصراع وتولّي الخلافة، وذلك من خلال إلزامهم بالالتحاق بسريّة أُسامة لغزو الروم، فقد أمر الرسول صلّى الله عليه وآله بتهيئة سريّةٍ ثمّ أمر الصحابة بالالتحاق بها تحت إمرة أسامة بن زيد وهو شابٌّ دون عمر أبنائهم، وقد عظم عليهم ذلك الأمر، لثلاثة أسبابٍ عظيمةٍ عليهم، هي:

الأوّل: إقصاؤهم عن ساحة الصراع في وقتٍ يُتوقّع فيه وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله بين الفينة والأُخرى.

الثاني: سحب صلاحيّة تولّيهم لقيادة سريّةٍ جهاديّة فكيف بقيادة أُمّة.

الثالث: إعطاء قيادة السريّة لشابٍّ حدثٍ لم يتجاوز عمره سبعة عشر عاماً، فيكون تولّي من بلغ الثلاثين عاماً عليهم ثابتاً بالأولويّة، كما سيتّضح في التدبير النبويّ الثالث.

جديرٌ بالذكر: أنّ عظماء الصحابة لم يستجيبوا لنداء النبيّ صلّى الله عليه وآله بالالتحاق في سريّة أُسامة، حيث كانوا يدركون أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أوشك على الرحيل من الدنيا، وخروجهم إلى السريّة سوف يُفوِّت عليهم فرصة الإمساك بزمام الأُمور، وهؤلاء هم المانعون لخلافة عليّ والطامحون للخلافة، فعصوا الأمر النبويّ ولم يلتحقوا بسريّة أسامة إلّا بعد التهديد النبويّ «**جهّزوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عن جيش أُسامة**»[1]، وكان التحاقهم صوريّاً وعلى كراهةٍ شديدةٍ، فصاروا يختلقون المشاكل والمعوّقات لكي لا يسير أُسامة بهم، وكان أُسامة يشعر بتثاقلهم، حتّى شكا أمرهم إلى النبيّ مراراً والنبيّ صلّى الله عليه وآله يستجيب لشكايته بلعن المتخلّفين عن سريّته، ولكنّهم لم يرعوا لرسول الله حرمةً ولم يُقابلوا أمره بطاعة، بل صاروا يمنعون من حركة السريّة، واختلقوا له الأعذار الواهية، منها أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله على فراش المرض، وأنّهم لا يستطيعون فراقه على هذه الحال، وأنّهم يتشوّقون له، وهكذا بقيت السريّة تراوح على أعتاب المدينة حتّى جاءهم ما ينتظرون، وما كانوا إليه

---

(١) ورد هذا الحديث بهذا اللفظ في عدّة مصادر منها: الملل والنحل، للشهرستاني: ج١ ص٣٢؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٥٢؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٣٣٨؛ كتاب الاستغاثة، لأبي القاسم الكوفي: ج١ ص٢٠؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٠١؛ كتاب المواقف، الأيجي: ج٣ ص٦٥٠؛ أصول وتاريخ الفرق الإسلاميّة، جمع وترتيب مصطفى بن محمّد بن مصطفى: ص٩.

كما أنَّ خبر إنفاذ جيش أسامة ورد في عشرات المصادر من الفريقين معاً، منها: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص١ ح٣٧؛ ج٢ ص٢ ح٤١؛ ج٤ ص١ ح٤٧؛ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٧ ص٨٧؛ ج٨ ص١٥٢؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١٠ ص٥٧٢ ح٣٠٢٦٦. وسوف يقف السيّد الأستاذ دام ظلّه عند هذه الحادثة في الإجراء الثالث بشكلٍ أكثر تفصيلاً.

يتشوّقون، وهو خبر احتضار النبيّ صلّى الله عليه وآله، فأسقطوا جميع الأوامر النبويّة، ولم يكن أسامة يملك من أمره شيئاً، فكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يجود بنفسه الشريفة، والقوم يتوافدون، فنسوا أشواقهم وجليل مخاوفهم، وتجلّت الأشواق الحقيقيّة والمخاوف الواقعيّة، فانساقوا سراعاً لتهيئة الأجواء لانتخاب الخليفة الجديد، تاركين الخليفة الشرعي عليّاً مشغولاً بدفن النبيّ صلّى الله عليه وآله، فكانت فرصتهم التاريخيّة في عقد صفقتهم الكُبرى في السقيفة الأُولى[1].

التدبير الثالث: تولية أصغر الصحابة سنّاً على كبارهم

ونعني بذلك ما وقع في تولية الصحابي الحدث السنّ أُسامة بن زيدٍ على كبار الصحابة سنّاً وسابقةً، وقد اشتمل بعث سريّة أُسامة على عدّة أمور، سنُبيّنها بعد تصوير أحداث بعث السريّة ومفارقاتها.

---

(١) يرى السيّد الأُستاذ دام ظلّه: أن سقيفة بني ساعدة كانت هي السقيفة الأُولى، والتي أنتجت خلافة أبي بكر، وأمّا السقيفة الثانية فهي الشورى السداسيّة التي صيغت بنحوٍ لا يكون فيها لعليٍّ حظّ من الخلافة، وقد حيكت بإحكامٍ شديدٍ، ونجحت في مُبتغاها، في حين أنّ السقيفة الأولى قد اعتمدت في نجاحها على أمرين، الأوّل: حالة الذهول التي كانت تعيشها الأمّة، والثاني: عدم وجود منافسين كبار لعليّ، في حين أنَّ السقيفة الثانية لم يعش فيها المسلمون ذهولاً لفقد الخليفة، بل كان هنالك ارتياحٌ؛ لشدّته وغلظته عليهم، فكان لا مناص من إدخال عليّ من باب وإخراجه من بابٍ آخر، فكانت السقيفة العمريّة الثانية، والتي جُعل أمرها في يد رجلٍ كان يعي مهمّته وما هو مطلوبٌ منه، فأتقن الجاعل مهمّته، ونجح في تمرير بنودها، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإنّ غداً لِناظره لَقريب، وأمّا السقيفة الثالثة فكان أبطالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري، يوم أمضوا عدوان معاوية وبغيه، وأقصوا الإمام الشرعي، على مرأى العيون. جديرٌ بالذكر: أنَّ للشيخ العلايلي تحليلاً دقيقاً للشورى السداسيّة، يمكن مراجعته في مقدّمة كتابه (الإمام الحسين).

تصوير بعث سريّة أسامة بن زيد

لا شكَّ في أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد بعث سريّةً بقيادة أُسامة بن زيدٍ قُبيل وفاته صلّى الله عليه وآله بأيّامٍ قليلةٍ، لمواجهة الروم في الشام، حيث قال له صلّى الله عليه وآله: «**يا أسامة، سرْ على اسم الله وبركته، حتّى تنتهي إلى مقتل أبيك**، ـ يعني: مؤتة ـ **فأوطئهم الخيل، فقد ولَّيتُك على هذا الجيش**»[1]، وقد حثَّه على المسير بقوله صلّى الله عليه وآله: «**وأسرع السير لتسبق الأخبار**»[2].

ثمّ طلب صلّى الله عليه وآله من الصحابة الالتحاق به، فلم يبقَ أحدٌ من كبار ووجوه المهاجرين والأنصار إلّا كان في ذلك الجيش، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد وغيرهم من كبار الصحابة[3].

وقد تحرَّك أسامة بسريّته لمواجهة الروم في الشام، ولكنَّ السريّة لم تمضِ لرشدها، وبقيت مرابطةً حول جرف المدينة المنوّرة؛ بانتظار التطوّرات الخطيرة التي ستشهدها عاصمة الدولة الحديثة! نتيجة التدهور الصحّي للرسول صلّى الله عليه وآله، وأنَّ علائم رحيله صلّى الله عليه وآله للرفيق الأعلى باتت وشيكةً،

---

(١) المغازي، للواقدي: ج٣ ص١١١٧؛ تاريخ الإسلام: الذهبي: ج٢ ص٧١٣؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص١١٥؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص١٩٠؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢ ص٥٤؛ ج٢٢ ص٤؛ عيون الأثر، ابن سيّد الناس: ج٢ ص٣٥٢؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج٦ ص٢٤٨؛ غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبويّة الشماليّة، بريك بن محمّد بريك العمري: ص٤٦٩؛ مرويّات الإمام الزهري في المغازي، محمّد العواجي: ج٢ ص٨٤٠؛ نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين، محمّد بن عفيفي الخضري: ص٢٠٢.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

وأيّاً كانت أسباب عدم حراك السريّة لهدفها فإنَّ هنالك أشخاصاً كباراً مؤثـّرين قد امتنعوا عن التحرّك، وامتنعت معهم أعدادٌ كبيرةٌ من المُلتحقين بالسريّة، وقد شكا أُسامة بن زيدٍ هذا التلكّؤ في حراك بعض الصحابة معه للرسول صلّى الله عليه وآله لأكثر من مرّة، فخرج صلّى الله عليه وآله إلى المسجد النبويّ، رغم وعكته الصحيّة الشديدة، وهو ينادي بالمسلمين: «**جهّزوا جيش أُسامة**»، «**أنفذوا جيش أُسامة**»، «**أرسلوا بعث أسامة**»(١)، والقوم يتثاقلون، إمّا بداعي الشفقة وعدم قدرتهم على فراق النبيّ الأكرم، لاسيّما وأنّه صلّى الله عليه وآله في تلك الحال من المرض الشديد، كما فهم أو فسَّر البعض تلك الأحداث، وإمّا لإدراك كبار الصحابة أنَّ زمام الأمور سيخرج من أيديهم عند رحيل الرسول صلّى الله عليه وآله، وأنّهم لن يكون لهم حظّ في الخلافة، كما فهم البعض ذلك أو فسّرها بذلك.

ولكنَّ الثابت أنَّ هنالك نوعاً من التثاقل عن الحراك مع السريّة خارج المدينة، وأنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لم يكن راضياً عن ذلك التثاقل، ولذلك صار يُكرّر لأكثر من مرّةٍ الدعوة للالتحاق بسريّة أُسامة، وكانت هنالك مجموعة أعذارٍ اعترضت تحرّك القوم مع أُسامة، منها الطعن بتولية أُسامة عليهم؛ نظراً لحداثة سنّه، فإنّه كان ابن السابعة عشرة من عمره(٢)، فردّ النبيّ صلّى الله عليه وآله على المعترضين أو الطاعنين بتولية أُسامة بقوله: «**أيّها الناس ما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه**

---

(١) وردت هذه التعابير المختلفة في مصادر كثيرة، وهي تُشير إلى قضيّة التعجيل بإرسال سريّة أسامة وعدم التأخّر في ذلك. [انظر: طبقات ابن سعد: ج٤ ص٦٧؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٨ ص٦٢؛ تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٣ ص١٩، سنة: ١١؛ ومصادر أُخرى].

(٢) انظر: السيرة الحلبيّة: ج٣ ص٢٣٤؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج١ ص٦٤؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج١ ص٤٦؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج١ ص٣٤.

من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وإنَّ ابنه من بعده لخليقٌ بها»[١].

ويبدو من ظاهر بعض الأخبار: أنَّ الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب كان واحداً من المعترضين والطاعنين بتولية أُسامة، والشاهد على ذلك هو أنَّ الخليفة أبا بكر لمّا أراد أن يبعث السريّة إلى حيث أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وتحت قيادة أُسامة نفسه، اعترضه عمر بن الخطّاب وطلب منه عزل أُسامة وإبداله بشخصٍ آخر، فردّ عليه أبو بكر قائلاً: «ثكلتك أمُّك وعدمتك يا ابن الخطّاب، استعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم، وتأمرني أن أنزعه؟!»[٢].

وقد تقدّم منّا أنّه قد ورد في بعض الأخبار: أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد لعن المتخلّفين عن جيش أسامة، حيث رُوي عنه صلّى الله عليه وآله قوله: «**جهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلّف عنه**»[٣]، فتسارعت الأحداث حتّى توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسريّة أُسامة ما زالت مرابطةً بجرف المدينة المنوّرة! دون أن يُنفّذ أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله فيها[٤].

---

(١) ورد هذا الخبر بألفاظٍ متشابهةٍ، تُشير إلى معنىً واحدٍ. [انظر: المغازي، للواقدي: ج٣ ص١١١٩؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص١٩٠؛ ج٤ ص٦٧؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٢٩، سنة: ١١؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٨ ص٦٢].

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص٣٣٥؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٦٢، سنة: ١١؛ السيرة الحلبيّة، الحلبي الشافعي: ج٣ ص٢٠٩.

(٣) تقدَّم تخريج المصادر.

(٤) قيل بأنَّ أُسامة لما صار بعسكره على أميالٍ من المدينة بلغهم مرض رسول الله صلّى الله عليه وآله، فرجع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجرّاح، فلما دخلوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله تغيَّر لونه، وقال: «**اللّهُمَّ إنّي لا آذن لأحدٍ أن يتخلّف عن جيش أسامة، وهمَّ أبو بكر بالرجوع إلى أسامة واللحوق به، فمنعه عمر**». [انظر: تثبيت الإمامة (إمامة أمير

الأمور التي اشتمل عليها بعث سريّة أسامة

قلنا بأنَّ هنالك عدّة أمورٍ اشتمل عليها بعث سريّة أسامة بن زيد، منها:

الأمر الأوّل: إبطال القاعدة الجاهليّة «أولويّة الأسنّ»

يُعتبر إعطاء قيادة السريّة لشابٍّ حدثٍ لم يتجاوز عمره سبعة عشر عاماً، من الإجراءات الذكيّة جدّاً، فقد أوضح للأُمّة حاضراً ومستقبلاً بطلان الدعوة الجاهليّة في ضرورة تقدّم كبير السنّ على الأصغر منه، فهذا ما احتجّ به بعض الطامحين للخلافة؛ فعن ابن عباس أنّه قال: «إنّي لأماشي عمر في سكّةٍ من سكك المدينة، يده في يدي، فقال: يا ابن عباس، ما أظنّ صاحبك إلّا مظلوماً، فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته. فانتزع يده من يدي، ثمّ مرّ يهمهم ساعةً ثمّ وقف، فلحقتُه فقال لي: يا ابن عباس، ما أظنّ القوم منعهم من صاحبك إلّا أنّهم استصغروه، فقلت في نفسي: هذه شرّ من الأُولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر»[1].

ولا يعني بالقوم سوى نفسه وأبي بكر وأبي عبيدة بن الجرّاح، وما سنّة الاستصغار هذه عنهم ببعيدةٍ يوم طعنوا بأمارة أسامة، وأشاعوا تلك النعرة الجاهليّة في وسط السريّة، وما كان ذلك هو المقصد الحقيقي، فلو عقد النبيّ صلّى الله عليه وآله الخلافة لأحدهم ثمّ أمرهم بالمسير تحت لواء أسامة لساروا يحثّون الخطى، ولكنّهم كانوا يدركون المغزى من تأمير أسامة عليهم، وأنّه أبعد من فكرة تحكيم صغار السنّ على كبارهم، فمكثوا على جرف المدينة يترقّبون ساعة

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام)، للإمام الزيدي اليمني يحيى بن الحسين بن القاسم (ت: ٢٩٨هـ): ص١٩؛ الأربعون حديثاً، تأليف: الشيخ سليمان الماحوزي البحراني (ت: ١١٢١هـ): ص٢٥٥].

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٤٥.

الصفر، وكانت ساعة الصفر عندما بلغهم وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله.

وعلى أيّ حال، فإنَّ تولية الرسول صلّى الله عليه وآله لأسامة على عليّة القوم ـ وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن ممَّن زعموا لأنفسهم التقدّم في السنّ ـ تشتمل على درسٍ عظيمٍ على بطلان تلك العادة الجاهليّة، أو قل: العادة الأمويّة السفيانيّة التي استعظمت ظهور النبيّ صلّى الله عليه وآله عليهم في تولّي مقاليد الأمور، واحتجّوا آنذاك بأنَّ على مكّة أن تقودها شيوخها لا صبيانها.

وفي ضوء هذا التدبير النبويّ يكون تولّي من بلغ الثلاثين عاماً ـ وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ـ عليهم ثابتاً بالأولويّة، كما تقدّمت الإشارة.

الأمر الثاني: إبعاد المنافسين والطامحين والطامعين بالخلافة

إنَّ من أهمّ معطيات بعث أسامة على رؤوس كبار الصحابة: العمل على إبعاد المنافسين والطامحين والطامعين بالخلافة، وإخلاء ساحة الأحداث القادمة بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله منهم، حيث كان المخطّط النبويّ قائماً على تصفية الأجواء من تلك الثلّة الطامحة والطامعة بالخلافة، حيث كانت المعطيات تسير باتّجاه وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، والنبيّ صلّى الله عليه وآله كان يعلم بذلك عن طريق الوحي، فجرت الخطّة على تخلية الساحة من أولئك، فإذا ما رجعوا من بعث أسامة بعد أكثر من شهر ـ على أقلّ التقادير ـ سيجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع، فلا مناص من إلزامهم بالبيعة، لاسيّما وأنَّ المسلمين الباقين في المدينة سيشهدون بأنَّ هذه البيعة جرت بمباركة النبيّ صلّى الله عليه وآله قبل رحلته، وأنّه قد أمر بها.

وبحسب المعطيات التاريخيّة يُلاحظ أنَّ مجموعة الطامحين والطامعين قد أدركوا وتحسّسوا ذلك، ولذلك تمنّعوا من المسير، وخلقوا عدّة مشكلاتٍ ساعدت على تأخير حركة جيش أسامة، وكانت حجّتهم الأولى هي عدم قدرتهم على فراق النبيّ صلّى الله

عليه وآله، لاسيّما وهو في ذلك الوضع الصحّي غير المستقرّ، فاستجابوا لتسويلات أنفسهم وضربوا بأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بامتثال المسير عرض الجدار.

الأمر الثالث: تضعيف موقف المنافسين والطامعين بالخلافة

لقد كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يدرك بحنكته القياديّة أنّ القوم سوف يتقاعسون ويتلكّأون في المسير، لهدفٍ هو واضحٌ وجليّ للنبيّ الأكرم، ولذلك كان هنالك هدفٌ آخر وضعه بين يدي الأمّة والتاريخ، وهو أنَّ هؤلاء الطامعين والمخالفين لأمر رسول الله سوف يكونون فاقدي الأهليّة لقيادة الأمّة، من خلال اقترانهم بذلك التهديد والتنديد، الذي بقوا متوشّحين به منذ رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإلى يومنا هذا، وفي هذا التضعيف رسالةٌ واضحةٌ وخطيرةٌ للأمّة، فذلك التنديد والتهديد للمتخلّفين عن جيش أسامة سيبقى علامةً فارقةً في تاريخهم، وهو ليس بالبعيد زمناً، فبينه وبين رحلة النبيّ ساعاتٌ معدودةٌ، فلازال صوته يرنّ في آذان الجميع، فكيف يتسنّى لهؤلاء التصدّي للبيعة والحكم وهم متوشّحون بثوبٍ لا تستر لوثته الأيّام والسنون والدهور وإن طالت؟

التدبير الرابع: ترسيخ قاعدة «لكلّ نبيٍّ وصيّ»

إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وضمن المنطق التاريخي والسنن التاريخيّة في مسيرة الأنبياء عليهم السلام، قد سلك في الأمّة مسلك التعريف والتطبيق لقاعدة «لكلّ نبيٍّ وصيٌّ من بعده»، وما كان صلّى الله عليه وآله ـ بحسب التعبير القرآني ـ بدعاً من الرسل[1]، فكان التعريف بأصل القاعدة لازماً ليتسنّى تطبيقها وبيان مصداقها، وهذا ما فعله رسول الله صلّى الله عليه وآله.

عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف: ٩).

صلّى الله عليه وآله: **إنّ أوّل وصيٍّ كان على وجه الأرض هبة الله ابن آدم، وما من نبيٍّ مضى إلّا وله وصيّ، وكان جميع الأنبياء مائة ألف نبيّ وعشرين ألف نبيّ، منهم خمسة أولو العزم: نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّدٌ عليهم السلام، وإن عليّ بن أبي طالبٍ كان هبة الله لمحمّد، وورث علم الأوصياء وعلم مَن كان قبله، أما إنّ محمّداً ورث علم مَن كان قبله من الأنبياء والمرسلين**»[1].

وفي خبرٍ آخر عن أبي سعيدٍ الخدريّ، عن سلمان الفارسي قال: «قلت يا رسول الله لكلّ نبيٍّ وصيّ، فمن وصيّك؟ فسكت عنّي، فلما كان بعد رآني فقال: **يا سلمان**. فأسرعت إليه، قلت: لبّيك، قال: **تعلم مَن وصيّ موسى؟** قلت: نعم، يوشع بن نون، قال: **لِمَ؟** قلت: لأنّه كان أعلمهم. قال: **فإنَّ وصيّي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي دَيني: عليّ بن أبي طالب**»[2].

ثمّ اكتفى البعض بذكر التطبيق اعتماداً على القاعدة العامّة المركوزة في أذهان المسلمين، فروى الحاكم والذهبي عن سلمان الفارسي قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **إنَّ وصيّي وخليفتي وخير مَن أترك بعدي ينجز موعدي ويقضي ديني: عليّ بن أبي طالب**»[3].

وهذه القاعدة العامّة لها شواهد قرآنيّة، منها:

أوّلاً: ما جاء في قصّة داود وسليمان عليهما السلام؛ قال تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**﴾ (النمل: ١٦)، فقد كان سليمان وارث داود ووصيّه والقائم مقامه.

---

(١) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٥٥٧ ح٦٠٢.

(٢) المعجم الكبير، للطبراني: ج٦ ص٢٢١؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١١٣.

(٣) المصدران السابقان بالإضافة إلى: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٥٧؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٩٨؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص٢٤٠؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي: ج١١ ص٢٩١؛ كشف اليقين، ابن المطهّر الحلّي: ص٢٥٥؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص١٥٦.

ثانياً: ما جاء في قصّة زكريّا؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً**﴾ (مريم: ٥ـ٦)، فقد كان زكريّا بلا ذرّيّة، وكان عليه السلام يتساءل عن وارثه ووصيّه؛ لأنّ لكلّ نبيٍّ وصيّاً، فمن يكون وصيّه وهو ليس له ولد؟ والذي يبدو من زكريّا أنّه كان يريد أن يعرف تكليفه قبال تلك القاعدة العامّة، وذلك من خلال التعريف بوصيّه الذي سيرثه ويرث آل يعقوب، يعني ميراث النبوّة، فجاء التعريف بوصيّه، وكان يحيى عليه السلام.

وهذا ما فعله الرسول صلّى الله عليه وآله حيث عرَّف الأمّة بوصيّه وخليفته من بعده، انطلاقاً من تلك القاعدة العامّة، والتعريف فضلاً عن كونه وظيفةً نبويّةً تجاه وصيِّه من بعده فإنّه إجراءٌ نبويّ لحفظ الخلافة من بعده من الادّعاءات، فلما أنكر البعض أن يكون الإمام عليّاً عليه السلام فإنّهم اصطدموا بالقاعدة العامّة، ولذلك لجؤوا إلى تأويل الوصيّة، فجعلوا عليّاً وصيّاً على ماله، وهذا ما أوقعهم في حرج؛ لأنّهم رووا في صحاحهم عن أبي بكر أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة**»[1].

إنّ تأكيدات النبيّ صلّى الله عليه وآله في موارد عدّة على كون عليّ عليه السلام هو وصيّه وخليفته، وأنّه وليّ كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من بعده، ما هو إلّا انطلاقٌ من تلك القاعدة العامّة، وحيث إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان يُدرك بعمقٍ ما عليه نفوس القوم وعدم انصياعها لهذه الوصيّة، وأنَّ قلوبهم تنطوي على ضغائن وإحن[2]،

---

(١) ورد هذا الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ في مصادر حديثيّةٍ وتفسيريّةٍ كثيرةٍ، وقد تقدَّم تصديرها وتخريجها جميعاً في الفصل الثالث، ضمن عنوان «الموقف الأوّل: موقف البيعة لعليّ بالخلافة في آية الإنذار»، فراجع.

(٢) وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام موضّحاً سرّ بكائه: «**ضغائن في صدور أقوامٍ لا يبدونها لك إلّا من بعدي**، قال الإمام عليه السلام: قلت: يا

فقد بالغ كثيراً في بيان الوصيّة والتذكير بها، وقد كان صلّى الله عليه وآله يستعمل ألفاظاً مختلفةً كلّها تؤدّي إلى مرادٍ واحدٍ، وهو كون الإمام عليّ عليه السلام هو الخليفة من بعده[1].

التدبير الخامس: التعريف بأعلم الأُمّة من بعده

إنّ للإخبار بكون عليّ عليه السلام هو أعلم الأمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله دلالاتٍ كثيرةً، من أهمّها أنّه الشخص الوحيد الذي يجب مراجعته في الأمور العامّة والخاصّة للدولة، وهذا هو مفاد كونه الخليفة من بعده، وكأنّه صلّى الله عليه وآله أراد أن يُبيّن علّة الخلافة والوصاية، وليس هنالك أبرز من صفة العلم، وقد مرّ بنا في التدبير السابق خبرٌ عن سلمان الفارسي لمّا سأله عن الوصيّ من بعده، فسأله عن وصيّ موسى فأجابه سلمان بأنّه: يوشع بن نون، فسأله النبيّ عن علّة ذلك بقوله: لِمَ؟ فأجاب سلمان بوضوح: لأنّه كان أعلمهم، وعندئذٍ عرَّف النبيّ صلّى الله عليه وآله بوصيّه[2]، لِيُدلِّل على كونه قد توفَّرت فيه علّة الوصاية به، وهو كونه أعلم الأمّة بعده.

وأمّا الخبر الذي يروي لنا كون عليّ عليه السلام هو أعلم الأُمّة بعد رسول

رسول الله في سلامةٍ من ديني؟ قال: **في سلامةٍ من دينك**»، وفي رواية أُخرى: أنّه صلّى الله عليه وآله «قال له: **ضغائن في صدور قومٍ لا يبدونها لك حتّى يفقدوني**، فقال: يا رسول الله، أفلا أضع سيفي على عاتقي فأبيد خضراءهم! قال: **بل تصبر...**» [تقدّم تصدير الخبرين معاً: كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص٩٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص١٠٧].

(١) من قبيل قوله صلّى الله عليه وآله: «**من كنت أنا وليّه فعليّ وليّه**»، وقوله: «**أنت وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**»، وقوله: «**أنت خليفتي من بعدي**»، وغير ذلك ممّا تقدم تصديره وما لم يتمّ تصديره؛ لكثرة ما ورد فيه، ويمكن مراجعة كتاب «الغدير» للشيخ الأميني حيث ذكر عشرات الأخبار في ذلك ومِن كتب الفريقين معاً.

(٢) تقدّم ذكر الخبر وتصديره.

الله فقد روي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **أعلمكم عليّ بن أبي طالب**»[١]، وفي خبرٍ آخر عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**أعلم أمّتي من بعدي عليّ بن أبي طالب**»[٢]، بل جاء في خبرٍ آخر: «**عليّ بن أبي طالب أعلم الناس بالله وبالناس**»[٣].

وكفاه دليلاً على أعلميّته المطلقة على سائر الصحابة: حاجة الصحابة المُلحّة إليه في جميع الأُمور التي عجزوا فيها، من معضلاتٍ عقديّةٍ وفقهيّةٍ وقضائيّةٍ، وعدم حاجته إليهم مطلقاً، كما هو ثابتٌ بالأخبار المُستفيضة في ذلك، ولازم كونه أعلم الصحابة قاطبةً وحاجتهم إليه دون حاجةٍ منه إليهم، وكونه أعلم الناس بالله تعالى وبالناس: هو أن يكون الخليفة عليهم، لا أن يكون مَن هو دونه خليفةً عليه وعلى الأمّة.

إنَّ هذه الدلالة في كون عليّ عليه السلام أعلم الأمّة، لها إشاراتٌ قرآنيّةٌ أكّدتها جملةٌ من الكتب الروائيّة، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣) عن بريد بن معاوية أنّه ذكر هذه الآية للإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، فقال: «**إيّانا عنى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله**»[٤]، وقد جرت محاولاتٌ كثيرةٌ لربط

---

(١) فروع الكافي، للكليني: ج٧ ص٤٢٣ ح٦؛ تهذيب الأحكام، للطوسي: ج٦ ص٣٠٥؛ خصائص الأئمّة، للشريف الرضي: ص٨٤، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) أمالي الصدوق: ص٦٣؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٤٣٣؛ كشف اليقين، ابن المطهّر الحلّي: ص٥٠؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٦١٤ ح٣٢٩٧٧.

(٣) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤٣٣؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١١ ص٢٩٨؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٦١٤ ح٣٢٩٨٠؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٦٣٦ ح٦١٧٦، وقال عنه: حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين.

(٤) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٥٧٠ ح٦١٥.

الآية بعبد الله بن سلام، أحد زعماء الإسرائيليّات، حيث قال مجاهد: هو عبد الله بن سلام[1]، ولم يعلم مجاهد أنَّ أوّل من ادّعى نزول هذه الآية فيه هو عبد الله بن سلام نفسه يوم جاء لنصرة عثمان عند انتفاضة الأمّة عليه، وضرب الحصار حوله[2].

دلالة حديث الثقلين على أعلميّة الإمام عليّ عليه السلام

كنّا قد تعرّضنا إلى حديث الثقلين[3] في دراسةٍ مفصّلةٍ، في سنده ومتنه[4]، ومن جملة النتائج التي انتهينا إليها هنالك: أنَّ هذا الخبر الصحيح بل المستفيض، فيه دلالةٌ على أعلميّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على جميع الصحابة، وعلى سائر الناس أجمعين، فهو الأعلم بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، فدلالة التمسّك بالكتاب وبه ـ بصفته سيّد العترة الطاهرة ـ ودلالة الوقاية من الضلال، كلتاهما تشيران إلى أعلميّة الإمام عليه السلام، فلا معنى للحصر بالتمسّك به وبالكتاب من دون أن

---

(١) انظر: تفسير مجاهد: ج١ ص٣٣١؛ تفسير الطبري: ج١٣ ص١١٨.

(٢) في يوم الانتفاضة على عثمان جاء ابن سلام مناصراً لعثمان فطلب منه أن يردّهم عنه، فخرج فخطب فيهم، وكان ممّا قاله: «ونزل فيَّ: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّه شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾»، فأجابه المنتفضون بكلمةٍ واحدةٍ: «اقتلوا اليهودي». [التفسير والمفسّرون، الذهبي المصري: ج١ ص١٣٧].

(٣) حديث الثقلين حديثٌ مستفيضٌ، وقد ورد في كتب الفريقين، وصحّحة كبار المحقّقين، منهم الألباني، وممَّن روى الحديث الترمذي في سننه، عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قالا: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**». قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن»، وقال الشيخ الألباني: «صحيح». [انظر: الجامع الصحيح سنن الترمذي: ج٥ ص٦٦٣ ح٣٧٨٨، والأحاديث مذيّلةٌ بأحكام الألباني عليها].

(٤) انظر: حديث الثقلين سنداً ودلالةً، قراءةٌ في أبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري.

يكون هو الأعلم ممَّن سواه، ولا معنى أن يكون التمسّك به واقياً من الضلالة من دون أن يكون هو الأعلم، وإنّما كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هو الأعلم لكونه هو الأعلم بكتاب الله، وسوف يأتي الحديث في التدبير التالي حول حقيقة هذا الارتباط الوثيق بين كتاب الله (القرآن) وبين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

التدبير السادس: قرن الخليفة الشرعي بالقرآن

إنّ الاقتران بالقرآن الكريم لأمرٌ عظيمٌ، وفيه دلالاتٌ عميقةٌ على عظمة الشخص المُقترن به، وهذا ما سلكه النبيّ صلّى الله عليه وآله في تشخيص الخليفة الشرعي للأمّة، فقرنه بالقرآن في أكثر من موردٍ ومناسبةٍ، وسوف نُبيِّن هذا التدبير العظيم من خلال أربعة محاور، وهي:

المحور الأوّل: المعيّة المتبادلة مع القرآن في الكينونة على الحقّ.

المحور الثاني: المعيّة في التمسّك بهما بنحوٍ غير قابلٍ للانفكاك.

المحور الثالث: القتال من أجل القرآن.

المحور الرابع: المعيّة مع القرآن في العلم.

وقد اخترنا هذه المحاور الأربعة ليس للانحصار بها، فهنالك محاور أُخرى لمعيّة الخليفة الشرعي عليّ مع القرآن، ولكنّنا سنقتصر عليها لشهرتها، ولإيفائها بالغرض، وسوف نعكسها من خلال كتب الفريقين معاً.

المحور الأوّل: المعيّة المتبادلة مع القرآن في الكينونة على الحقّ

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقِّ عليّ: «**عليٌّ مع الحقّ، والحقّ مع عليّ، اللّهُمَّ أدر الحقّ مع عليٍّ حيثما دار**»[1].

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٧ ص٢٣٥؛ المسائل الصاغانيّة، المفيد: ص١٠٩؛ الفصول المختارة، المفيد: ص٩٧، وص١٣٥؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢ ص٢٩٧؛ المعيار والموازنة، الإسكافي: ص٣٥؛ الاستغاثة، أبو القاسم الكوفي: ج١ ص٩.

وعن أبي ثابت مولى أبي ذرّ الغفاري قال: «دخلت على أمّ سلمة فرأيتها تبكي وتذكر عليّاً وقالت: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **عليٌّ مع الحقّ، والحقّ مع عليٍّ، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض يوم القيامة**»[1].

وفي رواية الذهبي تأكيدٌ صريحٌ على الارتباط بين عليّ عليه السلام والحقّ، فقد روى عن مالك بن جعونة قال: سمعت أمّ سلمة تقول: «عليّ على الحقّ، من تبعه فهو على الحقّ، ومن تركه ترك الحقّ، عهداً معهوداً»[2]، وقد وثّقه ابن معين، وقال أبو حاتم: لا بأس به[3].

وفي هذا المجال يقول الفخر الرازي: «ومن اقتدى في دينه بعليّ بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله عليه السلام: **اللّهُمَّ أدر الحقّ مع عليٍّ حيث دار**»[4].

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ**﴾ (فاطر: ٣١)، وأيضاً: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾ (السجدة: ٣)، فيكون المؤدّى أنّ عليّاً مع الحقّ، والحقّ من مصاديقه القرآن، فيكون عليّ مع القرآن في وحدة الحقّ بينهما، وهذا ما أكّده رسول الله صلّى الله عليه وآله برواية أمّ سلمة،

وقد ورد في سنن الترمذي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**رحم الله عليّاً؛ اللّهُمَّ أدر الحقّ معه حيث دار**». [سنن الترمذي: ج٥ ص٢٩٧ ح٣٧٩٨؛ المعجم الصغير: ج٦ ص٩٥]. وقد روى هذا الحديث نفسه الحاكم في مستدركه، ثمّ علّق عليه قائلاً: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه». [المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٤ ح٤٦٠٥].

(١) تاريخ بغداد: ج١٤ ص٣٢٢، تحت رقم: ٧٦٤٣؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٤٤٩؛ الخصال، للصدوق: ص٤٩٦؛ أمالي الصدوق: ص١٥٠؛ الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ج١ ص٩٨؛ الاستغاثة، لأبي القاسم الكوفي: ج٢ ص٦٣.

(٢) ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص٢١٧، تحت رقم: ٨٩١١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التفسير الكبير، الرازي (طبعة الأحد عشر جلداً): سورة الفاتحة، الباب الرابع.

قال: «**عليّ مع القرآن والقرآن معه ، لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض**»[1].

المحور الثاني: المعيّة في التمسّك بهما بنحوٍ غير قابلٍ للانفكاك

عن أبي سعيد التيمي قال: «سمعت أبا ثابتٍ مولى أبي ذرّ الغفاري رضوان الله تعالى عليه يقول: سمعت أمّ سلمة رضي الله عنها تقول: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله في مرضه الذي قُبض فيه يقول وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: **أيّها الناس، يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدَّمت إليكم القول معذرةً إليكم، ألا إنّي مخلّفٌ فيكم كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي**»، تقول أُمّ سلمة: «ثمّ أخذ بيد عليّ عليه السلام فرفعها فقال: **هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان بصيران لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض**»[2].

فالقرآن وعليّ لا يفترقان، والتمسّك بأحدهما مُلزمٌ للتمسّك بالآخر، والقائل: حسبنا كتاب الله، يكون قد فرَّق بين شيئين غير قابلين للانفكاك أبداً؛ لقوله صلّى الله عليه وآله: «**لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض**»، فلابدّ من التمسّك بهما معاً، وهذا هو مقتضى حديث الثقلين المرويّ عن زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدى؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[3]، وقد نسف

---

(١) أمالي الطوسي: ص٤٧٨؛ المعجم الصغير: ج١ ص٢٥٥؛ الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي: ج٢ ص١٧٧ ح٥٥٩٤؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧٠ ح٥٥٩٤؛ ربيع الأبرار، الزمخشري: ج١ ص٥٢٨.

(٢) أمالي الطوسي: ص٤٧٨ ح١٤؛ المعجم الصغير: ج١ ص٢٥٥؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج٢ ص١٧٧ ح٥٥٩٤؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧٠ ح٥٥٩٤.

(٣) سنن الترمذي: ج٥ ص٣٢٨ ح٣٨٧٦؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٧ ص١٧٠ ح١١٠٤؛ سلسلة الأحادث الصحيحة، للألباني: ج٤ ص٣٥٥ ح١٧٦١.

ابن حنبل في روايةٍ له أيّ احتمال لدخول نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله في أهل البيت عليهم السلام، فقد روى عن زيد بن ثابتٍ أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّي تاركٌ فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنّهما لن يتفرقّا حتّى يردا عليّ الحوض جميعاً**»[1]، ولا أحد يدَّعي أن تكون واحدةٌ من نساء النبيّ خليفة.

المحور الثالث: القتال من أجل القرآن

وهذا ما سنبحثه مُفصّلاً عمّا قريب، حيث أوضح رسول الله في حديث «خاصف النعل» أنّ في هذه الأمّة من سيُقاتل على التأويل كما قاتل هو على التنزيل، فقد روى ابن حنبل في مسنده، عن أبي سعيدٍ الخدري عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله**»[2]، وسيأتينا البحث مفصّلاً في معنى التنزيل والتأويل.

وفي الخبر نفسه يقول أبو سعيدٍ الخدري: «فقام أبو بكر وعمر، فقال: **لا، ولكنّه خاصف النعل**، وعليّ يخصف نعله»[3]، قال العلّامة شعيب الأرنؤوط: «صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ رجاله ثقاتٌ رجال الصحيح».

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ح٣٥ ص٥١٢ ح٢١٦٥٤.

(٢) المصدر السابق: ج١٧ ص٣٩١ ح١١٢٨٩.

(٣) المصدر السابق. وقد كان عليّ يخصف نعل رسول الله، فقد جاء في خبرٍ آخر لابن حنبل أيضاً عن أبي سعيد الخدري، قال: «كنّا جلوساً ننتظر رسول الله صلّى الله عليه وآله، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلَّف عليها عليٌّ يخصفها، فمضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومضينا معه ثمّ قام ينتظره وقمنا معه فقال: **إنَّ منكم مَن يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله**. فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر، فقال: **لا، ولكنّه خاصف النعل**. قال: فجئنا نبشّره، قال: وكأنّه قد سمعه». قال شعيب الأرنؤوط: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الصحيح». [المصدر السابق].

إنّ هذه العلاقة الفريدة بين الإمام عليّ والقرآن الكريم هي التي تُفسِّر لنا كلمة الإمام عليّ عليه السلام: «**والله إنّي أعلم بالقرآن وتأويله من كلّ مدّعٍ علمه، ولولا آيةٌ في كتاب الله لأخبرتكم بما يكون إلى يوم القيامة**»[١]، كما أنّها تفسِّر لنا أيضاً كلمته القيّمة لمّا أراد أهل الشام أن يجعلوا القرآن حكماً بصفّين؛ قال الإمام عليّ عليه السلام: «**أنا القرآن الناطق**»[٢]، فنطقه قرآنيّ، والقرآن هو الحقّ، فنطقه هو الحقّ، ونطقه عمله، وعمله ترجمةٌ عمليّةٌ لنطقه. وهذه الثنائيّة في الخارج المتوحّدة في الواقع تُسجِّل لنا في الآن نفسه واقع حال الخصوم، ممَّن أسَّس لتنحيته عن مقامه، وصغَّر مقامه في الأمّة، من السابقين والتالين والمعاصرين، فالحقّ في المقام واحدٌ لا يتثنّى.

المحور الرابع: المعيّة مع القرآن في العلم

مرّ بنا في ذيل التدبير الخامس ذكرٌ موجزٌ لأعلميّة الإمام عليّ عليه السلام على سائر الصحابة، وقد ثبت في كتب الفريقين معاً وبأخبارٍ مستفيضةٍ حاجة الناس إليه عموماً والصحابة خصوصاً في حلّ المعضلات المرتبطة بالفقاهة والعلم، مع عدم حاجته إليهم مطلقاً، وما كان ذلك منه إلّا لأنّه كان أعلم الناس بكتاب الله تعالى، وهذه الأعلميّة كشف عنها القرآن بنفسه، من خلال جعله شاهداً على رسالة النبيّ صلّى الله عليه وآله، حيث جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣)، وقد ذكرنا في ذلك كلمة الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**إيّانا عنى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله**»[٣]، وقد عرفت بطلان نسبة ارتباط الآية بزعيمٍ من زعماء الإسرائيليّات، وهو عبد الله

---

(١) الإرشاد: ج١ ص٣٤.

(٢) ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج١ ص٢١٤ ح٢٠.

(٣) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٥٥٧ ح٦٠٢.

بن سلام الذي ادَّعى ذلك لنفسه يوم جاء لنصرة عثمان عند انتفاضة الأمّة عليه.

إنّ علم الإمام عليٍّ بالقرآن ومعيّته المعرفيّة لم تخفَ ولن تخفى، وهنا يذكر المناوي نقلاً عن الحرالي[1] أنّه قال: «قد علم الأوّلون والآخرون أنّ فهم كتاب الله منحصرٌ إلى علم عليّ، ومَن جهل ذلك فقد ضَلَّ عن الباب الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب الحجاب حتّى يتحقّق اليقين الذي لا يتغيّر بكشف الغطاء»[2].

وقد ورد عنه عليه السلام توصيفٌ دقيقٌ وعميقٌ يتجلّى فيه غزارة علمه بكتاب الله، حيث يقول: «**سلوني قبل أن تفقدوني، فو الذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لو سألتموني عن أيّة آية، في ليلٍ أنزلت، أو في نهارٍ أنزلت، مكّيها ومدنيّها، سفريّها وحضريّها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، إلّا أخبرتكم**»[3].

وفي رواية ابن عساكر عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه صعد على منبر الكوفة وخطب فيهم قائلاً: «**يا أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني؛ فوالله ما بين لوحي المصحف آيةٌ تخفى عليَّ، فيمَ أنزلت، ولا أين أنزلت، ولا ما عُني بها، والله لا تلقوا أحداً يحدّثكم ذاكم بعدي حتّى تلقوا نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم**»[4].

---

(١) هو: الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبي الحرالي الأندلسي، و«حرالة» منطقة من أعمال مدينة مرسية. [سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢٣ ص٤٧، رقم: ٣٣؛ طبقات المفسّرين، جلال الدين السيوطي: ص٦٥، رقم: ٦٨].

(٢) فيض القدير، المناوي: ج٣ ص٦١.

(٣) جامع بيان العلم، ابن عبد البرّ: ج١ ص٤٦٤، رقم: ٧٢٦؛ تفسير الطبري: ج١٣ ص٦٧٢، سورة إبراهيم، الآية: ٢٨؛ التاريخ الكبير، محمّد بن إسماعيل البخاري: ج٨ ص١٦٥، رقم: ٢٥٧٠، الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص٣٣٨؛ أمالي الصدوق: ص٤٢٣؛ توحيد الصدوق: ص٣٠٥؛ الإرشاد، للشيخ المفيد: ج١ ص٣٤.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٧ ص٣٣٥؛ ج٤٢ ص٣٩٧.

الظاهر من الأخبار أنَّ قوله عليه السلام: «**سلوني قبل أن تفقدوني**» قد صدر منه في أكثر من مناسبة. فتارةً يردفه بمعرفته بكتاب الله، كما في الخبرين الآنفين، وتارةً يردفه بمعرفته بطرق السماء والأرض، كما في جاء في النهج: «**أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنةٌ تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها...**». [نهج البلاغة: ج٢ ص١٢٨، خطبة رقم: ١٨٩؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٢٧١ ح٣٧٨٨، وح٣٣٩٤].

وتارةً يردفه بمعرفته بالسابق واللاحق، كما في قوله عليه السلام: «**سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله ما تسألوني عن شيءٍ مضى ولا شيءٍ يكون إلّا نبّأتكم به...**». [كامل الزيارات، ابن قولويه القمّي (ت: ٣٦٨هـ): ص١٥٥ ح١٦].

وتارةً يردفه بمعرفته التفصيليّة بما سيقع إلى يوم القيامة، كما في قوله عليه السلام: «**سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي عن قليلٍ مقتولٌ، فما يحبس أشقاها أن يخضبها بدم أعلاها، فوالذي فلق البحر وبرأ النسمة لا تسألوني عن شيءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فتنةٍ تضلّ مائةً أو تهدي مائةً إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها إلى يوم القيامة. إنَّ القرآن لا يعلم علمه إلّا مَن ذاق طعمه. وعلم بالعلم جهله، وأبصر عمله، واستمع صممه، وأدرك به مأواه، وحيي به إن مات، فأدرك به الرضا من الله...**». [تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٩٣].

وتارةً أخرى يردفه بعلمه بالمنايا والبلايا، كما في قوله عليه السلام: «**سلوني قبل أن تفقدوني، ألا تسألون مَن عنده علم المنايا والبلايا والأنساب؟**» [بصائر الدرجات: ص٢٨٦].

وأخيراً يُصرِّح عليه السلام بعلمه الإمكاني التامّ، كما جاء في رواية الأصبغ بن نباتة، قال: لمّا بويع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة، خرج إلى المسجد معتمّاً بعمامة رسول الله صلّى الله عليه وآله، لابساً برديه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وأنذر، ثمّ جلس متمكّناً وشبك بين أصابعه ووضعها أسفل سرّته، ثمّ قال:

«**يا معشر الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإنّ عندي علم الأوّلين والآخرين. أما والله لو ثني لي الوساد، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل الزبور بزبورهم، وأهل القرآن بقرآنهم، حتّى يزهر كلّ كتابٍ من هذه الكتب ويقول: يا ربّ إنَّ عليّاً قضى بقضائك**». [الإرشاد: ج١ ص٣٤].

جديرٌ بالذكر: أنَّ جملة «**سلوني قبل أن تفقدوني**» أو ما هو قريبٌ منها، قد وردت في غير ما

وهذا هو مقتضى الإمامة الإلهيّة الحقّة، حيث لابدّ أن يكون الأعلم بكتاب الله، وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**عشر خصالٍ من صفات الإمام: العصمة، والنصوص، وأن يكون أعلم الناس وأتقاهم لله وأعلمهم بكتاب الله...**»(١)، ومحلّ الشاهد هو أنّه أعلم الأُمّة بكتاب الله، فمَن عجز عن ذلك فهو ليس بإمام، ومنه يتّضح حال القوم.

التدبير السابع: عليّ قسيم النار والجنّة

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**عليّ قسيم الجنّة والنار**»(٢)، وفي خبرٍ آخر: «**عليّ قسيم النار والجنّة**»(٣). وقد صحّح الإمام أحمد مضمون الخبر رغم أنّه شكّك في ألفاظه، فقد روى محمّد بن منصور الطوسي أنّه قال: «سمعت أحمد

ذكرنا في عشرات المصادر التفسيريّة والحديثيّة والتاريخيّة، لا يتّسع المجال للوقوف عندها، فإنّها بحاجة إلى استقراءٍ وتحليل، والمظنون أنّ هنالك كتاباً قد صدر باسم «سلوني قبل أن تفقدوني»، ولكنَّ الحاجة لا تقف عند رصد هذه الأخبار المتنوّعة، وإنّما هي بحاجةٍ إلى تأمّلاتٍ كثيرةٍ وتحليلٍ.

(١) الخصال، للشيخ الصدوق: ص٤٢٨ ح٥.

(٢) الخصال: ص٤٩٦ ح٥؛ أمالي الصدوق: ص١٥٠.

(٣) ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٧٨ ح٧٩.

من لطائف ما جاء في هذا اللقب الشريف: ما رواه الشيخ الصدوق من أنَّ الحسن بن عليّ بن فضال، قال: «سألت الرضا أبا الحسن عليه السلام فقلت له: لِمَ كُنّي النبيّ صلّى الله عليه واله بأبي القاسم؟ فقال: **لأنّه كان له ابنٌ يقال له: قاسم، فكُنّي به.** قال: فقلت له: يا ابن رسول الله فهل تراني أهلاً للزيادة؟ فقال: **نعم. أما علمت أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة؟** قلت: بلى. قال: **أما علمت أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أبٌ لجميع أمّته وعليّ عليه السلام فيهم بمنزلته؟** قلت: بلى. قال: **أما علمت أنَّ عليّاً قاسم الجنّة والنار؟** قلت: بلى. قال: **فقيل له: أبو القاسم؛ لأنّه أبو قاسم الجنّة والنار**». [معاني الأخبار، الصدوق: ص٥٢ ح٣].

بن حنبل وقد سأله رجلٌ عن قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **عليّ قسيم النار**، فقال: هذا حديثٌ مضطربٌ، طريقه عن الأعمش، ولكنّ الحديث الذي ليس عليه لبسٌ قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **يا عليّ لا يحبّك إلّا مؤمنٌ ولا يبغضك إلّا منافقٌ**، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ (النساء: ١٤٥)، فمن أبغض عليّاً رضي الله عنه فهو في الدرك الأسفل من النار»[١].

قال ابن أبي الحديد في معرض بيان الحديث: «فقد جاء في حقّه الخبر الشائع المستفيض: **أنّه قسيم النار والجنّة**، وذكر أبو عبيد الهروي في (الجمع بين الغريبين): أنّ قوماً من أئمّة العربيّة فسّروه، فقالوا: لأنّه لمّا كان محبّه من أهل الجنّة، ومبغضه من أهل النار، كأنّه بهذا الاعتبار قسيم النار والجنّة. قال أبو عبيد: وقال غير هؤلاء: بل هو قسيمها بنفسه في الحقيقة، يُدخل قوماً إلى الجنّة، وقوماً إلى النار، وهذا الذي ذكره أبو عبيدٍ أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه، يقول للنار: **هذا لي فدَعيه، وهذا لك فخذيه**»[٢]، وهذا ما جاء على لسان أمير المؤمنين نفسه، فعن موسى بن طريف عن عباية عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «**أنا قسيم النار يوم القيامة، أقول خذي ذا، وذري ذا**»[٣].

كما قدّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام مقدّمةً جليلةً لتوضيح معالم هذا الحديث وملازماته، فعن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما جاء به عليّ عليه السلام آخذٌ به، وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله، ولمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله الفضل على جميع من خلق الله عزّ وجلّ، المتعقّب عليه في شيءٍ من أحكامه كالمتعقّب على الله وعلى رسوله،**

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٣٠١؛ طبقات الحنابلة: ج٢ ص٣٥٨، رقم: ٤٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج٩ ص١٦٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٢٩٨.

والرادّ عليه في صغيرةٍ أو كبيرةٍ، على حدّ الشرك بالله. كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يُؤتى إلّا منه، وسبيله الذي مَن سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمّة الهدى واحداً بعد واحدٍ، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجّته البالغة على مَن فوق الأرض ومَن تحت الثرى، وكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنّة والنار، وأنا الفاروق الأكبر...»[١].

نعم، لقد أكَّد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هذا الخبر في أكثر من مناسبة، مُذكِّراً الأمّة بهذا الأمر الخطير، والذي من بديهيّات لوازمه أنّ مَن عادى عليّاً عليه السلام أو خاصمه أو خالفه فإنّه على خطرٍ عظيمٍ، والأمر جارٍ على من سلبه حقّه وحقّ عترته، فكيف بمن حاربه وهدّد أسرته بالحرق، وكيف بمن جنّد الجنود والعسكر ضدّه في الجمل وصفّين والنهروان؟

إنّ هذا الخبر يعتبر من التدابير النبويّة الصريحة والخطيرة، فالخلافة الإلهيّة الثابتة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام مُلزمةٌ بطاعة الأمّة كافّةً، وإلَّا فالمصير هو أنّها ستقف أمام القسيم، وأيّ مصيرٍ سيكون لمن ناوأه وعاداه؟ ولذلك ولأجل خطورة هذا المصير، كان الإمام عليّ عليه السلام شديد الحرص على إيصال ذلك التحذير والإجراء النبويّ، فنجده يُكرّر هذه الصفة الفريدة كلّما تسنّى له ذلك.

فممَّا جاء على لسانه عليه السلام ما رواه أبو عبد الله الرياحي عن أبي الصامت الحلواني عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: **أنا قسيم الجنّة والنار، لا يدخلها داخلٌ إلّا على أحد قسمين، وأنا الفاروق الأكبر...»**[٢].

---

(١) الأصول من الكافي، للكليني: ج١ ص٤٨٣ ح٥٢٤، وص٤٨٦ ح٥٢٥ـ٥٢٦؛ بصائر الدرجات، محمّد بن الحسن الصفّار: ص٢٢٠ ح٣.

(٢) بصائر الدرجات، محمّد بن الحسن الصفّار: ص٤٣٥ ح٣، وص٤٣٦ ح١٠.

وقد فهم ابن قتيبة ذلك المعنى الخطير المستفاد من هذا التدبير النبويّ، ولكنّه لم يجسر على التسمية، فقد جاء في تفسيره لمعنى الحديث: «أراد أنّ الناس فريقان: فريقٌ معي فهم على هدى، وفريقٌ عليَّ فهم على ضلالٍ كالخوارج؛ فأنا قسيم النار، نصفٌ في الجنّة معي، ونصفٌ فيها»(١)، ونحن نقبل منه التوجيه ولا نقبل الاقتصار بالتمثيل على خصوص الخوارج، فما الخوارج إلّا ضحيّة أفعالٍ أسّس لها السابقون.

قال ابن أبي الحديد: «ولم يجسر ابن قتيبة أن يقول: «وكأهل الشام»، يتورَّع يزعم، ثمّ إنّ الله أنطقه بما تورّع عن ذكره، فقال متمّماً للكلام بقوله: فأنا قسيم النار، نصفٌ في الجنّة معي، ونصفٌ في النار، قال: وقسيم في معنى مقاسم، مثل جليس وأكيل وشريب»(٢).

توصيفاتٌ نبويّةٌ لصحابةٍ داعمةٍ للتدابير النبويّة

وردت بعض التوصيفات النبويّة لقليل من أصحابة بها يُشير إلى لزوم قبول أقوالهم في محلّ الخلاف، فتكون داعمةً لتلك التدابير في بلوغ مقاصدها، وقد كان معظم هؤلاء الصحابة من المستضعفين في زمن الخلافة، بل ربما كان قربهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله واختصاصهم ببعض الأوصاف سبباً مباشراً في استضعافهم؛ وقد كان الطامحون يعلمون بتلك الأوصاف التي باتت تُشكِّل خطراً عليهم، فمنهم مَن كسروا ضلعه، ومنهم مَن نفوه إلى الربذة، ومنهم مَن تجاهلوا رأيه، وهم كالتالي:

التوصيف الأوّل: أصدق ذي لهجة

كان أبو ذرّ الغفاري رضوان الله عليه في طليعة الرافضين لاغتصاب الخلافة

---

(١) غريب الحديث، للدينوري: ج١ ص٣٧٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٩ ص١٣٩.

من أهلها، وقد اصطفّ بجنب الخليفة الشرعي وعانى في ذلك معاناةً عظيمةً، وقد كان الناس لا يستطيعون القدح به؛ لأنّه تفرّد بوصفٍ نبويٍّ يجعل قوله مقدّماً على سائر أقوال الصحابة، فقد روى أحمد وبعض كتب السنن فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من رجلٍ أصدق لهجةً من أبي ذر**»[1]، قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ»[2].

وقد كان أبو الدرداء يقول: «والذي نفس أبي الدرداء بيده، لو أنّ أبا ذرّ قطع يميني ما أبغضته بعد الذي سمعتُ من رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **ما أظلّت الخضراء وما أقلّت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر**»[3].

وعليه فإذا ثبت ذلك لأبي ذرّ الغفاري رضوان الله عليه ـ وهو ثابتٌ كما تقدّم ـ فإنّه قد صرّح في أكثر من موردٍ بأحقّيّة أمير المؤمنين عليّ بالخلافة وضرورة ملازمته ومتابعته، بل كان من أشد الناس حرصاً على إعلان الخليفة الحقيقي للأمّة، وما كان رضوان الله عليه يخشى في الله لومة لائم، وكان من ذكائه الميداني أنّه كان ينتخب الأمكنة والأزمنة المناسبة، كما هو الحال في موسم الحجّ، فقد روينا عنه رضوان الله عليه أنّه شهد موسم الحجّ بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فلمّا احتفل الناس في الطواف وقف بباب الكعبة وأخذ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٢ ص٢٢٣؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٣٤ ح٣٨٨٩؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٥٥ ح١٥٦؛ الإصابة، ابن حجر: ج٧ ص١٠٨.

(٢) سنن الترمذي: ج٥ ص٣٣٤ ح٣٨٨٩.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٥٢٦ ح١ـ٣؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٤٤؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٥ ص١٩٧؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص٣٣٠؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٦٨ ص١١٤؛ معاني الأخبار، الصدوق: ص١٧٨ ح١، باب: معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله: **ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر**؛ أمالي الطوسي: ص٥٣ ح٣٩.

بحلقة الباب وقال: «يا أيّها الناس مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا أبو ذرّ الغفاري، أحدّثكم بما سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله، سمعته يقول حين احتضر: **إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كهاتين** (وجمع بين أصبعيه المسبّحتين من يديه وقرنهما وساوى بينهما)، وقال: **ولا أقول كهاتين** (وقرن بين أصبعيه الوسطى والمسبّحة من يده اليمنى) **لأنّ إحداهما تسبق الأخرى، ألا وإنّ مثلهما فيكم مثل سفينة نوح، مَن ركبها نجا ومَن تركها غرق**»[1].

وكان يقول رضوان الله تعالى عليه وهو آخذٌ بعضادتي باب الكعبة: «ألا وإنّ مثلهما فيكم كسفينة نوحٍ مَن ركب فيها نجا، ومَن تخلّف عنها غرق، ومثل باب حطّةٍ في بني إسرائيل»[2].

وكان رضوان الله تعالى عليه يُنادي وهو على شفير زمزم: «يا أيّها الناس مَن عرفني فقد عرفني ومَن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذرّ الغفاري سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله بهاتين وإلا فصُمّتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا يقول: **عليّ قائد البررة وقاتل الكفرة. منصورٌ مَن نصره، مخذولٌ مَن خذله**»[3]، وقد

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، للصدوق: ص٢٣٩ ح٥٩؛ دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي: ج١ ص٢٧.

(٢) المعجم الأوسط، للطبراني: ج٤ ص١٠؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص٤٥ ح٢٦٣٧؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٢٣٥؛ تفسير ابن كثير: ج٤ ص١٢٣؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٨١ ح٣٣٥٦؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص١٦٧.

(٣) نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٨٧؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٢٣٠؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٣ ص١٨٣؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٢٢٦؛ فضلاً عن مصنّفات مدرسة أهل البيت.

كان ذلك في يوم الحديبيّة، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يمدّ بذلك صوته مبالغةً منه في تبليغ أمر عليّ للأُمّة.

ثمّ يروي أبو ذرّ رضوان الله تعالى عليه للناس بعد ذلك سبب نزول قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ (المائدة: ٥٥)، وكيف تصدّق عليّ بخاتمه ودعاء النبيّ صلّى الله عليه وآله له، ونزول الآية مبشّرةً بولايته عليه السلام[١].

وكان يروي حديث الغدير وما قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقّ عليّ عليه السلام: «**اللّهُمَّ من كنت مولاه فإنّ عليّاً مولاه، اللّهُمَّ والِ مَن والاه وعاد مَن عاداه**»[٢]، وكان يقول: «**عليّ بن أبي طالب وصيّ محمّد، ووارث علمه**»[٣].

ولّما ضاق به معاوية ذرعاً كتب لعثمان محرّضاً إيّاه عليه، فأمر بترحيله للمدينة، وكان يصيح بعد حملهم إيّاه من الشام على قتبٍ بلا وطاء: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا دين الله دخلاً، وعباد الله خولاً، ومال الله دولاً**»[٤].

ولا ريب أنّ كتب الصحاح في شغلٍ عن نقل مثل هذه الأخبار عن أصدق

---

(١) نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٨٧؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٢٣٠؛ فضلاً من المصنّفات التفسيريّة لمدرسة أهل البيت.

(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٣٩٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٧١.

(٤) روضة الواعظين، محمّد بن الفتّال النيسابوري (ت: ٥٠٨هـ): ص٢٨٤؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٤ ص٤٨٠؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٣ ص٥٥. وفي رواية ابن كثير: «عن ابن أبي مريم عن راشد بن سعد عن أبي ذرّ الغفاري قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: **إذا بلغت بنو أميّة أربعين، اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله نحلاً، وكتاب الله دغلاً**». [البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٧١].

ذي لهجة، فالكفاية بكعب الأحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبّه! فتمنعها عن أبي ذرّ شنشنة من نقل كلماته الصادقة في حقّ أمير المؤمنين عليّ وأهل بيته عليهم السلام، ولكنّها من باب ذرّ الرماد في العيون كانت تهتمّ كثيراً بنقل أخبار الطعام والمرق! وكأنّهم يريدون الإيحاء لنا بأنّ أبا ذرّ كان من الأغنياء، فرووا عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذرّ أنّه قال: «أوصاني خليلي صلّى الله عليه وآله فقال: **إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها؛ ثمّ انظر أهل بيتٍ من جيرانك فاغرف لهم منها**»[1].

التوصيف الثاني: مقرونٌ بالإيمان

وهذا الوصف خاصّ بعمّار بن ياسر، فقد قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ عمّاراً مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**»[2]، وفي خبر آخر: «**عمّار ملئ إيماناً إلى مشاشه**»[3]، لمّا شكاه خالد بن الوليد لرسول

(١) صحيح مسلم: ج٨ ص٣٧؛ الأدب المفرد، للبخاري: ص٣٦، رقم: ١١٤؛ سنن الدارمي: ج٢ ص١٠٨؛ سبل السلام، الكحلاني: ج٤ ص١٦٨ ح١١.

(٢) أسباب نزول الآيات: ص١٩٠؛ الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي: ج٢ ص١٧٨ ح٥٦٠٦؛ كنز العمّال، المتقي الهندي: ج١١ ص٧٢٤ ح٣٣٥٤١.

وفي المعجم الكبير ومجمع الزوائد وتاريخ دمشق: أنّه سُئل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن عمّار فقال: «**امرؤٌ خلط الله الإيمان بلحمه ودمه وشعره وبشره حيث زال معه ولا ينبغي للنار أن يأكل منه شيئاً**». [المعجم الكبير، للطبراني: ج٦ ص٢١٤؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٥٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٢١ ص٤٢٢].

(٣) المصنّف، لابن أبي شيبة: ج٧ ص٢١٧ ح٦ ح٧؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٥٠؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٥٢ ح١٤٧؛ سنن النسائي: ج٨ ص١١١؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٣ ص٤٤٧ ح٨٠٧؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص٢٩٥؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧٣ ح٥٦٠٤؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٩٢. قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين. [المصدر السابق]. والمشاش: رؤوس العظام.

الله صلّى الله عليه وآله أجابه: «**كفّ يا خالد عن عمّار؟ فإنّه من يبغض عمّاراً يبغضه الله، ومن يلعن عمّاراً يلعنه الله**»[١]، ولمّا شكته قريش قال صلّى الله عليه وآله فيه: «**ما لهم ولعمّار! يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار**»[٢].

ولم يدّخر عمّار بن ياسر جهداً في نصرة إمامه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حتّى وصل المقام به إلى أن كُسرت أضلاعه من قبل مَن لعنه رسول الله وهو في صلب أبيه، مروان وزير عثمان والمُتصرّف بالأمور! وفي خبرٍ آخر أنّ عثمان قد وطأه بنفسه حتّى غشي عليه، ثمّ ندم عثمان وعرض عليه أموراً، فقال عمّار: والله لا قبلت واحدةً منها حتّى ألقى الله[٣].

وقد همّ عثمان مرّةً بنفيه إلى الربذة بعد ما وصله خبر موت أبي ذرّ، حيث قال لعمّار: إلحق بمكانه، فلمّا تهيَّأ عمّار للخروج تصايح بنو مخزوم ـ عشيرةً كان عمّار حليفاً لها ـ فسكت عنه[٤].

وقد كان لعمّار دلالةٌ على كينونته مع الحقّ حيث قال له رسول الله صلّى الله

---

(١) المعجم الكبير، للطبراني: ج٤ ص١١٤؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٩١؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٦ ص٢٣٦؛ ج٤٣ ص٤٠١؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٤٥؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٧٢٦ ح٣٣٥٥٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٢٩٨؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٣ ص٤٠٢؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٥٢٣ ح٥؛ شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ج٨ ص١٠؛ الإصابة، ابن حجر: ج٧ ص٢٥٩، رقم: ١٠٣٧١، ترجمة أبو الغاوية الجهني؛ سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣٤٥؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٧٢٤ ح٣٣٥٤٥.

(٣) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: ج٢ ص٢٧٢.

وقد روى البلاذري وابن أبي الحديد: أنَّ عثمان قد أمر غلمانه فمدّوا بيدي عمّار ورجليه ثمّ ضربه عثمان برجليه وهي في الخفّين على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه. انظر: أنساب الأشراف: ج٥ ص٤٩؛ شرح نهج البلاغة: ج٣ ص٥٠.

(٤) انظر: تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٥٠؛ أمالي المفيد: ص٧٢؛ أنساب الأشراف: ج٥ ص٤٩.

عليه وآله: «**ويح عمّار تقتله الفئة الباغية**»(١)، فقتله البغاة في صفّين معاوية وجنده، وقبل شهادته مرّ به رجلٌ كان شاكّاً بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام فطلب منه عمّار أن ينظر باتّجاه رايةٍ كان يحملها عمرو بن العاص، فنظر الرجل ثمّ أشار عمّار إلى تلك الراية وقال كلمة تدلّ على شدّة يقينه بالحقّ الذي هو عليه: «**قاتلتُها مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ثلاث مرّات، وهذه الرابعة ما هي بخيرهن ولا أبرّهنّ، بل هي شرّهنّ وأفجرهنّ**»(٢).

وكان يقول لأهل الجمل: «والله لو ضربتمونا حتّى نبلغ سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحقّ وأنّكم على الباطل»(٣)، وقد تكرّر الموقف معه في صفّين فأعاد كلمته اليقينيّة ببطلان معاوية؛ قال الرواة: «وقام عمّار بن ياسر، فصاح في الناس، فاجتمع إليه خلقٌ عظيمٌ، فقال: والله إنّهم لو هزمونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنّهم على الباطل. ثمّ قال: ألا هل من رائحٍ إلى الجنّة؟ فتبعه

---

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٥١؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٢ ص١٦٨؛ صحيح البخاري: ج٣ ص٢٠٧؛ صحيح مسلم: ج٨ ص١٨٦؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٥٥ ح٨٥٤٣؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٢ ص١٤٩؛ ج٢ ص١٥٥؛ المصنّف، للصنعاني: ج١١ ص٢٤٠ ح٢٠٤٢٧؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٣ ص٢٥٣؛ وعشرات المصادر الأخرى.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص٣٩٢؛ وقعة صفيّن، لابن مزاحم المنقري: ص٣٢١؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣١ ص١٧٨ ح١٨٨٨٤؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ص٣١٧، رقم: ٣٨٦؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٥ ص٢٥٧.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٨ ص٧٢٢ ح٤؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٨٦؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٧ ص٢٤٣؛ ج٩ ص٢٩٤؛ مسند أبي داود الطيالسي: ص٨٩؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ص٣١٧، رقم: ٣٨٦؛ الجمل: ص١٩٥؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٨٨؛ ومصادر أخرى.

خلقٌ، فضرب حول سرادق معاوية، فقاتل القوم حتّى استشهد، قتله أبو العادية الفزاري»[١]، وفي رواية اليعقوبي: «واشتدّت الحرب في تلك العشيّة، ونادى الناس: قُتل صاحب رسول الله، وقد قال رسول الله: **تقتل عمّاراً الفئة الباغية**»[٢].

التوصيف الثالث: اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل

وهو توصيفٌ ناله عبد الله بن عباس، فقد دعا له رسول الله صلّى الله عليه وآله بالفقاهة وعلم التأويل؛ فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّه قال: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وضع يده على كتفي ثمّ قال: **اللّهُمَّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل**»[٣]، وسُمِّي بحبر الأمّة، وقد لاصق الإمام عليّاً عليه السلام ولم يفارقه، وكان من خيرة تلامذته، وقد كان له مكانةٌ رفيعةٌ عند الخلفاء، لاسيّما الثاني فكان يُقرّبه ويستشيره، وجرت بينهما محاوراتٌ كثيرةٌ انتصر فيها ابن عباس لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد مرّت بنا جملةٌ منها، وقد أثبت فيها قدرته الفائقة على المناظرة، ولذلك اختصّه الإمام عليّ عليه السلام لمناظرة الخوارج فأعاد للكثير منهم رشدهم، وقد كانت نصرته لأهل البيت عليهم السلام معلومة الحال، وقد سجّلتها معظم كتب السير والتاريخ، بل وكتب الحديث أيضاً.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٧؛ المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي: ص١٥٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٨ ص٢٤؛ وقعة صفّين، لابن مزاحم المنقري: ص٣٤١؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٣ ص١١٣٩، رقم: ١٨٦٣؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٣ ص٦٣١، رقم: ٣٧٩٨؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١٠ ص٢٤٣، مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص٢٩٤.

(٢) انظر: تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٨٨.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص٢٦٦؛ صحيح البخاري: ح١٤٣؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٥٣٤. قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه». [المصدر السابق].

التوصيف الرابع: ذو الشهادتين

وهو خزيمة بن ثابت بن الفاكه الأنصاري، شهد بدراً وما بعدها، وسمّاه النبيّ صلّى الله عليه وآله بذي الشهادتين في قضيّةٍ شهد فيها للنبيّ صلّى الله عليه وآله ولم يكن حاضراً الواقعة، فقبل شهادته وصيَّر شهادته شهادة رجلين(١).

قام خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين إلى أبي بكر بعد البيعة له، فقال له: «يا أبا بكر ألست تعلم ويعلم المهاجرون والأنصار أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يقبل شهادتي وحدي ولا يريد معي غيري؟ قال أبو بكر مغضباً: أشهد بما تشهد. فقال: أشهد على رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **هذا عليّ إمامكم بعدي، وخليفتي فيكم، فقدّموه ولا تتقدّموه...**»(٢).

إنّ هذه العيّنة اليسيرة قد لعبت دوراً كبيراً في إعلاء كلمة الحقّ، فكانت

---

(١) روى أصحاب السنن: «أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ابتاع فرساً من أعرابيّ واستتبعه ليقبض ثمن فرسه، فأسرع النبيّ صلّى الله عليه وآله وأبطأ الأعرابي، وطفق الرجال يتعرّضون للأعرابي فيسومونه بالفرس وهم لا يشعرون أنّ النبيّ ابتاعه حتّى زاد بعضهم في السوم على ما ابتاعه به منه، فنادى الأعرابي النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلّا بعته، فقام النبيّ صلّى الله عليه وآله حين سمع نداءه فقال: **أليس قد ابتعته منك؟** قال: لا، والله ما بعتكه! فقال النبيّ: **قد ابتعته منك.** فطفق الناس يلوذون بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وبالأعرابي، وهما يتراجعان، وطفق الأعرابي يقول: هلمّ شاهداً يشهد أنّي قد بعتكه. قال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنّك قد بعته، فأقبل النبيّ على خزيمة فقال: بمَ تشهد؟ قال بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله شهادة خزيمة شهادة رجلين». [انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٦ ص٢٠٥؛ ح٢١٨٨٣، إسناده صحيحٌ، رجاله ثقات؛ سنن النسائي: ج٧ ص٣٠١؛ سنن أبي داود: ج٢ ص١٦٦ ح٣٦٠٧؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٢ ص١٨؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٤ ص٣٧٩؛ المحلّى، ابن حزم الأندلسي: ج٨ ص٣٤٨].

(٢) نهج الإيمان، ابن جبر: ص٥٨٣؛ الصراط المستقيم، زين الدين العاملي: ج٢ ص٨١.

مواقفهم المحمودة في ذلك مؤشِّراً كبيراً على كون التوصيفات النبويّة لهم لم تكن لأجل مدحهم والثناء عليهم، وإن كانوا يستحقّون ذلك، وإنّما لأجل مهامّ تنتظرهم، ومن أعظم هذه المهامّ: مواجهة الانقلاب على الخلافة الشرعيّة والإمامة الإلهيّة، فكان كلّ واحدٍ منهم دليلاً ملموساً لمن اشتبه عليه الأمر في تشخيص الحقّ من الباطل، وهذا هو الإجراء النبويّ المطلوب، فقد نجح النبيّ صلّى الله عليه وآله في وضع شواخص كثيرةٍ لبيان وجه الحقّ ودحض الباطل، وكان من تلك الشواخص المهمّة: تحديد بعض الصحابة بصفاتٍ تمنع أن يكونوا غير ناصحين للأمّة، ولذلك وجدنا الإمام عليّاً عليه السلام عندما يُنقل حديثٌ عن أبي ذرّ الغفاري لعثمان فيكذّبه عثمان، لا يجد أبو ذرّ رجلاً يشهد له بالصدق إلّا الإمام عليّ عليه السلام، وعندما يسألون عليّاً عليه السلام عن خلْفيّة تصديقه لقول أبي ذرّ المنسوب للرسول صلّى الله عليه وآله وهو لم يسمعه من الرسول، كان يُجيبهم بأنّ أبا ذرّ لا يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ يستشهد بقول رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه بأنّه أصدق ذي لهجة، فيقرّه الصحابة على ذلك.

فالإجراء النبويّ في هذا المورد هو تدعيم أقوال الصحابة المناصرين للحقّ بواسطة وصفهم بصفاتٍ تعزّز ثقة الناس بهم، فهذا أصدق ذي لهجة، وهذا مقرونٌ بالإيمان، وهذا عالمٌ فقيهٌ، وهذا لا يشهد إلّا بالصدق.

ولم تقتصر الدائرة على هذه الثلّة الصادقة الطيّبة، حيث كان هنالك جماعةٌ أُخرى يعتقدون بإمامة عليّ عليه السلام، كسلمان الفارسي، والمقداد الكندي، وحذيفة بن اليمان، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وسهل بن حنيف، وأبي أيّوب الأنصاري، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وقيس بن سعد بن عبادة، ومالك بن نويرة، فضلاً عن زعماء بني هاشم وفتيانهم.

ولأجل هؤلاء ومَن في رتبتهم، كان الإمام عليّ عليه السلام يتأوَّه وهو

يخوض غمار الحرب في صفّين، حيث جاء في خطبةٍ له بأهل الكوفة: «**أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التيّهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة ، وأُبرد برؤوسهم إلى الفجرة** ـ ثمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء، ثمّ قال عليه السلام ـ **أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبّروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة**»[1].

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص١٠٣ـ١٠٩، خطبة رقم: ١٨٢.

الفصل الرابع

التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

- وجه التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام
- تنوّع التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام
- قرن شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام بالأنبياء عليهم السلام

  أوّلاً: حديث المنزلة

  ثانياً: التمثيل الوصفي

  ثالثاً: واسطة التذكير بالأنبياء عليهم السلام
- ترسيخ الولاية المطلقة للإمام عليّ عليه السلام

  أوّلاً: حديث «أنت وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة»

  ثانياً: حديث «من كنت له مولى فهذا عليّ مولاه»
- ملاكات الولاية المطلقة للإمام عليّ عليه السلام

  أوّلاً: العلم بالكتاب

  ثانياً: عنصر الطاعة لله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله

  ثالثاً: التضحيّة المطلقة لله تعالى وللرسول وللإسلام

  رابعاً: القوّة البدنيّة والشجاعة الاستثنائيّة
- الإمام عليّ عليه السلام ثمرة النبيّ والإسلام

وجه التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

لم تكن مهام النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله تنتهي عند حدود التبليغ برسالته للأمّة، فهذا هو المستوى الأوّل من مهامّه، وأمّا المستوى الثاني من مهامّه الإلهيّة فيكمن في تهيئة الخليفة الذي يمكنه حفظ منجزات الرسالة وسدّ الفراغ الهائل الذي سيتركه رحيله صلّى الله عليه وآله في الأمّة، وإنّ الترشيح للخليفة لم يكن فعلاً نبويّاً مستقلّاً، وإنّما كان بأمرٍ إلهيٍّ جاء متطابقاً تماماً مع الرؤية النبويّة، حيث كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يرى في خليفته القادم أهليّةً متميّزةً، وقد وقع هذا الاكتشاف في وقتٍ مُبكِّر جدّاً، كما مرّ في حديث الإنذار[1]، بعد أن جمع النبيّ صلّى الله عليه وآله عشيرته بأمر الله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فدعا النبيّ صلّى الله عليه وآله عشيرته إلى دار عمّه أبي طالب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**قد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على أمري هذا على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟** فأحجم القوم عنها غير عليّ ـ وكان أصغرهم ـ إذ قام فقال: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله برقبته، وقال: **إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا**»[2].

ثمّ توالت الأحداث ولم يغب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله العمل على ترسيخ فكرة الخلافة والخليفة معاً في أذهان المسلمين، حتّى شكّل هذا التركيز ثقافةً وحضوراً متميّزاً، وكانت الأمور تسير باتّجاه تنصيب الخليفة الشرعي بأمرٍ

---

(١) في الفصل الثالث، ضمن عنوان: الموقف الأوّل: البيعة لعليّ بالخلافة في آية الإنذار.

(٢) تاريخ الطبري: ج٢ ص٣١٩ـ٣٢١؛ المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج٢ ص١٦٤ ح١٣٧١.

من الله تعالى، حتّى تحقّقت البيعة له بصورةٍ علنيّةٍ في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله في بيعة الغدير، فكانت الدعوة لخلافة الإمام عليّ عليه السلام دعوةً قوليّةً ودعوةً عمليّةً، حتّى أنّ قوّة هذا التركيز الإعلامي على إبراز شخصيّة الخليفة القادم، أثارت حفيظة جملةٍ من المنافقين، فقالوا معترضين على التنصيب النبويّ لعليّ بالخلافة: اللهم إن كان ما يقول محمّدٌ حقّاً فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ؛ فنزل قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (المعارج: ١)[١].

إنّ خلفيّات التركيز النبويّ على التعريف بشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

---

(١) انظر: الكشف والبيان في تفسير القرآن، للثعلبي: في تفسيره للآية؛ تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ص٣٠؛ السيرة الحلبيّة، الحلبي الشافعي: ج٣ ص٢٧٤؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٩٣؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٣٨٢؛ تفسير القرطبي: ج١٨ ص٢٧٨؛ تفسير ابن عجيبة: في تفسيره للآية؛ روح المعاني، الآلوسي: ج٢٩ ص٨٨.

وتفصيل الحادثة هو: «لّما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله بغدير خمّ، نادى بالناس فاجتمعوا، فأخذ بيد عليّ عليه السلام فقال: **مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**، فشاع الخبر وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري، فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله على ناقةٍ له حتّى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته وأناخها وعقلها، ثمّ أتى النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو في ملأ من أصحابه فقال: يا محمّد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلّي خمساً فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، ثمّ لم ترض بهذا حتّى رفعت بضبعي ابن عمّك ففضّلته علينا وقلت: **من كنت مولاه فعليّ مولاه**، فهذا شيءٌ منك أم من الله تعالى؟ فقال صلّى الله عليه وآله: **والّذي لا إله إلاّ هو، هذا من الله**. فولّى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهمّ إن كان ما يقوله حقّاً فأمطر علينا حجارةً من السماء، أو ائتنا بعذابٍ أليم، فما وصل إليها حتّى رماه الله بحجرٍ فسقط على هامته... وأنزل الله سبحانه: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج: ١ـ٢)».

وإمامته وخلافته يمكن تصويرها ضمن النقاط التالية:

أوّلاً: التوصيات الإلهيّة للتبليغ بذلك، والتي كان منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧)، حيث تلا هذا الأمر بالتبليغ الإعلان عن ولاية عليّ عليه السلام وإمامته في بيعة الغدير، كما سيأتي بيانه.

ثانياً: المؤهّلات العليا المتوفّرة فيه دون سواه من سائر الصحابة، وقد شهد له بتقدّمه عليهم فهماً وعلماً وحكمةً وشجاعةً ـ فضلاً عن سابقته وتضحيته منذ أوّل عمره وإلى آخر ساعةٍ منه ـ كثيرٌ من الصحابة والتابعين، والعلماء في التفسير والحديث، وكفاه بأن شهد له بفهمه وعلمه كتاب الله المنزّل في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿**لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ (الحاقة: ١٢)، حيث نزلت في فهم عليّ عليه السلام[1]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣)، حيث نزلت في علم عليّ عليه السلام بكتاب الله[2]، وسيأتينا في بعض تفاصيل الأبحاث التالية عدّة إشاراتٍ إلى هذه المؤهّلات الاستثنائيّة، والتي جلبت له الحسد والترصّد والعداء من قبل الطامحين والطامعين بالخلافة.

ثالثاً: الحضور المكثّف للإمام عليّ عليه السلام في جميع أو معظم الحوادث الجسام، لاسيّما المواقف المصيريّة، بل نستطيع القول: إنّه لم يخلُ موقفٌ تاريخيٌّ في

---

(١) عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لمّا نزلت: ﴿**وتَعِيَها أُذُنٌ وَاعِيةٌ**﴾، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **هي أذنك يا عليّ**». [أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٤٢٣ ح٥٧؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٥ ص٢٨٢؛ تفسير الطبري، تحقيق: صدقي جميل العطّار: ج٢٣ ص٢٢٣؛ المناقب، للموفّق الخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ): ص٢٨٢].

(٢) ينظر تفصيل المسألة في كتاب: «بحث حول الإمامة»، للسيّد كمال الحيدري.

سيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله منه عليه السلام، حتّى غزوة تبوك التي خلّف فيها عليّاً في المدينة لإدارتها وحمايتها، كانت تشير إلى عظمة وجلالة عليّ عليه السلام، كما سيأتي في حديث المنزلة.

إنّ هذا الحضور الإيجابي بجميع مجالاته، والذي لم يقع لأحدٍ سواه أبداً في سيرة الإسلام عموماً وفي سيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله خصوصاً، قد منحه عليه السلام مساحاتٍ إعلاميّةً كبيرةً؛ لأنّ تسجيل هذا الحضور لم يكن من باب تكثير السواد الذي طغى على كثيرٍ من الصحابة، وإنّما كان من باب كونه فاعلاً أساسيّاً في الأحداث، ابتداءً من انطلاقة الدعوة في مكّة، ومروراً ببدرٍ وأحدٍ والخندق وخيبر وفتح مكّة، فلا تكاد تجد حدثاً عظيماً كان فيه رفعةٌ للإسلام وعلوٌّ لكلمة «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله» إلّا ولعليّ عليه السلام القدح المُعلّى فيه. وهذا التميّز المتفرّد بقدر ما أعطاه مكانةً رفيعةً فإنّه سبّب له مشاكل جمّة، من الحسّاد وضعاف النفوس، فضلاً عمّا كان يكنّه تجاهه أصحاب النفوس الخبيثة، الذين لم يكونوا إلّا فرعاً واقعيّاً للشجرة الملعونة في القرآن[1].

رابعاً: إدراك النبيّ صلّى الله عليه وآله لما تكنّه كثيرٌ من النفوس من مشاعر غير محمودةٍ تجاه الإمام عليّ عليه السلام، إمّا لأنّه عليه السلام كان سبباً مباشراً في قتل أئمّة الكفر من سادات قريش، أو لأنّهم لا يجدون فيه عيباً ولا قصوراً فاستجابوا لنزعة النفس الوضيعة في الحسد، لاسيّما وهم يجدون أنفسهم عاجزين تماماً عن مجاراته، وقد أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى هذا المكنون

---

(١) المراد هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا طُغْيَاناً كَبِيراً**﴾ (الإسراء: ٦٠)، والتي فُسِّرت ببني أميّة، حيث رآهم النبيّ صلّى الله عليه وآله ينزون على منبره نزو القردة، فاغتمّ لذلك ولم يُرَ ضاحكاً بعداً حتّى رحل إلى جوار ربّه. [انظر: تفسير القرطبي: ج١٠ ص٢٨٣].

الخطير، فتارةً يقول لهم: «**وإن تؤمّروا عليّاً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهديّاً، يأخذ بكم الطريق المستقيم**»[١]، وهو حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجا[٢].

ولم يُخْفِ رسول الله صلّى الله عليه وآله هذه الضغائن التي كان يقرأها في عيون الكثيرين، حيث روي أنّه صلّى الله عليه وآله قد خلا يوماً بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الطريق «فاعتنقه ثمّ أجهش باكياً، فقال عليّ عليه السلام: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: **ضغائن في صدور أقوامٍ لا يبدونها لك إلّا من بعدي**. قال: قلت: يا رسول الله في سلامة من ديني؟ قال: **في سلامةٍ من دينك**»[٣].

ونظراً لكون الكثير من هذه الأحقاد والضغائن والحسد الشديد كان يكمن في نفوس ذات نفوذٍ وإمكاناتٍ، كان لابدّ من عملٍ مضادّ يعمل على إخماد هذه النائرة الكامنة في الصدور، أي: لابدّ من اعتماد طرق يجعل أصحاب هذه النفوس أمام أمرٍ واقعٍ يعسر عليهم تجاوزه، وكان من تلك الطرق التركيز على شخصيّة عليّ عليه السلام، لكي لا يقال بأنّ ما ورد فيه قد ورد في غيره، فلا امتياز له على مَن سواه، ولذلك كانت له عليه السلام الصدارة، حتّى ورد في مناقبه وذكره ما لم يرد في مجموع الصحابة، بالرغم من التعتيم الأموي الصارخ.

خامساً: توجيه الأمّة إلى نصرة هذا الخليفة القادم، فالمخلصون من المسلمين كانوا يتسابقون في طاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولكنّ الإنسان بطبعه نسيٌّ، فاحتاج الأمر إلى تركيزٍ وتوكيدٍ، لاسيّما وأنّ موضوع الخلافة لا يتقدّمه

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ج٤ ص١٥ ح٤٤٩١؛ المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج١ ح٨٥٩.

(٣) تقدّم تخريج الحديث.

موضوعٌ قطّ بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله.

سادساً: ليتسنّى للإمام عليّ عليه السلام الدفاع عن حقّه الشرعي في الخلافة فلا تعييه ندرة الحديث فيه عن إقامة الحجّة، ولذلك كان الإمام عليه السلام يجد مرونةً عاليةً ومساحةً كبيرةً من الروايات الواردة في حقّه، ممَّا جعلت الخصوم يقفون في زاويةٍ حرجةٍ، وليس حديثُ المناشدة عنّا ببعيد[1].

سابعاً وأخيراً: إعطاء مادّةٍ علميّةٍ كبيرةٍ لمن يأتي من بعده صلّى الله عليه وآله من كتّاب ومحلّلين ومفسّرين في بيان حقيقة الموقف، في استشرافٍ عميقٍ لما سيقع من تجاوزاتٍ خطيرةٍ على صاحب الحقّ الشرعي، فأراد أن يُسجّل للتاريخ مواقف جليّةً، ويُقدّم لطلَّاب الحقّ هذه المادّة الغنيّة بالمعاني والأسرار، وبهذا وجد المتابعون والمهتمّون بالشأن الديني أنفسهم أمام كمّ من الأخبار من العسير جدّاً تجاوزها، وبالتالي سيجعل وصولهم للحقيقة أمراً مُيسَّراً، ولكن مع شيءٍ من الموضوعيّة والإنصاف والرويّة والتأمّل وترك التعصّب.

تنوّع التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

من أهمّ ما جاء في التركيز النبويّ على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام: التنوّع العجيب في إبراز معالم هذه الشخصيّة العظيمة، فلم تقتصر روايات النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه عليه السلام على جانبٍ أو جانبين، وإنّما كادت أن تُحصي

---

(١) حديث المناشدة هو مجموع ما احتجّ به الإمام عليّ عليه السلام على النفر الخمسة الذين وردت أسماؤهم في الشورى العمريّة، فكان يحتجّ عليهم بما ورد فيه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله حصراً، وكان القوم يُجيبونه بعد كلّ مناشدة بأن يشهدوا بصدق ما يقوله بقولهم: اللهم نعم. وهو حديثٌ اشتمل على مناقب ومآثر كثيرةٍ لأمير المؤمنين علي عليه السلام.
انظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣٩ ص٢٠١؛ شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج٢ ص٤٢٠؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٥ ص٧٢٣.

جلّ ما للإمام من مناقب ومآثر، وقد اتّخذ هذا التنوّع ثلاثة مجالاتٍ رئيسة، وهي:

أوّلاً: المجال المعرفي

فقد ورد من الأخبار في علم عليّ عليه السلام ومعرفته ودرايته وعمق فهمه الشيء الكثير، منه ما رواه عمر بن الخطّاب، حيث قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **أعلمكم عليّ بن أبي طالب**»[1].

وفي خبرٍ آخر عنه صلّى الله عليه وآله: «**أعلم أمّتي من بعدي عليّ بن أبي طالب**»[2]، وعنه صلّى الله عليه وآله: «**عليّ بن أبي طالب أعلم الناس بالله وبالناس**»[3]، وقد كان من علمه عليه السلام أنّه لم يحتج بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله لأحدٍ أبداً، وكان الجميع يحتاجون إليه.

ثانياً: المجال العملي

فقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تثبّت الحضور العملي للإمام عليه السلام في كلّ الأحداث أو في معظمها، ولنأخذ شواهد على ذلك:

الشاهد الأوّل: لا فتى إلّا عليّ

جاء في الخبر عن محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه قال: «لما قَتل عليٌّ بن أبي طالب أصحابَ الألوية، أبصر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله جماعةً من مشركي قريش فقال لعليّ: **احمل عليهم**. فحمل عليهم، ففرَّق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي. ثمّ أبصر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم جماعةً من مشركي قريش، فقال لعليّ: احمل عليهم. فحمل عليهم ففرَّق جماعتهم وقتل

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

(٢) تقدّم تخريج الحديث.

(٣) تقدّم تخريج الحديث.

شيبة بن مالك ـ أحد بني عامر بن لؤي ـ فقال جبريل: يا رسول الله إنّ هذه المواساة. فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم: **إنّه منّي وأنا منه**. فقال جبريل: وأنا منكما ـ قال: فسمعوا صوتاً: **لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا عليّ**»[١].

وأمّا محلّ الشاهد وهو «**لا فتى إلّا عليّ لا سيف إلّا ذو الفقار**»، أو «**لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ**»، فهو الأكثر شهرةً، وقد ورد في عشرات المصادر[٢].

والغريب أنّ معظم هذه المصادر قد أغمضت حقيقةً مهمّةً من تلك الواقعة التي صيح في فضائها بكلمة الغيب (**لا فتى إلّا علي، لا سيف إلّا ذو الفقار**). وهذه الحقيقة هي هزيمة الصحابة من أرض المعركة، فبعد نزول الرماة طلباً للغنيمة، واستغلال خالد بن الوليد هذه الثغرة ليلتفّ حول جبل الرماة ويحيط بالمسلمين، قاوم القليل من المسلمين، وكثيرٌ منهم استشهد رضوان الله عليهم، وأمّا الكثرة الغالبة فقد فرّوا على وجوههم هرباً من مواجهة سيوف قريش، وهنا جاءت المواساة الحقيقيّة، حيث يفتدي الإمام عليّ عليه السلام قائده رسول الله صلّى الله عليه وآله بنفسه، وجاءت تلك الكلمة الغيبيّة لتتوّج تلك البطولة النادرة[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢ ص١٩٧؛ نظم درر السمطين: ص١٢٠؛ الكامل: ج٥ ص٢٦٠.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: ج٣ ص٦١٥؛ السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٤ ص٧٠٧؛ لسان الميزان، ابن حجر: ج٤ ص٤٠٦؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٦؛ ج٧ ص٢٥٠؛ ج٧ ص٣٧٢؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٢٩١ ح٨٣٤؛ كتاب الهواتف، لأبي بكر عبد الله بن محمّد بن عبيد بن سفيان: ص٢٠، رقم: ٥؛ شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج٢ ص٣٨١ ح٧٣٩؛ المعيار والموازنة، الإسكافي: ص١٤٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٧ ص٢١٩؛ ج١٠ ص١٨٢؛ تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي: ج٣ ص٤٣٣ ح٨٣.

(٣) جاء في الكافي: عن نعمان الرازي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**انهزم الناس يوم أحدٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله فغضب غضباً شديداً**، قال: وكان إذا غضب

إذن فهذا الشاهد يُظهر لنا عظيم فضل الإمام عليّ عليه السلام في ذوده ودفاعه عن الرسول صلّى الله عليه وآله والرسالة المحمّديّة، كما يُظهر عناية السماء بهذا البطل المتفرّد في بطولته.

الشاهد الثاني والثالث: برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه، وضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين

عندما تمكّن عمرو بن عبد ودّ العامري ونفرٌ من قريش من عبور الخندق، دعا المسلمين للبراز، وكان قد أعلمهم بنفسه ليُرى مكانه، فطلب النبيّ صلّى الله عليه وآله أن ينهض له أحدٌ، فلم يقم إليه أحد. فلما أكثر عمرو التعريض بالمسلمين قام عليّ عليه السلام قائلاً: أنا أبارزه يا رسول الله. فأمره بالجلوس، وأعاد عمرو النداء والناس سكوتٌ كأنّ على رؤوسهم الطير؛ لمكان عمرو، والخوف منه وممّن معه، ومَن وراءه. فقال عمرو: أيّها الناس، إنّكم تزعمون: أنّ قتلاكم في الجنّة، وقتلانا في النار؟ أفما يحبّ أحدكم أن يقدم على الجنّة، أو يقدّم عدوّاً له إلى النار؟ فلم يقم إليه أحد. فقام عليّ عليه السلام ثانيةً، قائلاً: أنا له يا رسول الله. فأمره بالجلوس. فجال عمرو بفرسه مقبلاً ومدبراً لإرعاب المسلمين وإذلالهم، والمشركون يُراقبون من وراء الخندق، فلمّا رأى عمرو أنّ أحداً لا يجيبه أنشد قائلاً:

ولقد بححتُ من النـداء بجمعهم: هل من مبـارز
إنّ الـــشجاعة في الفتـــى والجود من خير الغرائـز

فقام عليّ عليه السلام، فقال: يا رسول الله ائذن لي في مبارزته. قال له رسول الله: **أُدن منّي يا عليّ**. فدنا منه، فقلّده سيفه ذا الفقار، ونزع عمامته من رأسه

انحدر عن جبينيه مثل اللؤلؤ من العرق...». [الروضة من الكافي، للكليني: ج١٥ ص٢٦٩ ح١٤٩٠٥].

وعمّمه بها، وقال: **امضِ لشأنك**. فلمّا انصرف قال: **اللّهُمَّ أعنه عليه**[(١)]. ثمّ قال صلّى الله عليه وآله في شأنه: «**برز الإيمان كلّه، إلى الشرك كلّه**»[(٢)]. فخرج له عليّ عليه السلام وهو راجل، وعمرو كان فارساً، فسخر به عمرو. فمشى إليه عليه السلام حتّى أتاه وهو يقول:

لا تعجلــــن فقـــد أتـــاك	مجيـب صـوتك غـير عـاجز
ذو نيّـــــــةٍ وبـــــــصيرةٍ	والـصدق منجـا كـلّ فـائز
إنّي لأرجــــو أن أقـــيم	عليـــك نائحـــة الجنـــائز
مــن ضربـــةٍ نجــلاء يبقــى	ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا عليّ. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. فقال: يا ابن أخي، مِن أعمامك مَن هو أسنّ منك، فإنّي أكره أن أهريق دمك. فقال له عليّ: لكنّي والله لا أكره أن أهريق دمك. فغضب، فنزل وسلّ سيفه كأنّه شعلة نار، ثمّ أقبل نحو عليّ مغضباً، واستقبله عليّ بدرقته، فضربه عمرو في درقته، فقدّها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجّه. وضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ، وثار العجاج، فسمع رسول الله التكبير،

(١) وردت تفاصيل هذه الحادثة في عدّة مصادر بألفاظٍ متقاربةٍ، مع زيادةٍ ونقيصةٍ، ولكنّها كلّها تشير إلى أصل الواقعة وأهمّ تفاصيلها. انظر: الإرشاد للمفيد: ص٥٩ـ٦٠؛ المغازي للواقدي: ج٢ ص٤٧٠؛ السيرة النبويّة، زيني دحلان: ج٢ ص٦؛ السيرة الحلبيّة: ج٢ ص٣١٩؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص١١؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٦٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٩ ص٦٣ـ٦٤؛ وغيرها.

(٢) شواهد التنزيل: ج٢ ص١١؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٢٨١؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٣ ص٢٦١، وص٢٨٥؛ ج١٩ ص٦١؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص٢٠٥؛ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، تأليف: رضي الدين أبي القاسم ابن طاووس الحلّي (ت: ٦٦٤هـ): ص٣٥ ص٦٠؛ ومصادر أخرى.

فعرفنا أنّ عليّاً قد قتله[١].

ولّما عاد بطل الخندق بعد أن جندل فارس فرسان العرب، أقبل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو يقول:

أنا عليٌّ وأنا ابن المطّلب   الموت خيرٌ للفتى من الهرب

وعندئذٍ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقّ بطل الإسلام المتفرّد كلمته الخالدة، وهي: «**لضربة عليٍّ لعمرو بن عبد ودٍّ يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين**»، وفي روايةٍ أخرى: «**أفضل من عبادة الثقلين**»، وفي أخرى: «**خيرٌ من عبادة الثقلين**»، وفي رواية: «**أفضل من أعمال أمّتي إلى يوم القيامة**»[٢].

وقد ذكر الفخر الرازي هذا الخبر مع تعليقٍ لطيفٍ وهو في معرض شرحه لسورة القدر؛ يقول: «هذه الآية فيها بشارةٌ عظيمةٌ، وفيها تهديدٌ عظيمٌ، أمّا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٤٠؛ السيرة النبويّة، لابن هشام: ج٣ ص٢٣٦؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٢؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٤ ص١٠٦؛ السيرة النبويّة، ابن كثير: ج٣ ص٢٠٤؛ عيون الأثر، ابن سيّد الناس: ج١ ص٦١ـ٦٢؛ الروض الآنف في تفسير السيرة النبويّة، لابن هشام: ج٣ ص٤٢٧؛ دلائل النبوّة، البيهقي: ج٣ ص٤٣٨ـ٤٣٩؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص١٨١؛ الإرشاد للمفيد: ص٥٨؛ وعشرات المصادر الأخرى.

(٢) وردت هذه الروايات، المختلفة في بعض ألفاظها، والمتشابهة في معانيها، في مصادر كثيرة، مع اختلافٍ في النقل. منها: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١٣ ص١٩؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص٣٢؛ فرائد السمطين، الجويني الشافعي: ج١ ص٢٥٦؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج١ ص٤١٢ ح٥؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص١٤؛ السيرة الحلبيّة، الحلبي الشافعي: ج٢ ص٣١٩ـ٣٢٠؛ شرح المقاصد في علم الكلام، مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي (ت: ٧٩٣هـ): ج٥ ص٢٩٨؛ فردوس الأخبار بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الهمداني الديلمي (ت: ٥٠٩هـ): ج٣ ص٤٥٥؛ ومصادر أخرى.

البشارة فهي أنّه تعالى ذكر أنّ هذه الليلة خيرٌ، ولم يبيّن قدر الخيريّة، وهذا كقوله عليه السلام: **لمبارزة عليّ عليه السلام مع عمرو بن عبد ودّ ـ العامري ـ أفضل من عمل أمّتي إلى يوم القيامة**. فلم يقل مثل عمله، بل قال: أفضل؛ كأنّه يقول: حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف»[1].

إنّ هذين الشاهدين الكبيرين يُبرزان الموقع الميداني والتواجد العملي لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، بنحوٍ لا شبيه له في سيرة الآخرين، فما إن يأتي ذكر الأحزاب والخندق إلّا وذاكرة المسلمين تعود بهم إلى ضربة عليّ عليه السلام التي تعدل أو تفضل عبادة الثقلين، وتقفز أمامهم صورة الإيمان كلّه وهو يقارع الشرك كلّه، وبهذا يكون الرسول صلّى الله عليه وآله قد نجح كثيراً في تحقيق هذا الإجراء الذي ثبّت بعضاً من عملانيّة الإمام عليّ عليه السلام في تضحيته وذوده عن الرسالة والرسول صلّى الله عليه وآله، في ذلك الموقف الرهيب الذي زاغت فيه الأبصار وظنّ الكثير من المسلمين بالله تعالى الظنونا! قال تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ (الأحزاب: ١٠).

الشاهد الرابع: كرّار غير فرّار

وهنا يُسجّل بطل الرسالة المحمّديّة موقفاً توّج الإسلام بأسره بأعظم المفاخر، يوم حطّم أسطورة اليهود في خيبر، فجندل بطلهم مرحباً اليهودي، وملأ قلوب اليهود بذلك هلعاً ورعباً، ثمّ دخل حصونهم[2]، وأخضعهم لحكم

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي (طبعة الأحد عشر جلداً): ج١١ ص٣٠؛ أو في: ج٣٢ ص٣١، طبعة (٣٢) جزءاً.

(٢) إنّها ستّة حصون: (السلالم، والقموص، والنطاة، والقصارة، والشقّ، والمربطة)، وفيها عشرون ألف مقاتل، ففتحها حصناً حصناً، فقتل المقاتلة وسبى الذرّية، وكان القموص

الرسول صلّى الله عليه وآله، وقصّة خيبر أشهر من نارٍ على علم، روتها معظم كتب السيرة والحديث والتاريخ، وفي تلك الواقعة التي ملأت الإسلام والمسلمين عزّةً ومنعةً، وصارت هي المنطلق الحقيقي لفتح الفتوح (فتح مكّة)؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لأعطينّ الراية غداً ـ إن شاء الله ـ إلى رجلٍ كرّارٍ غير فرّار، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، لا ينصرف حتّى يفتح الله على يده**»[1]، فأعطاها إلى الإمام عليّ عليه السلام، فقتل مرحباً، واقتلع باب الحصن، ورمى به خلفه، ودخل الحصن ودخله المسلمون.

ثالثاً: المجال المعنوي

وهو المجال الذي أبرز من خلاله رسول الله صلّى الله عليه وآله مكانة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومدى قربه منه صلّى الله عليه وآله، ليرسم لنا النبيّ صلّى الله عليه وآله لوحةً معنويّةً جليلةً، وفي أكثر من موقفٍ، وفي هذا المجال نذكر حديثاً يُبيِّن ما لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام من وجودٍ معنويٍّ عظيمٍ، كما

من أشدّها وأمنعها، وهو الحصن الذي كان فيه مرحب بن الحارث اليهودي. [انظر: تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٥٦].

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٨ ص٥٢٠ ص٥٢٢ ح١١؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص١٦؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص١٨٥؛ ج٤ ص٥٢؛ صحيح البخاري: ج٥ ص٧٦ ح٢٩٤٢؛ صحيح مسلم: ح٦١١٤؛ ج٥ ص١٩٥؛ ج٧ ص١٢٠؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠١ ح٣٨٠٨؛ السنن الكبرى: ج٥ ص٤٦ ح٨١٥٠؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٦ ص١٥٢؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص٣٦؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص١١١؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤١ ص٢١٩ ح٤٧٧٤؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٤ ص٢١١؛ سيرة ابن هشام: ج٣ ص٧٩٧؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٥٦؛ أمالي الصدوق: ص٦٠٤؛ وعشرات المصادر الأخرى.

نختار موقفاً كريماً نكتشف من خلاله ما لعليّ عليه السلام من مكانةٍ في قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهو موقف المؤاخاة.

أمّا الحديث الشريف فهو قول النبيّ صلّى الله عليه وآله في الشأن المعنوي للإمام عليّ عليه السلام: «**النظر إلى وجه عليٍّ عبادة**»[1]، حتّى أنّ بعض الصحابة كان يُطيل النظر إلى وجه عليّ عليه السلام، فإذا سُئل عن علّة ذلك أجابهم بحديث الرسول صلّى الله عليه وآله[2].

وقد حاول ابن الأثير أن يُفسِّر معنى هذا الحديث، حيث قال: «معناه: أنّ عليّاً رضي الله عنه كان إذا برز قال الناس: لا إله إلّا الله، ما أشرف هذا الفتى! لا إله إلّا الله، ما أعلم هذا الفتى! لا إله إلّا الله، ما أكرم هذا الفتى! أي: ما أتقى، لا إله إلّا الله، ما أشجع هذا الفتى! فكانت رؤيته تحملهم على كلمة التوحيد»[3]، وهو توجيهٌ لطيفٌ إلّا أنّه لا يمنع أن يكون المقصود به هو شخص عليّ عليه السلام لا مجرّد تلك اللوازم التي لا يلتفت لها إلّا القليل، ولذلك نجد الشيخ الطوسي يقول في الردّ على ذلك: «قلت: نعم ما ذكره كذلك، ولكن لا ريب أنّ النظر إلى وجه عليّ عليه السلام في نفسه عبادةٌ، ومن أعظم العبادات، كما النظر إلى وجه النبيّ صلّى الله عليه وآله عبادة، والنظر إلى الكعبة زادها الله تعالى شرفاً

---

(١) أمالي الصدوق: ص٤٤٣ ح١؛ أمالي الطوسي: ص٣٥٠ ح٦٢؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٤١؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١١ ص٦٠١ ح٣٢٨٩٥؛ ج٧ ص٢١٨؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٠ ص٩؛ ج٤٢ ص٣٥٠؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج١ ص٥٠٧؛ ج٤ ص١٢٧؛ لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص٢٢٩؛ سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١١ ص٢٩٢؛ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج٥ ص٧٧؛ لسان العرب: ج٥ ص٢١٥.

(٢) يروي ذلك عن أبي هريرة وعن معاذ بن جبل: عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك.

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج٥ ص٧٧.

وتعظيماً عبادة»[١].

وأمّا الموقف الكريم فهو إعلان المؤاخاة بين رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام حصراً، عن عبد الله بن عمر أنّه «قد آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم بين أصحابه، فجاء عليّ عليه السلام تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم: **أنت أخي في الدنيا والآخرة**»[٢].

وفي رواية مدرسة أهل البيت، وهي الأكثر تفصيلاً: أنّه لما كان يوم الإخاء آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله بين المهاجرين والأنصار، وعليّ عليه السلام واقفٌ يراه ويعرف مكانه، ولم يؤاخ بينه وبين أحد، فانصرف عليّ عليه السلام باكي العين، ثمّ افتقده النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: ما فعل أبو الحسن؟ فقيل له: انصرف باكي العين يا رسول الله. قال صلّى الله عليه وآله: يا بلال اذهب فأتني به. فمضى بلال إلى عليّ عليه السلام وقد دخل منزله باكي العين، فقالت فاطمة: ما يبكيك لا أبكى الله لك عيناً. قال: يا فاطمة آخى النبيّ بين المهاجرين والأنصار وأنا واقفٌ يراني ويعرف مكاني ولم يؤاخ بيني وبين أحد. قالت فاطمة عليها السلام: لا يحزنك الله، لعلّه إنّما ادّخرك لنفسه. فقال بلال: يا عليّ أجب النبيّ صلّى الله عليه وآله. فأتى عليّ عليه السلام إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقال له: **ما يبكيك يا أبا الحسن؟** قال: واخيت بين المهاجرين والأنصار يا رسول الله وأنا واقفٌ تراني وتعرف مكاني، لم تؤاخِ بيني وبين أحد. قال: **إنّما ادّخرتك**

---

(١) اختيار معرفة الرجال، للطوسي: ج٢ ص٦١٦،

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٩٤؛ الكامل: ج٢ ص١٦٦؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٥١؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص١٦؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٧١؛ سبل الهدى والرشاد، للصالحي : ج٣ ص٣٦٤.

لنفسي، أما يسرّك أن تكون أخا نبيّك؟ قال: بلى يا رسول الله، أنّى لي بذلك. ثمّ أخذ بيده وأرقاه المنبر وقال: **اللّٰهُمَّ إنّ هذا أخي منّي وأنا منه، ألا أنّه بمنزلة هارون من موسى...**»[(١)].

إنّ هذه الجوانب الثلاثة (المعرفة، والعمليّة، والمعنويّة) في شخصيّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وبالإثباتات النبويّة، هي التي أناخت لها قلوب المحبّين، وتحطّمت على أعتباها قلوب الحاسدين، فبالقدر الذي امتلأت قلوب الموالين بهجةً وسروراً، امتلأت قلوب الحاسدين والمبغضين حنقاً ونفوراً.

وهنا تستوقفنا كلمةٌ جليلةٌ لأبي نعيم في حليته، قد رواها المناوي في فيضه أيضاً، وهي قوله: «سيّد القوم، محبّ المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والعلوم، ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات، راية المهتدين، ونور المطيعين، ووليّ المتقين، وإمام العادلين، أقدمهم إجابةً وإيماناً، وأقومهم قضيّةً وإيقاناً، وأعظمهم حلماً، وأوفرهم علماً، عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

قدوة المتقين، وزينة العارفين، المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع علم التفريد، صاحب القلب العقول، واللسان السؤول، والأذن الواعي، والعهد الوافي، فقّاء عيون الفتن، ووقي من فنون المحن، فدفع الناكثين، ووضع القاسطين، ودمغ المارقين، الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله»[(٢)].

وقد روي عن أبي بكرٍ أيّام خلافته أنّه رأي عليّاً عليه السلام يوماً فقال: «مَن سرَّه أن ينظر إلى أفضل الناس منزلةً، وأقربهم قرابةً، وأعظمهم غناءً عن رسول

---

(١) انظر: عمدة عيون صحاح الأخبار، ابن البطريق الحلّي: ص١٦٩؛ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ابن طاووس الحلّي: ص١٤٨، رقم: ٢٢٤؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص٣٣٥؛ نهج الإيمان، ابن جبر: ص٤٢٦؛ كشف اليقين، ابن المطهّر الحلّي: ص٢٠٦.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني: ج١ ص٦٢؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٦٩، رقم: ٥٥٩٠.

الله صلّى الله عليه وآله فلينظر إلى هذا»[١].

قَرْن شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام بالأنبياء عليهم السلام

من جملة أبعاد ما روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في شأن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: أنّه كثيراً ما كان يقرنه بالأنبياء عليهم السلام، في إشارةٍ واضحةٍ منه صلّى الله عليه وآله إلى وحدة الكمال، والعمل إلى نفس الأهداف، وستكون لدينا عدّة شواهد على ذلك.

الشاهد الأوّل: حديث المنزلة

عن سعد بن أبي وقّاصٍ قال: «خلَّف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم عليّ بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلّفني في النساء والصبيان؟ فقال: **أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي**»[٢]، ومكانة هارون عليه السلام من أخيه موسى عليه السلام هي ما أوجزها القرآن

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٧٢، وص٤١١؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص١٢٩.

(٢) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٤٩٦ ح١١ـ١٥؛ مصنّف عبد الرزاق الصنعاني: ج٥ ص٤٠٥ ح٩٧٤٥؛ ج١١ ص٢٢٦ ح٢٠٣٩٠؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص١٣؛ صحيح مسلم: ج٧ ص١٢٠، وص١٢٠؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٠١ ح٣٨٠٨، وص٣٠٤ ح٣٨١٣ـ٣٨١٤؛ صحيح البخاري: ح٣٧٠٦، وح٤٤١٦؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٢ ص٣٣٧؛ ج٣ ص١٠٩؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٤٤ ح٨١٣٨ـ٨١٤٣؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج١ ص١٤٨ ح٣٣٤؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧١ ح٥٥٩٧؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٣ ص٢٣ ص٢٤؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج٦ ص٨٤ ح١٩١؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٨؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٠٩؛ الروضة من الكافي، للكليني: ج٨ ص١٠٦ ح٨٠؛ أمالي الصدوق: ص١٥٦ ح١٥٠؛ وعشرات المصادر الأخرى.

بقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٩ـ٣٢)، وهكذا كان عليٌّ عليه السلام وزير رسول الله صلّى الله عليه وآله وأخاه وعضده وشريكه في دعوته، ولم يكن في بني إسرائيل أحدٌ يرقى إلى مكانة هارون من أخيه موسى عليهما السلام، والكلام هو الكلام في مكانة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قال المناوي في بيانه للحديث: «يعني متّصلٌ بي ونازلٌ منّي منزلته حين خلّفه في قومه بني إسرائيل لّما خرج إلى الطور»[1]، وهذا الاقتران بالأنبياء عليهم السلام إنّما يكشف عن تلك الخصائص الاستثنائيّة التي كان يتمتّع بها أمير المؤمنين عليه السلام. وما جاء في جميع الأخبار النبويّة التي تحدّثت عن خصال الإمام عليّ عليه السلام وصفاته وامتيازاته، لم تكن من عنصرٍ كاشفٍ عن ذلك الكمال الذاتي لأمير المؤمنين عليه السلام، فهي لم تُؤسّس لكمالٍ فيه، وإنّما هي كاشفةٌ عنه، أو قل هي علّةٌ للعلم وليست علّةً للوجود، فهي ـ باصطلاح المناطقة ـ واسطةٌ في الإثبات وليست واسطةً في الثبوت، فالوجود والثبوت تفرضهما تلك الذات القدسيّة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام[2].

---

(١) فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧١ ح٥٥٩٧.

(٢) جديرٌ بالذكر: أنَّ هذا المكانة الرفيعة التي تبوَّأها الإمام عليّ عليه السلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله تشير لنا بالضمن إلى أنّها عين مكانته من الله تعالى، فمكانته عليه السلام من الله تعالى هي عين مكانة الرسول صلّى الله عليه وآله من الله تعالى، وقد روي هذا المعنى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، فعن عبد الله بن مسعود أنّه قال: «رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وكفّه في كفِّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يقلّبه. فقلت: يا رسول الله، ما منزلة عليّ منك؟ فقال صلوات الله عليه: **كمنزلتي**». أمالي الطوسي: ص٢٢٦ ح٤٤؛ المحتضر، حسن بن سليمان الحلّي: ص٩٤؛ بشارة المصطفى، لأبي القاسم محمّد بن علي الطبري: ص٤٢١ ح٢٩.

الشاهد الثاني: التمثيل الوصفي (وحدة الخصال)

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**مَن أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى يحيى بن زكريّا في زهده، وإلى موسى بن عمران في بطشه، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب**»[(١)]، وفي خبرٍ آخر عن عبد الله بن مسعود، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله جالساً في جماعةٍ من أصحابه إذ أقبل عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**مَن أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوحٍ في حكمته، وإلى إبراهيم في حلمه، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب**»[(٢)].

الشاهد الثالث: المشابهة في الابتلاءات

عن الإمام عليّ بن موسى عن أبيه عن جدّه عن آبائه عن عليّ عليهم السلام

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٣١٣؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص١٠٠ ح١١٦، وص١٠٣ ح١١٧؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج١١ ص٨٩، سنة: ٤٠؛ كشف اليقين، ابن المطهّر الحلّي: ص٥٢.

(٢) أمالي الطوسي: ص٤١٦ ح٨٦؛ أمالي الصدوق: ص٧٥٧ ح١١؛ كمال الدين وتمام النعمة، للصدوق: ص٢٥؛ أمالي المفيد: ص١٤ ح٣؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص١٠٠ ح١١٦؛ ج١ ص١٠٤؛ ج١ ص١٣٦ ح١٤٧؛ روضة الواعظين، محمّد بن الفتّال النيسابوري: ص١٢٨؛ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محبّ الدين الطبري: ص٩٣؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٧ ص٢٢٠؛ ج٩ ص١٦٨؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٢٨٨؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص٩٩ ح٨٤٦٩؛ لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني: ج٦ ص٢٤ ح٨٨؛ المناقب، للموفّق الخوارزمي: ص٣١٠ ح٣٠٩؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج١ ص٣٦٣ ح١؛ فتح الملك العلى، أحمد بن محمّد بن الصديق الحسني المغربي (ت: ١٣٨٠هـ): ص٦٩؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الدمشقي الباعوني: ج١ ص٥٩.

أنّه قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **يا عليّ، إنّ فيك مثلاً من عيسى بن مريم، أحبّه قومٌ فأفرطوا في حبّه فهلكوا فيه، وأبغضه قومٌ فأفرطوا في بغضه فهلكوا فيه، واقتصد فيه قومٌ فنجوا**»[1].

وفي الشواهد: «فقال المنافقون: أما يرضى مثلاً إلّا عيسى؟! فنزلت: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ (الزخرف: ٥٧)، يعني يضجّون[2].

والخلاصة من هذا القرن النبويّ لشخصيّة عليّ عليه السلام بالأنبياء بما فيهم أولو العزم عليهم السلام، يُراد منه توجيه الأمّة إلى عظمة ومكانة خليفتها من بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولأجل أنّ شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام فوق مستوى الشبهات والتشكيك والتضعيف، فهو قرين الأنبياء بخصاله، وأنّى لغيره أن يكون له ذلك غير رسول الله صلّى الله عليه وآله، فهو الأوحد الجامع لصفات الأنبياء عليهم السلام، ولتلتفت الأمّة، ولو بعد حينٍ، إلى حقيقةٍ مؤلمةٍ وهي تفريطهم بذلك الشبيه بالأنبياء عليهم السلام[3].

---

(١) أمالي الطوسي: ص٣٤٤ ص٤٩؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٢٢٧ ح٨٦٠ ح٨٦٠؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٣٠١.

(٢) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٢٣٤.

(٣) ورد في بعض الأخبار تطبيقاتٌ لجنب الله الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾ (الزمر: ٥٦)، فمن فرّط في طاعته ومتابعته ليس له إلّا لوعة الحسرات، عن علي بن سويد عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾؟ قال: «جنب الله: أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك ما كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم». [أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٣٥٥ ح٣٦٥].

والجنب هو القرب، فيكون مراد الآية: التفريط في قرب الله وجواره، وقد كنّى بالجنب لكونه قريباً منه، ملاصقاً له، وقد اعتبر الإمام عليّ عليه السلام من أبرز مصاديق «جنب

ترسيخ الولاية المطلقة للإمام عليّ عليه السلام

لم يقتصر رسول الله صلّى الله عليه وآله في تدابيره الحكيمة لحفظ الخلافة الإلهيّة الشرعيّة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالإعلان عن خلافته وولايته، ولم يقتصر على التركيز على شخصيّة الإمام عليه السلام، ولم يقتصر أيضاً على إبراز التنوّع في الامتيازات، كما تقدّم، وإنّما كان هنالك تركيزٌ وترسيخٌ لطبيعة ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فلم يجعلها مقيّدةً بزمانٍ دون آخر، ولا بمكانٍ دون آخر، وإنّما جعلها مطلقةً على حدّ ولايته صلّى الله عليه وآله على الأمّة، بمعنى أنّ الإقرار بنبوّته ولزوم متابعته صلّى الله عليه وآله ليس مشروطاً بزمانٍ ما ولا بمكانٍ ما، كان ولا زال وسيبقى إلى يوم القيامة، وهكذا الإقرار بولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فهو فوق الزمان والمكان، مقرونٌ بنفس الإقرار بنبوّة النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله، وهذا المعنى الدقيق والعميق سنتعرّف عليه من خلال وقوفنا على نموذجين من الأحاديث الواردة في هذا المجال، مع بياناتٍ مُيسّرةٍ.

الحديث الأوّل: «أنت وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة»

روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله بأسانيد وطرقٍ كثيرةٍ ومختلفةٍ أنّه

الله» لشدّة قربه من الله تعالى، وكذا الأئمّة الهادون من ولده عليهم السلام، فإنّهم من أكمل أفراد المقرّبين، وفي رواية القمّي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**نحن جنب الله**». [تفسير القمّي: ج٢ ص٢٥١]. قال الشيخ الصدوق: «الجنب: الطاعة في لغة العرب، يقال: هذا صغيرٌ في جنب الله أي: في طاعة الله عزّ وجلّ، فمعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا جنب الله»، أي: أنا الذي ولايتي طاعة الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾، أي: في طاعة الله عزّ وجلّ». [توحيد الصدوق: ص١٦٥].

قال: «**عليّ وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**»، وفي خبر آخر أنّه قال له: «**أنت وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي**»، وفي خبر آخر: «**هو وليّ كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ بعدي**»، وفي خبر آخر: «**إنّه وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي ومؤمنةٍ**»[1]، وهي تعابير تشير إلى حقيقةٍ واحدةٍ، وهي: أنّ الإمام عليّ عليه السلام له الولاية المطلقة على كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ بلا استثناء.

قال العلّامة الأميني: «أحمد بن حنبل أخرجه بإسنادٍ صحيحٍ، رجاله كلّهم ثقات... وأخرجه بهذا اللفظ ـ هو وليّ كلّ مؤمنٍ بعدي ـ الترمذي في جامعه بإسنادٍ صحيحٍ، رجاله كلّهم ثقات. وكذلك النسائي في الخصائص... وصحَّحه وأقرّه الذهبي»[2].

---

(١) نظراً لتشابه هذه الأخبار المشيرة إلى معنىً واحدٍ، فقد ارتأينا عرض معظم مصادرها، حيث سنورد المصادر التي وردت فيها هذه المتون، وهي:
أمالي الصدوق: ص٥٠ ح٣؛ أمالي الطوسي: ص٥٦٢؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٤ ص٤٣٨؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٢٩٦ ح٣٧٩٦؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٣٣ـ١٣٤؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٢٠؛ مسند أبي داود الطيالسي: ص٣٦٠؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٥٠٤ ح٥٨؛ الآحاد والمثاني، لأحمد بن أبي عاصم بن الضحّاك: ج٤ ص٢٧٨ ح٢٢٩٨؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ص٦٤ ص٩٧؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج١٢ ص٧٨؛ ج١٨ ص١٢٩؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص٧٩؛ موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ): ص٥٤٣؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص١٠٠، وص١٩٩؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص٢٧؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج١ ص٤١٠؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٨ ص١٩٩؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٧؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٨١؛ كشف اليقين، ابن المطهّر الحلّي: ص٣٣؛ الرسائل العشر، الطوسي: ص٩٧، رقم: ٢٧.

(٢) الغدير، عبد الحسين الأميني: ج٣ ص٢١٥.

الحديث الثاني: «من كنت له مولى»

لمّا انتهى رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوادع، ثمّ صار إلى غدير خمّ فأمر فأصلح له شبه المنبر، ثمّ علاه، وأخذ بعضد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى رُئي بياض إبطيه، رافعاً صوته صلّى الله عليه وآله قائلاً في محفله: «**مَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»[1]، وفي خبرٍ آخر تتمةٌ وبيانٌ لأثر لتلك الولاية، وهو قوله صلّى الله عليه وآله: «**اللّهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه**»[2]، وفي

---

(١) أمالي الصدوق: ص١٤٩ ح١، وص١٨٥ ح٣؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٤٥ ح١٢١؛ ج٥ ص٢٩٧ ح٣٧٩٧؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢ ص٧١ ح٦٤١؛ الأصول من الكافي، للكليني: ج٢ ص٨ ح٧٥٩؛ ج٤ ص٥٦٦ ح٢؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١١٠، وص١٣٤، وص٣٧١، وص٥٣٣؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٠٣؛ مصنّف عبد الرزاق الصنعاني: ج١١ ص٢٢٥ ح٢٠٣٨٨؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٤٩٥ ح٩؛ ج٧ ص٤٩٦ ح١٠؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٤٥ ح٨١٤٥، وص١٠٨ ح٨٣٩٩، وص١٣٠ ح٨٤٦٦ـ٨٤٦٧؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٥٠، وص٩٤؛ المعجم الأوسط، للطبراني: ج١ ص١١١؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج١ ص٢٠٠؛ الدرّ المنثور، السيوطي: ج٢ ص٢٥٩: ج٧ ص٣٨٨ ح٣٩٠٥؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص١١٦؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٢ ص١٤؛ ج٤ ص٤٦٧؛ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج٥ ص٢٢٨؛ وعشرات المصادر الأخرى من كتب الفريقين.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢ ص٢٦٢ ح٩٥٠؛ الروضة من الكافي: ج١٥ ص٨٠ ح١٤٨١٩؛ المستدرك على الصحيحين، للنيسابوري: ج٣ ص١٠٩، ص١١٠، ص٣٧١؛ مجمع الزوائد: ج٧ ص١٧؛ ج٩ ص١٠٣ـ١٠٥؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٤٩٩ ح٢٨ـ٢٩؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٣٢ ح٨٤٧٣؛ ص١٣٤ ح٨٤٧٨؛ ص١٣٦ح٨٤٨٤؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٩٦؛ المعجم الكبير،

خبرٍ آخر تتمّةٌ أخرى وهي: «**وانصر من نصره واخذل من خذله**»[(١)].

وفي أصل الحديث وتتمّته الأولى يقول الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله»[(٢)].

وقد تضافرت الأخبار بنزول آية إكمال الدين بعد إتمام البيعة للإمام عليّ عليه السلام في نفس الزمان والمكان، وهي قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً**﴾ (المائدة: ٣)[(٣)].

وقد بلغ هذا الحديث من الشهرة أن أُفرد له بابٌ خاصّ في بعض المصنّفات، كما فعل ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد، وقد روى الحديث بطرقٍ مختلفةٍ متعرّضاً لبيعة الغدير، وكيف أنّ الحديث هو بالأصل عمدة ما قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله في تلك الحادثة، وقال في الحديث بأنّه قد رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات[(٤)].

وقال ابن حجر العسقلاني: «وأمّا حديث: **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، فقد**

للطبراني: ج٥ ص١٦٦؛ المعجم الأوسط، للطبراني: ج٢ ص٢٤، وص٣٦٩؛ شواهد التنزيل: ج١ ص٢٠١؛ الدرّ المنثور: ج٢ ص٢٩٣؛ تاريخ بغداد: ج١٤ ص٢٣٩، رقم: ٧٥٤٥؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٢٥ ص١٠٨؛ ج٤٢ ص١١٤؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٥ ص٢٢٨، وص٢٢٩؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص١٥؛ السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٤ ص٤١٦؛ وعشرات المصادر الأخرى من كتب الفريقين.

(١) شواهد التنزيل للحسكاني: ج١ص٢٠١؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢ ص٢٦٣ ح٩٥١.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٠٩.

(٣) انظر: الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٢ ص٢٥٩.

(٤) انظر: مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٠٣، باب: قوله صلّى الله عليه وسلّم: من كنت مولاه فعليّ مولاه.

أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جدّاً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتابٍ مفردٍ، وكثيرٌ من أسانيدها صحاحٌ وحسانٌ، وقد روينا عن الإمام أحمد، قال: ما بلغنا عن أحدٍ من الصحابة ما بلغنا عن عليّ بن أبي طالب»[١].

وقد روى الذهبي حديث غدير خمّ عن أحد شهود العيان فيه، جاء فيه: «كنّا بالجحفة بغدير خمّ، وثَمَّ ناسٌ كثير من جهينة ومزينة وغفار، فخرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من خباءٍ أو فسطاطٍ ، فأشار بيده ثلاثاً، فأخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال: **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»، وهنا يقول الذهبي: «هذا حديثٌ حسنٌ عالٍ جدّاً، ومتنه فمتواتر»[٢].

بيان معنى «مولاه»

وأمّا معنى كلمة «مولاه» فقد قال القرطبي فيه: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللّهُمَّ وال من والاه وعاد من عاداه**، قالوا: والمولى في اللغة بمعنى أولى، فلما قال: **فعليٌّ مولاه**، بفاء التعقيب عُلِم أنّ المراد بقوله:**مولى**، أنّه أحقّ وأولى، فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنّه مفترض الطاعة»[٣].

وروى الشيخ الصدوق عن أبي إسحاق، قال: «قلت لعليّ بن الحسين عليهما السلام: ما معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله: **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**؟ قال: أخبرهم أنّه الإمام بعده»[٤].

وعن عبد السلام بن صالح قال: «قلت لوكيع بن الجراح: ما معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله: **من كنت مولاه، فعليٌّ مولاه**؟ قال: من كنت نبيّه فعليٌّ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٧ ص٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٨ ص٣٣٤.

(٣) تفسير القرطبي: ج١ ص٢٦٦.

(٤) أمالي الصدوق: ص١٨٥ ح٢.

وليّه»[١]، وقد ورد خبرٌ بهذا المعنى، وهو قوله صلّى الله عليه وآله: **«من كنت نبيّه فعليّ وليّه»**[٢]، وفي روايةٍ أخرى: **«ألا من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، ومن كنت وليّه فعليّ وليّه، ومن كنت نبيّه فعليّ أميره»**[٣].

ملاكات الولاية المطلقة للإمام عليّ عليه السلام

إنّ الإمامة والولاية والخلافة الإلهيّة لها ملاكاتٌ أساسيّةٌ لا يمكن التنصّل عنها، فمَن كان فاقداً لها، فلا إمامة ولا ولاية ولا خلافة له على رؤوس المسلمين، بمعنى: لا طاعة له، وكل ما يدّعيه في هذا المجال فهو محض افتراء.

وما نعنيه بهذه الملاكات هي الصفات التي لابدّ للإمام من الاتّصاف بها، وهذا غير مسألة النصّ عليه من القرآن والسنّة الشريفة، وغير إجماع الأمّة أو إجماع أهل الحلّ والعقد، وغير ذلك من الطرق التي أريد منها تثبيت إمامة وخلافة البعض، فالملاكات الحقيقيّة هي عبارةٌ عن صفاتٍ ومقوّماتٍ تقوم عليها شخصيّة الإمام والخليفة، وهذه الملاكات وإن كانت كثيرةً قد تتجاوز العشرة إلّا أنّنا سنقتصر منها على الأهمّ، وهي:

أوّلاً: العلم بالكتاب والسنّة

فالخليفة هو خليفة الله تعالى وخليفة رسول الله صلّى الله عليه وآله في الأرض، وما دام كذلك فلابدّ أن يكون عالماً بكتاب الله تعالى وبسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله، فمَن كان جاهلاً بها، أو كان محتاجاً للآخرين في فهم كتاب الله

---

(١) بشارة المصطفى، لأبي القاسم محمّد بن علي الطبري: ص٤٠٤، رقم: ٢٨.

(٢) فيض القدير، المناوي: ج٦ ص٢٨٣، رقم: ٩٠٠١.

(٣) تهذيب الأحكام، للطوسي: ج٣ ص١٤٤؛ المزار، للشيخ المفيد: ص٩١، وفي رواية الينابيع: **«من كنت وليّه فعليٌّ وليّه، ومن كنت إمامه فعليّ إمامه»**. [ينابيع المودّة، القندوزي: ج٢ ص٢٨٦ ح٨١٨].

وسنّة نبيّه فإنّه قاصرٌ عن نيل مقام الخلافة، وقد تقدّم منّا بياناتٌ موجزةٌ تتعلّق بشخصيّة العالم بكتاب الله، وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد مرّ بنا خبرٌ رواه عمر بن الخطّاب قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **أعلمكم عليّ بن أبي طالب**»، وقوله صلّى الله عليه وآله: «**أعلم أمّتي من بعدي عليّ بن أبي طالب**»، وقوله صلّى الله عليه وآله: «**عليّ بن أبي طالب أعلم الناس بالله وبالناس**»[(١)]، كما مرّ أيضاً سبب نزول قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٤٣)، في أكثر من خبرٍ، من كون المقصود بالذي عنده علم الكتاب هو الإمام عليّ عليه السلام[(٢)]، كما نبّهنا إلى أنّ لحديث الثقلين دلالةً واضحةً على أعلميّة الإمام عليّ عليه السلام.

وأمّا كونه عليه السلام هو الأعلم بسنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله فقد وردت شهاداتٌ في ذلك، منها ما روي عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة أنّها قالت: «**عليّ بن أبي طالب أعلمكم بالسنّة**»[(٣)]، ولأجل هذا العلم بكتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله، كان الإمام عليّ عليه السلام هو الأعلم بالقضاء، وقد وصفه رسول الله صلّى الله عليه وآله بذلك؛ قال: «**أقضاكم عليّ**»، أو «**عليّ أقضاكم**»[(٤)].

---

(١) تقدّم تصدير الأحاديث.

(٢) تقدّم تصدير الحديث في ذلك.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٠٨.

(٤) انظر: فروع الكافي، للكليني: ج٧ ص٤٠٨ ح٥، وص٤٢٩ ح١٣؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٥٥ ح١٥٤؛ مصنّف الصنعاني: ج١١ ص٢٢٥ ح٢٠٣٨٧؛ مسند أبي يعلى: ج١٠ ص١٤١ ح٥٧٦٣؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص١٣٩ ح٩٠٨؛ كشف الخفاء، العجلوني: ج١ ص١٦٢، رقم: ٤٨٩؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٢ ص١٧٦؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٥ ص٣٦٨؛ السيرة النبويّة، ابن كثير: ج٤ ص٦٨٢.

قال ابن أبي الحديد: «وقد روت العامّة والخاصّة قوله صلّى الله عليه وآله: (**أقضاكم عليّ**)، والقضاء هو الفقه، فهو إذن أفقههم»[١].

وقال المازندراني: «وقول أمير المؤمنين عليه السلام: **وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر**، يعني: عندنا أبواب الأحكام والعلوم التي يبتنى عليه الأمور والأعمال البدنيّة والدنيويّة وما ينبغي أن يهتدي الناس به من قوانين الشرع ونظام الدين، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله: **عليٌّ أقضاكم**؛ والقضاء محتاج إلى جميع أنواع العلوم، فلما رجَّحه على الكلّ في القضاء فقد رجّحه عليهم في كلّ العلوم، وقد ذكروا أنّه عليه السلام أستاذ الخلق في علم الأصول وأسرار التوحيد والعدل والنبوّة والقضاء والقدر والمعاد والكلام والأحكام والأخلاق والفقه والتفسير والنحو والعربيّة وغير ذلك من العلوم كلّها»[٢].

ولابن عساكر كلمةٌ لطيفةٌ في أعلميّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على سائر الصحابة، حيث يقول: «ومنزلة الشافعي في العلماء كمنزلة عليّ في الصحابة؛ فإنّه كان أعلمهم وأفضلهم وأقضاهم، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: **أقضاكم عليّ**، كذلك الشافعي كان أعلم العلماء بالفقه والقضاء...»[٣].

وبعبارةٍ أخرى: «القضاء يحتاج إلى جميع العلوم، فلما رجّحه على الكلّ في القضاء، لزم أنّه رجّحه عليهم في جميع العلوم، وأمّا سائر الصحابة فقد رجّح كلّ واحدٍ منهم على غيره في علمٍ واحدٍ، كقوله: **أفرضكم زيد بن ثابت، وأقراكم أُبيّ**»[٤]، أو قل: بعبارة موجزة: «القضاء يستلزم العلم والدين. فإذا كان أقضى من

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨.
(٢) شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني: ج٦ ص٤٢٣.
(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥١ ص٣٠٠.
(٤) الطرائف، ابن طاووس الحلّي: ص٥١٦.

غيره، وجب أن يكون أعلم منه»[١].

ولمناسبة هذا العلم الفريد، كان عبد الله بن عباس يقول: «والله لقد أُعطي عليّ بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر»[٢].

ثانياً: عنصر الطاعة لله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله

إنّ عنصر الطاعة لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وآله وإن كان شرطاً وفرضاً على كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ولكنّ هذا الشرط والفرض يشتدّ في شخصيّة خليفة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم يُسجّل لنا التاريخ الإسلامي شخصيّةً قد تجسّدت فيه الطاعة لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وآله كالإمام عليّ عليه السلام، وقد عبَّر عن منتهى طاعته لله تعالى في خطبةٍ يقول فيها عليه السلام: «**وما وجد لي كذبةً في قول، ولا خطلةً في فعل**»[٣]، أي: ما وجد رسول الله صلّى الله عليه وآله له كذبةً في قول، ولا خطأً في فعل، وفي هذا منتهى الطاعة لله تعالى، وأمّا طاعته لرسول الله صلّى الله عليه وآله فقد عبَّر عنها في الخطبة نفسها، حيث يقول عليه السلام: «**ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كلّ يومٍ من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنةٍ بحراء، فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلّى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة...**»[٤]، والفصيل هو ولد الناقة، حيث لا يفارق أمّه.

---

(١) كشف اليقين، العلاّمة ابن المطهّر الحلّي: ص٤٥.

(٢) أُسد الغابة: ج٤ ص٢٢؛ سبل الهدى والرشاد: ج١١ ص٢٨٩؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٣ ص١١٠٤، رقم: ١٨٥٥؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص١١٤.

(٣) نهج البلاغة: ج٢ ص١٥٧، خطبة رقم: ١٩٢.

(٤) المصدر السابق. الخطلة والخطل: الخطأ، ينشأ عن عدم الروية.

ثالثاً: التضحية المطلقة لله تعالى والرسول صلّى الله عليه وآله وللإسلام

وهذا ما سجّله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام منذ طفولته، فيوم كان صبيّاً كان يخرج مع رسول الله صلّى الله عليه وآله لدفع شرّ غلمان قريش وصبيتها، حيث كانوا ـ بتوجيهاتٍ من أئمّة الكفر في قريش ـ ينثالون على رسول الله صلّى الله عليه وآله بالحجارة، ويضعون في طريقه الأشواك، فكان عليه السلام يواجههم بضرواةٍ ويتتبّع أثرهم ولا يتركهم حتّى يقضمهم في آذانهم وأنوفهم، حتّى سُمّي بالقضم[1] وصار هذا الاسم من ألقابه التي بقيت في ذاكرة قريش، حتّى أنّه عليه السلام لمّا برز طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان يحمل راية قريش في معركة أحد فأخذ يُنادي: يا محمّد تزعمون أنّكم تجهّزونا بأسيافكم إلى النار ونجهّزكم بأسيافنا إلى الجنّة، فمن شاء أن يلحق بجنّته فليبرز إليّ، فبرز إليه أمير المؤمنين عليه السلام، فقال طلحة: مَن أنت يا غلام؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب، قال طلحة: قد علمت يا قضم، أنّه لا يجسر عليَّ أحدٌ غيرك، فشدّ عليه طلحة فضربه، فاتّقاه أمير المؤمنين

---

(١) القضم: أكل بأطراف الأسنان والأضراس. [لسان العرب: ج١٢ ص٤٨٧].

وقد كشف الإمام الصادق عليه السلام سرّ تسمية الإمام عليّ عليه السلام بذلك. قال عليّ بن إبراهيم القمّي: «حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه سُئل عن معنى قول طلحة بن أبي طلحة لمّا بارزه علي عليه السلام يا قضيم، قال: إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان بمكّة لم يجسر عليه أحدٌ لموضع أبي طالب، وأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله يرمونه بالحجارة والتراب، فشكا ذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله إذا خرجت فأخرجني معك، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين عليه السلام، فتعرَّض الصبيان لرسول الله صلّى الله عليه وآله كعادتهم، فحمل عليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم، فكانوا يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا عليّ، قضمنا علي، فسُمِّي لذلك: القضيم». [تفسير القمّي: ج١ ص١١٤].

عليه السلام بالحجفة، ثمّ ضربه أمير المؤمنين على فخذيه فقطعهما جميعاً فسقط على ظهره، وسقطت الراية[١]. حتّى أنّ قريشاً إذا رأته كانت تقول: احذروا الحطم، إحذروا القضم، أي: الذي يقضم الناس فيهلكهم[٢].

رابعاً: القوّة البدنيّة والشجاعة الاستثنائيّة

أمّا شجاعته وإقدامه وفدائيّته فهي أشهر من نارٍ على علم، بل لشدّة حضور هذه الصفات كادت أن تُنسي التاريخ صفاته الأخرى، وقد كان من شجاعته الفريدة وفدائيّته المجيدة مبيته في فراش النبيّ صلّى الله عليه وآله عندما قرّرت قريش قتله، فافتداه بنفسه، ومنها تصدّيه لفرسان قريش والعرب واليهود في بدرٍ وأحدٍ والخندق وخيبر، وكفاه وساماً في ذلك أن يكون هو الوحيد في تاريخ الإسلام الموصوف بأنّه كرّارٌ غير فرّار، وعلى لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله في غزوة خيبر: «**لأعطينّ الراية غداً ـ إن شاء الله ـ إلى رجلٍ كرّارٍ غير فرّار، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، لا ينصرف حتّى يفتح الله على يده**»[٣]، فأعطاها إلى طعمة الحروب، وبطل الإسلام والتاريخ، الإمام عليّ عليه السلام، فقتل مرحباً، واقتلع باب الحصن، ورمى به خلفه، ودخل الحصن ومهّد الطريق ليدخله المسلمون.

ومن بطولاته قتله لعمرو بن عبد ودّ العامري، في ضربةٍ تعدل أو تفضل عبادة الثقلين، كما مرَّ بنا، وأمّا بطولته وإقدامه وقوّته في ليلة الهرير فنترك الحديث عنها لدراسةٍ مستقلّةٍ وخاصّةٍ، نتناول فيها أبعاد الشجاعة والحماسة والإقدام والبطولة في شخصيّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

---

(١) تفسير القمّي: ج١ ص١١٢؛ السيرة الحلبيّة، الحلبي الشافعي: ج٢ ص٢٢٣.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث: ج٤ ص٧٨؛ لسان العرب: ج١٢ ص٤٨٧.

(٣) تقدّم تصدير الخبر.

الإمام عليّ عليه السلام ثمرة الإسلام والنبوّة

بعد هذه الجولة في صفحات العلم والعمل والعبادة والبطولة والشجاعة والإقدام لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، نكون قد توصّلنا إلى أهمّ عوامل عزّة الإسلام ورفعته، فعليّ عليه السلام مع الحقّ، والحقّ معه، وعليّ عليه السلام هو الكرّار غير فرار، وهو عليه السلام العالم بكتاب الله وسنّة نبيه صلّى الله عليه وآله، وهو قاتل الكفّار الفجرة، والناكثين الغدرة، والمنافقين المكرة، والمارقين الجهلة، وهو القائد المجاهد، وهو العابد الزاهد، وهو الذي تكلّ الأنامل وتعجز الأقلام عن وصف خصاله صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك كلّه هو فخر الإسلام وعزّته، أو قل بجملةٍ واحدةٍ: هو ثمرة الإسلام، وهو ثمرة الرسول صلّى الله عليه وآله.

الفصل الخامس

فاطمة الزهراء والتدابير النبويّة

- تعريف بالسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام
- صفات فاطمة عليها السلام بلسان الغيب والنبوّة
- صفات فاطمة عليها السلام بلسان الإمامة
- فاطمة عليها السلام ودورها من البعثة إلى الرحلة
- فاطمة عليها السلام الحصن الأوّل للإمامة
- فاطمة عليها السلام تُجرِّد الطامحين من الشرعيّة
- فاطمة عليها السلام جهاد النبوّة وقُربان الإمامة
- فاطمة لم تُبايع إلّا عليّاً
- فاطمة عليها السلام واستشراف المستقبل في ظل الانقلاب
- التدابير الفاطميّة في نقض حكومة الانقلابيّين
- مظلوميّة فاطمة على كلّ باب مؤمن
- زفرات ملء عالم التكوين

تعريف بالسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام

هي فاطمة بنت رسول الله محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله، ولدت في بيت النبوّة والرسالة ومهبط الوحي والتنزيل، وقد وقع اختلافٌ في تاريخ ولادتها، فقيل بأنّها ولدت قبل البعثة النبويّة بخمس سنوات، وقيل بعد البعثة بخمس سنوات، أمّا الذي عليه أكثر علماء مدرسة أهل البيت فهناك روايةٌ عن الإمام الباقر عليه السلام، تذهب إلى أنّ مولد فاطمة الزهراء عليها السلام إنّما كان في العام الخامس من بعثة النبيّ صلّى الله عليه وآله، أي: في عام (٦١٤ـ٦١٥م)، فيكون تمام عمرها حين استشهادها ـ بحسب الأخبار ـ هو ثمانية عشر عاماً وثلاثة أشهرٍ وخمسة عشر يوماً؛ فقد روى الكليني عن إبراهيم بن مهزيار عن أخيه عليّ بن مهزيار عن الحسن بن محبوب عن هشام بن سالم عن حبيب السجستاني قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «**وُلدت فاطمةُ بنتُ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله بعد مبعث رسول الله بخمس سنين، وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسةٌ وسبعون يوماً**»[1].

ولهذا الاسم المبارك خصائص وكراماتٌ ذُكرت في جملةٍ من أخبار الفريقين، فإنّ لاسمها الشريف دلالاتٍ كثيرةً تتعلّق بالمجال المعنوي، وبالشفاعة يوم القيامة[2]، وستمرّ علينا بعض الإشارات لذلك في طيّ البحث عن بنت الرسالة.

---

(١) أصول الكافي، للكليني: ج٢ ص٤٨٨ ح١٣٤٣.

(٢) من قبيل ما روي عن الإمام جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**إذا كان يوم القيامة... ينادي منادٍ: يا أهل الجمع غضّوا أبصاركم وطأطئوا رؤوسكم لتجوز فاطمة بنت محمّد... حتّى إذا صارت إلى باب الجنّة ألقى الله عزّ وجلّ في قلبها أن تلتفت. فيقال لها: ما التفاتك؟ فتقول: أي ربّ إنّي أحبّ أن تُريني قدري في هذا**

صفات فاطمة عليها السلام بلسان الغيب والنبوّة

للسيّدة فاطمة الزهراء أسماءٌ وألقابٌ كثيرةٌ اشتُقّت من صفاتها، فلم تكن ألقاباً ارتجاليّة، وقد أظهر الكثير منها رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم تكن ألقابها النبويّة وليدة العاطفة والانجذاب الأبويّ الفطريّ نحو الأبناء، وإنّما هو وليد الاتّصاف الذاتي والالتصاق المعنوي بمعاني تلك الأسماء والألقاب.

بعبارةٍ أخرى: إنّ جميع أسمائها وألقابها وكناها لا تخرج عن كونها وسائل تعبيريّةٍ عن مكنونها، ولن تبلغ مكنونها الواقعي، فإنّ كلّ مَن لم يبلغ مرتبة العصمة سيبقى عاجزاً عن معرفتها معرفةً تامّة، كما هو حال القرآن الكريم فلا يعرفه حقّ معرفته إلّا من خُوطب به، كما جاء في بعض الأخبار، وهم رسول الله

اليوم. فيقول الله: **ارجعي يا فاطمة، فانظري من أحبّك وأحبّ ذرّيتك، فخذي بيده وأدخليه الجنّة**». قال جعفر بن محمّد عليه السلام: «**فإنّها لتلتقط شيعتها ومحبّيها كما يلتقط الطير الحبّ الجيّد من بين الحبّ الرديء...**». [شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج٣ ص٦٢ ح٩٨٥]. وفي خبرٍ آخر: «**تدخل الجنة، ومعها الملائكة المشيّعون لها، وذرّيتها بين يديها، وأولياؤهم من الناس عن يمينها وشمالها**». [أمالي المفيد: ص١٣٠ ح٦؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص١٤٨ ح٤٨١١؛ صحيح الإسناد: ج٤ ص١٣٦ ح٤٧٨١، صحيحٌ على شرط الشيخين.

وفي خبرٍ آخر رواه الطبراني وآخرون عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنَّ فاطمة أحصنت ـ حصّنت ـ فرجها فحرّمها الله وذريّتها على النار**». [انظر: المعجم الكبير، الطبراني: ج٢٢ ص٤٠٧؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٤ ص١٣٥ ح٤٧٧٩؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٣٥٢ ح٢٣٠٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٤ ص١٧٤؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٣٥ ص٢٥١].

وفي الينابيع والذخائر: أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**إنَّ الله تعالى فطم ابنتي فاطمة وولدها ومَن أحبّهم عن النار، فلذلك سمّيت فاطمة**». [ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص١٢١ ح٣٥٣؛ ذخائر العقبى، محبّ الدين الطبري: ص٢٦].

وورثته في العلم والحكم، الأئمّة من أهل بيته عليه وعليهم السلام[1].

ولأنّنا لسنا بصدد تناول جميع أبعاد هذه الشخصيّة الفريدة والعظيمة، والتي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً قطّ، فإنّنا سوف نقتصر على توصيفاتٍ موجزةٍ، تاركين التفصيل في أبعاد هذه الشخصيّة وما تتضمّنه أسماؤها وألقابها وكُناها من أسرارٍ معرفيّةٍ ومعنويّةٍ إلى دراسةٍ كاملةٍ تُغطّي بالقدر الممكن الأبعاد المعرفيّة والعمليّة والمعنويّة لسيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام[2].

وسوف نطلق على مجموعة أسمائها وألقابها وكُناها عنوان الصفة؛ لأنّ الصفتيّة جامعةٌ لكلّ ذلك، كما سنقتصر على درج خمس عشرة صفةً من صفاتها التي تتجاوز هذا العدد بكثير، بين اسمٍ ولقبٍ وكنيةٍ، وأمّا ما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لفاطمة عليها السلام تسعة أسماء عند الله**

---

(١) «دخل قتادة بن دعامة ـ أحد علماء البصرة ـ على الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، فقال: **يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟** قال: هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر عليه السلام: **بلغني أنّك تفسّر القرآن؟** فقال له قتادة: نعم، ثمّ سأله الإمام عليه السلام عن بعض الآيات فأخطأ قتادة في تفسيرها، وذكر له الإمام عليه السلام المعنى الصحيح، فقال قتادة: لا جرم والله لا فسّرتها إلّا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: **ويحك يا قتادة إنّما يعرف القرآن مَن خوطب به**». [روضة الكافي، للكليني: ج١٥ ص٦٩٥ ح١٥٣٠٠].

وهنا يقول السيّد الخوئي: «إنَّ المراد من هذه الروايات وأمثالها أنَّ فهم القرآن حقّ فهمه، ومعرفة ظاهره وباطنه، وناسخه ومنسوخه مختصّ بمَن خوطب به... فهم المخصوصون بعلم القرآن على واقعه وحقيقته، وليس لغيرهم في ذلك نصيب». [البيان في تفسير القرآن، للسيد أبي القاسم الخوئي: ص٢٦٨]، ولكنّ الصحيح ـ كما يرى السيّد الأستاذ دام ظلّه ـ أنَّ لغيرهم نصيباً كبيراً فيه فيما إذا أخذوا حقائق القرآن عنهم عليهم السلام.

(٢) هنالك دراسةٌ تفصيليّةٌ وتحقيقيّةٌ تُعدّ، وقد تمّ الانتهاء من وضع هيكليّتها، يستعرض فيها السيّد الأستاذ دام ظلّه، المستويات الثلاثة في شخصيّة السيّدة الزهراء عليها السلام، المعرفيّة والعمليّة والمعنويّة ـ كما نبّه لذلك ـ سائلين المولى القدير أن يُتمّم له ذلك.

عزّ وجلّ: فاطمة، والصدّيقة، والمباركة، والطاهرة، والزكيّة، والراضية، والمرضيّة، والمحُدَّثة، والزهراء»[١]، فإمّا لأنّها من ناحية المفهوم تشمل الأسماء الأخرى، فتكون الأخرى مصاديق لبعضها، أو للعلّة الواردة في الحديث من كون هذه الأسماء هي من قبل الله تعالى، فقد ورد في خبر: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد أطلق عليها اسم «المنصورة» ثمّ أُخبر من قبل الله تعالى بأنّه قد سمّاها «فاطمة»[٢].

فاطمة الزهراء

بالرغم من كون اسم «فاطمة» هو الاسم العلم الذي عُرفت به السيّدة فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا أنّه يشتمل على صفاتٍ عديدةٍ قد نبّهت لها الروايات، وقد مضت منّا إشارةٌ لذلك، وسوف نختار شطراً منها، منها ما نبّه لها الإمام الصادق عليه السلام، فقد روي عن يونس بن ظبيان أنّه قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: «**أتدري أيّ شيءٍ تفسير فاطمة؟** قلت: أخبرني

---

(١) خصال الصدوق: ص٤١٣ ح٢، وص٤١٤ ح٣؛ أمالي الصدوق: ص٦٨٨ ح١٨.

(٢) روي عن مجالدٍ عن الشعبي عن ابن عبّاس قال: «لما وُلدت فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سمّاها المنصورة، فنزل جبرائيل، فقال: يا محمّد، الله يقرئك السلام، ويقرئ مولودك السلام، وهو يقول: **ما وُلد مولودٌ أحب إليّ منها، وأنّها قد لقّبها باسمٍ خيرٍ ممّا سمّيتها، سمّاها فاطمة؛ لأنّها تفطم شيعتها من النار**». [انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٢ ص٤٠٠، رقم: ٤٢٤٣؛ ج٣ ص٤٣٨، رقم: ٧٠٧٠؛ لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني: ج٣ ص٢٦٧، رقم: ١١٤٠؛ مقتل الإمام الحسين عليه السلام، لأبي مخنف الأزدي: ص٣٥].

وقد حاول الذهبي تكذيب هذا الحديث محتجّاً بأنَّ السيّدة الزهراء عليها السلام قد وُلدت قبل البعثة بخمس سنين أو نحوها، وقبل البعثة لا يوجد وحيٌ ولا نزولٌ لجبريل عليه السلام. ولكنّه احتجاجٌ لا يصمد أمام الأدلة المُرجّحة لولادتها عليها السلام بُعيد البعثة بخمس سنوات، ولعلّ الذي أثار حفيظة الذهبي، الأموي النشأة والهوى والولاء، هو ذيل الحديث فراح يطعن بالرواية عن طريق تقدّم الولادة على البعثة.

يا سيّدي، قال: **فُطِمت من الشرّ**. قال: ثمّ قال: **لولا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام تزوّجها لما كان لها كفؤٌ إلى يوم القيامة على وجه الأرض...**»[١]، وفي خبرٍ آخر ورد من أنّها فُطمت بالعلم[٢].

والظاهر من مجموعة الأخبار الواردة في سرّ تسميتها بفاطمة، من قبيل ما تقدّم من أنّها فُطمت عن الشرّ، وفُطمت بالعلم، وفُطمت هي وذريّتها وشيعتها من النار، وأيضاً فُطم الأعداء عن طمع الوراثة في تراث أبيها صلّى الله عليه وآله، ونحو ذلك من الأسباب، فإنّها تُشير إلى حقيقة طهارتها التامّة، بمعنى أنّها فطمت من كلّ نقصٍ وقصورٍ، فهي مصداقٌ واقعيّ للإنسان الكامل.

وأمّا صفة «الزهراء» فقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تكشف عن سرّ الاتصاف بذلك والتسمية. وبقطع النظر عنها، فإنّ صفة «الزهراء» مُشيرةٌ إلى نورانيّتها ظاهراً وباطناً، أمّا في الظاهر فإنّها لا تُري زوجها أمير المؤمنين عليهما السلام، حزناً أو كآبة يغتمّ لها، فإذا ما رآها كشفت عنه كلّ همّ وغمّ، وأمّا في الباطن فله موضعٌ آخر لعلّنا نوفّق لبيانه.

الصدّيقة الشهيدة

الصدّيقة عنوانٌ مشيرٌ إلى البراءة والطهارة والعصمة، وقد روى الكليني

---

(١) أمالي الصدوق: ص٦٨٨ ح١٨؛ خصال الصدوق: ص٤١٤ ح٣؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج٢ ص٩١.

(٢) روى الكليني عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**لما وُلدت فاطمة عليها السلام أوحى الله إلى ملكٍ فانطلق به لسان محمّدٍ صلّى الله عليه وآله فسمّاها فاطمة، ثمّ قال: إنّي فطمتك بالعلم وفطمتك من الطمث**»، ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: «**والله لقد فطمها الله بالعلم، وعن الطمث في الميثاق**». [الكافي، للكليني: ج٢ ص٤٩٦ ح١٢٤٩؛ مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلّي: ص١٧٢].

عن عليّ بن جعفر عن أخيه أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إنّ **فاطمة عليها السلام صدّيقةٌ شهيدةٌ**»[١]، بل هي على حدّ تعبير الإمام جعفر الصادق عليه السلام «**الصدّيقة الكبرى**»[٢].

والصدّيقة صيغة مبالغة، ولعلّ الأنسب في توجيه تسميتها عليها السلام بذلك هو كون عملها يصدِّق قولها، وباطنها يصدِّق ظاهرها الحسن، فهي عليها السلام صادقةٌ في أقوالها وأفعالها، ومُصدِّقةٌ أقوالها بأفعالها، هذا هو المعنى المُشير إلى عصمتها عليها السلام، وكونها معصومةً أمرٌ مقطوعٌ به في مدرسة أهل البيت ـ كقدر مُتيقَّن ـ فهي داخلةٌ في آية التطهير بإجماع الأمّة.

وأمّا كونها «شهيدةً» فإمّا للإشارة إلى ما أُلحق بها من أذىً في حادثة الدار قد أذهب بحياتها، فمضت شهيدةً مظلومةً، وإمّا لأنّها ستكون شاهدةً في يوم القيامة على أعمال قومٍ لم يرعوا حقّها وخصيص قرابتها من أبيها رسول الله صلّى الله عليه وآله.

المحدَّثة والمحدِّثة

المحدَّث بالفتح: بمعنى حديث الملائكة معه، وكذلك المحدَّثة، وهي صفةٌ قلّما اتّصفت بها امرأة، فالتحديث نوعٌ من الوحي، ولكنّه ليس من الوحي الاصطلاحي الخاصّ بالأنبياء عليهم السلام، وأمّا المحدِّثة بالكسر: فهي القائمة بالتحديث مع شخصٍ ما، وحيث إنّ هذه الصفة لا تمثّل كرامةً مخصوصةً بها، حتّى في صورة كونها ناقلةً لحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، فهنالك عدّة نسوةٍ محدِّثات، إلّا في ما يُروى عن السيّدة خديجة الكبرى عليها السلام من كونها كانت تشعر بأنّ الجنين الذي في بطنها ـ يوم كانت حاملاً بفاطمة ـ يحدّثها،

---

(١) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٤٥٨ ح٢.

(٢) أمالي الطوسي: ص٦٦٨ ح٦.

كما روى الشيخ الصدوق ذلك، فتلك كرامةٌ ثنائيّةٌ، للسيّدة خديجة وللسيّدة فاطمة معاً[١].

المباركة والكوثر

البركة: النماء والزيادة والكثرة في الخير، والمبارك: ما يأتي من قبله الخير الكثير، وبركة الله علوّه على كلّ شيء[٢]، وإنّما سمّيت ليلة القدر بالليلة المباركة لما فيها من الخير والسلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣)، وسُمّي القرآن الكريم بالمبارك لذلك؛ قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٢)، وفي حديث الصلاة على محمّد صلّى الله عليه وآله: **وبارك على محمّد وعلى آل محمّد**، بمعنى: زدهم قرباً وخيراً وشرفاً وكرامة، كما وُصف النبيّ عيسى بالمبارك لأنّه كثير النفع والخير للناس؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا

---

(١) عن المفضّل بن عمر، قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: كيف كان ولادة فاطمة عليها السلام؟ فقال: **نعم، إنّ خديجة عليها السلام لما تزوّج بها رسول الله صلّى الله عليه وآله هجرتها نسوة مكّة، فكنّ لا يدخلن عليها، ولا يسلّمن عليها، ولا يتركن امرأةً تدخل عليها، فاستوحشت خديجة عليها السلام لذلك، وكان جزعها وغمّها حذراً عليه صلّى الله عليه وآله. فلمّا حملت بفاطمة كانت عليها السلام تحدّثها من بطنها وتصبّرها، وكانت تكتم ذلك من رسول الله صلّى الله عليه وآله، فدخل رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة عليها السلام، فقال لها: يا خديجة، من تحدّثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنسني. قال: يا خديجة، هذا جبرئيل يخبرني أنّها أنثى، وأنّها النسلة الطاهرة الميمونة، وأنّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمّة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه**». [أمالي الصدوق: ص٦٩٠ ح١؛ روضة الواعظين، ابن الفتّال النيسابوري: ص١٤٣؛ العدد القويّة، ابن المطهّر الحلّي: ص٢٢٢؛ الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت: ٥٧٦هـ): ج٢ ص٥٢٤].

(٢) انظر: لسان العرب: ج١٠ ص٣٩٥.

كُنْتُ﴾ (مريم: ٣١)، وقد وُصف المطر بالمبارك لكثرة الخير والنفع فيه؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩).

وعليه فالإنسان المبارك هو ما له تلك الأوصاف المتقدّمة، من الخير الوفير، والنفع الكثير، والشرف العظيم، والكرامة والسماحة، فهو ذو بركةٍ في كلّ شيء، في العلم والعمل، وفي الكمال والسموّ، وفي الفضل والعطاء، وهذه هي فاطمة بنت محمّدٍ صلوات الله عليهما. ومن خصائص هذه الصفة الكريمة: البركة في ذريّتها، فما عرف الدهر ذريّةً أصلح وأعظم وأجلّ وأكثر من ذريّتها المباركة.

وأمّا الكوثر: فهي صفةٌ موافقةٌ ومنسجمةٌ تماماً مع صفة المباركة، حتّى تكاد أن تكون مرادفةً لها، وقد تجلّت بركتها بشكلٍ استثنائيّ في ذرّيتها الطاهرة، فقد جمعوا الخير والوفرة والكثرة والصلاح والإصلاح، وهم باقون ما بقي الدهر.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: ١). «والقول الثالث: الكوثر: أولاده، قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد؛ فالمعنى: أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرِّ الزمان، فانظر كم قُتل من أهل البيت، ثمّ العالم ممتلئٌ منهم، ولم يبقَ من بني أميّة في الدنيا أحدٌ يُعبأ به، ثمّ انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكيّة وأمثالهم»[1]، ومن الواضح بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن له نسلٌ إلّا من السيّدة الزهراء عليها السلام، فهي بحقٍّ كوثر القرآن، وهي كوثر رسول الله صلّى الله عليه وآله، بل هي كوثر الإسلام بأسره.

وفي ذلك إعجازٌ قرآنيّ، حيث أخبر القرآن بكثرة نسل الرسول صلّى الله عليه وآله وحيث إنّه لم تُخلّف عليه غير السيّدة فاطمة عليها السلام من سائر بناته

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، للإمام فخر الدين الرازي: ج٣١ ص١١٥.

صلّى الله عليه وآله فإنّه يكون الإعجاز أشدّ، وقد التفت الفخر الرازي إلى هذا في ثبوت الإعجاز بقوله: «القول الرابع عشر: أنّ المراد من الكوثر: هو هذه السورة... وذلك لأنّها مع قصرها وافيةٌ بجميع منافع الدنيا والآخرة، وذلك لأنّها مشتملةٌ على المعجز من وجوهٍ، أوّلها: أنّا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع، أو على كثرة الأولاد وعدم انقطاع النسل، كان هذا إخباراً عن الغيب، وقد وقع مطابقاً له، فكان معجزاً...»[١].

ولا يخفى: أنّ هذه الكوثريّة المتمثّلة بالسيّدة الزهراء عليها السلام هي الردّ العملي لتهمة الشانئين له بانتفاء ذريّته صلّى الله عليه وآله، كما أنّها هي الردّ العملي للنافين أن تكون ذرّيّته صلّى الله عليه وآله من البنت، وهذا ما التفت له العلّامة الآلوسي بقوله: «الأبتر: الذي لا عقب له، حيث لا يبقى منه نسلٌ ولا حسن ذكر، وأمّا أنت فتبقى ذرّيتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة... وفيها عليه دلالةٌ على أنّ أولاد البنات من الذرّيّة»[٢]، وهذا ما أكّده السيّد العلّامة الطباطبائي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣)، حيث يقول: «والجملة لا تخلو من دلالةٍ على أنّ ولد فاطمة عليها السلام ذرّيّته صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم، فقد كثّر الله تعالى نسله بعده كثرةً لا يعادلهم فيها أيّ نسلٍ آخر، مع ما نزل عليهم من النوائب، وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعة»[٣].

فتكون البركة الحقيقيّة في حفظ ذرّيّة الرسول صلّى الله عليه وآله إنّما بواسطة السيّدة المباركة والكوثر فاطمة عليها السلام، وفي صورة كون الكوثر هي

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، للإمام فخر الدين الرازي: ج٣١ ص١١٥.

(٢) روح المعاني، الآلوسي: ج٣٠ ص٦٦٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج٢٠ ص٣٧١.

السيّدة الزهراء عليها السلام فإنّها لم تنحصر كوثريّتها في حفظ ذرّيّة الرسول صلّى الله عليه وآله وكثرتها، فما ذلك إلّا مصداقٌ بارزٌ لكوثريّة الزهراء عليها السلام[١]، فخيرها أعمّ من ذلك وأشمل، ومن كوثريّتها: أنّها عليها السلام كانت نبراساً في حفظ النبوّة والإمامة، أمّا حفظ النبوّة فبسابقتها الجهاديّة في حياة الرسول صلّى الله عليه وآله، وكونها بقيّة الرسول من بعده وتذكاره الحسّي الذي كان يُلهم المسلمين ويمنحهم قوّة، وأمّا في حفظ الإمامة فلم ينحصر في امتداد الإمامة إلى ذرّيّتها الطاهرة عليهم السلام[٢]، وإنّما تجلّى في حفظ التدابير النبويّة،

---

(١) لا ريب بأنَّ ذرّيّة الرسول صلّى الله عليه وآله لم تُحفظ إلّا عن طريق أمير المؤمنين علي عليه والسيّدة فاطمة الزهراء عليه السلام، فهي الكوثر، وقد جاءت في ذلك أخبارٌ كثيرةٌ من الفريقين معاً، منها: عن عبد الله بن العبّاس قال: «كنت أنا وأبي العبّاس بن عبد المطّلب جالسين عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم إذ دخل عليّ بن أبي طالب، فسلَّم فردَّ عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم، وبشَّ به، وقام إليه واعتنقه، وقبَّل بين عينيه وأجلسه عن يمينه، فقال العبّاس: يا رسول الله أتحبّ هذا؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم: **يا عمَّ رسول الله واللهُ أشدُّ حبّاً له منّي. إنّ الله جعل ذرّيّة كلّ نبيٍّ في صلبه وجعل ذرّيّتي في صلب عليّ**». [المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص٤٣ ح٢٦٣٠؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٢٦٢ ح١٧١٧؛ كشف الخفاء، العجلوني: ج٢ ص١٢٠؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج١ ص٣٣٣، رقم: ٢٠٦؛ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ج٤٢ ص٢٥٩]، ولكنَّ هذا الانحصار لا يعني انحصار الكوثريّة بالذرّية الطاهرة، وإنّما هي أوسع وأشمل من ذلك، كما سيوضّح ذلك السيّد الأستاذ دام ظلّه.

(٢) خلافاً لما ذهب إليه معظم أعلام مفسِّري الشيعة، حيث حصروا الكوثريّة بكثرة الذرّية منها عليها السلام، مع أنَّ ذلك هو المصداق الأبرز، كما يرى السيّد الأستاذ دام ظلّه، ولعلّ السيّد العلّامة الطباطبائي يميل إلى هذا الانحصار، تبعاً لمشهور مفسّري علماء الشيعة، حيث يقول: «إنَّ كثرة ذرّيته صلّى الله عليه وآله وسلّم هي المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، أو المراد بها الخير الكثير، وكثرة الذرّية مرادةٌ

وهذا ما ينبغي تسليط الضوء عليه كثيراً، فإنّ دورها العظيم في حفظ التدابير النبويّة وسلب الشرعيّة عن الطامحين من خلال مواقفها العظيمة وفي خطبها البليغة لهو من أعظم أدوارها في مجموع حياتها الشريفة، وقد ترك اعتراضها على مغتصبي الخلافة أثراً عظيماً عليهم وعلى الأمّة، وكاد ذلك الاعتراض عليهم، والانزواء عنهم ـ حتّى مضت إلى ربّها شهيدةً وشاهدةً على ما جرى، ساخطةً عليهم، جافيةً لهم، داعيةً عليهم ـ أن يذهب بسلطانهم، وكاد القوم أن يستجيبوا لواقع الحال الذي فرضته عليها السلام بعدم شرعيّتهم، ولعلّ الخليفة الأوّل قدَّم خطوةً للتغيير، ولكنّ الآخرين عجّلوا بوأد ذلك، فعجّلوا بتلك الفاجعة المسمّاة بحادثة الدار، ولو قُدِّر لها البقاء أكثر من ذلك لشهدت المدينة انتفاضةً شعبيّةً في صدر الإسلام.

الزكيّة الطاهرة

الزكيّ: يعني الشيء النامي، ومنه: الزكاة، وهي بمعنى: الطهارة والتطهير أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)، أي: ظفر من طهّر نفسه من الأخلاق الذميمة، والنفس الزاكية والزكيّة: هي النفس التي لم تذنب[١]، وبذلك تكون صفة الزكيّة أقرب للترادف مع صفة الطاهرة من ناحية السلامة النفسيّة، غير أنّ الزكيّة أعمّ مورداً، فهي تعنى النموّ والزيادة والتكامل

في ضمن الخير الكثير، ولولا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣) خالياً عن الفائدة». [الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج٢٠ ص٣٧٠]، ومن الواضح أنَّ نكتة حفظ التدابير النبويّة من قبل السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام وربطها بمعنى الكوثريّة لم تكن لها سابقةٌ ـ في حدود اطّلاعي ـ على ما ذكره السيّد الأستاذ دام ظلّه، في هذه الدراسة.

(١) انظر: مجمع البحرين: ج٢ ص٢٨١.

بمعيّة الطهارة النفسيّة والقلبيّة، وبالتالي يمكن القول بأنّ الزكيّة هي الطاهرة القلب والنامية في الخير والكمال، وأمّا الطاهرة فتعني الخلوّ من الذنب أو العيب، وفي هذا دلالةٌ على العصمة، ومنها استفيد معنى العصمة في آية التطهير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وهي الآية التي نزلت في بيت فاطمة عليها السلام ـ وقيل في بيت أمّ سلمة ـ بعد أن جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله معه عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً تحت كساءٍ يمانيّ؛ فعن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام، عن أمّ سلمة: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله دعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وجاء جبريل عليه السلام فمدّ عليهم كساءً فدكيّاً، ثمّ قال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي، اللّهُمَّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً**. قال جبريل: وأنا منكم يا محمّد. فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **وأنت منّا جبريل**. قالت أمّ سلمة: فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك، وجئت لأدخل معهم. فقال: **كوني مكانك يا أمّ سلمة، إنّك إلى خير، أنت من أزواج نبيّ الله**. فقال جبريل: اقرأ يا محمّد: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣)[1]، أي: في النبيّ صلّى الله عليه وآله وفي عليّ وفاطمة والحسن

---

(١) انظر: أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٢٨٦ ح١؛ أمالي الطوسي: ص٣٦٨ ح٣٤؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٦ ص٣٠٤؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٦٠ ح٣٩٦٣؛ صحيح مسلم: ح٦١٥٥؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص٤٣ ح٢٦٣٠، وص٥٥ ح٢٦٦٩؛ ج٢٢ ص٦٥؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٢٦٢ ح١٧١٧؛ شواهد التنزيل، الحسكاني: ج٢ ص٣٧؛ تفسير القرطبي: ج١٤ ص١٨٣؛ تفسير ابن كثير: ج٣ ص٤٩٢؛ الدرّ المنثور، السيوطي: ج٥ ص١٩٨؛ تاريخ بغداد: ج١ ص٣٣٣ ح٢٠٦؛ ج١٠ ص٢٧٧؛ أُسد الغابة، ابن الأثير: ج٤ ص٢٩؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٢٥٤، وص٢٨٣؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر: ج٢ ص٢٥٨.

والحسين عليهم السلام.

وقد وردت أخبارٌ صريحةٌ في معنى طهارتها، لا يسع المقام بالوقوف عندها.

والخلاصة ممَّا تقدَّم: أنّ فاطمة عليها السلام هي الوجود النامي بالخير، والطاهر من كلّ رجس، وهي المرأة الوحيدة ـ وفقاً للمنطق القرآني ـ المشمولة بآية التطهير، فهي الطاهرة التي أذهب الله تعالى عنها الرجس وطهّرها تطهيراً، ولأجل هذا المعنى القرآني الصادق عليها فإنّها لم تكن تغضب إلّا لله تعالى، ولم تكن ترضى إلّا لله تعالى، ولذلك كلّه قرن الله تعالى رضاه برضاها وسخطه بسخطها، كما جاء ذلك في الأخبار الصحيحة الصريحة.

فعن عليّ بن الحسين، عن الحسين بن عليّ عن عليٍّ عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لفاطمة: «**إنّ الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك**»[1]، وفي خبرٍ آخر: «**إنّ فاطمة بضعةٌ منّي، مَن أغضبها أغضبني**»[2]، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يمرّ ببيت فاطمة ستّة أشهرٍ إذا خرج إلى صلاة الصبح ويقول الصلاة: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣)[3].

---

(١) انظر: تهذيب الكمال، المزي: ج٣٥ ص٢٥٠؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج١٢ ص٣٩٢؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٢٦٥؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٦ ص٤٦ ح ١٦١٢٣ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٧ ص١٤٨٦ ح٣٥٣٤؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ج٤ ص١٣٧ ح٤٧٨٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري: ج٤ ص٢١٠؛ صحيح مسلم: ج٧ ص١٤١؛ سنن الترمذي: ج٥ ص٣٦٠ ح٣٩٦١؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٩٧ ح٨٣٧٠؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٧٨.

(٣) انظر: تهذيب الكمال، المزي: ج٣٥ ص٢٥٠؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج١٢ ص٣٩٢؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٢٦٥.

إنّ هاتين الصفتين وما ناسبهما من الأخبار الآنفة الذكر تشتمل على دلالةٍ مهمّةٍ تتعلَّق بموضوع التدابير النبويّة، فرضا فاطمة عليها السلام وسخطها صارا مقياساً للقبول والرفض، وإذا ما راجعنا السيرة فيما يتعلّق ببيعة الطامحين واستقراء ردود فعلها تجاه ذلك، فقد وقفت مندّدةً بالحزب الحاكم، مظهرةً رفضها للتعدّي الصارخ على حقوق الإمام عليّ عليه السلام الشرعيّة في الخلافة، ثمّ تلا ذلك مواقف عدّةٌ تتعلّق بكشفها عن مخالفة القوم للدستور القرآني في إرثها حتّى ذهبت لربّها وهي ساخطةٌ عليهم[1]، وقد أوصت أن تُدفَن ليلاً فلا يحضر تشييعها القوم[2]، وهذه الوصيّة تعبيرٌ صريحٌ عن سخطها عليهم، كما أنّ خفاء قبرها بقي شاهداً تاريخيّاً على مظلوميّتها وحنقها على القوم الذين أبغضوها.

إذن فالرسول صلّى الله عليه وآله قد فتح نوافذ جديدةً للتدابير في حفظ الخلافة الشرعيّة عن طريق فاطمة عليها السلام، فلا يمكن أن تكون الخلافة شرعيّةً لأحدٍ من الصحابة وفاطمة عليها السلام غاضبةٌ وساخطةٌ عليه، فإنّ الله تعالى ورسوله يرضيان لرضاها ويسخطان لسخطها، وقد كان أبو بكر يدرك جيّداً واقعيّة هذا الرضا والسخط المرتبطين برضا فاطمة وسخطها، ولكنّه مضى

---

(١) انظر: صحيح البخاري: ج٤ ص٤٢، وص٢١٠؛ مسند الإمام أحمد، الطبعة القديمة: ج١ ص٦؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٨ ص٢٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٥ ص٣٠٦؛ السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٤ ص٥٦٧؛ ومصادر أخرى.

(٢) انظر: كتاب الغيبة، النعماني: ص٤٧؛ إقبال الأعمال، ابن طاووس: ج٣ ص١٦٣؛ صحيح مسلم: ج٥ ص١٥٤؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٦٣؛ إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري، القسطلاني: ج٦ ص٣٦٢؛ الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٣٧٨، وص٣٨٠؛ تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة: ص٢٧٩؛ صحيح ابن حبّان: ج١٤ ص٥٧٣؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٦ ص٢٨١؛ أُسد الغابة، لابن الأثير: ج٥ ص٥٢٤.

في طريق سخطها، ولم يتذكّر عاقبة ذلك إلّا عند حلول موته فتمنّى أن لو لم يكشف عن بيت فاطمة عليها السلام وما آل إليه الأمر[١].

وهنا تلفت أنظارنا شجاعة ابن أبي الحديد؛ حيث وضع النقاط على الحروف بقوله: «وقال أبو بكر في مرضه الذي مات فيه: (وددت أنّي لم أكشف بيت فاطمة، ولو كان أغلق على حرب)، فندم والندم لا يكون إلّا عن ذنب»[٢].

الراضية المرضيّة

وهي الراضية بقضاء الله تعالى وقدره، فيما جرى على أمّها من عذابات نشر الدعوة الإسلاميّة، والعزلة والموت في غربة شعب أبي طالب، وكيف كانت تواسي ببراءتها بعض المؤمنين، وما جرى على أبيها صلّى الله عليه وآله الذي ما أُوذي نبيّ كما أُوذي صلّى الله عليه وآله، وما جرى عليها من زوجها أمير المؤمنين عليه السلام من سلب الحقّ الشرعي وتعدّيات وتصغير شأن، وعليها نفسها من عذاباتٍ بدأت من شعب أبي طالب وهي لم تبلغ الخامسة من عمرها الشريف، ومروراً بنشر الدعوة الإسلاميّة وتحمّل أعبائها منذ أن كانت طفلةً وإلى أن حلّت محلّ أمّها لتكون أمّاً لأبيها، وإلى حادثة الدار والتهديد بحرقها وإن كانت هي فيها! ففجعوها بطفلها السقط المسمّى بالمحسن[٣]، وبنفسها الشريفة.

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج٣٠ ص٤٢٠؛ ميزان الاعتدال: ج٣ ص١٠٩؛ لسان الميزان: ج٤ ص١٨٩؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٦١٩؛ ومصادر أخرى.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠ ص٢٤.

(٣) المحسن هو الولد الثالث لأمير المؤمنين علي عليه السلام من السيّدة الزهراء عليها السلام، أُسقط قبل موعد ولادته بعد حادثة الدار، وتهديد القوم لبيت النبوّة بالحرق، ولم تعش عليها السلام بعد حادثة الدار أكثر من ثلاثة أيّام، فكانت أوّل الملتحقين بركب النبيّ صلّى الله عليه وآله كما أخبرها بذلك من قبل. [مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢ ص١٥٩ ح٧٦٩، وص٢٦٤ ح٩٥٣؛ المستدرك على الصحيحين: ج٤

وأخيراً بما سمعته من أبيها صلّى الله عليه وآله بما سيجري على ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، ومن السبي لابنتها زينب عليها السلام، وما سيجري على ذرّيّتها من تعذيبٍ وتشريدٍ وتقتيلٍ، فرضيت بتقديم هذه القرابين تترى، فما من ذريّتها الطاهرة إلّا مسمومٌ أو مقتولٌ[1].

هذه هي الراضية، وأمّا المرضيّة فلوجوهٍ عدّةٍ، منها:

أوّلاً: هي مرضيّةٌ عند الله تعالى، فهي صاحبة المقام الرفيع.

ثانياً: هي التي قرن الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله رضاهما برضاها.

ثالثاً: هي مرضيّةٌ بجعل الوليّ الأعظم وقائد دولة العدل الإلهي من ولدها، وهو الإمام المهديّ المنتظر عليه السلام[2].

رابعاً: هي مرضيّةٌ بالانتقام لها ولما جرى عليها وعلى أمّها عليها السلام وعلى أبيها صلّى الله عليه وآله وعلى زوجها عليه السلام وولديها الحسن والحسين عليهما السلام خصوصاً، وعلى بقيّة ذريّتها الطاهرة وسائر أبنائها على مرّ الدهور، من تقتيلٍ وتشريدٍ وتجويعٍ، وسبيٍ ونفيٍ، وغير ذلك ممّا تفنّن فيه أعداء أهل البيت، ولم يدّخروا جهداً، حتّى كان لو أمرهم الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله بظلم أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وباضطهادهم وتقتيلهم لما فعلوا أكثر ممّا فعلوا.

ص١٥٤ ح٤٨٢٦].

(١) روي عن الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه قال عندما دُسّ إليه السمّ: «**ما منّا إلّا مقتولٌ أو مسمومٌ**»، وفي خبرٍ آخر عن أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي أنّه قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «**والله ما منّا إلّا مقتولٌ شهيدٌ...**». [انظر: من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ج٢ ص٥٨٥ ح٣١٩٢؛ أمالي الصدوق: ص١٢٠ ح٨؛ كفاية الأثر، الخزاز القمّي: ص١٦٢؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج٣ ص٢٢٧].

(٢) نظراً لكون إجماع الأمّة الإسلاميّة قائماً على كون الإمام المهديّ عليه السلام هو من ولد فاطمة الزهراء عليها السلام، فلم نحتج إلى تخريج مصادر الحديث القائل بذلك.

إنّ هاتين الصفتين الجليلتين، الراضية والمرضيّة تحقّقتا في السيّدة الزهراء على أكمل وجه، وكأنّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (الفجر: ٢٧ـ ٢٨) قد نزل فيها، فهي الراضية المرضيّة، كما أنّ هاتين الصفتين شديدتا الارتباط بالصفتين السابقتين (الزكيّة الطاهرة)، وبالتالي فكل ما ترتّب آنفاً من الصلة بالتدابير النبويّة يترتّب هنا، بل وبصورةٍ آكد وأشدّ لاسيّما في البعد الأخروي؛ فإنّ تحصيل رضاها مقرونٌ بالانتقام من ظالميها وبردّ الحقوق إليها، وحقوقها كثيرةٌ وعظيمةٌ، ولو عاش ظالموها الدهر كلّه ما ردّوا لها شطراً من حقوقها المسلوبة، بل لا تفي بزفرةٍ من زفراتها، وآهةٍ من آهاتها.

البتول

ذكر ابن منظور: أنّه سئل أحمد بن يحيى عن فاطمة عليها السلام: لم قيل لها: البتول؟ قال: لانقطاعها عن نساء أهل زمانها ونساء الأمّة عفافاً وفضلاً وديناً وحسباً. وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله عزّ وجلّ. وامرأة مبتّلة الخلق، أي: منقطعة الخلق عن النساء، لها عليهنّ فضل»[١]، وقال الطريحي مثل ذلك[٢].

وقال ابن حجر: «قيل لفاطمة: البتول؛ إمّا لانقطاعها عن الأزواج غير عليّ، أو لانقطاعها عن نظرائها في الحسن والشرف»[٣]، وقال ابن الأثير: «وسمّيت فاطمة: البتول؛ لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً وديناً وحسباً، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى»[٤].

وهذا كلّه يؤكّد انقطاعها إلى الله تعالى وعدم رغبتها بالدنيا، وقد سجّلت

---

(١) انظر: لسان العرب: ج١١ ص٤٣.

(٢) انظر: مجمع البحرين: ج١ ص١٥٢، مادّة «بتل».

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٩ ص٩٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج١ ص٩٥.

السيّدة فاطمة البتول هذا التبتّل والانقطاع إلى الله تعالى قولاً وعملاً، ولذلك فهي في جميع مواجهاتها مع مغتصبي الخلافة وخطبها في محضرهم وتنديدها بما جرى، ما كانت تطلب حقّاً دنيويّاً لزوجٍ استضعفوه وكادوا أن يقتلوه[١]، وإنّما هي تعمل بذلك طاعةً لربّها في تنفيذ وصايا رسول الله صلّى الله وآله، وتطبيق ما جاء عنه صلّى الله عليه وآله من تدابير لحفظ الخلافة الشرعيّة، وكانت عليها السلام تعي بقوّةٍ دورها وحضورها في تلك التدابير، ولم تدّخر جهداً، وقدّمت نفسها قرباناً لتحقيق الأهداف الإلهيّة والنبويّة في الذود عن الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، فهي كما قيل في حقّها: شهيدة الولاية.

أمّ أبيها

كُنّيت بذلك مذ كانت طفلةً في مكّة، وعلى الأرجح بعد وفاة السيّدة خديجة رضوان الله عليها، حيث كانت عليها السلام تمنحه صلّى الله عليه وآله عاطفةً وحناناً وكأنّها أمّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فسمّاها لذلك، فهي كنيةٌ مستنبطةٌ من سلوكها الأمومي المُبكِّر تجاه أبيها المصطفى صلّى الله عليه وآله، ولأنّها أمّ أبيها فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يفتديها بنفسه الشريفة، فيقول لها وفي أكثر من مناسبة: «**فداكِ أبوكِ**»[٢].

ولمّا تزوّجت وولدت سبطي الرسول صلّى الله عليه وآله كُنّيت بأمّ الحسن، وبأمّ الحسين، وبأمّ الأئمّة، وقد كُنّيت فيما بعد بأمّ المحسن[٣].

---

(١) إشارة إلى قول هارون النبيّ لأخيه نبيّ الله موسى عليهما السلام ممّا جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي...﴾ (الأعراف: ١٥٠).

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ج١٠ ص٤٧٠؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج٢ ص١٤٧؛ كفاية الأثر، الخزاز القمّي: ص٣٦؛ الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي: ص٢٢١ ح١٩٥.

(٣) انظر: فتح الباري: ج١٠ ص٤٧٠؛ كشف الغمّة: ج١ ص٣٧٨.

جديرٌ بالذكر: أنّ لكنيتها (أمّ أبيها) أسراراً عميقةً، لعلّ واحداً منها ما يرتبط بما ورد في بعض الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وآله من أنّه كان يقول للإمام عليّ عليه السلام: «**أنا وأنت أبوا هذه الأمّة**»[1]، والأبوّة ليست بالنسب، وإنّما بالإيمان والعلم والمعرفة والكمال، وهي عليها السلام أمّ أبيها، أي: هي أمّ أبي هذه الأمّة، فهي بالتبع الأمّ الحقيقيّة لهذه الأمّة، أو قل: هي بحقٍّ أمّ المؤمنين، ولهذه الأمومة الكماليّة معانٍ وصورٌ أعمق من ذلك، يتوقّف عرضها على مقدّماتٍ كثيرةٍ تتعلّق بالفلسفة والعرفان لا يسع المجال ذكرها، وإنّما نرجئها لدراستنا المستقلّة الخاصّة بالسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

سيّدة نساء العالمين

وبهذه الصفة حقّقت امتيازها الأكبر على سائر النسوة في الخلق أجمعين، فهي سيّدة نساء الدنيا ونساء الآخرة، وما ذلك إلّا لعلمها وفضلها وكمالها وعصمتها الكبرى، وقد أطلَق عليها هذه التسمية المباركة رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله لها عليها السلام: «**أي بنيّة، أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء العالمين**»[2]،

---

(١) أمالي الصدوق: ص٦٥ ح٦، وص٧٥٤ ح١٠١٥؛ اختيار معرفة الرجال، للطوسي: ج١ ص٢٣٣؛ ينابيع المودّة، القندوزي: ج١ ص٣٧٠: ح٤؛ روح المعاني، الآلوسي: ج٢٢ ص٢٨٧؛ بصائر ذوي التمييز في لطاف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي الشافعي: ج٢ ص١١٣؛ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٤ مادّة «الأب»؛ مرآة المقاصد في دفع المفاسد، أحمد رفعت أفندي الحنفي: ص٢٢؛ المخصّص، ابن سيده الأندلسي: ج١٣ ص١٧٣؛ الغارات، إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي: ج٢ ص٧٤٥.

وفي خبرٍ آخر: «**أنت المجتبى للإمامة، وأنا صاحب التنزيل، وأنت صاحب التأويل، وأنا وأنت أبوا هذه الأمّة**». [انظر: المصادر الثلاثة الأولى].

(٢) انظر: مسند أبي داود الطيالسي: ص١٩٧؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٤ ص١٨٢٢، رقم: ٣٣١١، ترجمة خديجة بنت خويلد؛ أُسد الغابة، ابن الأثير الجزري: ج٦ ص٢٢٣،

وفي خبر آخر: «**أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء أهل الجنّة**»[١]، أو «**سيّدة نساء المؤمنين**»، أو «**سيّدة نساء هذه الأمّة**»[٢].

وهنالك أسماءٌ وكُنى وصفاتٌ أخرى للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، منها: «بضعة النبيّ»، و«نور عيني النبيّ»، و«ثمرة فؤاد النبيّ»، و«روح النبيّ التي بين جنبيه»، و«الحوراء الإنسيّة» ، و«السيّدة الحرّة»، و«المنصورة»، و«الممتحنة»، وغير ذلك من الأسماء التي سنقف عندها في دراسةٍ أخرى[٣].

وحيث إنّها سيّدة نساء العالمين أو المؤمنين أو أهل الجنّة، فذلك يكشف عن مقامها المعرفي، وإلَّا فإنّها لم تكن كذلك لمجرّد كونها بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله، وما يوازي سيادتها على نساء العالمين من الوجاهة والقبول بأقوالها

رقم: ٧١٧٥، ترجمة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الإصابة، ابن حجر: ج٨ ص١٠٢، رقم: ١١٠٩٢، ترجمة أم المؤمنين خديجة؛ فتح الباري، ابن حجر: ج٨ ص٤٧٤؛ فضائل سيّدة النساء: ص٢٥؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص٢٤٨؛ ج٨ ص٢٧؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص١٣٤؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص١٢٦ ص١٣٠؛ ذخائر العقبى، محبّ الدين الطبري: ص٤٣.

(١) صحيح البخاري: ح٣٦٢٤.

(٢) انظر: أمالي الطوسي: ص٢٤٨ ح٤٣٦، وص٣٣٣ ح٦٦٩، وص٦٣٣ ح١٣٠٥؛ صحيح البخاري: ج٤ ص١٨٣؛ صحيح مسلم: ج٧ ص١٤٣؛ مسند ابن راهويه: ج٥ ص٧؛ الآحاد والمثاني، لأحمد بن أبي عاصم الضحّاك: ج٥ ص٣٦٧؛ صحيح البخاري: ح٦٢٨٦؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٤٦ ح٨٥١٦؛ مسند أبي يعلي: ج١٢ ص١١٢؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٢٢ ص٤١٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٣ ص١٥٥؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٣٦٥.

(٣) وردت هذه الأسماء في نصوصٍ روائيّةٍ، كقوله صلّى الله عليه وآله: «**وأمّا ابنتي فاطمة فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين، وهي بضعةٌ منّي، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسيّة...**» [أمالي الصدوق: ص١٧٥ ح١٧٨].

والاقتداء بأفعالها بها لا حاجة له إلى بيان، وبالتالي فما أبدته السيّدة الزهراء عليها السلام من مواقف واضحةٍ وصريحةٍ في الدفاع عن الإمامة والخلافة، وكشف هويّة المغتصبين للخلافة، والالتزام التامّ بمقتضيات التدابير النبويّة، لجديرٌ بمتابعته والاقتداء به، فهي بذلك تقدّم درساً عمليّاً بلزوم الدفاع عن الخلافة الشرعيّة المتمثّلة بالإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كما أنّها تقدّم درساً عمليّاً في ضرب أروع أمثلة الوفاء للنبيّ صلّى الله عليه وآله في الدفاع عن تدابيره الإلهيّة في حفظ الخلافة الشرعيّة.

من صفات فاطمة عليها السلام بلسان الإمامة

وردت عدّة صفاتٍ خاصّةٍ بالسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام على لسان أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ابتداءً من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وانتهاءً بالإمام المهديّ عليه السلام، ومن ذلك:

بنت الصفوة وبقيّة النبوّة

كان معظم ما اتّصفت به السيّدة الزهراء عليها السلام ـ فيما تقدّم ـ على لسان النبيّ صلّى عليه وآله، أو مستمدّاً من سلوكها، فهي صفاتٌ انتزاعيّةٌ وليست ارتجاليّة، وفي قبال هذه الصفات توجد صفاتٌ أخرى جاءت على لسان أئمّة أهل البيت عليهم السلام، سوف نقف على صفةٍ واحدةٍ منها، وهي قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فيها: «**يا بنت الصفوة، وبقيّة النبوّة**»(١)، وهي صفةٌ تحمل دلالاتٍ كثيرةً ولها صلةٌ وثيقةٌ بموضوع التدابير النبويّة، فإنّ بقيّة النبوّة فيها إشعارٌ بكونها بقيّة التدابير النبويّة، أو قل بأنّها صاحبة الدور الأكبر في إحياء التدابير والعمل بمقتضاها، ولذلك فإنّ التعبير لم يكن «بقيّة النبيّ» وإنّما «بقيّة النبوّة»، أي: هي

---

(١) انظر: أمالي الطوسي: ص٦٨٣ ح١٤٥٥.

بقيّة الوظيفة النبويّة في البلوغ بالمشروع الرسالي إلى برّ الأمان، وذلك من خلال تمسّكها بالخليفة الحقّ والخليفة الشرعي المتمثّل بالإمام عليّ بن أبي طالب لا غير.

فاطمة عليها السلام ودورها من البعثة إلى الرحلة

بالرغم من كون السيّدة الزهراء عليها السلام قامت بأدوارٍ كثيرةٍ وعظيمةٍ، كلّها تصبّ في حفظ الرسالة وإعلاء كلمة «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله»، والذي أخذ جُلّ وقتها، قبل وبعد زواجها بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، إلّا أنّ دورها الأخير في حفظ الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة على قصر عمره الزمني كان بليغاً وعميقاً، وقد سجّل حضوراً مُدوِّياً. وإذا كان الإمام الحسين عليه السلام قد محق بدمه الطاهر مشروع بني أميّة في القضاء الكامل على الإسلام، وبناء دولةٍ أمويّةٍ جاهليّةٍ قويّةٍ تمتدّ لأكثر من ألف عام، فكان سبباً واقعيّاً في حفظ الخطّ النبويّ الرسالي الخالد ولو في ثلّةٍ قليلةٍ من الأمّة، فإنّ فاطمة الزهراء عليها السلام قد محقت بجهادها ودمها وجنينها مشروع الحزب الحاكم الذي كان يسير باتّجاه تذويب الخطّ الرسالي المتمثّل بالإمام عليّ عليه السلام شيئاً فشيئاً، فأربكتهم، وجعلت أصابع الاتّهام تتوجّه إليهم، فقد كان أغلب الصحابة وعموم المسلمين يميلون إلى السيّدة الزهراء عليها السلام ويهابونها، ويسعون لرضاها، بل ويقدّمون رضاها على رضاهم، وهذا ما نتلمّسه في عدم إشاحة الناس وجوهها عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في حياتها عليها السلام بعد رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقد روى البخاري ومسلم وابن كثير وغيرهم أنّ السيّدة فاطمة قد عاشت بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ستّة أشهر، فلمّا تُوفيت دفنها زوجها الإمام عليّ عليه السلام ليلاً، ولم يؤذِن بها أبا بكر، وصلّى عليها عليّ عليه السلام، وكان لعليّ عليه السلام من الناس وجهٌ حياة فاطمة عليها السلام، فلما توفّيت استنكر على وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر،

فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأتنا أحدٌ معك؛ كراهيةً لمحضر عمر[١].

ولذلك كانت عليها السلام تدرك بوعيها مكانتها عند المسلمين وقوّة تأثيرها، حتّى أنّها كانت عليها السلام تُجنّد جميع خواصّها العلميّة والبلاغيّة والخلقيّة، فتمشي كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله، فتذكّرهم برسول الله وتثير مشاعرهم تجاه المصاب الجلل، والفقد العظيم لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فيزداد الارتباط بها، وتصغي لها آذان المسلمين، ولذلك لم يعرف الطامحون راحةً واستقراراً لملكهم إلّا بعد استشهاد فاطمة عليها السلام.

حجّيّة قول وفعل السيّدة الزهراء عليها السلام

أجمعت مدرسة أهل البيت على القول بعصمة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، فهي ضمن سلسلة المعصومين الأربعة عشر، ويصفون عصمتها بالعصمة الكبرى، أي: على حدّ عصمة الرسول صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، ومن أدلّتهم القرآنيّة على ذلك: آية التطهير التي تقدّمت الإشارة لها؛ فهي المرأة الوحيدة المشمولة بآية التطهير. ويمكن الاستفادة من كونها سيّدة نساء العالمين أو سيّدة نساء أهل الجنّة في إثبات عصمتها، بنكتة كون السيّدة مريم بنت عمران عليهما السلام كانت معصومة [٢]، وفاطمة سيّدةٌ عليها، فكيف تكون سيّدةً عليها وهي فاقدةٌ لكمال العصمة الذي اشتملت عليه مريم عليها السلام؟

وأمّا الأخبار الواردة في استنباط عصمتها وكونها حجّةً من حجج الله تعالى

---

(١) انظر: صحيح البخاري: ج٥ ص٨٢؛ صحيح مسلم: ج٥ ص١٥٤؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٥ ص٣٠٧؛ السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٤ ص٥٦٨.

(٢) أمّا عصمة مريم عليها السلام فيكفي في إثباتها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

فهي ما تقدّم من كون الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله يرضى لرضاها ويسخط لسخطها[١]، فكيف يُعلِّق الله تعالى رضاه برضاها وسخطه بسخطها لو لم تكن معصومة، وإلَّا لزم الإغراء بالمعصية وهو قبيحٌ ومحالٌ عقلاً على الله تعالى[٢]، كما أنّ هنالك أخباراً أخرى يلزم منها القول بعصمتها، من قبيل حديث الثقلين[٣]، فالأمر بالتمسّك بالعترة الطاهرة، وكون العترة عاملاً أساسيّاً في تحقيق الهداية ورفع الضلالة، لا يكون إلّا لجهةٍ معصومةٍ، فغير المعصوم لا نقطع معه بتحقيق الهداية وبرفع الضلالة، وحيث إنّ السيّدة فاطمة عليها السلام هي من العترة، بل هي في موقعها بعد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام سيّد العترة، فتكون هي سيّدة العترة عليهم السلام، وبذلك تثبت لها العصمة.

فإذا ثبتت لها العصمة ـ وهي ثابتة ـ فإنّ قولها وفعلها حجّة، ومن ثمّ فإنّها تدخل في دائرة التدابير النبويّة من بوّابة عصمتها، فتكون كلمتها في القبول والرفض حجّةً على المسلمين، وهي قد أعلنت رفضها لسقيفة بني ساعدة،

---

(١) تقدّم تخريج الأحاديث في ذلك في بحث صفتها (الزكيّة الطاهرة، الراضية المرضيّة).

(٢) فعدم عصمتها يعني إمكان رضاها على باطل وسخطها على حقّ، ورضا الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله برضاها يعنى إمكان تحقيق رضاهما على الباطل، وهكذا في السخط، وحيث إنَّ هذا الأمر قبيحٌ في حقّهما، ومحالٌ عليهما عقلاً ونقلاً، فإنّه يلزم القول بعصمتها عليها السلام، وهو المطلوب.

(٣) تقدّم عرض حديث الثقلين، وهو حديثٌ متواترٌ عند مدرسة أهل البيت، وصحيحٌ عند مدرسة الصحابة، وقد رواه الترمذي عن زيد بن أرقم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**». [سنن الترمذي (ط. ج): ج٣ ص٥٤٣؛ وفي (ط. ق): ج٥ ص٣٢٨ ح٣٨٧٦].

وانتصرت للخليفة الشرعي الإمام عليّ عليه السلام، وذلك الرفض، وهذا القبول هما من واجهات المسيرة الفاطميّة في مواجهة الظلم والانتصار للحقّ، وهما مَثَلٌ أعلى يُقتدى به، فقولها وفعلها حجّة، فعندما تغضب على قومٍ وتموت وهي غاضبةٌ وساخطةٌ عليهم، بل وداعيةٌ عليهم، فإنّها بحجّيتها تُعبِّد لنا طريق التعاطي مع مغتصبي الخلافة، وإلَّا لم يبقَ معنى للأمر بالتمسّك بها كفردٍ متميِّزٍ في العترة الطاهرة بحسب مقتضيات حديث الثقلين[1].

فاطمة عليها السلام الحصن الأوّل للإمامة

قد سجَّلت المواجهة الأولى بين الخلافة الشرعيّة والخلافة المغتصبة حضوراً كبيراً للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد نهضت بأعباء التدابير النبويّة الناصّة على إمامة الإمام عليّ عليه السلام وخلافته على الأمّة، وقد كانت عليها السلام تعي حجم المسؤوليّة الكبرى، وأنّ المواجهة لابدّ منها بعد انعقاد السقيفة وإزاحة الأمر وجعله في غير محلّه، حيث تعبّر عن رفضها لنتاج السقيفة الذي أُريد له أن يكون بديلاً عن الاصطفاء الإلهي والتعيين النبوي في خلافة الإمام عليّ عليه السلام على الأمّة، فتقول بلوعةٍ وثباتٍ ويقينٍ: «**ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة ومهبط الوحي الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين،**

---

(١) وقد وردت أخبارٌ أخرى مشيرةٌ إلى عصمتها عليها السلام، كما في بعض التوقيعات الصادرة من الناحية المقدّسة للإمام المهديّ عليه السلام بواسطة بعض نوّابه، كما في التوقيع الذي أظهره النائب الأوّل الشيخ الثقة عثمان بن سعيد العمري، من أنَّ الإمام المهديّ عليه السلام يقول فيه: «**...وفي ابنة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لي أسوةٌ حسنةٌ...**». [غيبة الطوسي: ص٢٨٥ ح٢٤٥؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج٢ ص ٢٧٩].
ومن الواضح بأنَّ الإمام المهديّ عليه السلام وهو الإمام المعصوم الواجب الاتّباع، الهادي للحقّ، والواقي من الضلالة، لا يصحّ في حقّه أن يتّخذ له أسوةً لا تتّصف بالعصمة، فيكون تأسّيه بجدّته الزهراء عليها السلام مشيراً إلى عصمتها.

ألا ذلك هو الخسران المبين». ولأنّها كانت تدرك بعمقٍ سرَّ عزوفهم عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فقد أدرجته ليكون مذكّرةً تاريخيّةً تقرِّر فيها واقع حال القوم، فتقول: «**وما نقموا من أبي حسن؟! نقموا والله منه نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمّره في ذات الله عزّ وجلّ... وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون**»[1].

وبهذا الموقف الصحيح والصريح، تُقدّم بنت النبوّة عليها السلام أنموذجاً في قوّة الحقّ، وصحوة الضمير، وواقعيّة الإيمان، ونبذ الدنيا وزخارفها، فهي التي تحمّلت أعباء دعوة أبيها المصطفى في رسالته الخالدة منذ أن كان عمرها دون الخامسة، وفي هذا السنّ صارت أمّاً لأبيها، فاستوعبت حجم المسؤوليّة الكُبرى، ووضعت قدميها في سوح المواجهة الملتهبة، وبذلك ليس غريباً على ابنة الجهاد المرير في نشر الدعوة أن تستكمل جهادها في حفظ الدعوة المتمثّلة بالخليفة الشرعي الذي ما تحيَّزت له بصفتها زوجةً مخلصةً له، وإنّما بصفته الإمام الحقّ الواجب الطاعة، وأنّ الخروج عليه كالخروج على أبيها رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولكنّ الحال المرير ما نطق به قوله تعالى: ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ (هود: ٢٨)؟!».

إنّ هذا الوعي الفاطمي الذي بزغ فيها وهي طفلةٌ صغيرةٌ، قد تجلّى بأرقى صوره وأبدع صفاته، يوم كانت تمشي كمشية أبيها صلّى الله عليه وآله فتهيّج العواطف وتحرّك الوجدان، فتنطق وكأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ينطق على لسانها الشريف، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستشعروا عظيم الخطر الذي أحاق بهم، ولذلك كان يوم الدار، ونحن بحسب فهمنا وتشخيصنا نجد أنّ المقصود بحادثة الدار والأمر بحرقها لم يكن المقصود في ذلك عليّاً عليه السلام وحده، بل كانت السيّدة الزهراء عليها السلام معنيّةً بالذات، فهي هدفٌ واقعيٌّ وخصمٌ قويٌّ وعنيد، ولذلك لمّا قيل لكبير المهاجمين حين أمر بحرق

(١) تقدَّم تصدير الحديث.

الدار: إنّ فيها فاطمة، قال: وإن!! [(١)]، فكانت هدفاً لهم، ولم تكن مشكلةً اعترضت طريقهم، ولذلك كان من الممكن أن تحرق الدار حتّى إن لم يكن الإمام عليّ عليه السلام موجوداً فيها؛ حيث لازالت ذاكرتهم تعجّ بكلماتها وتنديدها، وهم يدركون حجم استجابة الأمّة لها، واستشراء شعورٍ عامّ لدى أبناء الأمّة بمرارة المظلوميّة التي أوقعت على العترة الطاهرة عليهم السلام، فكان لابدّ لهم من الخلاص من هذا المدافع الصلب، والخصم الشديد، فالإمام عليّ عليه السلام له أعداءٌ كثيرون وحسّادٌ أكثر، وكانت معاداته معلنةً حتّى في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله فكيف بعد ذلك؟ وأمّا بالنسبة لفاطمة عليها السلام فالوضع يختلف كثيراً، فهي بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله، والكلّ يعلم مكانتها في قلب أبيها صلّى الله عليه وآله، ولذلك فهي خصمٌ عنيدٌ وشديدٌ لا يمكن اختراقه، فكان لابدّ لهم من القضاء عليه، فكانت حادثة الدار.

فاطمة عليها السلام تُجرِّد الطامحين من الشرعيّة

مرَّت بنا تلك الوقفة الصحيحة الصريحة والشجاعة للسيّدة الزهراء عليها السلام من خلافة أبي بكر، وقد سجَّلت هذا الموقف الثابت في أكثر من موقفٍ ومناسبةٍ، فهو موقفٌ مبدئيٌّ لا مجاملة فيه، منذ أن أعلنت سخطها وعدم رضاها الأحكام التعسّفيّة للحزب الحاكم، واصفةً إيّاهم بأوصافٍ دقيقةٍ عميقةٍ تكشف

---

(١) مرَّ بنا ذكر حادثة الدار، وذكر مصادرها، فراجع: الفصل الثالث من هذا الكتاب، ضمن عنوان: (تصوير دور الإعلام الأموي لموقف الإمام عليّ من حقّه في الخلافة).

ولا ندري بعد: كيف يتسنّى الاقتداء برجلٍ قد همَّ بحرق الدار وإن كانت فيها بنت الرسالة فاطمة عليها السلام، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣)؟! بل كيف يُتصوّر وقوع ذلك لو لم تكن بنت النبوّة بنفسها هدفاً حقيقيّاً لهم، فأرادوا أن يغتنموا الفرصة للخلاص من هذا الهدف.

عن بصيرتها بالقوم، كما تكشف عن الموقف الجلل الذي أصاب الأمّة بعد رسولها صلّى الله عليه وآله، ولننظر إلى عظيم درايتها بواقع القوم، حيث تقول لنسوةٍ سألنها عن حالها: «**والله أصبحتُ عائفةً لدنياكم، قاليةً لرجالكم، لفظتُهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم**»[١].

ثمّ تصدر حكمها الموافق لواقع حال القوم: «**فقبحاً لفلول الحدّ، وخور القناة، وخطل الرأي، وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. لا جرم! قد قلّدتهم ربقتها، وشنّت عليهم غارتها، فجدعاً وعقراً وسحقاً للقوم الظالمين!**»[٢].

ثمّ تكشف عن خلفيّة الصراع الدنيوي الذي أوقع القوم، فجعلهم يتكالبون ويستأثرون بالحكم غصباً وعدواناً، وما ستؤول إليه أمور المسلمين بعد عزٍّ خلّفوه وراءهم ظهريّاً، فتقول عليها السلام: «**ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة ومهبط الوحي الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين**»[٣].

ثمّ تكشف عن ثمرة السقيفة، وما قدّمته للأمّة من بديلٍ عن ذلك الطبين بأمور الدنيا والدين، فتصف القوم وسقيفتهم وثمرتها بأوصافٍ لم تبقِ فيها ما يُرجى لهم فيه من خيرٍ أو صلاحٍ، فتقول عليها السلام: «**ألا هلمّ فاسمع، وما عشت أراك الدهر العجب! وإن تعجب وقد أعجبك الحادث، إلى أيّ سنادٍ استندوا؟ وبأيّة عروةٍ تمسّكوا؟ لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا الذنابى والله بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قومٍ يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً**»[٤].

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) مرَّ تخريجه.

(٣) مرَّ تخريجه. والطبين بأمر الدنيا والدين هو العالم والخبير بأمر الدنيا والدين، وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لا غير.

(٤) مرَّ تخريجه.

ثمّ تستدلّ بآيةٍ كريمةٍ على كون مَن قدّموه هو بنفسه يفتقر للهداية فكيف يُنتظر منه أن يهدي مَن سواه، وهذا بخلاف مَن نصّبه رسول الله صلّى الله عليه وآله خليفةً على الأمّة من بعده، فهو الهادي للحقّ، وهي قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (يونس: ٣٥).

ثمّ تكشف عمَّا ستؤول إليه الأمور جرَّاء الأحكام التعسّفيّة التي خرجت بها السقيفة، سقيفة التنكّر للخليفة الشرعي، وكأنّها عليها السلام ببصيرتها الثاقبة تقلّب أوراق المستقبل القريب والبعيد صفحةً صفحةً، وتقرأ سطوره سطراً سطراً، وتمرّ به كلمةً كلمةً، فتضع فيه النقاط على الحروف، وتنطق عن سرٍّ مكنونٍ صدّقته الأيّام التالية، الأيّام التي نطقت بعظيم جرم السابقين المؤسّسين لذلك الجرم التاريخي بزحزحة الخلافة عن دوحتها إلى قوم فاقدين للأهليّة، فتقول عليها السلام: «**أما لعمر الله لقد لقحت، فنظرةٌ ريثما تنتج، ثمّ احتلبوها طلاع القعب دماً عبيطاً، وزعافاً ممقّراً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنّوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيفٍ صارم، وهرجٍ شامل، واستبدادٍ من الظالمين يدَع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً**»[(١)].

وهنا تبعث بزفراتها وهي ترى تراث أبيها صلّى الله عليه وآله نهباً، فتصف المغتصبين له بالعمي وأنّهم قومٌ لا يرعوون، ولا يُرجى منهم العود للحقّ والقبول به، بل هم كارهون للحقّ، راغبون عنه، مقبلون على الدنيا وبهرجتها، حيث تقول: «**فيا حسرة عليكم، وأنّى لكم وقد عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾** (هود: ٢٨)؟!»[(٢)].

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) مرَّ تخريجه.

إنّ هذه الخطبة الملتهبة بزفرات الدهر كلّه، والمعتصرة بالألم الشديد، والتي عكست لنا حجم المؤامرة التاريخيّة، وعظيم ما ستؤول الأمور إليه، إنّما هي رسالةٌ صريحةٌ في سلب الشرعيّة عن الطامحين للخلافة، الذين أنتجتهم سقيفة بني ساعدة، وأنتجت سقيفتهم سقائف أخرى تحتلب من ضرعها الأوّل، ولا تثمر شيئاً غير النأي عن العترة الطاهرة عليهم السلام والابتعاد عن وصايا الرسول صلّى الله عليه وآله وتدابيره النبويّة، فكانت سقيفة الشورى، وسقيفة التحكيم، وسقيفة تحويل الخلافة إلى ملكٍ عضوضٍ، ولتصدق بعدها رؤيا النبيّ صلّى الله عليه وآله ببني أميّة، الشجرة الملعونة في القرآن، وهم ينزون على منبره نزو القردة[1]، يحكمون الخلق ألف شهرٍ بالنار والحديد، لا يرعون في الله تعالى إلّاً ولا ذمّةً، يستعبدون الناس؛ وبعبارةٍ قرآنيّةٍ: ﴿...**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ (البقرة: ٤٩)، وكما جاء وصفهم في حديثٍ رواه أبو سعيدٍ الخدري عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً، ودين الله دخلاً، وعباد الله خولاً**»[2].

---

(١) سيأتي في الفصل السابع بحثٌ خاصّ في هذه المسألة، تحت عنوان: توصيف بني أُميّة بالقردة وتحريم الخلافة عليهم.

(٢) مرَّ بنا مثل هذا الخبر عن أبي ذرّ الغفاري، وتقدّم تخريجه، وأمّا هذا الحديث الموافق له فإنّه جاء برواية أبي سعيد الخدري، وقد ورد في مصادر كثيرة، منها: مسند الإمام أحمد، الطبعة القديمة: ج٣ ص٨٠؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٤ ص٤٨٠؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص٢٤١؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص٤٧٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٢٨٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٢٢٠.

الدُول: هو التداول بينهم، فيكون مرّةً لهذا ومرّةً لهذا، والجمع دولات، ودول صحاح. وأمّا الدغل فهو الفساد، فيقال: قد أدغل في الأمر، إذا أدخل فيه ما يخالفه ويفسده.

فاطمة عليها السلام جهاد النبوّة وقُربان الإمامة

سيرةٌ خالدةٌ، ملؤها الجهاد في سبيل الله، فلم تعش طفولةً عاديّةً. كانت طفولتها في شِعب أبي طالب، حيث كان عمرها ثلاث سنوات، بل إنّها فُطمت ودرجت تمشي في هذه الشعب الموحشة، فخرجت منه وعمرها دون السادسة، ثلاث سنواتٍ عجاف، اشتدّ فيها عودها على مواجهة النفي والتجويع والموت، وفي هذه السنوات تودّع بقيّة النبوّة أمّها المجاهدة الكبيرة خديجة بنت خويلد عليها السلام، التي ما ادّخرت شيئاً في نصرة رسالة الإسلام، وما كاد ينتصر الإسلام لولا مال خديجة، تختم حياتها الجهاديّة في منفى شعب أبي طالب، ولا زال قبرها وقبر كافل النبيّ أبي طالب بن عبد المطلب شاهدين على ذلك المنفى.

وبعد المنفى تبدأ رحلةً جديدةً مع أبيها صلّى الله عليه وآله تختلف جذريّاً عن حياتها السابقة، فهي الآن سيّدة البيت والقائمة بأموره، فكانت تبذل جهدها لتعويض مكان أمّها وفقده، فإذا رآها الرسول صلّى الله عليه وآله رفعت عنه هموم الدعوة وأحزانها، فكانت له أمّاً في عاطفتها وتدبيرها وحرصها على رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهكذا مضت مع أبيها المفدّى لا تفارقه في ساحات المواجهة وفي ساعات الألم ولحظات الفرح، حتّى كانت عليها السلام هي الروح التي بين جنبي رسول الله صلّى الله عليه وآله، كما عبَّر عنها صلّى الله عليه وآله بقوله: «**إنّ فاطمة بضعةٌ منّي، وهي روحي التي بين جنبي، يسوؤني ما ساءها، ويسرّني ما سرّها**»[1]. ولمّا حان وقت الهجرة إلى المدينة وانطلاق فريضة الجهاد، كانت

والخول: ما أعطاك الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم، وخول الرجل: حشمه.

(١) الاعتقادات، للشيخ المفيد (ت: ٤١٣هـ): ص١٠٥؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٥٢٦ ح٣٣؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٧٨؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص٩٧ ح٨٣٧٠ ح٨٣٧١.

الزهراء عليها السلام هي آخر إنسانٍ يُودّعه الرسول صلّى الله عليه وآله قبل الذهاب للقتال، ولمّا يعود للمدينة كان أوّل إنسانٍ ينتظر اللقاء به هو فاطمة، فهي آخر المودّعين وأوّل المستقبلين له، وفي ذلك دلالاتٌ عميقةٌ على عظيم صلته صلّى الله عليه وآله بابنته الزهراء، فهي بضعته وروحه التي بين جنبيه.

وقد روت بعض المسانيد والسنن هذه الخصيصة التي تفرّدت بها السيّدة الزهراء عليها السلام؛ فعن ثوبان مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم أنّه قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم إذا سافر آخر عهده بإنسانٍ من أهله فاطمة، وأوّل مَن يدخل عليه إذا قَدِمَ فاطمة...»[1]، ولم يمنعها زواجها وأبناؤها وطول خدمتها عن الاهتمام بالنبيّ صلّى الله عليه وآله ورعايته، وهكذا بقيت أمّاً لأبيها ومستودعاً لأسراره، تفتدي الرسول صلّى الله عليه وآله بنفسها الشريفة كما أنّ أباها كان يفتديها بنفسه الشريفة، فيقول لها: «فداك أبوك»[2].

ثمّ جاء دورها العظيم في مساندة قائدها وأميرها وإمام زمانها الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في الدفاع عن قضيّته في الإمامة والخلافة على غرار دفاعها عن أبيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وذودها عنه في قضيّته المصيريّة، نعني: النبوّة والرسالة، ولكنّ هنالك فرقاً كبيراً بين حجم تضحيتها في دفاعها عن النبوّة والرسالة، وحجم دفاعها عن الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، فهنالك قدّمت طفولتها وفقدها السريع لأمّها الصدّيقة الطاهرة خديجة، وقدّمت زهدها وعزوفها عن أبسط ملذّات الحياة على بساط الرسالة والاقتداء بقائدها وأبيها

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣٧ ص٤٦ ح٢٢٣٦٣؛ سنن أبي داود: ج٢ ص٢٩١ ح٤٢١٣؛ صحيح ابن حبّان: ج٢ ص٤٧٠؛ السنن الكبرى، البيهقي: ج١ ص٢٦؛ الكامل: ج٢ ص٢٧٠؛ روح المعاني، الآلوسي: ج٢٦ ص٢٥٠.

(٢) تقدّم تخريج الحديث.

النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، وكان صلّى الله عليه وآله يخفِّف عنها كلَّما رآها وهي تكابد الحياة، فقد دخل عليها يوماً فوجدها عليها السلام وعليها كساءٌ من جلّة الإبل، وهي تطحن بيديها، وترضع ولدها، «فدمعت عينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وقال: **يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة**، فقالت: **يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه**، فأنزل الله سبحانه: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ (الضحى: ٥)»[1].

هذا نزرٌ يسيرٌ ممَّا قدّمته على طريق الدعوة للإسلام، ولكنّها في جهادها الآخر في الذود عن الإمامة والخلافة قد قدّمت فيه نفسها قرباناً وفلذة كبدها المحسن قرباناً آخر، وقد كانت الخلافة الشرعيّة تتطلّب تضحياتٍ عظيمةً، فكانت فاطمة عليها السلام وجنينها قرباني الإمامة والخلافة، كما كان ولدها الإمام الحسين عليه السلام قربان الإسلام، ومن قبله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ولن تجد في تاريخ حركة الإنسان أُسرةً صار كلّ أفرادها قرابين في الذود عن الحقّ والحقيقة والقيم السماويّة أعظم وأجلّ من هذه الأسرة العظيمة، في رجالها ونسائها، وفي شبابها أطفالها ورضعانها صلوات الله عليهم أجمعين.

وهكذا مضت الزهراء عليها السلام طاويةً حياة النضال والجهاد، بصبرها وصمودها وعنفوانها، وأيضاً بأحزانها الطويلة، وأتراحها المتواصلة، ومصابها الجلل، وبمظلوميّتها التي تنطفئ لها شمس الضحى، وتتصدّع لهولها صمّ الجبال، مضت وهي تودّع رفيق جهادها الذي عمَّا قريبٍ سيكون شهيد المحراب، ولولدين أحدهما هو المسموم، والآخر هو المرمّل بدمائه في كربلاء، وطفلةٍ ستسبى لها عمّا قريب.

---

(١) انظر: شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج٢ ص٤٤٥ ح١١٠٩ ح١١١٠؛ فتح القدير، الشوكاني: ج٥ ص٤٦٠؛ مكارم الأخلاق، رضي الدين الطبرسي: ص١١٧، وص٢٣٥؛ المناقب، ابن شهر آشوب المازندراني (ت: ٥٨٨هـ): ج٣ ص١٢٠؛ كتاب التمحيص، الإسكافي (ت: ٣٣٦هـ): ص٦.

فاطمة لم تُبايع إلاّ عليّاً

إنّ جميع مواقف السيّدة فاطمة من الخليفة الأوّل أبي بكر تدلّ دلالةً واضحةً على أنّها كانت رافضةً لتولّيه الخلافة ورافضةً للبيعة له، بل ذهبت إلى ربّها وهي ساخطةٌ عليه وعلى عمر، وقد مرَّت عدّة إشاراتٍ إلى ذلك، ومن المعلوم أنّها بصفتها مسلمةً ومؤمنةً، لا يجوز لها من الناحية العقائديّة أن تبقى بلا إمام زمانٍ تقتدي به في حياتها؛ لقول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**مَن مات ولا يعرف إمامه مات ميتةً جاهليّة**»[1]، وفي خبرٍ آخر عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**مَن مات ولا بيعة عليه، مات ميتةً جاهليّة**»[2]، أو: «**مَن مات ولا طاعة عليه، مات ميتةً جاهليّة، ومَن خلعها بعد عقده إياها فلا حجّة له**»[3]، ومعنى الجاهليّة هنا جاهليّة الكفر والنفاق والضلال، فقد جاء في الخبر الصحيح عن الحارث بن المغيرة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **مَن مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهليّة**؟ قال: نعم، قلت: جاهليّةً جهلاء أو جاهليّةً لا يعرف إمامه؟ قال **جاهليّة كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ**»[4].

ولم يكن هنالك إمامٌ مُفترض الطاعة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله غير أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فكان لابدّ لها من إعلان البيعة له، بل على الصحيح إعلان تجديد البيعة له، فإنّها عليها السلام كانت ممَّن بايعوا أمير المؤمنين عليّ عليه

---

(١) أصول الكافي: ج١ ص٣٧٨ ح٢، وص٣٩٧ ح١؛ ج٢ ص٢١ ح٩؛ مجمع الزوائد: ج٥ ص٢١٨؛ فتح الباري: ج١٣ ص٥؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٨ ص٨٨ ح١٦٨٧٦.

(٢) المعجم الأوسط، للطبراني: ج١ ص٧٩؛ صحيح مسلم: ح٤٦٨١.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٨ ص٦٠٥ ح٩٢؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٤ ص٤٦٢ ح١٥٦٩٦.

(٤) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٣٧٧ ح٣.

السلام في غدير خمّ، والفرق هو أنّها وفت ببيعتها والآخرون قد نكثوا؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٠ـ٢٢)، وكان لها بوفائها ببيعتها أجرٌ عظيم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح: ١٠).

لذلك فإنّ الزهراء عليها السلام استشهدت وهي عارفةٌ بإمام زمانها، ومبايعةٌ له ومطيعةٌ، وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فكان لها بذلك الأجر العظيم.

فاطمة عليها السلام واستشراف المستقبل في ظلّ الانقلاب

إنّ مَن يلاحظ ما تركته السيّدة الزهراء عليها السلام من خطبٍ وكلماتٍ في مواجهاتها مع شيوخ سقيفة بني ساعدة؛ ذوداً عن الحقوق الشرعيّة لزوجها وابن عمّها وإمام زمانها، والتي تقدّم شطرٌ مهمٌّ منها، سيجد عدّة أمورٍ جليّةٍ، منها:

أوّلاً: الصراحة والوضوح.

ثانياً: الشجاعة والبسالة وقوّة الحقّ.

ثالثاً: البصيرة الفريدة بواقع حال القوم.

رابعاً: بصيرتها واستشرافها للمستقبل.

وهذه النقطة الأخيرة هي ما نريد أن نقف عندها قليلاً، فإنّ استشراف المستقبل، القريب والبعيد، يكشف عن درايةٍ عظيمةٍ وارتباطٍ وثيقٍ بالساحة المقدّسة، سواءٌ كان بإخبارٍ وإسرارٍ من رسول الله صلّى الله عليه وآله لها، أو بما بلغته هي عليها السلام من كمالٍ فريدٍ في تاريخ نساء العالم بأسره، ولا ينبغي الإغفال عن عصمتها الكبرى، وطهارتها المطلقة، فذلك كلّه يقتضي أن تكون

مطلّةً ومشرفةً على مستقبل الأحداث.

إنّها عليها السلام تعتبر مؤامرة السقيفة كافيةً في تحقيق ملاك الانحراف الكبير القادم، أو هي الجذوة التي ستحرق الأيّام القادمة، حيث تقول: «**أما لعمري الله لقد لقحت فنظرةٌ ريثما تنتج**»، أي: ما وقع في السقيفة والتي لقح الضلال والبطلان فيها، وكان أوّل نتاجها إقصاء العترة، والتعدّي على بيت النبوّة والتهديد بإحراق الدار وفاطمة فيها، فبهذا الفعل الشنيع حملت وحبلت الأيّام القادمة ضلالاً ما بعده من ضلال، وامتلأ ضرع الأيّام بالسمّ الزعاف، وليست هي إلّا مهلةً يسيرةً لتروا القردة وهم ينزون على منبر رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيتّخذون الناس عبيداً لهم.

وقد صدقت عليها السلام في تصوير هذا المستقبل الحالك: «**ثمّ احتلبوها طلاع القعب دماً عبيطاً، وذعاقا مبيداً**»، أي: احتلبوا طلاع القدح دماً خالصاً طريّاً، وسمّاً قاتلاً أو داءً قاتلاً، والنتيجة هي: «**هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنّوا للفتنة جأشا**»، أي: سيخيب ذلك التأسيس الباطل، والنتاج الهجين، وسيعرف اللاحقون هول ما أسّسه السابقون، والذين سوف يرثون الفتنة التي ستملأ حياتهم اضطراباً.

وليست هذه هي نهاية المطاف، وإنّما: «**وأبشروا بسيفٍ صارم، وهرجٍ شامل، واستبدادٍ من الظالمين، يدَع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً**». فيا له من تصويرٍ مخيفٍ عاش تفاصيله أجيالٌ وأجيال، أو قل: راح ضحيّته أجيالٌ وأجيال، ولا زالت الأجيال تلو الأجيال تدفع فاتورة السقيفة وما أسّسه الأوّلون.

ولشدّة المصيبة الواقعة على الأمّة تنهّدت السيّدة الزهراء عليها السلام لذلك، وأخذت تصبّ الحسرات على مصير الأجيال: «**فيا حسرةً عليكم، وأنّى لكم وقد عمّيت عليكم؟ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾** (هود: ٢٨)، **والحمد**

لله ربّ العالمين وصلاته على محمّدٍ خاتم النبيّين وسيّد المرسلين»[١].

لقد أفرغت بنت الرسالة عليها السلام كلّ ما في جعبتها من أسرار المستقبل القريب والبعيد، ممَّا يتعلّق بنتاج السقيفة، فكانت تجمع بين اللوعة والحسرة، وبين الإخلاص والنصيحة، فهي امرأةٌ رساليّةٌ، لا تنظر إلى مصلحتها الشخصيّة والفرديّة، وكانت ناظرةً إلى مستقبل الأمّة، فأرادت أن تهزَّ وجدان الأمّة وضميرها بهذه الكلمات الملتهبة، وحيث إنّ الاستجابة لتحذيراتها كانت متواضعةً جدّاً، فإنّ ذلك يكشف لنا عن حقيقةٍ مؤلمةٍ، وهي سعة مساحة الانقلابيّين والخانعين والحاسدين، وكيف لا نتوقّع ذلك ونحن نقرأ بأنّ قطب السقيفة كان يهدّد بحرق بيت النبوّة وعلى مقربةٍ من قبر الرسول صلّى الله عليه وآله وفاطمةٌ عليها السلام فيها، ومع ذلك لم نجد معترضاً يردّ على قوله.

إنّ ذلك الخضوع والانصياع السريع، والسقوط الأسطوري، والتنكّر العجيب لأهل بيت النبوّة عليهم السلام لم يكن وليد السقيفة البتّة، وإنّما قد ساهمت السقيفة في إظهاره على السطح، وقد مرّت بنا عدّة رواياتٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، كان يبكي فيها ثمّ يُفصح عن سرِّ بكائه للإمام عليّ عندما سأله: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: «**ضغائن في صدور أقوامٍ لا يبدونها لك إلّا من بعدي**»[٢]، وفي رواية أُخرى، أنّه قال: «**ضغائن في صدور قومٍ لا يبدونها لك حتّى يفقدوني**»[٣]، فكانت السقيفة متنفّسهم الحقيقي في تجلية ما هو كامنٌ في الصدور، وقد اجتمعت فيها مصالح الطامحين والخانعين والحاسدين، ولم يكن للمستضعفين منهم ما يصولون به، فعاشوا في غصّةٍ وهم يقبضون على الجمر، مقتدين بإمامهم الشرعي

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) تقدّم تخريجه.

المأمور بالصبر، ذلك الصبر الذي تتحطّم على أعتابه صمّ الصخور، ولكنّه عليٌّ عليه السلام القوّة والإرادة والصمود، فكانوا يقتدون به ويستلهمون من صبره ما يُسكِّن روعهم، فيا لها من مدّةٍ عصيبةٍ، ومحنةٍ شديدةٍ، كما جاء ذلك صريحاً في خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: «**فصبرتُ على طول المدّة وشدّة المحنة**»[١]، ويقول أيضاً: «**فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون**»[٢].

إنّ السقيفة التي أنتجت بعدها سقائف تترى، إنّما هي الانقلاب الصريح على التدابير النبويّة، وما كشفت عنه الزهراء عليها السلام ممَّا سيقع إنّما هو تصويرٌ لنتائج البعد عن التدابير النبويّة، وكأنّها تريد القول بأنّ السقيفة هي مؤتمر التأسيس الأوّل لجاهليّةٍ جديدةٍ في قبال الوصايا والتدابير النبويّة، وضياع التدابير النبويّة والوصايا بالإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة هو النتاج الطبيعي لذلك التأسيس السقيفي والتمرّد التاريخي، ولعلّ كلّ ما نلقاه من تمزّقٍ وتشرذمٍ وسبابٍ وتكفيرٍ، وتفسيقٍ وتضليلٍ، وتجاوزاتٍ خطيرةٍ، واستباحةٍ للدماء والأعراض، ما هو إلّا نتاجٌ طبيعيّ لوأد التدابير وسقوطها في حظيرة السقيفة.

التدابير الفاطميّة في نقض حكومة الانقلابيّين

وهنا تتّخذ بنت الصفوة وبقيّة النبوّة فاطمة عليها السلام ثلاثة طرقٍ جليّةٍ لنقض حكومة الانقلابيّين وإبطال شرعيّتها، وهي:

الطريق الأوّل: مهاجمة الانقلابيّين في خطبتين

الخطبة الأولى: في محضر أبي بكر والصحابة والمهاجرين والأنصار

وهي الخطبة التي أعلنت فيها رفضها للواقع الجديد، وقد بدأتها ـ من حيث

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٩٤.

المطالب ـ بالمطالبة بإرثها ونحلتها التي نحلها لها رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ بيَّنت حدود فهم القوم بكتاب الله تعالى، ثمّ....

ونظراً لطول هذه الخطبة وعدم إمكان عرضها وشرحها ـ فذلك يحتاج إلى دراسةٍ خاصّةٍ نتناول فيها خطبتي الزهراء عليها السلام ـ سنكتفي بأخذ بعض المقاطع اليسيرة منها وربطها بموضوعة التدابير النبويّة.

مطلع الخطبة: تهيئة الأجواء المعنويّة لإلقاء خطبتها

روى عبد الله بن الحسن المحض بإسناده عن آبائه عليهم السلام: «أنّه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكاً وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلّى الله عليه وآله، حتّى دخلت على أبي بكرٍ وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم... فجلست ثمّ أنَّت أنّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هنيئةً حتّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام...».

وبهذه الأجواء صار المخاطبون جميعاً على أتمّ الاستعداد لسماعها والتفاعل معها، فقد استولت على المجلس بخشوعها وحزنها وحشرجتها وأنينها، فاستحوذت على القلوب، وصاروا كلّهم آذاناً صاغية.

المقطع الأوّل: التركيز على كونها بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله

قولها: «**فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمّدٍ صلّى الله عليه وآله ظُلَمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم**

من العماية، وهداهم إلى الدين القويم... صلّى الله على أبي نبيّه وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيّه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

بالرغم من كونها عليها السلام معروفةً لديهم بأنّها بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله الذي عن قريب واروه الثرى، إلّا أنّها أرادت أن تُسجِّل للتاريخ تلك المحاكمة التاريخيّة بينها وبين المستحوذين على إرثها، لا بصفتها بنتاً عاديّة، وإنّما بصفتها بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله، كما أنّها أرادت أن تعيد للذاكرة التي سرعان ما نسيت موقعها عليها السلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله، فذلك الذي كان السبب الحقيقي في إخراجهم من الظلمات إلى النور هو أبوها رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولولاه لكانوا للآن من العاكفين على الأصنام.

ثمّ تركِّز على هذه الأبوة الرساليّة لتُبيِّن بأنّها الامتداد الطبيعي للنبيّ صلّى الله عليه وآله في الصدق والتسديد، فتقول: «**أيّها الناس اعلموا: أنّي فاطمة وأبي محمّدٌ صلّى الله عليه وآله، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾**. فإن تعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزّى إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم».

فهي وأمير المؤمنين عليّ أخو رسول الله عليهم السلام الوريثان الشرعيّان، فهي ابنته دون نساء المسلمين، وعليٌّ أخوه دون سائر رجال المسلمين، وفي هذا دلالةٌ على كونها هي الابنة الوحيدة للنبيّ صلّى الله عليه وآله، والبقيّة مجرّد ربيبات، وكما في تذكيرها بأخوة عليّ عليه السلام لأبيها صلّى الله عليه وآله أرادت تذكير المسلمين بالمؤاخاة التي لم يرتضِ فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله أخاً له غير الإمام عليّ عليه السلام، وهذه هي الأخوّة المعنويّة التي تتّحد فيها السنخيّة، وفي قولها عليها السلام إشارةٌ أيضاً إلى حديث المنزلة، فمنزلة عليّ عليه

السلام من أخيه رسول الله صلّى الله عليه وآله، هي منزلة هارون من موسى، ومن مراتب تلك المنزلة: الأخوّة النسبيّة بينهما.

المقطع الثاني: التذكير بالتكاليف الشرعيّة تجاه الثقلين

وهنا تلتفت إلى أهل المجلس فتقول: «**أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حقٍّ له فيكم، وعهدٍ قدّمه إليكم، وبقيّةٍ استخلفها عليكم**»، فما دمتم عباداً لله تعالى ومتابعين لوحي الله ومقرّين برسالة الإسلام، فمن الواجب عليكم الالتزام بما استخلفه الله تعالى عليكم. وهنا تعرّف بخليفَتي رسول الله على أمّته، وهما الثقلان: كتاب الله وعترته.

تقول: «**وبقيّةٍ استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنةً بصائره، منكشفةً سرائره، منجليةً ظواهره، مغتبطةً به أشياعه، قائداً إلى الرضوان اتّباعه...**».

ثمّ تبيّن الثقل الثاني في الأمّة الواجب طاعته واتّباعه، فتقول: «**فجعل الله الإيمان: تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة: تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة: تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام: تثبيتاً للإخلاص، والحجّ: تشييداً للدين، والعدل: تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا: نظاماً للملّة، وإمامتنا: أماناً للفرقة**».

وهنا تضع النقاط على الحروف بكلماتٍ موجزةٍ، وهي لزوم طاعة أهل البيت؛ فالإمامة فيهم، بعدما جرّدت الجميع من الارتباط بالنبيّ صلّى الله عليه وآله، فليس هنالك أخٌ ووريثٌ للنبيّ صلّى الله عليه وآله غير أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد نبّهت من قبل بأنّها صادقةٌ ومُسدَّدةٌ بقولها: «**إنّي فاطمة وأبي محمّدٌ صلّى الله عليه وآله أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً**».

ثمّ تعود لهم بلزوم متابعة هذا التكليف بمتابعة القرآن وطاعة العترة الطاهرة، فتقول بلسانٍ قرآنيّ وهي بنت القرآن: «**فاتّقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتنّ**

إلّا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّه إنّما يخشى الله من عباده العلماء».

المقطع الثالث: التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام وجهاده

بعد تلك الجولة التعريفيّة الموجزة والمشيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام تعاود الكرّة للوقوف عند هذه الشخصيّة العظيمة المهضوم حقّها، وهي الأَولى بالاتّباع، فتعرّفه مرّةً أخرى بأنّه أخو رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ تذكر شطراً من خصاله النبيلة، والتي في طليعتها تضحياته وذوده عن الإسلام وقائده العظيم رسول الله صلّى الله عليه وآله، فتقول: «**أنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمّد صلّى الله عليه وآله، وبعد أن مُني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومرَدة أهل الكتاب، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرةٌ من المشركين قذف أخاه في لهواتها**»، أي: ليس هنالك غير عليّ عليه السلام، فهو رجل المهمّات الصعاب، وهو المعقود به النصر المؤزَّر، فتقول فيه: «**فلا ينكفئ حتّى يطأ جناحها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيّداً في أولياء الله، مشمّراً ناصحاً، مجدّاً، كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم**».

المقطع الرابع: بيان واقع حال القوم وخلفيّات التآمر

وبعد تلك الجولة التعريفيّة بجهاد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، جعلتهم يتفحّصون أمرهم فلا يجدون له ندّاً، ولكنّها عليها السلام لم تترك الحبل على الغارب، تصول فيه أفكارهم بصنائع لا واقع لها، فأطلّت عليهم تكشف واقع حالهم بقولها الجزيل: «**وأنتم في رفاهيةٍ من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر!! وتتوكّفون الأخبار**[1]**، وتنكصون عند النزال، وتفرّون من القتال**».

---

(١) أي: ساكنون ناعمون، تنظرون نزول البلايا علينا، وتتوقّعون أخبار المصائب والفتن النازلة بنا.

ثمّ تكشف الأوراق عن واقعٍ بشعٍ، وحالاتٍ نفاقيّةٍ طالما حذّر منها رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد كان يحجم عنهم رسول الله صلّى الله عليه وآله طمعاً بأوبتهم وتوبتهم وإصلاحهم، ولكنّهم قومٌ غلبتهم شقوتهم، فلمّا مضوا في غيِّهم قرعتهم بنت الصفوة وبقيّة النبوّة بسوط الحقيقة التي هم عليها، فتقول: «**فلمّا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق، وسَمُلَ جلبابُ الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلّين**»[1].

ثمّ تُبيِّن حقيقة إيمانهم، وكيف أنّهم صاروا ألعوبةً بيد حبائل الشيطان، فتقول: «**فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحشمكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يُقبر**»[2].

المقطع الخامس: إبطال حجّة القوم بدرء الفتن

ولكي لا تبقى باقيةٌ في كشف خلفيّات التآمر، كان لابدّ من إبطال الحجّة الواهية بأنّهم قد سعوا للسقيفة وتنصيب أبي بكر درءاً للفتنة، وأنّ الأمّة حديثة عهدٍ بالإسلام فخشوا عليها من الارتداد عن الإسلام؛ تقول عليها السلام:

---

(١) حسكة النفاق: عداوته. وسمل جلباب الدين: صار خَلِقاً. والكظوم: السكوت. والخامل: مَن خفي ذكره، وكان ساقطاً لا نباهة له.

(٢) خطر البعير بذنبه: إذا رفعه مرّةً بعد مرّةٍ وضرب به فخذيه، وفي ذلك كنايةٌ عن سوق الشيطان لهم. ومغرزه، أي: ما يختفي فيه، وفي ذلك تشبيهٌ لهم بالقنفذ؛ فإنّه يطلع رأسه بعد زوال الخوف. وقد دعاكم الشيطان فسارعتم إليه، وحملكم على الغضب له فوجدكم مغضبين لغضبه. فطلبتم غير إبلكم، وشربتم من غير حوضكم، بمعنى: أنّكم طلبتم الغنيمة من الشيطان، وشربتم من مائه الآسن؛ مع أنّكم قريبو عهدٍ بالهدى وبرسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّكم فعلتم فعلتكم الشيطانيّة تلك ورسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا يُدفَن!

«زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا، وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء ظهوركم. أرغبةً عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً...».

المقطع الأخير: عودة الجاهليّة من بوابة السقيفة

وهنا تتعرّض إلى مسألة الإرث في الحكومة والسلطان والمال، لا في المال فحسب، فتنسبهم إلى الجاهليّة الجهلاء، فإنّ كلّ حكم ما أنزل الله به من سلطانٍ إنّما ينتمي لبؤرة الجاهليّة والضلال المبين، والله تعالى يقول: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢).

تقول عليها السلام: «وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهليّة تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية... أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّا أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أوَلستُ أنا وأبي من أهل ملّةٍ واحدةٍ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟ فدونكها مخطومةً مرحولةً، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكَم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون[1]... ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفةٍ منّي بالجذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم»[2].

---

(١) مخطومة: من الخطام بالكسر، وهو كلّ ما يدخل في أنف البعير ليقاد به. والرحل بالفتح: هو للناقة كالسرج للفرس. أي: أخذتم إرثي في نحلتي، وإرث ابن عمّي في الخلافة بالنحو الذي يُقاد به الإبل لتتمتّعوا بذلك قليلاً، فالملتقى يوم الحشر، والحكم هو الله تعالى، ورافع الدعوة هو رسول الله صلّى الله عليه وآله، وعندئذٍ لا ينفع الندم.

(٢) انظر: الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص١٣١ـ١٤٥؛ شرح الأخبار، القاضي النعمان: ج٣

ثمّ عطفت على قبر أبيها صلّى الله عليه واله لتُجدِّد العهد به، ولتشكو همّها وغمّها، تبعث زفراتها لتخترق أزمنة العصور[١].

الخطبة الثانية: في محضر نسوة المهاجرين والأنصار

وذلك لمّا عدنها في مرضها الذي توفّيت فيه، وقد تناولنا القسم الأكبر من هذه الخطبة في هذه الدراسة مع بياناتٍ وتعليقاتٍ يسيرةٍ[٢]، ولذلك لا نجد ضرورةً للوقوف عندها بعد أن تناولنا مقاطع مهمّةً في أكثر من مناسبة، وإنّما نضيف أموراً امتازت بها هذه الخطبة على خطبتها الأولى، وهي:

الأمر الأوّل: التركيز على حقوق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الخلافة، وأنّه لا يوجد كفؤ لها غيره، وقد أوجزت ذلك بقولها: «**ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة ومهبط الوحي الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين، ألا**

ص٣٤؛ شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ج١٦ ص٢٤٩؛ بلاغات النساء، ابن طيفور: ص١٢؛ جواهر المطالب، الدمشقي الباعوني: ج١ ص١٥٦؛ بحار الأنوار، المجلسي: ج٢٩ ص٢٢٠ ح٨؛ صحيفة الزهراء عليها السلام، جواد القيومي الأصفهاني: ص٢١٦؛ الغدير، عبد الحسين الأميني: ج٧ ص١٩٢.

(١) وفي الخبر نفسه أنّها انعطفت على قبر أبيها صلّى الله عليه وآله وهي تقول:

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثةٌ ... لو كنتَ شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب

أبدت رجالٌ لنا نجوى صدورهم ... لمّا مضيت وحالت دونك الترب

تجهّمتنا رجالٌ واستخفّ بنا ... لمّا فُقِدت وكلُّ الأرض مغتصب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لمّا مضيت وحالت دونك الكثب

ثمّ انكفأت عليها السلام. [انظر: المصادر السابقة].

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٩٤.

ذلك هو الخسران المبين»[١] .

الأمر الثاني: التركيز على النتائج الوخيمة التي ستقع في المستقبل القريب والبعيد، وأنّ كلّ ما سيقع من انتكاساتٍ وانحدارٍ فمرجعه إلى السقيفة والبعد عن العترة الطاهرة عليهم السلام، حيث سينتشر القتل والاستبداد في الأمّة، فلا يبقى زرعٌ يُحصد ولا ضرعٌ يُحلب، وهذا ما أوجزته عليها السلام بقولها: «**وأبشروا بسيفٍ صارمٍ وهرجٍ شامل، واستبدادٍ من الظالمين يدَع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً»**[٢] .

الأمر الثالث: عقد المقارنة الصريحة بين الخليفة الشرعي المتمثّل بالإمام عليّ عليه السلام وبين ما أنتجته السقيفة، وذلك في قولها عليها السلام: «**إلى أيّ سنادٍ استندوا؟ وبأيّة عروةٍ تمسّكوا؟ لبئس المولى ولبئس العشير، ولبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا الذنابى والله بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قومٍ يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً»**[٣] .

جديرٌ بالذكر: أنّ هاتين الخطبتين الملتهبتين ما هما إلّا فصلان لكتابٍ واحدٍ يُمكن أن نعنونه باسم «الوصايا الأخيرة لإيقاظ الأمّة»، فألقت الأولى في محضر الصحابة، وألقت الثانية في محضر الصحابيّات؛ لتتمّ الحجّة على الجميع. ولو تأمّلنا في كلّ فقرةٍ من الفقرات التي انتخبناها من الخطبتين فإنّنا نجدها منسجمةً تماماً مع التدابير النبويّة التي كانت تصبّ باتّجاه تثقيف الأمّة على مرشّح الخلافة الوحيد، الذي سيحمل الأمّة على المحجّة البيضاء ويعبر بها إلى برّ الأمان، والتحذير من الفرقة والاختلاف، والتذكير بما جرى في الأمم السالفة من انقسامٍ وانحدار، وقد علّق الرسول صلّى الله عليه وآله ذلك التمزّق والسقوط والانحدار، على الخروج

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) مرَّ تخريجه.

(٣) مرَّ تخريجه.

عن خطّ الرسالة، والدخول في مطامع الدنيا، وهنا جاءت السيّدة الزهراء عليها السلام لتقول لهم بأنّ الماضي الموحش لتلك الأمم الخارجة على خطّ الرسالة هو بعينه سيكون مستقبل الأمّة بعد أن تحقّق المحذور المتمثّل بالخروج عن خطّ الرسالة واتّباع السبل؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٣)، ولكن كما جاء في استشهاد بقيّة النبوّة عليها السلام في خاتمة خطبتها الثانية بقوله تعالى: ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ (هود: ٢٨).

فكانت الوصايا الأخيرة للسيّدة الزهراء برمّتها هي الفصل الأخير من الوصايا النبويّة، أو قل: التدابير النبويّة في حفظ الخلافة، وكانت من تلك الأمّة التي تشرَّدت من أجلها في شعب أبي طالب لثلاث سنواتٍ عجافٍ، وتركت أمّها الصديقة مسجّاةً على سفح جبلٍ قاسٍ قد سقته بدموعها ولفّته بلوعاتها، ودكدكته بحسراتها، فرقَّ ذلك الجبل القاسي وحفظ ذكراها والأجساد الطاهرة المودعة فيها، ولكنّها بعد ذلك الجهاد الطويل لم تجد لنفسها قبراً في ذلك السهل المسمّى بالبقيع، رغم أنّها قد أغرقته بدموعها الحارّة على فقد أبيها صلّى الله عليه وآله! فسلامٌ على ذلك السفح الذي اختار طريق الوفاء، وحسراتٌ ملء رمال المدينة على مستودعٍ خلا من شاهدٍ يدلّنا على مكان جثمانها الطاهر.

الطريق الثاني: إعلان غضبها وحنقها على الانقلابيّين

وهذا ما تجسّد في معظم كلماتها في الخطبتين السابقتين، ولكنّها لم تكتفِ بذلك، فقد بقيت مصرّةً على صدودها، حتّى عندما حاول أبو بكرٍ أن يسترضيها فإنّها تعاملت مع الموقف بمسؤوليّةٍ عاليةٍ، مسؤوليّة الأمّة الآيلة للسقوط جرّاء ما أنتجته السقيفة، فلم يكن يسمح لها الموقف الشرعي والعقائدي أن ترتضي خليفةً لرسول الله صلّى الله عليه وآله غير ما أراده الله تعالى ورسوله، وهذا ما يحكي قوّة

بصيرتها، وشدّة ملازمتها للحقّ، فمضى الأوّل وفي قلبه نيران حسرةٍ لا يُطفيها وابلٌ من السماء، إنّها حسرة عدم تحصيل رضا فاطمة، ولا زالت كلمات النبيّ صلّى الله عليه وآله تطرق أذنه: «**إنّ الله يرضى لرضاكِ ويغضب لغضبكِ**»[1]، و«**إنّ فاطمة بضعةٌ منّي، مَن أغضبها أغضبني**»[2]، فمضت عليها السلام وهي غاضبةٌ عليهم، بل على كلّ ما سيقع في أرجاء الأمّة، من فرقةٍ وضلالٍ وخسرانٍ مبينٍ.

الطريق الثالث: منع الانقلابيّين من الصلاة عليها وحضور جنازتها

وهذا ما نجحت فيه بنت النبوّة عليها السلام لترك سؤالٍ لا زال ينبض بالحياة، لماذا منعت القوم من المشي بجنازتها والصلاة عليها؟ فما ذلك إلّا تعبيرٌ عميقٌ وصريحٌ عن رفضها المطلق لتمرّد الانقلابيّين على الوصايا النبويّة، وأيضاً لكي تمضي وصيّتها في إعفاء قبرها ليبقى ذلك شاهداً صارخاً على مظلوميّتها العظيمة.

مظلوميّة السيّدة فاطمة على باب كلّ مسلم ومؤمن

كانت ولا زالت مظلوميّة السيّدة فاطمة عليها السلام تقرع باب كلّ مسلمٍ آمن بالرسالة المحمّديّة وباب كلّ مؤمنٍ آمن بإمامة وولاية وخلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ولأنّها عاشت مظلوميّةً في أمّها وأبيها وفي زوجها ونفسها وأولادها وبناتها، وهي بنت النبوّة وبقيّة الوحي، فذلك ما يجعل مظلوميّتها شديدةً عميقةً. وبالرغم من كون كلّ المعطيات كانت تقتضي تكريمها وحفظ حرمتها، لاسيّما من الصحابة الكبار الذين عاشوا محنة النبيّ صلّى الله عليه وآله وهجرته وعذاباته، ولكنّ الواقع لا يُنبئ بذلك، فقد غدروا بها وأوقدوا الحطب على أعتاب بابها أو ـ في الأقلّ ـ هدّدوا أن يفعلوا ذلك وأقسموا عليه، وكأنّها

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) مرَّ تخريجه.

عليها السلام سبيّةٌ من سبايا الروم والديلم، فما رعوا فيها خصيص قرابتها من رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم يرعوا فيها حملها وهي مُقرب، ولم يراعوا فيها كونها أمّاً لأبيها وأمّاً لسبطي رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم يرعوا فيها حبّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لها وتقريبه إيّاها، فتحسّسوا منها، وضيّقوا عليها، وسعوا لمنعها حتّى من البكاء على أبيها صلّى الله عليه وآله، فقد كانت عليها السلام تطيل البكاء على مصيبتها بفقد أبيها صلّى الله عليه وآله، فلا ترقأ لها دمعة، ولا تهدأ لها زفرة، ولمَّا أبت أن تكفّ عن بكائها على رسول الله صلّى الله عليه وآله بنى لها الإمام عليه السلام بيتاً في البقيع سُمِّي ببيت الأحزان[1]، تذهب إليه أوّل النهار وتعود في آخره، تسكب دموعها ولوعاتها على فراق أبيها صلّى الله عليه وآله، وعلى غربتها في قومٍ لم يرعوا حقّها ولا حقّ زوجها.

إنّ من الرسوم القرآنيّة الواجبة الاتّباع على كلّ مسلمٍ ومؤمنٍ: مودّة قربى الرسول صلّى الله عليه وآله، فذلك هو أجر تبليغه رسالته لنا؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىَ**﴾ (الشورى: ٢٣)، ومن المودّة إنصافها في

---

(١) تقول الرواية: «أقبل أمير المؤمنين عليه السلام حتّى دخل على فاطمة صلوات الله عليها وهي لا تفيق من البكاء ولا ينفع فيها العزاء، فلما رأته سكنت هنيئةً له فقال لها: يا بنت رسول الله إنّ شيوخ المدينة يسألونني أن أسألك إمّا تبكين أباك ليلاً وإمّا نهاراً. فقالت: يا أبا الحسن ما أقلَّ مكثي بينهم، وما أقرب مغيبي من بين أظهرهم، فو الله لا أسكت ليلاً ولا نهاراً أو ألحق بأبي رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقال لها عليّ عليه السلام: افعلي يا بنت رسول الله ما بدا لك. ثمّ إنّه عليه السلام بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يسمّى بيت الأحزان، وكانت عليها السلام إذا أصبحت قدّمت الحسن والحسين عليهما السلام أمامها وخرجت إلى البقيع باكيةً، فلا تزال بين القبور باكيةً، فإذا جاء الليل أقبل أمير المؤمنين إليها وساقها بين يديه إلى منزلها». [بحار الأنوار، للمجلسي: ج٤٣ ص١٧٧؛ بيت الأحزان، في ذكر أحوال سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، للشيخ عبّاس القمّي: ص١٦٥].

ما جرى عليها من زعماء السقيفة، ولا يحلّ لمسلمٍ ومؤمنٍ أن لا يكون ناصراً لها في ذلك ومؤدِّياً لحقّها. فإذا كان الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله يغضبان لغضبها ويرضيان لرضاها فكيف بنا كمسلمين ومؤمنين؟ ولذلك فالسكوت عن مظلوميّتها، بأيّ عنوانٍ كان، إنّما هو تعبيرٌ عن انعدام مودّتها المفروضة قرآنيّاً على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ، أو عدم المبالاة بذلك، ولا يتسنّى للمؤمن أن لا يتمسّك بموقفها الواضح والصريح من السقيفة وما أنتجته، وإلَّا لا معنى لحديث التمسّك بالثقلين، الكتاب والعترة، وهي سيّدة العترة، وحيث إنّ القرآن الكريم آمرٌ بمودّتها بل ونصرتها، والسنّة الشريفة آمرةٌ بالتمسّك بها وبمواقفها المعصومة، فإنّه من المتعيّن شرعاً على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وعلى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، إنصافها من ظلَمتها، ونصرتها على أعدائها.

ولذلك كلّه فإنّ مظلوميّة الزهراء عليها السلام تجثو على أعتاب كلّ مسلمٍ ومؤمنٍ، وإنّ الله تعالى غداً سائلنا عنها؛ فحديث التمسّك بالثقلين ـ كتاب الله وعترة نبيّه ـ هو عهد الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وميثاقه، وعلى الأمّة أن تفي بعهدها وميثاقها، وإلَّا فنقض العهد والميثاق موجبٌ للّعنة والعذاب، كما هو حال الكثير من بني إسرائيل الذين نقضوا العهد والميثاق، فإذا أدركت الأمّة عهدها وميثاقها في كتاب الله وعترة نبيّه صلوات الله عليهم أجمعين، فإنّه يتعيّن عليها اتّباع الثقلين ومواصلتهما، وإلَّا صرنا كبني إسرائيل؛ قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (الرعد: ٢٥)، وقد نقضوا كنقض بني إسرائيل ميثاقهم، ومصير بني إسرائيل لعنهم وتحجّر قلوبهم؛ قال تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...**﴾ (المائدة: ١٣)، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

زفرات ملء عالم التكوين

تقدّم عن العلّامة المجلسي: «أنّ تأثير مصيبتها ـ صلوات الله عليها ـ على قلوب أولادها الأئمّة الأطهار عليهم السلام آلم من حزّ الشفار، وأحرّ من جمرة النار...»، ولذلك كانت تسكب الدموع، وتخشع القلوب لمجرّد ذكر اسمها، فما تركته مصيبتها بفقدها وما جرى عليها في حادثة الدار، وانحسار الناس عن العترة، كان يقرح العيون ويدمي القلوب ويصيب العقول بالدهشة، فمصيبتها بجملةٍ واحدةٍ: زفراتٌ ملء عالم التكوين.

الزفرة الأولى: لأجلها تُكرَّم الفواطم، فبأيّ شيء كرّمها القوم؟

عن فضالة بن أيّوب عن السكوني قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا مغمومٌ مكروبٌ، فقال لي: **يا سكوني ممَّا غمّك؟** قلت: وُلدت لي ابنة، فقال: **يا سكوني على الأرض ثقلها، وعلى الله رزقها، تعيش في غير أجلك، وتأكل من غير رزقك**. فسُرِّي والله عنّي. فقال لي: **ما سمّيتها؟** قلت: فاطمة. قال: آه آه، ثمّ وضع يده على جبهته... **أمَّا إذا سمّيتها فاطمة فلا تسبّها ولا تلعنها ولا تضربها**»[1].

فإذا كان الإمام الصادق عليه السلام يشدّد على السكوني بضرورة احترام ابنته لأنّ اسمها فاطمة، فلأجل فاطمة لابدّ من إكرام الفواطم، فكيف يتسنّى لأحدٍ ترويع فاطمة عليها السلام بتهديدها بأن يحرق عليها دارها؟

بعبارةٍ أخرى: إذا كان الاحتياط بحفظ كرامة السيّدة فاطمة عليها السلام في حفظ كرامة المتسمّيات باسمها فكيف بها؟ وما يُقال بمَن أساء لها؟

حتّى لو تصوّرنا أنّ الجناة كانوا من أهل الفظاظة، والقساة الذين قُدّت قلوبهم من حجر، وأنّهم نفوسهم مجبولةٌ على حقدٍ قديمٍ وضغينةٍ سوداء مظلمة،

---

(١) الفروع من الكافي، للكليني: ج١ ص٤٤٧ ح١٠٦١٤؛ تهذيب الأحكام، للطوسي: ج٨ ص١١٢ ح٣٨٧.

ولكنّها فاطمة بنت النبوّة والرسالة، فاطمة التي طالما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يُقبّل رأسها ويقول في حضرتها: **فاطمة فداك أبوك**[١]، فكيف يهمّون بحرق دارها؟ فهكذا القوم قاموا بتكريمها!

الزفرة الثانية: تكريم تضحيات الزهراء عليها السلام بحزمةٍ من حطب

من عادة العقلاء أن يجلبوا معهم باقة زهورٍ يضعونها على أعتاب المضحّين من أجلهم، ويتفنّنون في صنع باقة الزهور وانتقاء ألوانها وأجناسها، وهكذا القوم فعلوا مع السيّدة الزهراء عليها السلام في تكريمها، ولكنّهم جاؤوها بحزمة حطبٍ بدلاً من باقة الزهور، فوضعوها على أعتاب بابها الذي طالما وقف عنده النبيّ، وكان يمرّ به إذا خرج إلى صلاة الفجر فيقول: الصلاة، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣)[٢]، وينادي صلّى الله عليه وآله في أهل هذا البيت: «**أنا حربٌ لمن حاربكم، سلمٌ لمن سالمكم**»[٣].

إنّه باب رسول الله صلّى الله عليه وآله وبيته[٤]، وهو الباب الذي لا يُوصد

---

(١) مرّ تخريج حديث بهذا المعنى.

(٢) مرَّ تخريجه.

(٣) المعجم الكبير، للطبراني: ج٣ ص١٧٩ ح١٦١؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٧ ص١٤٤؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٣ ص١١؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٢ ص١٢٢؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص٢٢٣؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١٦٩؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٥ ص٤٣٦ ح٩٦٩٨.

(٤) ورد في ذلك حديثٍ طويلٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، قاله عندما اقتربت وفاته، جاء فيه: «**ألا إنَّ فاطمة بابها بابي، وبيتها بيتي، فمَن هتكه فقد هتك حجاب الله**». [بحار الأنوار، للمجلسي: ج٢٢ ص٤٧٧]. وقد كان الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يقول في ذيل هذا الخبر: «**هُتك والله حجاب الله، هُتك والله حجاب الله، هُتك والله حجاب الله**». [المصدر نفسه].

من دون سائر الأبواب الأخرى المطلّة على المسجد النبويّ[1]، لطهارته وقداسته، ولكنّ القوم مصرّون على تصفية مَن فيه، وما كانوا يجرؤون على ذلك إلّا لعلمهم بإنّ صاحب الدار قد أوصاه رسول الله صلّى الله عليه وآله بالصبر وكظم غيضه، وهنا تشتدّ الزفرات، فسيف عليّ أغمده رسول الله صلّى الله عليه وآله بلجام الصبر على ما سيلحق بوصيّه من القوم، وسيوف الجُناة تمزّق الحجب، ولهب النيران تكاد أن تلتهم باب فاطمة، فالويل كلّ الويل لمن ظلمها، واغتصب حقّها[2]، وساهم في إزهاق نفسها الزكيّة، الراضية المرضيّة صلوات الله وسلامه عليها، التي قضت نحبها بعد أن تجرَّعت مرارة الدنيا، فأُثيبت على ذلك بحلاوة الآخرة، كما وعدها أبوها رسول الله صلّى الله عليه وآله من قبل

---

(١) حديث سدّ الأبواب حديثٌ مستفيضٌ، ومنقولٌ في كتب الفريقين، عن ميمون أبي عبد الله، عن زيد بن أرقم، قال: «كان لنفرٍ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أبوابٌ شارعةٌ في المسجد، فقال يوماً: **سدّوا هذه الأبواب إلّا باب عليّ**. فتكلّم في ذلك الناس، قال: فقام رسول الله صلّى الله عليه وآله، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **أمّا بعد، فإنّي أمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب عليّ، فقال فيه قائلكم، وإنّي والله ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكنّي أُمرت بشيءٍ فاتّبعته**». [انظر: أمالي الصدوق: ص٤١٣ ح٥٣٧؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٤ ص٣٦٩؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٢٥؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١١٤؛ فتح الباري، ابن حجر: ج٧ ص١٢؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١١٨ ح٨٤٢٣؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، النسائي: ص٧٣؛ التاريخ الكبير، محمّد بن إسماعيل البخاري: ج١ ص٤٠٨؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص٢٣٥؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٧٩].

(٢) ورد في ذلك خبرٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقّ السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام: «**ويلٌ لمن ظلمها وابتزّها حقّها، اللّهُمَّ إنّي منهم بريء**». [الصراط المستقيم، زين الدين العاملي: ج٢ ص٩٣].

ذلك في قوله لها: «**يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة**، فقالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه، فأنزل الله سبحانه: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ (الضحى: ٥)»[١].

(١) مرَّ تخريجه.

الفصل السادس

القتال على التنزيل والتأويل

- تمهيدان
- الفرق بين مهمّة التنزيل ومهمّة التأويل
- وقفةٌ مع حديث المناقب
- تحديد المراد من التنزيل والتأويل
- النبوّة تقاتل على التنزيل
- الإمامة تقاتل على التأويل
- المراد من القتال على التأويل
- الخصوم في القتال على التأويل
- القتال على التأويل فقءٌ للفتنة
- استمرار معركة القتال على التأويل

تمهيدان

التمهيد الأوّل: مهمّة النبيّ في إثبات وحيانيّة القرآن

كان النبيّ صلّى الله عليه وآله في مواجهةٍ مريرةٍ مع قريش لإثبات وحيانيّة القرآن الكريم، وأنّه من عند الله تعالى وليس من نفسه، وكانت قريش تواجهه بعنفٍ وتُكذّبه في نبوّته وفي وحيانيّة القرآن، ولم ترعوِ قريش، ولم تستفق من غيِّها إلّا بطرْق السيف على رؤوسها، فدخلوا الإسلام في فتح مكّة وهم غارقون في هزيمتهم النكراء، وكادوا أن يعيشوا عبيداً للنبيّ صلّى الله عليه وآله أبد الدهر لولا أن منّ عليهم فأطلقهم لوجه الله وجعلهم طلقاء ما بقي الدهر.

وهكذا أناخت قريش ركابها وأُلجم عنفوانها بصولة الحقّ ودولة الإسلام، ثمّ بدأت رحلة الصراع الداخلي الجديد، ولم يكن هذا الصراع الذي ظهر دُخانه في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله بأيسر من الصراع السابق، ولكنّهم كانوا أذكياء هذه المرَّة فأجَّلوا معركتهم لما بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله، ولكنّه صراعٌ من نوع آخر، ولابدّ لهم من سطوةٍ، ولابدّ لهم من مساحةٍ تمسّ القرآن الذي لا زالت منه في أنفسهم شيء، كما كان يقول أبو سفيان يوم دُعي للإسلام وهو يرى جيش الرسول يدخل مكّة من أبوابها الأربعة، فسألوه عن الشهادة لله بالوحدانيّة فقبل، ثمّ سألوه الشهادة للنبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله بالرسالة، فقال: أمّا هذه ففي نفسي منها شيء![1].

---

(١) لمَّا أُدخل أبو سفيان على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم سأله أن يؤمِّنه، فلمّا رآه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم قال له: **ويلك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إلٰه إلّا الله؟!** فقال: بأبي أنت وأمّي ما أوصلك وأجملك وأكرمك! والله لقد ظننت أنّه لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً. فقال: **يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله؟**

ولعلّه كان ينتظر من أصنامه ـ التي لم يخلص لها يوماً بقدر ما كان يخلص لتجارته بها ـ أن تفعل له شيئاً، كان ينتظر معجزةً من اللاشيء! ولم يطل به المقام وإذا بكفّي العبّاس بن عبد المطلب ـ وكان العبّاس صديقاً له منذ الطفولة ـ على كتفي أبي سفيان، مُلفتاً نظره إلى انتصار النبيّ صلّى الله عليه وآله وصدقه بوعده الذي قطعه على نفسه يوم خرج من مكّة، حيث توعّدهم بدخول مكّة فاتحاً من أبوابها الأربعة، فأخذ أبا سفيان الذهول من هذا الانتصار الباهر، ولكنّه لم يُفارق عادته الجاهليّة، فقال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً! فأجابه العباس بكلمةٍ أراد بها أن يُخرجه ـ ولو للحظاتٍ ـ من سباته الجاهلي: ويحك! إنّه ليس بملك، إنّها النبوّة[1].

التمهيد الثاني: مهمّة الدفاع عن معاني القرآن

لقد وقعت في عهد أمير المؤمنين معارك ثلاثة، في مواجهة الناكثين في معركة الجمل، والقاسطين المنافقين في معركة صفّين، والمارقين الخوارج في النهروان، ولأنّ الإسلام الأمويّ كان يشكّل طرفاً حسّاساً في هذه المواجهات، فكان شريكاً في الجمل، وزعيماً في صفّين، ومحرّضاً في النهروان، فقد تعامل تاريخيّاً وإعلاميّاً مع تلك المعارك بصورةٍ مختلفةٍ تماماً، فقد أسمى النهج الأموي هذه الحروب بحروب الفتنة، والعصر الذي وقعت فيه بعصر فتنة، لتوجيه التهم بالضمن إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهذا ما نجده بوضوحٍ في كلمات ابن

فقال: أمّا هذه ففي النفس منها شيء. فقال له العبّاس: ويلك إشهد بشهادة الحقّ قبل أن تُضرب عنقك، فشهد وأسلم. [انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص٢٤٥؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٣٣١؛ تاريخ ابن خلدون: ج٢ ص٤٣؛ النزاع والتخاصم: ص٥٧].

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٥ ص١٧٥؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٣٣٢؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٤ ص٣٣٢.

تيميّة، حيث يقول في منهاج سنّته: «والذي عليه أكابر الصحابة والتابعين أنّ قتال الجمل وصفّين لم يكن من القتال المأمور به، وأنّ تركه أفضل من الدخول فيه، بل عدّوه قتال فتنة، وعلى هذا جمهور أهل الحديث وجمهور أئمّة الفقهاء، فمذهب أبي حنيفة فيما ذكره القدوري أنّه لا يجوز قتال البغاة إلّا أن يبدؤوا بالقتال، وأهل صفّين لم يبدؤوا عليّاً بقتال»[1]! فصار معاوية عند ابن تيميّة مظلوماً ومدافعاً عن نفسه، وكأنّ عليّاً عليه السلام قد ذهب بجيشٍ من الكوفة إلى الشام، ولم يأتِ معاوية بجيشه الجرّار إلى صفّين في شمال العراق لحرب عليّ عليه السلام، وكأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يُروَ عنه الخبر الصحيح السند في عليّ عليه السلام بأنّه سيُقاتل على التأويل كما قاتل هو عن التنزيل، وأنّه الشخص الذي امتحن الله قلبه للإيمان، وأنّ الله سيبعثه ليضرب رؤوس قريشٍ على هذا الدين، وهو الخبر الذي سمَّى عليّاً بخاصف النعل، والذي سيأتي تفصيله متناً وسنداً.

ثمّ يسترسل ابن تيميّة بنصبه وطعنه بعليّ وحروبه في الجمل وصفّين، معبّراً إيّاها بأوّل حروب الفتنة في الإسلام، وأنّ الصحابة عدلوا عن المشاركة فيها، فينقل عنهم قائلاً: «جعلوا قتال الجمل وصفّين من ذلك ـ أي: من حروب الفتنة ـ بل جعلوا ذلك أوّل قتال فتنةٍ كان في الإسلام، وقعدوا عن القتال، وأمروا غيرهم بالقعود عن القتال، كما استفاضت بذلك الآثار عنهم، والذين قاتلوا من الصحابة لم يأتِ أحدٌ منهم بحجّةٍ توجب القتال لا من كتابٍ ولا من سنّة». فهو قتالٌ غير مشروعٍ بنظر ابن تيميّة.

ثمّ يقول: «بل أقرّوا بأنّ قتالهم كان رأياً رأوه»، وهذا تفسيقٌ ظاهرٌ من ابن

---

(١) منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة: ج٨ ص٥٢٢ فما بعد؛ وأيضاً في طبعة الأربعة مجلّدات: ج٤ ص٦٧٦ـ٦٧٧.

تيميّة للصحابة لأنّه قاتلوا وتسبّبوا في فتنٍ من غير حجّةٍ ولا دليلٍ!

ثمّ يرجع لينفي عن الإمام عليّ عليه السلام كلّ حجّةٍ شرعيّةٍ في قتاله في الجمل وصفّين! فيقول: «وكان عليّ أحياناً يظهر فيه الندم والكراهة للقتال؛ ممّا يبين أنّه لم يكن عنده فيه شيءٌ من الأدلّة الشرعيّة ممّا يوجب رضاه وفرحه، بخلاف قتاله للخوارج...»[(١)].

بهذا المنطق يتعاطى الإسلام الأموي في قراءته للأحداث، وتحديداً فيما يتعلّق بخلافة الإمام عليّ عليه السلام وقتاله في حروبه الثلاث، وسيأتي بيانٌ وتفصيلٌ وتحليلٌ لحروب عليّ عليه السلام وكيف أنّها كانت بأمرٍ إلهيٍّ وبشارةٍ نبويّةٍ عميت عنها عيون أُميّة وانكمشت عنها أقلام التيميّة.

جديرٌ بالذكر: أنّ ابن تيميّة هذا طالما ناقض نفسه وتهافت في أقواله، فهذه الجولة التسقيطيّة لأمير المؤمنين عليّ والطعن الصريح بخلافته وشرعيّة حروبه قد سبقها في الجزء السابق من منهاجه الأموي بيانٌ أقرَّ فيه بأنّ الحقّ مع عليّ وأن معاوية كان على الباطل، حيث يقول: «وعليّ ومَن معه أولى بالحقّ من معاوية وأصحابه كما ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: تمرق مارقةٌ على خير، فرقةٌ من المسلمين تقتلهم، أولى الطائفتين بالحقّ، فدلَّ هذا الحديث على أنّ عليّاً أولى بالحقّ ممّن قاتله، فإنّه هو الذي قتل الخوارج لمّا افترق المسلمون فكان قومٌ معه وقومٌ عليه، ثمّ إنّ هؤلاء الذين قاتلوه لم يُخذَلوا بل ما زالوا»[(٢)].

بقي أن نُشير إلى أنّ ابن تيميّة طالما حاول الإشارة إلى أنّ عليّاً لم يكن محلّ وفاقٍ بين الصحابة، حتّى يوم صار خليفةً فإنّ الصحابة قد اعتزلوه، لاسيّما بعد ظهور بوادر الفتنة الأُولى على يد طلحة والزبير وعائشة في معركة الجمل، وفيما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ج٧ ص٥٧.

تقدّم منه نلاحظ إشارةً واضحةً لذلك، وهو قوله: «جعلوا ـ أي: الصحابة ـ قتال الجمل وصفّين من ذلك ـ أي: من حروب الفتنة ـ بل جعلوا ذلك أوّل قتال فتنةٍ كان في الإسلام».

ثمّ يتحدّث عنهم بصيغةٍ توحي بأنّ السواد الأعظم من الصحابة قد فارقوه، حيث يقول: «وقعدوا عن القتال، وأمرهم غيرهم بالقعود عن القتال»، ولأنّ كلامه هذا باطلٌ جملةً وتفصيلاً فقد أراد خداع الأمّة بأُكذوبته هذه فقال بعدها مباشرةً: «كما استفاضت بذلك الآثار عنهم».

ولعلّه كان يقصد بالصحابة العظماء الذين تركوا عليّاً واعتزلوا: سعد بن أبي الوقّاص وعبد الله بن عمر وأُسامة بن زيد، فلا يوجد سواهم ممّن اعتزل عليّاً، وأمّا طلحة والزبير وابناهما فكانوا محاربين له، وهكذا الحال في معاوية والشرذمة القليلة من منافقي الصحابة ممّن كانوا معه فآثروا الدنيا على الآخرة، من قبيل عمرو بن العاص ومَن كان على شاكلته.

وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فبشهادة علماء أهل السنّة أنّ جُلَّ الصحابة الذين قاتل بهم رسول الله صلّى الله عليه وآله قد قاتل بهم وصيّه وخليفته أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في حروبه الثلاث؛ قال صاحب الأنوار الباهرة: «لم يكن من الصحابة مع معاوية إلّا عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير ومعاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد في آخرين قلائل، بينما كان مع سيّدنا عليّ سبعون بدريّاً، وسبعمائة من أهل بيعة الرضوان، وأربعمائة من سائر المهاجرين والأنصار، وباقيهم من أهل العراق والقبائل العربيّة الذين رأوا الحقّ مع عليّ»[1]، فانظر لتدليس ابن تيميّة وحنقه الشديد على أمير المؤمنين عليه

---

(١) انظر الحاشية في كتاب «الأنوار الباهرة بفضائل أهل البيت النبويّ والذرّية الطاهرة» لأبي الفتوح عبد الله بن عبد القادر التليدي المغربي: ص٦٩.

السلام، حيث يقول بأنّ الصحابة اعتزلوا عليّاً، ونأوا بأنفسهم عن الفتنة، فالصحابة عنده سعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد لا غير؟ وإنّما عظَّم أمرهم ورفع من شأنهم لأمرين، الأوّل: لأنّهم لم يُبايعوا عليّاً، والثاني: لأنّهم بايعوا معاوية فيما بعد!

عودٌ على بدء

وهنا ينبغي الإشارة إلى أمرين أساسيّين[1]:

الأمر الأوّل: التنزيل والتأويل حقيقتان قرآنيّتان

إنّ صريح القرآن الكريم هو في أنّ للقرآن تنزيلاً وتأويلاً؛ قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧)، والمراد من «الكتاب» هو القرآن، والمشهور في عود الضمير في كلمة «تأويله» إلى متشابه القرآن دون محكمه، وما نراه في المقام هو عود الضمير إلى القرآن نفسه، ولا يختصّ بالمتشابه، كما أنّ التنزيل لا يختصّ بالمحكم وإنّما يشمل القرآن كلَّه، فالقرآن له تنزيلٌ وله تأويلٌ، بمعنى: أنّ له ظاهراً، وهو عالم التنزيل، وأنّ له باطناً، وهو عالم التأويل.

قال ابن قيّم الجوزيّة: «وهذا التأويل يعمّ المحكم والمتشابه والأمر والخبر؛ قال جابر بن عبدالله في حديث حجّة الوداع: ورسول الله بين أظهرنا ينزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله، فما عمل به من شيءٍ، عملنا به، فعلمه بتأويله هو علمه

---

(١) سنوجز هذين الأمرين، ومَن رام التفصيل والوقوف على مجموعة الآراء من الفريقين، والمناقشات فيها، فعليه بكتابينا: «علم الإمام» و«الراسخون في العلم». (منه دام ظلّه).

بتفسيره، وما يدلّ عليه وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه»[١].

والعبارة واضحةٌ في كون التأويل ليس مختصّاً بالمتشابه، وإنّما يشمل المحكم والمتشابه، أي: يشمل القرآن بأسره، وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله عالمٌ بتأويله في محكمه ومتشابهه.

وقال العلّامة الطبأطبائي: «إنّ لجميع القرآن محكمه ومتشابهه تأويلا»[٢]، وهي عبارةٌ أشدّ وضوحاً ودلالةً في كون القرآن لا يختصّ تأويله بمتشابهه.

الأمر الثاني: شمول الراسخين في علم التأويل

يتّضح ممَّا تقدّم: أنّ حرف الواو في قوله تعالى: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ هي عاطفةٌ وليست استئنافيّة، فيكون للعالم بتأويل القرآن مصداقان، الأوّل: هو الله تعالى، والثاني: هم الراسخون في العلم، فهنالك قراءتان، الأولى تقول بالوقف والاستئناف، والثانية تقول بالعطف، وهما قولان مشهوران في المدرستين معاً.

قال ابن تيميّة: «وفيها قولان وقراءتان، منهم مَن يقف عند قوله ﴿**إِلَّا اللَّهُ**﴾، ويقول: الراسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، لا يعلمه إلّا الله، ومنهم مَن لا يقف بل يصل بذلك قوله تعالى: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾، ويقول: الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، وكلا القولين مأثورٌ عن طائفةٍ من السلف»[٣].

إذن إلى هنا تكون المحصّلة، هي:

أوّلاً: أنّ للقرآن تنزيلاً وتأويلاً.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة، ابن القيم الجوزيّة: ج١ ص١٨١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج٣ ص٦٣.

(٣) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيميّة (مختارات): ج١ ص٢٣٩؛ وأيضاً: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ابن تيميّة الحرّاني: ج٤ ص٧٢.

ثانياً: أنّ التأويل شاملٌ للقرآن بأسره، فلا يختصّ بالمتشابه.

ثالثاً: أنّ العالم بالتأويل هما: الله تعالى والراسخون بالعلم، كما هو أحد القولين المشهورين.

رابعاً: أنّ أوّل العالمين بتأويل القرآن بصفته راسخاً في العلم هو رسول الله صلّى الله عليه وآله.

الفرق بين مهمّة التنزيل ومهمّة التأويل

وهنا يكمن الأمر الخطير والمهمّ، والمتعلّق بحقيقة التنزيل والتأويل، حيث دلَّت النصوص الصحيحة والصريحة، على أنّ مهمّة التنزيل وإقامة التنزيل في حياة الناس، غير مهمّة ومسؤوليّة إقامة التأويل في حياتهم، أي: هنالك مسؤوليّتان، ولكلٍّ منهما مسؤولٌ تقع على عاتقه مسؤوليّة تنفيذ المهمّة التي أوكلت إليه، فبعد أن ثبت أنّ للقرآن تنزيلاً وأنّ له تأويلاً، فلابدّ من وجود مسؤولٍ عن التنزيل وآخر عن التأويل، وهنا تُطالعنا النصوص بأنّ هنالك مَن يقاتل على تنزيل القرآن، وهو النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهنالك مَن يقاتل على تأويل القرآن، وهو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبهما تتمّ المسؤوليّتان العظيمتان تجاه القرآن الكريم.

وهذا يكشف أنّ الظروف والملابسات التي تدور حول التنزيل هي غير الظروف والملابسات التي تدور حول التأويل، وكلّ واحدةٍ من المسؤوليّتين ستكون لها ظروفها الداعية إلى تحديد هويّة المواجهة وطبيعة الصراع، وبعبارة أخرى: إنّ شروط القتال على التنزيل شيءٌ، وشروط القتال على التأويل شيءٌ آخر، وهذا ما عنيناه بأنّ مهمّة التنزيل شيءٌ ومهمّة التأويل شيءٌ آخر.

وقبل الدخول في النصوص الدالّة على القتال على التنزيل والتأويل، وتحديد شخصيّة القائم بكلّ واحدٍ منها، لابدّ أن نُذكِّر بأنّنا سنسوق أخباراً تتوفّر فيها

ثلاثة شروط ، وهي:

الشرط الأوّل: أن يكون الخبر صحيحاً.

الشرط الثاني: أن يكون الخبر صريحاً.

الشرط الثالث: أن يكون الخبر متّفقاً عليه.

فإذا اجتمعت الأمّة الإسلاميّة على خبرٍ فإنّه يكون صحيحاً بالضرورة، وأقلّ ما فيه أنّه سيكون مصداقاً للخبر النبويّ المشهور: «**لا تجتمع أمّتي على خطأ**»، أو: «**لا تجتمع أمّتي على ضلالة**»[1].

الخبر الأوّل: رواه ابن حنبل عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ منكم مَن يقاتل على تأويله كما قاتلتُ على تنزيله**»[2].

وهذا الخبر يشير إلى الأمرين معاً:

أوّلاً: إنّ التنزيل شيءٌ والتأويل شيءٌ آخر.

---

(١) ورد هذا الخبر المستفيض ـ لاسيّما في صيغته الثانية ـ في مصادر كثيرة، منها: تحف العقول، لابن شعبة الحرّاني: ص٤٥٨؛ سنن ابن ماجة: ج٢ ص١٣٠٣؛ الفصول المختارة، المفيد: ص٢٣٩؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٣ ص٣٢٠ ح١٣٣١؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج٢ ص٢٨٠؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج١ ص١٧٧؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: ج٣ ص٣٠؛ الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص٢٧٨ ح١٨١٨؛ كشف الخفاء، العجلوني: ج١ ص٦٥؛ ج٢ ص٣٥٠ ح٢٩٩٩؛ نظم المتناثر من الحديث المتواتر، محمّد بن جعفر الحسني الكتاني: ص١٦١؛ تفسير ابن كثير: ج٢ ص١٤٧؛ العدّة في أُصول الفقه، الطوسي: ج٢ ص٦٢٥؛ الإحكام في أُصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي: ج٤ ص٤٩٦؛ المستصفى في علم الأُصول، أبو حامد الغزالي: ص١٤٠؛ المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي: ص٤٠٢؛ المحصول في علم أصول الفقه، فخر الدين الرازي: ج٤ ص٩٩.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٧ ص٣٩١ ح١١٢٨٩.

ثانياً: إنّ مسؤوليّة القتال على التنزيل تختلف عن مسؤوليّة القتال على التأويل.

وفي الخبر نفسه يقول أبو سعيد الخدري: «فقام أبو بكر وعمر، فقال: **لا، ولكنّه خاصف النعل**، وعليّ يخصف نعله»[١]، أي: اشرأبّت الأعناق لهذه المهمّة العظيمة، فإنّها مهمّةٌ ومنقبةٌ ما بعدها منقبةٌ، وهنا يقول مُحقّق الكتاب العلّامة شعيب الأرنؤوط في ذيل الحديث: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسن»، أي: حديثٌ صحيحٌ في متنه ومعناه، وحسنٌ في سنده.

جديرٌ بالذكر: أنّ عليّاً عليه السلام كان يخصف نعل الرسول وليس نعله الخاصّ به، فقد جاء في خبرٍ آخر لابن حنبل أيضاً عن أبي سعيد الخدري، قال: «كنّا جلوساً ننتظر رسول الله صلّى الله عليه وآله، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلَّف عليها عليٌّ يخصفها»[٢]، قال

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٧ ص٣٩١ ح١١٢٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج١٨ ص٢٩٦ ح١١٧٧٣.

قال السيّد الأستاذ دام ظلّه: هذا هو عليّ بن أبي طالب الذي نعتقده، فإنّه يتشرَّف بأن يخصف نعل رسول الله، ومنه يتّضح بشاعة الأصوات النشاز، التي تظهر على الفضائيّات وتتّهم الشيعة بأنّهم يفضّلون عليّاً على رسول الله! فما نعتقده في أمير المؤمنين عليّ وبصورةٍ عمليّة هو أنّه الجنديّ المطيع لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وأنّه كان يخصف نعل رسول الله، وهذه الطاعة والمتابعة والتواضع الشديد في الخدمة لرسول الله صلّى الله عليه وآله لا تجدونها في أيّ صحابيّ من صحابة النبيّ، فلم تجد فيهم من يتخلّف ليخصف نعل النبيّ، ولكنّه الفدائيّ العظيم، عليّ لا غير، يتخلَّف ليخصف نعل رسول الله، ليخلع عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله صفةً عظيمةً ويُوكل له مهمّةً كبرى، وهي القتال على تأويل القرآن، ثمّ يقرنه رسول الله بقتاله، فيكون واضحاً بأنّ قتال عليّ في الجمل وصفّين والنهروان كان على تأويل القرآن، كما قاتل رسول الله قريشاً وسائر المشركين على تنزيله، فإذا كانت حروب رسول الله صلّى الله عليه وآله جهاداً في سبيل الله فحروب عليّ الثلاثة كذلك، وليست هي حروب فتنةٍ كما يقول الإسلام الأموي.

الأرنؤوط: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الصحيح»[١].

الخبر الثاني: وهو ما جاء في تتمّة ما سبق في الخبر الذي رواه الحاكم، حيث يروي أبو سعيد الخدري: «فتخلّف عليها عليٌّ يخصفها، فمضى رسول الله صلّى الله عليه وآله ومضينا معه (أي: بعض الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر) ثمّ قام (أي: وقف) ينتظره وقمنا معه (أي: ينتظر عليّاً ووقفنا معه ننتظر عليّاً) فقال: إنّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلتُ على تنزيله»[٢].

يقول أبو سعيد الخدري: «فاستشرف لها القوم، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قال أبو بكر: أنا هو، قال: لا، قال عمر: أنا هو، قال: **لا، ولكن خاصف النعل ـ يعني** عليّاً ـ فأتيناه فبشّرناه، فلم يرفع به رأسه كأنّه قد كان سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله». قال الحاكم النيسابوري: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»[٣]، كما قال العلّامة شعيب الأرنؤوط: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ»[٤]، ونحن إنّما نقلناه في أكثر من مصدر ليتّضح أنّ المحقّقين الذين حقّقوا هذه الكتب كلّهم اتّفقوا على صحّة هذا الحديث، من قبيل ما قاله المحقّق أحمد حمزة الزين بعد أن نقل الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل، قال: «إسناده صحيح»[٥]، بل حتّى العلّامة شعيب الأرنؤوط نجده يُصحّح هذا الحديث، ويُعبّر عنه بالحديث الصحيح، ولكنّه في

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٣ ص٨٢ ح١١٧٩٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٢٢ ح٤٥٩٨؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٨ ص٢٩٦؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٦٣٩ ح٢٤٨٧

(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٢٢ ح٤٥٩٨.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج١٨ ص٢٩٦.

(٥) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: حمزة أحمد الزين: ج١٠.

موردٍ آخر جاء في كتاب «بيان مشكل الآثار» للطحاوي، كما سيأتي.

الخبر الثالث: وهو ما رواه الطحاوي، حيث روى الخبر ولكن بعبارةٍ مشابهةٍ للخبر أعلاه، مع اختلافٍ يسير يجعلنا نميل إلى أنّ هذه الرواية هي الأصل، وهي روايةٌ طويلة الذيل عن أبي سعيد الخدري جاء فيها: «كنّا قعوداً ننتظر رسول الله، فخرج إلينا من حجرة عائشة، فانقطعت نعله فرمى بها إلى عليّ عليه السلام ثمّ جلس»، وهذا ما يجعلنا نميل إلى كون هذا الخبر هو الأصل، لأنّ مقتضى انقطاع النعل هو أن يتوقّف لا أن يمشي ثمّ ينتظر عليّاً، يقول الخدري: «ثمّ جلس فقال: إنّ منكم لمن ليقاتلنّ على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله، فقال أبو بكر: أنا. قال لا. قال عمر: أنا. قال: **لا، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة**»[1].

وهنا يذكر رجاء الزبيدي ـ راوي الخبر عن أبي سعيد الخدري ـ: «فأتى رجلٌ عليّاً في الرحبة فقال: يا أمير المؤمنين! هل كان في حديث النعل شيء؟ قال: **اللّهُمَّ إنّك لتشهد أنّه ممّا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسرّه إليّ**»[2]، أي: ما من شيءٍ مرتبطٍ بالرسالة إلّا وأسرَّه رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام، وقد علَّق العلّامة شعيب الأرنؤوط على الخبر بقوله: «إسناده صحيح»[3].

---

(١) بيان مشكل الآثار، الطحاوي: ج١٠ ص٥١ ح٤٠٥٨ ح٤٠٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق. وممّن روى هذا الخبر (خبر خاصف النعل) ابن حبّان في صحيحه: ج١٥ ص٣٨٥. وهذا الخبر مهمّ جدّاً، حيث يقول فيه: «إسناده صحيحٌ على شرط مسلم»؛ وممّن أخرج هذا الحديث أيضاً: الإمام الحافظ عبد الله البغوي في كتابه «شرح السنّة»: ج١٠، تحقيق: زهير الشاويش، حيث يقول البغوي: «هذا إسنادٌ صحيحٌ»، ثمّ قال: «وقد احتجّ بمثله البخاري ومسلم في الصحيح»، يعني: قد احتجَّا بمثل هذا السند، ومعلومٌ لدينا سبب عدم نقلهما لهذا الخبر، فلو كان خاصف النعل ممَّن تميل إليه أنفسهما لنقلاه ووقفا عنده طويلاً، شرحاً وتعليقاً، ولكتب فيه المحقّقون مصنّفاتٍ كثيرةً.

ولو تأمّلنا في هذا الحديث في نقولاته المختلفة نجد فيه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد جعل قتال عليٍّ على تأويل القرآن على حدِّ قتاله للكفّار والمشركين والمنافقين على تنزيله، فهو يجعل مقاربةً بين القتالين، وهذه المقاربة لابدّ أن نلتفت إليها بعد ذلك، فالصحابة التفتوا إلى عظمة المقام، وقد عبَّر عنه الخدري بقوله: «فاستشرفنا»، أي: اشرأبّت الأعناق لهذا المقام الذي يكون فيه المقاتل على التأويل على حدّ قتال رسول الله على التنزيل، وأيّ مقامٍ أعظم من هذا المقام؟ وأيّ منقبةٍ وفضيلةٍ أعظم وأشرف وأخطر من هذه الفضيلة؟

جديرٌ بالذكر: أنّ هذا الخبر صحيحٌ على شرطي البخاري ومسلم وغيرهما، وقد نبّهنا لخلفيّة عدم روايتهما لهذا الخبر في الهامش المتقدّم، مع أنّ زبدة المحقّقين في الجرح والتعديل ـ ومنهم العلّامة شعيب الأرنؤوط وأحمد الزين والشيخ زهير الشاويش، بل حتّى العلّامة الألباني المتشدّد ـ يرون أنّ هذا الخبر صحيحٌ على شرط مسلم[1]، فلا مجال للتشكيك فيه، فضلاً عن عدم إمكان الطعن به[2].

وممّن روى هذا الخبر وصحّحه: الإمام الذهبي في «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»: ج٢ ص٣٣٦. فبعد أن نقل الرواية يقول محقّقه في حاشيته: «وإسناده صحيحٌ»؛ وممّن أشار إلى صحّته أيضاً محقّق كتاب «سبل الهدى والرشاد»: ج١١ ص٢٩٠؛ إذ قال: «وروى أبو يعلى برجال الصحيح عن أبي سعيد»، يعني: رجال صحيح البخاري أو غيره. (منه دام ظلّه).

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٦٣٩ ح٢٤٨٧.

(٢) ولمّا وجد الألباني نفسه محاصراً بصحَّة هذا الحديث، وأن يُسجِّل منقبةً عظيمةً للإمام عليّ، سلك طريقاً لإشغال قرّائه وإبطال أثر هذا الحديث العظيم، فصار يتوجّه بالطعن على السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي (صاحب كتاب المراجعات)، حيث يطعن به بما لا يناسب المنهج العلمي والطريقة العلميّة، لأنّ السيّد شرف الدين نقل الخبر ودافع عنه، وهذا ما لا يتّفق مع أهواء الألباني، فإنّ الألباني ومَن كان على منهجه عندما تصل

وقد ورد هذا الخبر الصحيح المبارك عن طرق علماء مدرسة أهل البيت، وفي مصادر كثيرة[1]، وستكون لنا وقفةٌ يسيرةٌ مع حديثٍ واحدٍ روى فيه أمير المؤمنين

القضيّة إلى الإمام عليّ، وإلى من يدافع عن عليّ، تجدهم يُصابون بحالةٍ من فقدان التوازن العلمي، والهدف هو توجيه أنظار القرّاء عن الحديث نفسه وإشغالهم بالنقودات السلبيّة التي تتّفق مع أهواء الخصوم، فنجد الألباني يقول في ذيل الحديث: «قد خبط عبد الحسين الشيعي في مراجعاته». [انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٦٣٩ ح٢٤٨٧]. ويقصد بذلك السيّد شرف الدين العاملي، ثمّ يُطلق قلمه للطعن فيه! وهو طعنٌ لو كان له موضعٌ لكان الأولى بالألباني أن يُوجّهه لأبي سعيد الخدري أو للحاكم النيسابوري أو لعميد مذهبهم ابن حنبل، لأنّهم نقلوا لهم خبراً بما لا تشتهي أنفسهم! ولم يجد الألباني موضعاً للطعن في السيّد العاملي سوى أنّه روى الخبر بلفظ «كما قُوتلتم على تنزيله»، بدلاً من: «كما قاتلت على تنزيله»، فيتّهم الألباني السيّد شرف الدين بأنّه حرَّف الحديث غمزاً في الصحابة وطعناً فيهم.

نقول: ولو أتعب الألباني نفسه قليلاً، وراجع أُصول الخبر في أقدم كتابٍ رواه، ومِن كتبهم، وهو كتاب مصنّف ابن أبي شيبة العبسي (١٥٩ـ٢٣٥هـ)، لرآه يقول فيه: حدّثنا ابن أبي عتيبة عن أبيه عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال: «كنّا جلوساً في المسجد فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجلس إلينا ولكأنّ على رؤوسنا الطير، لا يتكلّم أحدٌ منّا، فقال: **إنَّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قوتلتم على تنزيله**» ـ انظر: **كما قوتلتم على تنزيله**! ـ فقام أبو بكر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقام عمر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، **ولكنّه خاصف النعل في الحجرة**، قال: فخرج علينا عليّ ومعه نعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلح منها». [المصنّف، لابن أبي شيبة الكوفي: ج٧ ص٤٩٧ ح١٩؛ وفي طبعته المحقّقة الحديثة: ج١٧ ص١٠٥ ح٣٢٧٤٥].

فالأولى بالألباني إذن أن يوجّه طعنه لجميع من جاء في سلسلة خبر ابن أبي شيبة الكوفي، وعلى رأسهم أبو سعيد الخدري. (منه دام ظلّه).

(١) انظر: الكافي، للكليني: ج٩ ص٣٧٦ ح٨٢١٨؛ الخصال، للصدوق: ص٢٧٤ ح١٨؛ تهذيب الأحكام، للطوسي: ج٦ ص١٣٦ ح١، باب: أصناف من يجب جهاده.

أعظم مناقبه لأصحاب الشورى الذين نصّبهم عمر لانتخاب الخليفة من بعده، وقد جاء في هذا الخبر الطويل روايةً والعظيم طويّةً خبرُ «خاصف النعل»، ولأنّ الخبر قد اشتمل على أكثر من سبعين منقبةً من مناقب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فقد أسميناه بحديث المناقب، وستكون وقفتنا معه عمّا جاء في ذيله؛ فقد اشتمل على حقيقةٍ عظيمةٍ خطيرةٍ، تكشف عن عظمة وجلالة الإمام عليّ في اعتناقه للحقّ عقيدةً وسلوكاً، وتصاغر الآخرين في اعتناقهم لسياسة حفظ مصالحهم عقيدةً وسلوكاً! ولكن قبل الوقوف عند حديث المناقب نحتاج أن نُبرِّز أهمّ الحقائق المستفادة من حديث «خاصف النعل».

أهمّ الحقائق المستفادة من حديث «خاصف النعل»

هاهنا حقائق جمّةٌ على قِصر الحديث، وسوف نكتفي بذكر سبعٍ منها:

الحقيقة الأولى: تحديد الحروب المشروعة

إنّ الحروب المشروعة في الإسلام على قسمين، هما: القتال لأجل التنزيل، والقتال لأجل التأويل، وهذا يكشف بدوره أنّ الحروب إذا ما أرادت أن تأخذ صبغةً شرعيّةً، وتكون تحت لواء الإسلام، فلابدّ أن تكون راجعةً لأحد القسمين السابقين، أي: إمّا قتالٌ على تنزيل القرآن، وإمّا قتالٌ على تأويل القرآن، وإلّا فإنّها لا تدخل تحت الراية الإسلاميّة.

الحقيقة الثانية: حروب الرسول وحروب الإمام عليّ من سنخ واحد

لعلّ هذه الحقيقة من أهمّ الحقائق، وهي: أنّ الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله كانت حروبه كلّها هي من أجل التنزيل، كما أنّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كانت حروبه كلّها هي من أجل التأويل، أو قل: كانت حروبهما معاً من أجل القرآن لا غير، فحروبهما معاً من سنخٍ واحدٍ، في الشرعيّة والغاية والهدف، ومن ثمراتهما: حفظ القرآن وصيانته من التحريف، لفظاً ومعنىً وغايةً وهدفاً ومقصداً.

الحقيقة الثالثة: وحدة الخصم في القتال على تنزيل القرآن وتأويله

إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قاتل قريشاً خاصّةً والمشركين عامّةً على الإقرار بتنزيل القرآن، وما رفع السيف عنهم حتّى أقرّوا له بذلك، وكانت آخر فئةٍ كافرةٍ مشركةٍ أناخت ورضخت في فتح مكّة، فمنحهم حريّتهم قائلاً لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وأمّا في التأويل فقد قاتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الناكثين والمنافقين والمارقين الذي تأوَّلوا كتاب الله واتّخذوه غرضاً بينهم، وكم مِن هؤلاء كانوا خصوماً للنبيّ صلّى الله عليه وآله في قتاله لهم على التنزيل! وكم مَن أسلم قهراً، واستسلم صاغراً، فلم يدخل الإسلام إلى قلبه، وما كان له بعد الفتح أن يحرّك ساكناً فيما يتعلّق بتنزيل القرآن، فما كان له سوى ساحة التأويل، وقد قاتلهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ولم يرفع عنهم السيف إلّا بشهادته في محراب مسجد الكوفة، وسيأتي من يُكمل رحلته على تأويله، ليقيم بعدها دولة العدل الإلهي.

جديرٌ بالذكر: أنّ هنالك ثلاث قرائن لإثبات هذه الحقيقة (وحدة الخصم في قتال الرسول صلّى الله عليه وآله على التنزيل، وقتال عليّ عليه السلام على التأويل)، وهي:

القرينة الأولى: قوله صلّى الله عليه وآله: «**كما قوتلتم على تنزيله**»، والضمير موجَّهٌ إلى الذين كانوا مع النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهم صحابته، كما هو واضح، أو قل: هم عليّة القوم.

وجديرٌ بالذكر أيضاً: أنّ فيهم ـ يقيناً ـ من المبشَّرين بالجنّة بحسب اعتقاد مدرسة الصحابة، فإذا كانوا هم الذين سوف يُقاتلهم الإمام عليّ عليه السلام على تأويله، أو يُقاتل بعضهم، فذلك كافٍ جدّاً لبطلان حديث العشرة المُبشَّرة.

القرينة الثانية: الشواهد التاريخيّة على أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام في

الجمل وصفّين والنهروان كان في قباله ثلّةٌ غير قليلةٍ من الصحابة، بل من كبار الصحابة، فقد كان في قباله في الجمع الأوّل طلحة والزبير وابناهما، وهم من صحابة رسول الله، وكان في قباله في صفّين معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما من الصحابة؛ إذن فالشواهد التاريخيّة تثبت أنّ هذا القتال لم يكن خارج الدائرة الإسلاميّة، ولم يكن من قبيل الحروب التي قام بها الخليفة الأوّل أو الثاني أو غيره لتوسعة دائرة الإسلام، وإنّما في داخل الأمّة الإسلاميّة، أو قل: من أجل القرآن.

القرينة الثالثة: وهي القرينة التي أشار إليها العلّامة الألباني ـ والحقّ معه ـ حيث قال: «لقد ساق الحديث الشيعي المذكور في حاشية الكتاب ـ ويريد به السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه المراجعات ـ قال: كما قوتلتم على تنزيله، فحرَّف قوله صلّى الله عليه وآله: «**قاتلت**» إلى قوله: «**قُوتلتم**»؛ غمزاً في الصحابة وطعناً فيهم»[1]، والحقّ مع الألباني فيما فهمه من الخبر الذي نقله السيّد العاملي، وهو خبرٌ صحيحٌ رواه ابن أبي شيبة في المصنّف، وقد تقدّم تخريج الحديث منه، وهنا نؤكّد بأنّ من لوازم كلام النبيّ صلّى الله عليه وآله: الغمز بالصحابة الذين قاتلوا عليّاً، والطعن فيهم، مع أنّ الطعن في هؤلاء لا يحتاج لتصحيحه الرجوع لهذا الخبر؛ إذ يكفي في ذلك خروجهم على الإمام العادل المفترض الطاعة.

الحقيقة الرابعة: العلم المسبق للإمام بخبر قتاله على التأويل

إنّ الصحابة الذي سمعوا الحديث من النبيّ صلّى الله عليه وآله كانوا آخر مَن سمع منه الحديث، وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فقد كان عالماً به، ولذلك لمّا أخبروه وبشّروه بذلك لم يلتفت لهم، ففهموا أنّه قد سمعه من النبيّ صلّى الله عليه وآله في وقتٍ سابقٍ، وما روايته للصحابة إلّا لتعريفهم بهويّة مُتمّم رحلة القتال من أجل كتاب الله تعالى.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٦٤١.

الحقيقة الخامسة: عظمة القتال على التأويل كما القتال على التنزيل

إنّ منقبة القتال على التأويل لها من الأهمّية والعظمة ما للقتال على التنزيل، وهذا ما فهمه الصحابة؛ وذلك عندما اشرأبّت لها أعناقهم، وكلّ واحدٍ منهم تمنّاها لنفسه، فطمع بها أبو بكر وطمع بها عمر، ولم يجنيا سوى كلمةٍ واحدةٍ: (كلّا)، فأخذهم الفضول في الكشف عن هويّة وارث القتال من أجل كتاب الله، ولم يكن لها سوى خاصف النعل[1].

الحقيقة السادسة: القتال على التأويل وعدٌ إلهيّ لابدّ من وقوعه

وهي حقيقةٌ عظيمةٌ جدّاً، فقد جاء في الخبر: أنّ الصحابة قد اشرأبّت أعناقهم لهذه المنقبة العظيمة، وهذا يدلّ على كون القتال على التأويل كان وعداً إلهيّاً لابدّ من وقوعه، ووقوعه فيه مصلحةٌ عظيمةٌ جدّاً، على حدّ ما كان من مصلحة في القتال على تنزيله، ومنه يتّضح أنّ حروب عليّ عليه السلام للناكثين (أهل الجمل)، والمنافقين (جيش معاوية في صفين)، والمارقين (الخوارج) كانت وعداً إلهيّاً حقّقه الله تعالى على يد عليّ عليه السلام، وكانت فيها من المصالح العظيمة الجمّة على قدر ما كانت لحروب رسول الله صلّى الله عليه وآله على تنزيله، وتعساً للقائلين بأنّ حروب عليّ عليه السلام لأعدائه وأعداء الإسلام كانت حروب فتنة، فإذا كانت فتنةً فحروب الرسول صلّى الله عليه وآله ستكون كذلك، وكيف للوعد الإلهي بالخير والبركة أن يكون فتنة؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (الصافّات: ١٥٤).

الحقيقة السابعة: شرعيّة الحرب على التأويل تكشف هويّة الفتوحات

إنّ حديث «خاصف النعل» يُجرِّد ما يُسمَّى بحروب الردّة وحروب الفتوحات

---

(١) من الوجوه الخفيّة لصفة «خاصف النعل»: أن النعل يترك أثراً عند المشي، والأثر فعلاً هو لصاحب النعل، وخاصف النعل هو المقتفي لذلك الأثر، كما أنّ التأويل تابعٌ لأثر التنزيل.

ـ التي وقعت في عهد الخلفاء الثلاثة ـ من أيِّ سمّة، فهي ليست حروباً من أجل التأويل؛ لأنّ حديث خاصف النعل يختصّ عليّاً بالقتال على التأويل، بل الحديث يمنع منعاً تامّاً قيام أو مشاركة أبي بكر أو عمر أو عثمان في ذلك، فلمّا اشرأبّت لها الأعناق تمنّاها أبو بكرٍ وتمنّاها عمر، والجواب كلمةٌ واحدةٌ وافيةٌ، وهي: «لا، ولكن خاصف النعل»، وقد سارع النبيّ صلّى الله عليه وآله بتعريف صاحب الراية في القتال على التأويل ليغلق أبواب تمنّيات الصحابة الآخرين.

كما أنّ حروب الفتوحات ليست حروباً على التنزيل، ولو كانت كذلك لأخبر المتمنّين للقتال على التأويل بذلك، ولقال لأبي بكر لمّا قال: «أنا هو يا رسول الله» لا ولكنّك تقاتل على التنزيل، ولقالها لعمر عندما قام عمر فقال «أنا هو يا رسول الله»، أو يقول لأبي بكر: أنت تقاتل على التنزيل كما قاتلتُ على التنزيل، ويقول ذلك لعمر، ولكنّه صلّى الله عليه وآله نفى أن يكون لهما أيّ شيء من ذلك، فقال لهما كلمةً واحدةً يسيرةً حملت كلَّ المعاني، وهي: «لا».

فلم يكن قتال أبي بكر لأولئك المعترضين على خلافته، من قبيل مالك بن نويرة، قتالاً على التنزيل ولا قتالاً على التأويل، ولذلك فهي حروبٌ لا تنتمي لحروب النبيّ صلّى الله عليه وآله التي سمّاها النبيّ بالقتال على التنزيل، كما أنّها ليست حروباً على التأويل؛ لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله نفى أن يكون واحدٌ منهم يقاتل على التأويل، وقد حصر النبيّ صلّى الله عليه وآله الحروب الإلهيّة الشرعيّة والصحيحة بقسمين، حروبٍ من أجل التنزيل، وحروبٍ من أجل التأويل.

حروب الخلفاء الثلاثة لأولئك الذين سمعوا رسول الله في غدير خمّ وهو يُنصِّب عليّاً للإمامة والخلافة من بعده، فالتزموا بذلك ورفضوا بشكلٍ قاطعٍ خلافة الأوّل والثاني والثالث، ولنسمّها بحروب المعارضة، أي حروب الذين رفضوا أبا بكر وعمر وعثمان، إنّها حروبٌ لا تنتمي لأيّ قسمٍ من قسمي الحروب الشرعيّة التي أعلن عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله.

هكذا ينبغي أن نقرأ تلك الحقبة العصيبة، ونحلّل تناقضاتها وصراعاتها، ونحن اليوم نطالع ـ والتاريخ يعيد نفسه ـ العالم بأسره كيف يصف المعارضة السياسيّة التي تخرج في البلدان على أنّها إرهابٌ خارجيّ، وأنّهم عملاء، ويمثّلون أجنداتٍ خارجيّةً، ومن هذا القبيل، لأنّ هذه الحكومات لا تملك صفةً شرعيّةً في قتل المعارضة، ولا يملكون دليلاً على قتالهم، فهم لا يقاتلون من أجل القرآن، وإنّما من أجل الكرسيّ لا غير، ولو وصل الأمر إلى قتل حمَلة القرآن، فحملة القرآن الحقيقيّون هم العالمون بكتاب الله وليسوا حفظته فقط، وهؤلاء هم أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فهم الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٧٧ـ٧٩)، وعليّ عليه السلام من سادة المطهّرين، فكان الذين قاتلوه ـ ظالمين له في الجمل وصفّين والنهروان ـ إنّما قاتلوا سيّد حملة القرآن بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله، كما أنّ الذين أزاحوه عن مقامه الذي ارتضاه له الله ورسوله إماماً على الأمّة وخليفةً لرسول الله إنّما أزاحوا حامل القرآن عن مقامه، فكيف يكون قتالهم على تنزيلٍ أو تأويلٍ؟!

والنبيّ صلّى الله عليه وآله كان بصدد بيان الحقائق الكبرى التي ستجري، وأراد أن يُعطي صورةً واضحةً عمّا سيقع، فلماذا لم يُطمئن أبا بكر وعمر ويقول لهما كلمةً يسيرةً كما قالها لعليّ، فيقول: أنتما مثلي تقاتلان على التنزيل، وخاصف النعل يقاتل على التأويل.

وهنا يطرح السؤال نفسه: إذا لم تكن حروب الخلفاء الثلاثة على التنزيل ولا على التأويل، ولا تمتّ بأيّة صلةٍ لقسمي القتال الشرعي اللذين سمّاهما رسول الله صلّى الله عليه وآله، فأين ثمّ أين ثمّ أين نضع حروب الخلفاء الثلاثة؟

الواقع أنّ هذه قضيّةٌ تحتاج إلى دراسةٍ عميقةٍ مستقلّةٍ، لنعرف ما هي الدوافع الكامنة وراء هذه الحروب؟ وما هي الأهداف التي كانت مرسومةً لها؟ وما هي

منطلقاتها من حيث الشرعيّة وعدمها؟ ولذلك لابدّ من فتح نافذة التحقيق فيها، بل لابدّ من المحاكمة فيها، وعلى أهل المعرفة والتحقيق أن ينطلقوا من قاعدة انقسام القتال الشرعي التي بُيِّنت بلسان النبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث «خاصف النعل»، وأيضاً من تحديد المراد من التنزيل والتأويل، ومعنى القتال من أجلهما، ونحن قد بيّنّا قاعدة انقسام القتال الشرعي، كما سنُبيِّن أيضاً المراد من التنزيل والتأويل، وأمّا فيما يتعلّق بحروب الخلفاء الثلاثة فلعلّنا نُوفَّق لإفراد دراسةٍ مستقلّةٍ نُحقّق فيها ذلك، ثمّ الخروج برؤيةٍ جليّةٍ واضحةٍ تتكشَّف فيها الحقائق الخفيّة، ويكون الناس على بيّنةٍ من أمرهم[1].

وقفة مع حديث المناقب

حديث المناقب حديثٌ طويلٌ جدّاً، رواه الشيخ الطوسي في كتابه «الأمالي»، وسنقف على المقطع الأخير منه؛ ليتّضح لنا سرُّ انحراف الكثير عن الإمام عليّ عليه السلام، وسرّ انجذابهم لعثمان وتقديمهم إيّاه عليه.

إنّ هذا الخبر يرويه أبو ذرّ الغفاري: أنّ عليّاً عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص، أمرهم عمر بن الخطّاب أن يدخلوا بيتاً ويغلقوا عليهم بابه، ويتشاوروا في أمرهم، وأجّلهم ثلاثة أيّام، فإن توافق خمسةٌ على قولٍ واحدٍ وأبى رجلٌ منهم، قُتل ذلك الرجل، وإن توافق أربعةٌ وأبى اثنان قُتل الاثنان، فلمّا توافقوا جميعاً على رأيٍ واحدٍ، قال لهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**إنّي أحبّ أن تسمعوا منّي ما أقول، فإن يكن حقّاً فاقبلوه، وإن يكن باطلاً فأنكروه**». قالوا: قل. قال: «**أنشدكم بالله الذي يعلم سرائركم،**

---

(١) تمّ إعداد هيكليّة هذه الدراسة، وهي بصدد الاستقراء والرصد والتنقيب، لتنتقل إلى الخطوة الأخرى في العرض والنقد، لتنتهي إلى النتائج التي تفرضها طبيعة الدراسة التحقيقيّة، وستشتمل الدراسة على عرضٍ دقيقٍ لشخصيّات الخلفاء الثلاثة.

ويعلم صدقكم إن صدقتم، ويعلم كذبكم إن كذبتم، هل فيكم أحدٌ آمن بالله ورسوله وصلّى القبلتين قبلي؟...»، ثمّ شرع عليه السلام بذكر مناقبه، واحدةً بعد الأُخرى، والقوم يوافقونه على ذلك، فما زال يناشدهم، ويذكّرهم ما أكرمه الله تعالى وأنعم عليه به، حتّى قام قائم الظهيرة ودنت الصلاة، ثمّ أقبل عليهم فقال: **«أمّا إذا أقررتم على أنفسكم، وبان لكم من سببي الذي ذكرت، فعليكم بتقوى الله وحده، أنهاكم عن سخط الله، فلا تعرضوا ولا تضيّعوا أمري، وردّوا الحقّ إلى أهله، واتّبعوا سنّة نبيّكم صلّى الله عليه وآله وسنّتي من بعده، فإنّكم إن خالفتموني خالفتم نبيّكم صلّى الله عليه وآله، فقد سمع ذلك منه جميعكم، وسلِّموها إلى من هو لها أهلٌ وهي له أهلٌ، أما والله ما أنا بالراغب في دنياكم، ولا قلت ما قلت لكم افتخاراً ولا تزكيةً لنفسي، ولكن حدّثتُ بنعمة ربّي وأخذتُ عليكم بالحجّة»**.

ثمّ نهض الإمام عليّ إلى الصلاة، وبقي الآخرون يتشاورون فيما بينهم وتشاوروا، حتّى انتهوا إلى نتيجةٍ لا تفرق عن الطامّة الكبرى في شيءٍ، فبعد ذلك التذكير انتهوا إلى ضرورة إقصاء عليّ وتولية عثمان، ولكن ما هو السرّ في ذلك؟

وهنا ـ كما قلنا ـ تكمن الطامّة الكبرى، فقالوا: «قد فضَّل الله عليّ بن أبي طالب بما ذكر لكم، ولكنّه رجلٌ لا يُفضِّل أحداً على أحد، ويجعلكم ومواليكم سواءً، وإن ولّيتموه إيّاها ساوى بين أسودكم وأبيضكم، ولو وضع السيف على أعناقكم، لكن ولُّوها عثمان، فهو أقدمكم ميلاً، وألينكم عريكةً، وأجدر أن يتبع مسرّتكم، والله غفورٌ رحيمٌ»[1].

أي: إنّ المسلمين كافّةً عنده سواسية، أو قل بالاصطلاح المعاصر: إنّ المواطنة عنده سواسية، وهذا هو منطق المواطنة المُسمَّى اليوم بحقوق الإنسان، فهو عليه السلام لا يُفضِّل أحداً على أحد، وهذه هي دولة القانون، وهذه دولة

---

(١) أمالي الطوسي: ص٥٤٥ـ٥٥٤ ح٤؛ ترتيب الأمالي: ج٣ ص٤٣٥ ح١٤٨٢.

المواطنة، فالناس عنده بحسب ما جاء في عهده لمالك الأشتر: «**إمّا أخٌ لك في الدين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق**»[1]، وهذا ما لا يرضي القوم، فكيف يرضون أن يجعلهم ومواليهم سواءً؟ وكيف يرضون أن يساوي بين أسودهم وأبيضهم؟

فكان لابدّ من إقصائه: (لكن ولّوها عثمان فهو أقدمكم ميلاً وأميلكم عريكة)، أي: فيه لينٌ وانعطافٌ، فيستجيب لمطالبكم، أو قل: يُمكن المساومة معه.

نعم، فهو: «ألينكم عريكة، وأجدر أن يتبع مسرّتكم»، أي: ما فيه سروركم فإنّه يتبعه، وأمّا علي فالأمر معه مختلفٌ تماماً، فلا انعطاف ولا مساومة ومتابعة في مسرّتهم. وهذا ما رآه رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه، ولأجل ذلك كشف لبعض أصحابه بأنّهم لن يُمكّنوا عليّاً من الخلافة والحكم، في قوله: «**وإن تؤمّروا عليّاً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهديّاً، يأخذ بكم الطريق المستقيم**»[2]، وهو خبرٌ صحيح بشهادة الحاكم، وبشهادة محقّق كتاب مسند أحمد بن حنبل، حيث قال فيه: «إسناده صحيح»[3].

تحديد المراد من التنزيل والتأويل

ولكن تبقى أمامنا حاجةٌ ماسّةٌ إلى أن نُعرِّف بدقّةٍ المراد من التنزيل والتأويل، لتتكشَّف لنا طبيعة المهمّة الملقاة على عاتق الرسول صلّى الله عليه وآله، وطبيعة المهمّة الملقاة على عاتق أمير المؤمنين عليه السلام. وبعبارةٍ أُخرى: ستتّضح لنا الغاية والمقصد والهدف من القتال الأوّل، وهو القتال على التنزيل، والغاية والمقصد والهدف من القتال على التأويل، فهاهنا غايتان ومقصدان وهدفان.

---

(١) نهج البلاغة: ج٣ ص٨٤، رقم: ٥٣.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص١٠٩؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٢؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٨.

(٣) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج١ ح٨٥٩.

أمّا المراد منهما بشكلٍ إجماليّ، فهو أنّ التنزيل يتعلّق بظاهر القرآن وألفاظه، وأنّ التأويل يتعلّق بباطن القرآن ومعانيه، فالإسلام له ظاهرٌ يبدأ بالإقرار بالشهادتين، وله باطنٌ يتعلّق بالإيمان، فيكون التأويل حالةً متطوّرةً ولاحقةً للإسلام، فيكون التنزيل هو بمثابة الإسلام، والتأويل بمثابة الإيمان، والتنزيل والإسلام وظيفة النبوّة، والتأويل والإيمان وظيفة الإمامة، وفي حديث القتال على التنزيل والقتال على التأويل نجد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يُحدِّد وظيفته، فيقول بأنّه يقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، وهو قوله: «**أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله**»، أي: حتّى يؤمنوا حقيقةً بالتوحيد لا مجرّد أن يلوكوها بأفواههم.

وقد جاء هذا المعنى في أخبارٍ كثيرةٍ، وهو معنىً متواترٌ، فقد جاء في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني أنّها أحاديث صحيحةٌ بل وبعضها متواترةٌ.[1]

وحيث إنّه صلّى الله عليه وآله قد حدَّد في حديث «خاصف النعل» طبيعة قتاله، وهو أنّه كان يُقاتل على التنزيل، فيكون هذا الحديث مُفسِّراً للمراد من التنزيل الذي ورد هناك في حديث «خاصف النعل»، فقوله صلّى الله عليه وآله: «قاتلت على التنزيل»، أو: «قوتلتم على تنزيله»، يُبيِّن المراد من التنزيل، وهو: أن يقول الناس أو يقرّوا له بكلمة التوحيد: «لا إله إلّا الله»، فإذا قالها الناس عصموا أموالهم وأنفسهم، وهو قوله صلّى الله عليه وآله: «**فمَن قال لا إله إلّا الله فقد عصم منّي ماله ونفسه إلّا بحقّه**»، وبحسب إطلاق كلمة التوحيد يكون كلّ قائلٍ بها قد عصم بها ماله ونفسه، سواءٌ كان هناك إيمانٌ في القلب أو لم يكن إيمان، ولكن هنالك قرينةٌ مُقيِّدةٌ توجد في آخر الحديث؛ قال صلّى الله عليه وآله: «**وحسابه على الله**»، أي: إنّ حقيقة الإيمان أمرها موكولٌ إلى الله تعالى، أو أنّها

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: ج١، ق٢، ص٧٦٤، ح٤٠٧.

ليست وظيفةً نبويّةً، فإنّ وظيفة النبيّ صلّى الله عليه وآله هي أخذ الإقرار منهم بكلمة التوحيد ولو كان إقراراً ظاهريّاً.

بعبارة أُخرى: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ليس مسؤولاً عن حقيقة الإيمان عند الناس، ولذلك كان يحكم بإسلام كثيرٍ من الصحابة وهو يعلم بالواقع الذي هم عليه، والأحاديث في هذا المجال كثيرةٌ جدّاً.

حديثٌ آخر رواه الألباني أيضاً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام وحسابهم على الله**»[1]، ومن الواضح بأنّ الشهادة في المقام لا تدلّ على الإيمان، وإنّما الشهادة الظاهريّة، وهذا ما أكّده القرآن في سورة «المنافقون»؛ قال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ (المنافقون: ١)، فهؤلاء يشهدون برسالة النبيّ صلّى الله عليه وآله ولكنّهم في واقعهم كاذبون.

إذن ليس بالضرورة إذا وقعت الشهادة من أحدٍ بكلمة التوحيد أو بكلمة الإسلام أن يكون قائلها مؤمناً، فقد يكون قائلها منافقاً، أو لم يدخل الإيمان في قلبه، كما في قصّة الأعراب[2].

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج١ ق٢ ص٧٦٧ ح٤٠٨.

(٢) الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤). جديرٌ بالذكر: أنّ الأعراب جمع «أعرابيّ» وليست جمعاً لـ «عربيّ»، فالعرب منهم خير أمّةٍ أُخرجت للناس، ومنهم سيّد الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليه وآله والعترة الطاهرة المطهَّرة عليهم السلام. ولو وُجد مَن هم خيرٌ من العرب لتقبُّل الرسالة ونشرها آنذاك لما أُنيطت بهم، فكان اختيارهم دليل أولويّتهم، وهذا لا يتقاطع مع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات:

حديثٌ آخر أخرجه مسلم وبقيّة كتب الصحاح وغيرها، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا: لا إله إلّا الله. فإذا قالوا لا إله إلّا الله، عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم على الله**»[١].

إنّ كلّ هذه الروايات تنتهي بجملة: «وحسابهم على الله»، للدلالة على كون الرسول صلّى الله عليه وآله كان عليه العمل بظاهر الإسلام، وقد شهد أُولئك بالشهادتين فعصموا أنفسهم وأموالهم.

نعم، كان رسول الله يعرف المنافقين فرداً فرداً، بأسمائهم وصفاتهم، ولكن ما كان يتعامل على أساس بواطنهم أو على أساس سرائرهم وحقائقهم، وإنّما كان مأموراً بالعمل بالظاهر، فيكون عدم علمه بهم كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...**﴾ (التوبة: ١٠١)، هو أنّه غير مأمورٍ بالكشف عنهم وغير مطلوبٍ منه قتالهم، وأنّ هذه المهمّة سيتكفّل بها شخصٌ آخر كما هو صريح حديث الرسول صلّى الله عليه وآله في أنّه يقاتل على التنزيل وأنّ عليّاً يقاتل على التأويل.

علماً بأنّ الإنسان يمكنه أن يُسلِم بكلمتين، ولكنّه ليس من السهل عليه أن يؤمن، بل لا يمكنه أن يؤمن إلّا بهدايةٍ من الله تعالى ومنٍّ منه؛ قال تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الحجرات: ١٧)، فإذا كنتم صادقين فالمنّة

---

١٣)، فالأعرابيّ كنايةٌ عمّن يعيش في جوف الصحراء بعيداً عن العلم والتعلّم سواءٌ كان في صحراء الجزيرة العربيّة أو في أيّ مكانٍ آخر.

(١) صحيح مسلم: ج١ ص٣٩؛ سنن ابن ماجة: ج٢ ص١٢٩٥ ح٣٩٢٧؛ سنن أبي داود: ج١ ص٥٩٤ ح٢٦٤٠؛ سنن الترمذي: ج٤ ص١١٧ ح٢٧٣٣؛ سنن النسائي: ج٧ ص٧٧؛ وقريب منه ما رواه البخاري والبيهقي. انظر: صحيح البخاري: ج١ ص١١؛ السنن الكبرى، البيهقي: ج٣ ص٣٦٧.

من الله عليكم، فما بالكم وأنتم كاذبون؟ وهنا لم يقل أنتم كاذبون، وهذا من أدب القرآن وأخلاقيّاته.

نعم، لا إشكال أنّ ثلّةً عاليةً وواسعةً من الذين أسلموا من المهاجرين والأنصار آمنوا ـ بالإضافة إلى إسلامهم ـ وبلغوا أعلى درجات الإيمان، وإلّا فإنّ أولئك الذين قاتلوا معه في الحروب في بدرٍ وأحدٍ والخندق وحنين، الكثير منهم لم يكونوا مجرّد مسلمين، بل كانوا مؤمنين حقّاً، بل كانوا من السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، ولكن ـ كما هو واضحٌ ـ ليس كلّ مَن كان حول رسول الله صلّى الله عليه وآله فهو من المؤمنين، والدليل هو قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧).

ولذا نجد أنّ العلّامة الآلوسي يقف عند ذيل الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات (آية الأعراب)، وهو قوله تعالى: ﴿قُل لَمْ تُؤْمِنُواْ﴾، قال: «إكذابٌ لهم بدعوى الإيمان، إذ هو ـ أي: الإيمان ـ تصديقٌ مع الثقة وطمأنينة القلب، ولم يحصل لهم، وإلّا لما منُّوا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بترك المقاتلة، كما دلّ عليه آخر السورة: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾... بيان ذلك: أنّ الغرض المسوق له الكلام توبيخ هؤلاء في منِّهم بإيمانهم بأنّهم خلوا عنه أوّلاً، وبأنّهم المتنّون إن صدقوا ثانياً، فالأصل في الإرشاد إلى جوابهم: قل كذبتم، ولكن أخرج إلى ما هو عليه المنزل ليفيد عدم المكافحة بنسبة الكذب، وفيه حملٌ له عليه الصلاة والسلام على الأدب في شأن الكلّ؛ ليصير ملكةً لأتباعه وأن لا يلبسوا جلد النمر لمن يخاطبهم به، وتلخيص ما كذبوا فيه»[(١)].

ومنه يتّضح بطلان القول بنظريّة عدالة الصحابة، وأنّهم جميعاً في أعلى

(١) روح المعاني، الآلوسي: ج٢٥ ص٤٠٣.

درجات الوثاقة وأنّهم جميعاً في الجنّة، فإنّ صريح القرآن يتقاطع مع ذلك كلّه، وكيف يُصحّح لهم ذلك، وأصل الإيمان لم يفرغ منه في ثلّةٍ منهم؟!

وقد صرَّح العلّامة الآلوسي بعدم الاعتداد بإسلامهم الخلو من التصديق، حيث يقول في مقابلة القرآن لدعواهم بالإيمان: «ثمّ قوبل بقوله سبحانه: ﴿**ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا**﴾، كأنّه قيل: قل لم تؤمنوا، فلا تكذبوا، ولكن قولوا أسلمنا؛ لتفوزوا بالصدق إن فاتكم الإيمان والتصديق، ولو قيل: ولكن أسلمتم لم يؤدّ هذا المعنى، وفيه تلويحٌ بأنّ إسلامهم وهو خلوٌ عن التصديق غير معتدٍّ به...»[1].

وبهذا البيان يتّضح: أنّ مسؤوليّة النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ بمقتضى شروط المرحلة آنذاك ـ هي أنّ مَن أظهر الإسلام يكون قد عصم منه ماله ودمه، وأنّ حسابه على الله.

ومن هنا يتّضح أيضاً: أنّ الكثير من المسلمين ـ صحابةً وتابعين ـ ممَّن حاربوا الإمام عليّ بن أبي طالب إنّما حاربوا إمامهم ووليّ أمرهم، حاربوا مَن قال فيه رسول الله: «**حربه حربي، وحربي حرب الله، وسلمه سلمي، وسلمي سلم الله**»[2]، وقال فيه: «**مَن أحب عليّاً فقد أحبّني، ومَن أبغض عليّاً فقد أبغضني**»[3]، وقال فيه:

---

(١) روح المعاني، الآلوسي: ج٢٥ ص٤٠٣.

(٢) ورد هذا الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ، وبعضها اقتصر على قوله صلّى الله عليه وآله «**حربه حربي، وسلمه سلمي**»، ومعظمها ذكرت ما جاء في المتن. [انظر: أمالي الصدوق: ص١٥٦، وص٦٥٦؛ أمالي الطوسي: ص٣٦٤ ح٧٦٣؛ الغارات، إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي: ج١ ص٦٢؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٤١٦؛ المناقب، الموفّق الخوارزمي: ص١٢٩؛ نهج الإيمان، ابن جبر: ص٥١٠؛ كفاية الأثر، الخزاز القمّي: ص١٢١؛ شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ص٢٠٧؛ وكتب أخرى].

(٣) أمالي الصدوق: ص٦٥٦؛ كمال الدين وتمام النعمة، للصدوق: ص٢٥١؛ أمالي الطوسي: ص٢٤٥ ح٤٢٨، وص٢٥١ ح٤٤٦، وص٣٠٩ ح٦٢٣؛ تحف العقول، الحسن

«**مَن حارب عليّاً فقد حاربني، ومن حاربني فقد حارب الله**»[1]، وغير ذلك من مقاماتٍ ومناقب جمَّة، يتّضح لنا أنّ الكثير من أولئك الذين حاربوه، بل وحتى الذين لم يُناصروه، أنّهم لم يقع الإيمان الحقيقي في قلوبهم، أو لم يتمكّن بعدُ الإيمان من قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٤).

ويبدو من المعطيات التاريخيّة أنّ ثلّةً من عليّة الصحابة قد خدعوا عامّة الناس، فجيَّشوا الجيوش، وخدعوهم بأنّهم إنّما خرجوا لطلب الإصلاح وهم يقاتلون إمام زمانهم، ويقاتلون رجلاً لا أحد من الصحابة قاطبة امتلك الحجّة الشرعيّة في حروبه مثل ما امتلكها أمير المؤمنين عليّ الذي أخبر عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله بأنّه الذي يقاتل على التأويل كما قاتل هو على التنزيل، فخرج عليه الناكثون لعهد الله في البصرة، والمنافقون في الشام، والمارقون في النهروان، وكلّهم بغاةٌ عليه، لم يرعوا لله حرمة، ولا للإسلام مصلحة، ولم يحفظوا للإمام والخليفة الحقّ حقّاً.

وقد اعترف بذلك بعض أعلام مدرسة الصحابة، منهم محمّد صديق حسن خان القنوجي البخاري (ت: ١٣٠٧هـ)، حيث يقول: «وأمّا الكلام فيمن

بن علي بن شعبة الحرَّاني: ص٤٥٩؛ شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج١ ص١٥٣ ح٩٨، وص١٦٣ ح١٨؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٩ ص١٣٢؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج١ ص٣١٩ ح٩٤٧؛ نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص١٠١؛ الجامع الصغير، جلال الدين السيوطي: ج٢ ص٥٥٤ ح٨٣١٩؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج٤ ص٢٦١؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص٣٨٣؛ تهذيب الكمال، المزي: ج١ ص٢٥٩؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٩١؛ ومصادر أخرى.

(١) أمالي الصدوق: ص٤٦٦؛ الاعتقادات، للشيخ المفيد: ص١٠٥؛ أمالي الطوسي: ص٣٦٤ ح٧٦٣؛ تفسير فرات الكوفي: ص٤٧٧ ح٦٢٣ـ٦٢٤.

حارب عليّاً كرّم الله وجهه فلا شكّ ولا شبهة أنّ الحقّ بيده في جميع مواطنه؛ أمّا طلحة والزبير ومَن معهم فلأنّهم قد كانوا بايعوه فنكثوا بيعته بغياً عليه وخرجوا في جيوشٍ من المسلمين، فوجب عليه قتالهم، وأمّا قتاله للخوارج فلا ريب في ذلك، والأحاديث المتواترة قد دلّت على أنّه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأمّا أهل صفين فبغيهم ظاهرٌ، لو لم يكن في ذلك إلّا قوله صلّى الله عليه وسلّم لعمّار: **تقتلك الفئة الباغية**، لكان ذلك مفيداً للمطلوب. ثمّ ليس معاوية ممّن يصلح لمعارضة عليّ، ولكنّه أراد طلب الرياسة والدنيا بين قوم أغتام، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فخادعهم بأنّه طلب بدم عثمان، فنفق ذلك عليهم وبذلوا بين يديه دماءهم وأموالهم ونصحوا له حتّى كان يقول عليّ لأهل العراق أنّه يودّ أن يصرف العشرة منهم بواحدٍ من أهل الشام صرف الدراهم بالدينار، وليس العجب من مثل عوامّ الشام، إنّما العجب ممّن له بصيرةٌ ودينٌ كبعض الصحابة المائلين إليه وبعض فضلاء التابعين، فليت شعري أيّ أمرٍ اشتبه عليهم في ذلك الأمر حتّى نصروا المبطلين وخذلوا المحقّين، وقد سمعوا قول الله تعالى: ﴿**فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾، وسمعوا الأحاديث المتواترة في تحريم عصيان الأئمّة ما لم يروا كفراً بواحاً، وسمعوا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعمّار: إنّه تقتله الفئة الباغية»[1].

---

(١) الروضة النديّة شرح الدرر البهيّة، محمّد صدّيق خان القنوجي البخاري: ج٢ ص٣٦٠.
والغريب أن المُحقِّق لهذا الكتاب أخذته التيميّة وعصف به المنهج الأموي المقاتل لله ولرسوله ولأئمّة الحقّ، فنصَّب نفسه مدافعاً عن معاوية، وناقداً للمؤلِّف البخاري، حيث يقول في الهامش: «دخل الشارح في مأزقٍ لا قِبل له به، ولا قوّة فيه، فما له وما للصحابة، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه. والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وهذه الفتن قد تنسي الحليم حلمه، والذكيّ عقله، فلا ندري عذر مَن كان مع معاوية من الصحابة... وقد غلب على الشارح ما يغلب على الأعجام من القذف المزري بأهل الإنصاف، وظهور

الحجّة وتمام الأدلّة على أنّ الحقّ بجانب عليّ، لا يسيغ لنا أن نحكم بالبغي على الصحابة الذين خالفوه، فقد تكون لهم أعذارٌ لا نعلمها، ومآل الجميع إلى مولاهم يحاسبهم ويقضي بينهم يوم الفصل والله أعلم»!! [المصدر السابق] ، والغريب أنّه يقول بأنّ الدليل قائمٌ على كون الحقّ مع عليّ عليه السلام، أفلا يكون لازمه أن يكون الباطل مع أصحاب الجمل وصفّين والنهروان؟

ثمّ إنّه أراد تنزيه الصحابة والاعتذار لهم فرماهم جميعاً بالفتنة، وما ذلك منه إلّا للتمويه والتضليل، ولا ندري لماذا لا يقول ذلك في الذين خرجوا على عثمان، فلعلّهم كانوا معذورين؟ ولماذا لا يقول ذلك في مَن قاتلهم أبو بكر بحجّة عدم دفع الزكاة له، فلعلّهم كانوا معذورين؟ وقد قيل قديماً: رمتني بدائها وانسلّت. وهذا المحقّق معذورٌ في رعدته وطيش نبله؛ لأنّ الإسلام الأموي لا يمكن له أن ينتج إلّا مثل هذا التناقض، وهذا التهافت، فنقول لهم بأنّ رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى قال لعمّار أنّه: «**تقتله الفئة الباغية**»، فيقول لعلّ لقتله عندهم عذراً مقبولاً! فهم يضعون رسول الله في خانة الاستفهام والاتّهام لأجل حفظ كرامة معاوية، ولأجل حفظ كرامة طلحة والزبير، وغيرهم من عليّة القوم، وعندما يأتي منصفٌ من مدرسة الصحابة في تحليل تلك الوقائع، فينتهي إلى غير ما تهواه الأمويّة، تأتي هذا الأمويّة البغيضة لتدافع متّهمةً المنصف من مدرسة الصحابة بأنّه قد غلب عليه ما يغلب على الأعاجم! في إشارةٍ منه إلى الشيعة، فإنّ ذكر عليّ عليه السلام بخيرٍ، هو من التشيّع، ونقد معاوية هو من الرفض والروافض، وليت هذا المحقّق كان حرّاً في طرحه، وإنّما هو مقلّدٌ محضٌ لابن تيميّة في ترديد هذه الكلمات ـ انظر: العقيدة الواسطيّة ـ مدَّعياً بأن نقدهم مخالفٌ لطريقة أهل السنّة، ويقصد من ذلك سنّة بني أُميّة، ولذلك كنّا ولازلنا نقول بأنّ المنهج الأموي لا ينتمي أبداً لمدرسة الصحابة، فهؤلاء الأمويّون الوهّابيّون ليسوا من مدرسة الصحابة، فمعاوية الباغي ـ بلسان النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ عندهم مجتهدٌ ومأجورٌ في بغيه!! ورحم الله أبا الفتوح التليدي حيث يقول في وصف معاوية الباغي بالاجتهاد: «هاهنا إشكالٌ طالما اختلج في صدور أهل الإيمان وطالبي الحقّ لم نجد له حلّاً عند أهل السنّة، وهو أنّه كيف يبقى للفئة الباغية اجتهادٌ وأجرٌ ورفع الإثم وقد اتّضح لهم حقّية عليّ وخطؤهم وبغيهم بقتل عمّار؟...

فمعاوية باغٍ، وقد خدع أهل الشام بأنّه يطالب بدم عثمان وهو كاذبٌ في ذلك؛ حيث لم يقصد من ذلك سوى الحكم والرئاسة، والعجب كلّ العجب ليس من عامّة الناس المخدوعين بمعاوية، فهم مجرّد أُناسٍ أغتام، لا يفصحون عن شيء، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، وإنّما العجب كلّ العجب من بعض الصحابة والتابعين ممَّن يرون أنفسهم من أصحاب البصيرة، كيف تابعوه على ذلك البغي والباطل.

إنّ معاوية كان يمثّل فئة القاسطين، والقاسطون هم المنافقون، والمنافقون هم أخطر الطبقات الثلاث التي قاتلها الإمام عليّ عليه السلام في قتاله على التأويل، علماً بأنّها لم تكن وحدها تمثّل الحالة النفاقيّة، وإنّما هذه الفئة قد بلغت أعلى درجات النفاق.

ومع ذلك قد أصرُّوا جميعهم على عداوة الإمام عليّ وأهل بيته ولعنه على منابرهم حتّى بعد موته، فكيف يتّفق هذا مع الاجتهاد»؟. [الأنوار البهيّة بفضائل أهل البيت النبويّ والذرّية الطاهرة، جمع أبي الفتوح التليدي: ص٧١ـ٧٢]، علماً بأنّ التليدي هذا لا يُمكن اتّهامه بالتشيع فإنّه يعلن عداوته للشيعة، حيث يقول: «علماً بأنّنا جميعاً من أهل السنّة وطالبي الحقّ ومن أعداء الروافض وغلاة الشيعة». [المصدر السابق]، فلا ينبغي المزايدة على هذا الرجل في تسنّنه وتشدّده وعداوته للشيعة، ولكن لنا أن نسأل: يا أبا الفتوح ألم يكن الأجدر أن تسأل أيضاً: كيف يكون الباغي بلسان النبيّ مجتهداً ومأجوراً على بغيه؟! أليس اعتقادهم هذا استخفافاً حقيقيّاً برسول الله؟ وأيّ مسلم يرضى بذلك؟

نعم، هي مدرسة معاوية، وتلامذة ابن تيميّة، ومُقلِّدة محمّد بن عبد الوهاب، فهؤلاء ـ مدرسةً وتلمذةً وتقليداً ـ لا يرون إلّا حفظ كرامة بني أُميّة، ولو كان الأمر على حساب كرامة رسول الله، فقد أُشربوا حبّاً بهم كما أُشرب بنو إسرائيل في قلوبهم حبّ العجل، ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٣)، وهذا ما يجعلنا نحذّر وبشدّةٍ أمّةَ الإسلام من خطرهم، فإنّ خطرهم لا يبقي ولا يذر، اللهم هل بلّغت؟ اللهم فاشهد. (منه دام ظلّه).

النبوّة تقاتل على التنزيل

انحصرت مساحة القتال في النبوّة على القتال على تنزيل القرآن، وهو قتالٌ يستلزم منه الإقرار بالوحدانيّة والنبوّة، وبعبارةٍ أُخرى: هو قتالٌ على إثبات الشهادتين. ولو لاحظنا الحياة الجهاديّة للنبيّ صلّى الله عليه وآله نجدها تسير بهذا الاتّجاه، فالنبيّ لم يُواجه المنافقين ولم يقاتلهم، لأنّهم عصموا منه مالهم ودماءهم بمجرّد إعلان الشهادتين، وقد شهد القرآن بحالات النفاق الكثيرة والعميقة في الوسط المدني؛ قال تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ (التوبة: ١٠١)، والذي نفهمه من قوله «**لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**» هو أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله غير مأمورٍ بقتالهم، أو غير مأذونٍ بقتالهم؛ لأنّهم أقرّوا بالشهادتين، وهو القدر المُتيقَّن المطلوب تحقيقه؛ قال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ (المنافقون: ١)، وهؤلاء المنافقون قد فضحتهم سورة الأحزاب لخطورة موقفهم؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**﴾ (الأحزاب: ١٢)، وقد بلغ أذاهم للرسول صلّى الله عليه وآله وتهديدهم له والإسلام أن جاء تهديدٌ بقتالهم؛ قال تعالى: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً**﴾ (الأحزاب: ٦٠)، ولكنّه لم يقع في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله؛ لأنّ المأمور بقتالهم هو الإمام عليّ عليه السلام، فهو الذي يُقاتل على التأويل كما قاتل النبيّ صلّى الله عليه وآله على التنزيل.

الإمامة تقاتل على التأويل

اتّضح من مجموعة الآيات الآنفة أنّ الواقع النفاقي كان مستشرياً في الوسط

المدني، فلم تكن مجرّد حالةٍ عابرةٍ، وهذا الواقع المرير لم يجد الفرصة كاملةً للتعبير عن مقاصده في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله إلّا في مساحاتٍ ضيّقةٍ، فكانوا ينتظرون حدثاً مهمّاً وعظيماً للنهوض بمشروعهم الانقلابي، وهو العودة للجاهليّة، وذلك الحدث هو موت النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (آل عمران: ١٤٤)، وهؤلاء كانوا من الكثرة الغالبة التي استحقّ الموقف فيها أن يُطلق القول فيهم «**انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**»، فلم تكن حالةً جزئيّةً، وأمّا الشاكرون وهم الفئة القليلة المستضعفة فقد وردت الإشارة إلى قلّتهم، في قوله تعالى: ﴿... **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سبأ: ١٣).

ولأجل خطورة المنافقين كان لابدّ من العمل الوقائي لحفظ الدين من الانهيار، وهذا ما أُوكل أمره إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فهو الذي يقاتل على التأويل، والتأويل ـ كما في الاصطلاح ـ يمثّل حالةً باطنيّةً وليست ظاهريّة، وهو ما يناسب الحالة النفاقيّة بصفتها أمراً باطنيّاً.

ومن الواضح بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد ترك أمَّة الإسلام وهي على فئات، فهنالك المهاجرون والأنصار الأوائل، وهنالك مسلمة الفتح، وهم الطلقاء، والأعراب الذين لّما يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وهنالك ضعيفو الإيمان، وهنالك فئةٌ منتشرةٌ بين هذه الفئات، وهي أخطر فئةٍ على الإطلاق، ولطالما عانى منها الرسول صلّى الله عليه وآله، وهي فئة المنافقين، ويكفينا شاهداً على تواجدهم وقوّة تأثيرهم ما جاء في سورة «المنافقون»، فهم يشهدون بالرسالة ولكنّهم كاذبون، وهؤلاء لم تسنح الفرصة لاستئصالهم، فالكثير منهم كان يلتزم بظاهر الإسلام ويتحيَّن الفرصة للانقضاض على الإسلام، ولذلك كان لابدّ من مهامّ جديدةٍ للرسالة في الكشف عن مواجهة خطوط النفاق، وهذا ما أُوكلت مهامّه

لأمير المؤمنين علي في تسميته بأنّه المقاتل على التأويل، في إشارةٍ صريحةٍ إلى أنّ فئةً من مظهري الإسلام سوف يتّخذون القرآن عضين، يفرّقونه ويفسّرونه على أهوائهم، وبما يُلبّي طموحهم.

إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد أوكل مسؤوليّة تطهير المجتمع الإسلامي من ظاهرة النفاق ـ وكذلك ظاهرة أولئك الذين دخلوا الإسلام ولم يتمكّن الإيمان من قلوبهم ـ للإمام عليّ عليه السلام، فكانت حروبه الثلاث في درء فتن المنافقين ومن لفَّ لفهم.

والسؤال الأهم: هل كلّ ما قام به عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قتاله وحروبه في عهد إمامته وخلافته للمسلمين كانت هي حروب تأويل؟

الجواب: هناك قاعدةٌ أسّسها العلماء، فحواها: أنّ القسمة قاطعةٌ للشركة، بمعنى: إذا جاء أحدٌ وقال: الكلمة إمّا اسمٌ أو فعلٌ، فلا يعقل أن يكون الاسم فعلاً، والفعل اسماً، فإذا صار اسماً فليس بفعل، وإذا صار فعلاً فليس باسم، ولا يعقل أن يكون اسماً وفعلاً في آنٍ واحدٍ؛ فإنّ هذا خلاف التقسيم، كما في قولنا: الماء إمّا باردٌ وإمّا حارّ، فمحصّلته: أن لا يكون الماء البارد حارّاً أو الماء الحارّ بارداً، فهذا غير معقولٍ؛ إذ لا يجتمع النقيضان أو الضدّان.

وهنا عندما قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن، كما قوتلتم على تنزيله**»، أو: «**يقاتلكم على تأويله، كما قاتلت على تنزيله**»، فهو يعني: أنّ الحروب التي حاربتُ أنا فيها هي حروبٌ لأجل التنزيل، وأنّ الحروب التي يقاتل فيها عليّ هي حروبٌ لأجل التأويل، فتكون حربه في الجمل حرب تأويل، وحربه في صفّين والنهروان حرب تأويل، فرسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن قتاله في كلّ حروبه على التأويل، وإنّما على التنزيل، كما أنّ حروب عليٍّ الثلاث في خلافته لم تكن على التنزيل وإنّما كانت على التأويل؛ لما عرفت من كون القسمة قاطعةً للشركة، كما في مثال أقسام الكلمة، والقتال على

التأويل ليس قتلاً على ظاهر الأمور، وهذا ما يُمكن أن نفهمه من كلامٍ له عليه السلام لما عزم القوم على بيعة عثمان، حيث يقول: «**لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليَّ خاصّة؛ التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه**»[١].

فقتاله كان على أمرٍ أبعد من الظاهر، حيث قاتل الحالات النفاقيّة التي أظهرت الولاء وأخفت العداء، وسرعان ما نكثت، وقاتل المردة المنافقين في صفّين، الذين كانوا يعبدون الله على حرف، وقاتل المارقين الحمقى، الذين لم تتجاوز كلمات القرآن تراقيهم، وفي ذلك يقول عليه السلام: «**أنا حجيج المارقين، وخصيم المرتابين، وعلى كتاب الله تُعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازى العباد**»[٢].

فالإيمان الذي قاتل من أجله أمير المؤمنين عليّ معاشر قريشٍ وأعرابها يمثّل الحالة الباطنيّة، وهو خلاصة الدين؛ فالدين على جلالة ظاهره، لا معنى له بدون باطنه الإيماني، وإلا لما شنَّع القرآن على الأعراب دعواهم للإيمان وهم خلوٌ منه، فسمَّاهم مسلمين وسلب عنهم عنوان الإيمان؛ لأنّه لم يدخل بعد في قلوبهم، ولذا نجد ابن قيم الجوزيّة يذكر هذا المعنى بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ، حيث يقول: «الإيمان له ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبّته، فلا ينفع ظاهرٌ لا باطن له، وإن حُقن به الدماء وعُصم به المال والذرّيّة»[٣]، إلى أن يقول في مورد آخر: «فكلّ إسلامٍ ظاهرٍ لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافعٍ حتّى يكون معه شيءٌ من الإيمان الباطن، وكلّ حقيقةٍ باطنةٍ لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع،

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص١٢٤، رقم: ٧٤.

(٢) المصدر السابق، رقم: ٧٥.

(٣) الفوائد: ص١٢٤، رقم: ٤٩.

ولو كانت ما كانت، فلو تمزّق القلب بالمحبّة والخوف ولم يتعبّد بالأمر وظاهر الشرع لم يُنجه ذلك من النار، كما أنّه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم يُنجه من النار»[1].

فرسول الله صلّى الله عليه وآله قد حاربهم على أن يقولوا: «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله»، فكل مَن قالها عصم ماله ونفسه وعرضه، سواءٌ وقع الإيمان في قلبه أم لم يقع، فكان الإسلام متحقِّقاً بالشهادتين، وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فقد حاربهم على الإيمان، وهذا الإيمان قد تكشَّفت أحواله في الجمل وصفّين والنهروان، فهؤلاء كلّهم كانوا يشهدون الشهادتين ويُقيمون ظواهر الإسلام من صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وزكاةٍ، ولكي يكمل الإيمان فلابدَّ من إمامٍ بعد رسول الله صلّى اله عليه وآله يكون مفترض الطاعة، وهذه الإمامة كانت مُتحقِّقةً في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله ولكن لا بما هو نبيٌّ مرسلٌ، وإنّما بما هو إمامٌ مُفترض الطاعة، وتلك النبوّة ليس لها امتدادٌ نبويّ في عليّ وذرّيّته عليهم السلام، وإنّما لإمامة النبيّ صلّى الله عليه وآله امتدادٌ حقيقيّ تمثَّل بإمامة أمير المؤمنين عليّ وذرّيته عليهم السلام لا غير.

وعليه فبعد حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله انتقلت الحالة الإيمانيّة إلى الإقرار بإمامة عليّ عليه السلام والعمل على طاعته، بصفته إماماً مُفترض الطاعة، فمَن خرج عن رسوم طاعته أو عدم الإقرار بإمامته ومقتضياتها كما هو حال أصحاب الجمل وصفّين والنهروان فليس لهم من تلك الركنيّة شيء، كمن آمَن بالله تعالى في أوّل عمره وكفر في آخره، فهل ينفعه إيمانه السابق؟ أو كمن صلّى في أوّل عمره وتركها في آخره فهل تجزيه صلاته عمّا فاته في آخر عمره؟

والكلام هو الكلام في إمامة النبيّ صلّى الله عليه وآله وامتدادها المتمثّل بعليّ

---

(١) الفوائد: ص٢٠٧.

وذريّته عليهم السلام، فالإيمان المتحصّل في زمن النبيّ بنبوّته وإمامته وكونه مُفترض الطاعة نافعٌ لمن عاش ومات في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأمّا ما بعد حياة النبيّ فالتوحيد والنبوّة وهو شهادة الإسلام، وتبقى الإمامة في امتدادها المتمثّل بعليّ وآل عليّ عليهم السلام[١].

ومنه يتّضح بشكلٍ أكبر وأعمق كلمة الرسول صلّى الله عليه وآله لبعض أصحابه، كما جاء في رواية أبي سعيد الخدري قال: «كنّا جلوساً في المسجد فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجلس إلينا ولكأنّ على رؤوسنا الطير، لا يتكلّم أحدٌ منّا، فقال: **إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قوتلتم على تنزيله**، فقام أبو بكر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقام عمر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، **ولكنّه خاصف النعل في الحجرة**، قال: فخرج علينا عليّ ومعه نعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلح منها»[٢]، ولو كان قتال الإمام في حروبه الثلاث من أجل الظاهر لما كان هنالك فرقٌ بين التنزيل والتأويل، ولما اشرَّأبت لهذا المقام الرفيع أعناق الصحابة وهم يقاتلون مع النبيّ صلّى الله عليه وآله على التنزيل.

---

(١) أقول: فمَن شاء بقي على ظاهر الإسلام وحُرم من إيمانه التامّ فاكتفى بالشهادتين، ومن شاء ارتقى من الظاهر إلى الباطن المتمثّل بعد حياة الرسول صلّى الله عليه وآله بالاعتقاد والإيمان بإمامة عليّ وولايته ولزوم طاعته ومتابعته عليه السلام، وهكذا حتّى تصل النوبة إلى إمامة وولاية الإمام الثاني عشر الحجّة بن الحسن عليه السلام، هذا أوّلاً، وأمّا ثانياً: فإنَّ قتال عليّ عليه السلام على التأويل إنّما يصبّ في هذا الاتّجاه، أي: القتال على الإيمان التامّ والباطن، وإلّا فالقوم كان يظهرون الإسلام، كما اتّضح من مجموع كلمات السيّد الأستاذ.

(٢) مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٤٩٧ ح١٩؛ وفي طبعته المحقّقة، تحقيق: محمّد عوامة: ج١٧ ص١٠٥ ح٣٢٧٤٥؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٥ ص٦٣٩ ح٢٤٨٧.

المراد من القتال على التنزيل والتأويل

هاهنا عدّة معانٍ، منها:

المعنى الأوّل: أن يكون المراد من القتال على التنزيل هو القتال على الاعتقاد بكون القرآن وحياً إلهيّاً، وشاهد صدقٍ على نبوّة النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله، وأن يكون المراد من القتال على التأويل هو القتال على العمل به؛ لكونه الدستور الإسلامي والتشريع الإلهي والسلوك الربّاني.

المعنى الثاني: أن يكون المراد من القتال على التنزيل هو القتال على الإقرار بالعبوديّة لله تعالى وحده ولزوم طاعته وطاعة رسوله، وأن يكون المراد من القتال على تأويله هو القتال على الإقرار بلزوم طاعة الإمام المفترض الطاعة وأُولي الأمر، فيكون الرادّ على «القتال على تأويله» رادّاً على شرعيّة القتال على تنزيله.

المعنى الثالث: أن يكون المراد من القتال على التنزيل هو القتال على الإقرار بالإسلام، أي: شهادة الشهادتين، فمَن شهد بذلك عصم ماله ودمه، فهو قتالٌ للكافرين والمشركين، وأمّا القتال على التأويل فإنّه قتالٌ على الإيمان، أي: قتالٌ للمنافقين، فمَن نكث عهده فهو منافقٌ، ومَن عرف الحقّ وحاربه فهو منافق، ومَن مرق على الحقّ فهو منافق.

المعنى الرابع: أن يكون المراد من القتال على التنزيل هو قتالاً على الظاهر، وأمّا القتال على التأويل فهو قتالٌ على الباطن، ولو لاحظنا الحالة النفاقيّة فإنّها تناسب القتال على التأويل لا القتال على التنزيل، ولذلك نجد النبيّ صلّى الله عليه وآله كان يقاتل المشركين والكافرين على ظاهرهم، فإن أبدلوه بالإسلام كفَّ عنهم، بخلاف قتال الإمام عليّ عليه السلام في حروبه الثلاث، فلم يكن قتالاً على الظاهر، فالناكثون والقاسطون المارقون كان يعلنون الشهادتين ويصلّون ويصومون ويحجّون، ولكنّهم كانوا يستبطنون أشياء وأشياء أفقدتهم

الحالة الإيمانيّة وصيَّرتهم في دائرة النفاق.

وتفسير التأويل بالباطن، والتنزيل بالظاهر، له منشأٌ قرآنيّ، فالقرآن يُسمِّي يوم القيامة بيوم التأويل، والقيامة هي الباطن لعالم الظاهر، وهذا الدين الإسلامي له ظاهرٌ، وباطنه سيأتي تأويله في دار الآخرة، أي: إنّ الناس الذين لا يدركون حقيقة هذا الدين والواقعيّة الإيمانيّة فيه سوف يتبيَّن لهم ذلك جليّاً في يوم القيامة، أو قل ـ بحسب التعبير القرآني ـ في يوم التأويل، والذي عبَّر عنه القرآن بيوم السرائر أيضاً، والسرائر هي الضمائر والبواطن؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق: ٩)، أي: يوم تُختبر وتُكشف ضمائر القلوب في العقائد والنيّات[1]، ولذا نجد الإمام ابن القيم الجوزيّة يقول: «إنّه قيَّد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وهو يوم القيامة أي: إنّ الله قادرٌ على رجعه إليه حيّاً في ذلك اليوم... والسرائر: جمع سريرة، وهي: سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله؛ فالإيمان من السرائر»[2]، فيوم تبلى السرائر هو اليوم الذي تظهر فيه حقيقة الإيمان، فيُكشف عن باطن كلّ مسلم، أ مؤمنٌ أ هو أم ليس بمؤمن.

وأمّا المنشأ القرآني فهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣).

فقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، بمعنى: هل ينتظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله، والضمير هنا يعود على الكتاب المذكور في الآية السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

---

(١) انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين محمّد المحلّي وجلال الدين السيوطي: ص٨٠٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ا بن القيم الجوزيّة: ص١٦٥.

(الأعراف: ٥٢)[١]، فالكتاب الذي سوف يأتي تأويله يوم القيامة، يوم تكشف فيه السرائر، أو قل يوم تكشف فيه البواطن، هو القرآن الكريم، فظاهره وتنزيله معلومٌ لهم، وهو ما قاتلهم من أجله رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأمّا باطنه وتأويله الذي قاتلهم من أجله الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بوعدٍ إلهيّ وبشارةٍ نبويّة، والذي أنكروه وحاربوه منذ يوم السقيفة ومروراً بالجمل وصفّين وانتهاءً بالنهروان، فسوف يأتي بيانه يوم القيامة، ويوم التأويل، وهو اليوم الذي نسوه أو تناسوه بسبب الاستغراق في عالم الغفلات: ﴿**يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ (الأعراف: ٥٣) هو الكتاب واليوم والمقاتل من أجل تأويله، حيث جعلوا كلّ ذلك وراء ظهورهم ولم يعتنوا به، فماذا سيقولون في يوم التأويل وكشف السرائر؟ ﴿**يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾، وعندما تتكشّف لهم الحقيقة: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ما لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾ (الكهف: ٤٩)، وعندئذٍ يتقاطرون بحثاً عن الشفيع: ﴿**فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأعراف: ٥٣)

إذن هذه الآية تُسمِّي يوم القيامة بيوم التأويل، وقد ذهب لذلك جملةٌ من الأعلام، قال الطبري بروايةٍ عن حبر الأمّة عبد الله بن عباس: «﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾ هو يوم القيامة»[٢]، وقال ابن الجوزي: «قال ابن عباس:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ج٧ ص٢١٧؛ وأيضاً: تحقيق عبد الله التركي: ج٩ ص٢٣٦؛ الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج٨ ص١٣٥.

(٢) تفسير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، بيروت: ج١٠ ص٢٤٢؛ وأيضاً: تحقيق صدقي جميل العطّار: ج٨ ص٢٦٦ ح١١٤٥٩.

تصديق ما وعدوا في القرآن يوم يأتي تأويله وهو يوم القيامة»[(١)]، وهكذا في تفسير القرطبي، قال: «﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾: تبدو عواقبه يوم القيامة»[(٢)]، وأيّدهم على ذلك ابن كثير في تفسيره؛ قال: «وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، أي: يوم القيامة. قاله ابن عباس»[(٣)]. ولعلّ أفضل وأوضح من أشار إلى هذا المعنى هو الطباطبائي؛ قال: «ثمّ يخبر تعالى عن حالهم في يوم إتيان التأويل بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ...﴾، إي: إذا انكشفت حقيقة الأمر يوم القيامة، يعترف التاركون له بحقيّة ما جاءت به الرسل...»[(٤)].

وعليه فقد اتّفقت الكلمة على أنّ المراد من يوم التأويل في هذه الآية من سورة الأعراف هو يوم القيامة، ويوم القيامة هو غيب عالم المادّة والحسّ، أو قل: هو عالم الباطن لعالم الدنيا، وهذا واضح.

والمكلّفون ما لم يفهموا حقيقة القرآن وباطنه فإنّهم لن يفهموا محتواه الحقيقي، بل ولن يؤمنوا به؛ قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ٣٩)، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى يوم القيامة[(٥)]، وعليه فإنَّ صريح الآيات القرآنيّة يُبيِّن أنّ يوم القيامة هو يوم التأويل، وهو باطنٌ لظاهر، فالقيامة باطنٌ للدنيا، والتأويل باطنٌ للتنزيل.

المعنى الخامس: هو المعنى الجامع للمعاني الأربعة الآنفة، فالقتال على التنزيل هو قتالٌ على إثبات وحيانيّة القرآن، والإقرار بالعبوديّة لله وطاعة رسوله وإعلان

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج الجوزي القرشي البغدادي: ج٣ ص١٤٢.

(٢) تفسير القرطبي: ج٧ ص٢١٧؛ وبتحقيق عبد الله التركي: ج٩ ص٢٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٢٢٩؛ ج٤ ص٤٢.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج٨ ص١٣٥.

(٥) انظر: المصدر السابق: ج١٠ ص٦٦.

الشهادتين، وأمّا القتال على التأويل فهو قتالٌ على العمل بالقرآن ولزوم طاعة الإمام المُفترض الطاعة، وتحقيق الإيمان، فلا مكان للمنافقين في دولة الإسلام، وحيث إنّ النفاق حالةٌ باطنيّةٌ فالقتال على التأويل قتالٌ على الباطن البائس المغلَّف بالظاهر الحسن، ولا ريب بأنّ القتال على التأويل هو أشدّ وأعظم من القتال على الظاهر، والثبات على الباطن السليم يحتاج إلى توفيقاتٍ عظيمةٍ، فكلّ واحدٍ بإمكانه أن يُعلن الشهادتين وبيسرٍ شديدٍ، كما له أن يخدع الأُمَّة بذلك، بخلاف الإيمان فهو الدين الحقيقي.

وكأنّ الأمّة احتاج أمرها إلى مرحلتين من القتال أو قتالين؛ الأوّل: على لزوم الظاهر، والثاني: على تحقيق الباطن. أو قل: الأوّل هو التعرّف على الدين، والثاني هو التلبّس بالدين. ولا ريب بأنّ القتال على التلبّس بالدين، أعظم من القتال على التعرّف عليه؛ فهدفه أعمق، ومخاطره أشدّ. فشدَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أُمَّته لظاهر الدين، وشدَّها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لواقع الدين وحقيقته، فلم يصمد منها إلّا القليل، فسقطت الأقنعة وانكشف الزيف، وبان للأُمّة وللتاريخ أنّ الكثير من السابقين على أيّ شيء كانوا يقاتلون.

وبكلمةٍ جامعةٍ نقول: إنّ أعظم ما ابتُليت به الأُمّة يوم قُوتلت على التأويل. فكم من الحواريّين سقط في أُتون النفاق الباطني، وكم من الشفاه الذابلات بتلاوتها للقرآن، ممَّن لا تتجاوز قراءتهم تراقيهم، قد صاروا نهباً للفتن العظيمة، وأمَّا الطلقاء فالنفاق صنوهم وربيبهم.

وقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمَّا دخل المدينة منصرفاً عن أُحد، دعا عليّاً عليه السلام، فقال له: «**لقد نصرتني وضربتَ معي بسيفك وذببتَ عنّي بنفسك، فكيف أنت إذا قاتلتَ بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين؟** قال: يا رسول الله، أو يكون ذلك؟ قال: **إي والذي نفسي بيده، وإنّ حزبك هم الغالبون، أمّا الناكثون فيبايعونك بأيديهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم الفاسقون، وأمّا القاسطون فهم الذي ركنوا**

إلى الدنيا فكانوا لجنّهم حطباً، وأمّا المارقون فيقاتلون معك ثمّ يكفرون ولا تجاوز صلاتهم رؤوسهم ولا إيمانهم تراقيهم، أينما ثقفوا أُخذوا وقُتلّوا تقتيلاً، ولا ينفع المعينَ عليك ولا مبغضك ولا مَن قاتلك إيمانٌ ولا عملٌ»[١].

الخصوم في القتال على التأويل

كنّا قد ذكرنا ـ في بحث «أهمّ الحقائق المستفادة من حديث خاصف النعل»، وتحديداً في الحقيقة الثالثة ـ مسألةً في غاية الخطورة، وهي وحدة الخصم في القتال على تنزيله في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وفي القتال على تأويله في زمن الإمام عليّ عليه السلام، فالنبيّ صلّى الله عليه وآله قاتل قريشاً خاصّة والمشركين عامّةً على الإقرار بتنزيل القرآن، وما رفع السيف عنهم حتّى أقرّوا له بذلك، وأمّا في التأويل فقد قاتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الناكثين والقاسطين المنافقين والمارقين الذي تأوَّلوا كتاب الله واتّخذوه غرضاً بينهم، وكم من هؤلاء كانوا خصوماً للنبيّ صلّى الله عليه وآله في قتاله لهم على التنزيل؟ فما أسلموا إلّا قهراً، وما استسلموا إلّا وهم صاغرون، فلم يدخل الإسلام إلى قلوبهم، فما كان لهم سوى ساحة التأويل، وقد قاتلهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ولم يرفع السيف عنهم إلّا بالقضاء على الكثير منهم، وما زال يقاتلهم دون أن ترتجف له يدٌ أو تغمض له عينٌ حتّى نال شهادته في مسجد الكوفة، وقد سقنا عدّة قرائن تثبت حقيقة وحدة الخصم في قتال الرسول صلّى الله عليه وآله على التنزيل، وقتال عليّ عليه السلام على التأويل، وهي:

الأُولى: قوله صلّى الله عليه وآله: «**كما قوتلتم على تنزيله**».

والثانية: هي الشواهد التاريخيّة على أنّ عليّ بن أبي طالب في الجمل وصفّين والنهروان قد كان في قباله ثلّةٍ غير قليلةٍ من الصحابة، بل من كبار الصحابة.

---

(١) شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج١ ص٤٠٠ ح٣٤٩.

وهنا سوف نورد خبراً له علاقةٌ بحديث «خاصف النعل» ولكنّه يتضمّن على شواهد تدلّ على وحدة الخصم في حروب الرسالة على التنزيل وحروب الإمامة على التأويل، وهو ما رواه أبو داوود في سننه؛ عن ربعي بن حراش عن عليّ بن أبي طالب قال: «خرج عبدان إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله يعني يوم الحديبيّة قبل الصلح، فكتب إليه مواليهم فقالوا: يا محمّد والله ما خرجوا إليك رغبةً في دينك، وإنّما خرجوا هرباً من الرقّ، فقال ناسٌ: صدقوا يا رسول الله، رُدَّهم إليهم، فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقال: **ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتّى يبعث الله عليكم مَن يضرب رقابكم على هذا**، وأبى أن يردّهم، وقال: **هم عتقاء الله عزّ وجلّ**»[1]، قال الحاكم في المستدرك: حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه[2]! كما صحّحه الألباني[3].

هذه الرواية التي نقلها السجستاني وصحّحها الحاكم والألباني، نلاحظ فيها غموضاً وإبهاماً من جهاتٍ ثلاثٍ، وهي:

الجهة الأولى: مَن هم أولئك الذين أيَّدوا قريشاً بقولهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله بشأن العبدين اللذين أظهرا الإسلام: «صدقوا يا رسول الله، رُدَّهم إليهم»؟

الجهة الثانية: من هو الذي يبعثه الله فيهم ويضرب رقابهم؟

الجهة الثالثة: لم يُحدَّد المراد من قوله صلّى الله عليه وآله: «**يضرب رقابكم على هذا**»، فما هو المراد من «على هذا»؟

وبعبارةٍ أُخرى: على ماذا يقاتلكم ويضرب رقابكم ويقتلكم؟

إذن جهاتٌ ثلاثٌ مبهمةٌ في هذا النصّ الصحيح السند، وسوف نجد هذا

---

(١) سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمّد اللحام: ج١ ص٦١١ ح٢٧٠٠، باب: في عبيد المشركين يلحقون بالمسلمين فيسلمون.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٢ ص١٢٥.

(٣) انظر: صحيح أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: ج٢ ص١٥٥ ح٢٧٠٠.

الخبر في مكانٍ آخر واضح المعالم، يقدّم لنا الإجابة عمَّا تقدّم، وهي ما رواه كلّ من: الطحاوي، والحاكم في المستدرك، عن ربعي بن حراش عن عليّ عليه السلام قال: «لمّا افتتح رسول الله صلّى الله عليه وآله مكّة أتاه ناسٌ من قريش فقالوا: يا محمّد! إنّا حلفاؤك وقومك، وإنّه لحِق بك أرقّاؤنا، ليس لهم رغبةٌ في الإسلام، وإنّما فرّوا من العمل، فارددهم علينا. فشاور أبا بكر في أمرهم، فقال: صدقوا يا رسول الله، فقال لعمر: ما ترى؟ فقال مثل قول أبي بكر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **يا معشر قريش! ليبعثنّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان، فيضرب رقابكم على الدين.** فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: **لا، ولكنّه خاصف النعل في المسجد.** وقد كان ألقى نعله إلى عليّ يخصفها»[1]، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه.

إنّها عين الرواية السابقة، ولكنّ الفرق هو أنّها تضع النقاط على الحروف، حيث تُبيِّن هويّة الناس الذين اعترضوا وطلبوا من النبيّ صلّى الله عليه وآله إرجاع العبدين لقريش، وتحدّد شخصيّة الذي يُقاتلهم، وعلى أيّ شيءٍ هو يقاتلهم، حيث يقاتلهم على دين الإسلام الحقيقي.

بقي أن ننبِّه إلى أنّ هذه الرواية الثانية أوضحت لنا ما نريد ولكنّها أغمضت أشياء أُخرى، فأخفت غضب النبيّ صلّى الله عليه وآله عندما سمع قول أبي بكر وعمر لأنّهما طلبا منه أن يردَّ العبدين لقريش، والثاني: أنّ الثانية ربطت القضيّة بفتح مكّة، في حين أنّها مرتبطةٌ بصلح الحديبية.

والغريب جدّاً: هو أنّ عمر لما رأى أنّ رسول الله قد غضب أو تغيَّر وجهه من

---

(١) بيان مشكل الآثار، الطحاوي: ج١٠ ح٤٠٥٣؛ المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٢ ص١٣٨.

كلام أبي بكر لم يسكت وإنّما كرّر نفس كلام أبي بكر، فألحق أذىً جديداً بالنبيّ صلّى الله عليه وآله! فأبو بكر لعلّه كان معذوراً؛ لأنّه لم يعرف واقع الحال، ولكنّ عمر يُفترض به أنّه قد رأى غضب النبيّ من إجابة أبي بكر، فلماذا كرَّر كلمة أبي بكر نفسها؟

وعليه فالمراد من الناس في الرواية السابقة هما الخليفة الأوّل والخليفة الثاني، وأنّ الشخص الذي سيُكلَّف بالمهمّة القادمة هو عليّ بن أبي طالب، وينبغي الالتفات إلى أنّ قتال عليّ عليه السلام للفئات الثلاث (الناكثة والباغية والمارقة) كان بأمرٍ من الله تعالى، ولم يكن اجتهاداً من عليّ عليه السلام ليُقال بأنّه اجتهد فأصاب وأنّ القوم اجتهدوا فأخطأوا، وأنّ للمصيب أجرين وللمخطئ أجراً واحداً، فالذي يُقاتل بأمرٍ من الله لا ريب في كونه على الحقّ، بل هو الحقّ بنفسه، والذين يخرجون عليه لا ريب بأنّهم على باطل، بل هم بطلانٌ محضٌ، وعلى حدّ بطلان قريشٍ في حربهم ضدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله. وأمّا الدليل على كون عليّ عليه السلام كان يُقاتل بأمرٍ من الله تعالى فهو قول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**ليبعثنّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان، فيضرب رقابكم على الدين**»، ولم يكن ذلك أبا بكر ولا عمر بنصّ الحديث، وإنّما هو عليّ لا غير؛ «فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنّه خاصف النعل في المسجد. وقد كان ألقى نعله إلى عليٍّ يخصفها».

ولو تأمّلنا قليلاً سنجد أنّ قول رسول صلّى الله عليه وآله: «يا معشر قريش» إنّما كان موجَّهاً إلى الخليفة الأوّل والخليفة الثاني وأولئك الذين طلبوا إعادة العبدين، وكلّ من وافقهم على ذلك، أي: كلّ من كان رأيه مخالفاً لقول وإرادة الرسول صلّى الله عليه وآله، وقد لاحظنا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لم يقل كلمته تلك للوافدين من قريش وإنّما قالها ردّاً على أبي بكرٍ وعمر حين أشارا عليه بردّ العبدين، وبعبارة أُخرى: إنّ قريش لم تكن مُلامةً على قولها وإنّما المُلام هو أبو بكر وعمر، فوجّه لهما الخطاب أوّلاً وبالذات وإلى سائر قريش ثانياً وبالعرض.

وهنالك نكتةٌ أُخرى مهمّة، وهي أنّه صلّى الله عليه وآله أراد بكلمته (يا معشر قريش) أن يُعبِّر عن وحدة الرأي بين قريش وقول أبي بكرٍ وعمر، فجمعهم بكلمةٍ واحدةٍ جامعةٍ، أي: إنّكما يا أبا بكر ويا عمر صرتما برأيكما هذا كقريش، وحكمكما واحدٌ، وهو أنّ الله سيبعث رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان يقاتلكم على الدين ويُخلِّص العقول والقلوب من التبعيّة لقريش وقيمها الجاهليّة التي لم تنفكّ عن حربها الشعواء ضدّ الإسلام والمسلمين.

جديرٌ بالذكر: أنّ هذه الرواية التفصيليّة قد رواها كاملةً وصحَّحها أيضاً كلٌّ من الإمام النسائي في كتابه «خصائص أمير المؤمنين»[1]، والترمذي في سننه.

---

(١) قال الذهبي في الإمام النسائي: «لم يكن أحدٌ من رأس الثلاثمائة أحفظ من النسائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم ومن أبي داود ومن أبي عيسى، وهو جارٍ في مضمار البخاري»، وقال ابن حجر العسقلاني في «الإصابة» حول كتاب النسائي (خصائص أمير المؤمنين): «وتتبّع النسائي ما خُصَّ به ـ أي: الإمام عليّ ـ من دون الصحابة، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً بأسانيد أكثرها جياد». [الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٥؛ وأيضاً: تحقيق: علي محمّد البجاوي: ج٤ ص٥٦٥؛ وأيضاً: ج٧ ص٢٧٦، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي].

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا أخَّره القوم؟ الجواب: لأنّه كان يُحبّ عليّاً ولا يميل لمعاوية، قال الذهبي: «إلّا أن فيه قليل تشيّعٍ وانحرافٍ عن خصوم الإمام عليّ، كمعاوية وعمرو، والله يسامحه». [سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٤ ص١٣٣]!! فصار المقياس عند الذهبي هو حبّ معاوية وعمرو بن العاص وعدم الانحراف عنهما!! وهذا هو الإسلام الأموي الذي طالما كنّا نحذّر الأمّة منه، فالدين عندهم هو دين الطلقاء وأبناء الطلقاء، وأمّا أهل البيت والعترة الطاهرة ـ صنو كتاب الله ـ فحبّهم وموالاتهم تشيّعٌ منبوذٌ! وكأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يقل في عليّ عليه السلام: «**لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»، وكأنّه قال ذلك في معاوية! ولو لم يقل ذلك في عليّ وقاله في معاوية فإنّه لا يُتوقّع من أُميّة وأتباعهم أن يفعلوا أكثر ممّا فعلوا.

وللنسائي قصّةٌ طويلةٌ مع بني أميّة، فهو قتيلهم لأنّه رفض أن يكتب لهم كتاباً في فضل

قال النسائي: «جاء النبيَّ صلّى الله عليه وآله أناسٌ من قريش، فقالوا: يا محمّد، إنّا جيرانك وحلفاؤك، وإنّ مِن عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبةٌ في الدين ولا رغبةٌ في الفقه، إنّما فرّوا من ضياعنا وأموالنا، فارددهم إلينا. فقال لأبي بكر: ما تقول؟ فقال: صدقوا إنّهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغيّر وجه النبيّ صلّى الله عليه وآله. ثمّ قال لعمر: ما تقول؟ قال: صدقوا إنّهم لجيرانك وحلفاؤك. فتغيّر وجه النبيّ صلّى الله عليه وآله. ثمّ قال: يا معشر قريش، والله ليبعثنّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين أو يضرب بعضكم. قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، **ولكن ذلك الذي يخصف النعل**. وقد كان أعطى عليّاً نعلاً يخصفها»[1].

وأمّا الإمام الترمذي فقد قال عنه: «وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»[2]، وممّن صحّحه أيضاً الضياء المقدسي الحنبلي في كتابه «الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة ممّا لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما»، الذي يقول محقّقه الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، في مقدّمة الكتاب: «وهذا الكتاب كما يتّضح من عنوانه المستخرج من الأحاديث المختارة، فهو إكمال ما لم يخرجاه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من الأحاديث الصحيحة»[3]، فيكون كلّ ما أورده صحيح.

والغريب أنّ هذا الحديث نفسه قد نقله الإمام أحمد بن حنبل في مسنده

معاوية، حيث قال: «قال رسول الله فيه: **لا أشبع الله بطنه**» فسحلوه وضربوه، وهذه الطريقة التعسّفيّة قد أسَّس لها بنو أُميّة في الزمان الغابر، ولم يكن المعاصرون من أتباع بني أُميّة في منهجهم وإرهابهم سوى أتباع أجدادهم السابقين في الإقصاء والاضطهاد والعنف، فاتّبعوهم إتباع القُذّة بالقذّة. (منه دام ظلّه).

(١) خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ص٦٨ ح٣١.

(٢) سنن الترمذي: ح٤٠٤٨.

(٣) الأحاديث المختارة، المقدسي الحنبلي: ج١ ص٨.

ولكنّه اقتطع منه الجزء الخاصّ بالإمام عليّ عليه السلام! ربما لأنّه أدرك المعاني الخطيرة التي يحملها هذا الحديث، فاكتفى بذكر غضب الرسول صلّى الله عليه وآله من كلمة أبي بكر وكلمة عمر[1]، وما يهمّنا هو تصحيح الحديث، فقد قال مُحقِّق هذا الكتاب الأستاذ أحمد محمّد شاكر: «إسناده صحيح»[2]، ثمّ وجَّه نقداً شديداً للخليفتين أبي بكر وعمر.

إذن فهذه الرواية الصحيحة السند تُسجِّل لنا ثلاثة حقائق، وهي:

الحقيقة الأولى: أنّها حدَّدت الجهة التي سيُقاتلها الرجل الذي سيبعثه الله ويضرب أعناقهم على هذا الدين، وهذه هي فتوحاته، فهو لم يذهب إلى الهند أو السند، ولا إلى شرقٍ ولا غرب، وإنّما ستكون فتوحاته داخليّةً في وسط الأُمّة.

الحقيقة الثانية: أنّها حدَّدت الشخص الذي سيبعثه الله فيهم ويضرب رقابهم، وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أو بحسب تعبير الرواية: «خاصف النعل»، فهو الفاتح القادم.

الحقيقة الثالثة: أنّها أشارت إلى أنّه سيضرب رقابهم على الإيمان بهذا الدين، فإنّهم كانوا مُسلمين، يشهدون الشهادتين، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وبذلك ستكون فتوحات الإمام عليّ عليه السلام فتوحاتٍ إيمانيّةً، يُختبر فيها واقع الأُمّة، وبها سيظهر حقيقة البعض ممَّن ادَّعوا لأنفسهم الإيمان، هذا فضلاً عن كونها تُقدِّم مؤشّراً خطيراً للتاريخ بأنّ ما يسمَّى بحروب الفتوحات لم تكن من أجل الدين، وإلّا لقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لهما ذلك، ولكنّه حصر القتال من أجل الدين بعليّ عليه السلام، وحدَّد الخصوم، وقال: «**يا معشر قريش والله ليبعثنّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين**».

---

(١) انظر: المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج٢ ص٤٤٨ ح١٣٣٦.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٥١ ح١٣٣٥.

القتال على التأويل فقءٌ للفتنة

إنّ جميع حروب الإمام عليّ عليه السلام كانت دفاعاً عن النفس ودرءاً للفتنة، فأصحاب الجمل[1] هم أوّل من أسَّس للفتن الأُخرى في صفّين والنهروان، وهم من جرّأوا الآخرين على الخروج على الخليفة الشرعي، وقد سعى الإمام عليه السلام بما عُهد إليه من الوعد الإلهي والبشارة النبويّة بدرء الفتن التترى، فكان قتاله على التأويل الآنف الذكر قتالاً تحطَّمت على صخرته فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وما كان أحدٌ سواه يجرؤ على فقء الفتن الثلاث، وقد خطب ذات يوم في الكوفة فقال: «**أمّا بعد أيّها الناس! فأنا فقأت عين الفتنة، ولم تكن ليجرؤ عليها أحدٌ غيري بعد أن ماج غيهبها ـ ظلمتها ـ واشتدّ كَلَبها**[2]**، فاسألوني قبل أن تفقدوني؛ فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئةٍ تهدي مائةً وتضلّ مائةً إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحطّ رحالها، ومَن يُقتل من أهلها قتلاً، ويموت منهم موتاً، ولو قد فقدتموني ونزلتْ بكم كرائه الأمور وحوازب الخطوب، لأطرقَ كثيرٌ من السائلين، وفشل كثيرٌ من المسؤولين**»[3].

---

(١) أو قل: جند المرأة وأتباع البهيمة، كما جاء ذلك في خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام يصفهم فيها بقوله: «**كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فهربتم، أخلاقكم دقاق، وعهد كم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤ كم زعاق**». [نهج البلاغة: ج١ ص٤٤، خطبة: ١٣].
والبهيمة: الجمل، الذي كان بحسب تعبير محمّد عبده: «يعسوب البصريين قُتل دونه خلقٌ كثيرٌ من الفئتين، وأخذ خطامه سبعون قرشيّاً، ما نجا منهم أحد، وانتهت الموقعة بنصر عليّ كرّم الله وجهه بعد عقر الجمل. وفيها قُتل طلحة والزبير وقُتل سبعة عشر ألفاً من أصحاب الجمل وكانوا ثلاثين ألفاً. وقُتل من أصحاب عليّ ألفٌ وسبعون».

(٢) قال الشيخ محمّد عبده: «الكلَب محرّكة: داءٌ معروفٌ يصيب الكلاب، فكلّ من عضّته أصيب به فجُنّ ومات، شبّه به اشتداد الفتنة حتّى لا تصيب أحداً إلّا أهلكته». [نهج البلاغة: ج١ ص١٨٢ ح٣٩].

(٣) المصدر السابق.

فهو عليه السلام فقَّاء الفتن وليس صاحب فتن. منذ أن برّأه الله في الوجود، كان عزّاً للإسلام وفخراً له. بسيفه اشتدّ عود الإسلام، ومن بطولته تهيَّبه صناديد العرب، ما فرَّ قط. ملأ الدنيا علماً وفهماً وحكمة، وكيف لا يكون كذلك وهو باب مدينة علم النبيّ صلّى الله عليه وآله. ومن روائع ما وُصِف به ما جاء على لسان أبي نُعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، حيث يقول فيه: «وسيّد القوم، محبّ المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والعلوم ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات، راية المهتدين، ونور المطيعين، ووليّ المتقين، وإمام العادلين، أقدمهم إجابةً وإيماناً، وأقومهم قضيّةً وإيقاناً، وأعظمهم حلماً، وأوفرهم علماً، عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، قدوة المتّقين، وزينة العارفين، المنبئ عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع علم التفريد، صاحب القلب العقول، واللسان السؤول، والأذن الواعي، والعهد الوافي، فقَّاء عيون الفتن، ووقى من فنون المحن، فدفع الناكثين، ووضع القاسطين، ودمغ المارقين، الأخيشن في دين الله، الممسوس في ذات الله»[1].

استمرار القتال على التأويل

وهنا بحثٌ في غاية الأهمّية، فإنّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هو البطل الأوّل في القتال على التأويل، وليس الأخير فيه، ولو لاحظنا سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام لوجدناها قائمةً على هذا الأصل، وهو القتال على التأويل، لكنّه قتالٌ من نوعٍ آخر، فمواجهة القائلين في كتاب الله بغير علم هو قتالٌ على التأويل، ومواجهةُ المنحرفين في المذاهب والمشارب الأُخرى هو قتالٌ على التأويل، وأمّا الحرب الضروس التي سيخوضها الإمام الحجّة بن الحسن عجَّل الله فرجه، فإنّها ستكون في الغالب مع المسلمين، من حفدة الناكثين في الجمل، والقاسطين في صفّين، والمارقين في النهروان.

---

(١) حلية الأولياء: ج١ ص٣٢؛ فيض القدير: ج٤ ص٤٦٩، رقم: ٥٥٩٠.

الفصل السابع

التدابير النبويّة لحفظ الخلافة من الانقلاب الأموي

- أهمّية التدابير ضدّ الانقلاب الأموي

التدبير الأوّل: إلصاق صفة الطلقاء بهم

التدبير الثاني: توصيف بني أُميّة بالقردة وتحريم الخلافة عليهم

التدبير الثالث: الإذن بقتل معاوية

التدبير الرابع: ذكر أوصاف بني أُميّة المُبطلة لشرعيّة سلطانهم

الوصف الأوّل: الفئة الباغية

الوصف الثاني: العبث بالدين والمال العامّ ومصير الناس

الوصف الثالث: القاسطون المنافقون

- تذييل

أهمّية التدابير ضدّ الانقلاب الأموي

بالرغم من أنّ الانقلاب الأموي على الإسلام الحقيقي لم يكن وليد ساعته، ولم يكن هو الأوّل من نوعه، إلّا أنّه تفرَّد بالخروج السافر على الظواهر، فضلاً عن كونه قد مثَّل أعمق حالةٍ نفاقيّةٍ في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الإنسان، فإنّهم أبناء أبيهم القائل في حضرة عثمان كلمة كفرٍ صارت معيارهم للإسلام الأموي، فقد روى الشعبي أنّه: «لما دخل عثمان رحله بعد عقد البيعة له، دخل عليه بنو أميّة حتّى امتلأت بهم الدار، ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحدٌ من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذابٍ ولا حسابٍ، ولا جنّةٍ ولا نارٍ، ولا بعثٍ ولا قيامةٍ، إنّما هو الملك»![1].

وهذا ما كان يعتقد به بنو أُميّة، وما قتْلهم للصالحين من هذه الأُمّة[2]، وما هدمهم للكعبة مرّتين، مرّةً في عهد يزيد بن معاوية[3]، ومرّةً في عهد عبد الملك

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) من قبيل الإمام الحسن بن عليه السلام، سقوه سمّاً عن طريق زوجته جعدة بنت الأشعث. [انظر: سيرة الإمام الحسن في كتب السيرة والتاريخ]، وقتلهم للإمام الحسين عليه السلام وأبنائه وإخوته وأصحابه وسبي نسائه. [انظر: جميع كتب السير والتاريخ بلا استثناء]، ومن قبيل قتلهم للصحابي الكبير حجر بن عدي الكندي، والصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي، وميثم التمّار وكميل بن زياد، وغيرهم ممَّن ترصّدهم زياد بن أبيه، ودعيّه عبيد الله بن زياد، حتّى هُجرت الكوفة من أهلها لعظيم ما أصابهم من اضطهاد بني أميّة.

(٣) في عهد يزيد بن معاوية ـ ثاني ملوك بني أميّة ـ تمَّ رمي الكعبة بالمنجنيق وحرقها وهدم أحد أركانها، على يد قائد الجيش الأموي آنذاك الحصين بن نمير، لغرض القضاء على عبد الله بن الزبير، ولكنّه لم يستطع القضاء عليه، حيث مات يزيد. [انظر: تاريخ الطبري:

ج٥ ص٤٩٨؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٨٦، السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٤ ص٣١٠؛ الإصابة، ابن حجر: ج٤ ص٨٢؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٣٦٣؛ معجم البلدان، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٤٩؛ الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج٢ ص١٦، تحقيق الشيري؛ المصدر السابق: ج٢ ص١٠، تحقيق الزيني؛ سبل الهدى والرشاد، للشامي: ج١ ص٢٢٣؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: ج٣ ص٣١٦؛ الأعلام، للزركلي: ج٢ ص٢٦٢، ترجمة الحصين بن نمير].

قال ابن حجر بعد أن ساق خبر استباحة المدينة وقتل الصحابة والتابعين من قبل مسلم بن عقبة وأنّه مات حين مسيره لحرب ابن الزبير في مكّة: «ثمّ سارت الجيوش إلى مكّة لقتال ابن الزبير فحاصروه بمكّة، وأحرقت الكعبة بعد أن رُميت بالمنجنيق...». [تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمّة الأربعة، ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ): ص٤٥٣].

وقال ابن حجر أيضاً: «إنَّ ابن الزبير حين مات معاوية، امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية وأصرّ على ذلك حتّى أغرى يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة بالمدينة فكانت وقعة الحرّة ثمّ توجّه الجيش إلى مكّة فمات أميرهم مسلم بن عقبة وقام بأمر الجيش الشامي حصين بن نمير فحاصر ابن الزبير بمكّة ورموا الكعبة بالمنجنيق حتّى احترقت، ففجأهم الخبر بموت يزيد بن معاوية فرجعوا إلى الشام». [فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٢٤٥]. وقال ابن عساكر: «وكان فيهم حصين، وهو الذي حاصر ابن الزبير بمكّة ورمى الكعبة بالمنجنيق فسترت بالخشب فاحترقت». [تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٤ ص٣٨٥]. وقال ابن الأثير: «ثمّ سار الى مكّة ـ يعني: مسلم بن عقبة ـ ليقاتل ابن الزبير فمات في الطريق فاستخلف الحصين بن نمير السكوني على الجيش فسار الحصين وحصر ابن الزبير بمكّة لأربعٍ بقين من المحرّم سنة أربعٍ وستّين، فأقام عليه محاصراً، وفي هذا الحصر احترقت الكعبة...». [أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٣ ص١٦٣].

وقال الطبري: «حتّى إذا مضت ثلاثة أيّامٍ من شهر ربيعٍ الأوّل يوم السبت سنة: ٦٤، قذفوا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد   نرمي بها أعواد هذا المسجد».

[تاريخ الطبري: ج٤ ص٣٨٢].

بن مروان، بقيادة الحجّاج بن يوسف الثقفي[1]، وما استباحتهم للمدينة ثلاثاً

وقد أوضح المشهد ابن المسعودي بشكلٍ أدقّ، حيث يقول: «ونصب الحصينُ فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرّادات على مكّة والمسجد من الجبال والفِجَاج، وابنُ الزبير في المسجد، ومعه المختار بن أبي عُبَيد الثقفي، داخلاً في جملته، منضافاً إلى بيعته، منقاداً إلى إمامته، على شرائط شَرَطها عليه لا يخالف له رأياً، ولا يعصي له أمراً، فتواردت أحجار المجانيق والعرّادات على البيت، ورمي مع الأحجار بالناروالنفط ومشاقات الكتّان وغير ذلك من المحرقات، وانهدمت الكعبة، واحترقت البنيّة...». [مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٨٤].

وقد عمَّقت هذه الحادثة جرح كربلاء وقتل الحسين، وجرح استباحة المدينة وقتل أبنائها وسبي نسائها، حتّى صار علماء أهل السنّة يتبرّؤون من يزيد ويلعنونه، ولعلّ من أشهر اللاعنين له هو الإمام أحمد بن حنبل، وذكر القاضي أبو يعلي الحنبلي أنّه ممّن يستحقّ اللعن. وقال ابن عقيل الحنبلي: ممّا يدلّ على كفره وزندقته فضلاً عن سبّه ولعنه: أشعاره التي أفصح بها بالإلحاد وأبان عن خبث الضمائر وسوء الاعتقاد، وفي ذلك يقول ابن الجوزي: «ولمّا لعنه جدّي أبو الفرج على المنبر ببغداد بحضرة الإمام الناصر وأكابر العلماء، قام جماعةٌ من الجفاة من مجلسه فذهبوا، فقال جدّي: ﴿أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود: ٩٥)...». [تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ص٢٩٠ـ٢٩١].

(١) في عهد عبد الملك بن مروان ـ ثاني ملوك بني مروان ـ تمّ الهدم الأموي الثاني للكعبة على يد الحجّاج بن يوسف الثقفي قائد الجيش الأموي المرواني، وقتل عبد الله بن الزبير وعلّقه على أستار الكعبة. [انظر: تاريخ الطبري: ج٥ ص٤٩٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص٣٢٩؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٤ ص١٢٤؛ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٦٦؛ تاريخ ابن خلدون: ج٣ ص٣٨؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص١٧٨].

قال ابن الأثير: «وبقي ابن الزبير خليفةً إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فلمّا استقام له الشام ومصر جهَّز العساكر فسار إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير وسيَّر الحجّاج بن يوسف الى الحجاز فحصر عبد الله بن الزبير بمكّة أوّل ليلةٍ من ذي الحجّة

سنة اثنتين وسبعين، وحجّ بالناس الحجّاج ولم يطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، ونصب منجنيقاً على جبل أبي قبيس فكان يرمى الحجارة إلى المسجد ولم يزل يحاصره...». [أُسد الغابة، لابن الأثير: ج٣ ص١٦٣؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٦٢٣ ح١٩٣٦].

قال ابن حجر: «حجّاج بن يوسف الثقفي... لحق بعبد الملك بن مروان وحضر مع قتل مصعب بن الزبير ثمّ انتدب لقتال عبدالله بن الزبير بمكّة فجهّزه أميراً على الجيش، فحضر مكّة ورمى الكعبة بالمنجنيق». [تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج٢ ص١٨٤، رقم: ٣٨٨؛ ج١٠ ص١٤١].

وقد ذكر الأستاذ المحقّق سعيد اللحّام في تعليقةٍ له على المصنّف قوله: «الحجّاج بن يوسف الثقفي الذي ضرب الكعبة بالمنجنيق عندما قاد جيش عبد الملك بن مروان في حربه ضدّ عبد الله بن الزبير». [مصنّف ابن أبي شيبة: ج١ ص٣٥٢].

والغريب أنَّ عبد الملك بن مروان كان من أشدّ الناقمين على يزيد بن معاوية عندما وجّه مسلم بن عقبة لاقتحام المدينة، إعظاماً منه للمدينة ولكنّه سرعان ما وقع فيما هو أعظم بحرق الكعبة وهدمها على يد الحجّاج، وبدلاً من أن يعاقب الحجّاج ليعطي رسالةً بعدم رضاه بفعله ـ ولو إعلاميّاً ـ نجده يكافئه بحكم ثلث الدولة الإسلاميّة! قال المسعودي: «وأقام الحجّاج والياً على مكّة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين، ثمّ جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة». [مروج الذهب، لأبي الحسن المسعودي: ج٣ ص١٣١]. وقال ابن الأثير في بيان تناقض عبد الملك: «ولمّا سمع عبد الملك بن مروان أنّ يزيد قد سيَّر الجنود إلى المدينة قال: ليت السماء وقعت على الأرض؛ إعظاماً لذلك، ثمّ ابتلي بعد ذلك بأن وجّه الحجاج فحصر مكّة ورمى الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير». [الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢ ص١٨٩].

وقد كان من شدّة استخفاف الشاميّين الأمويّين بالكعبة وحرمتها: أنّهم لمّا رموها بالمنجنيق وأحرقوها كانوا يرتجزون شعراً بذلك! قال ابن كثير الدمشقي: «وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق ويقولون:

مثـــل الفنـــيق المزبـــد نرمي بها أعواد هذا المسجد».

[البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨ ص٣٦٣؛ وانظر أيضاً: تاريخ الطبري: ج٤ ص٣٨٢].

وقتلهم للصحابة والتابعين وللقرَّاء في واقعة الحرّة[1]، وقتلهم للمؤمنين على

كما أنَّ من شدّة استهزاء الإسلام الأموي برسول الله صلّى الله عليه وآله كان طاغيتهم الحجّاج يستهجن على المؤمنين زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وآله، فقد: «خطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة، فقال: تبّاً لهم! إنّما يطوفون بأعوادٍ ورمةٍ باليةٍ! هلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خيرٌ من رسوله!». [العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: ج٥ ص٣٢؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٥ ص٢٤٢؛ نثر الدرّ: ج١ ص٣٥٣].

قال المبرّد: «إنَّ ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجاج». [الكامل في اللغة والأدب، لأبي العبّاس المبرّد (ت: ٢٨٥هـ): ج١ ص٢٢٢].

(١) استبيحت المدينة المنوّرة في عهد يزيد بن معاوية، وعلى يد قائد جيشه آنذاك مسلم بن عقبة، وقد أوغل في مطاردة القرّاء وقتلهم، ثمّ أرغم أهل المدينة على أخذ البيعة منهم ليزيد على أنّهم عبيدٌ له! وقد بلغ بيزيد الفاسق الفاجر أن سمَّى مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله بالخبيثة! بعد أن كان رسول الله صلّى الله عليه وآله قد سمّاها بطيبة والطيّبة. [انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٢٤٥؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٨٢].

قال ابن الأثير: «وامتنع ـ أي: عبد الله بن الزبير ـ من بيعة يزيد بن معاوية بعد موت أبيه معاوية فأرسل إليه يزيد مسلم بن عقبة المري فحصر المدينة وأوقع بأهلها وقعة الحرّة المشهورة». [أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٣ ص١٦٣].

وقال ابن حجر في «تعجيل المنفعة»: «إنَّ أهل المدينة خلعوا يزيد، فجهّز إليهم الجيوش فكانت وقعة الحرّة بالمدينة، فقُتل فيها عددٌ كثيرٌ من الصحابة والتابعين، واستبيحت المدينة لجهلة أهل الشام، ثمّ سارت الجيوش إلى مكّة...». [تعجيل المنفعة: ص٤٥٣].

ولشدّة الفظائع التي ارتكبها جيش الشام في استباحته للمدينة قد أُطلق على مسلم بن عقبة اسم «مسرف بن عقبة»؛ لإسرافه في القتل، ولهول ما أوقعه في المدينة المنوّرة.

قال ابن كثير الدمشقي: «يقدمها رجلٌ يقال له مسلم بن عقبة، وإنّما يسمّيه السلف: مسرف بن عقبة، فلمّا ورد المدينة استباحها ثلاثة أيّام، فقتل في غضون هذه الأيّام بشراً

كثيراً حتّى كاد لا يفلت أحدٌ من أهلها، وزعم بعض علماء السلف أنّه قتل في غضون ذلك ألف بكر...». [البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٦٢].

وقال الحموي: «وفي هذه الحرّة كانت وقعة الحرّة المشهورة في أيّام يزيد بن معاوية في سنة (٦٣) وأمير الجيش من قبل يزيد مسلم بن عقبة المري، وسمّوه لقبيح صنيعه مسرفاً... وقتل من الموالي ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومن الأنصار ألفاً وأربعمائة، وقيل ألفاً وسبعمائة، ومن قريش ألفاً وثلاثمائة، ودخل جنده المدينة فنهبوا الأموال وسبوا الذريّة واستباحوا الفروج، وحملت منهم ثمانمائة حُرّة وولدن، وكان يقال لأولئك الأولاد أولاد الحرّة». [معجم البلدان، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٤٩].

وقال الحموي في كيفيّة أخذ البيعة ليزيد: «ثمّ أحضر الأعيان لمبايعة يزيد بن معاوية، فلم يرض إلّا أن يبايعوه على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فمَن تلكّأ أمر بضرب عنقه».!! [المصدر السابق؛ وانظر أيضاً: تاريخ الطبري: ج٤ ص٣٧٠، حوادث سنة: ٦٣هـ؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٦ ص٢٣٢].

وقال اليعقوبي: «وأباح حرم رسول الله، حتّى ولدت الأبكار لا يُعرف من أولدهنّ، ثمّ أخذ الناس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرجل من قريش يؤتى به، فيقال: بايع آية أنّك عبدٌ قنّ ليزيد، فيقول: لا، فيُضرب عنقه». [تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٥٠].

وقد اختصر ابن حجر مآسي يزيد وجرائمه الثلاث ـ قتله للحسين عليه السلام، واستباحته للمدينة، وحرق الكعبة ـ بقوله: «فقتله وجهّز الجيش إلى الحسين فقُتل في يوم عاشوراء سنة إحدى وستين. ثمّ إنّ أهل المدينة خلعوا يزيد في سنة ثلاثٍ وستّين فجهّز إليهم مسلم بن عقبة المرّي في جيشٍ حافل، فقاتلهم فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً من الصحابة وأبنائهم وسيق أكابر التابعين وفضلاؤهم، واستباحها ثلاثة أيّام نهباً وقتلاً، ثمّ بايع من بقي على أنّهم عبيدٌ ليزيد، ومَن امتنع قُتل، ثمّ توجّه إلى مكّة لحرب ابن الزبير فمات في الطريق، وعهد إلى الحصين بن نمير فسار بالجيش إلى مكّة فحاصر ابن الزبير ونصبوا المنجنيق على الكعبة فوهت أركانها ثمّ احترقت...». [لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني: ج٦ ص٢٩٤].

الظنّ والتهمة[1]، وغير ذلك من الخروج السافر، ما ذلك إلّا من منطلق اعتقادهم الراسخ بمقولة أبيهم صخر بن حرب.

من هنا يتبيَّن أنّ الإجراءات والتدابير النبويّة وإن أخذت مستوياتٍ كثيرةً إلّا أنّها تكاد تُجمع على كون الانقلاب الأموي هو الأعظم والأخطر، فإنّ الانقلابيّين السابقين كان لديهم حرصٌ واضحٌ على حفظ الظواهر، ولذلك كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يقول: «**والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليَّ خاصّة؛ التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه**»[2]، وإنّما

---

(١) عُرف الحكم الأموي بهذه الخصيصة، وكان أوّل من قام بقتل المؤمنين على الظنّة والشبهة هو مؤسّس الدولة الأمويّة معاوية بن أبي سفيان، وقد رفع كتاباً رسميّاً لولاته وقادة جنده ببراءة الذمة ممَّن روى شيئاً من فضل الإمام عليّ عليه السلام! كما جاء في شرح النهج: «أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٤ـ٤٦]. وقد استعمل معاوية على العراق زياد بن سميّة فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف، فقتلهم تحت كلّ حجرٍ ومدرٍ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمَّل العيون، وصلَّبهم على جذوع النخل. وقد تعرّض جملةٌ من المؤرّخين إلى ذلك الفتك والإرهاب المنظّم. [انظر: مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص١٢، وص٥٠؛ تاريخ الطبري: ج٦ ص٣٤٤]. وربّوا أجيالاً على شتم العترة الطاهرة عليهم السلام عموماً وعلى شتم أمير المؤمنين عليّ خصوصاً، حتّى بلغت بأحدهم الجرأة والوقاحة ـ وهو خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق في عهد هشام بن عبد الملك ـ أنّه إذا أراد أن يختم خطبته، لعن الإمام عليّاً عليه السلام على المنبر، فكان يسمِّي الإمام عليّاً إلى جدّه هاشم، ويعبّر عنه بأنّه صهر النبيّ، وبأبي الحسن والحسين، ثمّ يقول: هل كنَّيت؟!! [انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٥٧]. وقد حكاه ابن أبي الحديد عن المبرّد في الكامل في اللغة والأدب، ولكنّي لم أجده في النسخ الجديدة، وقيل: هو في طبعة أوربا: ص٤١٤، وهي طبعةٌ قديمةٌ.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص١٢٤، رقم: ٧٤.

كان قتاله على أمرٍ أبعد من الظاهر، كما عرفت، وهو مواجهة الحالات النفاقيّة التي تجلَّت في الناكثين والقاسطين والمارقين، حيث يقول عليه السلام: «**أنا حجيج المارقين، وخصيم المرتابين، وعلى كتاب الله تعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازى العباد**»[1].

ولأجل تحقيق الغلبة للإمام حيث سيقاتل على التأويل كما قاتل الرسول صلّى الله عليه وآله على التنزيل، كان لابدّ من إجراءاتٍ وتدابير خاصّةٍ، وهذه الإجراءات وإن كانت شاملةً للخطوط النفاقيّة الثلاثة (الناكثين والقاسطين والمارقين) إلّا أنّها ركَّزت بصورةٍ واضحةٍ على الخطّ النفاقي الصارخ، وهو خطّ بني أُميّة، فالناكثون ما كانوا قاصدين لمحق الإسلام ولا المارقون، بخلاف رأس النفاق في أُمّة الإسلام، وهم الأمويّون القاسطون، ومَن تبعهم من المروانيّة ومن لفَّ لفّهم، فهؤلاء كانوا أبناء القاعدة الأمويّة السفيانيّة الأُولى: «تلقّفوها تلقّف الكرة»، التي مرَّ ذكرها، وأبناء القاعدة الأمويّة الثانية: «لا والله إلّا دفناً دفناً»[2]، وأبناء القاعدة الأمويّة الثالثة:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[3]

قال الطبري: «هذا هو المروق من الدين، وقول مَن لا يرجع إلى الله، ولا إلى دينه، ولا إلى كتابه، ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله، ولا بما جاء من عند الله»[4].

وقال العلّامة الآلوسي بشأن يزيد بن معاوية: «وقد جزم بكفره وصرّح

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص١٢٤، رقم: ٧٥.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٥ ص١٣٠؛ الموفّقيات، ابن بكار الزبيري: ص٥٧٥؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٤٥٤.

(٣) تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٨.

(٤) انظر: تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٨.

بلعنه جماعةٌ من العلماء، منهم: الحافظ ناصر السنّة ابن الجوزي، وسبقه القاضي أبو يعلي... وممّن صرّح بلعنه الجلال السيوطي عليه الرحمة.

وأنا أقول: الذي يغلب على ظنّي: أنّ الخبيث لم يكن مصدّقاً برسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم، وأنّ مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيّه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيّبين الطاهرين، في الحياة وبعد الممات، وما صدر منه من المخازي، ليس بأضعف دلالةً على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قذر، ولا أظنّ أنّ أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين إذ ذاك، ولكن كانوا مغلوبين مقهورين، لم يسعهم إلّا الصبر، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولو سُلِّم أنّ الخبيث كان مسلماً، فهو مسلمٌ جَمَع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصوّر أن يكون له مثلٌ من الفاسقين. والظاهر أنّه لم يتب، واحتمال توبته أضعف من إيمانه، ويلحق به ابن زياد، وابن سعد، وجماعةٌ، فلعنة الله عزّ وجلّ عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم، وأعوانهم، وشيعتهم، ومَن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عينٌ على أبي عبد الله الحسين...»[(١)]، ثمّ يوجز رأيه في المانعين من لعن يزيد بقوله: «وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد»[(٢)].

وللشيخ العلايلي كلمةٌ دقيقةٌ وعميقةٌ في توصيف يزيد بن معاوية، حيث

---

(١) روح المعاني، الآلوسي: ج٣ ص٢٢٧ـ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق. ولكن: «ما عسى الآلوسي أن يقول اليوم لو اطّلع على عصرنا هذا الذي تجاوز فيه الكثيرون من أتباع مدرسة ابن العربي ما ذهب إليه كبيرهم وداعيتهم للضلال البعيد على حدّ قوله؟ لقد بدأ كلامهم بمنع لعن يزيد لينتهي بهم اليوم إلى الحديث عن كفاءته وكمال مواهبه، واستقامة سيرته، وقيامه بحرمة الشريعة، وعمله بأحكامها، وعدله بين الناس، ونظره في مصالحهم، وجهاده عدوّهم، وتوسيعه آفاق دعوتهم، ورفقه بأفرادهم وجماعاتهم». [معالم الإسلام الأموي، محاضرات آية الله السيّد كمال الحيدري: ص٣٠٥].

يقول فيه: «إنّ أهمّ ما يلزمنا أن نعرف هنا من أمر يزيد ناحيتان: نشأته المسيحيّة، أو بالأحرى التي كانت أقرب للمسيحيّة... إنّ من أساتذة يزيد بعض نساطرة الشام من مشارقة النصارى... ولا يخفى ما يكون لهذه التربية من أثرٍ سيّئٍ فيمن يكون وليّ أمر المسلمين... إنّ تربية يزيد لم تكن إسلاميّةً خالصةً، أو بعبارة أخرى: كانت مسيحيّةً خالصةً، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفّاً بما عليه الجماعة الإسلاميّة، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي يُستغرب أن يكون على غير ذلك»[1].

عودٌ على بدء

ومن القواعد الأمويّة السفيانيّة: أنّهم صاروا يُربِّعون الخلافة الراشدة بسيّدهم معاوية بدلاً من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام! حيث يُطلقون على زمن خلافة الإمام عليّ وحروبه الثلاث بزمان الفتن وحروف الفتن، وأمّا إنكار خلافته فمن أقوالهم المشهورة. وهذا ما صرَّح به صاحب كتاب «النصب والنواصب»، حيث يقول: «النواصب في المغرب ـ يقصد المغرب الإسلامي ـ أنّه حكي عن كثيرٍ من أمويّي الأندلس وخطبائها أنّهم لم يكونوا يثبتون خلافة عليّ بن أبي طالب، وإنّما يربّعون بمعاوية»[2]، ممّا يعني أنّ الإسلام الأموي قد استطاع أن يجد له مدرسةً بهذا الاتّجاه، ولذلك نحن نُميِّز كثيراً بين مدرسة الصحابة أو أهل السنّة وبين المدرسة السفيانيّة أو النهج الأموي والإسلام الأموي، ونعتبر ابن تيميّة ومدرسته من أقطاب الإسلام الأموي، وأنّهم ليسوا على نهج مدرسة الصحابة، وليسوا من علماء أهل السنّة.

يقول الأُستاذ العوّاد: «إنّ إنكار خلافة عليّ، من أقوال النواصب المشهورة»[3]،

---

(١) الإمام الحسين، الأستاذ عبد الله العلايلي: ص٥٨ـ٥٩.

(٢) النصب والنواصب، دراسةٌ تاريخيّةٌ عقديّةٌ، بدر بن ناصر بن محمّد العوّاد: ص١٨٢.

(٣) النصب والنواصب، دراسةٌ تاريخيّةٌ عقديّةٌ، بدر بن ناصر بن محمّد العوّاد: ص١٨٢.

فهو ليس خليفةً عندهم البتّة، وهو إجراءٌ منطقيّ منهم؛ لأنّه إذا صحَّحوا خلافته سيحكمون على معاوية بالبغي والانحراف، فأرادوا أن يختصروا الطريق أمامهم فحذفوا عليّاً من الخلافة الراشدة وربَّعوا بمعاوية، وفاتهم الحديث النبويّ المشهور الذي رواه أصحاب السنن، قال ابن حجر: «في حديث سفينة يعني الذي أخرجه أصحاب السنن؛ وصحّحه ابن حبّان وغيره: **الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تكون ملكاً**، لأنّ الثلاثين سنةً لم يكن فيها إلّا الخلفاء الأربعة وأيّام الحسن بن علي»[(١)]، فابن حجر ينصّ على كون خلافة الإمام الحسن من الخلافة الراشدة فضلاً عن خلافة أمير المؤمنين عليّ، وما بعد ذلك يكون الملك العضوض[(٢)]، فلتذهب بهذا الحديث المشهور أحلام السفيانيّة والأمويّة السالفة والتيميّة الحاضرة أدراج الرياح[(٣)].

ولّما تراءى لابن تيميّة خطورة نفي خلافة الإمام عليّ عليه السلام أو الطعن بها فقد انبرى ليُبرِّر لأمويّة الأندلس ممَّن كانوا يُربِّعون بمعاوية تاركين عليّاً، يقول الأُستاذ العوّاد: «إلّا أنّ الإمام ابن تيميّة يرى أن ترك التربيع بعليّ من قبل بعض أهل الأندلس لم يكن من باب الطعن في خلافته»[(٤)]! وما نُشاهده من بعض أمويّة العصر من أنّهم صاروا يُربِّعون بعليّ بدلاً من معاوية ليس تأثّراً بابن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج١٣ ص١٨٢.

(٢) روى ابن حجر أيضاً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ تصير ملكا عضوضاً**». [المصدر السابق: ج٨ ص٦١].

(٣) لم ينفكّ أتباع أُميّة عن الطعن بخلافة أمير المؤمنين عليّ وتقديم معاوية عليه، فممَّا يُضحك الثكلى ما تناقلته بعض وسائل الإعلام المرئيّة ضمن نشراتها الإخباريّة المتعلّقة بأحداث سوريا المعاصرة، حيث أعلنوا عن وجود لواءٍ أمويّ تيميّ سلفيّ تكفيريّ اسمه «شهداء صفّين»! أي: أولئك الذين قتلهم أمير المؤمنين عليّ في صفّين وببشارةٍ وعهدٍ من النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم قال عنه: «إنّ منكم مَن يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله»، ثمّ عرَّف به بأنّه خاصف النعل، وكان عليّ يخصف نعله، وقد تقدّم تخريج الحديث.

(٤) النصب والنواصب، بدر بن ناصر بن محمّد العواد: ص١٨٢ـ١٨٣.

تيميّة، وإنّما ربَّعوا بعليّ تأثّراً منهم بموقف الإمام أحمد بن حنبل الذي كان أوّل من ربَّع بخلافة عليّ! ولو لم يكن موقف ابن حنبل واضحاً في ذلك لبقي القوم على تربيعهم الأندلسي[1]! ومع ذلك كلّه فهنالك الكثير من أمويّة العصر هم نواصب بامتيازٍ كبيرٍ، يخدعون الأُمّة بتربيعهم بعليّ ولكنّهم لا يرون له فضلاً على معاوية، ولا يرون له حقّاً في حربه للقاسطين في صفّين، ولنطالع صوتاً قبيحاً من أصوات نواصب العصر، يُدعى الجبهان، يقول: «يقولون ـ يقصد الشيعة ـ إنّ الحكم لو كان بيد عليّ وذريّته لأكل الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم لبناً وعسلاً ومنّاً وسلوى، وهذا عليٌّ تولّى الخلافة ومكث فيها خمسة أعوام أو تزيد، فهل أكل الناس في عهده وشربوا إلّا دماء الأبرياء وعرض الضعفاء ودموع الثكالى واليتامى والبؤساء، ويا ليت أنّ هذه الدماء وذلك العرق وتلك الدموع قد سالت في فتوحاتٍ إسلاميّةٍ ومن أجل تحرير بلادٍ واقعةٍ تحت نير الكفر والكافرين، إذن لتغيّر وجه التاريخ، ولكنّا في حالةٍ نحسد عليها، ولنترك خلافة عليّ ولنتجاوز عن كلّ ما فيها من مفارقات، ولننظر ماذا حدث

---

(١) وكم لهذا الموقف من نظائر، فمن المعاصرين، لك أن تُراجع ما كتبه الكاتب المصري عبّاس محمود العقاد في حرب صفّين، حيث يقول بأنّ الحقّ قد ثبت مع علي لا مع معاوية لأنّ رسول الله قال في معاوية «تقتلك الفئة الباغية»، وقد ثبت أنّهم قتلوا عمّاراً فيكون الحقّ مع علي، ممَّا يعني أن عمّاراً لو لم يُقتل في تلك الواقعة لبقي الأمر مشكوكاً به بالنسبة للعقّاد، وهذا هو جزءٌ من التأثّر بالنهج الأموي، فقد تنكَّر العقاد لمئات الروايات التي ذكرت فضل عليّ ومكانته، وسابقته وجهاده وحقّانيته، وأنّه لا يبغضه إلّا منافق، وتناسى كلّ تلك الكوارث التاريخيّة التي تُفصح عن لؤم معاوية وخبث سريرته، فلم تُشكِّل كلّ تلك المؤشرات عنده قرينةً على حقانيّة عليّ، وذهب ليستدلّ بحديث مقتل عمّار! لتعرف بعدها كم هو حجم الظلم التاريخي الذي أثقلوا به كاهل علي بن أبي طالب، ولكنّه «علي الدرّ والذهب المُصفَّى وباقي الناس كلّهم تراب»، ومتى احتاج بريق الشمس لعود ثقاب؟!

بعد ذلك، لقد تولّى الحسن الخلافة ثمّ تركها طائعاً مختاراً عندما رأى أنّه لن يقدّم لأمّة محمّد غير الدم والعرق والدموع... وقام الحسين بمحاولته اليائسة التي خلَّفت في قلب الإسلام جرحاً لا يندمل...»[١].

هذا هو الإسلام الأموي، أو قل: هذا واحدٌ من برتوكولات بني أُميّة. فلو كان عليّ خليفةً رابعاً عندهم لما تجرّأوا عليه بهذا القول، فهذا الناصبي المُوغل في نصبه لم يسأل طلحة والزبير وعائشة: لماذا خرجوا على إمام زمانهم، وتسبَّبوا بقتل خمسةٍ وعشرين ألفاً من المسلمين، ولم يسأل سيّده معاوية: لماذا جاء بجيشه الجرّار من الشام إلى صفّين لحرب عليّ الخليفة الشرعي، ولم يسأل الخوارج مثل هذا السؤال، ولكنّه جاء للمجنيّ عليه والمغدور به ليتّهمه بالجناية عليه!

ولذلك نحن لا نرى في مثل هذه الأصوات انتماءً حقيقيّاً لمدرسة الصحابة، فهم ليسوا من أهل السنّة، وإنّما هم من أبناء السفيانيّة الأمويّة الجاهليّة التي تتّهم صنو النبيّ صلّى الله عليه وآله ونفسه وخليفته عليه السلام بتلك الهرطقات، وتصف سيّدي شباب أهل الجنّة وريحانتي رسول الله بتلك الأوصاف، وليته اكتفى بهذا الخطل والزور، وإنّما طفح نصبه وبغضه التاريخي، وكأنّه حمل في قلبه المنكوس زيف التاريخ بأسره وبغض آل أبي سفيان وآل مروان وآل زياد وابن سعد وشمر، وهو يتحدّث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، فيصفه بأوصافٍ يندى لها الجبين[٢]، وليته أقام دليلاً واحداً على اليسير من الكثير من غثّه، ولكنّه معذورٌ عندنا فيما يقول، فهو لم يقل أكثر ممّا هو حاضرٌ في ذاكرة

---

(١) تبديل الظلام وتنبيه النيام: ص١٣٦، فما بعد.

(٢) المصدر السابق: ص٦١. وليته اشتغل قليلاً بتبديد الظلام المستحكم في قلبه عن نفسه، وليته استيقظ من سباته الأموي الطويل بدلاً من الاشتغال بتنبيه النيام الذي ما نتج عنه إلّا الاستغراق في تنويم الناس والتغرير بهم.

كلّ سفيانيّ أمويّ، ولم يخرج قيد أنملةٍ عن إسلامه الأموي التيمي الوهّابي الذي ما جاء إلّا لِيُقوِّض الإسلام المحمّدي الأصيل، وقد نجح إسلامهم المزيَّف الذي أسَّسه رجلٌ باغٍ على إمام زمانه، في إضلالٍ شطرٍ كبيرٍ من الأُمّة.

والجبهان هذا لم يكن سوى ناقلٍ أمينٍ لكلمات ابن تيميّة، فغاية ما فعله هو أنّه فكَّ بعض رموزها ووجَّه إشاراتها، فهو مُقلِّدٌ في فكره ومعلوماته لابن تيميّة في ذلك، فشيخه المُستغرق بحبّ أُميّة يقول في منهاجه: «وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: **لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفةً كلّهم من قريش**، ولفظ البخاري: **اثنى عشر أميراً**، وفي لفظٍ: **لا يزال أمر الناس ماضياً ولهم اثنا عشر رجلاً**، وفي لفظٍ: **لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفةً كلّهم من قريش**، وهكذا كان ـ أي: كان عزيزاً ـ فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، ثمّ تولّى مَن اجتمع الناس عليه وصار له عزٌّ ومنعةٌ: معاوية وابنه يزيد ثمّ عبد الملك وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل في دولة الإسلام من النقص ما هو باقٍ إلى الآن، فإنّ بني أميّة تولّوا على جميع أرض الإسلام وكانت الدولة في زمنهم عزيزةً ـ إلى أن يقول ـ وهذا تصديق ما أخبر به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: **لا يزال هذا الدين عزيزاً ما تولّى اثنا عشر خليفةً كلّهم من قريش**، وهؤلاء الاثنا عشر خليفةً هم المذكورون في التوراة، حيث قال في بشارته بإسماعيل: **وسيلد اثنا عشر عظيماً**. ومَن ظنّ أنّ هؤلاء الاثني عشر هم الذين تعتقد الرافضة إمامتهم فهو في غاية الجهل؛ فإنّ هؤلاء ليس فيهم مَن كان له سيفٌ إلّا عليّ بن أبي طالب...».

فهو إلى الآن يقرّ بخلافة عليّ عليه السلام، ولكنّه لم تسمح له أمويّته بذلك، فشرع في تفنيد خلافة عليٍّ بقوله مباشرة: «فإنّ هؤلاء ليس فيهم مَن كان له سيفٌ إلّا عليّ بن أبي طالب، ومع هذا فلم يتمكّن في خلافته من غزو الكفّار، ولا فتح مدينةً، ولا قتل كافراً، بل كان المسلمون قد اشتغل بعضهم بقتال بعض، حتّى

طمع فيهم الكفّار بالشرق والشام من المشركين وأهل الكتاب، حتّى يقال إنّهم أخذوا بعض بلاد المسلمين، وإنّ بعض الكفّار كان يُحمل إليه كلامٌ حتّى يكفَّ عن المسلمين، فأيّ عزٍّ للإسلام في هذا والسيفُ يعمل في المسلمين، وعدوُّهم قد طمع فيهم ونال منهم؟»[1]، وبالتالي فالإمام عليّ ليس خليفةً عنده، لأنّ الله لم يعزَّ به الإسلام، أو لم يكن الإسلام عزيزاً به! ولكنّ الإسلام كان عزيزاً جدّاً في زمن يزيد بن معاوية! الذي قتل ابن بنت رسول الله في سنة، وهدم الكعبة في سنة، وأباح المدينة ثلاثاً في سنة! هذا هو العزّ الأموي التيمي.

نعم، هذه هي القواعد الأمويّة السفيانيّة، وهي كثيرةٌ جدّاً، ورائحة النفاق فيها تزكم الأُنوف، ولذلك كان لابدّ من الحيطة والحذر، والدفع باتّجاه الإجراءات الكثيرة؛ لتنبيه الأُمّة إلى واقع هذه الطبقة المنافقة، وقد فعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله في أكثر من مناسبة، فما أبقى للأمّة عذراً في متابعتهم لبني أُميّة في شيء، وأمّا الإجراءات والتدابير المتّخذة ضدّ المشروع الأموي فهي:

التدبير الأوّل: إلصاق صفة الطلقاء ببني أُميّة

لم تكن صفة الطلقائيّة مدحاً لقريش بعد فتح مكّة، وإنّما كانت تُعبِّر عن الحالة التي دخلوا فيها في دولة الإسلام وليس في الإسلام نفسه، حيث انضمَّت مكّة لدولة الرسول عنوةً، فصار أهلها أسراء للرسول صلّى الله عليه وآله، إن شاء قتلهم، وإن شاء أبقاهم أسراء له، وإن شاء أعتقهم، ولأنّه كان كريماً في طبعه وخلقه عكس ما كانت عليه قريش من الفضاضة والخشونة في التعامل مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسائر المسلمين، فمَنَّ عليهم رسول الله بالعتق، وبهذا العتق دخلوا الإسلام ظاهراً. وقد روى في ذلك أصحاب الحديث والسير والتاريخ حادثة فتح مكّة وكيفيّة عتق قريش، فقد روى الطبري أنّ رسول الله

---

(١) منهاج السنّة النبويّة: ج٨ ص٢٣٨ فما بعد؛ وأيضاً في طبعة الأربعة مجلدات: ج٤ ص٥١٩.

صلّى الله عليه وآله لّما دخل مكّة عنوةً «قال لأهلها: **يا معشر قريش ويا أهل مكّة! ما ترون أني فاعلٌ بكم؟** قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم، ثمّ قال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء.** فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوةً، وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمَّى أهل مكّة الطلقاء»[1]، وفي تاريخ اليعقوبي أنّه قال لهم: «**ألا لبئس جيران الذين كنتم، فاذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2].

وقد بقيت صفة الطلقائيّة ملاصقةً لهم[3]، تُذكِّرهم بحروبهم الطويلة للإسلام، وكيف أنّهم دخلوا الإسلام عنوةً وهم صاغرون، فما أسلموا عن رغبةٍ واعتقاد، وإنّما عن قوّةٍ وانقياد، وقد قبل النبيّ صلّى الله عليه وآله إسلامهم رحمةً بهم، وقد بقي أهل مكّة عموماً وقريش خصوصاً وبنو أُميّة بنحوٍ أخصّ، يتوارون من صفة الطلقائيّة، حتّى إنّ خصومهم من الصحابة والتابعين كانوا يُلوِّحون لهم بين الفينة والأُخرى بطلقائيّتهم، فلو كانت هذه الصفة مدحاً لما عيَّروهم بها، ولما تواروا عنها.

وما يهمّنا في المقام هو أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد رسَّخ في عقل الأمّة أنّ هؤلاء الطلقاء إنّما أسلموا عنوةً، فلا سابقة لهم إلّا في حروبهم الشعواء للإسلام، ومنه تفهم كلمة الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية: «**ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعيّة، وولاة أمر الأمّة؟ بغير قدمٍ سابقٍ، ولا شرفٍ باسقٍ، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحذّرك أن تكون متمادياً في غرّة الأمنية، مختلف العلانية**

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢ ص٣٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٦٠.

(٣) قال المحقّق سعيد محمّد اللحّام: «الطلقاء: هم مَن آمن بعد الفتح من أهل مكّة من قريش، وقد آمَن أكثرهم أوّل الأمر رهبةً ولم يؤمن رغبةً، وقد سُمّوا طلقاء؛ لقوله صلّى الله عليه وآله وسلَّم لهم: **اذهبوا فأنتم الطلقاء.** ومعاوية منهم». [مصنّف ابن أبي شيبة: ج٧ ص٢٥٠، تحقيق سعيد محمّد اللحّام].

والسريرة»[١].

فمن أراد أن يشرئبّ بعنقه ويتطاول للخلافة منهم، اصطدم بطلقائيّته المُريبة، ولو قرأنا شيئاً من سير التاريخ ـ لاسيّما في بعض أحداث كربلاء ـ نجد أنّ السيّدة زينب بنت عليّ ـ يوم سيق أهل بيت النبوّة سبايا للشام ـ تُخاطب يزيد الفاسق متحدّيةً إيّاه بقولها: «**أمِن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماؤك، وسوقك بنات رسول الله صلّى الله عليه وآله سبايا؟ قد هُتكت ستورهنّ، وأبديت وجوههنّ، يحدو بهنّ الأعداء من بلدٍ إلى بلد**»[٢]، تُذكِّره بأنّه من الطلقاء الذين دخلوا الإسلام عنوةً لا رغبةً منهم، فأين هم ومقام الخلافة وقد سوَّدت وجوهَهم مواقفُهم المُشينة، ولم يرعووا بعد عتقهم الجمعي والتاريخي، فعادوا لأخذ ثأرهم من أهل بيت النبوّة، قتلاً وسبياً وتشريداً، فدخل الطلقاء الإسلام عنوةً وصاروا ينزون على منبر الخلافة عنوةً أيضاً.

وقد جاء في كتابٍ من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لمعاوية يدعوه فيه لبيعته: «**واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا يحلّ لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع، ولا قوّة إلّا بالله**»[٣].

وقد أجاب الإمام الحسين عليه السلام عتبة بن أبي سفيان، عندما أراد الأخير أخذ البيعة منه ليزيد، فقال له: «**لقد سمعتُ جدّي رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول: إنّ الخلافة محرّمةٌ على ولد أبي سفيان، وكيف أبايع أهل بيتٍ قد قال**

---

(١) نهج البلاغة: ج٣ ص١١.

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور: ص٢١؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج٢ ص٣٥؛ اللهوف في قتلى الطفوف، السيّد ابن طاووس: ص١٠٦؛ عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام) للشيخ عبد الله البحراني: ص٤٠٣؛ أعلام النساء، عمر رضا كحالة: ج٢ ص٥٠٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٣ ص٧٤.

فيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله هذا؟»[١].

التدبير الثاني: توصيف بني أُميّة بالقردة وتحريم الخلافة عليهم

إنّ القرآن الكريم قد فضح الطلقاء فسمّاهم بالشجرة الملعونة، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٦٠)، بعد أن رآهم رسول الله صلّى الله عليه وآله ينزون على منبره نزو القردة، وهنا قال المفسّرون بأنّه: «رأى بني أميّة ينزون على منبره نزو القردة، هذا لفظ رسول الله صلّى الله عليه وآله الذي فسّر لهم الآية به، فساءه ذلك، ثمّ قال: الشجرة الملعونة بنو أميّة وبنو المغيرة، ونحو قوله صلّى الله عليه وآله: **إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً**، ونحو قوله صلّى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، قال: **ألف شهرٍ يملك فيها بنو أميّة**»[٢].

قال المباركفوري: «ليلة القدر فالعمل الصالح فيها خيرٌ منه في ألف شهر ليست فيها، (**يملكها**) الضمير المنصوب راجعٌ إلى ألف شهر، والمعنى: أنّ ليلة القدر خيرٌ من مدّة ألف شهرٍ يملك فيها بنو أميّة الولاية والخلافة؛ قال القاسم ـ أي: ابن الفضل الحداني المذكور في الإسناد ـ: فعددناها (أي: مدّة خلافة بني أميّة، وفي رواية ابن جرير: فحسبنا ملك بني أميّة) فإذا هي ألف شهر، هي ثلاثٌ وثمانون سنة»[٣].

حتّى أنّ عمر بن الخطّاب قد سمع عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ما هو قريبٌ من ذلك، فقد روى لابن عباس، قال: «سمعته يقول: **ليصعدنّ بنو أميّة**

---

(١) أمالي الصدوق: ص٢١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٢٢٠؛ تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٥، سنة: ٢٨٤؛ تفسير القرآن العظيم: ابن أبي حاتم: ج٧ ص٢٣٢٦، رقم: ١٣٣٢٣.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلاء المباركفوري: ج٩ ص١٩٧.

على منبري، ولقد أريتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة، وفيهم أُنزل: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾[١]، وقد ورد في تفسير: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله رأى كأنّ قروداً تصعد منبره، فغمَّه ذلك، فأنزل الله سورة القدر[٢]؛ ولأجل هذه الفضيحة الكبيرة ذهب أتباع بني أُميّة إلى القول بمكّية سورة القدر لدفع القرديّة عن بني أُميّة، مع أنّها سورةٌ مدنيّةٌ بحسب التحقيق[٣].

وقد رووا بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يُرَ بعد ذلك ضاحكاً حتّى رحل إلى ربّه صلّى الله عليه وآله لشدَّة ما أصابه من الغمّ[٤]، وقد أكَّد المسعودي بأنّ جميع ملك بني أميّة ألف شهرٍ كاملة لا تزيد ولا تنقص[٥]، ولهول ما رآه

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٢ ص٨١.

(٢) انظر: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي: ص٢١٤؛ تفسير القمّي: ج٢ ص٤٣١؛ متشابه القرآن ومختلفه، ابن شهر آشوب المازندراني: ج٢ ص١٨ ح١٤؛ نور الثقلين، الحويزي: ج٥ ص٦٣٢ ح٩٤؛ وغيرها.

(٣) قال ابن حزم: «سورة القدر: مدنيّة، وجميعها محكم». [الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ص٦٦، رقم: ٩٧]. وقال الثعلبي: «هي مدنيّةٌ في قول أكثر المفسّرين، وذكر الواقدي: أنّها أوّل سورةٍ نزلت بالمدينة». [فتح القدير، الشوكاني: ج٥ ص٤٧١]. وعن ابن عبّاس، قال: «هي مدنيّة». [تفسير الثعالبي: ج٥ ص٦١١]. وقد رجَّح الطباطبائي مدنيَّتها ضمناً، وذلك في قوله: «والسورة تحتمل المكّية والمدنيّة، ولا يخلو بعض ما روي في سبب نزولها عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم من تأييدٍ لكونها مدنيّة». [الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٣٣٠].

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ج١٠ ص٢٨٣.

(٥) انظر: مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٢٥٩.

الرسول صلّى الله عليه وآله فقد حرَّم عليهم الخلافة[1]، وقد مرَّت كلمة الإمام الحسين في رواية ذلك عن جدِّه رسول الله صلّى الله عليه وآله.

التدبير الثالث: ذكر أوصاف بني أُميَّة المُبطلة لشرعيّة سلطانهم

وردت عدّة أوصافٍ لبني أُميّة على لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله تسلب عنهم أهليّة الحكم، وقد اخترنا بعضاً منها، وهي:

الوصف الأوّل: الفئة الباغية

ورد ذلك على لسان النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو يكشف سرّاً خطيراً لعمّار بن ياسر رضوان الله عليه حيث قال فيه: «**ويح عمّار تقتله الفئة الباغية**»[2]، وقد قتله البغاة في صفّين معاوية وجنده، ولما قُتل اضطرب الجيش الشامي؛ حيث تذاكروا ذلك ولاموا أنفسهم، وما يهمّنا هو أنّ هذا الحديث الذي لم ينكره معاوية نفسه ـ فلجأ إلى تأويليه ـ بلغ من الاستفاضة آنذاك بنحوٍ يلتفت له جيش الشام الذي لم يكن سمع من أحدٍ سوى آل أُميّة، وآل أُميّة لهم عداوةٌ قديمةٌ مع عمّار،

---

(١) انظر: الفضائل، شاذان القمي: ص٧٨؛ مثير الأحزان، ابن نما الحلّي: ص١٥؛ اللهوف، ابن طاووس: ص١٨؛ مقتل الإمام الحسين، للخوارزمي: ج١ ص١٨٥.

(٢) هذا الحديث مستفيضٌ، بل متواتر، نقلته أمّهات الكتب الحديثيّة، منها: مصنّف الصنعاني: ج١١ ص٢٤٠ ح٢٠٤٢٧؛ مصنّف ابن أبي شيبة: ج٨ ص٧٢٣ ح٩؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٥١؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٢ ص١٦١؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج٢ ص٣٢٧، رقم: ٧١٠؛ صحيح البخاري: ج٣ ص٢٠٧؛ صحيح مسلم: ج٨ ص١٨٦؛ السنن الكبرى، النسائي: ج٥ ص١٥٥ ح٨٥٤٢ـ٨٥٤٣، وص١٥٦ ح٨٥٤٩ـ٨٥٥١؛ معاني الأخبار، الصدوق: ص٣٥؛ المستدرك: ج٢ ص١٤٩، وص١٥٥؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٧ ص٢٤٢؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٣ ص٢٥٣ـ٢٥٤، ومصادر أخرى كثيرة.

فكيف ينتشر خبرٌ كهذا بين الشاميّين لولا أنّه بلغ من الاستفاضة حدَّ التواتر؟[١]

الوصف الثاني: العبث بالدين والمال العامّ ومصير الناس

ورد عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قوله: «**إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً**»[٢]، ومن لطائف هذا الخبر والدليل على صحّته: أنّ أحد رواته هو معاوية، حيث كتب لمروان: «أشهد يا مروان لسمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً**. فكتب إليه مروان: أمّا بعد، فإنّي أبو عشرةٍ وأخو عشرةٍ وعمّ عشرةٍ والسلام»[٣].

الوصف الثالث: القاسطون المنافقون

القاسطون هم الجائرون والمنحرفون عن طريق الإسلام، نفاقاً منهم وتعصّباً وكِبْراً، وقد ورد في النصّ القرآني صريحاً مصير القاسطين، في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**﴾ (الجنّ: ١٥)، وأعظم مصداقٍ لهؤلاء وأبرزه في دائرة المسلمين هم بنو أُميّة ممثّلين بآل أبي سفيان وآل مروان، فهما عماد الحكومة الأمويّة، وقد روي حديث قتال عليّ للفئات الثلاث الباغية عليه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله بأشكالٍ وطرقٍ مختلفةٍ، وهي:

---

(١) وقد وقف سيّدنا الأستاذ عند هذا الحديث مفصّلاً في «السلطة وصناعة الوضع والتأويل»: ص٢٣٨ـ٣٠٠.

(٢) تقدّم تخريج الحديث في الفصل الخامس، وضمن عنوان: فاطمة عليها السلام تُجرِّد الطامحين من الشرعيّة.

(٣) الشطر الأوّل في الخبر، وهو حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، قد ورد عن أبي ذرّ الغفاري، وعن أبي سعيد الخدري، وقد تقدّم تخريجها، وأمّا هذا الخبر المشفوع بتعليق مروان المؤكّد لصحّة خبر النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه فقد رواه ابن عساكر. [انظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٦ ص٢٩٧].

أوّلاً: خبر قتال عليّ للبُغاة بطوائفهم الثلاث على لسان الصحابة

عن أبي سعيد الخدري قال: «أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. قلنا: يا رسول الله؟ أمرتنا بقتال هؤلاء فمع مَن؟ قال: مع عليّ بن أبي طالب»[١]. وعن الأصبغ بن نباتة عن أبي أيّوبٍ الأنصاري قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول لعليّ بن أبي طالب: **تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بالطرقات والنهروانات وبالشعفات.** قلت: يا رسول الله مع مَن نقاتل هؤلاء الأقوام؟ قال: **مع عليّ بن أبي طالب**»[٢].

ثانياً: خبر قتال عليّ للبُغاة الثلاث على لسان صحابةٍ قاتلوا مع علي

عن علقمة والأسود أنّهما أتيا أبا أيّوبٍ الأنصاري بعد منصرفه من صفّين فقالا له: يا أبا أيّوب إنّ الله أكرمك بنزول محمّد صلّى الله عليه وآله، وبمجيء ناقته تفضّلاً من الله وإكراماً لك حتّى أناخت ببابك دون الناس، ثمّ جئت بسيفك على عاتقك تضرب به أهل لا إله إلّا الله، فقال: «يا هذا إنّ الرائد لا يكذب أهله، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أمرنا بقتال ثلاثةٍ مع عليّ، بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأمّا الناكثون فقد قابلناهم أهل الجمل طلحة والزبير، وأمّا القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم ـ يعني معاوية وعمراً ـ وأمّا المارقون فهم أهل الطرفاوات وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهروانات، والله ما أدري أين هم، ولكن لا بدّ من قتالهم إن شاء الله»[٣].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٧١؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص٣٣؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٣٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٠.

(٣) تاريخ بغداد: ج١٣ ص١٨٨؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٤٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٧ ص٣٤٠؛ نهج الإيمان، ابن جبر: ص١٩١.

وقد كان أبو أيّوب شديد التمسّك بهذا الحديث، حتّى أنّه كان يُحدِّث به في زمن خلافة عمر؛ فعن عتاب بن ثعلبة، أنّه قال: «قال أبو أيّوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطّاب: أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين مع عليّ»[1].

ثالثاً: خبر قتال عليّ للبُغاة الثلاث على لسان مَن سمعه من عليّ

عن عليّ بن ربيعة قال: سمعت عليّاً على منبركم هذا يقول: «**عهد إليّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين**»[2].

رابعاً: خبر قتال علي للبُغاة الثلاث على لسان أمير المؤمنين عليّ

عن أمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه أنّه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ففعلت ما أُمرت به، فأمّا الناكثون فهم أهل البصرة وغيرهم من أصحاب الجمل، وأمّا المارقون فهم الخوارج، وأمّا القاسطون فهم أهل الشام وغيرهم من أحزاب معاوية**»[3].

وأخيراً فقد ذكر ابن أبي الحديد أنّه «قد ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين**، فكان الناكثون أصحاب الجمل، لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام، وكان القاسطون أهل الشام بصفّين، وكان المارقون الخوارج في النهروان، وفي هذه الفرق الثلاث قال الله تعالى:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥ ص٤١؛ تاريخ ابن كثير: ج٧ ص٣٠٦؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٦ ص٨٨؛ المستدرك: ج٣ ص١٣٩.

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٥ ص١٨٦؛ مسند أبي يعلي: ج١ ص٣٩٧ ح٥١٩.

(٣) ورد الخبر بألفاظٍ متقاربةٍ. انظر: دعائم الإسلام، للقاضي أبي حنيفة النعمان: ج١ ص٣٨٨؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٦٩؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص٣٣٨؛ المناقب، للخوارزمي: ص١٧٦، وص٢١٢.

﴿فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح: ١٠)، وقال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ (الجنّ: ١٥)، وأمّا المارقون فقد قال فيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله: **يخرج من ضئضئ هذا قومٌ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[1]. وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلّى الله عليه وآله ومن أخباره المفصّلة بالغيوب، وبهذا يكون رسول الله صلّى الله عليه وآله قد نبَّه الأمّة إلى خطر بني أُميّة ومعاوية حين سمّاهم بالقاسطين الجائرين، فهم البغاة المنافقون الذين ما ادَّخروا جهداً في حربهم ضدَّ الإسلام على تنزيله، فكانوا أشدّ خصوم الرسول صلّى الله عليه وآله، وعلى تأويله، فكانوا أشدّ خصوم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد كان الإمام عليّ عليه السلام يصف الخوارج بأنّهم طُلّاب حقّ أخطأوا الطريق، وأمّا معاوية وعشيرته فكان يصفهم بأنّهم طلّاب باطلٍ وأصابوه، وقد جمع ذلك بقوله: «**لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه**»، يعني معاوية وأصحابه[2].

تذييل

إنّ تاريخ بني أميّة الحافل بالمآسي كاشفٌ بنفسه عن واقعهم المشين، وكيف أنّهم كانوا نقمةً عظيمةً على هذه الأُمّة، فقد زوَّروا التاريخ وشوّهوا الحقائق

---

(١) انظر: المدوّنة الكبرى، مالك بن أنس الأصبحي (ت: ١٧٩هـ): ج٢ ص٤٨؛ صحيح البخاري: ج٥ ص١١١، وص٢٠٥؛ مسند أبي داود الطيالسي: ص٢٩٦؛ تفسير ابن كثير: ج١ ص٣٥٤؛ غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي: ج٣ ص١١٠؛ المغني، عبد الله بن قدامه (ت: ٦٢٠هـ): ج١٠ ص٥٩؛ الشرح الكبير على متن المقنع، لأبي الفرج المقدسي الحنبلي (ت: ٦٨٢هـ): ج١٠ ص٧٢؛ المحلّى، ابن حزم الأندلسي: ج١١ ص٢٢٠، وص٢٢٦، وص٢٣٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٣ ص١٨٣، ومصادر أخرى. وقد أخرج العلّامة الأميني مصادر الحديث من كتب الفريقين معاً. انظر: الغدير، عبد الحسين الأميني: ج١ ص٣٣٧.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص١٠٨ ح٦١.

وافتروا على رسول الله وعلى كثيرٍ من الصحابة، وعملوا على شراء الضمائر والذمم لقاء وضع أخبارٍ تُسيء للإمام عليّ عليه السلام، فسمعتها رعيّتهم ـ والناس على دين ملكوهم ـ فتلوّثت عقائد الناس، ومازلنا نعاني إلى يومنا هذا من الأمويّة القاتلة، فما ظواهر التكفير والتضليل إلّا من تركات بني أُميّة في الأُمّة، وقد نجح الأمويّون في إضلال الكثير من أبناء الأُمّة، فصار كثيرٌ من الناس يرى معاوية على الحقّ في حربه في صفّين، والمعتدل منهم يرى أنّ صفّين معركةٌ كان النزاع فيها على السلطان وليس نزاعاً بين الحقّ والباطل! موهمين الأُمّة بأنّ معاوية والشاميّين آنذاك ليسوا على باطل!

وهذا يعني: أنّ بني أُميّة قد نجحوا كثيراً في تحييد الإجراءات والتدابير النبويّة ضدّهم، وهذا ما يستدعي منّا البحث في محاولات بني أُميّة في إفشال هذه التدابير في حفظ الخلافة الإلهيّة المُمثّلة بعليّ بن أبي طالب عليه السلام.

الفصل الثامن

محاولات إفشال التدابير النبويّة
في حفظ الخلافة الإلهيّة

- حدود نجاح التدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة
- دور الخلفاء في إفشال التدابير النبويّة في عهد النبيّ
- دور الخلفاء في إفشال التدابير النبويّة بعد رحلة النبيّ
- دور الصحابة في إفشال التدابير النبويّة في عهد النبيّ
- دور الصحابة في إفشال التدابير النبويّة بعد رحلة النبيّ
- دور بني أُميّة في إفشال التدابير النبويّة
- دور بني العباس في إفشال التدابير النبويّة
- دور الكتّاب والمحدثين في إفشال التدابير النبويّة
- دور المعاصرين في التعمية على التدابير النبويّة
- دور العلماء والنخب في حفظ التدابير النبويّة
- دور الأمّة في حفظ التدابير

حدود نجاح التدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة

لا ريب بأنّ التدابير النبويّة قد حقَّقت أهدافاً لها على المدى القريب والبعيد، كما أنّها أخفقت في تحقيق أهداف لها على المدى القريب، والأهداف المُحقَّقة أعظم وأجلّ من الأهداف التي لم تتحقَّق؛ لأنّها أهداف تتعلَّق بنفس الدين، وأمّا الأهداف القريبة التي لم تتحقَّق فإنّها تتعلَّق بالحكومة وإدارة الملفّ السياسي والاقتصادي والعسكري للدولة، ففي عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان انحصر دورهم في إدارة هذه الملفّات الثلاثة، ولم تتمكَّن من فرض السيطرة الدينيّة والروحيّة على الأُمّة، وقد أثبتت الأحداث التاريخيّة الفقر الشديد الذي كان عليه الخلفاء من الناحية العلميّة والفتوائيّة وردّ الشبهات، ولم يكن هنالك مُتصدٍّ لهذه الأمور العلميّة (القضائيّة والفتوائيّة وردّ الشبهات الدينيّة) غير عليّ بن أبي طالب، حتّى أعلنها الخلفاء الثلاثة ـ لاسيّما الثاني ـ في أكثر من موضع بأنّهم لا طريق لهم لمعالجة مواقف كهذه غير عليّ، فكان من أفقه أصحابه جمعاً وتفصيلاً، وأقضاهم بلا منازع، وأحفظهم لكتاب الله وسنّة نبيّه وأوعاهم، وما عُرف أحدٌ أفقه منه في الفتيا، وكان قوله هو الصواب بعينه.

وقد اشتهر على لسان الخليفة الثاني قوله فيه: «لا أبقاني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو حسن»، وقوله: «يا ابن أبي طالب! فما زلت كاشف كلّ شبهة، وموضح كلّ حكم»، وقد ورد هذا المعنى بألفاظٍ مختلفةٍ ذات معنىً واحدٍ، وهو الحاجة إلى علم الإمام عليّ عليه السلام وفقاهته وقضائه ودرايته[1].

---

(١) انظر: أنساب الأشراف، البلاذري: ص٩٩ ح٢٩؛ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج١٣ ص٢٨٥؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ج٧ ص٤٤٢؛ تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري: ص١٥٢؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨؛ نظم درر السمطين، الزرندي

وقد جاءت هذه المعاني ـ الكاشفة عن العجز المعرفي والعوز الشديد للإمام عليّ عليه السلام دون سواه ـ في ألفاظٍ عديدةٍ، كما كان أصل الرجوع إليه في جميع القضايا العلميّة والدينيّة، والعمل في ضوء ما يقوله عليّ عليه السلام أمراً مفروغاً منه، سجَّلته لنا مصادر مختلفةٌ في الحديث والتفسير والتاريخ والسيرة[1].

وقد روي عن أبي الدرداء قوله: «العلماء ثلاثة: رجلٌ بالشام ـ يعني نفسه ـ ورجلٌ بالكوفة ـ يعني عبد الله بن مسعود ـ ورجلٌ بالمدينة ـ يعني عليّاً ـ فالذي بالشام يسأل الذي بالكوفة، والذي بالكوفة يسأل الذي بالمدينة، والذي بالمدينة لا يسأل أحداً»[2].

الحنفي: ص١٣٢؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٤٢ ص٤٠٦؛ أُسد الغابة، لابن الأثير الجزري: ج٤ ص٢٣؛ تهذيب الكمال، المزي: ج٢٠ ص٤٨٥؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج٧ ص٢٩٦؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٧؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص١١٦؛ نهج الإيمان، ابن جبر: ص١٤٧؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج١ ص٢٢٧ ح٥٨؛ غريب الحديث، لابن قتيبة: ج٢ ص٢٩٣؛ النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير الجزري: ج٣ ص٢٥٤؛ الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحبّ الدين الطبري: ج٢ ص١٩٤؛ ذخائر العقبى، محبّ الدين الطبري: ص٨٢؛ مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: ج٧ ص٤٨٤؛ الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي: ج١ ص٢٨٨ ح٦ ح٤٠، كنز العمّال، المتّقي الهندي: ج٣ ص٩٦ ص١٧٩ ص٢٢٨؛ فيض القدير، المناوي: ج٤ ص٤٧٠.

(١) يُنظر تفصيل المسألة وبيان جميع المصادر في ذلك كتاب: الغدير، عبد الحسين الأميني: ج٦ ص٣٠٢ـ٣٠٨، وص٣٢٧ـ٣٢٨.

(٢) كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص١١٦. وقد روي ذلك عن عبد الله بن مسعود نفسه، قال: «علماء الأرض ثلاثة: عالمٌ بالشام، وعالمٌ بالحجاز، وعالمٌ بالعراق، أمّا عالم الشام فأبو الدرداء، وأمّا عالم الحجاز فهو عليّ عليه السلام، وأمّا عالم العراق فهو أخٌ لكم بالكوفة ـ يعني نفسه ـ وعالم الشام وعالم العراق محتاجان إلى عالم الحجاز، وعالم الحجاز لا يحتاج إليهما». [الخصال، الصدوق: ص١٧٣، رقم: ٢٢٩].

وقال ابن أبي الحديد: «فقد عرف كلّ أحدٍ رجوعه إليه في كثيرٍ من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقوله غير مرّةٍ: لولا عليّ لهلك عمر، وقوله: لا بقيت لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن، وقوله: لا يفتينّ أحدٌ في المسجد وعليٌّ حاضر، فقد عرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه، وقد روت العامّة والخاصّة قوله صلّى الله عليه وآله: **أقضاكم علي**، والقضاء هو الفقه، فهو إذن أفقههم»[1]، وأمّا قوله صلّى الله عليه وآله: «**أقضاكم علي**»، فهو كما أشار ابن أبي الحديد قد نقلته العامّة والخاصّة[2].

حتّى أنّ معاوية وهو الخصم اللدود لم يجد بُدّاً من الإقرار بضرورة الرجوع لعليّ في علمه وفكره وفقهه[3]، والفضل ما شهدت به الأعداء.

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ج١٥ ص١٦٢، وص١٦٤؛ المستصفى لأبي حامد الغزالي: ص١٧٠؛ الإحكام في أُصول الأحكام، الآمدي: ج٤ ص٢٣٧؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥١ ص٣٠٠؛ كشف الغمّة، الأربلّي: ج١ ص١١٤؛ نهج الإيمان، ابن جبر: ص٦٦١؛ كتاب المواقف، الأيجي: ج٣ ص٦٢٧؛ كتاب تمهيد الأوائل، للباقلاني: ص٥٤٣؛ أعلام النبوّة، أبو الحسن الماوردي: ص١٤٢؛ التبصير في الدين، الإسفراييني: ص١٧٩؛ الصواعق المحرقة، تحقيق : عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمّد الخراط: ج١ ص١١٠؛ الملل والنحل، الشهرستاني: ج١ ص١٦١؛ لوامع الأنوار، محمّد السفاريني الحنبلي: ج٢ ص٤١٨؛ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقّن الشافعي المصري: ج٧ ص١٩١. وقد خرّجنا مصادرأخرى لقوله صلّى الله عليه وآله: «**عليّ أقضاكم**» في ص٢٣٥، فراجع.

(٣) في قصّة رجلٍ تزوَّج من أُختين دون علمٍ منه، وقد دخل فيهما، فلما علم بعد ذلك أتى معاوية فقصّ عليه فقال: معضلةٌ ولا أباً حسن ـ وكان عليّ حرباً لمعاوية ـ فقال الرجل لمعاوية: فأذن لي أن آتيه، فأذن له معاوية، فأتى الرجل عليّ بن أبي طالب فقال: السلام عليك يا عليّ، فردّ عليه السلام، فقصّ عليه القصّة، فقضى له. [انظر: المحلّى، ابن حزم

وقد كان أمير المؤمنين عليّ يُمارس دوره المقدور عليه ضمن وظيفته ـ كإمامٍ منصوبٍ وخليفةٍ لرسول الله صلّى الله عليه وآله ـ في عهد الخلفاء الثلاثة، فهم وإن سلبوه موقعه في السلطة والحكم إلّا أنّ دوره كإمامٍ هادٍ للأُمّة وحافظٍ للشريعة وحدودها وحافظٍ لحرمات المؤمنين، لم يتوقّف البتّة، بل ولا يحتاج إلى أخذ الإذن فيه من أحدٍ، وقد وقع أكثر من حادثةٍ في هذا المجال، نذكر منها:

ما وقع في زمن عثمان بن عفّان

إنّ الوليد بن عقبة أخا عثمان لأُمِّه ـ أو بالرضاعة ـ وواليه على الكوفة، شرب الخمر وخرج للناس للصلاة بهم وهو سكران، فصلّى بهم صلاة الصبح أربع ركعات ثمّ التفت إليهم وقال لهم: هل أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان بذلك عند عثمان، ولما استقدمه عثمان لقيه الإمام عليّ عليه السلام فأقام عليه الحدّ[1]،

الأندلسي: ج٩ ص٥٠٩؛ ذخائر العقبى، محبّ الدين الطبري: ص٨٢].

(١) ذكرت كُتب السنن أنَّ عثمان أمر بإقامة الحدِّ عليه، ولكنّ الصحيح هو أنّه عزله عن ولاية الكوفة ودرأ الحدّ عنه بردّ شهادة الشهود، فنهض الإمام عليّ عليه السلام وأقام الحدَّ عليه، وقيل بأنَّه عليه السلام قد أمر عبد الله بن جعفر بتولِّي إقامة الحدِّ عليه. [انظر: تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٦٥؛ صحيح البخاري: ح٣٨٧٢؛ صحيح مسلم: ح٤٣٤٨؛ الفروع من الكافي، للكليني: ج١٤ ص١١٩ ح١٣٨٣١؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٧ ص١٧٤].

وقد حاول ابن أبي الحديد التوفيق بين القولين وحفظ كرامة عثمان فروى أنّه أمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحدّ، فلما دنا منه قال: «نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين! فتركه، فخاف عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يعطّل الحدّ، فقام إليه فحدّه بيده، فقال الوليد: نشدتك الله والقرابة! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **أسكت أبا وهب، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتعطيلهم الحدود**. فلما ضربه وفرغ منه قال: **لتدعونّي قريش بعدها جلّاداً**». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٧ ص٢٣٠]. والصحيح أنّه عليه السلام جلده

وما أقام عليه الحدّ إلّا لعلمه بسكوت عثمان عنه، وأنّه سيغضّ الطرف عنه، وهذا ما حصل، فلما أتوا عثمان وشهدوا عليه بفسقه وشربه للخمر عزله وولّى مكانه سعيد بن العاص، ولكنّه دفع شهادة الشهود وزجرهم، لدرء الحدّ عنه(١).

وقد كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ينتظر توفّر الأسباب الموضوعيّة للقيام بأُمور الخلافة فضلاً عمّا كان قائماً به من أُمور الإمامة، ولذلك نجده عندما نهض الناصر وأُقيمت الحجّة نهض بأعباء الدولة، وقد كان عليه السلام في نفسه لا يرجو ذلك؛ لعدم رغبته في الحكم، وهذا ما صرَّح به في قوله عليه السلام: **«أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقارّوا على كظّة ظالمٍ ولا سغب مظلومٍ، لألقيتُ حبلها على غاربها، ولسقيتُ آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»**(٢).

بعدما علم من عثمان التباطؤ، فأقام عليه الحدّ ودون أن يُكنِّيه، فالفاسق لا كرامة له. كما حاول الطبري أن يُوحي بأنّ عثمان نفَّذ حكم الحدّ بأمرٍ من عليّ، ناسباً ذلك القول للإمام نفسه يوم عاب الشاميّون في صفّين على عثمان إجراء الحدّ على الوليد، فقال عليّ عليه السلام: «**إنّكم وما تعيّرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقتل ردفه، ما ذنب عثمان في رجلٍ قد ضربه بقوله، وعزله عن عمله، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا**». [تاريخ الطبري: ج٣ ص٣٣٠]. ولكنّ الصحيح هو ما تقدَّم.

(١) انظر: مروج الذهب، المسعودي: ج٢ ص٣٧٠.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص٣٦ خطبة (٣).

النسمة هي الروح، وبرأها: خلقها، وحضور الحاضر أي: مَن حضر لبيعته ولزوم البيعة لذمّة الإمام بحضوره، والناصر هو الجيش الذي يستعين به على إلزام الخارجين بالدخول في البيعة الصحيحة. والكظّة: ما يعتري الآكل من امتلاء البطن بالطعام، والمراد: استئثار الظالم بالحقوق، والسغب: شدّة الجوع، وعفطة عنز: ما يتناثر من فمها؛ كنايةً عن عدم خطرها عنده، وأنّها ليست مقصداً له. [المصدر السابق] .

وقال عليه السلام أيضاً: «**والله، لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزيرٍ في يد مجذوم**»[١].

إنّ هذه المهامّ المعرفيّة والدينيّة لم يكن بإمكان الإمام عليّ النهوض بها لولا تلك الإجراءات النبويّة التي عرَّفت الأُمّة بمقام الإمام عليّ، والتي أثبتها الإمام عمليّاً، فكان أهلاً لما قيل فيه، كما أنّ قيام الإمام عليّ بما أمره رسول الله صلّى الله عليه وآله، سواءٌ قبل خلافته أو حينها، يُثبت أنّ كلمات الرسول صلّى الله عليه وآله فيه كانت عامرةً في ذاكرة المسلمين عموماً والمؤمنين خصوصاً، ولذلك نجد عامّة المسلمين لما قُتل عثمان اجتمعوا على الإمام عليّ بنحوٍ لم يجتمعوا على أحدٍ من قبله ولا من بعده.

دور الخلفاء في إفشال التدابير النبويّة في عهد النبيّ

كان أبو بكر وعمر من أشدّ الصحابة طموحاً في تولّي الخلافة، وقد وجدوا في التدابير النبويّة إقصاءً صريحاً لهم، فلم يكن أمامهم لتولّي زمام الأُمور بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، ومواجهة التدابير النبويّة في حفظ خلافة الإمام عليّ عليه السلام، غير طريقين، هما:

الطريق الأوّل: تشكيك الخليفة الثاني والطعن بتصرّفات النبيّ

وقد حصل هذا في أكثر من مورد، لعلّ من أشهرها ما وقع في صلح الحديبيّة، فقد وقعت حادثتان، واحدةٌ قبل الصلح وأُخرى بعده، أمّا السابقة فقد روتها كتب الصحاح والتاريخ والتفسير لأنّها متعلّقةٌ بسورة الفتح، حيث تروي بأنّ عمر كان من أشدّ المعترضين على إقامة الصلح، وإليك القصّة لتقف على خلفيّة تشكيك الخليفة الثاني برسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى بلغ الأمر به أن يُخاطبه: ألستَ نبيّ الله؟

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص٥٢، رقم: ٢٣٦.

روى هذا الخبر ابن حنبل والبخاري والنسائي وابن حبّان والبيهقي والطبراني والطبري وابن كثير والشوكاني وغيرهم، وقد سلك أكثرهم طريقاً متعرِّجاً في نقل الخبر، فعندما تجد عمر يمطر رسول الله بأسئلته التشكيكيّة الغاضبة يُصوِّرون لنا بأنّ عمر وكأنّه يُحدِّث نفسه، وعندما يطرح أسئلته بصور المستفهم الحريص على هيبة الإسلام يُصوِّرون لنا الحوار بين عمر والرسول صلّى الله عليه وآله، وكم تخبّطوا في نظم الخبر، لا يعرفون لهم مخرجاً، فالخبر صريحٌ في أذيّة عمر لرسول الله صلّى الله عليه وآله وصريحٌ في التشكيك فيه، وصريحٌ في إسقاط هيبته صلّى الله عليه وآله، لاسيّما وأنّ كلام عمر قد وقع منه في محضر رجالٍ من مشركي قريش كسهيل بن عمرو وغيره، ولا نعلم ما الذي تركه عمر في أذهان هؤلاء المشركين؟

تقول الرواية الحنبليّة البخاريّة:

فجاء عمر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: ألست نبيّ الله؟

قال رسول الله: بلى.

قال عمر: ألسنا على الحقّ وهم على باطل؟ أليس قتلانا في الجنّة، وقتلاهم في النار؟

قال رسول الله: بلى.

قال عمر: ففيم نعطى الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟

فقال رسول الله: يا ابن الخطّاب إنّي رسول الله، ولن يضيّعني أبداً.

قال الراوي: فرجع ـ أي: عمر ـ وهو متغيّظ ، فلم يصبر حتّى أتى أبا بكر.

فقال عمر: يا أبا بكر ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار؟

ـ وهكذا يُعيد عمر أسئلته نفسها على رفيق رحلته أبي بكر، ثمّ يهدأ عمر بعد سماع الجواب من أبي بكر، فيرضى بجواب أبي بكر ويهدأ، ولكنّه يخرج من

رسول وهو مُتغيّظ!! ـ

قال الزهري: قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالاً[١].

وقد حاول الشوكاني وجملةٌ من رواة الخبر أن يُلطِّفوا الأجواء ويُظهروا لنا حرص عمر على هيبة الإسلام[٢]، مع أنّ فعله وتشكيكه هذا كان فيه إسقاطٌ لهيبة النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولمّا أدرك عمر سوء ما فعله وأنّ صورته قد اهتزَّت في ذاكرة المسلمين، أو قل: بأنّ خيوط التشكيك بدأت تنكشف شيئاً فشيئاً، قال كلمةً لدفع ذلك، وهي كلمةٌ تضع النقاط على الحروف، وقد نسي الشوكاني وغيره أن يحذفوها، وهي قول عمر: «فعملت لذلك أعمالاً»، أي: إنّه قام بأعمال تُكفِّر عما بدر منه. فلو كان ما صدر منه بداعي الحرص على الإسلام وهيبته وكان يستحقّ الشكر على ذلك، فلماذا أراد عمر أن يكفِّر عن ذنبه بأعمالٍ خاصّةٍ لذلك.

وكم لهذه الحادثة من نظيرٍ فيما قام به الخليفة الثاني، مع أنّه لا يملك من نفسه غير الطاعة المطلقة لرسول الله؛ بمقتضى قول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ (محمّد: ٣٣)، ولعلّه لأجل ذلك كان يعمل أعمالاً، وهذا سياسةٌ عامّةٌ سلكها بعض الصحابة، حيث يطعنون ويشكّكون برسول الله ثمّ يعملون أعمالاً لذلك! وكأنّ المسألة سوف تُحلّ بهذه الأعمال، ونحن لا نعلم هل هذه الأعمال المُدَّعاة قد عُملت أم لم تُعمل، وإذا عُملت فلماذا لم تشكّل رادعاً عن ارتكاب أخطاءٍ وتشكيكاتٍ أُخرى؟ وأمّا التشكيكات الأُخرى فقد صرَّحت بها كتب الصحاح[٣].

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٣ ص٤٨٦؛ ج٤ ص٣٣٠؛ صحيح البخاري: ح٣١٨٢؛ صحيح مسلم: ح٤٥٢٥.

(٢) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني: ج٨ ص١٨٦.

(٣) من قبيل ما رواه أبو هريرة: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أعطاه نعليه، وقال له: اذهب بنعليّ هاتين، فمَن لقيت وراء هذا الحائط، يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه،

الطريق الثاني: الحيلولة دون التمكين لعليّ أو كتابة نصّ بخلافته

أمّا الحيلولة دون تمكين عليّ من الوصول لسدّة الحكم والعمل على المنع من كتابة نصٍّ يختم رحلة الوصايا بعليّ، فسوف نعرضهما من شاهدين من الشواهد التاريخيّة الكبيرة على إسهام الخلفاء ـ لاسيّما الشيخين ـ في إفشال الإجراءات النبويّة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله.

فبشّره بالجنّة، فكان أوّل من لقيتُ عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ قلت: نعلا رسول الله صلّى الله عليه وآله بعثني بهما مَن لقيتُ يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه بشّرتُه بالجنّة. قال أبو هريرة: فضرب عمر بين ثدييّ فخررت لإستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة. فرجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأجهش بالبكاء، ثمّ قصّ عليه ما جرى له من عمر. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعمر: **ما حملك على ما صنعت؟** فسأل عمر عن صحّة ما أرسل به أبا هريرة؟ فقال الرسول: **نعم.** قال عمر: فلا تفعل. [صحيح مسلم: ج١ ص٢٨، باب: من لقي الله بالإيمان؛ صحيح ابن حبان: ج١٠ ص٤٠٩؛ الإيضاح: ص٥٣٩؛ الطرائف، ابن طاووس الحلّي: ص٤٣٨]. وهنا يعتدي عمر على أبي هريرة ويُشكّك في ما أرسله به ثمّ ينهى النبيّ عن العمل بذلك!

وفي مسند عائشة، أن عائشة قالت: اعتمَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالعشاء ـ أي: تأخّر عن الصلاة حتّى دخلت العتمة ـ حتّى ناداه عمر بـ: الصلاة، نام النساء والصبيان ـ أي: اخرج للصلاة فقد نام النساء والصبية ـ فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقال: وما كان لكم أن تنذروا رسول الله صلّى الله عليه وآله على الصلاة، وذلك حين صاح عمر بن الخطّاب. [صحيح البخاري: ج١ ص١٤١؛ صحيح مسلم: ج١ ص٢٤١] مع أنّ الله تعالى قد نهى عن رفع الصوت بوجه النبيّ في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ (الحجرات: ٢)، واستهجن الذين ينادونه من وراء الحجرات، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ (الحجرات: ٤)، ولا ريب أنّ المدافعين عنه سيقولون بأنّه كان حريصاً على الصلاة، وكأنَّ النبيّ كان ينتظر من فلان وفلان ليُذكّروه بالصلاة! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الشاهد الأوّل: منع عمر من كتابة الرسول كتاباً يمنع من ضلالة الأُمّة

وهو ما يُسمَّى في اصطلاح المحدّثين والمؤرِّخين برزيّة الخميس، وهي برواية عبد الله بن عباس، قال: «لما اشتدّ بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وجعه قال: **ائتوني بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده**، قال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا أو كثر اللغط. قال صلّى الله عليه وآله: **قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع**، فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه»[١]، وفي قول آخر رواه البخاري نفسه أنّ عمر قال: «هجر رسول الله»[٢]، وفي قول آخر: «ما له أهجر»[٣]، وقد مرَّ بنا تحقيق الخبر[٤].

وهذا الطريق وإن تضمَّن ـ بشكلٍ مُباشر ـ المنع من كتابة الوصيّة الأخيرة إلّا أنّه يشتمل بشكلٍ واضحٍ جدّاً على تشكيكٍ صريح بكفاءة النبيّ وقدراته صلّى الله عليه وآله، بل ويومئ بعدم صلاحيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله لتحديد الخليفة من بعده، وقد نجح عمر من خلال إثارة اللغط والفوضى، وبعدما وجد النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّ الكتاب قد شُكِّك فيه في حياته فكيف بعد حياته، فترك الكتاب وأمرهم بالخروج.

---

(١) الجامع الصحيح (البخاري): ج١ ص٦٠ ح١١٤، باب: كتابة العلم، رقم: ٣٩، تحقيق: الأرنؤوط، وفي الطبعة القديمة لصحيح البخاري: ج١ ص٣٧؛ ج٥ ص١٣٧؛ ج٨ ص١٦١.

(٢) صحيح البخاري: ج٢ ح٣٠٩٣، كتاب الجهاد والسير، باب: هل يستشفع إلى أهل الذمّة ومعاملتهم؛ وفي الطبعة القديمة: ج٤ ص٧٠.

(٣) صحيح البخاري: ج٤ ص٦٥.

(٤) في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وقد مرَّ أنَّ البخاري روى الخبر ستّ مرّات، فإذا جاء لفظ «غلبه الوجع» يُصرِّح بأنَّ القائل هو عمر، وإذا جاء لفظ «هجر، أهجر» يُدلِّس فيُخفي اسم عمر؛ لِيُوهم بأنّ القائل رجلٌ مجهولٌ! فحفظ كرامة عمر وتناسى كرامة النبيّ!

الشاهد الثاني: منع سريّة أُسامة من التحرّك بهم للروم

وأمّا الشاهد التاريخي الكبير على دور الخلفاء الثلاثة في تقويض المخطّط النبويّ عندما أرسلهم كجنودٍ ضمن سريّة أُسامة بن زيد، فخلقوا الأعذار الواهية للمنع من حركة السريّة، وأجبروا أُسامة على المكوث على أطراف المدينة، ودسّوا العيون لمتابعة الأخبار، ولما تناهى إليهم احتضار النبيّ صلّى الله عليه وآله صاروا يتقاطرون للمدينة شيئاً فشيئاً، ولمَّا توفّي صلّى الله عليه وآله هرعوا إلى المدينة لا لوداع النبيّ! وإنّما لحضور السقيفة وأخذ المُبادرة من الأنصار، فحضروا وأثاروا زوبعةً ليحسموا أمر الخلافة لهم بمعونةٍ من أبي عبيدة الجرّاح وخالد بن الوليد، أعضاء الحزب الحاكم.

إنّ هذه الشواهد التاريخيّة تحكي بوضوحٍ الحراك الخفيّ الذي كان يُدار لمواجهة الإجراءات والتدابير النبويّة الواضحة في تولية الإمام عليّ للخلافة. وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقرأ الأحداث بكلّ واقعيّةٍ وموضوعيّةٍ ويُدرك حجم الخطر الكبير المُحدق بالخلافة الإلهيّة، ويعلم أنّ المنافسين والطامحين لن يتركوا الأمور تجري كما خُطِّط لها، وأن عليّاً سوف يُلاقي مواجهةً عنيفةً، وقد كان يقرأ هذا في كلمات وسلوكيّات مجموعةٍ غير قليلةٍ من الصحابة، وقد عرَّض فيهم في أكثر من مورد، منها ما جاء في جوابه لسؤالٍ سألوه إيّاه عن الخليفة من بعده فكان ممَّا قاله لهم: «**وإن تؤمِّروا عليّاً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهديّاً، يأخذ بكم الطريق المستقيم**»[1]، حيث يقول: «**ولا أراكم فاعلين**»، وهو حديثٌ صحيحٌ كما تقدّم[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج١ ص١٠٩؛ شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ج١ ص٨٢ ح١٠٠، وص٨٣ ح١٠١، وص٨٤ ح١٠٢؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٣ ص١٤٢؛ الإصابة، ابن حجر العسقلاني: ج٤ ص٤٦٨.

(٢) انظر: المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمّد شاكر: ج١ ح٨٥٩.

وقد تقدَّم: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد خلا يوماً بأمير المؤمنين عليّ في الطريق وأخبره بالضغائن التي في صدور القوم ؛ يقول عليّ: «**اعتنقني ثمّ أجهش باكياً، قلت: يا رسول الله ما يبكيك؟** قال: **ضغائن في صدور أقوامٍ لا يبدونها لك إلّا من بعدي.** قال: قلت: **يا رسول الله في سلامةٍ من ديني؟** قال: **في سلامةٍ من دينك**»[1].

وقد دعاه للسكوت عن سلِّ السيف للمطالبة بحقّه هو، وصيّة الرسول صلّى الله عليه واله حيث قال له: «**يا عليّ إنّ القوم إن نقضوا أمرك واستبدّوا بها دونك، وعصوني فيك. فعليك بالصبر حتّى ينزل الأمر، ألا وإنهم سيغدرون بك لا محالة فلا تجعل لهم سبيلاً إلى إذلالك وسفك دمك، فإنّ الأمّة ستغدر بك بعدي**»[2]، وهذا ما حصل تماماً، في أبشع سابقةٍ في تاريخ الأُمّة، وكان هذا هو أوّل الشروع في إسقاط التدابير النبويّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله.

دور الخلفاء في إفشال التدابير النبويّة بعد رحلة النبيّ

كان للخلفاء الثلاثة أكثر من دورٍ في إفشال التدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة بعد رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله، وكان أوّلها ما حصل في السقيفة، فبعد أن علموا أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله قد تُوفِّي وأنّ عليّاً عليه السلام مشغولٌ بتجهيزه، سارعوا وسابقوا الأحداث التي بدأت إرهاصاتها في سقيفة بني ساعدة، والخصوم في السقيفة مهما بلغ أمرهم فأمرهم سهلٌ جدّاً، فما دام عليٌّ بعيداً عن ساحة النزاع فالأمر يُمكن حسمه لهم، ولمّا اصطدموا بمنافسٍ جديدٍ وهو زعيم الأنصار سعد بن عبادة الخزرجي قاموا بتحريك الحسّ العشائري

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج٩ ص١١٨؛ مسند أبي يعلي: ج١ ص٤٢٦ ح٥٦٥؛ المعجم الكبير، للطبراني: ج١١ ص٦٠؛ الكامل: ج٧ ص١٧٣؛ تاريخ بغداد: ج١٢ ص٣٩٤؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٤٢ ص٣٢٢؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٤ ص٤٨٠.

(٢) الخصال،الصدوق: ص٤٦١ ح٤؛ اليقين والتحصين، ابن طاووس الحسني: ص٣٣٧.

لمنافسٍ له على زعامة الأنصار وهو بشير بن سعد الذي أخذه الحسد لمّا رأى اجتماع الأنصار على سعد، فسعى لإفساد الأمر عليه، وكان قد أدرك بحدسه أنّ الأمر لن يتمّ لسعد فكيف تؤول النوبة إليه، فكان لابدّ من اتّخاذ موقفٍ يساعده على الوصول إلى زعامة الأنصار، ولم يكن أمامه سوى المسارعة في بيعة أبي بكر بعدما شاهد عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر، فاقترب منهما وقال لهما: وأنا ثالثكما، وقد حفظوا له هذا الصنيع فيه وفي ذريّته، وكان بنو أميّة أشدّ الناس وفاءً لبشير بن سعد في ولده النعمان[1] الذي كان من ولاتهم على الكوفة، وكان من المنحرفين عن عليّ عليه السلام.

ولما رأت الأوس صنيع سيّدها بشير، أكبّوا على أبي بكر بالبيعة، وتكاثروا على ذلك وتزاحموا، فجعلوا يطأون سعداً من شدّة الزحمة، وهو بينهم على فراشه مريض، فقال: قتلتموني. قال عمر: اقتلوا سعداً قتله الله. فوثب قيس بن سعد فأخذ بلحية عمر وخاطبه بكلامٍ شديد اللهجة ثمّ استنقذ أباه[2].

وأمّا الشاهد الثاني على محاولاتهم في إفشال التدابير النبويّة فتمثّل في بثّ ثقافةٍ وافدةٍ من أفكار عمر تحديداً، وهي ثقافة الفصل بين النبوّة والحكم، فلا

---

(١) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري، له ولأبويه صحبة، سكن الشام ثمّ ولي إمرة الكوفة، قُتل بحمص سنة خمسٍ وستّين، وله أربعٌ وستّون سنة، قال ابن أبي الحديد: «كان النعمان بن بشير الأنصاري منحرفاً عنه ـ أي: عن عليّ عليه السلام ـ وعدوّاً له، وخاض الدماء مع معاوية خوضاً، وكان من أمراء يزيد ابنه حتّى قُتل وهو على حاله». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٧٧].

(٢) يقول الطبري: أخذ قيس بن سعد بلحية عمر فقال: «والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة». [انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٥٩]. أي: ما رجعت في فمك سنّ ضاحكة، ولما علم أبو بكر أن قيس بن سعد قادرٌ على فعل ذلك، وأنّه سوف يُسقط هيبتهم، سارع لعمر قائلاً: مهلاً يا عمر مهلاً، فإنّ الرفق أبلغ وأفضل.

يمكن لهما أن يجتمعا في بيتٍ واحدٍ، وقد احتجّ عليه عمران بن الحصين وبريدة الأسلمي، حيث قال له بريدة: يا عمر، قد أبى الله ذلك عليك، أما سمعته يقول في كتابه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء: ٥٤)، فقد جمع الله عزّ وجلّ، لهم النبوّة والملك، فغضب عمر حتّى توقّدت عيناه، فقاموا عنه خوفاً من بطشه، ولم ينسَ هذا الموقف لهما، حيث يقول بريدة: ما زلنا نعرف في وجهه الغضب حتّى مات(١).

والغريب أنّ عمر نفسه كان قد شهد على نفسه في أكثر من موقعٍ وهو يتحدّث إلى عبد الله بن عباس بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أراد أن يُوصي لعليّ بالخلافة في رزيّة الخميس، وأنّه قام بمنعه، ثمّ حاول أن يعتذر لمنعه بأن قام بذلك رأفةً بالأمّة لأنّ قريش لا ترضى بعليّ خليفةً، والحقيقة هي أنّ الحزب الحاكم لم يرتضِ بعليّ خليفة، وأمّا قريش فكان يكفيها أن يكون الخليفة قرشيّاً، وما يهمّنا في المقام هو اعترافه الصريح بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله جمع النبوّة والخلافة في بيتٍ واحدٍ، فكيف ادَّعى قبل ذلك بأنّهما لا يجتمعان في بيتٍ واحد؟ إنّها محاولةٌ عمريّةٌ أُخرى في مواجهة التدابير النبويّة في تنصيب الخليفة، وحصره بعليّ لا غير، وذلك بعدما صار يتناهى إليه أنّ جملةً من الصحابة صاروا يتذاكرون وصايا النبيّ بعليّ، فضلاً عن أنّهم كانوا قريبي عهدٍ ببيعة الغدير، ولكنّ سياسة الفصل لم تنجح كثيراً رغم لوك بعض الصحابة فيها. والأغرب من ذلك كلّه هو أنّ عمر نفسه قد نسي أُطروحة عدم اجتماع النبوّة والخلافة في بيتٍ واحدٍ، وذلك بعد أن استتبّ له الأمر، فنصَّب للأُمّة شورى سداسيّةً كان عليٌّ واحداً فيها،

---

(١) انظر: شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ج٢ ص٢٦٠؛ المناقب، لابن شهر آشوب: ج٢ ص٢٥٣.

فكيف رشَّحه للخلافة، والخلافة لا تجتمع مع النبوّة في بيتٍ واحد؟!

إنّ موقف الخلفاء الثلاثة وبمعيّة بعض الصحابة طيلة خمسٍ وعشرين سنةً أجلسوا فيها عليّاً في بيته، وبخسوه فيها حقّه، وضيَّعوا فيها منزلته، جعل عليّاً يستعين بالله تعالى عليهم في قوله: «**اللّهُمَّ إنّي أستعديك على قريش ومَن أعانهم، فإنّهم قطعوا رحمي، وصغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، ثمّ قالوا ألا أنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه**»[1]، حيث يُشير في المقطع الأخير إلى موقف عبد الرحمن، وقريش عنوانٌ جامعٌ للخلفاء وبني أُميّة وثلّةٍ من الصحابة الذين بخسوه حقّه.

دور الصحابة في إفشال التدابير النبويّة في عهد النبيّ

لم يألُ رسول الله صلّى الله عليه وآله جهداً في بيان مكانة عليّ وصلاحيّته للخلافة، وقد علم بذلك القاصي والداني، ونظراً لكون الطامحين للخلافة قد وجدوا في ذلك إقصاءً لهم، فلا مجال لتولّيهم زمام الأُمور دون القدح بعليٍّ وتضعيف موقعه، فكانت محاولاتٌ عدّةٌ، من قبيل تحريض بعض الصحابة على توجيه الشكوى ضدَّ عليّ في محضر الرسول صلّى الله عليه وآله، ورغم أنّهم كانوا يجدون تذمّراً وغضباً من رسول الله عند توجيه اتّهامٍ أو شكوى ضدّ عليّ وأنّه كان يردعهم، إلّا أنّهم كانوا يُكرِّرون ذلك، وما فعلهم هذا إلّا لأنّهم يقصدون أمراً أبعد من الشكوى، فالمطلوب هو تشكيل أوراق ضغطٍ على الرسول صلّى الله عليه وآله من جهة، ونشر أخبارٍ عبر وكالات أنبائهم بأنّ الشكاوى قد ازدادت بحقِّ عليّ عليه السلام!

ومن ذلك ما تقدّمت الإشارة له في قصّة بريدة الأسلمي الذي رافق خالد بن الوليد لا حبّاً به وإنّما لبغضه لعليّ! حتّى أنّه حمل رسالةً من خالد للنبيّ صلّى

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص٨٥.

الله عليه وآله لمّا علم بأنّها تشتمل على انتقاصٍ من عليّ، فطلب من خالد أن يأخذ الرسالة بنفسه ويقرأها على النبيّ صلّى الله عليه وآله أو إذا قُرئت عنده سوف يُصدِّق كلَّ ما قيل فيها[1]، وخالد من الحزب الحاكم، وما كان اعتماد الشيخين عليه في أوّل الانقلاب إلّا لعلمهما بتحقّق شرطين فيه، الأوّل: هو بغضه لعليّ عليه السلام، والثاني: ولاؤه الكبير للخليفة الأوّل.

دور الصحابة في إفشال التدابير النبويّة بعد رحلة النبيّ

رغم أنّ دور كثيرٍ من الصحابة كان ثانويّاً فيما إذا قيس بدور الخلفاء في إفشال الإجراءات والتدابير النبويّة في حفظ الخلافة، إلّا أنّه قد ساهم كثيراً في تعزيز موقف الخلفاء من جهة، وفي التشكيك في موقعيّة الإمام عليّ من جهةٍ أُخرى، وقد يغلب على تصرّفات الصحابة قلّة الوعي بوقائع الأمور، فضلاً عن التحاسد والتنافس على أمورٍ لا قيمة لها في البناء الإسلامي كان لها دورٌ خطيرٌ في قلب الأحداث، كما في دور البشير بن سعد، فإنّ هذا الرجل الساذج قد دفعه حسده لسعد بن عبادة أن يمدّ يده لبيعة أبي بكر دفعاً للخلافة عن ابن عبادة، فسعد هذا كان خزرجيّاً، والبشير كان أوسيّاً، فخشي إن آلت الخلافة لسعد فإنّها ستبقى في ذريّته إلى أبد الدهر، وهذا ما لا يرضه الأوسيّان بشير بن سعد وأُسيد بن حضير فسارعا لبيعة أبي بكر[2]، لاسيّما وأن هنالك نزاعاً تاريخيّاً بين الأوس والخزرج على الزعامة في المدينة، كان لليهود دورٌ عظيمٌ في تأجيجه بين الفينة والأُخرى، وقد عاد هذا التنازع في لحظةٍ تاريخيّةٍ عصيبةٍ، وهي لحظة تحديد الخليفة.

إنّ ما نعتقده في دور بشير بن سعد ـ أيّاً كانت أهدافه وخلفيّاته ـ هو أنّه لا

---

(١) انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ج٢ ص١٢٩؛ مسند الإمام أحمد، ط. القديمة: ج٥ ص٣٥٠ـ٣٥٦. وقد تقدّم سرد الروايات في ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٥٨.

يقلّ عن دور عمر في تهيئة الأجواء لخلافة أبي بكر، غاية ما في الأمر أنّ عمر كان يُخطّط لذلك منذ عهدٍ بعيدٍ ويتحرّك بدقّة، في حين أنّ البشير لم يحرّكه لهذا الموقف سوى ثلاثة أمور، هي:

الأوّل: الحسد العميق لسعد بن عبادة.

الثاني: طمعه في نوال منصبٍ في الحكومة الجديدة.

الثالث: التمهيد لزعامةٍ قادمةٍ له على جميع الأنصار.

وهذه الأسباب جميعاً لا ترقى إلى الأسباب التي كانت تُحرّك عمر، والتي اختصرها الإمام عليّ عليه السلام بكلمةٍ واحدةٍ، حين قال له عمر: إنّك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له علي: **احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّه عليك غداً! لا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه**[1].

وأمّا الدور الآخر الكاشف عن قلة الوعي فهو موقف سعد بن عبادة، فسعد لم يكن حسوداً، ولم يكن مُبغضاً للإمام علي، ولم يكن يجد نفسه منافساً لعليّ في الخلافة، ولكنّه لما وجد عليّاً غائباً والقوم يجذبون النار لقرصهم رشَّح نفسه للخلافة، ولم يُدرك خطورة هذا الإجراء الذي أعطى الحزب الحاكم أهليّةً وأولويّةً في الحكم، لأنّه قدَّم منافسين لهم في مرتبةٍ دانيةٍ، فإنّ الثقافة العامّة والعقل العامّ للصحابة قائمٌ على أساس تقديم المهاجرين على الأنصار، حتّى أنّ القرآن الكريم كان يُقدِّم ذكر المهاجرين عليهم[2]، فلما حصر سعد بن عبادة بغبائه السياسي المنافسة بينه وبين أبي بكر فلا شكّ في رجحان كفّة أبي بكر، وقد

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج١ ص٢٨؛ السقيفة وفدك، الجوهري البغدادي: ص٦٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٦ ص١١؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ج١ ص٥٨٧، رقم: ١١٨٨.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ...﴾ (التوبة: ١٠٠)، وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ...﴾ (التوبة: ١١٧).

أدرك أبو بكر لوائح النصر له، مع أنّ عمر كاد أن يُفسد الأمر عليه بغلظته حين صاح في القوم: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، فهذا الموقف من عمر لم يكن واعياً، فسارع إليه أبو بكر بعد أن أدرك أنّ الأمر قد حُسم له وأنّ موقف عمر قد يُغيِّر في الأحداث، فقال لعمر: مهلاً يا عمر مهلاً فإنّ الرفق أبلغ وأفضل(١).

ولعلّ عمر كان يُناور بذلك ـ وهو رجل الساعة بعد أبي بكر ـ فأراد أن يظهر بالغلظة لينطق أبو بكر بكلمة اللين(٢)، فيكون قد شرح السياسة القادمة في فعلين مختلفين، هما البطش العمري يُخيف به العامّة، واللين البكري يُقرِّب به الخاصّة، وقد نجحوا في ذلك، فخلطوا الأوراق النبويّة وتساقطت الإجراءات والتدابير النبويّة في نصب الخليفة الحقيقي ببطشةٍ من عمر وكلمة لينٍ من أبي بكر، ومساهمةٍ ساذجةٍ أو غير مدروسةٍ من بعض كبار الأنصار.

ومن مواقف بعض الصحابة: موقف خالد بن الوليد، الذي لا زال يذكر شكايته في كتابٍ أرسله مع بريدة السلمي، يشكو فيه عليّاً، وكان قلبه ينطوي على بغضٍ شديدٍ لعليّ؛ لأنّ عليّاً خطف الأنظار والأضواء تماماً، أضواء الشجاعة والبطولة ولم يعد لنجم خالدٍ من بريقٍ في سماءٍ أضاءها عليّ بشمس بطولته، ولم يكن خالد ـ وهو رجلٌ شجاعٌ وعارفٌ بالحرب ـ أن يرضى لنفسه أن يكون رقماً في عداد الأرقام، وحيث إنّه حديث عهدٍ بالإسلام ولم يدرك واقع الإسلام وعظيم محتواه فقد أسلم نفسه لهواه، واستجاب لنداء النفس، فامتلأ قلبه حسداً وضغينةً على عليّ عليه السلام، وقد أبرز ذلك بقوّةٍ في سقيفة بني ساعدة، فكان سيفهم وساعدهم في البطش، وهذه هي فرصته التاريخيّة، حيث لا يوجد من

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٤٥٩؛ تاريخ ابن خلدون: ق ٢ ج٢ ص٦٤؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص٩٣.

(٢) انظر: السقيفة: ص١٢٥.

يدافع عن عليّ، وهو على جرأته ورغبته الشديدة بالتقليل من شأن عليّ، إلّا أنّه كان أقصر ذراعاً وأضعف ساعداً من أن تمتدّ له يدٌ لعليّ، فهو يدرك مَن هو عليّ، وأنّه لو نازع عليّاً عليه السلام لصار أُضحوكةً وحكايةً يتداولها الصبية ويقصّها القصّاصون للأجيال، وقيل بأنّ خالداً قد حاول مرّةً المساس بالإمام عليّ عليه السلام ـ وبإغراءٍ من بعض عليّة القوم ـ فعاد خائباً يلوذ بالخسران[1].

---

(١) جاء في خبرٍ مرويّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام «أنَّ أبا بكر لما امتنع من إعطاء فدك إلى فاطمة عليها السلام جاء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى المسجد وأبو بكر جالسٌ وحوله المهاجرون والأنصار. فقال: **يا أبا بكر لم منعتَ فاطمة عليها السلام ما جعله رسول الله صلّى الله عليه وآله لها ووكّلها فيه منذ سنين؟** فقال أبو بكر: هذا فيءٌ للمسلمين، فإن أتت بشهودٍ عدولٍ وإلّا فلا حقّ لها فيه. قال: **يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف ما تحكم في المسلمين؟** قال: لا.

قال: **أخبرني لو كان في يد المسلمين شيءٌ فادّعيتُ أنا فيه ممّن كنت تسأل البيّنة؟**

قال: إيّاك كنت أسأل. قال: **فإذا كان في يدي شيءٌ فادّعى فيه المسلمون تسألني فيه البيّنة؟**

قال: فسكت أبو بكر، فقال عمر: هذا فيءٌ للمسلمين ولسنا من خصومتك في شيء.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأبي بكر: **يا أبا بكر تقرّ بالقرآن؟** قال: بلى.

قال: فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب:٣٣)، **أفينا أم في غيرنا نزلت؟** قال: فيكم.

قال: **فأخبرني لو أنّ شاهدين من المسلمين شهدا على فاطمة عليها السلام بفاحشةٍ ما كنت صانعاً؟** قال: كُنت أقيم عليها الحدّ كما أقيم على نساء المسلمين.

قال: **كنت إذن عند الله من الكافرين**، قال: ولمَ؟

قال: **لأنك كنت تردّ شهادة الله وتقبل شهادة غيره، لأنّ الله عزّ وجلّ قد شهد لها بالطهارة، فإذا رددتَ شهادة الله، وقبلتَ شهادة غيره، كنتَ عند الله من الكافرين.**

قال: فبكى الناس وتفرّقوا ودمدموا.

فلما رجع أبو بكرٍ إلى منزله بعث إلى عمر، فقال: ويحك يا ابن الخطّاب أما رأيت عليّاً وما

ثمّ توالت المواقف المُخيِّبة للآمال من ثلّةٍ من كبار الصحابة، ولعلّ من أبرز

فعل بنا، والله لئن قعد مقعداً آخر ليفسدنّ هذا الأمر علينا، ولا نتهنّأ بشيءٍ مادام حيّاً.

قال عمر: ما له إلّا خالد بن الوليد.

فبعثوا إليه فقال له أبو بكر: نريد أن نحملك على أمرٍ عظيمٍ.

قال: احملني على ما شئت، ولو على قتل عليّ. قال: فهو قتل عليّ.

قال أبو بكر: فصر بجنبه، فإذا أنا سلّمت فاضرب عنقه.

فبعثت أسماء بنت عميس ـ وهي أم محمّد بن أبي بكر ـ خادمتها، فقالت: اذهبي إلى فاطمة فاقرئيها السلام، فإذا دخلتِ من الباب فقولي: ﴿**إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ (القصص: ٢٠)، فإن فهمتْها وإلا فأعيديها مرّةً أخرى، فجاءت فدخلت وقالت: إنّ مولاتي تقول: يا بنت رسول الله كيف أنتم، ثمّ قرأت الآية، فلما أرادت أن تخرج قرأتها. فقال لها أمير المؤمنين: اقرئي مولاتك منّي السلام وقولي لها: **إنّ الله عزّ وجلّ يحول بينهم وبين ما يريدون إن شاء الله.**

فوقف خالد بن الوليد بجنبه، فلما أراد أن يُسلِّم لم يُسلّم ـ أبو بكر ـ وقال: يا خالد لا تفعل ما أمرتك، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما هذا الأمر الذي أمرك به ثمّ نهاك قبل أن يُسلِّم؟

قال: أمرني بضرب عنقك، وإنّما أمرني بعد التسليم. فقال: أو كنت فاعلاً؟

فقال: إي والله لو لم ينهني لفعلت.

قال الإمام الصادق: فقام أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذ بمجامع ثوب خالد ثمّ ضرب به الحائط وقال لعمر: يا ابن صهاك! والله لولا عهدٌ من رسول الله وكتابٌ من الله سبق لعلمت أيّنا أضعف جنداً، وأقلّ عدداً».

[الشيخ الصدوق: ج١ ص١٩٠، باب (١٥١) العلّة التي من أجلها أُمر خالد بن الوليد بقتل أمير المؤمنين عليه السلام، ح١؛ الاحتجاج، للطبرسي: ج١ ص١١٧؛ المسترشد، محمّد بن جرير الطبري الإمامي: ص٤٥٠، رقم: ١٤٦ـ١٤٧؛ بحار الأنوار، للمجلسي: ج٤١ ص٢٧٦ ح٣؛ نور الثقلين، الحويزي: ج٤ ص١٨٨؛ بيت الأحزان، الشيخ عبّاس القمّي: ص١٣٥؛ اللمعة البيضاء: ص٧٩٥].

تلك المواقف: موقف عبد الرحمن بن عوف من عليّ عليه السلام، فقد احتال عليه بشرطٍ كان يعلم بأنّ عليّاً يرفضه، وأنّ عثمان يقبله، وكان الشرط هو العمل بسيرة الخلفيتين من قبله، وبعبارة أُخرى: هو العمل بما خالفوا به كتاب الله وسنّة رسوله، وإلا لو كانت سيرتهما موافقةً للكتاب والسنّة فلا معنى لاشتراط ذلك، ولا معنى لرفض عليّ، وما كان من عليّ إلّا الرفض، ولو كان حريصاً على الإمرة والملك كما كان عثمان في ذلك لقبل الشرط ، ولكنّه شرطٌ ما أنزل الله به من سلطان، بل هو شرطٌ مخالفٌ لكتاب الله وسنّة رسوله.

وليس موقف سعد بن أبي وقّاص وطلحة في ترشيحهما لعثمان دون عليّ إلّا لحسدٍ استحكم في قلبيهما، فضلاً عن كونه حلقةً في سلسلة المواجهات المضادّة للتدابير النبويّة لحفظ الخلافة الإلهيّة، وليتهم كسبوا شيئاً من مواقفهم المشينة، فهذا عبد الرحمن بن عوف سرعان ما دبّ الخلاف بينه وبين عثمان بدعاءٍ من أمير المؤمنين عليهما يوم بايع عبد الرحمن عثمان، فقال له عليّ عليه السلام: «**والله ما فعلتها إلّا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دقَّ الله بينكما عطر منشم**»[1]، ففسد الحال بينهما، ولم يكلّم أحدهما صاحبه حتّى مات عبد الرحمن، ونحن إنّما نذكر هؤلاء الصحابة الكبار نظراً لما يتمتّعون به من مكانةٍ رفيعةٍ وما كان لهم من سابقةٍ في الإسلام وجهادٍ في سبيل الله، وأمّا ابن آكلة الأكباد معاوية وعمرو بن العاص ومَن كان في مرتبتهم، فهؤلاء لا خلاق لهم، ولا كرامة.

دور بني أُميّة في إفشال التدابير النبويّة

وأمّا بنو أُميّة ـ وقد سمّاهم التاريخ صحابةً، وما عشت أراك الدهر عجباً ـ فلم يدّخروا جهداً في تقويض الإجراءات والتدابير النبويّة ومدّ يد العون للحزب الحاكم، وقد كان الأمويّون مسيطرين على مكّة، وهم يعلمون جيّداً ما تمثّله مكّة،

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٨.

فلما تُوفِّي الرسول صلّى الله عليه وآله عمّت الفوضى في مكّة، ولم يبد الوالي الأموي حراكاً، حيث كان ينتظر إشارةً من أبي سفيان، القائد الباطني والمُحرِّك الواقعي لهم في ذلك الوقت، وقد أدرك أبو بكر ذلك فسارع بمنح أبي سفيان موقعاً جديداً في الحكومة الجديدة من خلال تولية ابنه يزيد بن أبي سفيان على بعض مناطق الشام، فسكت أبو سفيان وعاد الاستقرار لمكّة[1]!

وقد تصرّف أبو سفيان بدهاءٍ وخبثٍ شديدين، فبعدما آلت الأمور لأبي بكر سارع أبو سفيان لعليّ وحرّضه على النهوض بالسيف على أبي بكر، ووعده بأنّه سيملأ له الأرض خيلاً ورجلاً، وكان يهدف من وراء ذلك إثارة الفتنة، طمعاً بالعودة إلى الوراء، أعني إلى عهد الجاهليّة، فعمل ليعمّ الهرج والمرج، فألقمه الإمام عليه السلام حجراً بقوله له: «**طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئاً! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك**»[2]، وفي خبرٍ آخر ردعه الإمام عليّ عليه السلام قائلاً له: «**فوالله ما تريد الله بما تقول، وما زلت تكيد الإسلام وأهله، ونحن مشاغيل**

(١) كان والي مكّة هو عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أميّة، وقد كان ينتظر الإشارة من أبي سفيان ليعلنها جاهليّةً جديدةً، بل إنّه قد تحرّك فعلاً بعد وصول خبر وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله، حيث استخفى وارتجّت المدينة وكاد أهلها يرتدّون. [انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٣ ص١٢٣]. ولم يظهر إلّا بعد أن عرف أنَّ أبا سفيان قد رضي ـ بعد سخطٍ ـ وانتهى مع الحاكمين الجُدد إلى نتائج في صالح البيت الأموي، كان منها تسليم الشام لبني أُميّة، فظهر للناس وأعاد الأمور إلى مجاريها. [انظر: تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٣٧].

وبهذا المنصب الجديد قد هدأت ثائرة أبي سفيان وقال: وصلته رحم، ثمّ فهم الخليفة الثاني عمر الدرس جيّداً، فلمّا مات يزيد بالطاعون خرج الأمر منه بتولية معاوية على الشام، بل ومكّنه من الشام ما لم يُمكِّن والياً له على أيّ مكانٍ آخر، حتّى بلغ الأمر أنّه سلّم له أمور الشام فلم يأمره بشيءٍ ولم ينهه عن شيء! (منه دام ظلّه).

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٤٥؛ السقيفة وفدك، الجوهري: ص٤٠.

برسول الله صلّى الله عليه وآله، وعلى كلّ امرئ ما اكتسب، وهو وليّ ما احتقب»[١].

تقول الرواية: فانصرف أبو سفيان إلى المسجد فوجد بني أميّة مجتمعين فيه، فحرّضهم على الأمر فلم ينهضوا له[٢]، وهنا أراد أن يُلوِّح بورقته الثانية، حيث قصد المسجد ليُوصل رسالةً سريعةً للحاكم الجديد بأنّه لا زال أبا سفيان وأنّه له أتباع، وهكذا قد نجح أبو سفيان في هذه الخطوة؛ لأنّها حقَّقت له هدفاً مهمّاً ستكون هي الحجر الأساس لإعادة أمجاده السالفة، وسرعان ما استجاب الحاكم الجديد فأمر بتولية ابنه يزيد على أرضٍ قد فُتحت من الشام، لتكون الشام طعمة أبي سفيان وذرّيّته، وقد تعاطى الخلفاء الثلاثة مع الواقع الجديد المُسمّى بشام بني أُميّة، فما كان لعمر بن الخطّاب القدرة على أنملةٍ من أنامل معاوية، بل وهبه السلطات المطلقة، وذلك في قوله له: «**لا آمرك ولا أنهاك**»[٣].

وإذا ما عرفنا ما تتناقله الأخبار من شدّة عمر ـ لاسيّما على ولاته ـ نعلم بأنّه لأمرٍ ما قد آثر معاوية هذا الإيثار المنقطع النظير، وهو الموقع الذي عزَّزه عثمان له، ولمّا عزله الإمام عليّ عليه السلام من ولاية الشام رفع معاوية قميص عثمان مطالباً بدمه، وواقع الأمر هو المطالبة بامتياز عمر له الذي أرجع بني أُميّة الطلقاء للواجهة، فاتّخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً، على حدّ تعبير رسول الله صلّى الله عليه وآله[٤].

---

(١) الإرشاد: ج١ ص١٩٠؛ إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي: ج١ ص٢٧١؛ والاحتقاب هو الاكتساب.

(٢) الإرشاد: ج١ ص١٩٠.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٣٣؛ تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٥؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٣ ص١٤١٧؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٩ ص١١٢؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣ ص١٣٣.

(٤) عن أبي ذرّ الغفاري قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: إذا بلغت بنو أميّة

حتّى بلغ الأمر بعمر أن يُعلن ترشيح معاوية الطليق للخلافة، في محاولةٍ منه لتوسيع رقعة المنافسين لعليّ من جهة وطمر جميع الإجراءات النبويّة الصادرة في شأن عليّ عليه السلام، فتوالت البرقيّات العمريّة في ترشيح معاوية من قبيل قوله فيه: «فتى قريش وابن سيّدها»[1]، للتلويح بأنّ الفتى المطلوب هو معاوية وليس عليّاً! وكان يُقدِّم لهم معاوية على أنّه الأكثر حكمةً ودهاءً من كسرى وقيصر، فيقول لصحابةٍ تذاكروا أخبار كسرى وقيصر: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية»[2]، حتّى بلغ الأمر أن يُهدِّد عليّاً بمعاوية، وذلك في خطابه لأهل الشورى: «إذا اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام»[3]، ليرضى عليٌّ بعد عمر بعثمان ـ الحاكم القادم ـ فهو عند عليّ أهون الشرَّين، فإذا لم يرضَ بعثمان خليفةً فسيأتي معاوية من أرض الشام ليحسم الموقف لعثمان أو لنفسه، وقد كان عمر يعلم بأنّ لعليّ أنصاراً في العراق فصار يستعدي أهل الشام على أهل العراق[4]، في إشارةٍ منه إلى قوّة معاوية.

وهكذا فهم بنو أُميّة أنّ دورهم الأساس يكمن في تحطيم شخصيّة عليّ، فما كان

أربعين رجلاً اتّخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دخلاً، وكتاب الله دغلاً». [تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٧ ص٢٥٣؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٧١].

(١) تاريخ الطبري: ج٣ ص٢٨١؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٢٥؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٨ ص٣٩٧.

(٢) تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٤؛ الدولة الأمويّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، الصلابي: ص٧٧، وص٢٧٧.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٩ ص١٢٤؛ الجزء المتمّم لطبقات ابن سعد: ص٢١٣؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٥ ص٧٣٥، رقم: ١٤٢٥٦.

(٤) انظر: كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١٢ ص٣٥٤، رقم: ٣٥٣٦١؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٢ ص١٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير: ج٦ ص٢٦٦.

لبني أميّة من دأبٍ ولا جهدٍ ولا إنفاقٍ مقدّم على مشروع الخلاص من عليٍّ وآل عليّ، فرفعوا شعاراً صار هو الحكم: «لا والله إلّا دفناً دفناً»، أي: إلّا دفناً لكلّ الإجراءات النبويّة، ونتيجة تقادم الأيّام، صار عامّة الناس ووعّاظ السلاطين وفقهاء الدينار والدرهم أدوات التمجيد للصرح الأموي وأدوات التحطيم للبيت المحمّدي العلوي، يرون في جاهليّة أُميّة إسلاماً، وفي نور آل محمّد بدعة! قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

ولنعم ما قالته ابنة المصطفى فاطمة عليها السلام في محضر أبي بكر بعد أن سلبوها حقَّها في إرث أبيها: «**دونك مخطومةً مرحولةً تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون**»[1]، ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٦٧)، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (الزمر: ٤٠).

إنّ الإجراءات المضادّة لبني أميّة لم تكن سوى حلقةٍ بشعةٍ طويلةٍ في سلسلة ما أسّس له الأوّلون، فما بنو أُميّة إلّا حلقةُ وصلٍ تخندقوا في ظلّ تشريعات السابقين في حربهم لآل محمّدٍ صلوات الله عليهم أجمعين، وقد ظنّ السابقون بأنّهم فعلوا حسناً، وما دروا بأنّهم جرّوا على الأمّة المصائب والويلات، ودسّوا مستقبل الأمّة في بئر الفتن، وَلَكَمْ كانت بنت المصطفى فاطمة عليها السلام بعيدة النظر، وهي تقرأ صفحات المستقبل في ظلّ الغدر بآل محمّد، حيث تقول: «**أما لعمر الله لقد لقحت، فنظرةٌ ريثما تنتج، ثمّ احتلبوها طلاع القعب دماً عبيطاً، وذعاقاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنّوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيفٍ صارمٍ، وهرجٍ شاملٍ، واستبدادٍ من الظالمين يدَع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرةً عليكم،**

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

وأنّى لكم وقد عُمِّيت عليكم؟ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود: ٢٨)، والحمد لله ربّ العالمين، وصلاته على محمّدٍ خاتم النبيّين وسيّد المرسلين»[١].

وقد كان لبني أُميّة إجراءاتٌ صارمةٌ بلغت درجات الإقصاء فيها أن يجعلوا لعن أمير المؤمنين عليّ سنّةً جاريةً تُختم فيها خطب الجمعة، وبنى معاوية أكثر من ألف منبرٍ في البلدان الإسلاميّة للطعن بعليّ، وقد بلغت الثقافة الأمويّة أن عملت على إنساء الأمّة اسم عليّ، فصاروا ـ حتّى في شتمه ولعنه ـ يسمّونه بأبي تراب، وصار الكُتَّاب والمحدّثون والمؤرّخون ـ لشدّة خوفهم من بطش أُميّة ـ إذا ما مرّوا بحديثٍ فيه ذكر عليٍّ قالوا: قال أبو زينب[٢]! حتّى صدر المرسوم

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

(٢) قال ابن أبي الحديد: «وقد صحّ أنّ بني أميّة منعوا من إظهار فضائل عليّ عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتّى أنَّ الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زينب». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٧٣]. وجديرٌ بالذكر: أنَّ جملةً من النواصب ممَّن كانوا يضطرّون لذكر الإمام عليّ عليه السلام في خبر، كانت تضيق نفوسهم بذلك فيُكنّون فيقولون: قال أبو زينب! من قبيل مكحول الشامي؛ فالمحبّ يقول: قال أبو زينب إشفاقاً على نفسه العزيزة، والمبغض يقول: قال أبو زينب إرضاءً لنفسه المريضة.

قال الشيخ المفيد: «وروي عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان الغالب على مكحولٍ علم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان إذا ذكر عليّاً لا يسمّيه ويقول: أبو زينب». [الاختصاص، للمفيد: ص١٢٨]. وروي عن الحسن بن الحرّ أنّه قال: «لقيت مكحولاً فإذا هو مطبوعٌ ـ بعيني مملوءٌ ـ بغضاً لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلم أزل به حتّى لان وسكن». [الغارات، إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي: ج٢ ص٥٨٢].

وقال المحقّق علي أكبر الغفاري، نقلاً عن المامقاني في تنقيح المقال: «مكحول غير مذكورٍ في كتب رجالنا... وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج أنّه من المبغضين لأمير المؤمنين». [الاختصاص، للمفيد: ص١٢٨، هامش رقم: ٣].

الحكومي من قبل معاوية نفسه نشَره في أصقاع الدولة، يقول فيه: «أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي ترابٍ وأهل بيته»[١]، فقامت الخطباء في كلّ كورةٍ وعلى كلّ منبرٍ يلعنون عليّاً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته؛ وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة مَن بها مِن شيعة عليّ عليه السلام، حيث استعمل معاوية عليهم زياد بن سميّة وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارفٌ، فقتلهم تحت كلّ حجرٍ ومدرٍ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمَّل العيون وصلَّبهم على جذوع النخل.

ثمّ بدأت سياسة التجويع والتشريد القسري، فصدرت الأوامر بمصادرة أموال كلّ من يُعلم بولائه لأهل البيت، حتّى صار القتل على الظنّة والتهمة والشبهة، أو ما يسمّى اليوم بالقتل على الهويّة، وما التالون المعاصرون إلّا فرع أحكم ما أسّسه لهم السابقون، ولهم في آكلة الأكباد أُسوةٌ في التمثيل بالأبرياء، ولهم في قطع الرؤوس واللعب بها أُسوةٌ بما أورثته لهم أُميّة.

وقد كان من أخطر الإجراءات الأمويّة: تصدّيهم لكتابة التاريخ ونشر الحديث، فأغرقوا التراث الإسلامي بالغثّ والزور، وكان الوضع صنعتهم، والدسّ حرفتهم، والإسرائيليّات متونهم، حتّى بلغ بجنودهم المجنّدة ـ من قبيل ابن تيميّة ـ أن يعتبر مروان (الملعون وهو في صلب أبيه) وأكبشه الأربعة[٢] من

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٤.

(٢) هكذا جاء وصفهم في كلمةٍ للإمام علي عليه السلام، عندما جيء بمروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه فخلّى سبيله. فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: **«أو لم يبايعني بعد؟ لا حاجة لي في بيعته، إنّها كفٌّ يهوديّةٌ، لو بايعني بكفّه لغدر بسبّته، أما إنّ له إمرةً كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر»**. [نهج البلاغة: ج١ ص١٢٣، خطبة رقم: ٧٣؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ج٢ ص٢٧٤].

الاثني عشر خليفةً الذين بشَّر بهم رسول الله صلّى الله عليه وآله!

ومن تلك المآسي التاريخيّة: أنّ معاوية قد أصدر أوامر في ضرورة تنسيب المناقب والفضائل لعثمان، وأغراهم بالجوائز والصلات والقطائع، فكثر ذلك في كلّ مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحدٌ مردودٌ من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروى في عثمان فضيلةً أو منقبةً إلّا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً. ولما كثر الحديث في فضائل عثمان وفشا في الأرض، دعاهم معاوية بعد ذلك إلى الرواية في فضائل الصحابة والخليفتين أبي بكر وعمر، حتّى جاء في مرسومه الأموي: «لا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبّ إليَّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله»[1].

حتّى كتب معاوية لعمّاله نسخةً واحدةً وفي جميع البلدان: «انظروا مَن قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه»[2]، ثمّ أردف ذلك بملحقٍ قاتلٍ: «من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره»[3]، وكما قلنا كان أهل العراق عموماً وأهل الكوفة خصوصاً أشدّ الناس بلاءً وضرراً، قتلاً وتجويعاً وتشريداً.

دور بني العباس في إفشال التدابير النبويّة

وأمّا بنو العباس فلم يألوا جهداً في ركب التيّار الأموي، فكان عداؤهم مع أُميّة سياسيّاً لا دينيّاً، ولمّا علم عامّة الناس بذلك تكالبوا على البيعة لهم، لأنّ عامّة الناس عاشت في أحضان البيت الأموي ثمانين سنة، فصار الأحفاد ينقلون

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص٤٦.

(٣) المصدر السابق.

مآثر بني أُميّة من الآباء، والآباء من الأجداد، فصارت الأمويّة ديناً مُتَّبعاً، وسنّةً جاريةً، ولعلّ العباسيّين كانوا يريدون في قرارة أنفسهم تغيير الدين الأموي، إلّا أنّهم وجدوا أنّ القاعدة الأمويّة في إعلان الحرب على آل محمّد وآل عليّ هي السبيل والطريق الأمثل، فركبوا السفينة الأمويّة في دينها، ولذلك فما نجده من المدح والثناء لبني العباس من قبل الإسلام الأموي ليس لأنّهم أحفاد العباس عمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإلّا كان آل علي أولى بذلك، لأنّهم ذريّة الرسول صلّى الله عليه وآله وبقيّته، وإنّما عظَّموا بني العباس لسيرتهم الأمويّة، فيزيد ـ مثلاً ـ قتل الحسين ومثّل به، والمتوكّل العباسي هدم قبر الحسين عليه السلام[1]، وبنو أميّة قتلوا أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وتتبّعوا شيعتهم قتلاً وتشريداً، وهذا ما فعله بنو العباس تماماً، بل إنّهم بالغوا في القتل والتشريد وسياسة

---

(١) كان ذلك في عام (٢٣٦هـ)، حيث أمر بهدم الروضة الحسينيّة وحرثها، وهدم ما حولها من المنازل والدور، وأن يُحرث ويبذر ويُسقى موضع قبره، وأن يُمنع الناس من إتيانه. [انظر: أمالي الطوسي: ص٣٢٩ ح٦٥٧؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج١١ ص١٤٣؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٢ ص٣٥؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٧ ص٥٥؛ تاريخ الطبري: ج٧ ص٣٦٥، حوادث سنة: ٢٣٦؛ تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ٣٤٧؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان: ج٣ ص٣٦٥؛ طبقات الشافعيّة الكبرى، عبد الوهّاب السبكي: ج٢ ص٤٢؛ تاريخ آل زرارة، أبو غالب الزراري: ج١ ص٢٠٣، النصائح الكافية، محمّد بن عقيل: ص٢٢٢].
حتّى قال الشاعر البسامي (علي بن محمّد بن نصر بن منصور بن بسام) أبياتاً في ذلك منها:

تالله إن كانت أميّة قد أتت ... قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبّعوه رميما

[انظر: المصادر السابقة].

التجويع، فكان جورهم من المكانة قد أنسى التاريخ ظلم أُميّة وجورها، حتّى قال الشاعر فيهم[١]:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

وهكذا تتابعت الضربات القاصمة، للتدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة الممثّلة بأئمّة أهل البيت، وما كان ذلك ليكون لولا ما أسّس له السابقون وتعمّق فيه التالون، وتبنّاه الكثير من المعاصرين، وقد سلكوا طريقاً واحداً في معالجة الأحداث السالفة، بعدما فقدوا الجرأة على مواجهته، فأجمعوا على ترك ما وقع والكفّ عنه، ورفعوا شعاراتٍ أمويّةً خالصةً، من قبيل: «الكفّ عمَّا شجر بين الصحابة»[٢]، و«طهّروا ألسنتكم من الخوض في الماضي كما طهَّر الله

---

(١) هو الشاعر أبو عطاء السندي، من الشعراء المخضرمين، حيث أدرك أواخر الدولة الأمويّة وأوائل الدولة العبّاسيّة. [انظر: المحاسن والمساوئ، محمّد بن إبراهيم البيهقي: ص٢٣٠؛ الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ص٧٦٩، رقم: ١٣٨١].

وقال شاعر آخر:

تالله ما فعلت أميّـة فـيهم معشار ما فعلت بنو العبّاس

انظر: شرح ميميّة أبي فراس الحمداني، علي بن الحسين الهاشمي النجفي: ص١١٩.

(٢) هذه هي سنّة الإسلام الأموي، فهذا شمس الدين الذهبي ـ وهو من أقلام الإسلام الأموي، السابقين بالمنافحة والدفاع عن بني أميّة ـ يقول فيما وقع بين الصحابة من تشاتمٍ وتخاصمٍ وتناحرٍ وتقاتلٍ: «بل يطوى ولا يروى، كما تقرّر الكفّ عن كثيرٍ ممّا شجر بين الصحابة وقتالهم... وما زال يمرّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكنّ أكثر ذلك منقطعٌ وضعيفٌ، وبعضه كذبٌ، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيّه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفّر على حبّ الصحابة، والترضّي عنهم، وكتمان ذلك متعيّنٌ عن العامّة وآحاد العلماء»، ثمّ يمنّ الذهبي على العلماء والمحقّقين بجواز المطالعة لهم حصراً، ولأنّ كلّ محقّقٍ سوف يلعن كثيراً منهم، لاسيّما الأمويّين منهم، فإنّه احتاط لحفظ

كرامة سلفه الأموي الصالح بقوله: «وقد يُرخَّص في مطالعة ذلك خلوةً للعالم المنصف العريّ من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم»!! [سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٠ ص٩٢].

ولنقرأ ما كتبه خرِّيت الصناعة الأمويّة وباني عُرى الإسلام الأموي ابن تيميّة، الذي عضّ على قاعدة الإمساك عمّا شجر بين الصحابة بنواجذه، وجعل هذا الأمر هو الطريقة المثلى لأهل السنّة، أو قل: هو المقياس لمن يريد أن يكون من أهل السنّة!

يقول ابن تيميّة: «ويمسكون عمّا شجر بين الصحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثار المرويّة في مساوئهم، منها: ما هو كذبٌ، ومنها: ما قد زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه»، وإذا سألنا ابن تيميّة عن الأخبار الصحيحة في وقوع الشجار والقتال بينهم، أجابنا بفتوى بغير علم: «والصحيح منه هم فيه معذورون إمّا مجتهدون مصيبون وإمّا مجتهدون مخطئون».

ثمّ يذهب بنا ابن تيميّة بعيداً في الذود عنهم وتخلية ساحتهم بضربٍ من الرجم بالغيب، فيقول: «ثمّ إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسناتٍ تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي هم أحقّ الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاءٍ في الدنيا كُفِّر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحقّقة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجرٌ واحدٌ والخطأ مغفورٌ لهم...». [مجموع الفتاوى، ابن تيميّة: ج٣ ص١٥٥]. فنم قرير العين يا معاوية ويا مروان ويا عمرو بن العاص ويا مغيرة بن شعبة، بل ويا يزيد بن معاوية، ويا ويا، فقد ضمن لكم ابن تيميّة الجنّة، وسلّمكم مفاتيح الخلود في الجنّة!

وقد جاء في مخطوطةٍ لأبي بكر الرحبي ما يندى له الجبين، فهو ينطلق من لزوم الإمساك فيما شجر بين السلف، ثمّ ينطلق لتطهير ساحة الفئة الباغية ـ معاوية وجيشه ـ بل يتجاوز بنا إلى تطهير ساحة الخوارج المارقين!! فهؤلاء كلّهم مجتهدون، ولهم أجرٌ واحدٌ في حربهم ضدّ الإمام عليّ عليه السلام؛ لأنّ عليّاً عليه السلام هو المصيب، وهم مخطئون مأجورون!!!

يقول: «الأصل الخامس: يجب الإمساك عمّا شجر بين الصحابة بعد قتل عثمان من خلافٍ وقتال؛ لأنّه زيدَ فيه ونقص منه، وغيِّر عن وجهه، وكثيرٌ ممّا يروى كذبٌ وزورٌ عليهم، وأكثر أهل السنّة على أنَّ المجتهد المصيب عليّ رضي الله عنه، والمخطئ مَن خالفه، وكلاهما

مجتهدٌ مأجورٌ، والمخطئ مرفوعٌ عنه الإثم معذورٌ في خطئه؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلّم: **تقتل عمّاراً الفئة الباغية**، وقوله عن الخوارج: **تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ**، وقد قاتلهم عليّ رضي الله عنه». [اعتقاد أهل السنّة، للإمام أبي بكر بن قاسم الرحبي (مخطوطة) بتحقيق موسى بن محمّد بن هجاد الزهراني، للسنة التمهيديّة للماجستير بقسم الفلسفة الإسلاميّة بكليّة دار العلوم، تحت إشراف: الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بن محمّد العبد]. انظر كيف يستدلّ الرحبي بحديثٍ جاء لإدانة معاوية فيجعله تزكيةً له، وبحديثٍ يبيّن مروق الخوارج عن الدين فيجعله تزكيةً لهم أيضاً**!!**

ثمّ يأتي بعض المعاصرين من ورثة الإسلام الأموي فيدخل لنا مدخلاً أخلاقيّاً في الدعوة إلى قتل العقل والتفكير، وطمس البحث والتحقيق، لكي نراعي حرمة السلف والعمل بالفتوى القائلة «يجب الإمساك عمّا شجر بين الصحابة». [انظر: مِنَّةُ الرَّحْمَنِ فِي نَصِيحَةِ الإِخْوَانِ (نصيحة في العقيدة والعمل والسلوك)، د. ياسِر بُرهامِيّ: ص٤١].

وهنالك العشرات من هؤلاء الدعاة لطمس الحقّ والحقيقة، وقتل الفضل والفضيلة، والعمل على سياسة التجهيل والتخدير، ولولا الإطالة، ونصيحة السيّد الأستاذ دام ظلّه، بالإيجاز والاختصار، لكتبنا فصلاً كاملاً في الكشف عن هذه الجريمة التاريخيّة، والتعريف بروّادها ودعاتها والمستفيدين منها تلامذة البلاط الأموي.

نعم، هذا هو الإسلام الأموي، وممَّا يؤسف له: أنَّ القليل من أبناء الأمّة يلتفتون لهذه المكائد الأمويّة في الذود عن الفسقة والقتلة والمجرمين، ولنعم ما قال الأستاذ حسن بن فرحان المالكي في هذا المجال، فهو الخبير بالأروقة الأمويّة، والمحاط بدعاة الإسلام الأموي، حيث يقول: «وهناك بعض المعتقدات من وضع السياسة الأمويّة أو تشجيعها أو توفيرها لجوّ تلك المعتقدات ومنها مسألة: الإمساك عمّا شجر بين الصحابة، وعدالة كلّ الصحابة، وعقوبة سابّ الصحابي بأنّها أشدّ من عقوبة سابّ الله عزّ وجلّ، ونحو هذا من المعتقدات التي لا يدافعون بها عن عليّ وعمّار وابن عديس ضدّ مَن سبّهم من بني أميّة وأشياعهم من النواصب، وإنّما يدافعون بها عن معاوية والوليد وبسر والحكم ونحوهم ضدّ من سبّهم أو ذمّ سيرتهم من الشيعة أو من أهل السنّة أيضاً، كعبيد الله بن

موسى وابن عبد البرّ وعبد الرزاق الصنعاني وغيرهم من كبار علماء أهل السنّة». [الصحبة والصحابة بين الإطلاق اللغوي والتخصيص الشرعي (محاضرة ألقيت في أحديّة الدكتور راشد المبارك)، للشيخ الأستاذ حسن بن فرحان المالكي: ص٤٥].

ويقول في كتابٍ له حول إنقاذ التاريخ: «ثمّ أخذ الفقيهي ينقل عن العلماء في: الإمساك عمّا شجر بين الصحابة، مع أنَّ الفقيهي نفسه لم يمسك!! بل والعلماء من قديم لم أجد عالماً معتبراً أمسك إمساكاً مطلقاً، فهناك سوء فهم لأقوال العلماء في: الإمساك وحدوده ووقته. بل إنّ العلماء أنفسهم يتفاوتون في فهم حدود الإمساك، ومتى يجب ومتى يباح، ومتى يحرم»، وهنا يضع المالكي قاعدةً عقلائيّةً في التصدّي لما شجر بين الصحابة والسلف، حيث يقول: «فالإمساك الواجب إنّما يكون عند الجهل أو الهوى أو التعصّب، أمّا بيان حقائق التاريخ وفق منهجٍ علميّ دون جهلٍ ولا هوى فلا نستطيع قراءة التاريخ والاستفادة منه إلّا بهذا، والغريب أنّ كثيراً من المؤرّخين المعاصرين ينادون بـ: الإمساك عمّا شجر بين الصحابة!! وهم من أشدّ الناس كلاماً في ذلك، ومن أفحشهم أخطاء، وأكثرهم تعصّباً، تجدهم يدافعون عن المفضول وينتقصون الأفضل، ويتعصّبون لبعض الظلمة ويرمون الأبرياء، فأيّ إمساكٍ يريدون؟! أيريدون الإمساك عن مثل الحجّاج واتّهام مثل أبي ذرّ؟! فإمساكهم النظري إنّما يطبّقونه على الوليد بن عقبة ولكنّهم لا يتورّعون في ذمّ عمّار بن ياسر وأمثاله واتّهامهم ـ تبعاً لسيف ـ بأنّهم تأثّروا وتتلمذوا على اليهودي عبد الله بن سبأ؟! وأيّ إمساكٍ يريد المؤرّخون المعاصرون؟ أيريدون أن نمسك عن تخطئة المخطئ وعن الاستدلال بالأحاديث الصحيحة؟!!».

ثمّ يُنبّه إلى ضرورة فهم معنى الإمساك عمّا شجر بين الصحابة والتابعين، فيقول: «أنا أرى أن نفهم معنى الإمساك، قبل أن نادي به، وأنّه لا يعني: طمس الأحاديث والروايات الصحيحة». [كتاب الرياض نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي (قراءة نقديّة لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعيّة)، حسن بن فرحان المالكي: ص٢٧٥].

ويقول هذا الكاتب الواعي والمنصف ـ وهو من أهل السنّة ـ في موردٍ آخر توكيداً وترسيخاً لما تقدّم منه: «وقد يأتي من يزعم أنّ تخطئة هؤلاء تخالف عقيدة أهل السنّة في: «وجوب

أسنّتكم»[1]! ومُتوهّمين في إثبات ذلك أنّ السكوت هو المراد من قوله تعالى:

الإمساك عمّا شجر بين الصحابة»، وهذا خلطٌ لأمورٍ متفرّقةٍ ومفصّلةٍ. فعلماء المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا، لم يمسكوا عمّا شجر بين الصحابة إمساكاً مطلقاً، وإنّما يكون الإمساك عند غلبة الهوى أو التعصّب دون دليل، أو الكلام بلا علم، فهنا يتوجّب الإمساك. أمّا الكلام فيما شجر بينهم بعلمٍ ودون محاباة، وتقديم للأدلة والروايات الصحيحة، وحسن تفسيرها، فهذا لا شيء فيه، بل لا يمكن الاستفادة من التاريخ ولا دراسته إلّا بهذا». [المصدر السابق: ص٣٣٥].

ثمّ يُعلن تحدّيه للمتشبّثين بقاعدة الإمساك بقوله: «ومن أتى لي بعالمٍ كبيرٍ من علماء الأمّة أمسك عن الصحابة إمساكاً مطلقاً فأنا راجعٌ إلى قوله». [المصدر السابق: ص٣٣٦].

جديرٌ بالذكر: أنَّ فتوى «وجوب الإمساك عمّا شجر بين الأصحاب»، قيل بأنّها تعود إلى إمام الحرمين أبي المعالي ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمّد الجويني الشافعي (ت: ٤٧٨هـ)، أستاذ الغزالي، ولكنَّ هذا ليس دقيقاً من الناحية التاريخيّة، فالمؤسّس لهذه الفتوى ـ ولو عمليّاً ـ هم نفس المؤسّسين للدولة الأمويّة، أي: قبل ظهور الجويني وغير الجويني بأكثر من أربعة قرون.

(١) الأسنّة هي السيوف والحراب، و«أسنّتكم»: سيوفكم، والمراد هو: كما أنَّ سيوفكم لم تخض في تلك الفتن، فعليكم أن تطهّروا ألسنتكم من الخوض فيها.

إنَّ رائد هذه الدعوة هو الحسن البصري (ت: ١١٠هـ)، فقد روي عنه أنّه ذُكر عنده الجمل وصفّين فقال: تلك دماءٌ طهّر الله منها أسيافنا فلا نلطّخ بها ألسنتنا، وإنّ تلك الأحوال قد غابت عنّا وبعدت أخبارها على حقائقها فلا يليق بنا أن نخوض فيها!! [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠ ص١١؛ الايضاح: ص٥٠٧].

وعن الزرندي: «اختار السلف ترك الكلام في الفتنة الاولى وقالوا: تلك دماءٌ طهّر الله تعالى عنها أيدينا فلا نلوّث بها ألبستنا». [نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ص١٩٦].

وفي تفسير القرطبي: «قد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماءٌ طهّر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني. يعني: في التحرّز

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤)، مع أنّ الآية لا تمنع من السؤال عمّا جرى، وإنّما تقول بأنّ ما جرى فيما بينهم لا تُحاسبون عليه، وهذا هو مقتضى العدل الإلهي، ومن مقتضاه أيضاً: أنّ الله تعالى سوف يُحاسبنا على ديننا إذا أخذناه من أُناسٍ تقاتلوا فيما بينهم ودون أن نُمحِّص ما وصلنا، فهل يكفي في أخذ ديننا من الصحابة لأنّهم صحابة؟ أو نأخذ ديننا من معاوية ومروان وعبد الملك لأنّهم ولاة الأمر؟ ما لكم كيف تحكمون، وإذا أردنا أن نسأل عن ديننا تبعاً لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، فهل نسأل بني أُميّة عن ذلك؟ أم نسأل أصحاب الجمل الذين قاتلهم أمير المؤمنين بأمرٍ من رسول الله وبشارةٍ ربانيّة؟ أم نسأل المارقين الخوارج الذين لا يتجاوز القرآن تراقيهم؟ أم نسأل ورثتهم في كلّ عصر ومصر؟

ثمّ ماذا يعني السكوت عن الماضي غير القبول بكلّ تناقضاته وانحرافاته؟ وكأنّ الله تعالى لم يقل في كتابه العزيز: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام: ١١)؟ وكأنّ العقل لم يحكم بمتابعة تاريخ الأمم لأخذ العبرة والاجتناب عن دوائر السوء؟ وكأنّ الدين صار رخيصاً بنحوٍ لا نسأل عن صحّة طريق أخذه ووصوله إلينا؟ وكأنّنا صرنا عبيداً لسنن بني أُميّة وسنن بني العباس؟!

دور الكتّاب والمحدّثين في إفشال التدابير النبويّة

وهنا تُسكب العبرات، فالحكّام على ظلمهم وجورهم وطغيانهم، عذرهم في دورهم في إفشال الإجراءات والتدابير النبويّة كامنٌ في طلبهم للمنصب

من الوقوع». [تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٢]. وقال مقالة ميمون بن مهران لما سئل عن أهل صفّين: «تلك دماءٌ طهّر الله يدي منها فلا أخضب لساني بها، ونرى الكلّ مأجورين إن شاء الله». [تقوية الإيمان بردّ تزكية أبي سفيان، محمّد بن عقيل: ص١٠٥].

والدنيا وحبّ الرئاسة، وأمّا الكُتاب والمحدّثون فإنّهم أصحاب رسالةٍ في الحياة، ولكنّ واقع الحال لم يعكس هذا المطلوب، حيث سجَّل لنا التاريخ كيف تقاطر كتّاب ومحدّثون وخطباء وقصّاصون على قصاع بني أُميّة وبني العبّاس، فصهروا أقلامهم في تزييف التاريخ، وصنعوا للأمّة ثقافةً ملوّثةً وفكراً هجيناً، وأمامنا عشرات المصادر وفي المجالات كافّة، في الحديث والتفسير، في التاريخ والسيرة، وفي الفقه والعقيدة، حتّى في الآداب، في كلّ ذلك تجد زيفاً تمجّ منه النفس.

ونحن لا نجد هؤلاء الوعّاظ التاريخيّين خلواً من المسؤوليّة التاريخيّة، بل هم مسؤولون عن كلّ حرفٍ كتبوه، وعن كلّ حقٍّ طمروه، وباطلٍ أثبتوه، وضلالٍ نشروه، وهدىً أسقطوه؛ قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ (الصافّات: ٢٤).

ولعلّ من أبشع الصور التاريخيّة في تزييف الحقائق والتعمية على الباطل: ما فعله المحدّثون، فالنصوص التاريخيّة لا تكاد تشكّل ديناً بقدر ما يُشكّله الحديث، وقد لاحظنا كيف أنّ فطاحل المحدّثين قد خلطوا الحقّ بالباطل، وكيف أنّهم يكتبون الأخبار بشكلٍ مشوّشٍ ومتعرّجٍ عند الوصول إلى بيان الحقّ، فيجدونه مخالفاً لهواهم، وما ألفوه في تربيتهم، فينكمشون عنه، ولا ينقلون إلّا ما يُحبّون، لتضيع الحقيقة تحت يراع الطائفيّة والفئويّة والحزبيّة، وغير ذلك من الأصنام المخترعة، وقد كان الأولى بهم السكوت على أقلّ التقادير، لا أن يكونوا أدواتٍ رخيصةً في تدجين الحقيقة وصهرها في قصور الظلمة، وهذا لم يقتصر على كتابٍ هنا وآخر هناك، ولم تنحصر الدائرة بمحدّثٍ يقتات على رواية الحديث، وإنّما بلغ الأمر من الخطورة أن ينكبّ ثلّةٌ من زعماء المذاهب العقديّة والفقهيّة على أبواب السلاطين، ولم ينجُ منهم إلّا القليل.

دور المعاصرين في التعمية على التدابير النبويّة

وهنا تتسلّم الراية التاريخيّة من تلك الأقلام المغموسة في الزور ومتاع القصور

وسفالة البغض الدفين، لتكتمل مسيرة الزيف ورحلة الضلال، ثلّةٌ غير قليلةٍ من الكتّاب المعاصرين، وفي أغلب المجالات المعرفيّة، وكأنّهم ورثوا النقل والأمانة في الزور والتعتيم، مع أنّ الموضوعيّة والتحقيق تمليان على الكاتب الانصياع للحقّ، فكيف لكتّابٍ يعيشون عصر العولمة والثورة العلميّة والمعلوماتيّة والتكنولوجيّة، وغير ذلك من الخدمات العصريّة التي تجعل مكتبات العالم تحت الأنظار وبمتناول الأيدي، أن ينكبّوا لنصرة بني أميّة الذين لا شيء أوضح من زيفهم وضلالهم وجورهم وظلمهم؟

إنّ الموضوع لا يحتاج إلى جرأةٍ أو شجاعةٍ، وإنّما يحتاج بالدرجة الأساس إلى التخلّص من ذلك الانسياق التاريخي والعبء الماضوي في متابعة الخلف للسلف، وكأنّ الله تعالى ورسوله قد أوصيا بمتابعة السلف وليس بمتابعة الحقّ!

نعم، إنّ كتّابنا المعاصرين بحاجةٍ ماسّةٍ إلى التخلّص من الانجراف الموروث، والتعبئة الإعلاميّة المزيّفة، والخلاص من عامل فقدان الثقة بالآخر، وأن يتزوّدوا بقراءة الآخر بموضوعيّة، لا أن يقرأوه من خلال تركاتٍ تاريخيّةٍ ثقيلةٍ، وعليهم أن يتخلّصوا من ثقل الأسماء التاريخيّة التي تُشكِّل ضغطاً نفسيّاً عميقاً، فالحقّ لا يُعرف بالرجال، وإنّما يُعرف الرجال بالحقّ، فاعرف الحقّ تعرف أهله، ولا ينبغي الإغفال عن قصّة الحارث بن حوط الراني عندما قال للإمام عليّ بعد معركة الجمل: أظنّ طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطلٍ. فقال عليه السلام: «**يا حارث! إنّه ملبوسٌ عليك، وإنّ الحقّ والباطل لا يُعرفان بالناس، ولكن اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه**»[1].

إنّ مهام المفكّرين والكتّاب المعاصرين أعظم وأخطر من السابقين؛ لأنّ السابقين عليهم، كانوا في الغالب محكومين لسلطة السلف القاتلة، بخلاف كتّابنا

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢١٠.

المعاصرين فإنّهم خبروا الأشياء وأطلّوا على الآخر، ولديهم مقدارٌ كبيرٌ من الحريّة والانفتاح، وبذلك من اللازم عليهم إعادة قراءة التاريخ والنظر بدقّةٍ في جميع التدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة، ولا ريب أنّ الغالب على هؤلاء المفكّرين والكتّاب هو الدراية بتفاصيل الأمور، فهم لا ينقصهم الرصيد المعلوماتي، ولكن ممَّا يؤسف له أنّ عدداً غير قليلٍ منهم يعوزه الوعي والموضوعيّة، بل إنّ بعضهم تعوزه القدرة على التحليل، فهو معلوماتيٌّ بامتيازٍ في رصيده وحصيلته، وليس علميّاً تحليليّاً، فغاية ما يدور فيه هو التوصيف المعتمد على الاجترار والتكرار، بل والتعبّد الأعمى بمقولات السابقين.

نعم، هنالك ثلّةٌ من المفكّرين والكتّاب المعاصرين ممَّن امتلكوا ناصية الوعي والموضوعيّة، فضلاً عن الرصيد المعلوماتي المتميّز، من قبيل الأستاذ محمود أبو ريه المصري في أغلب مؤلّفاته، والأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود المصري في موسوعته (الإمام عليّ)، والشيخ الأستاذ عبد الله العلايلي في كتابه (الإمام الحسين)، والأستاذ حامد داود حنفي المصري[1]، والأستاذ حسن بن فرحان

---

(١) للأستاذ داود حنفي كلمةٌ منصفةٌ، حاول فيها تقديم رؤيةٍ معتدلةٍ حول التعاطي مع تركة الصحابة والسلف، يقول فيها: «إنَّ منهج أهل السنّة في تعديل الصحابة أو ترك الكلام في حقّهم منهجٌ أخلاقيّ، وإنَّ طريقة الشيعة في نقد الصحابة وتقسيمهم إلى عادلٍ وجائرٍ منهجٌ علميّ، فكلّ من المنهجين مكمّلٌ للآخر ـ إلى أن قال: ـ إنَّ الشيعة وهم شطرٌ عظيمٌ من أهل القبلة، يضعون جميع المسلمين في ميزانٍ واحدٍ، ولا يفرّقون بين صحابيّ وتابعيّ ومتأخّر، كما لا يفرّقون بين متقدّم في الإسلام وحديث عهدٍ به إلّا باعتبار درجة الأخذ بما جاء به حضرة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الاثنا عشر بعده، وإنَّ الصحبة في ذاتها ليست حصانةً يتحصّن بها من درجة الاعتقاد، وعلى هذا الأساس المتين أباحوا لأنفسهم ـ اجتهاداً ـ نقد الصحابة والبحث في درجة عدالتهم، كما أباحوا لأنفسهم الطعن في نفرٍ من الصحابة أخلّوا بشروط الصحبة وحادوا عن محبّة

المالكي في كتابه القيّم: «كتاب الرياض نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي... قراءة نقديّة لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعيّة»، وبعض الأستاذة والمحقّقين من بلدان المغرب العربي.

دور العلماء والنخب في حفظ التدابير النبويّة

إنّ العلماء العاملين الربّانيّين هم القادة الحقيقيّون للأمّة وساستها، لهم سلطانٌ على العقول والقلوب، فالعالم الربّاني بمنزلة الرئيس الذي إليه الأمر والنهي، ولقوله أثرٌ مباشرٌ في القلوب، ولمقامه هذا عليه زيادة تكليف[1]، ولذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[2]، فالعالم هو العلاج الناجع للخلاص من الغفلة في الغالب واستيلاء الجهالة على الناس. وما هو واقعٌ من ضلالٍ وتضليلٍ في الأمّة، للعلماء سهمٌ عظيمٌ فيه، سواءٌ كانوا علماء ربّانيّين تقاعسوا عن أداء مهامّهم أو علماء سوءٍ تكالبوا على حطام الدنيا.

بعبارةٍ أخرى: إنّ التقصير الحاصل عن معرفة العقيدة الصحيحة ومعرفة الفرائض الدينيّة، وما يقتضيه من القيام بالوظائف الشرعيّة، من أبرز أسبابه

آل محمّد عليهم السلام. كيف لا، وقد قال الرسول الأعظم: **إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي آل بيتي**. وعلى أساس هذا الحديث ونحوه يرون أنّ كثيراً من الصحابة خالفوا هذا الحديث، باضطهادهم لآل محمّد ولعنهم لبعض أفراد هذه العترة، ومن ثمّ فكيف يستقيم لهؤلاء المخالفين شرف الصحبة، وكيف يوسموا باسم العدالة؟! ذلك هو خلاصة رأي الشيعة في نفي صفة العدالة عن بعض الصحابة، وتلك هي الأسباب العلميّة الواقعيّة التي بنوا عليها حججهم». [نقلاً عن كتاب: محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني: ص٤٩٣].

(١) انظر: منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، زين الدين العاملي (الشهيد الثاني): ص١٨٦.

(٢) الأصول من الكافي، للكليني: ج١ ص١٣٥ ح١٦٢.

تقصير العلماء في إظهار الحقّ على وجهه، وإتعاب النفس في إصلاح الخَلْقِ وردّهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهم غير معذورين في ذلك إذا وقع منهم ذلك عن قصورٍ لا عن تقصير، فالتقصير يضعهم في دائرة علماء السوء الذين لا همّ لهم سوى إطالة أعمارهم والسعي إلى حطام الدنيا، فيمالئون حكّام الجوار على باطلهم ويُزيّنون لهم أعمالهم، «فتزيد رغبة الجاهل، وانهماك الفاسد، ويقلّ وقار العالم، ويذهب ريح العلم»[1].

ونعم ما قيل في ذلك: إنّ كلّ قاعدٍ في بيته أينما كان فليس خالياً عن المنكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم معالم الدين وحملهم على المعروف، لاسيّما العلماء؛ فإنّ أكثر الناس جاهلون بالشرع.

وهذا هو معنى كون العلماء حصون الإسلام، وأنّهم كحصن السور للمدينة، وإذا مات ثلم في الإسلام ثلمةٌ لا يسدّها شيءٌ، كما جاء في الخبر[2]، لأنّه بهم يدفع الله العذاب عن الأمّة، فهم حفظة الأمّة من الزيغ والانحراف والتضليل، أو قل: إنّما صار العلماء الأتقياء حصوناً للإسلام والشريعة الطاهرة، «لأنّهم يمنعون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، كما أنّ الحصون تمنع من أهلها صدمات المعاندين»[3]، فلا يُقدمون على هتك أستار الدين بممالأة الحكّام الظلمة، أو بالانصياع لأهواء النفس في متابعة الباطل.

وإنّما شبّههم بالحصون لأنّهم يحفظون الإسلام بتسديد عقائده وتقويم قواعده، ويذبّون عنه وعن أهله صدمات الكافرين وشبهات الظالمين، ويقطعون عنه أسنّة مكايد الشياطين وألسنة مطاعن الطاعنين، ويمنعون من دخول شيءٍ خارجٍ عنه،

---

(١) منية المريد، الشهيد الثاني: ص١٨٦.

(٢) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٩٢ ح٧٧.

(٣) شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني: ج٢ ص٣٧.

ومن خروج شيءٍ داخلٍ فيه، بأسنّة لسانهم وحدَّة أذهانهم وقوّة عقولهم وذكاء قلوبهم[١]، وبخلافهم علماء السوء فهم من مكايد الشياطين وألسنة المطاعن في الدين، يُدخلون في الدين ما هو خارجٌ منه، ويُخرجون منه ما هو داخل!

ولنبيّ الله عيسى بن مريم كلمةٌ جليلةٌ في وصف علماء السوء، يقول فيها: «**تعملون للدنيا وأنتم تُرزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرزقون فيها إلّا بعمل، ويلكم علماء السوء، الآخرة تأخذون، والعمل لا تصنعون! يوشك ربّ العمل أن يطلب عمله، ويوشك أن يخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم مَن مصيره إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه، وما يضرّه أشهى إليه ممّا ينفعه؟**»[٢].

من هنا يتعيَّن على علماء الأمّة أن يُعظّموا العلم لا مواقعهم، وأن يتابعوا الحقّ لا أهواءهم، وهذه هي المسؤوليّة الخطيرة والجليلة، فالعلماء هم صُنّاع النخب، والنخب هم صنّاع الوسط العامّ، والوسط العامّ هم صُنّاع القاعدة الجماهيريّة، والقواعد الجماهيريّة تتلقّى بسرعة البرق دعوات القادة لها في السلب والإيجاب، فإذا ما أردنا أن نُعيد الأمور إلى نصابها في بيان الحقّ من الباطل وما يترتّب على ذلك، فإنّ الطريق اليسير والقصير هو طريق العلماء والنخب، وما نحن فيه من ضرورة العمل على إعادة قراءة التدابير النبويّة وتمحيص الإجراءات المضادّة التي منعت من أخذ الإجراءات والتدابير النبويّة المساحات المرادة لها، لا يكون بغير سلطة العلماء، وإنّما نعني بهم حصون الدين والأمّة لا حصون الجاه والسلطان، وليس من المعيب على العالم أن يُعيد قراءته للتاريخ ومسيرة الإسلام، بل عليه أن يكسر طوق المنع من قراءة الأحداث الماضية، فوحدة الأمّة لا تكون بلا قراءةٍ

---

(١) انظر: شرح أصول الكافي، محمّد صالح المازندراني: ج٢ ص٩٢.

(٢) أمالي الطوسي: ص٢٠٧ ح٦، الكافي، للكليني: ج٣ ص٧٧٥ ح٢٥٩٨.

موضوعيّةٍ للتاريخ، فإذا فعلنا ذلك نكون قد استنقذنا حاضرنا من الصراع والتناحر والتمزّق، ونكون قد صنعنا مستقبلاً مشرقاً زاهراً، وبخلافه نكون نحن الجناة على مستقبلنا كما جنى السابقون على حاضرنا.

دور الأمّة في حفظ التدابير النبويّة

بالرغم من أنّ دور الأمّة يأتي في طول دور العلماء والنخب، إلّا أنّ العلماء والنخب أنفسهم لا حراك لهم إلّا في وسط الأُمّة، وبالتالي فإنّ أرضيّة العمل، أو ـ بحسب تعبير أُستاذنا الشهيد الصدر ـ العلّة المادّية في صناعة الحدث، هو المجتمع أو الأمّة، حيث يقول قدّس سرّه: «المجتمع يشكّل علّةً مادّيةً لهذا العمل، أي: أرضيّة العمل، لحالة من هذا القبيل يعتبر هذا العمل عملاً تاريخيّاً ويعتبر عملاً للأمّة وللمجتمع، وإن كان الفاعل المباشر في جملةٍ من الأحيان هو فرداً واحداً أو عدداً من الأفراد، ولكن باعتبار الموج يعتبر المجتمع، إذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذي يكون حاملاً لعلاقة مع هدفٍ وغايةٍ ويكون في نفس الوقت ذا أرضيّةٍ أوسع من حدود الفرد، ذا موج يتّخذ من المجتمع علّةً مادّيةً له، وبهذا يكون عمل المجتمع، وفي القرآن الكريم نجد تمييزاً بين عمل الفرد وعمل المجتمع»[1].

وللأُمّة دورٌ عظيمٌ وخطيرٌ ينبغي النهوض به، وهو تحريك الوسط العلمي من خلال مطالبته بعرض الحقائق والإجابة عن الأسئلة المُلحَّة، وبذلك سوف تُشكِّل ضغطاً كبيراً على الوسط العلمي فيما إذا تقاعس الوسط العلمي عن أداء مهامّه، كما أنّ للأمّة مساءلة العلماء عن حالة الانصياع غير المبرّر للحكّام الظلمة، فإنّ العالم الديني لا يأخذ أحكامه وأوامره من أحدٍ غير القرآن والسنّة الشريفة، فلا ممالأة للحكّام ولا لغير الحكام.

---

(١) المدرسة القرآنيّة، محمّد باقر الصدر: ص٧٧ـ٧٨.

من هنا لابدّ للأمّة من أن تعي دورها الحقيقي في صناعة القرار وفي انتخاب الوسط العلمي الممثّل للقرآن والسنّة، وليس الوسط العلمي الممثّل للحكومات الظالمة، وهذا الدور تحتاجه الأوساط العلميّة أيضاً، لاسيّما الأوساط التي لا تستطيع الانعتاق من مقرّرات الحكومات الظالمة، فتكون الأمّة سنداً لها في الخلاص من التبعيّة للحكومة في عرض المفاهيم الدينيّة.

إذن فللأُمّة أكثر من دور، دورٌ تجاه نفسها في عدم السماح باستغفالها من قبل علماء السوء، ودورٌ في تحريك الوسط العلمي من خلال عرض أسئلتها وإشكاليّاتها، ودورٌ مساعدٌ في إنقاذ العلماء الأخيار من سلطة الحاكم.

وجميع هذه الأدوار الثلاثة تساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في العودة إلى تقديم القراءة الموضوعيّة المنصفة فيما يتعلّق بالإجراءات والتدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة من الانقلاب، حيث لابدّ من وقف الامتداد الفعلي والتمثيل القائم للمنقلبين التاريخيّين، لاسيّما فيما يتعلّق بالإسلام الأموي المناوئ لإسلام القرآن، وهذا ما سنقف عنده في أكثر من عنوان في الفصل اللاحق.

الفصل التاسع

وحدة المضمون بين الأمويّة والسلفيّة والوهّابيّة

- خطورة بني أُميّة... تاريخيّة العداء الأموي
- الإرهاب التاريخي لبني أُميّة
- مواجهة الأمويّة في التنزيل وفي التأويل
- بنو أُميّة صنّاع التاريخ المزيف
- نماذج للتزييف الأموي بين الماضي والحاضر
- بنو أميّة مدوّنو الحديث
- الأمويّة المعاصرة وتزييف الحديث والتاريخ
- وحدة المضمون بين الأمويّة والسلفيّة التكفيريّة والوهّابيّة
- طبيعة المواجهة الفكريّة والسياسيّة
- الانحطاط الفكري في ظل السلفيّة التكفيريّة
- السلفيّة التكفيريّة تدبير أمويّ لمحو النبوّة
- السلفيّة التكفيريّة تدبير أمويّ لإقصاء الخلافة الإلهيّة
- السلفيّة التكفيريّة بين ثقافة الشكل وانعدام المضمون
- ضرورة مواجهة السلفيّة التكفيريّة
- السلفيّة التكفيريّة وتزييف الوعي
- الوعي الرسالي ضمانة الحفظ في المواجهة (وعي بالتدابير النبويّة)
- تصحيح مسار السلفيّة المعتدلة
- بداية الطريق

خطورة بني أُميّة

يعتبر التعصّب القبلي والعرقي والاعتداد بالقيم العشائريّة والقبائليّة والعروبيّة وما شابه، من أهمّ ملامح الاتّجاه الأموي، فشكَّل بذلك مأوىً لكلّ الطاعنين بالإسلام والمتنفّرين من مساواته بين بني الإنسان، فالعبيد الذين عُتقوا كانوا يُعانون كثيراً من الاتّجاه الأموي في قبولهم في الوسط الإسلامي كأحرارٍ لهم حقوقٌ وواجباتٌ كأيّ مسلمٍ حرّ، كما أنّ القادمين من مناطق نائيةٍ وقرىً بعيدةٍ لا أمجاد لها ولا ذكر ولا شهرة، قد عانوا من النزعة الأمويّة كثيراً، وهذه النزعة إنّما أسميناها بذلك لأنّها أصبحت تمثّل الاتّجاه العامّ للدولة الأمويّة، وهي الشاخص الأبرز في سياسة بني أميّة، ولا يعني ذلك اقتصارها عليهم، فهنالك أمويّاتٌ سابقةٌ عليهم، نجد بعض ملامحها في سيرة الخلفاء الثلاثة، فبنو زهرة عشيرةٌ عربيّةٌ من عشائر قريش، ولكنّها لم تكن متميّزةً، وكان سعد بن أبي وقّاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، فكان الخليفة الثاني يُنكر عليهم طمعهم بالخلافة، حيث يقول لسعد بن أبي وقّاص: إنّما أنت صاحب مقنب ـ سائس خيول ـ وصاحب قنص وقوس وأسهم، وما زهرة والخلافة وأمور الناس! ويقول لعبد الرحمن بن عوف: وأمّا أنت يا عبد الرحمن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعفٌ كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر! ثمّ يُقبل على عثمان الأموي فيقول له: هيها إليك[١]! كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك[٢].

وهنا تكمن خطورة الموقف فيما نبّه له عمر بقوله: «كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك»، وكان يُريد بذلك الاتّجاه الأموي، فقريش التي

---

(١) يعني: خذها إليك.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١ ص١٨٥.

قاتلت النبيّ صلّى الله عليه وآله وقادت حرباً ضروساً ضدّ الإسلام هي قريش الأمويّة، وقريش السفيانيّة، ومن الواضح أنّ الناس قريبة عهدٍ بالجاهليّة، ولازال الكثير ممَّن أسلموا لم يفقهوا بعدُ حقيقة الإسلام، ولازالت العصبيّة تتحكّم فيهم فتظهر ملامحها في موارد التصادم، وكان هذا الأمر يقع في حياة الرسول صلّى الله عليه وآله، فكان المهاجري يستنجد بالمهاجرين، والأنصاري يستنجد بالأنصار، وليُراجع في ذلك أسباب نزول سورة «المنافقون»(١).

يقول الشيخ العلايلي في توصيف الحكم في زمن الخلفاء حتّى نهاية عصر عثمان: «إنّ مسحة الحكم إلى عصر عليّ لم تزل خاضعةً للنظم القبليّة، فلم يكن ثَـمّ نظامٌ دوليٌّ صحيحٌ يجتمع الناس عليه ويستشعرونه، بل ظلّوا على تقليدهم البدوي الذي لا يشعر إلّا بالانتماء إلى القبيلة، ولا يحسّ إلّا بسيطرتها، وهذا ما يستطير معه الخلاف، ويستشري به النزاع؛ وإنّ حكومةً تقوم على نظم البداوة لا

---

(١) جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨)، في غزوة بني المصطلق وبينما المسلمون على ماء بئر المريسيع ـ والذي سُمّيت الغزوة به أيضاً ـ أتى سنان بن وبر الجهني وعلى الماء جمعٌ من المهاجرين والأنصار، فأدلى دلوه، وأدلى جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطّاب دلوه أيضاً، فالتبست دلواهما وتنازعا، فضرب جهجاه سناناً فسال الدم، فنادى سنان: يا للأنصار، ونادى جهجاه: يا للمهاجرين، فأقبل جمعٌ من الحيّين، وشهروا السلاح حتّى كادت أن تكون فتنةٌ عظيمةٌ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: **ما بال دعوى الجاهليّة؟!** ولّما سمع ابن أبي سلول الخزرجي بذلك قال: لئن رجعنا للمدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ. [انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد: ج٢ ص٦٤؛ سبل الهدى والرشاد: ج٤ ص٣٤٨؛ ورويت القصّة باختلافٍ يسيرٍ في: تفسير القمّي: ج٢ ص٣٦٨؛ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ج١٩ ص٢٨٥، تفسير الطبري: ج٢٢ ص٦٦١، سورة المنافقون، الآية: ٨].

يرجى لها بقاء؛ لأنّه ليس بين عناصرها وحدةٌ حقيقيّةٌ أو غِراءٌ خصيبٌ»[1].

إذن ومن مطلق هذا الحسّ العشائري كانت قريش ميَّالةً لعثمان، أو قل ميَّالةً للاتّجاه الأموي السفياني، وقريش معروفةٌ بالأنفة والكبر، ولم يستوعبوا معنى المساواة بين المسلمين وأنّهم كأسنان المشط ، وأنّ التفاضل بالتقوى، فإذا أضفنا لذلك أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام قد قتل صناديدهم وكُبراءَهم، وهذا ما أثَّر على جملةٍ من أكابر الصحابة[2] فضلاً عمّن سواهم من سائر العرب عموماً وقريش خصوصاً ـ والعرب معروفٌ عنهم الطلب بالثأر ـ فإنّه يتّضح لنا خطورة الموقف في وصول بني أُميّة لسدّة الحكم.

جديرٌ بالذكر: أنّ بني أُميّة لم ينفردوا بالعداء لأهل البيت عليهم السلام، وإنّما شاطرهم في ذلك ثلّةٌ من أكابر الصحابة فضلاً عن بعض صغارهم، وهذا ما أعطى لبني أُميّة زخماً عظيماً للإيغال في العداوة، كما جاء ذلك صريحاً في بعض مراسلات معاوية لمحمّد بن أبي بكر[3] وقد قام الأمويّون بتكريم جميع الصحابة الذين ناصبوا

---

(١) الإمام الحسين، عبد الله العلايلي: ص٢٣.

(٢) مرَّ بنا ـ في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ ما كشف عنه الشيخ محمّد عبده من سرّ عدم ميل سعد وعبد الرحمن للإمام عليّ، في قوله: «وكان سعد من بني عمّ عبد الرحمن كلاهما من بني زهرة وكان في نفسه شيءٌ من عليّ كرم الله وجهه من قبل أخواله؛ لأنّ أمه جنّة بنت سفيان بن أميّة بن عبد شمس، ولعليٍّ في قتل صناديدهم ما هو معروفٌ مشهورٌ. وعبد الرحمن كان صهراً لعثمان لأنّ زوجته أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختاً لعثمان من أمّه». [نهج البلاغة: ج١ ص٣٤].

(٣) جاء في إحدى مراسلات معاوية لمحمّد بن أبي بكر: «فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه على ذلك، اتّفقا واتّسقا، ثمّ دعواه إلى أنفسهم فأبطأ عنهما وتلكّأ عليهما، فهمّا به الهموم وأرادا به العظيم فبايع وسلّم لهما، لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتّى قبضا وانقضى أمرهما ـ إلى أن قال ـ أبوك مهَّد مهاده وبنى ملكه وشاده، فإن يكن ما

العداء لأهل البيت، وألزموا الأمّة بمتابعتهم؛ لأنّهم من مهّدوا لهم ومكّنوهم[(١)] .

نحن فيه صواباً فأبوك أوّله، وإن يك جوراً فأبوك أسّسه، ونحن شركاؤه وبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا، ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا ابن أبي طالب وأسلمنا له، ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك فاحتذينا بمثاله... واقتدينا بفعاله، فعب أباك ما بدا لك». [انظر: مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص١٢ـ١٣ (ذكر خلافة معاوية)؛ أنساب الأشراف، البلاذري: ص٣٩٦؛ النزاع والتخاصم: ص١٠٢؛ الاختصاص، للمفيد: ص١٢٦].

(١) قال السيّد الأستاذ دام ظلّه: لمّا رُفعت التقارير لعمر بأفعال معاوية وتشبّهه بقيصر الروم لم يُحاسبه، بل تركه يفعل ما يشاء، وعندما لقيه دار بينهما حوارٌ أنهاه عمر بكلمةٍ أباح له فيها كلّ شيء، ولتكون بداية الحكم المستقلّ لمعاوية، حيث قال له: «لا آمرك ولا أنهاك». [البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٣٣؛ تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٥؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٣ ص١٤١٧].

ثمّ توالت البرقيّات العمريّة لترشيح معاوية للخلافة وتوطيد الأمر له، فيقول في رفع شأنه أمام عليّة القوم وأركان دولته: «إنّه فتى قريش وابن سيّدها». [البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٢٥؛ الاستيعاب، ابن عبد البرّ: ج٨ ص٣٩٧]. وعندما يتذاكر الصحابة أخبار كسرى وقيصر، وما كانا عليه يهتف عمر بهم: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية». [تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٤٤].

وكان عمر يشير إلى قوّة معاوية وقدرته على فضّ الخلافات بشكلٍ غير مباشرٍ، ليوحي للأُمة بأنّه الوحيد القادر على توحيدها، فيُخاطب أهل الشورى: «إذا اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام». [تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٥٩ ص١٢٤؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج٥ ص٧٣٥، رقم: ١٤٢٥٦]. حتّى بلغ به الأمر أن يستعدي أهل الشام على أهل العراق [انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج١٢ ص١٦٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٦٦؛ كنز العمّال، المتقّي الهندي: ج١٢ ص٣٥٤، رقم: ٣٥٣٦١]. في إشارةٍ منه إلى قوّة معاوية. ولمراجعة تفصيل المسألة: انظر: «من إسلام محوريّة الحديث إلى إسلام محوريّة القرآن)، الفصل الخامس، ضمن بحث «أهداف الإعلام الأموي من التركيز على خلافة الثلاثة»، للسيّد كمال الحيدري.

تاريخ العداء الأموي

من مجموعة المعطيات الآنفة يتبيَّن أنّ العداء الأموي للإسلام المحمّدي عموماً ولرسول الله صلّى الله عليه وآله ولعترته الطاهرة عليهم السلام خصوصاً لم يكن وليد الصراع على الخلافة بعد الرسول صلّى الله عليه وآله أو بعد مقتل عثمان أو حين وقوع معركة صفّين، وإنّما هذه الأحداث المتأخّرة ما هي إلّا فصولٌ مُبتنيةٌ على أصل العداء التاريخي القائم بين أُمّة الكفر المتمثّلة ببني أُميّة وبين أُمّة الإسلام التي كان يقودها رسول الله صلّى الله عليه وآله منذ انطلاق الدعوة، ولم يدخل بنو أميّة الإسلام مختارين، وإنّما دخلوه مرغمين بعدما فقدوا القدرة على المواجهة، فقرّروا إبدال سياسة المواجهة الخارجيّة إلى المواجهة الداخليّة، وقد خُتمت مواجهاتهم العسكريّة ومؤامراتهم ودسائسهم مع اليهود لتقويض عُرى الإسلام بهزيمةٍ نكراء وعارٍ ما بعده عار؛ يوم وصفهم رسول الله صلّى الله عليه وآله بالطلقاء، ومعنى أنّهم طلقاء هو أنّهم قد صاروا جميعاً لوقت ما ـ مهما قلّ ـ أُسارى لرسول الله صلّى الله عليه وآله، تحت حكمه وسلطته، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء أمر بهم بأمره، وقد كان على رأس الطلقاء أبو سفيان ومعاوية وعيالهم وذراريهم، الذين ما ادَّخروا جهداً في حربهم ضدَّ الإسلام.

ولأنّه صلّى الله عليه وآله كريمٌ وابن أخٍ كريم وهو المبعوث رحمةً للعالمين، فقد قابل نقمتهم عليه بالرحمة عليهم، وأبدل دسائسهم ومؤامراتهم بالعفو والمغفرة، وأبدل قسوتهم عليه بالرأفة؛ عسى أن تطهّر رحمته وعفوه ومغفرته ورأفته قلوبهم التي أكلها الكفر والنفاق[1]، ولكن ـ كما يُقال ـ الطبع يغلب التطبيع، فما انفكّوا عن نفاقهم ودسائسهم، فلم تغب عن ذاكرة أبي سفيان سنوات العداء

---

(١) يقول ابن عبد البرّ: «كان أبو سفيان كهفاً للمنافقين منذ أسلم». [الاستيعاب: ج٢ ص٦٩٠؛ النزاع والتخاصم: ص٥٨].

ومرارة الهزيمة، فكان يتحيَّن الفرص، وكانت أوّلها عند وقوع الخلاف على الخلافة بعد رحلة النبيّ صلّى الله عليه وآله فجاء يحثّ الإمام عليّاً عليه السلام على قتال أبي بكر، ووعده بأنّه سيملأ الأرض خيلاً ورجلاً، وظنّه أنّه سيخدع عليّاً بذلك فتقع الفتنة ويعمّ الهرج والمرج، فألقمه الإمام عليه السلام حجراً بقوله له: «**طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئاً! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك...**»[1]، وفي خبرٍ آخر أنّه ناداه أمير المؤمنين عليه السلام: «**ارجع يا أبا سفيان، فوالله ما تريد الله بما تقول، وما زلت تكيد الإسلام وأهله، ونحن مشاغيل برسول الله صلّى الله عليه وآله، وعلى كلّ امرئٍ ما اكتسب، وهو وليّ ما احتقب**»[2].

إنّ حَمَلة لواء العداء التاريخي للإسلام والمسلمين، والذين أسلموا أو استسلموا قهراً واضطراراً، لا يُنتظر منهم أن يكفّوا عداءهم، ولذلك فليس من العجب إدامة العداء، كما ليس من العجب أصل العداء منهم، ولو كان قد وقع منهم غير ذلك لاقتضى منّا التعجّب، ولكنّهم قاموا بما انطووا عليه في مواجهتهم العلنيّة في بدرٍ وأُحد والخندق وحُنينٍ وغيرها، كما قاموا بما انطووا عليه في مواجهتهم السريّة للإسلام مذ استسلموا تحيّناً لفرصة العود، فغنموا الشام بأسره في عهد الشيخين، وازدادوا عليها أرض السواء ـ العراق ـ في عهد أوّل حاكمٍ أمويّ ـ عثمان ـ وغنموا البلاد والعباد لمّا وصل قطبهم معاوية لسدّة الحكم، الذي تلقّفها تلقّف الكرة؛ عملاً بنصيحة أبيه التي أطربت أسماعه يوم صدع بمكنون ما يدين به لعثمان[3]، وهذا المكنون الأموي ورثه معاوية وعبَّر عنه بقولته التاريخيّة

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٤٥.

(٢) الإرشاد، المفيد: ج١ ص١٩٠.

(٣) مرَّت كلمته التي رواها الشعبي الأموي الهوى والنشأة والتربية، التي أنكر فيها العذاب والحساب، والجنّة والنار!. انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣؛ تاريخ

يوم طلب منه المغيرة أن يصل جناح بني هاشم حيث لم يبق عندهم ما يخشاه منهم، فأجابه بحديثٍ طويلٍ استخفّ به برسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد كان آخره كلمة الكفر هذه: «لا والله إلّا دفناً دفناً»[(١)]، أي: دفناً للإسلام وقيمه وتعاليمه، وذلك من خلال إحياء تراثه الجاهلي وقيمه الجاهليّة من العصبيّة القبليّة والعرقيّة والتفاخر والتنابز، وغير ذلك من الزيف التاريخي الذي أزكم الأنوف على مرّ الدهور، حتّى نكاد نقطع بأنّه ما من بليّةٍ أصابت الإسلام إلّا وتجد خلفها إصبعاً أمويّة، وعلى حدّ تعبير الشيخ العلايلي حيث يقول: «وفي نظري أنّ كلّ بلبلات وبليّات المحيط الإسلامي في عهد الخلفاء يمكن تعليلها بالإصبع الأمويّة»[(٢)].

ومنه يتّضح وجه بُغض النبيّ صلّى الله عليه وآله لبني أميّة، فعن الصحابي أبي برزة الأسلمي أنّه قال: «كان أبغض الأحياء إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله بنو أميّة»[(٣)]، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه[(٤)].

وفي خبر آخر عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**شرّ قبائل العرب بنو أميّة**»[(٥)]، وفي المستدرك روى الحاكم في حديثٍ صحيح الإسناد عن أمير المؤمنين عليّ عليه

الطبري: ج٨ ص١٨٥.

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٥ ص١٣٠؛ الموفّقيات، ابن بكار الزبيري: ص٥٧٥؛ مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٤٥٤.

(٢) الإمام الحسين، للشيخ عبد الله العلايلي: ٧٥.

(٣) مسند أبي يعلي: ج١٣ ص٤١٧ ح٧٤٢١؛ مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١٠ ص٧١.

(٤) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٤ ص٤٨٠.

(٥) مسند أبي يعلي: ج١٢ ص١٩٧ ح٦٨٢٠؛ ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٣ ص٥١٢؛ الكامل: ج٦ ص١٧٤؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج١٠ ص٧١؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٦٤؛ الكشف الحثيث عمّن رمي بوضع الحديث، برهان الدين الحلبي: ص٢٢٣.

السلام في بيان قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾ (إبراهيم: ٢٨)، قال عليه السلام: «**هم الأفجران من قريش: بنو أميّة وبنو المغيرة، فأمّا بنو المغيرة فقد قطع الله دابرهم يوم بدر، وأمّا بنو أميّة فمتّعوا إلى حين**»(١)، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٢).

ولقد كان بنو أميّة أشدّ الناس عداوةً لرسول الله صلّى الله عليه وآله ولأهل بيته عليهم السلام، وقد أفصح رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ذلك برواية الصحابي أبي سعيد الخدري، أنّه قال: «**إنّ أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمّتي قتلاً وتشريداً، وإنّ أشدَّ قومنا لنا بغضاً بنو أميّة وبنو المغيرة وبنو مخزوم**»(٣)، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٤).

وقد كان هذا الشعور تجاه بني أميّة وقطبهم الأسبق أبي سفيان يعيشه كثيرٌ من الصحابة، وإذا ما أفصحوا عن ذلك لاقوا تأييداً من رسول الله صلّى الله عليه وآله، حتّى أنّ أبا بكر قد وقع في حرجٍ شديدٍ جرّاء اعتراضه على ثلّةٍ من الصحابة عبّروا عن بغضهم لأبي سفيان فاعترض عليهم ثمّ اضطرّ للاعتذار منهم، كما جاء ذلك برواية مسلم وأحمد وآخرين، حيث رووا عن معاوية بن قرّة عن عائذ بن عمرو أنّ سلماناً وصهيباً وبلالاً كانوا قعوداً فمرَّ بهم أبو سفيان، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدوّ الله مأخذها بعد، فقال أبو بكر: تقولون هذا لشيخ قريش وسيّدها! قال: فأتى النبيّ صلّى الله عليه وآله فأخبره، قال: **يا أبا بكر لعلّك أغضبتهم؟ إذا كنت أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربّك**، فرجع [أبو بكر]

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٢٨٧؛ تفسير ابن كثير: ج٢ ص٥٥٨؛ المستدرك: ج٢ ص٣٥٢؛ الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٤ ص٨٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري: ج٢ ص٣٥٢.

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص٤٨٧.

(٤) المصدر السابق.

إليهم فقال: يا إخوتاه لعلّي أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر يغفر الله لك»[١].

الإرهاب التاريخي لبني أُميّة

وهنا سنذكر أربع عيّناتٍ تاريخيّةٍ للإرهاب الأموي، ليتّضح أنّ القسوة والقتل والتمثيل هي صفاتٌ راسخةٌ في الوجدان الأموي، وأنّ هذا الصفات قد ورثها أتباع الإسلام الأموي، فهذه الطباع بعضها جينيّ وبعضها تلقينيّ، وقد ورث المعاصرون منهم تلك الخصال جينيّاً وتلقينيّاً، فمَن ثاب منهم لرشده فصفاته الأمويّة تلقينيّة، ومن لم يثب عنها فصفاته الأمويّة جينيّة، ومن كانت صفاته جينيّةً هو المنافق حقّاً الذي تناوله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في قوله: **«لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببتُ الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبني؛ وذلك أنّه قضى فانقضى على لسان النبيّ الأميّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: يا عليّ لا يبغضك مؤمنٌ ولا يحبّك منافق**[٢].

وسنكتفي بذكر أربعة نماذج سوَّدت وجه التاريخ من إجرام بني أُميّة.

النموذج الأوّل: أبو سفيان يُمثّل بجسد حمزة عمّ النبيّ

سجَّلت معركة أُحد أُولى ملامح البشاعة والخسّة الأمويّة، بعدما صبّ أبو سفيان جام غضبه على جسد حمزة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله، فيوم كانوا يفرّون منه في الوغى صاروا يُقرّعون جسده بعد استشهاده! فهذا هو سمت بني أُميّة، وسمت دُعاتهم في كلّ عصرٍ ومصر.

يروي الحليس بن زبان ـ وهو يومئذٍ سيّد الأحابيش ـ قد مرّ بأبي سفيان بن

---

(١) صحيح مسلم: ج٧ ص١٧٣؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة القديمة: ج٥ ص٦٤؛ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ص٥١؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١ ص٥٤٠؛ ج٢ ص٢٥؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٠ ص٤٦٣.

(٢) نهج البلاغة: ج٤ ص١٣ ح٤٥.

حرب بعد أن رفعت معركة أُحد أوزارها، فرآه وهو يضرب في شدق حمزة بزجّ الرمح، وهو يقول: ذق عقق! فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه كما ترون لحماً[١].

النموذج الثاني: هند آكلة الأكباد

لَمَّا قَتل وحشيّ حمزةَ شقَّ بطنه وأخرج كبده، فجاء بها إلى هند بنت عتبة، فقال: هذه كبد حمزة، ولاكت كبده تشفّياً وانتقاماً، ثمّ لفظتها، ونزعت ثيابها وحليتها، فأعطته لوحشي، وقامت معه حتّى أراها مصرع حمزة، فمثَّلت بجثته، وقطعت أنفه وأذنيه، ثمّ قطعت أعضاءً منه وجعلتها قلادةً في عنقها تعبيراً عن عمق أحقادها، حتّى قدمت بذلك مكّة[٢].

ولم يكتفوا بذلك، وكأنّ أحقادهم على حمزة لا انطفاء لها، فلمّا انتهت أمور الحكم لمعاوية، كان من فعله ما حكى بصدقٍ عن خبث سريرته، حيث قام بنبش قبر حمزة سيّد الشهداء! وأجرى فيه الماء عداوةً وبغضاً[٣].

النموذج الثالث: ابن آكلة الأكباد

ما عرف الدهر مصيبةً وقعت أعظم من مصيبة كربلاء (عام ٦١هـ)، فيها

---

(١) انظر: سيرة النبيّ صلّى الله عليه وآله، لابن هشام: ج٣ ص٦٠٨؛ تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٠٦؛ سبل الهدى والرشاد: ج٤ ص٢١٨؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٤ ص٤٣؛ السيرة النبويّة، لابن كثير: ج٣ ص٧٥؛ ومصادر أُخرى.

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد: ج٤ ص٢١٨؛ شيخ المضيرة: ص١٧٤. ولمّا فرغت آكلة الأكباد من تمثيلها بحمزة علت صخرةً مشرفةً وصرخت بأعلى صوتها فقالت:

شفيت نفسي وقضيت نـذري ... شفيت وحشي غليـل صـدري
فـشكر وحـشي عـليّ عمـري ... حتّـى تـرمّ أعظمـي في قـبري!

(٣) انظر: النزاع والتخاصم: ص٢٢.

قُتل الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وأبناء إخوته وأبناء عمومته وأصحابه، وسُبيت نساؤه وعياله، فالمقتول والمسبيّ منهم هم خلاصة بيت الرسالة والنبوّة الذين أمر الله تعالى بمودّتهم في كتابه؛ قال تعالى: ﴿**قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ (الشورى: ٢٣)، وأمر بصلة رحمهم في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ (الرعد: ٢١)، وهي رحم آل محمّد صلّى الله عليه وآله، فالآية شاملةٌ بإطلاقها لرحمهم فضلاً عمَّا ورد في سبب نزولها فيهم[١].

فالواجب هو صلة رحم رسول الله صلّى الله عليه وآله المتمثّلة في زمن الإمام الحسين عليه السلام به وأهل بيته، فمن قطع صلة رحم آل محمّد فهو مذموم، بل هو ممّن ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (الرعد: ٢٥)، فكيف بمن قتل ذريّة رسول الله؟ وكيف بمن سبى عيال

---

(١) قال السيّد الأُستاذ دام ظلّه: إنّ هذه الآية الكريمة شاملةٌ بإطلاقها لرحم آل محمّد، بل شمولها لها بالأولويّة؛ لثبوت أولويّة نفس النبيّ صلّى الله عليه وآله على نفوسنا أجمعين، فهو أولى الناس بأنفسنا، ويتفرّع عليه كون صلة رحمه صلّى الله عليه وآله أولى من صلة رحمنا، فكيف يسوغ لمسلمٍ أن يقطعها؟! وقد ورد في الخبر: أنّ هذه الآية نازلةٌ في رحم آل محمّد دون الانحصار بها، وهو المرويّ عن أبي بصيرٍ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «**إنّ الرحم معلّقةٌ بالعرش تقول: اللّهُمَّ صل من وصلني، واقطع من قطعني، وهي رحم آل محمّد، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللُّه بِهِ أَن يُوصَلَ﴾**، ورحم كلّ ذي رحم». [الأُصول من الكافي، للكليني: ج٢ ص١٥١ ح٧؛ تفسير العيّاشي: ج٢ ص٢٠٨ ح٢٩].

وفي خبرٍ آخر: سُئل أبو عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: «**نزلت في رحم آل محمّد عليه وآله السلام، وقد تكون في قرابتك. ثمّ قال: فلا تكونَنّ ممّن يقول للشيء: إنّه في شيءٍ واحدٍ**». [الأُصول من الكافي، للكليني: ج٢ ص١٥٦ ح٢٨].

النبيّ صلّى الله عليه وآله؟!

إنّ محلّ الشاهد في ذلك كلّه هو بشاعة الجريمة التي ارتكبها يزيد الكفر والفسق والخمر في واقعة كربلاء(١)، فبعدما قُتل الإمام الحسين عليه السلام أمروا برضّ صدر الإمام الحسين بسنابك الخيول، وأحرقوا الخيام على عياله، ثمّ

---

(١) يكفي في ثبوت كفر يزيد إنشاده لشعرٍ كلّه كفرٌ وزندقة، وذلك لما أُدخل عليه سبايا الإمام الحسين وبيت النبوّة. قال الطبري وهو يسرد أحداث كربلاء والقتل والسبي، فقال في يزيد: «ممّا ارتكب من الصالحين فيها وشفى بذلك عبد نفسه وغليله وظنّ أن قد انتقم من أولياء الله وبلغ النوى لأعداء الله فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرم من ساداتكم	وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدل
فأهلّوا واستهلّوا فرحاً	ثمّ قالوا يا يزيد لا تسل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله». [تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٧؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص٢٤٥].

وقد عزَّ على ابن كثير أن يكون صاحبه قد أنشد هذا الشعر الكفري الذي قاله ابن الزبعرى في واقعة أُحد مُتشفِّياً بشهداء أُحد، فحوَّل ابن كثير القضيّة إلى شرطيّة قائلاً: «فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على مَن وضعه عليه ليشنِّع به عليه». [المصدر السابق]؛ علماً أنَّ البيت الأخير الذي أقلق ابن كثير لم يكن من أبيات ابن الزبعرى، كما روى الشعبي وغيره ذلك، وإنّما هو من إضافات يزيد نفسه، ومعلوم أنّ الشعبي لم يكن شيعيّاً، بل كان من كبار المتعصّبين لمدرسة الصحابة، بل كان أمويّ التربية والنشأة والولاء. [انظر: معالم المدرستين، مرتضى العسكري: ج٣ ص١٩١].

قطعوا الرؤوس وحملوها مع السبايا إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام.

ولما دخلت السبايا الشام تتقدّمها رؤوس الشهداء، كما يروي ابن الجوزي عن الزهري، قال: «لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظرة على ربا جيرون ـ من أبواب دمشق ـ فأنشد لنفسه:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت ... تلك الشموس على ربا جيرونِ

نعب الغراب فقلت: صح أو لا تصح ... فلقد قضيت من الغريم ديوني»[1]

والغريم هو النبيّ صلّى الله عليه وآله كما جاء التصريح به في مصادر أُخرى روت هذا الخبر، بل جاء ذلك في رواية ابن تيميّة للخبر[2].

النموذج الرابع: واقعة الحرّة

في هذه الواقعة التي قام بها جيش يزيد في مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله عام ٦٣هـ، قُتل خلقٌ من الصحابة ومن غيرهم، بعدما أباح قائد الجيش مسلم بن عقبة المدينةَ لجنده ثلاثة أيّام، يفعلون ما يشاؤون، فنُهبت المدينة، وافتضّ فيها ألف عذراء، فإنّا لله وإنا إليه راجعون[3]، وكانت محصّلة القتل من الناس ـ وفيهم

---

(١) تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ج٢ ص١٤٨.

(٢) انظر: منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة: ج٤ ص٥٤٩؛ ورواه أيضاً في كتابه: «مختصر الفتاوى المصريّة»، ولم ينفِ نسبة إنشاده لهذا الشعر، بل قال: «وهذا الشعر كفر، ومن الناس من يُكفِّره وهم الرافضة...»، ولما علم ابن تيميّة أن هذا الشعر لازمه الكفر فقد شرع بنفي الكفر عن إمامه ومقتداه يزيد بن معاوية! وقال بأنّه ملكٌ من ملوك المسلمين لا نحبّه ولا نسبّه، ثمّ شرع ببيان حسنات يزيد ليرغِّب الناس بحبّه وعدم سبّه. [انظر: مختصر الفتاوى المصريّة لابن تيميّة الحرّاني، تأليف: بدر الدين الحنبلي: ص٢٠١؛ وأيضاً: مجموع الفتاوى، ابن تيميّة: ج٤ ص٥٠٦].

(٣) انظر: تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ص١٩٥؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج٣

صحابة ـ أكثر من ألفٍ وسبعمائةٍ على أقلّ التقادير، وكان أكثر القتلى هم من القرّاء، وقد كان لشدّة الفتك والقتل أطلق أهل المدينة على مسلم بن عقبة لقباً له دلالةٌ بليغةٌ على ذلك، حيث أسموه مسرفاً، فُعرف بمسرف بن عقبة[١].

ولم يرجع جيش يزيد من المدينة إلّا بعد أن أخذ البيعة من الصحابة وبقيّة المهاجرين والأنصار على أنّهم عبيدٌ ليزيد وليسوا أحراراً! فكان ابن عقبة صورةً مشابهةً من بسر بن أرطأة الذي أرسله معاوية للفتك بأهل الحجاز وأهل اليمن، فبلغ به الإرهاب وبشاعة الجرائم ما يُحدّثنا التاريخ عمّا قام بفعله بسر بن أرطأة بأولاد عبيد الله بين عبّاس عامل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في اليمن[٢].

وهنالك عشرات النماذج للإرهاب الأموي، ويكفي التذكير بما هو مقطوعٌ به، ونعني به حرق الكعبة ورميها بالمنجنيق وهدم ركنٍ منها بأمرٍ من يزيد وتنفيذٍ مباشرٍ من قبل الحصين بن النمير أحد قتلة الإمام الحسين، ثمّ عاد الحجّاج بن يوسف الثقفي بأمرٍ من عبد الملك بن مروان لرمي الكعبة بالمنجنيق وحرقها وهدم بعض أركانها، ليتفرّد بنو أميّة على مرّ تاريخ الإسلام، بل على مرّ تاريخ الإنسان بحرق الكعبة وهدمها مرّتين.

ص٣٢٣؛ البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٦ ص٢٦٢.

وقد رووا عن السائب بن خلّاد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**». [مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٢٧ ص٩٢ ح ١٦٥٥٧].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ج٧ ص١١٠.

(٢) وهنا يُعلّق ابن أبي الحديد: «كان مسلم بن عقبة ليزيد وما عمل بالمدينة في واقعة الحرّة، كما كان بسرٌ لمعاوية وما عمل في الحجاز واليمن، ومن أشبه أباه فما ظلم!

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا».

[شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص١٨].

مواجهة الأمويّة في التنزيل وفي التأويل

لا ريب في أنّ الأمويّة كانت حاملة لواء المواجهة ضدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ودعوة الإسلام، فلم يألوا جهداً ولم يدّخروا وسعاً في حربهم ضدّ الإسلام، ولم تكن حربهم للإسلام إيماناً منهم بعقيدة الأصنام، فهم لا عقيدة واقعيّة لهم سوى عقيدة الرئاسة وطلب الهيمنة، وقد كانوا مستعدّين لتحطيم الأصنام وحرقها فيما إذا بقوا في مواقعهم في الجاهليّة، ولذلك فمنطلقات حربهم الضروس ضدّ الإسلام هي الحفاظ على المواقع، والإبقاء على امتيازاتهم، وليست حرب العقيدة، وإن حاولوا أن يُوهموا الناس بأنّهم كانوا يدافعون عن عقيدة آبائهم، والصحيح ما عرفت.

وقد كانوا لشدّة التصاقهم بالمواقع السياديّة قد أغلقوا أعينهم وأقفلوا أسماعهم عن رؤية الحقّ أو سماعه، حتّى أنّ البعض من قريش كان يعلم أنّ الحقَّ مع الرسول صلّى الله عليه وآله وأنّهم على الباطل، بل هم الباطل بعينه، ولكنّه لا يصرّح بذلك، نزولاً عند رغبة أبي سفيان وسائر بني أُميّة، بل تجده يكرّس كلّ طاقاته لتزييف الإسلام وإعلان الحرب على الإسلام بطرقٍ تثير العامّة على الإسلام والرسول صلّى الله عليه وآله، كما هو الحال بالنسبة للوليد بن المغيرة، الذي رمى النبيّ صلّى الله عليه وآله بالسحر والجنون! فكان الوليد ممّن ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (النمل: ١٤)، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ (البقرة: ٢٠٦).

إنّ تلك المواجهات التاريخيّة لم تنطفئ جذوتها في قلوبهم، فكانوا يتحيّنون الفرص، ولكنّ المواجهة أخذت طابعاً آخر، فبالأمس كانت مواجهتهم على التنزيل واليوم مواجهتهم على التأويل، وبالأمس كانت مواجهتهم مع الرسول

صلّى الله عليه وآله، واليوم مواجهتهم مع الامتداد الحقيقي للنبيّ صلّى الله عليه وآله وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد كانوا أدرى الناس بخصمهم، فهم لم ينهضوا على أبي بكر الذي ولّى يزيد بن أبي سفيان على الشام، ولم ينهضوا على عمر الذي أمضى ولاية معاوية بعد وفاة أخيه يزيد، ومكّنه من أن يكون قيصر العرب وهرقله، ولكنّهم نهضوا على عليّ عليه السلام الذي هو أدرى الناس بخبث سريرتهم، فلم يرض عليه السلام بولاية معاوية على الشام ولا ليومٍ واحدٍ، وكان يقول في أمر تولّيه: «**وشاورتُ مَن أثق بنصيحته لله عزّ وجلّ ولرسوله صلّى الله عليه وآله ولي وللمؤمنين، فإنّ رأيه في ابن آكلة الأكباد كرأيي، ينهاني عن توليته، ويحذّرني أن أُدخل في أمر المسلمين يده، ولم يكن الله ليراني اتّخذ المضلّين عضداً**»[1]، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً**﴾ (الكهف: ٥١).

وقد كان معاوية يعلم جيّداً أنّه لا قيام لدويلتهم وإسلامهم مع وجود عليّ بشكلٍ خاصّ ووجود ذريّته بشكلٍ عامّ، فحرّض النفوس وجيّش الجيوش لحرب الإمام في خروجٍ صريحٍ على الإمام العدل المفترض الطاعة، فكان باغياً بامتياز.

بنو أُميّة صنّاع التاريخ المزيّف

نجح بنو أُميّة من خلال نفوذهم وسلطانهم بتجنيد كُتّابٍ لهم ينهضون بكتابة الأحداث والوقائع التاريخيّة، وقد ساعدهم في ذلك خلوّ الأزمنة السالفة من وجود مُتصدّين لذلك، فكانت محاولتهم البكر فرصتهم العظمى في تدوين ما يُحبّون وطمر ما يبغضون، ولأنّهم يعلمون جيّداً بأنّ تاريخهم القريب من ذاكرة المسلمين لم يكن مشرّفاً، فهو عبارةٌ عن مؤامراتٍ ومعارك ضدّ الإسلام والمسلمين، فلم تكن لهم سابقةٌ في شيءٍ إلّا الكيد للإسلام ونصب العداء له، وقد عاش الأمويّون عقدتهم التاريخيّة التي بذلوا ما بذلوا من أجل التخلّص

(١) الخصال، للصدوق: ص٣٧٩.

منها، وهي عقدة الطلقائيّة، حيث كانت تقضّ مضاجعهم، ولأجل هذه المعطيات وغيرها قرّروا في مواجهة خصمهم الحقيقي المتمثّل بإسلام القرآن الذي كان يحمل لواءه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالعمل على طمر قيمه ومحاسنه ومناقبه، وجعل أطرافٍ في قباله لهم مقبوليّة عند المسلمين، فكانت الخطوة الأولى هي الرفع من شأن الخلفاء الثلاثة والمقرَّبين منهم، والحطّ من شخصيّة أمير المؤمنين ومن المقرَّبين منه، وظنّهم بذلك أنّ سياستهم واستراتيجيّتهم في طمر الحقائق تحت شعار «إلّا دفناً دفناً» سوف تحجب نور الحقيقة، ولكنّهم قد خاب ظنّهم رغم نجاحهم الكبير في تضليل الرأي العامّ والتسبيب في ضلال ثلّةٍ عظيمةٍ من أبناء الأمّة على مرّ التاريخ، منذ تأسيس دولتهم البغيضة وإلى يومنا هذا.

والآن لنقف عند وثيقةٍ تاريخيّةٍ خطيرةٍ رواها أبو الحسن عليّ بن محمّد بن أبي سيف المدائني[1]، وهي روايةٌ خطيرةٌ وجديرةٌ بالوقوف عندها طويلاً؛ لأنّها تكشف لنا عن مساحاتٍ كبيرةٍ قد شكّلت لنا تاريخيّاً إسلام الحديث؛ وهي أنّ معاوية بن أبي سفيان كتب نسخةً واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة[2]: «أن برئت

---

(١) أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدائني (١٣٥ـ٢٢٥هـ)، راويةٌ مؤرّخٌ، كثير التصانيف، من أهل البصرة، سكن المدائن شمال بغداد، ثمّ انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفّي. أورد ابن النديم أسماء نيّفٍ ومئتي كتابٍ من مصنّفاته في المغازي، والسيرة النبويّة، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليّين والشعراء، والبلدان. قيل في تاريخه بأنّه أحسن التواريخ، وعنه أخذ الناس تواريخهم. [انظر: الأعلام، للزركلي: ج٤ ص٣٢٣].

(٢) عام الجماعة المزعوم هو العام الذي تولّى فيه معاوية الحكم بعد الهدنة مع الإمام الحسن عليه السلام والذي يُسمّى بصلح الإمام الحسن، وما كان صلحاً وإنّما هو هدنةٌ نقضَ معاوية كلّ بنودها، وكشف عن أنياب الغدر فيها، وقد أُصيبت الأمّة بخنوعٍ استثنائيّ في تاريخها، فأسلمت رقابها للأمويّة المروانيّة، حتّى رضيت بملك يزيد الفاسق عليها، وما كان في الأمّة مَن ينهض بوجه الطغيان الأموي بعد موت معاوية ووصول يزيد للحكم سوى الإمام الحسين عليه السلام الذي افتدى الإسلام بنفسه وعياله وأصحابه.

الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته؛ فقامت الخطباء في كلّ كورةٍ وعلى كلّ منبرٍ يلعنون عليّاً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته؛ وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة مَن بها من شيعة عليّ عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة وضمّ إليه البصرة فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارفٌ لأنّه كان منهم أيّام عليّ عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجرٍ ومدرٍ وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمَّل العيون وصلَّبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروفٌ منهم؛ وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق ألّا يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادةً، وكتب إليهم أن انظروا مَن قِبلكم مِن شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجلٍ منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصرٍ، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحدٌ مردودٌ من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلةً أو منقبةً إلّا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عمّاله أنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصرٍ وفي كلّ وجهٍ وناحيةٍ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبّ إليَّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أبي ترابٍ وشيعته وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله؛ فقرئت كتبه على الناس، ورُويت أخبارٌ كثيرةٌ في مناقب الصحابة مفتعلةٌ لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلّمي

الكتاتيب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ كتب إلى عمّاله نسخةً واحدةً إلى جميع البلدان: انظروا مَن قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخةٍ أخرى: مَن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولاسيّما بالكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة عليّ عليه السلام ليأتيه مَن يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه؛ فظهر حديثٌ كثيرٌ موضوعٌ وبهتانٌ منتشرٌ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّةً القرّاء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها وورووها وهم يظنّون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلةٌ لما رووها ولا تديّنوا بها»[1].

إنّ هذا النصّ التاريخي الخطير يعرض لنا بصورةٍ إجماليّةٍ حجم الكارثة الإنسانيّة والدينيّة والأخلاقيّة التي أوقعها بنو أُميّة في الأُمّة، فما عرف التاريخ الإسلامي مخطّطاً تاريخيّاً استطاع أن يُغيِّر في منظومة الدين كما فعله المخطّط الأموي، فقد نجح بنو أُميّة في قلب الوقائع وتزييف التاريخ وإعادة الأمّة إلى ولاءاتها القبليّة الجاهليّة، من خلال صناعة التاريخ المزيّف، فصار الكثير من أبناء الأمّة يرون في الطلقاء المنافقين أبطالاً للإسلام، ويرون في أبطاله الحقيقيّين

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١١ ص٤٤ـ٤٦.

أصحاب فتنة! فتنشرح قلوب قومٍ إذا ذُكر كهف النفاق أبو سفيان وآكلة الأكباد هند بنت عتبة والباغي القاسط معاوية والفاسق الفاجر يزيد وجرثومة الخبث والسوء مروان، وتنقبض هذه القلوب المنكوسة إذا ذُكر في محضرهم فتى الإسلام عليّ بن أبي طالب أو سيّدة نساء العالمين فاطمة، أو سيّدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهم السلام!

فما الذي جعل الأمور بهذا السوء غير التاريخ المزيّف الذي صنعه بنو أُميّة؟ وما الذي جعل الناس تعيش في غفلاتٍ وسباتٍ عميقٍ غير علماء السوء، فعليّ عليه السلام الذي هو مع الحقّ والحقّ معه، وهو مع القرآن والقرآن معه، وأنّهما لن يفترقا، وأنّه باب مدينة علم النبيّ صلّى الله عليه وآله، عليٌّ هذا صار في الإسلام الأموي رجل فتنة، ومعاوية الفاتح المُبين!

ولذلك لا شيء ينقذ الأمّة من سوءات أُميّة غير إعادة كتابة التاريخ وتخليصه من الغثّ السفياني الأموي، فإنّ أكثر المعاصرين ممّن يذوبون حبّاً في آل أُميّة، ويتفانون في الدفاع عنهم إنّما هم ضحيّة ذلك التاريخ الأموي المزيف.

إنّ للأمويّين سياسةً واضحةً وأُصولاً ثابتةً، عليها قامت سياسة بناء الدولة وصناعة التاريخ وتدوين الحديث، إنّها الأجندات الأمويّة القائمة على ثلاثة أُصولٍ أساسيّةٍ[(١)]، وهي:

الأصل الأوّل: دفن كلّ مآثر آل البيت والطعن فيهم، وتسميتهم بالخارجين عن الدين والملّة، وملاحقة أتباعهم، قتلاً وتجويعاً وتشريداً.

الأصل الثاني: العودة إلى الجاهليّة بعباءةٍ أمويّةٍ، وهذا هو خلاصة الإسلام الأموي، فلا ولاء إلّا لبني أُميّة، فهم النبوّة والإمامة والإسلام، عملاً بسياسة

---

(١) لهذه الأصول الثلاثة تتمّةٌ سيأتي ذكرها لاحقاً تحت عنوان «الخطوط الحمر عند الإسلام الأموي»، وسوف نُنبّه لذلك في المقام. (منه دام ظلّه).

«دفناً دفناً»، وإبدال المعطى النبويّ بالتخلّف الأموي.

الأصل الثالث: الاستئثار بجميع مقدّرات الدولة وتحويل الحكم إلى وراثةٍ أمويّةٍ خالصةٍ، وهذا هو واقع الحال حتّى في أتباعهم.

نماذج للتزييف الأموي بين الماضي والحاضر

من المسائل المهمّة التي يحاول الاتّجاه الأموي والمدرسة الأمويّة المعاصرة ـ التي لها امتداداتٌ كبيرةٌ وكثيرةٌ في العالم الإسلامي من حيث يعلم بها البعض أو لا يعلم ـ التركيز عليها: مسألة تزريق بعض الأفكار المنحرفة، وتزيين صورة بني أميّة، وخصوصاً فيما يتعلّق بمعاوية ويزيد، ومع أنّ هذه القضيّة ليست وليدة العصر، وإنّما هي ضاربةٌ في التاريخ الإسلامي، إلّا أنّها في هذا العصر امتلكت جميع أدوات الترويج والتزييف.

من هنا نجد المتقدّمين من أتباع الإسلام الأموي قد بذلوا جهوداً كبيرة في تزيين وجه بني أميّة، فقاموا بوضع الأحاديث في فضل بني أميّة عموماً وفي فضل معاوية خصوصاً، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ابن العربي المالكي[1] في كتابه العواصم يُبرِّر ويصحّح لمعاوية إلحاقه لزياد ابن أبيه بأبي سفيان ويجعله أخاً له، من سفاح؛ لأنّ أبا سفيان لم يتزوّج سميّة أم زياد[2].

يقول ابن العربي: «فإن قيل: أحدث معاوية في الإسلام الحكم بالباطل، والقضاء بما لا يحلّ من استلحاق زيادٍ. قلنا: قد بيّنا في غير موضعٍ أنّ استلحاق زيادٍ إنّما كان لأشياء صحيحةٍ وعملٍ مستقيمٍ نبيّنه بعد ذكر ما ادّعى فيه المدّعون من الانحراف عن الاستقامة، إذ لا سبيل إلى تحصيل باطلهم».

فهو يقرّ باستلحاق معاوية لزياد أخاً له من سفاح، ثمّ يقول بأنّ عمل

---

(١) صاحب مقولة: «إنّ الحسين قُتل بسيف جدّه»!.

(٢) العواصم من القواصم، ابن العربي المالكي: ص٢٠٧.

معاوية كان صحيحاً! ضارباً بذلك قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[١] عرض الجدار!

فهو يرى أنّ الناقدين لمعاوية في هذا الفعل الشنيع منحرفون عن الاستقامة، وأنّه لا سبيل لتحصيل باطلهم، وأنّ ما فعله معاوية هو الحقّ وهو الصراط، في قبال سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولا ريب أنّ لهذا التبرير الشنيع آذاناً صاغيةً من أتباع الإسلام الأموي، وإذا وجدنا شخصاً منهم ينقد معاوية في أصل الفعل فإنّه لا يتنازل عن كونه كان مجتهداً وقد تأوّل فأخطأ، فيكون معاوية مأجوراً في مخالفته الصريحة لرسول الله صلّى الله عليه وآله.

وأمّا من المعاصرين فهنالك الكثير ممّن عمل على سياسة التزيين لصورة بني أميّة والتبرير لأفعالهم الشنيعة، ومنهم الشيخ محمّد علي مشعل[٢]، حيث يقول: «قال سعد بن أبي وقّاص: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بالحقّ من معاوية»[٣]، فحتّى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله

---

(١) هذا الخبر متواتر، وقد نقلته أمّهات الكتب، الكتب الأربعة عن الشيعة، والصحاح والسنن عند أهل السنّة. انظر: الفروع من الكافي، للكليني: ج٥ ص٤٩١ ح٣؛ صحيح البخاري: ج٣ ص٥؛ صحيح مسلم: ج٤ ص١٧١.

(٢) من أهل حمص في سوريا، يعيش بجدّة في المملكة العربيّة السعوديّة، حتّى أنَّ بعضهم عدّه أمويّاً أكثر من بني أميّة أنفسهم.

(٣) فضل الخلفاء الراشدين والصحابة: ص١٣٩، تحت عنوان: خصال معاوية واستخلافه لابنه يزيد، اعتنى به الدكتور عبد الباري بن محمّد علي مشعل (ابن الكاتب)، والذي يقول في مقدّمته لكتاب والده: «وكان للوالد دورٌ مهمّ في تصحيح كتب التأريخ الإسلامي في المعاهد العلميّة التابعة لجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة فيما يتعلّق بهذه الأبحاث... وقد أراد الوالد من هذا الكتاب أن يكون دليلاً للدعاة والناشئة من شباب وشابّات الأمّة يغرس في نفوسهم حبّ الصحابة وفضلهم».

وبرواية الفريقين معاً: «**أقضاكم علي**»[1]، والإمام الحسن عليه السلام لم يكونا في نظره أقضى بالحقّ من معاوية، فقفز إلى معاوية، ليخالف حديث الرسول صلّى الله عليه وآله الذي قدَّم عليّاً عليه السلام على سائر الصحابة ـ في القضاء على أقلّ التقادير ـ ولكن مشعل لم يرضَ بشهادة رسول الله صلّى الله عليه وآله ورضي بشهادة هواه في معاوية وبني أميّة.

إلى أن يقول: «وقال ابن عبّاس: ما رأيت رجلاً أخلق بالملك من معاوية...» وهكذا ومن دون إرجاعٍ إلى مصدر، إلى أن يقول: «وقال ابن تيميّة: وكان سيرة معاوية مع رعيّته من خيار سيرة الولاة، وكان رعيّته يحبّونه، وقد ثبت في الصحيح... وقال قتادة: لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم هذا المهديّ»! يقصد المهديّ المنتظر الذي بشّر به النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، فمعاوية الذي كان أوَّل من غيَّر بشكلٍ رسميٍّ في سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله[2]،

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) قال السيّد الأستاذ دام ظلّه: إنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قد كشف سرّاً خطيراً حول التغيير الحقيقي لسنّته، يرويه لنا صاحب أصدق لهجة، وهو أبو ذرّ الغفاري، حيث يقول: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **أوّل من يبدّل سنّتي رجلٌ من بني أميّة**». [مصنّف ابن أبي شيبة: ج٨ ص٣٤١ ح١٤٥؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج٦٥ ص٢٥٠]. وهنا نجد الشيخ الألباني ـ وهو صاحب الفكر السلفي ـ عندما يأتي إلى هذا الحديث، نراه يقرّ بحُسن الحديث، وأعطانا قرينةً لا تدلّ على أحدٍ إلّا على معاوية، حيث يقول: «وهذا إسنادٌ حسنٌ، رجاله ثقاتٌ رجال الشيخين» إلى أن يقول: «ولعلّ المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة، وجعله وراثة، والله أعلم». [سلسلة الأحاديث الصحيحة: جلد ٤ ص٣٢٩ ح١٧٤٩؛ صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير): ج١ ص٥٠٤ ح٢٥٨٢ (حرف الألف ـ نهاية الشين)] ومن الواضح أنَّ أوّل من غيَّر نظام اختيار الخلافة إلى ملكٍ عضوض هو معاوية بن أبي سفيان، وهذا أمرٌ لا خلاف فيه. نعم، إنَّ هذا التعليل لا يكفي في مفاد الحديث، فهو تعليلٌ قاصرٌ، فمعاوية إنّما غيَّر سنّة

صار عند مشعل هذا، هو المهديّ المنتظر!

إلى أن يقول: «وقد ذُكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية، قالوا: في حلمه، قال: لا والله بل في عدله»!

هذه كلّ الصفات الثابتة للإمام عليّ عليه السلام يسوقها مشعل وأشباهه إلى معاوية، إلى أن يقول: «وقد بلغ من استقامته ـ معاوية ـ على جادّة الإسلام أن قال فيه أمثال قتادة ومجاهد وأبي إسحاق السبيعي: كان معاوية هو المهديّ»، حتّى بلغت الجرأة أن ينسبوا الزهد لمعاوية الذي لم يترك مائدة الطعام عن شبع وإنّما لكلل أسنانه من مضغ الطعام الذي يشتمل على ما لذَّ وطاب، وكان بعضه أحشاءً مملوءةً بمخّ الطيور[1]، وكانوا يتفنّنون في صناعة الطعام له، وهو الذي ما

النبيّ صلّى الله عليه وآله جملةً وتفصيلاً، ولم يقتصر ذلك التغيير على طريقة الحكم، كما أنّنا نعتقد أنّ هذا التغيير في السنّة النبويّة الذي تناوله هذا الحديث ووصفه بأنّه التبديل الأوّل لا ينفي وجود تغييراتٍ وتبديلاتٍ للسنّة النبويّة سابقةٍ على معاوية؛ فقد حصلت مثل هذه التبديلات وإن كانت بأساليب ملتويةٍ أو غير مباشرةٍ، ولكن مع معاوية كانت التغييرات صريحةً وواضحةً ومعلنةً، وهذا ما أهَّله لأن يوصف بكونه أوّل رجلٍ يبدّل سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله.

ولمراجعة تفصيل المسألة وما قام الأمويّون من دورٍ خطيرٍ في الدسّ والوضع والتزوير وتغيير سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله تُراجع الكتب التالية:

١. «السلطة وصناعة الوضع والتأويل، دراسةٌ تحليليّةٌ تطبيقيّةٌ في حياة معاوية بن أبي سفيان»، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: علي المدن.

٢. «معالم الإسلام الأموي»، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري.

٣. «الموروث الروائي بين النشأة والتأثير»، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن.

(١) أمّا حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لا أشبع الله بطنه**»، فلا نحتاج الوقوف عنده لشهرته في صدوره ومعناه، والذي تحيَّرت في تخريجه عقول الأعلام من أتباع بني أميّة،

ولكنّنا سنقف وقفةً يسيرةً عند توصيفاتٍ لطعامه، ولكلماتٍ هو قائلها، وكما قيل: «من فمك أدينك»، فقد روي أنَّ معاوية كان يأكل ويأكل حتّى يملّ، فيقول: «ارفعوا فوالله ما شبعت، ولكن مللت وتعبت»، وما ذلك إلّا لمضيّ دعوة النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه، حتّى تفكّه بعض الشعراء في شراهة معاوية وإكثاره من الطعام، وقد كانت العرب تعيب على الإنسان صفة الأكول، يقول الشاعر في ذمّ صديق له أكول:

وصاحب لي بطنه كالهاوية   كأن في أمعائه معاوية

وممّا جاء عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تحذيره للأمّة من رجلٍ رحب البلعوم، حيث يقول: «**أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحب البلعوم مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه**». [نهج البلاغة: خطبة ٥٧؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٥٤]، وكان المظنون أنّ المقصود بذلك هو زياد بن أبيه أو الحجّاج، ولكن ابن أبي الحديد يرى شيئاً آخر، حيث يقول: «كثيرٌ من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيرٌ منهم يقول: إنّه عنى الحجاج، وقال قومٌ: إنّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي: أنّه عنى معاوية؛ لأنّه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل... كان معاوية يأكل فيكثر، ثمّ يقول: ارفعوا، فوالله ما شبعت، ولكن مللت وتعبت». [المصدر السابق].

وقد روى الشيخ أبو ريه عن الإمام محمّد عبده أنّه كان يقول: «ومعاوية ادّعى الخلافة بعد بيعة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يكن مَن يشهد له بها في حياة عليّ إلّا طلّاب اللذائذ، وبغاة الشهوات، فلو كانت هذه المضيرة من طعام معاوية لحملت آكليها على الشهادة له بالخلافة، وإن كان صاحب البيعة الشرعيّة حيّاً». [أضواء على السنّة المحمّديّة، للشيخ محمود أبو ريه: ص١٩٨].

وقال ابن أبي الحديد: «والعرب تعيّر بكثرة الأكل، وتعيب بالجشع والشره والنهم، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكل، منهم معاوية، قال أبو الحسن المدائني: كان يأكل في اليوم أربع أكلات أخراهنّ عظماهنّ، ثمّ يتعشّى بعدها بثريدةٍ عليها بصلٌ كثيرٌ، ودهنٌ كثير قد شغلها. وكان أكله فاحشاً، يأكل فيلطخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ، وكان يأكل حتّى يستلقي ويقول: يا غلام، ارفع، فلأنّي والله ما شبعت ولكن مللت». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١٨ ص٣٩٨].

وأمّا ابن كثير ـ وهو أمويّ الهوى والولاء ـ فله رأيٌ آخر في عدد أكلات معاوية، حيث ينقل بأنّ معاوية كان يأكل في اليوم سبع مرّات! بعد روايته لخبر عدم الشبع مع تعليقةٍ له تضحك الثكلى، حيث يقول: «روى الإمام أحمد ومسلم والحاكم في مستدركه... عن ابن عبّاس، قال: كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قد جاء فقلت: ما جاء إلّا إليّ، فاختبأت على بابٍ فجاءني فخطاني خطاةً أو خطاتين ـ في صحيح مسلم: فحطأني حطأة: أي: قفدني، وهو الضرب باليد مبسوطة بين الكتفين ـ ثمّ قال: **اذهب فادعُ لي معاوية**... قال: فذهبت فدعوته له، فقيل: إنّه يأكل، فأتيت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، فقلت إنّه يأكل، فقال: **اذهب فادعه.** فأتيته الثانية فقيل: إنّه يأكل فأخبرته، فقال في الثالثة: **لا أشبع الله بطنه،** قال: فما شبع بعدها». وهنا يُعلّق ابن كثير: «وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه! أمّا في دنياه فإنّه لّما صار إلى الشام أميراً، كان يأكل في اليوم سبع مرّات، يجاء بقصعةٍ فيها لحمٌ كثيرٌ وبصلٌ فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلاتٍ بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئاً كثيراً ويقول: والله ما أشبع وإنّما أعيى، وهذه نعمةٌ ومعدةٌ يرغب فيها كلّ الملوك»!! [البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ج٨ ص١٢٧]، انظر التبرير الأمويّ الأجوف.

وهنا يقول البلاذري: «فلمّا كان عام الفتح أسلم معاوية، وكتب له أيضاً. ودعاه يوماً وهو يأكل فأبطأ فقال: **لا أشبع الله بطنه.** فكان يقول: لحقتني دعوة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. وكان يأكل في اليوم سبع أكلات وأكثر...». [فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: ج٣ ص٥٨٢].

وهذا الزمخشري وابن حمدون يرويان: «كان معاوية من أنهم الناس، كان يأكل حتّى يتسطّح، ثمّ يقول: يا غلام ارفع، فوالله ما شبعت ولكن مللت. وكان يأكل في اليوم سبع أكلاتٍ أخراهنّ بعد العصر، وعظماهنّ فيها ثريدةٌ عظيمةٌ في جفنةٍ على وجهها عشرة أمنان من البصل». [ربيع الأبرار: ص٢٥١؛ التذكرة الحمدونيّة، لأبي المعالي محمّد بن حمدون البغدادي: ج٣ ص٩٧»].

وأخيراً ليتأمّل أتباع بني أميّة في هذه الموعظة: «عن الأحنف بن قيس قال: دخلت على معاوية فقدّم إليّ من الحلو والحامض ما كثر تعجّبي منه، ثمّ قال: قدّموا ذاك اللون.

ترك متعةً في حياته إلّا وركبها[1]، صار عندهم زاهداً، حيث يقول مشعل: «روى الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عمّن قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه ثوبٌ مرقوع»، انظر نفس صفات أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ينتزعونها منه ويلصقونها بمعاوية!

وهذا ليس غريباً، فهذا منظّر الإسلام الأموي ابن تيميّة يروي لنا نفس الصفة التي كانت لعليّ عليه السلام ولكنّه يلصقها بسيّده معاوية، حيث يتحفنا

فقدّموا لوناً ما أدري ما هو. فقلت: ما هذا؟ فقال: مصارين البطّ محشوةً بالمخّ ودهن الفستق قد ذرّ عليه السكر. قال: فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: لله درّ ابن أبي طالب، لقد جاد بنفسه بما لم تسمح به أنت ولا غيرك!! فقال: وكيف؟ فقلت: دخلت عليه ليلةً عند أفطاره فقال لي: **قم فتعشّ مع الحسن والحسين**. ثمّ قام إلى الصلاة، فلما فرغ دعا بجرابٍ مختومٍ بخاتمه فأخرج منه شعيراً مطحوناً ثمّ ختمه، فقلت: لم أعهدك بخيلاً يا أمير المؤمنين، فقال: **لم أختمه بخلاً، ولكن خفت أن يبسّه الحسن أو الحسين بسمنٍ أو إهالة**، فقلت: أحرام هو؟ قال: **لا ولكن على أئمّة الحقّ أن يتأسّوا بأضعف رعيّتهم حالاً في الأكل واللباس، ولا يتميّزون عليهم بشيء، ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغنيّ فيزداد شكراً وتواضعاً**». [انظر: بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمّد تقي التستري: ج١٢ ص١٧٩؛ تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ص١١٠؛ نثر الدر، الآبي: ص٦٠؛ التذكرة الحمدونيّة، لأبي المعالي البغدادي: ج١ ص١١].

(١) روى المسعودي: «دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية ـ بعد ما كبر ودقّ ـ ومعه مولاه وَرْدَانُ، فأخذا في الحديث، وليس عندهما غير وردان، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، ما بقي ممّا تستلذّه؟ فقال: أمّا النساء فلا أربَ لي فيهنّ، وأمّا الثياب فقد لبست من ليّنها وجيّدها حتّى وهى بها جلدي فما أدري أيّها الين، وأمّا الطعام فقد أكلت من ليّنه وطيّبه حتّى ما أدري أيّها ألذّ وأطيب، وأمّا الطِّيبُ فقد دخل خياشيمي منه حتّى ما أدري أيّه أطيب». [مروج الذهب، المسعودي: ج٣ ص٣٢؛ وأيضاً: المحاسن والمساوئ، البيهقي: تحت عنوان: محاسن ذكر التنعّم].

بهذا الكلام: «وفضائل معاوية في حسن السيرة والعدل والإحسان كثيرة، وفي الصحيح: أنّ رجلاً قال لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية إنّه أوتر بركعة؟ قال: أصاب؛ إنّه فقيه... وعن أبي الدرداء، قال: ما رأيت أحداً أشبه صلاةً بصلاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من إمامكم هذا، يعني معاوية»، ثمّ يختم بقوله: «فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه، والشاهد بالفقه ابن عباس، وبحسن الصلاة أبو الدرداء، وهما هما. والآثار الموافقة لهذا كثيرة...»[1].

فصلاة أبي بكر وعمر وعثمان ـ فضلاً عن الصحابة الآخرين ـ ليست هي الأشبه بصلاة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإنّما صلاة الطليق معاوية!

إلى أن يأتي إلى يزيد بن معاوية بعد أن عبَّر عنه بأنّه أشبهه بكذا وكذا، وأنّه صاحب الهدى، وأنّه مطهَّر، فيقول: «ولما قتل الحسين، ووصل الخبر إلى دمشق بكاه القريب والبعيد، وبكاه بنو أميّة رجالاً ونساءً وأطفالاً».

فهو لا يرى لبني أميّة علاقةً بقتل الإمام الحسين عليه السلام، فالذي قتله في المكنون الأموي هم الترك والديلم!.

انظروا التدليس وما يفعلونه بالتأريخ الإسلامي، الذي يريدون أن يغذّوا به الدعاة والناشئة، والذين ينشرونه الآن في جامعاتهم ـ سواءٌ أكان في السعوديّة أم في غيرها ـ من خلال هذا الفكر الدخيل والمنحرف، هذا الفكر الذي يحاولون من خلاله تدمير الإسلام؛ عملاً بنظريّة الإسلام الأموي القائمة على أصلٍ أصيل، وهو العمل على تدمير الإسلام وقتل روحه مع حفظ ظاهره، وهذه هي نظريّة المنافقين، ولذلك فإنّ مجموع الأبحاث في تاريخ معاوية تنتهي بنا إلى نتيجةٍ واضحةٍ، وهي أنّ معاوية كان رأس النفاق في زمانه، كما كان أبوه أبو سفيان بن

---

(١) منهاج السنّة النبويّة، لابن تيميّة: ج٦ ص٢٣٥؛ أيضاً في طبعةٍ أخرى: ج٣ ص١٨٥؛ وأيضاً في مجموع فتاوى ابن تيميّة: ج٢٢ ص٤٢٩.

حرب كهف النفاق.

أجل، يقول: «بكاه القريب والبعيد، وبكاه بنو أميّة رجالاً ونساءً وأطفالاً»!! يا لرقّة بني أميّة! ويا لسذاجة المتلقيّن لهذه الترهات!

ثمّ لم يكتفِ صديقنا المحقّق مشعل بهذا!، وإنّما احتار في التعبير عن حزن البيت الأموي على سبط رسول الله صلّى الله عليه وآله، فاختار لنا أن يقول: «ولم يوقد في بيوتهم نارٌ طوال أسبوع»، ولم ينس صاحبنا مشعل أن يذكر إمامه وجزعه على فقد الإمام الحسين، فقال: «وبكى يزيد بكاءً عظيماً».

هذه الترّهات جميعاً يذكرها مشعل ـ الأستاذ والمحقّق ـ في كتابه لتبرئة الصحابة، وهو كتابٌ لتبرئة بني أميّة، فيسوق هذا الغثّ العجيب ولا يرشدنا إلى أيّ مصدر يجعلنا نطمئنّ إليه ولو كان ضعيفاً، ويحقّ لنا أن نسمّي كتابه هذا بـ«مراسيل ابن مشعل».

بهذه السياسة والتمرير يريد منّا أتباع الإسلام الأموي أن نحجّر عقولنا، ونعصّب عيوننا، ونوقر آذاننا، وهو يحوّل لنا القتلة والمجرمين إلى أصحاب هدى وطاهرين، وقادة صالحين، ويحوّل لنا ضحايا المقصلة الأمويّة إلى متمرّدين وخارجين عن القانون.

ولنا أن نسأل مشعل وأشباهه: إذا كان البكاء على الإمام الحسين بدعةً فإنّ أوّل من ابتدعها هم بنو أميّة، بل وخليفتهم وسيّدهم يزيد.

ولم ينس مشعل أن يضيف لمراسيله وهذيانه شيئاً عن احتفاء البيت الأموي بعائلة الإمام الحسين، العائلة المنكوبة المسبيّة عند يزيد، والتي يبدو وبحسب الرؤية المشعليّة أنّهم جاءوا للاستجمام في قصور بني أميّة، حيث يقول مشعل في مراسيله: «وأنزل بنو أميّة آل البيت ومَن معهم في أحسن مكانٍ في دمشق[1] ثمّ خرج أربعون

---

(١) يعني: في فندق خمسة نجوم، وليس في خربة الشام.

امرأةً من نساء بني أميّة يشيّعن بنات عمّهن حتّى وصلن إلى المدينة المنوّرة»[١].

بنو أميّة مدوّنو الحديث

والكلام هو الكلام في تدوين الحديث، فالأمويّون لم يكتفوا بصناعة التاريخ وفقاً لأجنداتهم القائمة على الأُصول الثلاثة الآنفة الذكر، وإنّما زيَّفوا وابتدعوا فيما هو أعظم وأخطر، حيث مسّوا القرآن بتفسيره وأسباب نزوله، ومسّوا الحديث في ثلاثة أمور غيَّرت مجرى الفهم والاعتماد والاستناد، وهي:

الأوّل: دسّوا أعداداً هائلةً من الأخبار المكذوبة على رسول الله وعلى لسان الصحابة والتابعين، لاسيّما في إدخال الإسرائيليّات، وفيما يتعلَّق بأسباب نزول القرآن، ومناقب الصحابة.

الثاني: جعلوا ميزان قبول رواية الراوي الوثاقة وعدمها، وجعلوا ميزان الوثاقة في تحقّق أحد أمرين، الأوّل هو ثبوت الولاء لآل أُميّة، والثاني في انتفاء الولاء لأئمّة أهل البيت[٢]، والأوّل لازمه ثبوت الثاني فيكون الراوي ثقةً أعلائيّاً وثبتاً ولا غبار عليه! وفي الثاني فقط يثبت أصل الوثاقة، وأمّا من ثبت أنّه من أتباع مدرسة أهل البيت فهو ساقطٌ عن الاعتبار، أو ثبت كونه متعاطفاً فهو مطعونٌ به، فيُقال في ترجمته: فيه تشيّع!

الثالث: الطعن في الأخبار الواردة في مناقب أهل البيت، وما طريقة ابن تيميّة القائمة على النفي المطلق بكلمة «لم يثبت» أو «لا يصحّ» أو «مخالفٌ لإجماع العلماء» إلّا تعبيرٌ عن كونه لم يثبت ولم يصحّ وأنّه مخالف لإجماع النظريّة الأمويّة، فيكفي في تكذيب الخبر أن يكون فيه طعنٌ ولو يسيراً في سيرة ملوك بني أُميّة، وأمّا إذا مسّ شيئاً من سيرة الصحابة فهو فسقٌ، وإذا مسّ شيئاً من سيرة الخلفاء

---

(١) فضل الخلفاء الراشدين والصحابة.

(٢) سيأتي بيان هذه المسألة مع ذكر مصاديق لها في البحث الثاني. (منه دام ظلّه).

الثلاثة ـ لاسيّما عثمان ـ فهو كفر![١].

وهكذا بثّوا ثقافةً جديدةً في قبول الأخبار، وألزموا الأمّة بعلمائها ومحدّثيها ومفسّريها ومؤرّخيها أن يسيروا على الجادّة الأمويّة، فمنهم مَن تقرّب لهم وأضاف لهم ما غاب عنهم، كأبي هريرة وسمرة بن جندب وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة[٢]، ومنهم مَن تقرّب منهم ورضي بما رضوا عنه وسخط على مَن سخطوا عليه، طمعاً بالولاية أو الجائزة، كالنعمان بن بشير وأبي موسى الأشعري، ومنهم من انضمَّ لهم لا حبّاً بهم وإنّما بغضاً بعليّ وآل عليّ، كالخوارج وبعض أبناء الخلفاء، ومنهم مَن اعتزلهم ـ فلم يظهر حقّاً ولم يدحض باطلاً ـ لا بغضاً بهم ولا حبّاً بأهل البيت، وإنّما لحسدٍ دفينٍ، أو لأماني كانت تنطوي عليها نفسه، كسعد بن أبي الوقّاص، ومنهم مَن أبغضهم ولكنّه لم يجرؤ على مواجهتهم فآثر السلامة والسكوت، من قبيل أنس بن مالك، فأصابته ـ على حدِّ قوله ـ دعوة العبد الصالح، ومنهم مَن جاهر بالعداء والبراءة من آل أُميّة بغضاً بهم وحبّاً بآل محمّد، من قبيل الصحابيّين حجر بن عدي الكندي وسليمان بن الصرد الخزاعي[٣]،

---

(١) وخير شاهدٍ على ذلك ما أورده ابن تيميّة نفسه في كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: ج٣، آخر الكتاب، تحت عنوان: في تفصيل أحكام السابّ.

(٢) أمّا أبو هريرة فيكفي كيسه شاهداً عليه، وأمّا سمرة بن جندب فقد ذكر فيه ابن أبي الحديد: «إنَّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتّى يروي أنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ اللّه وَاللّه رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل وروى ذلك». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٤ ص٧٣].

(٣) استشهد حجر بن عديّ مع ثلّةٍ من أصحابة في الشام، حيث طلبوا منهم البراءة من عليّ

فدفعوا حياتهم ثمناً وقرباناً لذلك رضوان الله عليهما.

الخطوط الحمر عند الإسلام الأموي

اختطّ الإسلام الأموي لنفسه طريقاً واضحاً وصريحاً في المواجهة مع الإسلام المحمّدي، وفي العداء الشديد لأهل البيت عليهم السلام، ولذلك فقد وضعوا خطوطاً حمراً في تشخيص مواليهم وخصومهم، فلا يكفي أن يكون المسلم مسلماً والمؤمن مؤمناً لمجرّد تمسّكه بالكتاب والسنّة، ولا يكفي أن يكون العالم منتمياً لمدرسة الصحابة ليكون مرضيّاً عندهم، وإنّما لابدّ من عرضه على الخطوط الحمر، وهي ثلاثة خطوطٍ مركزيّةٍ، سقط في لهواتها عددٌ كبيرٌ من علماء مدرسة الصحابة وتوجّهت لهم التهم الشديدة بالرفض والتشيّع؛ فالتشيّع تهمةٌ وسبّةٌ وانحرافٌ لا يغتفر في مدوّنات الإسلام الأموي.

عليه السلام فأبوا ذلك، فأمر معاوية بقتلهم صبراً، أي: نحراً، وأمّا سليمان فقد كان رئيساً للتوّابين، استشهد في معركة عين الوردة.

ويُعتبر قتل معاوية للصحابي الجليل حجر بن عديّ من أعظم الجرائر التي قام بها معاوية، حتّى قال فيه الحسن البصري: «أربع خصالٍ كنّ في معاوية لو لم يكنّ فيه إلّا واحدةٌ منهنّ لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتّى ابتزّها أمرها بغير مشورةٍ منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه بعده ابنه يزيد، سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **الولد للفراش وللعاهر الحجر**، وقتله حجر بن عديّ وأصحابه، فيا ويله من حجر وأصحاب حجر». [تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٠٨؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢ ص٢٦٢؛ ينابيع المودّة، القندوزي الحنفي: ج٢ ص٢٧].

والحسن البصري: هو أبو سعيد الحسن بن يسار، من كبار التابعين وإمام أهل البصرة، وأحد العلماء الفقهاء النسّاك عند أهل السنّة. توفّي سنة: ١١٠هـ، وله ترجمةٌ في جميع كتب الرجال، كتهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب، وميزان الاعتدال.

بعبارةٍ أخرى: لا يُعذر عندهم مَن كان مخالفاً لهم حتّى إن كان من مدرسة الصحابة، كما هو حال المُحدِّث أحمد بن شعيب النسّائي (ت: ٣٠٣هـ)، الذي دخل الشام فوجد المنحرفين فيها عن الإمام عليّ كثيرين جدّاً، فكتب كتاباً في خصائص أمير المؤمنين عليّ عليه السلام رجاء هدايتهم، فأغاضهم ذلك وطلبوا منه أن يكتب في فضائل معاوية، فذكر لهم قول الرسول صلّى الله عليه وآله فيه: «**لا أشبع الله بطنه**»، فأخرجوه من المسجد الأموي سحلاً وضرباً في مثانيه وهو شيخٌ طاعنٌ في السنّ ناهز الثمانية والثمانين عاماً، ثمّ حُمل إلى الرملة فمات فيها[1].

ولم يسلم النسّائي من هذا الجور الصريح، فطالته أقلام الإسلام الأموي، فشنّعت عليه مراراً وتكراراً بالتشيّع والرفض، ولنتأمّل في كلمات الذهبي في ترجمته للنسّائي، حيث لا ينكر عليه علمه وفضله ودماثة أخلاقه، ولكنّ هذا غير كافٍ لرفع التهمة عنه بالتشيّع، لأنّه كان منحرفاً عن الخطّ الأموي المتمثّل بمعاوية وعمرو بن العاص وغيرهما من الطلقاء.

قال الذهبي: «النسائي الإمام الحافظ الثبت، شيخ الإسلام، ناقد الحديث، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن عليّ بن سنان بن بحر الخراساني النسائي، صاحب السنن... وكان من بحور العلم، مع الفهم والإتقان والبصر، ونقد الرجال، وحسن التأليف... وكان شيخاً مهيباً، مليح الوجه، ظاهر الدم، حسن الشيبة... قيل له: ألا تُخرج فضائل معاوية؟ فقال: أيّ شيءٍ أُخرج؟ حديث: **اللّهُمَّ! لا تشبع بطنه**. فسكت السائل... ولم يكن أحدٌ في رأس الثلاثمئة أحفظ من النسائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى، وهو جارٍ في مضمار البخاري، وأبي زرعة»[2].

---

(١) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي: ج٢ ص٢٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٤ ص١٢٥، رقم: ٦٧.

فما هي مشكلة النسائي عند الذهبي؟

يقول الذهبي: «إلّا أنّ فيه قليل تشيّعٍ وانحرافٍ عن خصوم الإمام عليّ، كمعاوية وعمرو، والله يسامحه»[١]، وشرّ البليّة ما يضحك، فهو يسمّي الإمام عليّاً عليه السلام بالإمام، ويعتبر معاوية وعمراً من خصوم الإمام عليه السلام، ومع ذلك فالناقد لمعاوية وعمرو موصوفٌ بالتشيّع، وهذا التشيّع ليس مجرّد تهمةٍ يسيرةٍ، وإنّما هي كافيةٌ للإسقاط عن الاعتبار، أيّاً كان العالم أو المحدّث أو المفسّر أو المؤرّخ، وبهذا وصموا النسّائي والحاكم النيسابوري.

وقد لاقى منهم الحاكم النيسابوري أذىً كثيراً[٢]، فكثيراً ما كانوا يتهّمونه بالتشيّع والرفض، والطعن فيه، حتّى أنّ الذهبي قد تناقض في توصيفه له، فتارةً يصفه بالإمام الصدوق، وأخرى يصفه أو يوخزه بالخيانة العظمى!

قال الذهبي في ترجمته للحاكم النيسابوري: «محمّد بن عبد الله الضبي النيسابوري الحاكم، أبو عبد الله الحافظ، صاحب التصانيف. إمامٌ صدوقٌ، لكنّه يصحّح في مستدركه أحاديث ساقطةً، ويُكثر من ذلك، فما أدري هل خفيت عليه فما هو ممّن يجهل ذلك، وإن علم فهذه خيانةٌ عظيمةٌ، ثمّ هو شيعيٌّ مشهورٌ بذلك من غير تعرّضٍ للشيخين. وقد قال ابن طاهر: سألت أبا إسماعيل عبد الله الأنصاري عن الحاكم أبي عبد الله، فقال: إمامٌ في الحديث رافضيٌّ خبيثٌ. قلت: الله يحب الإنصاف، ما الرجل برافضيٍّ، بل شيعيٌّ فقط»[٣]!!

وهكذا الحال مع كلّ محدّثٍ وكاتبٍ يُبدي مقداراً من الإنصاف والأمانة في النقل، أو قل بأنّه يرفض الزيف الأموي ونزعاته الجاهليّة، فإنّ التهمة الحاضرة

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٤ ص١٢٥، رقم: ٦٧.

(٢) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي: ج٣ ص١٧٧.

(٣) ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٣ ص٦٠٨، رقم: ٧٨٠٤.

والمباشرة، والكفيلة في إسقاطه عن الاعتبار هي اتّهامه بالتشيع والرفض، وبحسب درجات الميل عن الإسلام الأموي تتحدّد هويّته ومكانته ودرجة وثاقته! ولذلك فقد عانى الكثير من أعلام مدرسة الصحابة من هذا الاضطهاد الفكري ـ والجسدي أحياناً، كما تقّدم في النسّائي ـ ولم يسلم من ذلك جملةٌ من المحدّثين والمفسّرين والمؤرّخين، ممَّن حاولوا إظهار بعض الزيف الأموي، وإيقاف الأمّة على واقع الإسلام الأموي المرير، ولا ريب أنّ قائمة هؤلاء المنصفين، من المتقدّمين والمتأخّرين والمعاصرين تطول، وأنّ خلفيّة اتهامهم بالتشيّع تكاد تنحصر بمواجهتهم للإسلام الأموي، فهذا هو الانحراف الخطير الذي يُروّج بني أميّة، وحيث إنّهم لا يجدون أنفسهم مقنعين عند الطعن بالناقد لهم فإنّهم غالباً ما يلصقون بهم تهمة الطعن بالصحابة، لأنّ معاوية ومروان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة، وآل أبي سفيان وهند، وآل مروان وآل أبي معيط، هم عندهم من الصحابة، ومن الأخيار! ومن السلف الصالح! ولم نعلم بعد هذا الإسفاف في التزييف وعقر الحقائق على الصخرة الأمويّة الجاهليّة، مَن هم المنافقون الذين تحدّث عنهم القرآن الكريم؟ ومن هم المرتدّون والباغون؟ ومَن هم الشجرة الملعونة في القرآن؟

وإذا لم يجد هؤلاء آذاناً صاغيةً لطعنهم في المنصفين من أعلام الأمّة فإنّه سوف يُوجّهون لهم التهمة الكبرى التي لا كفر بعدها عندهم، وهي تهمة الطعن بالشيخين أبي بكر وعمر، كما هو الحال مع ابن عقدة الذي كشف الكثير من خزي بني أميّة وتزييفهم، فاضطهدوه اضطهاداً عظيماً واتّهموه بالطعن بالشيخين حتّى تناقض فيه ترجمته بعض أعلام الإسلام الأموي، كالذهبي وابن حجر العسقلاني، حيث وصفوه بالثقة من جهة، وبأنّه كان يطعن بالشيخين، ولازم ذلك التفسيق، بل الكفر عندهم[1].

---

(١) الحافظ ابن عقدة أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن سعيد الهمداني (ت: ٣٣٣هـ)، وثّقه

ولنا أن نسأل: ما هو السرّ في اتّهامهم بالتشيّع أو الرفض؟

إنّ منشأ الاتّهام بذلك هو أحد أمورٍ ثلاثةٍ، وهي التي أسميناها بالخطوط الحمر لدى الإسلام الأموي في التعديل والتجريح، حتّى صارت هذه الخطوط الحمر قاعدةً عامّةً استعملوها، وقد مرّت بنا ثلاثةٌ من هذه الأصول الأمويّة، أو الخطوط الحمر للإسلام الأموي[1]، وهي الأُصول الأساسيّة التي بنوا عليها بنيانهم، وساسوا الأمّة بها، ولهذه الأصول تتمّةٌ وملحقٌ، وهي أُصولٌ ثلاثةٌ أخرى تشكّل مع السابقة عليها صورةً جليّةً عن بني أميّة والإسلام الأموي، أمّا تتمة الأصول

الذهبي، وذكر توصيفات الأعلام له بالعلم والحفظ، حتّى وصفة الدارقطني بأنّه يعلم ما عند الناس، ولا يعلم الناس ما عنده، وبأنّه لم يُر منذ زمان ابن مسعود أحفظ من ابن عقدة، وقالوا إنّه يحفظ ثلاثمائة ألف حديثٍ مع أسنادها، ولكنّهم اتّهموه بأنّه ينقل بعض مثالب الصحابة، وتحديداً مثالب الشيخين، لذلك وبالرغم من كونه من علماء مدرسة الصحابة ومحدّثيهم، بل من أبرزهم، اتّهموه بالرفض، وتُركت رواياته لهذا السبب، مع أنّه لا كلام لأحدٍ عندهم في صدقه ووثاقته، وقد وصفه الذهبي بأنّه نادرة الزمان، وبأنّه شيعيّ متوسّط، وقد نسبوا له أنّه كان يجلس في جامع براثا ويحدّث الناس بمثالب الصحابة، وقيل بمثالب الشيخين، لذا تركوا رواياته. [انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي: ج١ ص١٣٦، رقم: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٥ ص٣٤٠، رقم: ١٧٨].

ولكنّ الحقيقة التي من أجلها قد طعنوا بابن عقدة هي أنّه كان يحفظ أخبار العترة الطاهرة عليهم السلام، وكان يحدّث بها، وهذا مخالفٌ للخطوط الحمر للإسلام الأموي، ولعلّ أكثر شيءٍ أغاضهم، هو أن ابن عقدة قد ألّف كتاباً في طرق حديث: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**»، رواه من مائةٍ وخمس طرق، ولذلك يقول فيه السبط بن الجوزي بأنّه كان يروي فضائل أهل البيت ويقتصر عليها، ولا يتعرّض للصحابة بمدح ولا بذمّ، فنسبوه إلى الرفض. [انظر: تذكرة الخواصّ، لابن الجوزي: ص٥١].

(١) مرّ بنا ذلك في عنوانٍ سابقٍ، وهو «بنو أُميّة صنّاع التاريخ المزيّف»، وقد أشرنا هنالك بأنّنا سوف ننبّه لذلك، وقد فعلنا. (منه دام ظلّه).

الأمويّة وخطوطهم الحمر فهي:

الأمر الأوّل: إذا كان العالِم أو المحدّث أو المفسّر يُفضِّل عليّاً عليه السلام على أبي بكر وعمر، فهو شيعيّ ورافضيّ وإن كان يرى أنّ خلافة أبي بكر وعمر شرعيّتان، ولذلك اتّهموا الحاكم النيسابوري بذلك؛ لأنّه كان يقول بأنّ الإمام عليّاً أفضل منهما، وأنّ فضائله هي أكثر من فضائل أبي بكر، وبهذا التفضيل صار مرمىً لسهام الاتّهام بالتشيّع، بل بالرفض أيضاً.

جديرٌ بالذكر: أنّ الإسلام الأموي يرى أنّ حبّ عليّ وأهل بيته عليهم السلام وحده كافٍ للاتّهام بالتشيّع، والتشيّع حتّى بهذا المعنى اليسير هو بدعةٌ عندهم توجب التفسيق[1]، وأمّا تفضيل الإمام عليّ عليه السلام على الخليفتين فهو عندهم ملاك الاتّهام بالرفض، فالرافضي هو القائل بتقديم الإمام عليّ وتفضيله على الخليفتين[2]، وأمّا من لا يقول بشرعيّة خلافة أبي بكر وعمر فذلك ملاكٌ يكفي لاتّهام صاحبه بالكفر! ممّا يعني أنّ الإسلام الأموي كان ـ ولا زال ـ يربّي

---

(١) قد يكون هذا الأمر غريباً، ولكن سرعان ما ستزول هذه الغرابة عندما نطالع فتوى أحد رجال الإسلام الأموي المعاصر وهو يُسأل: «ما حكم ابتداء الشيعة بالسلام؟ خاصّةً إذا كنت أخالطهم كثيراً مع أنّهم لا يظهرون معتقدهم أو أيّ سب وما إلى ذلك»:

«الحمد لله، الكلام في التعامل مع الشيعة يختلف باختلاف الحال، فالشيعة بدعتهم العقديّة مختلفة، فإن كانت مفسقةً كبدعة التشيّع لآل البيت فيجوز بدؤهم بالسلام؛ لأنّهم مسلمون قد اقترفوا أشياء من البدع والمعاصي لا تخرجهم من دائرة الإسلام، وتجب نصيحتهم وتوجيههم إلى السنّة والحقّ، وتحذيرهم من البدع والمعاصي، فإن استقاموا وقبلوا النصيحة فالحمد لله وهذا هو المطلوب». [فتاوى الإسلام سؤال وجواب، بإشراف: الشيخ محمّد صالح المنجد، قام بجمعها: أبو يوسف القحطاني: سؤال رقم (٤٨٩٨٤) ابتداء الشيعة بالسلام؛ وأيضاً: مجموع فتاوى ابن باز: ج٤ ص٢٦٢].

(٢) ولذلك فجميع المعتزلة عندهم ـ وبحسب هذا المنطق الأموي ـ روافض وخبثاء!

الناس على عدم حبّ عليّ عليه السلام، بل كثيراً ما يُربّون الناس عموماً وأتباعهم خصوصاً على كراهية الإمام عليّ عليه السلام، واتّهامه بالفتن وتفريق الأمّة، وبأنّه قتل المسلمين، وغير ذلك ممَّا تشتمل عليه ثقافة النظام الداخلي للإسلام الأموي، فيكون مجرّد الميل لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام أو التصريح بحبّه دليلاً كافياً وحجّةً واضحةً لاتّهام المحبّ بالتشيّع والرفض.

وبذلك سيكون النسّائي عندهم شيعيّاً فقط؛ لأنّه كان يحبّ عليّاً عليه السلام، فجرمه من الدرجة الثانية، وأمّا الحاكم النيسابوري فهو شيعيّ ورافضيّ خبيث؛ لأنّه كان يُقدّم عليّاً عليه السلام ويفضّله على الخليفتين! فجرمه من الدرجة الأولى!

وبذلك يخالف أتباع الإسلام الأموي ذلك المنحى السنّي المعروف والمشهور، والذي يرى أنّ حبّ الإمام عليٍّ واجبٌ؛ لأنّه من القربى، وأمّا التشيّع فهو القول بأفضليّة عليّ عليه السلام على الخلفاء الثلاثة، وأنّه معصومٌ ومنصوصٌ عليه، وأمّا الرفض فهو إنكار شرعيّة خلافة الخلفاء الثلاثة. ولذلك كنّا وما نزال نؤكّد ضرورة الفصل بين مدرسة الصحابة ومدرسة بني أميّة.

الأمر الثاني: وهو أخطر من الأوّل بكثير، حيث يكفي لإلصاق تهمة التشيّع والرفض بكلّ مَن كان منحرفاً عن معاوية! فكلّ مَن طعن بمعاوية أو نقده فهو منحرفٌ عن معاوية، وهذا كافٍ لوصفه بالتشيّع والرفض والخروج عن الإسلام! لأنّه خرج عن المحيط الأموي، أو قل: بأنّه خرج عن تعاليم الإسلام الأموي وخطوطهم الحمر، ونحن نؤكّد معهم خروجه من الإسلام الأموي ودخوله في الإسلام المحمّدي، فلا يكون إخراجه سبّةً يُعاب عليها، بل هي عين الفضيلة.

إنّ هذا الأمر الثاني هو الضابط الأساسيّ عند الخطّ الأموي، وهو أمرٌ غير معترفٍ به عند أهل السنّة أو مدرسة الصحابة، وبذلك يتّضح لنا أحد وجوه الفرق بين مدرسة الصحابة وبين الإسلام الأموي بشكل أكبر وأعمق، فإنّ المنحرف عن معاوية في الإسلام الأموي هو من لا يترضّى على معاوية! فلا

يكفي عدم نقده أو الطعن فيه، بل لابدّ من الترضّي عليه!

بعبارةٍ أخرى: لكي تكون من أهل السنّة عند الأمويّين وعند ابن تيميّة وعند الوهّابيّة، لابدّ أن تترضّى على معاوية، فمن لم يترضّ على معاوية فهو شيعيّ وإن كان إماماً لأهل السنّة! بل هو عندهم ضالّ ومضلّ.

حتّى أنّ النسائي صاحب السنن والمقام الرفيع هو متّهمٌ عند سائر أبناء الإسلام الأموي بالتشيّع لأجل هذا الأمر الثاني، وقد مرّت كلمة الذهبي فيه، ثمّ يقول فيه بعد مدحٍ وثناءٍ عظيمٍ: «إلّا أنّ فيه قليل تشيّعٍ وانحرافٍ عن خصوم الإمام عليّ، كمعاوية وعمرو، والله يسامحه»[1]!

فالضابطة عندهم ليس الإسلام ولا القرآن ولا السنّة الشريفة، وإنّما هو الولاء لمعاوية وآل معاوية ولبني العاص وغيرهم ممَّن ثبت عنهم النصب والعداء الصريح لأهل البيت، وبعبارةٍ موجزةٍ: إنّ الضابطة عندهم هي تولّي الطلقاء.

وكأنّهم قد أبدلوا حديث الرسول صلّى الله عليه وآله في حقّ الإمام عليّ عليه السلام: «**لا يبغضك إلّا منافق، ولا يحبّك إلّا مؤمن**»[2]، وما جاء في كلمة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ذلك: «**عَهِدَ إليَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**»[3]، والذي قال فيه الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»[4]، بحديثٍ آخر لم ينطقوا به ولكنّهم عملوا به وبنوا عليه بنيانهم، رفعوا فيه كلمة الإمام عليّ عليه السلام ووضعوا مكانها معاوية!!

ولذلك فإنّ النسائي، وهو الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام وناقد الحديث ـ إلى آخره من المزايا العلميّة والأخلاقيّة ـ لم يشفع له كلّ ذلك عند الإسلام

(١) ميزان الاعتدال، الذهبي: ج٣ ص٦٠٨، رقم: ٧٨٠٤.

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) تقدّم تخريجه.

(٤) تقدّم تخريجه.

الأموي؛ لأنّه لم يكتب كتاباً في فضائل معاوية! ولأنّه كان يحبّ الإمام عليّاً!

الأمر الثالث: النقل عن الشيعة أو عن كتبهم، وهذه هي التهمة الثالثة التي بموجبها يخرج العالم الباحث والمحقّق عن كونه من أهل السنّة؛ لمجرّد نقله من كتب الشيعة، أو ينقل عن الشيعة، وبهذه التهمة سقط عندهم الحاكم النيسابوري، لأنّه ينقل عن الشيعة! وارتفع عندهم ابن تيميّة لأنّه كان أشدّ الطاعنين في طبقات الشيعة كافّة، خواصّهم وعوامّهم.

حتّى أنّ أحد معاصري الإسلام الأموي والمنافحين عنه، نجده يتعجّب كثيراً من الحاكم النيسابوري في نقله من أحد العلماء الكبار للشيعة، ولا يفوته أن يفرغ ما في جعبته من التراث الأموي في الطعن بذلك العالم الشيعي، حيث يقول: «ولا أزال أتعجب من إخراج الحاكم لأحد كبار الرافضة الأخباث الأنجاس»[(١)].

هذا هو المنطق العلمي للإسلام الأموي!

وقفة مع ابن حجر العسقلاني ونزعته الأمويّة

كان ابن حجر العسقلاني من الأعلام المبرَّزين في مدرسة الصحابة، وهو صاحب تأليفاتٍ كثيرةٍ ومهمّةٍ، حتّى أنّ جملةً من تأليفاته تعتبر مصادر ومراجع في علوم الحديث والرجال والتاريخ[(٢)]، ولا يكاد الباحث في هذه العلوم أن

(١) هو المحقّق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا. انظر: [فضائل فاطمة الزهراء: ص٣٥، وص٤٢]. عندما يمرّ بحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله صلّى الله عليه وآله**»، وحديث: «**يا فاطمة ألا ترضين أنّك سيّدة نساء العالمين وسيّدة نساء هذه الأمّة وسيّدة نساء المؤمنين**». والذي لم يستطع هذا المحقّق الناصبي ردّهما فلجأ للطعن مستعملاً تلك الكلمات البذيئة، متّهماً الحاكم النيسابوري بأنّه ينقل الروايات الموضوعة.

(٢) أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمّد بن حجر الكناني العسقلاني (٧٧٣ـ٨٥٢هـ)، من أئمّة الحديث والتاريخ، وُلد في القاهرة وتوفّي فيها، كان شاعراً أديباً ثمّ أقبل على

يستغني عنه، فهو بحّاثةٌ ومتتبّعٌ.

وكان ابن حجرٍ يستشكل على أصحاب التعديل والتجريح توثيقاتهم للنواصب وطعونهم الكثيرة لعلماء الشيعة ورواتهم، وهو موقفٌ محمودٌ، ولكنّه كان يعيش صراعاً داخليّاً بليغاً حتّى وجد لتلك التوثيقات ولتلك الطعون مخرجاً! فالناصبي ليس الذي يُناصب العداء للإمام عليّ عليه السلام مطلقاً، وإنّما الذي يُناصبه العداء في حدود انتصاراته في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله، فالذي يبغض عليّاً عليه السلام لأجل تلك الانتصارات التي جرت على يديه في زمن النبيّ فهو ناصبيّ، وأمّا مجرّد بغضه وحربه فلا نصب فيه!

بهذه التخريجات الأمويّة ينطلق ابن حجر العسقلاني في قبوله بتوثيقات القوم للنواصب، وبها أيضاً يقبل الطعون الشديدة في علماء ومحدّثي ومفسّري الشيعة، حيث يقول في ذلك: «وقد كنت أستشكل توثيقهم الناصبي غالياً وتوهينهم الشيعة مطلقاً، ولاسيّما أنّ عليّاً ورد في حقّه: **لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق**، ثمّ ظهر لي في الجواب عن ذلك: أنّ البغض هاهنا مقيّدٌ بسببٍ وهو كونه نصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ مِن الطبع البشري بغض مَن وقعت منه إساءةٌ في حقّ المبغض والحبّ بعكسه، وذلك ما يرجع إلى أمور الدنيا غالباً، والخبر في حبّ عليّ وبغضه ليس على العموم؛ فقد أحبّه مَن أفرط فيه حتّى ادّعى

الحديث، كثير التصنيف، حتّى قال فيه تلميذه السخاوي: «انتشرت مصنّفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر». من تصانيفه الكثيرة: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة؛ لسان الميزان؛ الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام؛ الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف؛ ذيل الدرر الكامنة؛ ألقاب الرواة؛ تقريب التهذيب؛ الإصابة في تمييز أسماء الصحابة؛ تهذيب التهذيب؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري؛ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير؛ سبل السلام في شرح بلوغ المرام، للكحلاني، وغير ذلك». [انظر: الأعلام، للزركلي: ج١ ص١٧٨].

أنّه نبيٌّ أو أنّه إلهٌ ـ تعالى الله عن إفكهم ـ والذي ورد في حقّ عليٍّ مِن ذلك قد ورد مثله في حقّ الأنصار، وأجاب عنه العلماء: إن بغضهم لأجل النصر كان ذلك علامة نفاقه، وبالعكس، فكذا يقال في حقّ عليّ».

ثمّ لا يكتفي ابن حجر في قبوله للنواصب ورفضه للشيعة العدول، وإنّما بدأ ذلك المرض العضال ـ هوى بني أميّة ـ يلعب دوره الحسّاس في تمجيد النواصب وتحقير الشيعة، حيث يقول: «وأيضاً فأكثر مَن يوصف بالنصب يكون مشهوراً بصدق اللهجة والتمسّك بأمور الديانة، بخلاف مَن يوصف بالرفض فإنّ غالبهم كاذبٌ ولا يتورّع في الأخبار، والأصل فيه أنّ الناصبة اعتقدوا أنّ عليّاً رضي الله عنه قتل عثمان أو كان أعان عليه، فكان بغضهم له ديانةً بزعمهم، ثمّ انضاف إلى ذلك أنّ منهم مَن قُتلت أقاربه في حروب عليّ»[1].

وكما قلنا من قبل: هذا هو المنطق العلمي للإسلام الأموي!

عود على بدء

إنّ التصدّي لتدوين الحديث وقع بصورةٍ رسميّةٍ وبقرارٍ حكوميٍّ كان عام (١٤٥هـ)، ولكنّ التدوين الحقيقي للحديث والتاريخ كان في آخر عهد معاوية، ونشط في زمن عبد الملك بن مروان، ولما أراد ابن جريج (أو ابن جريح) الرومي الأموي الشروع بتدوين الحديث فقد اعتمد بالدرجة الأساس على التدوينات الأمويّة السابقة، لاسيّما بالاعتماد على ما تركه زعماء الإسرائيليّات في الحديث والتفسير والتاريخ، والذي لم يخرج الكثير منه عن الموروث الإسرائيلي[2].

---

(١) تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ج٨ ص٤١١.

(٢) تعرّض السيّد الأُستاذ دام ظلّه إلى هذه المسألة بالتفصيل في كتابه «من إسلام محوريّة الحديث إلى إسلام محوريّة القرآن»، وتحديداً في الجزء الأوّل منه، كما أنّه تمّ عرضه في الكتاب الأوّل من هذه السلسلة تحت عنوان «الموروث الروائي بين النشأة والتأثير».

السلفيّة المعاصرة وتزييف الحديث والتاريخ

وهاهنا تكمن الطامّة الكبرى، فلم تكتفِ الأمويّة التاريخيّة في تزيفيها للواقع والأحداث، والوضع والدسّ في الحديث، وإنّما جاءت الأمويّة المعاصرة المتمثّلة بالسلفيّة الوهّابيّة لتكمل مسلسل الطمر والتزييف، فعمدت إلى أهمّ الكتب والمصنّفات في الحديث والتاريخ لتزيّفها، وبطبيعة الحال أنّهم لم يُزيِّفوا ولم يُغيِّروا إلّا ما تعلَّق بأهل البيت عليهم السلام، وقد اعتمدوا أُسلوباً خبيثاً جدّاً في التزييف، والذي لا نجد له مُبرّراً سوى استجابتهم الحرفيّة لنصبهم وعدائهم التاريخي لرسول الله صلّى الله عليه وآله وآهل بيته عليهم السلام، وسوف نستعرض عيّناتٍ يسيرةً جدّاً لبعض نواصب العصر ممَّن استغرقوا في التزييف بحجّة البحث والتحقيق! ليقدّموا للأجيال المعاصرة والقادمة مادّةً تاريخيّةً ملوّثةً تماماً، كتلوّث قلوبهم بالأمويّة والجاهليّة؛ ومن النماذج الناصبيّة المعاصرة ما يلي:

١. إلهي ظهير إحسان[١]

تفرَّغ هذا الناصبي للنيل من الشيعة وأئمّتهم وعلمائهم، وكان أكثر شيءٍ يجيده في مؤلّفاته الموجّهة ضدّ الشيعة والتشيّع هو الكذب الصريح والتشويه الفظيع للحقائق، حتّى بيانه لاسم الشيعة أو الروافض بحسب ثقافة السلفيّة

وهذا الكتاب مطبوعٌ فراجع.

(١) إحسان إلهي ظهير (١٩٤١ـ١٩٨٧م)، مفكّرٌ وكاتبٌ هنديّ الأصل، باكستانيّ المولد والنشأة، انتدبته المؤسّسة الدينيّة السلفيّة للردّ على الشيعة، صدرت له مؤلّفاتٌ كثيرةٌ في الردّ على الشيعة، من قبيل: «الشيعة وأهل البيت»، و«الشيعة والتشيّع فرق وتاريخ»، و«الشيعة وتحريف القرآن»، كان سبباً في إشعال فتنٍ طائفيّةٍ في بلاده راح ضحيّتها كثيرٌ من المسلمين، قُتل في انفجارٍ مع مجموعةٍ من أتباعه، ونُقل إلى الرياض بأمر الملك السعودي فهد بن عبد العزيز، ولكنّه مات في الرياض متأثّراً بإصابته.

التاريخيّة، حيث يقول: «ويسمّون أيضاً الرافضة أو الروافض؛ لرفضهم مناصرة أئمّتهم ومتابعتهم، وغدرهم بهم وعدم وفائهم لهم...»[١]!

ويذكر في مقدّمة كتابه «التصوّف... المنشأ والمصادر» أكاذيب تثير الدهشة، حيث يقول: «من اشتراك الشيعة والصوفيّة في إجراء النبوّة بعد محمّد صلوات الله وسلامه عليه، ونزول الوحي، وإتيان الملائكة، وتكليم الله إيّاهم، وعدم خلوّ الأرض من شخصٍ به ثبات الأرض ووجودها، وعدم قبول العبادة بدونه، وتفضيل الوصي على النبيّ، ونسخ الشريعة، ورفع التكاليف، وإباحة المحظورات، وإتيان المنكرات، وغيرها من المواضيع الهامّة العديدة»[٢].

ويؤكِّد جملةً من أكاذيبه مع زيادةٍ في قوله: «فإنّ الشيعة يرون بأنّ النبوّة لم تختم على محمّد صلوات الله وسلامه عليه، حيث لم يكن وحده في زمانه الذي كان ينزل عليه الوحي، ويأتي إليه الملك، ويكلّمه الله من وراء حجاب، بل كان هناك شخصٌ آخر في زمانه وبعده، كان له تلك الأوصاف كلّها، بل وأكثر منها. حيث إنّ رسول الله محمّد صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يكلّمه الله إلّا وحياً، أو من وراء حجاب، أو بإرسال رسولٍ، فيوحي بإذنه ما يشاء، وأمّا الإمام فكان ينزل عليه الوحي، ويرسل إليه رسول، ويكلّمه الله ويناجيه بلا حجاب، وقد أعطي خصالاً لم يسبقه إليها أحدٌ، ثمّ توارث هذه الأوصاف من خلفه بعده إلى

---

(١) الشيعة والتشيّع فرقٌ وتاريخٌ، إحسان إلهي ظهير: ص٢٧٠.

وهنالك من يتخبّط أكثر في بيان معنى «الروافض» كالجبهان، حيث يقول: «نحن نسمّي الشيعة روافض لأنّهم رفضوا الإسلام جملةً وتفصيلاً». [تبديل الظلام وتنبيه النيام: ص٣٢٧]. ونحن نؤيِّده بذلك إذا المقصود منه الإسلام الأموي الذي يتبنّاه وينافح عنه، فمدرسة أهل البيت وسائر المسلمين يبرؤون من الإسلام الأموي الذي لم يُبقِ قيماً للإسلام المحمّدي إلّا وأبدلها بقيم الجاهليّة الجهلاء.

(٢) التصوّف... المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير: ص٤.

خاتم الأئمّة»[١]، ثمّ ينطلق لتكفير الشيعة وعلمائها بعد أن جنى عليهم بهذه الافتراءات التي لم يكن فيها أكثر من حاطب ليلٍ أعمى.

٢. إبراهيم السليمان الجبهان[٢]

مرّ بنا حديث عن الجبهان وما كان ينفث من سمومه واتّهاماته للإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولا ينبغي تكرار ما تقدّم منه، ولكنّنا سنذكّر ببعض كلماته التي تقطر نصباً؛ يقول الجبهان: «وهذا عليٌّ تولّى الخلافة ومكث فيها خمسة أعوام أو تزيد، فهل أكل الناس في عهده وشربوا إلّا دماء الأبرياء وعرض الضعفاء ودموع الثكالى واليتامى والبؤساء... وقام الحسين بمحاولته اليائسة التي خلَّفت في قلب الإسلام جرحاً لا يندمل...»[٣].

فهو لم يسأل مَن تسبَّبوا بقتل خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين في الجمل، ولم يسأل مولاه معاوية لماذا جاء بجيشه الجرّار من الشام لحرب علي الخليفة الشرعي، ولم يسأل الخوارج لماذا خرجوا على إمام زمانهم، ولكنّه جاء للمجنيّ عليه والمغدور به ليتّهمه بالجناية!

وقد بلغت به الوقاحة وحقده الأعمى أن يُسمِّي كتاب «نهج البلاغة»، بنهج الحماقة، ويسقطه تماماً عن الاعتبار من خلال اتّهام هذا الكتاب الجليل بالإلحاد والزندقة والجرأة على الله والطعن في الرسالة المحمّديّة، وكلما أراد الاستشهاد بنصٍّ من هذا الكتاب يقول: وفي نهج الحماقة! ويُسمّي كتاب الكافي بالتلمود[٤]!

---

(١) التصوّف... المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير: ص١٨٤.

(٢) رجل دينٍ سلفيّ وهّابيّ تكفيريّ، سعوديّ الأصل والنشأة، من أشهر كتبه: «تبديد الظلام وتنبيه النيام»، له عدّة مقالاتٍ منشورةٍ في ذمّ الشيعة والطعن عليهم.

(٣) تبديل الظلام وتنبيه النيام: ص١٣٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص٢٥، وص٥٣، وص١٢٩.

إنّ هذا المفتري الجبهان لم يخفِ نصبه وعداءه الشديد لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، حتّى وخز بسمومه شخصيّةً عظيمةً هي محلّ اتّفاقٍ بين المسلمين كافّة، وهو الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث كان يصفه بأوصافٍ يندى لها الجبين، فيقول فيه: «لقد قرنت اسم جعفر بن محمّد بعلامة استفهامٍ في غير موضع؛ تصحيحاً للخطأ الشائع الذي وقع فيه كثيرٌ من أرباب التصانيف بإلصاقهم كلمة الصادق باسم المذكور، وجعلها لقباً له وعلماً عليه. والواقع أنّ هذه التسمية، أو بالأصح هذه التزكية ما كان ينبغي أن تطلق على شخصٍ حامت حوله الشبهات، وكثرت فيه الأقاويل، ونُسبت إليه أقوالٌ مشحونةٌ بالزندقة والإلحاد...»[١].

ويقول في موضعٍ آخر: «إنّني لم أكن أوّل مَن شكّ في سلوكه، فقد كنتُ مسبوقاً إلى ذلك ممّن عاصره وشاهدوا بذخه وترفه، وقبوله العطايا من شيعته وهي محرّمةٌ عليه لأنّه لم يكن ممّن يستحقّها شرعاً، حتّى قيل إنّه اشترى داراً في البصرة بمبلغ ثلاثين ألف دينار، عدا ما كان ينفقه على الدعاة والمبشّرين والجمعيّات السريّة التي عاثت في كيان الأمّة الإسلاميّة فساداً وتخريباً»[٢].

ثمّ يطلق سمّه الزعاف بافتراءٍ ما افتراه أحدٌ من قبله ولا من بعده، فكان تيميّاً أكثر من ابن تيميّة، وناصبيّاً أكثر من النصب نفسه، حيث نراه في موضعٍ آخر يتّهم فيه الإمام الصادق عليه السلام بتهمةٍ بشعةٍ، فيقول: «إنّ جعفر بن محمّد كان ألمع نجمٍ وقع اختيار العصابات الماسونيّة عليه، فقد ثبت أنّه أحد العميان الذين كانت شياطين الماسونيّة تعدّهم وتمنّيهم بنيل الخلافة»[٣].

---

(١) تبديل الظلام وتنبيه النيام: ص٩، فما بعد.

(٢) المصدر السابق: ص١٠.

(٣) المصدر السابق: ص١٦١ فما بعد. وقد أبدل هذا الناصبي عبارة «إنَّ جعفر بن محمّد كان

ولم يسلم منه حتّى الإمام المهدي عليه السلام الذي هو محلّ وفاقٍ بين المسلمين من أنّه من أبناء فاطمة الزهراء عليها السلام، فيأتي لينعته بصفةٍ يندى لها الجبين، حيث يقول: «أتدري أيّها القارئ الكريم من هو القائم؟ إنّه هو الذي يُمنّي اليهود أنفسهم بخروجه ملكاً على الدنيا من نسل داود، وهو المسيح الدجّال الذي أخبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سيخرج فتنةً للناس ثمّ يخذله

ألمع نجم» بعبارةٍ أخرى نتيجة فضيحته ومواجهته بنقودٍ شديدةٍ حتّى من قبل السلفيّة أنفسهم، لكنّ عبارته الجديدة هي أسوأ من السابقة، حيث يقول في كتابه بنسخته الجديدة: «ولا أذيع سرّاً إذا قلت أن بعض أئمّة الشيعة كانوا من ألمع النجوم التي وقعت اختيار العصابات الماسونيّة عليها...». [المصدر نفسه: ص١٦١، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م]. فزاد الطين بلّة، وقد كان ممَّن وجّه له نقداً من شيوخ السلفيّة وكتَّابها: الشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي، فهذا الشيخ بالرغم من كونه يُكفِّر الشيعة بلا استثناء، ويُوجب محاربتهم، إلّا أنّه حين وجِّه له السؤال التالي: تكلّم مؤلّف كتاب تبديد الظلام، عن جعفر الصادق وقدح فيه كثيراً، وقال: مَن شاء المزيد فليرجع إلى كتاب ميزان الاعتدال، فرجعت إلى الكتاب فلم أجده ترجم له، بينما ذكره كثيرٌ من علماء السلف وأثنوا عليه، أنّه من أئمّة السلف فما هي أوفى ترجمةٍ كتبت عنه؟

أجاب الحوالي: «الحقيقة أنَّ الشيخ الجبهان غفر الله له ولنا، أخطأ فيما كتب عن جعفر الصادق، ومثلما قلنا نحن أهل السنّة لا يجرمنا اعتداء قوم علينا أن نفتري عليه: ﴿**اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ «المائدة: ٨»، فعندما نقول: إنَّ جعفراً الصادق ماسونيّ وأنّه كذا، فإنَّ هذا قولٌ بغير علم، فهذا الكلام خطأ، ولا نقرّ الشيخ عليه... وأمّا ترجمة جعفر الصادق فإنَّ ما كتب عنه علماء الجرح والتعديل هو المعتمد؛ لأنّهم أوثق مَن يرجع إليهم، ولا تلتفت إلى قول غيرهم أبداً». [ترجمة جعفر الصادق، للشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي، منشور في موقعه (موقع الشيخ الحوالي)].

وقد بلغ بالجبهان من الصفاقة والتسفّل والانحطاط في دائرة الكذب والافتراء أن يطلق كذبةً يندى لها الجبين، حيث يقول في اتّهام الشيعة: «إنَّ نكاح الأمّ عندهم هو من البرّ بالوالدين، وأنّه عندهم من أعظم القربات»! [تبديد الظلام وتنبيه النيام: ص٢٢٢].

الله، ويُقتل، وهو البعبع الذي يُخوِّف الدجّالون به أتباعهم، ويهدّدون بخروجه من السرداب...»[(١)].

والجبهان هذا من أشدّ المطالبين بهدم قبر الرسول صلّى الله عليه وآله، حتّى أنّه يرى أنّ إدخال قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله في المسجد النبويّ هو أشدّ إثماً وأعظم مخالفةً[(٢)].

والجبهان هذا لم يكن بدعاً في عالم بني أميّة وإسلامهم الجاهلي، فهو ليس أكثر من ناقل التمر إلى هجر، دون تفكّرٍ وتأمّلٍ[(٣)]، حيث قام بصهر كلّ أحقاد وأضغان ابن تيميّة في كلماته، فهو ناقلٌ أمينٌ لتخرّصات ابن تيميّة، وما قام به تحديداً ـ كما أسلفنا ـ هو أنّه فكَّ بعض رموزها ووجَّه إشاراتها، وكان له جهدٌ كبيرٌ في تقصّي جميع كلمات الشتم والقذف والتهم الباطلة ليصبّها في ما أسماه بتبديد الظلام[(٤)]!

كما أنّه في الوقت الذي ينتصر ليزيد بن معاوية! الذي قتل ابن بنت رسول الله في سنة، وهدم الكعبة في سنة، وأباح المدينة ثلاثاً في سنة! ويعتبره خليفةً

---

(١) تبديل الظلام وتنبيه النيام: ص٣٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص٣٨٩.

(٣) وقد بلغ من عجالته وعدم التحقّق من هويّة المؤلّفين أن يُسمّي السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر وهو عالمٌ ومرجعٌ دينيٌّ كبيرٌ في مدرسة أهل البيت بأنّه تلميذٌ جامعيّ! ولم أجده منصفاً إلاّ في هذا الموضع الذي مرّ به بالشهيد الصدر عندما عبّر عن إعجابه بسعة خياله ورصانة أسلوبه وبراعته في النقد والتحليل، ولكنّه لم ينسَ أمويّته حيث قال في تقريضه له: «وتمنّيت أن لو كشف الله الغشاوة من أمثال هؤلاء الأفذاذ ممّن تذوب عبقريّتهم النادرة في خضمّ هذه السخافات».! [المصدر نفسه: ص٢٣٠، هامش رقم واحد].

(٤) وكان الأحرى به أن يُسمِّي كتابه بتجميع الظلام، فهو كتابٌ لو جُرِّد من الشتائم والسباب والسخرية والاستهزاء لما بقي منه إلّا ما نقله عن خصومه الشيعة.

شرعيّاً واجب الطاعة[1] نجده يطعن في خلافة الإمام عليّ عليه السلام وأنّ خلافته لم تجنِ منها الأمّة غير الذلّ والويلات!

هذا هو العزّ الأموي التيميّ الوهّابي في حاكمٍ فاسقٍ فاجرٍ كيزيد بن معاوية، والذلّ الأموي في حكومة الإمام الحاكم بالسويّة، والعادل بالرعيّة، أسد الله الغالب عليّ بن أبي طالب عليه السلام[2].

جديرٌ بالذكر: أنّ الاتّجاه العامّ للإسلام الأموي والمتمثّل حاليّاً بالسلفيّة التكفيريّة والوهّابيّة لا يشذّ عن هذه القواعد العامّة في العداء والنصب لمدرسة أهل البيت، إلّا ما ندر، سواءٌ كانوا من علمائهم أو خطبائهم أو كتّابهم، أو طلّابهم، أو إعلاميّيهم، وسائر مؤسّساتهم.

وحدة المضمون بين الأمويّة والسلفيّة التكفيريّة والوهّابيّة

إنّ المنهج الأموي في التعاطي مع الإجراءات والتدابير النبويّة وفي التعاطي مع الحديث والتفسير والتاريخ هو عين ما تتبنّاه السلفيّة التكفيريّة عموماً

---

(١) إنّه يُسمّي حكّام بني أميّة بالخلفاء ويدافع عنهم ويسمّيهم بالسلف الصالح، ثمّ يناقض نفسه في نقله لروايةٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**الخلافة من بعدي ثلاثون عاماً ثمّ تكون ملكاً عضوضاً**». [تبديد الظلام وتنبيه النيام: ص٦٨، وص١٣٤]. ولم ندرِ أيّها الجبهان هل هي ملكٌ عضوضٌ بنصّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أم خلافةٌ شرعيّةٌ بحسب مفترياتك؟

(٢) جديرٌ بالذكر: أنَّ هذا الناصبي المفتري لم يخفِ تعصّبه للخوارج والدفاع عنهم، حيث يقول فيهم: «أمّا الخوارج فإنَّ خروجهم على عليّ، وعلى مَن بعده من الخلفاء، لم يخرجهم من حظيرة الإسلام؛ لأنّهم لم يخرجوا للقضاء على الإسلام، وإنّما خرجوا للقضاء على ما اعتقدوا أنّه منافٍ لروح الإسلام، ولأنّهم في نظر المنصفين طلّاب حقّ، وخطؤهم في اختيار الوسيلة لا يعطينا الحقّ بأنّ نصفهم بوصمة الكفر، بل إنّنا نرجو أن تشفع لهم نواياهم الحسنة ودوافعهم البريئة من كلّ شائبة»!. [المصدر السابق: ص٦٨ فما بعد].

والوهّابيّة خصوصاً، فالعنوان قد يبدو متكثّراً «الأمويّة، السفيانيّة، المروانيّة، الحنبليّة، التيميّة، السلفيّة، الوهّابيّة، وهلمّ جرّا»[1]، إلّا أنّ عنوانهم الجامع هو الإسلام الأموي، وأمّا المضمون فهو واحدٌ لا غير، كما لو أسميت شخصاً بعدّة أسماءٍ، فهؤلاء كذلك، فهم جميعاً أتباع النهج الأموي، معاييرهم أمويّة، ومطالبهم أمويّة، وأهدافهم أمويّة، فهم جميعاً يتنفّسون برئةٍ أمويّةٍ تيميّةٍ وهابيّةٍ، والمعتدل فيهم جدّاً هو الساكت عن سياسة التكفير ظاهراً، وأمّا النهج والمتابعة والفعل والترك فهي أمويّةٌ خالصةٌ، فإن خرج عن الأمويّة بشيءٍ فقد خرج في عرفهم عن سيرة السلف الصالح! فالصالح عندهم في الظاهر هم عموم الصحابة، وفي الباطن والواقع هم بنو أميّة لا غير، وإلّا فعليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله من سادات السلف، وكذلك عموم أئمّة أهل البيت وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبو ذرّ الغفاري وحذيفة بن اليمان والمقداد بن الأسود الكندي ومحمّد بن أبي بكر وجابر بن عبد الله الأنصاري، وغيرهم من عشرات الصحابة الأخيار، إلّا أنّ هذه الأسماء اللامعة في تاريخ الإسلام ما هي

---

(١) ولذلك نجد الشيخ راشد الغنوشي يُصنّف ابن تيميّة بأنّه رائد الصحوة الإسلاميّة المعاصرة، أو على حدِّ تعبيره «أبو الصحوة الإسلاميّة»، بمعنى: أنَّ ابن تيميّة هو العقل المفكّر والمنظّر للفكر السلفي المعاصر الذي يُشار له بالصحوة الإسلاميّة المعاصرة في كلمة الغنوشي. [انظر: نقد الخطاب السلفي... ابن تيميّة نموذجاً، رائد السمهوري: ص٨ مقدمة الكتاب].

ونحن نؤكِّد بأنَّ ابن تيميّة هو المنظّر الحقيقي لجميع الاتّجاهات الأصوليّة السلفيّة المعاصرة، والتي تعدّ الوهابيّة أبرز مصاديقها، بل إنّ ابن تيميّة أكثر من منظّرٍ لها، فهو الأب الروحي للاتّجاهات الأصوليّة السلفيّة، وهذه الاتّجاهات قد تكون لها عناوين ثانويّةٌ مختلفةٌ، ولكنّها بحسب تعبير السيّد الأستاذ دام ظلّه: لها عنوانٌ جامعٌ، وهو الإسلام الأموي، فهم أمويّون بامتياز.

إلّا أسماءٌ خافتةٌ في المصنّفات الأمويّة، بل ومُتَّهمةٌ، وأصحاب فتنةٍ، فالتهمة الأساسيّة الثابتة ضدّهم، والفتنة الكبرى التي وقعوا فيها، والانحراف الخطير الذي انزلقوا فيه في رؤية النهج الأموي وأتباعهم، هو أنّهم واجهوا وحاربوا الأمويّة السفيانيّة المروانيّة، فالمقياس عندهم هو الجمل وصفّين، فسلمان المحمّدي الذي قال فيه رسول الله «**سلمان منّا أهل البيت**» وعمّار الذي قال فيه رسول الله «**تقتلك الفئة الباغية**» وأبو ذرّ الذي قال فيه «**أصدق ذي لهجة**» وخزيمة صاحب الشهادتين، كلّ هؤلاء هم أدنى مرتبةً بكثير جدّاً من طلحة والزبير الناكثين الغادرين الخارجين على الإمام العدل عليّ بن أبي طالب.

فالمعيار في واقعه العملي هو عليّ ومعاوية، وهكذا اختفت الكثير من مناقب وبطولات صحابةٍ أجلّاء لأنّهم كانوا مع عليّ، كما رُفعت هامات وقامات صحابةٍ خرجوا على أمير المؤمنين عليّ فصاروا عندهم عظماء وأجلّاء لذلك.

طبيعة المواجهة الفكريّة والسياسيّة

إنّ الانقلاب الأموي السافر على جميع الإجراءات النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة لم تقتصر على المجال السياسي، وإنّما اتّخذ أبعاداً أخرى أخطر وأعمق، وأهمّها البعد الفكري، فالأمويّة ليست مجرّد حكومةٍ مرّت في التاريخ، وإنّما هي فكرٌ ومنظومةٌ وسلوكٌ يعيشها الكثير من أبناء الأمّة، ممّا يعني أنّ المواجهة مع الأمويّة لازالت قائمةً ما دام في الإسلام المحمّدي، أو في إسلام القرآن، رجالٌ مفكّرون وأقلامٌ نابضةٌ بالحقّ والصدق، ولا ريب أنّ المواجهة الفكريّة ـ أو قل: الصراع الفكري بين النقيضين (الإسلام المحمّدي والإسلام الأموي) ـ هو من أصعب وأعقد المواجهات الواقعة والتي ستقع، لأنّها تمسّ التراث الإسلامي بشكلٍ مباشرٍ، فالصراع ليس صراعاً بين أشخاصٍ نترضّى عن بعض وننقد بعضاً آخر، وإنّما المسألة أخطر بكثير، فهو صراعٌ بين فكرين ومنظومتين ومنهجين

متعاكسين لا يلتقيان أبداً، ولو كانت هنالك فرصةٌ للّقاء والتقارب والتوحّد لوقع ذلك بين عليّ ومعاوية من قبل، وهما بحسب الفرض من الصحابة، فما الذي دعا عليّاً عليه السلام أن لا يُولِّي معاوية ليومٍ واحدٍ على الشام؟ وما الذي دعا معاوية أن يقود جيشاً جرّاراً لحرب عليٍّ في صفّين؟

الجواب هو أنّ عليّاً عليه السلام كان يعلم جيداً أنّ معاوية ومنهجه لا يمكن أن يلتقي معه في نقطةٍ مشتركةٍ، وهذا المعنى اكتفى عليٌّ بترجمته من خلال تنحية معاوية عن ولاية الشام، وأمّا معاوية فلم يكتفِ بالرفض والبقاء في ولايته متمرّداً وإنّما ساق جيشه لأنّه يعلم بأنّه لا توجد نقطةٌ واحدةٌ مشتركةٌ بينه وبين عليّ عليه السلام، فالإمام عليّ يريد الإسلام والقرآن وسنّة النبيّ، ومعاوية يريد عشيرته وجاهليّته الأولى والعودة إلى ما وراء تاريخ البعثة، ورائد التضحية عليّ عليه السلام حجرٌ في كفّ الرسول صلّى الله عليه وآله، ورائد النصب معاوية حجرٌ في كفّ أبي سفيان، فكيف يلتقيان؟!

إنّ المواجهة السياسيّة قد تبدو هي الخطّ الأوّل في المواجهة، وهذا صحيحٌ جدّاً من الناحية الإعلاميّة، ولكن من الناحية الميدانيّة نجد أنّ الصراع الفكري هو سيّد الساحة، بل لا حلّ للمشكلة في إطارها السياسي، لأنّ جميع الحلول المطروحة ما هي إلّا حلولٌ نفاقيّةٌ أو توافقيّةٌ ضعيفة العُرى، وأمّا الحلول الناجعة فتكمن في إطارها الفكري، ولا ريب أنّ الحلول لا تسجّل بكلمةٍ أو بلقاءٍ أو بمؤتمرٍ وما شابه ذلك، فهذا حسنٌ على أيّ حال، إلّا أنّه لا يؤدّي إلى حلولٍ واقعيّةٍ، فالحلول الواقعيّة بصورتها الإجماليّة تكمن في الخلاص من إسلام محوريّة الحديث والانتقال إلى إسلام محوريّة القرآن، ولهذا الانتقال دوافع منطقيّةٌ وعقلائيّةٌ، كما أنّ له آلياتٍ ومعايير، كنّا قد تعرّضنا لكثيرٍ منها في دراساتٍ أُخرى[1].

---

(١) في سلسلته الفكريّة (إسلام محوريّة القرآن)، والذي طرح فيه مشروعه الإصلاحي

وهنا لابدّ من التنبيه إلى مسألةٍ في غاية الحسّاسيّة والخطورة، وهي أنّ إدامة الصراع السياسي قائمةٌ بالدرجة الأساس على الاسترفاد من الصراع الفكري، ولذلك أصحاب الخصومات السياسيّة لا يهتمّون كثيراً للمعالجات الفكريّة إلّا بالقدر الذي يحفظ كيانهم، فإذا كان التقارب الفكري مشتملاً على مشروعٍ فيه رفعةٌ لخصومهم السياسيّين فإنّهم سوف يقفون بالمرصاد لكلّ الحلول الفكريّة، وغالباً ما تكون حلولهم في هذا المجال هي السجن أو النفي أو القتل.

من هنا لابدّ من الالتفات إلى المسؤوليّة التاريخيّة والتكليف الشرعي في ضرورة عدم تمكين الساسة من قيادة المشاريع الإصلاحيّة الفكريّة، لأنّ أصل الإصلاح الفكري لا يتلاءم مع أجنداتهم، فهم ـ بعبارةٍ موجزةٍ ـ يعتاشون على إدامة الصراع الفكري، وإذا كان هنالك قبولٌ لمنهجٍ فكريّ فهو المنهج الموافق لهم، وليس هنالك فرقٌ كبيرٌ في هذا التوجّه المكيافيلي بين الفكر السياسي الليبرالي وبين الفكر السياسي الديني للإسلاميّين المتصدّين في الحكم.

الانحطاط الفكري في ظل السلفيّة التكفيريّة

إنّ النزوح إلى الوراء والاحتكام المطلق إلى شخوصٍ قد عاشوا قبل أربعة عشر قرناً، وهم لم يبلغوا العصمة ولم يرد نصٌّ في لزوم متابعتهم، ما هو إلّا إلغاءٌ للعقل ونتاجه ومعطياته، وتقويضٌ لكلّ المنتج الإنساني، وإلغاءٌ لخصوصيّات كلّ عصر، وهذا هو الجمود الفكري، بل هو تعبيرٌ آخر عن الانحطاط الفكري، بمعنى الاستسلام إلى قاعدة التقليد المطلق لظروفٍ غير ظروفنا، ولمستوياتٍ ذهنيّةٍ لا ترقى إلى مستويات العصر.

للتراث الديني، وسوف تعرض هذه السلسلة ـ في مستواها النظري ـ في خمسة أجزاء مستقلّة بعناوين، وستجمع ـ فيما بعد ـ في مجلّدين كبيرين، تحت عنوان: «المرتكزات الأساسيّة لإعادة قراءة التراث الروائي الشيعي». والكتاب في أجزائه الخمسة قيد الطبع.

فإعمال الأفهام السلفيّة ودوران الأحكام الشرعيّة والرؤى التفسيريّة في فلكها هو تعبيرٌ آخر عن التسليم بالقضاء على كلّ منتجٍ حضاريٍّ معاصر، وهذا هو الانحطاط الفكري، ولا يُراد بالانحطاط جانبه الأخلاقي ـ والعياذ بالله ـ وإنّما المراد هو التردّي الفكري إذا ما ألغينا عقولنا وصرنا مُقلّدةً لكلّ ما يقوله فلانٌ وفلانٌ في الفكر والعقيدة والشريعة والأخلاق.

وهنا تحضرنا كلمةٌ ثمينةٌ للإمام الصادق عليه السلام تقف سدّاً منيعاً بوجه الانحطاط الفكري، وهي قوله: «**إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا**»[1]، فالآية لا تُختصر بمصداقٍ واحدٍ ولا بفهمٍ واحدٍ فرضته ظروفٌ معيّنةٌ، ولذلك نجده يقول في كلمة أُخرى بعد أن سأله أبو بصير عن معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ (الرعد: ٧)، يقول عليه السلام: «**لو كانت إذا نزلت آيةٌ على رجلٍ ثمّ مات ذلك الرجل ماتت الآية، مات الكتاب، ولكنّه حيّ يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى**»[2].

من هنا نفهم أنّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ (الحجرات: ٢)، شاملٌ لكلّ مَن رفع صوته فوق صوت النبيّ صلّى الله عليه وآله الواصل إلينا في كلماته وسنته، فمَن قدَّم رأيه على رأي النبيّ صلّى الله عليه وآله فإنّه يرفع صوته فوق صوت النبيّ، وهذا ما له صلةٌ وثيقةٌ بالإجراءات والتدابير النبويّة، فأُولئك الذين قابلوا هذه التدابير بإجراءاتٍ مضادّةٍ قد رفعوا صوتهم عالياً فوق صوت النبيّ صلّى الله عليه وآله، بل لم يتركوا

---

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص٢٠٤.

(٢) الأُصول من الكافي، للكليني: ج١ ص٤٧٢ ح٥٠٧.

في أوساطهم لصوت النبيّ نبرةً ولا حشرجةً، فالآية ليست مختصّةً بأعرابيّ أو صحابيّ رفع صوته فوق صوت النبيّ، وإنّما هي شاملةٌ لكلّ صوتٍ ورأيٍ مرفوعٍ فوق صوت النبيّ، ولك أن تسأل: ماذا عن كهف النفاق الذي كان يقول في محضر عثمان: «لا جنّة ولا نار، وإنّما هو الملك»؟ وماذا عن باني صرح الأمويّة القائل: «لا والله إلّا دفناً دفناً»؟ وماذا وماذا؟؟ فهل هذا إلّا رفعٌ صارخٌ لصوتٍ حاقدٍ تتنفّر منه النفوس، فوق صوت النبوّة؟

وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١)، فإنّها لم تمت بموت أبي لهب، فقد ذهب أبو لهب إلى مصيره المعلوم وبقيت الآية تتلقّف كلّ مَن رفع يده بكلمةٍ أو فكرةٍ أو نظريّةٍ قوّضت التدابير النبويّة، من السابقين واللاحقين والمعاصرين وإلى يوم القيامة.

إنّ الإسلام حاضنتنا، والقرآن دستورنا، وسنّة المعصوم مرشدنا، فلا نلغي عقولنا بأخذ ذلك كلّه عن أفهامٍ قاصرة، ولذلك لابدّ من الحضور الفكري المعاصر بكلّ معطياته وظروفه وملازماته، وأمّا الانكفاء على مقولات السلف فإنّه لا يمثّل الدين بوجه، فضلاً عن كون العود له يمثّل لنا انحطاطاً فكريّاً صارخاً.

وعليه فإذا كانت السلفيّة تزعم بأنّها تريد إعادتنا للوراء لأخذ الدين وفهمه من أفواه السلف من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فهم مصداقٌ أبرز لما قدّمناه من الانحطاط الفكري، وهذا ما تقرّه لنا رؤاهم المنقولة وفتاواهم البائسة. يحملون منظومةً واحدةً، قوامها التكفير والتضليل والتبديع. فإن قلت كيف فهمتم ذلك؟ أجابوك بداهة: قال شيخ المحدّثين ابن حنبل؟ قال شيخ الإسلام ابن تيميّة! قال رجل الإصلاح ابن عبد الوهّاب! وهكذا.

ونحن لا نريد أن نتهكّم بهذه الكلمات، ولكنّها عصارة واقعٍ بائسٍ ومريرٍ، فالخروج عن المظلّة الأمويّة هو خروجٌ عندهم عن الإسلام، والخارج مبتدعٌ وواقعٌ في فتنة، ومُستحقٌّ للكلمات المأثورة والحاضرة في نظامهم الداخلي من قبيل:

«شرك، كفر، ضلالة، جحود، بدعة، فتنة، قتل، سحل»، فإنّها أشبه ما تكون بالسلام الجمهوري الذي يحفظه حتّى الأطفال في مدارسهم.

السلفيّة التكفيريّة تدبير أمويّ لمحو النبوّة

في ضوء ما تقدّم ـ بإجماله وتفصيله ـ ينتج عندنا: أنّ السلفيّة التكفيريّة هي الحاضنة الحقيقيّة للجاهليّة الأمويّة التي ما جاءت إلّا لإكمال مسلسل تقويض أركان الإجراءات والتدابير النبويّة في حفظ الخلافة الإلهيّة، وأنّهم لأشدّ خطراً من الأمويّة نفسها، فالأمويّة كانت تعيش في أزمنةٍ تعمّ فيها الأميّة والفقر العلمي والانفتاح المعرفي، وكانت سلطة السيف هي الحاكمة فيه، وأمّا في عصرنا هذا، وهو عصر العلم والمعرفة والانفتاح على الآخر، فإنّ سلطة السيف والتقتيل والتكفير والتبديع والتضليل ولأقلّ الأمور من الممارسات العامّة، ما هو إلّا إجراءٌ أمويّ متخلّفٌ في فكره، متطوّرٌ في شراسته، وهو هدرٌ لكلّ الطاقات العلميّة والمعارفيّة، ولذلك فما نعتقده في السلفيّة التكفيريّة هو أنّها ليست مجرّد حلقةٍ في سلسلة تقويض التدابير النبويّة، وإنّما هي حلقةٌ واضحةٌ وصريحةٌ في تقويض نفس النبوّة، كما هو حال الأمويّة الآنفة، فالأمويّة والسلفيّة التكفيريّة تلتقيان في العمل المشترك على محق النبوّة وإبدالها بنبوّة بني أُميّة فكراً وعملاً، فضلاً عن نقطة الاشتراك الصريحة بينهما، وهي العمل على تقويض نفس الإجراءات النبويّة، فتمجيد معاوية الباغي هدمٌ للنبوّة، وتمجيد يزيد الفاجر الفاسق هدمٌ للنبوّة، والانصياع التامّ لمقولات النواصب الحقيقيّين هدمٌ صريحٌ للنبوّة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

السلفيّة التكفيريّة تدبير أمويّ لإقصاء الخلافة الإلهيّة

وإذا كانت السلفيّة التكفيريّة تعيش في غفلةٍ من التاريخ، وهي منكّبةٌ على تقويض النبوّة وإقرار البناءات الأمويّة المنافقة، وتقويض الإجراءات النبويّة الخالصة في حفظ الأمّة من التيه والضلال بتنصيب الخليفة الشرعي، فإنّها ـ أي:

السلفيّة التكفيريّة ـ هي التعبير الدقيق والعميق والمصداق المطابقي التامّ للأمويّة المعاصرة القائمة على الأركان والأصول المتقدّمة، والتي كان منها دفن كلّ مآثر آل البيت والطعن فيهم، والعودة إلى الجاهليّة بعباءةٍ أمويّةٍ، عملاً بسياسة «دفناً دفناً»، وإبدال المعطى النبويّ بالتخلّف الأموي، كما تقدّم بيانه.

إذن فالسلفيّة التكفيريّة هي العباءة الأمويّة المعاصرة، وما يدّعونه من الرجوع إلى الإسلام الصافي الطاهر، هو تعبيرٌ آخر للرجوع إلى الأمويّة السفيانيّة المروانيّة، وهذا كلّه تعبيرٌ صريحٌ عن إدامة مسلسل هدم النبوّة وتقويض إجراءاتها، وإحلال القتلة الجهلة محلّ النفوس الطاهرة المطهّرة، فأُمّ المؤمنين أُمّ سلمة الجليلة القديرة الزكيّة الطاهرة لا ترتقي عندهم في الإجلال والتقدير إلى ما ينبغي أن يكون لها! وليس ذلك إلّا لذنبٍ عظيمٍ قد اقترفته أُمّ سلمة في الرؤية الأمويّة والسلفيّة التكفيريّة، وهو حبّها الخالص لأهل البيت، وخدمتها للإمامين الحسن والحسين! ولذلك فما يرونه في تعظيم أُمّ المؤمنين عائشة ليس لأنّها زوجةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وليس لأنّها بنت الخليفة الأوّل، وإنّما لأنّها فاتحة الحروب بوجه خصم الأمويّة عليّ بن أبي طالب، وبقدر البغض لعليّ وآل عليّ والحرب ضدّ عليّ وآل عليّ، يكون قربك وتكون منزلتك في الرؤية الأمويّة والسلفيّة التكفيريّة.

جديرٌ بالذكر: أنّ هنالك ذنباً آخر للسيّدة أُمّ سلمة، لازال راكزاً في الذاكرة الأمويّة والسلفيّة التكفيريّة، وهو وقوفها بوجه عائشة عندما أرادت الخروج على إمام زمانها المفترض الطاعة عليّ بن أبي طالب، حيث ذكّرتها بكلمة رسول الله صلّى الله عليه وآله فيها: «**ليت شعري أيّتكنّ صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فينبحها كلاب الحوأب، يُقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثمّ تنجو بعد ما كادت**»[1]،

---

(١) المستدرك على الصحيحين، النيسابوري: ج٣ ص١٢٠؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٤٠ ص٢٩٨ ح٢٤٢٥٤، إسناده صحح؛ مجمع الزوائد: ج٧ ص٢٣٤.

أي: تنجو من القتل في تلك المعركة وكادت أن تُقتل، وقد حفظ لنا التاريخ بأنّه لم تخرج واحدةٌ من زوجات النبيّ على جملٍ لحرب خليفته، ولم تنبح واحدةٌ منهن غير عائشة بنت أبي بكر، ومن باب التذكير بوقوع ذلك جاءت الأخبار الصريحة الصحيحة بأنّها لمّا وصلت البصرة ونبحتها كلاب الحوأب تذكّرت عائشة قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وأيقنت أنّها مصداق الحديث، فقالت: «ما أظنّني إلّا راجعةً؛ سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لنا: **أيّتكن ينبح عليها كلاب الحوأب**. فقال لها الزبير: ترجعين؟! عسى الله أن يصلح بك بين الناس»[1]، فاستجابت لكلمة الزبير وخلّفت تحذير الرسول صلّى الله عليه وآله لها وراءها ظهريّاً![2].

إذن فذنب أُمّ سلمة هو معارضتها لعائشة في خروجها على خليفة رسول الله عليّ بن أبي طالب، ولا ندري لو خرجت عائشة على عثمان ففي أيّ ميزانٍ

قال الهيثمي في هذا الخبر: «رواه البزّار ورجاله ثقات». [انظر تفصيل المسألة في كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ج١ ص٨٤٦، رقم: ٤٧٤، حيث ذكر هنالك تصريحاتٍ مهمّةً تتعلّق بهذا الموضوع].

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الحديثة: ج٤١ ص١٩٧ ح٢٤٦٥٤؛ المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ج٣ ص١٢٠؛ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي: ج٧ ص٢٣٤. قال الهيثمي في هذا الخبر: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) يُنظر تفصيل المسألة: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٦ ص٢١٧؛ حيث ستقرأ هنالك في ذيل قصّتها الطويلة قول الرسول صلّى الله عليه وآله الذي حذفه الرواة السابقون: «**يا ليت شعري، أيّتكن صاحبة الجمل الأذنب، تنبحها كلاب الحوأب، فتكون ناكبةً عن الصراط!**»، تقول أمّ سلمة: أعوذ بالله وبرسوله من ذلك، ثمّ ضرب على ظهرك ـ أي: ظهر عائشة ـ وقال: «**إيّاك أن تكونيها**»، ثمّ قال: «**يا بنت أبي أميّة إيّاك أن تكونيها، يا حميراء، أمّا أنا فقد أنذرتك**»، قالت عائشة: نعم، أذكر هذا.

سيضعها بنو أميّة والسلفيّة التكفيريّة؟ لا شكَّ أنّه نفس المقام الذي وضعوا فيه محمّد بن أبي بكر، ومن الواضح أنّ محمّد بن أبي بكر ـ في المقاييس الأمويّة ـ هو رجلٌ خارجٌ على جميع دساتير الإسلام الأموي.

السلفيّة التكفيريّة بين ثقافة الشكل وضعف المضمون

نجحت السلفيّة بشكلٍ عامّ في إحياء التراث الروائي ذي الصبغة الأمويّة، فأشبعوه بحثاً وتحقيقاً، وقد غلب على هذه التحقيقات روح القصديّة[١]، فقدّموا لنا ثقافةً تحقيقيّةً رائعةً جدّاً على مستوى الشكل، وأمّا على مستوى المضمون فلازالت الأمويّة هي الخصم والحَكَم، وقد لاحظنا أنّ الكثير من المحقّقين في الروايات والتاريخ يمتلكون أدواتٍ معرفيّةً قيّمةً، ولديهم درايةٌ كبيرةٌ بأحوال الرجال، ولكنّ الأعمّ الأغلب منهم لم يخرج من عنق الزجاجة الأمويّة، فتجده يتخوّف جدّاً في النقد فضلاً عن الانكفاء تماماً عن الطعن، وإذا ما أعجبه حديثٌ يصبّ في الاتّجاه الأموي ووجد أنّ رواته غير ثقاتٍ أو أنّ الخبر متروك، تجده يتشبّث بسكوت فلان عنه، وعمل الآخر به. وهكذا، فلا تكون النتيجة نتيجةً تحقيقيّةً، وإنّما هي نتيجةٌ خاضعةٌ للتقليد القسري. وإذا ما وجدت محقّقاً منهم

---

(١) إذا قَدِم الباحث وهو مُعبّأ برؤىً سابقةٍ وقصديّةٍ مُتعمَّدةٍ يقدّمها بين يديه ويجعلها حاكمةً على تحقيقاته للنصّ، متناً وسنداً، فإنّه سيجعل النصّ محكوماً له لا حاكماً عليه، فيلتزم بما يُوافق هواه، وينبذ ما يُوافق النصّ، فالقصديّة هي عمليّة فرض النتائج المسبقة، وسبيل التخلّص منها يكمن في سلوك الموضوعيّة، بمعنى عدم التحيّز لفكرةٍ مسبقةٍ، وهذا الأمر قد يكون صعباً أو عسيراً، لاسيَّما في البحوث العقائديّة، إلّا أنّه ليس مستحيلاً، فالأمر بحاجةٍ إلى مواجهةٍ عمليّةٍ للتعصّب، ومراقبةٍ دقيقةٍ للانسياق غير المحسوس والغفلة عن توخّي الحقّ؛ وهذا كلّه إنّما يتحقّق لدى المحقّق الجادّ عندما يكون رائده الحقّ وليس ما يريد، أو ما يريده الآخر له. فإذا ما طلب الحقّ وأخلص النيّة في ذلك، وجده أمامه.

يخرج عن القيود الأمويّة شيئاً ما، فسرعان ما تنهال عليه التهم والتشكيكات، والتوصيفات بالجهل والغفلة، وما إلى ذلك ممَّا يفيض به النظام الداخلي للثقافة الأمويّة، وهذا السلفيّة القائمة وإن لم تُعدم منها بقيّة المذاهب الإسلاميّة، بما في ذلك مدرسة أهل البيت، حيث تجد المتطرّفين فيها يُوجّهون نقوداتٍ لاذعةً وطعوناً غير مُبرّرة، إلّا أنّ هذه السلفيّة لم تبلغ حدّ التيّاريّة والرواج بحيث تُشكّل اتّجاهاً حاكماً في الوسط العلمي، الشيعي والسنّي معاً، في حين أنّها في الوسط السلفي التقليدي المحكوم للإسلام الأموي تمثّل رواجاً وتيّاراً حاكماً على الحركة العلميّة بشكلٍ كاملٍ أو شبه كامل.

إنّ هذه التبعيّة التاريخيّة لا تكمن سوأتها في نفس التبعيّة، فالمسلمون جميعاً يُتابعون القرآن والسنّة الشريفة، وهي تبعيّةٌ تاريخيّةٌ صريحةٌ وصحيحةٌ، وإنّما السوأة تكمن في متابعة المضامين الخاوية التي تركها الإسلام الأموي، فالتبعيّة للاتّجاه الأموي هي الخروج الفاضح عن مقتضيات النصوص الدينيّة، قرآناً وسنّةً، وما يُقدِّمه السواد الأعظم من مُحقِّقي السلفيّة هو إيجاد التبريرات والتوجيهات للانحرافات الخطيرة للاتّجاه الأموي، وإلَّا لا يوجد عاقلٌ منصفٌ يتوقّف في كون معاوية وجيشه المنقاد في صفّين كانوا بغاةً ومنحرفين ومنافقين، فمن أين يأتي الترضّي على البُغاة لولا التوجيهات الأمويّة غير الشرعيّة، فيُخرِّجون للباغي معاوية وصاحبه عمرو بن العاص بأنّهما كانا مجتهدين، فإن أخطأ أحدهما فله أجرٌ واحدٌ، وإن أصاب فله أجران!

ونحن لم يتّضح لنا وجه الاجتهاد عندهم، وإذا كان التوجيه والتبرير يتحقّق بمجرّد دعوى الاجتهاد فإبليس على القاعدة الأمويّة قد اجتهد أيضاً، فيكون له أجرٌ أمويّ خالص!

إنّ قاعدة الاجتهاد هذه لا تُبقي في الدين حجراً على حجر، وكيف يكون الفاسق مجتهداً مأجوراً؟ وكيف يكون الباغي على الإمام العدل مجتهداً وله أجر؟

وإذا كان كلّ هؤلاء مجتهدين فلماذا فسّق بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً، أوَليسوا هم أولى باتّباع قاعدة الاجتهاد الأمويّة في التبرير؟ فلِم لم يقل عليّ بأنّ معاوية أو فلاناً وفلاناً مجتهدون، ولهم أجرٌ واحدٌ؛ لأنّهم أخطأوا بحقّه؟ ولِمَ لم يقل معاوية نفسه ذلك في شأن خصومه؟

إنّ هذه القاعدة تكشف لنا بوضوحٍ عن ضعف المضمون الأموي، بل انعدامه، ونحن إنّما نوجّه النقود اللاذعة للاتّجاه السلفي ـ لاسيّما التكفيري منه ـ لأنّه يتقوقع في أُتون الفراغ الأموي، رغم أنّهم أجادوا في صياغة الظاهر، وهم لا يُبخسون في ذلك، ممّا يعني أنّ السلفيّة تملك أدواتٍ معرفيّةً جيّدةً، وتملك طاقاتٍ كبيرةً وإمكاناتٍ هائلةً، ولكنّها لا تملك نفسها، فهي ما زالت أسيرةً للنزعة الأمويّة المقيتة، بل هي أجيرةٌ له أيضاً.

ضرورة مواجهة السلفيّة التكفيريّة

بالرغم من كوننا لا نُرجّح اعتماد لغة المواجهة، ولكنّنا نجد أنفسنا مضطرّين في تعيين العلاج الناجع لأمراض الأمّة، فقد كان الرسول صلّى الله عليه وآله مبعوثاً رحمةً للعالمين، وليس نقمةً أو حرباً عليها، ولكنّه خاض أكثر من ثمانين غزوةً دفاعيّةً عن حقّ الإنسان في سلوك الاعتقاد الصحيح، فحرب رسول الله لقريش ليس لاستئصال شأفتهم، فهم أهله وعشيرته، وإنّما لرفع الموانع عن وصول كلمة التوحيد وصوت الحقّ للإنسان[١]، وهكذا ما نحن فيه، فإنما ندعو لمواجهة السلفيّة التكفيريّة، فكراً وثقافةً، وعقيدةً وشريعةً، وسلوكاً وتراثاً، لأنّهم صاروا موانع تحجب الناس عن وصول صوت الحقّ إليهم، فحربنا الفكريّة

(١) تعرَّض السيّد الأُستاذ إلى تفصيل المسألة في كتابه «منطق فهم القرآن»، حيث أثبت هناك أنّ جميع غزوات النبيّ وحروبه كانت دفاعيّة، وأثبت أنّه صلّى الله عليه وآله قد يقاتل دفاعاً عن كلمة التوحيد ونور الحقّ في قبال المانعين من وصول ذلك.

والثقافيّة معهم هي عين حرب رسول الله صلّى الله عليه وآله مع قريش.

ومن ثمّ فنحن نعي تاريخنا وحاضرنا، ونستشرف مستقبلنا، فإنّ ما مُكِّن للسلفيّة التكفيريّة في الأرض من الناس والمال والأرض سينطبق عليه ما رواه لنا أصدق ذي لهجة، أبو ذرّ الغفاري عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في بني أُميّة، وهو قوله: «**إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتّخذوا دين الله دخلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً**»[1].

من هنا نجد أنّ مسؤوليّة مواجهة السلفيّة التكفيريّة مسؤوليّةٌ دينيّةٌ وضرورةٌ أخلاقيّةٌ، وقيمةٌ إنسانيّةٌ، كما كانت حرب رسول الله صلّى الله عليه وآله ضدّ أعدائه، فإنّها كانت دينيّةً وأخلاقيّةً وإنسانيّةً، وهذه الحرب الفكريّة والثقافيّة من قبلنا لا تخرج عن كونها ردّ فعلٍ لفعلٍ هم بدأوه، فالأمويّة التكفيريّة تاريخيّاً كانت هي المسيئة للآخرين، وهكذا ورثتها، فإنّهم لا ينفكّون عن مهاجمة السواد الأعظم من المسلمين، كما هاجم معاوية بأمويّته وسفيانيّته، السواد الأعظم من المسلمين، وقد استخدم معاوية سلاحي السيف والمال، وهكذا ورثتهم المعاصرون، فسلاحهم السيف أو المال، وبذلك تكون مواجهتهم مسؤوليّة الجميع، أعني مسؤوليّة الأمّة بعلمائها ونخبها وقواعدها، والمُتقاعس فيها متقاعسٌ عن بناء مستقبل الأمّة، فليس من الإنصاف ترك مستقبل الأمّة بيد أمويّةٍ تكفيريّةٍ قتلت العباد، وأهلكت البلاد، ونفَّرت المسلمين عن إسلامهم، فضلاً عن غيرهم.

السلفيّة التكفيريّة وتزييف الوعي

إنّ خطورة السلفيّة التكفيريّة على مرّ العصور ـ كما تقدَّم ـ هي كونها تقف حائلاً عن وصول صوت الحقّ، ومن ملامح هذه الموانع التاريخيّة: تزييف الوقائع،

---

(١) تقدّم تخريجه من مصادر الفريقين.

وتزييف تاريخ الشخصيّات الإسلاميّة، وهذا هو مصداقٌ بارزٌ لتزييف الوعي، فخلق مناقب وصنع بطولاتٍ لشخصيّات سيّئةٍ هو نوعٌ من تزييفٍ للوعي، كما أنّ طمر المناقب وكتم البطولات لأُناسٍ قام الإسلام على أكتافهم هو تزييفٌ للوعي، بل هو قتلٌ للتراث وتحطيمٌ للإنسانيّة، لأنّه تزييفٌ يترك في النفس تناقضاتٍ كثيرةً وخطيرةً، ولنأخذ شاهداً على ذلك في شخصيّتين لا شكّ في كون إحداهما كانت مدافعةً عن النبيّ والإسلام والمسلمين، ولاقت في سبيل ذلك ألوان العذاب، وهي شخصيّة الصحابي الجليل أبي طالب بن عبد المطلب، فهذا الصحابي كفل النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقد شمله الله تعالى بقوله: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى**﴾ (الضحى: ٦)، أي: وجدك يتيماً بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها، فآواك بضمِّك إلى عمّك أبي طالب[١]، وقد بذل أبو طالب مهجته وقدّم فلذات كبده في نصرة الإسلام، وكان يُنشد في قريش[٢]:

ودعوتَني وعلمتُ أنّك صادقٌ ... ولقد صدقتَ فكنتَ قبلُ أمينا

ولقد علمتُ بأنّ دين محمّدٍ ... من خير أديان البرية دينا

ثمّ تسوقه قريش مع النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى شعب أبي طالب، وهو رجلٌ طاعنٌ في السن ناهز الثمانين عاماً، فيتحمّل الأذى والجوع والعطش والإساءات والشتائم، ثمّ يموت في الشعب شريداً، ويقوم النبيّ صلّى الله عليه وآله بتجهيزه ودفنه، وفي كلّ ذلك دلائل وبيّناتٌ على إسلامه، ثمّ يُطالعنا الصوت الأموي المقيت بلوائح التكفير لأبي طالب! والله ما تكفيره لنفسه وإنّما لأنّه كان أباً لعليّ بن أبي طالب، فدفع أبو طالب ثمن عداء الأمويّة لعليّ، ولو كان أبو طالب أباً لمعاوية أو لخالد أو لهند لمجّدوا به وقالوا ما قام الإسلام إلّا

---

(١) انظر: تفسير الجلالين: ص٨١٢، تفسير ابن كثير: ج١٤ ص٣٨٤.

(٢) انظر: الإصابة: ج٧ ص١٩٨، رقم: ١٠١٧٥، ترجمة أبو طالب بن عبد المطلب.

بكفالته وإعالته لرسول الله!

ومن غرائب معاوية نفسه، وهو المُتصيّد في الماء العكر: أنّه لم يجرؤ أبداً في نعت أبي طالب بالكفر، مع أنّه كان كثيراً ما يُمازح عقيل بن أبي طالب فيُعيّره بكفر عمّه أبي لهب، ولا يذكر أبا طالب بخيرٍ ولا شرٍّ، فلو كان أبو طالب عنده كافراً فإنّ التعيير بكفره أقوى لحجّته وأدحض لحجّة عقيل، فما الذي منَع معاوية من التصريح أو التلويح بكفر أبي طالب لولا علمه المسبق بإسلامه، بل بسابقته في الإسلام؟[1].

وشاهدٌ آخر يقطع الشكّ باليقين، وهو كلمةٌ أرسلها الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية نفسه، يُقدِّم فيها أبا طالب على أبي سفيان، فلو كان أبو طالب بزعمهم الباطل كافراً وكان المنافق أبو سفيان مسلماً بزعمهم الباطل أيضاً لما جاء للإمام عليّ عليه السلام أن يُقدِّم كافراً على مسلم، حيث يقول عليه السلام:

---

(١) روي أن معاوية قال يوماً لعقيل بن أبي طالب: يا أبا يزيد! أين يكون عمّك أبو لهب اليوم؟ فقال له: إذا دخلت جهنّم، فاطلبه تجده مضاجعاً لعمّتك أمّ جميل بنت حرب بن أميّة. [انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج١١ ص٢٥٢].
وفي خبرٍ آخر أنّه قال له: أين عمّك أبو لهب يا عقيل؟ فأجابه عقيل فوراً: يا معاوية، إذا دخلت النار فمل عن يسارك قليلاً، تجده مفترشاً عمّتك أمّ جميل. [العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: ج٢ ص٣١٥].
ونِعْمَ ما تساءل حوله بعض الكتّاب المعاصرين قائلاً: «فما الذي كان يحوج معاوية إلى أن يعدل في هذا الإحراج إلى أبي لهب، فيحيق به مكره كما حدث له، ويترك أبا طالب لو أن هناك أدنى شكٍّ في إسلامه؟ حيث كان حينئذٍ، سيضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ، يحرج عقيلاً، ويشهر بخصمه الألدّ عليّ عليه السلام دون أن يدعَ لعقيل فرصة الردّ عليه بما يفحمه كما حدث بالنسبة لأبي لهب. أفلا يدلّ هذا وحده دلالةً أكيدةً على أن كلّ ما روي في شأن عدم اسلام أبي طالب ـ فيما بعد ـ كان من قبيل الوضع وتزييف الحقيقة والافتراء على الواقع؟» [عقيدة أبي طالب، للسيّد طالب الرفاعي: ٤٩].

«ليس أميّة كهاشم. ولا حرب كعبد المطلب. ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحقّ كالمبطل...»[١].

وأمّا الشخصيّة الثانية فهي أبو سفيان صخر بن حرب، فقد تواترت الأخبار على أربعة أمورٍ فيه، وهي:

الأوّل: أنّه لم يدّخر وسعاً ولا مالاً ـ وهو البخيل الشحيح ـ في حربه على الإسلام، وكان يتفنّن في تعذيب المسلمين في مكّة، وكان يصيح في أُحد «أُعلُ هبل»، وساند النصارى واليهود في حربهم ضدّ الرسول صلّى الله عليه وآله.

الثاني: أنّه لم يسلم رغبةً منه، وإنّما كان إسلامه عنوةً وكرهاً، بعدما وجد السيف يلامس رقبته والنطع جلده.

الثالث: أنّه بقي على نفاقه، بل صار كهفاً للمنافقين في المدينة منذ أن أعلن إسلامه الصوري[٢].

الرابع: أنّه القائل في حضرة عثمان، يوم بُويع لعثمان بالخلافة ما يدلّ على كفره، فقد روى الشعبي أنّه: لما دخل عثمان رحله بعد عقد البيعة له، دخل عليه بنو أميّة حتّى امتلأت بهم الدار، ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحدٌ من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذابٍ ولا حسابٍ، ولا جنّةٍ ولا نارٍ، ولا بعثٍ ولا قيامةٍ، إنّما هو الملك**!**[٣].

وبعد ذلك تُطالعنا الرؤية الأمويّة لأبي سفيان، بأنّه صحابيّ جليل، ومن سادات المسلمين، وأبو الملوك والخلفاء!

---

(١) نهج البلاغة: ج٣ ص١٧.

(٢) مرَّ بنا قول ابن عبد البرّ: «كان أبو سفيان كهفاً للمنافقين منذ أسلم».

(٣) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٩ ص٥٣؛ تاريخ الطبري: ج٨ ص١٨٥.

والكلام هو الكلام في زوجته آكلة الأكباد هند بنت عتبة! التي كانت تُصرّح ببغضها لأهل البيت وتتغنّى بقتلاها في بدر في زمن حكومة ابنها معاوية![1].

أليس في مثالنا هذا في هاتين الشخصيتين تزييفٌ للوعي؟ وإطمارٌ للبصيرة؟ وقتلٌ للفضيلة؟[2].

إنّ المسألة ليست مسألة أبي طالب ولا مسألة أبي سفيان وتحديد مصيرهما، وإنّما هي منظومةٌ تعمل بمهنيّةٍ عاليةٍ على تزييف الوعي، الذي هو تعبيرٌ آخر عن طمر جهود النبوّة وتضحيات العترة الطاهرة والصحابة الأجلّاء.

فإذا ما ثبت لنا أنّ السلفيّة التكفيريّة والأمويّة التاريخيّة دأبها وعملها قائمٌ على تزييف الوعي، فكيف لا نعمل على مواجهتها؟ وكيف لا نستشعر بخطورتها؟ وكيف لا نقدّم خطوةً في اتّجاه تحييدها؟ وبالتالي فالمواجهة مع السلفيّة التكفيريّة والأمويّة التاريخيّة هي مواجهةٌ دفاعيّةٌ عن الوعي.

---

(١) يروى أنّها خاطبت عقيلاً في عهد ابنها معاوية: يا بني هاشم لا يحبّكم قلبي أبداً، أين عمّي؟ أين أخي؟ كأنّ أعناقهم أباريق الفضّة، ترى آنافهم الماء قبل شفاههم، وأجابها عقيل: إذا دخلت جهنّم فخذي على شمالك [انظر: شرح نهج البلاغة: ج١١ ص٢٥٢].

(٢) وهنا تحضرني قصّةٌ لطيفةٌ تتعلّق بكاتب تونسيّ من الإسلاميين، قد سمعتها منه مباشرةً، فقد دخل مدرسة أهل البيت بسبب أبي طالب، كان يقول: شيَّعني أبو طالب، حيث كان يقرأ في أوّل شبابه أنّ أبا طالب قد كفل النبيّ وكان مناصراً له، وعاش معه في الشعب، وأشرف النبيّ على دفنه، ثمّ يتفاجأ بكونه مات على الكفر، يقول هذا الكاتب بأنّه كان يستشعر عدم تحقّق العدل الإلهي في ذلك، فكيف لهذا الشيخ الجليل المجاهد والمناضل يموت كافراً، وكيف لأبي سفيان ـ هذا المجرم القاتل والمنافق ـ يموت مسلماً؟!!

وبعد مضيّ سنواتٍ يأتي صديقٌ كان قد زار العراق واطّلع على واقع حال أبي طالب، فجاء لصاحبه وقال: يوجد في الإسلام مذهبٌ يُناصر صاحبك أبا طالب ويرى أنّه من أهل الجنّة، وهنا ينطلق الكاتب للبحث عن هذا المذهب، وهو مدرسة أهل البيت فيدخل فيها وهو يقول: شيَّعني أبو طالب.

هذا وقد كنّا نبَّهنا إلى أنّ التزييف الأمويّ الجديد ـ الحنبلي التأسيس، التيمي التنظير، الوهّابي التطبيق ـ يريد منّا أن نحمل ثقافتنا عن أهل البيت برؤيته الناصبيّة في واقعها، فنسمع ونطيع ولا نسأل ولا نتأمّل، إنّه تزييفٌ لا يمكن له أن يحقّق نجاحاته إلّا بتعطيل العقل تماماً، ولذلك تجد أتباع الأمويّة المعاصرة يُساقون كالخراف إلى مذبح الولاء الكاذب الذي يتساوى فيه بحسب الظاهر عليّ مع معاوية، والحسين مع يزيد، وأمّا بحسب الباطن، ومن خلال مقولات تيميّة وهابيّة يُقدّمون عليّاً بصورة رجلٍ شاذٍّ وصاحب فتنة، ويُقدّمون حسيناً بصورة رجلٍ خارجٍ على إمام زمانه، إنّها مصالحةٌ لا تبقي ولا تذر من الحقّ شيئاً، وبهذه الرؤية المزيّفة يريدون النفوذ إلى وجدان المسلم بأسلحتهم الضاربة، التفسيق والتضليل والتكفير والتقتيل والتمثيل! ليكون القارئ أمام طريقين، إمّا متابعتهم في النصب والكذب وإبطال الحقّ، وإمّا التفسيق أوّلاً والقتل والتمثيل آخراً.

إنّ هذا النمط من التزييف السلفي التكفيري ما هو إلّا أمويّةٌ متطوّرةٌ، أو بحسب ما نصطلح عليه بما وراء الأمويّة! فالأمويّة السابقة لم تكن تدافع عن دين، وإنّما هي تعمل للقضاء على الدين، وصناعة جيلٍ جديدٍ بإسلامٍ أمويّ، وأمّا السلفيّة التكفيريّة (ما وراء الأمويّة) فإنّها تعمل للدفاع عن الدين، وهذا لا ريب فيه، ولكنّه الدين الأموي الذي صنعته الأمويّة السالفة بنطع السيف وشراء الذمم وكتم الحقّ المبين وفق قاعدة «لا والله إلّا دفناً دفناً».

الوعي الرسالي ضمانة الحفظ في المواجهة

لا ريب أنّ الوعي الرسالي هو الضمانة الحقيقيّة في مواجهة التزييف التاريخي، ونعني بالوعي الرسالي: الخروج من الشخصيّة الطائفيّة والفئويّة والحزبيّة، والدخول والكينونة في الشخصيّة الرساليّة التي كان يعيشها رسول الله صلّى الله عليه وآله، فما عاش لنفسه أبداً، فكان قوله وفعله ومطلق سلوكه تعبويّاً للحقّ وحده،

وتضحويّاً له ومن أجله، فلا يتنفَّس برئة العشائريّة ولا المناطقيّة ولا الفئويّة، كان عبداً لله وسيّداً للمرسلين، ولنا في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ وقدوةٌ لا يتقدّمها شيءٌ البتّة.

إنّ الوعي الرسالي هو الذي حوَّل تلك القلوب التي قُدَّت من حجرٍ في وأدها لبناتها، إلى قلوبٍ مخبتةٍ، تنكسر لصرخة يتيم، ويُغشى عليها لسماع الموعظة، وهذا الوعي هو الذي جعل المؤمنين ينظرون إلى الدنيا بعين الآخرة، بعدما كانوا ينظرون للآخرة بعين الدنيا، وهو الوعي الذي محق الثقافة الرقميّة في التعاطي، وحوَّلها إلى الثقافة القيميّة، وصار الإنسان إنساناً بعدما كان أشبه ما يكون بالوحش الكاسر.

ومنه يتّضح: أنّ الصفات المقابلة تدلّ بالإنّ أنّ حاملها لا ينطوي على شيءٍ من الرساليّة، حتّى وإن بذل نفسه في ساحات الجهاد، أو قدَّم أمواله في نصرة الإسلام، فالوعي الرسالي ليس جهاداً أعمى ولا إنفاقاً أصمّ، وإنّما هو عمليّةٌ وقائيّةٌ من السقوط في وحل الدنيا، وعمليّةٌ علاجيّةٌ من براثن الماضي الْمُتخلِّف.

ولذلك فإنّ الوعي الرسالي لا يرتقي إليه الإنسان بكثرة المعلومات ولا بتنوّع الدراسات، وإن كانت هذه الأمور مطلوبةً؛ لأنّ الوعي لا يتوافق مع الجهل، وإنّما يرتقي إليه بالخلاص من التبعيّة للهوى، وبالتطهير من التبعيّة للولاءات غير الشرعيّة، وبعبارةٍ أُخرى: يرتقي إليها إذا جعل الله رقيباً عليه، ولم يكن أهون الناظرين إليه، والعياذ بالله تعالى.

الوعي الرسالي وعيٌ بالتدابير النبويّة

وفي ضوء ما تقدّم يتبيَّن أنّ من أبرز وأهم ملامح الوعي الرسالي: الانفتاح على الإجراءات والتدابير النبويّة، فالوعي بها بطانة الوعي الرسالي، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن نتصوّر وعياً رساليّاً حقيقيّاً وهو في منأى عن استيعاب الإجراءات النبويّة والعمل فيما تقتضيه؛ وعليه فمن خلَّف الإجراءات النبويّة

وراء ظهره ـ أيّاً كانت حجّته ومبرّراته ـ فإنّه تعبيرٌ صريحٌ عن ضمور الوعي، بل انعدامه؛ فإنّ إسقاط الإجراءات النبويّة هو تكريسٌ للجاهليّة، ومحقٌّ عمليّ للحقوق وتنصّلٌ تامّ عن الواجبات.

من هنا نجد أنفسنا مضطرّين ـ انطلاقاً من مقتضيات الوعي الرسالي ـ أن نقرأ النتاج المعرفي والسلوك العملي لكلّ المتصدّين في الساحة الإسلاميّة في ضوء درجات الوعي بالإجراءات النبويّة، وفي ضوء العمل بها، وإلّا ما افترقنا كثيراً ولا قليلاً عن أولئك الذين ناهضوا تلك الإجراءات وعملوا على تجميدها، بل وتزييفها، ولا ينبغي الاغترار كثيراً بالأسماء الكبيرة، قديماً وحديثاً، ولا بالمقامات المنسوبة، ولا بالإمكانات المتاحة، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يمتلك من الإمكانات سوى التأييد الإلهي له، ولم يصطفّ معه إلّا أُناسٌ رأتهم قريش الجاهليّة أنّهم لا خلاق لهم في الوجاهة، ولا يتمتّعون بأيّة قيمةٍ اجتماعيّةٍ، فهم الأراذل وضعاف الرأي؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧)، والملأ في نظر قريشٍ هم الأشراف من قومه، والأراذل هو الذين لا صوت لهم، وليس لهم رأي متبوع، مع أنّه هؤلاء الطاهرون كانوا يتمتّعون بالوعي الرسالي، فما أرعبتهم غطرسة قريش، ولا جذبتهم مغرياتهم، أعتقوا أنفسهم من متابعة الهوى، وعاشوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله وإنجاح مشروعه ونهضته الإنسانيّة التي حمل آخر ألويتها في سلسلة الأنبياء.

تصحيح مسار السلفيّة المعتدلة

وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٥)، فإنّ هنالك اتّجاهاً سلفيّاً معتدلاً، له قوامٌ أمويّ، ولكنّه يحاول الانفكاك عن التبعات التاريخيّة، ويحاول

أن يُقدِّم قراءاتٍ معتدلةً ـ ولو جزئيّاً ـ للدين والتراث والتاريخ، وعلينا مدّ اليد له والتعاون معه، بل علينا الوقوف معه طويلاً في عمليّة تصحيح المسار، وبذل كلّ ما نملكه من قدراتٍ مادّيةٍ ومعنويّةٍ في تدعيم هذا التيّار الناشئ، لأنّه تيّارٌ قادرٌ على توجيه العقل العامّ للبناء السلفي، فالسلفيّة لا تقبل من الأزهر شيئاً، ولا تقبل من الحوزات الشيعيّة صوتاً، فإذا ما نهض من عقر دارها توجّهٌ إصلاحيّ فعلينا التعاطي معه دعماً وتشجيعاً، ولا شكّ أنّ هنالك خلافاتٍ يعسر حلّها، وقراءاتٍ يصعب توجيهها بالنسبة إليهم، إلّا أنّهم بمجرّد الخروج من أُتون التكفير والتضليل والتقتيل يكونون قد قطعوا شوطاً طويلاً، وابتعدوا مسافةً كبيرةً عن النزعة الأمويّة التكفيريّة القاتلة، كما أنّ العمل على مساعدتهم لتصحيح المسار هو بنفسه عملٌ وقائيّ يمنع من عودتهم إلى الخلف، وهذا ما يؤكّد ضرورة الانفتاح عليهم، كما أنّ مقتضى الموضوعيّة هو الاستماع لهم بل والإنصات أيضاً، فإنّهم يحملون في جعبتهم رؤىً مستنيرةً، وعلى طالب الحقّ والحقيقة أن يتزوّد منها، فإنّ الأمّة قد مرّت في حقبٍ ملؤها التخلّف والجهل والغفلة، وقد ساعد الاتّجاه السلفي على الاهتمام بظواهر النصوص حفظاً وتلقيناً، فأخرجوا الكثير من أبناء الأمّة من الأمِّية إلى التعليم، وأهَّلوا كوادر كثيرة في هذا المجال، ولهم مراكز علميّةٌ هائلةٌ جدّاً، ومؤسَّساتٌ تهتمّ كثيراً بالتنمية البشريّة واكتشاف الطاقات الكامنة، وغير ذلك من الامتيازات، كما أنّ الكثير منهم يمتلك أخلاقيّات الصدق والتضحية وحسن المعاشرة، فلا يصحّ منّا ترك هذه المؤهّلات تلعب بها الأيادي التكفيريّة وتغريها في تعميق الشرخ في وسط الأمّة.

بداية الطريق

وعلى غير المعتاد سيكون ختم هذه الدراسة، حيث سيكون بمدّ اليد وتقديم خطوةٍ في طريق تبنّي وإحياء التدابير النبويّة، ولهذا الطريق أوّليّات ينبغي

الالتفات إليها، والتأمّل فيها، والتعامل معها بجدّيةٍ عاليةٍ، فإنّ المسألة لم تكن ولن تكون شخصانيّة، ولا مجرّد قضيّةٍ تاريخيّةٍ مضت عليها عدّة قرون، وإنّما هي قضيّةٌ حيَّةٌ نعيشها في أقوالنا وأفعالنا ونوايانا، وفي حاضرنا ومستقبلنا، وفي خلجاتنا وطموحاتنا، وهذا ما يجعلنا نؤكّد ونؤكِّد مراراً وتكراراً على ضرورة استيعاب هذه الإجراءات العظيمة التي تكشف عن عظمة الرسول صلّى الله عليه وآله، وعظمة الشخصيّة التي اجتباها الله تعالى لمنصب الخلافة الإلهيّة.

وأمّا الأوّليّات التي ينبغي الالتفات إليها وتبنّيها، فهي:

أوّلاً: ضرورة رصد الأنفاس الأمويّة في المتون التاريخيّة والحديثيّة والتفسيريّة للخلاص من التجهيل الأموي والقتل الصريح للوعي الرسالي.

ثانياً: ضرورة البحث الدقيق في الفراغات التي تركها بعض المؤرِّخين المعتدلين، وقد منعتهم سطوة الحكام الظلمة من التصريح، فتركوا لنا إشاراتٍ ولمحاتٍ نحتاج أن نقرأها بطريقةٍ تأمّليّةٍ وليس بطريقةٍ سرديّة.

ثالثاً: استيعاب النقاط المشتركة بين ملامح القتال النبويّ على تنزيل القرآن، وملامح القتال الولوي على تأويله، فذلك أمرٌ سيختصر أمام القارئ مهامّ رصد التناقضات التي أفرزها النكوص عن العمل بالإجراءات النبويّة.

رابعاً: التخلّص من هالة القداسة غير المُبرّرة، والتي خلقت لنا ركاماً من النظريّات الباطلة، لعلّ من أهمها ما يُسمّى بعدالة الصحابة والكفّ عما جرى بينهم، وغير ذلك من الانكسارات التاريخيّة في الوعي الرسالي.

هذا ما أردنا درجه والنظر فيه، آملين من علمائنا ومتعلّمينا ومتلقّينا أن يعوا بعمقٍ وظيفتهم ومسؤوليّتهم العظيمة في إعادة قراءة الإجراءات والتدابير النبويّة العظيمة، التي ما جاءت إلّا لحفظ الهداية لنا، فعمل بها قومٌ ونكص عنها آخرون.

الفصل العاشر

الثمرات والعبر في التدابير النبويّة

- مواجهة المتنطّعين
- عظمة شخصيّة الرسول صلّى الله عليه وآله
- الثمرات العلميّة والعمليّة للتدابير النبويّة
- ما ينبغي للعلماء فعله
- القراءة الموضوعيّة للتاريخ
- تزييف القداسة وقداسة الزيف
- كلمة الحقّ وحقّ الكلمة
- العلماء رهنٌ باتّباعهم للحقّ ونصرته
- ما ينبغي للنخب (من الباحثين والمحقّقين) فعله
- ما ينبغي للأمّة فعله
- الدعوة لتنقية التراث (الروائي)
- تبصرة
- مسك الختام

مواجهة المتنطّعين

ذكرنا[1] أنّ الخلاف والاختلاف قد يكون ناشئاً من العلم لا من الجهل نفسه! وهو الصراع القائم على فكرة القضاء على الأفضل، كما أشار القرآن الكريم لذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ (البقرة: ٢٥٣)، فهنالك صراعٌ واقتتالٌ متفرّعٌ على مجيء البيِّنات!

وقلنا بأنّ هنالك صراعاً مصيريّاً إيجابيّاً سيقع في قبال منطق الصراع في القضاء على الأفضل، وهو منطق الصراع لانتخاب الأفضل، والذي سينهض به الإمام المهديّ عليه السلام في صراعه مع مخلّفات التاريخ ومدوّناته المزيّفة وأتباعها المتنطّعين الذين سيجدون أنفسهم مندفعين للدفاع عن تنطّعهم التاريخي؛ قال تعالى: ﴿**وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ (البقرة: ٢٥٣).

هؤلاء المتنطّعون[2] اجتهدوا على كتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) في مقدّمته دام ظلّه، في هذا الكتاب.

(٢) وقد روي عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم أنّه قال: «**ألا هلك المتنطّعون، ألا هلك المتنطّعون، ألا هلك المتنطّعون**». [سنن أبي داود: ج٢ ص٣٩٣ ح٤٦٠٨؛ صحيح مسلم: ج٨ ص٥٨]. التنطّع مأخوذٌ من النطع وهو الغار الأعلى في الفم، التنطّع في الكلام: التعمّق فيه، مأخوذٌ منه، والمتنطّعون هم المتعمّقون المغالون في الكلام الذين يتكلّمون بأقصى حلوقهم تكبّراً، فهم المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. [لسان العرب: ج٨ ص٣٥٧]، وقد استعمل السيّد الأستاذ دام ظلّه كلمة التنطّع بمعنى المتجاوز على حدود الله، أي: في حقّ أولئك الذين اتّخذوا وصايا رسول الله صلّى الله عليه وآله ودين الله سخريّاً، فصنعوا لهم نصوصاً وتراثاً وأشغلوا الأمّة بذلك التنطّع عن تراثها الصحيح.

وآله ولم يجتهدوا فيها، فصنعوا تراثاً مناوئاً، وصنعوا تاريخاً مشوّهاً، وشقّوا للأمّة طريقاً أوقعها في مهالك تترى، فأنسوا الأمّة قرآنها، وتغاضوا عن سنّة رسولها، مستخفّين بوصاياه في ورثته الشرعيّين، ومحاربين لهم، متّخذينهم وراءهم ظهريّاً، فصار مثلهم كمثل قوم هود؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ (هود: ٩٢)، ولأنَّ هؤلاء المتنطّعين المُزيَّفين والمُزيِّفين ينتشرون في أصقاع الأرض، وهم حملة ألوية ذلك الانحراف التاريخي الخطير، فإنّ صفحات المواجهة لم تنتهِ بعد.

بعبارةٍ أخرى: إنّ ذلك الصراع والاقتتال التاريخي لم تطوه صفحات التاريخ، فهو ـ كما عرفنا ـ باقٍ إلى اليوم الموعود. وإذا ما كانت مقتضيات النبوّة الخاتمة أن تسجّل إجراءاتٍ وتدابير كثيرةً للكشف عن الزيف القادم، فإنّ من وظيفتنا الشرعيّة والأخلاقيّة: العمل على نشر تلك التدابير والدفاع عنها، أو علينا أن نُوجِد مناخاً مقاوماً عن تلك التدابير الإلهيّة النبويّة، لاسيّما وأنّ سنن بني أميّة وبدعهم وإسلامهم المزيّف قد صارت له سطوةٌ ودولةٌ، وركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا الذلة. ولعلّ من أجلى مصاديق الذلة: كتم العالم علمه، فذلك هو الهوان والذلّ، وهو الاستسلام البغيض لتلك البدعة، ومن ذلك الذلّ والهوان: إخفاء تلك التدابير والسكوت عنها وعدم تفعيلها، وعندئذٍ سيفقد العلم جدواه، وسيفقد الحقّ معناه، وهذا ما يجعلنا نتدبّر كثيراً في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهر العالم علمه، فمَن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[(١)].

وعليه فمواجهتنا مع المتنطّعين التاريخيّين والمعاصرين الماضويّين هي انطلاقةٌ عمليّةٌ من مبدأ إظهار العلم في عالم البدع الموروث عبر حقبٍ طويلةٍ، فنحن لا

---

(١) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص٥٤ ح٢.

نريد أن ننكأ الجراح، وإنّما نريد أن ننهض بوظيفتنا الدينيّة والأخلاقيّة تجاه تلك التدابير الإلهيّة والنبويّة في حفظ النبوّة والخلافة من التحريف والتجديف.

وأن نعمل أيضاً على مواجهة التمرّد التاريخي، وأن نتخلّص من التبعة التاريخيّة والعبء الملقى على كاهل الأمّة، والذي جعلها منقادةً وذائبةً في حيثيّات ذلك الانقلاب التاريخي والتمرّد الخطير، أو قل: العمل على الخلاص من ذلك العصف الجاهلي الذي تلبّدت به أمّة الإسلام به بعد رحلة الرسول صلّى الله عليه وآله، وهو عملٌ عظيمٌ وجليلٌ وصعبٌ ومعقّدٌ، لاسيّما وأنّنا نعلم بأنّ روَّاد الجاهليّة الجديدة هم فقهاء ومفسّرون ومحدّثون وقادة معارك تاريخيّة، ولهم قدرةٌ كبيرةٌ على احتواء وجوه الأمّة ترهيباً وترغيباً.

عظمة شخصيّة الرسول صلّى الله عليه وآله

تجلّت عظمة شخصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله في جميع الميادين التي تواجد فيها صلّى الله عليه وآله، وهي الميادين المعرفيّة والمعنويّة والعمليّة، فكان عارفاً بربّه، وكان إنساناً كاملاً واصلاً في جميع مراتب السير والسلوك، وكان قائداً فذّاً، بصيراً حليماً حكيماً عارفاً بأمور زمانه، فهو صلّى الله عليه وآله وحدةٌ متكاملةٌ في مجاميع وجوده المبارك، فما كان صلّى الله عليه وآله يعيش المعلومة بعيداً عن لحاظ المعلوم، ولا يعيش المعلومة والمعلوم بعيداً عن سياسة الإصلاح والارتقاء بالإنسان والأمّة إلى أعلى مراتب الكمال، وهذا أمرٌ واضحٌ يدركه كلّ مَن اطّلع على حياة الرسول صلّى الله عليه وآله ووقف ولو على بعض ملامح شخصيّته الشموليّة المباركة.

فهو صلّى الله عليه وآله، كما مرَّ علينا في وصف أمير المؤمنين عليّ عليه السلام له بقوله: «**طبيبٌ دوّارٌ بطبّه...**»[1]، والتعبير بأنّه: «دوّار بطبّه»، كنايةٌ عن تجربته الثريّة والطويلة؛ فإنّ الطبيب الدوّار هو أكثر تجربةً من غيره.

---

(١) تقدّم تخريج الحديث.

ولو تتبّعنا بعض سلوكيّاته صلّى الله عليه وآله في أمّته نجده حريصاً على إيصال رسالته ومبالغاً في تبليغه، حتّى قيل بأنّه صلّى الله عليه وآله كان يُكثر من الصيام والقيام لكي يصل إلى أعلى مقامات الارتقاء المؤثّرة في الجذب لرسالة الإسلام، فنزل في حقّه قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ١ـ٢)، بمعنى أنّه صلّى الله عليه وآله كان يتأذّى كثيراً من صدود القوم، فكان يستعين بالصلاة والصوم، لتقوى نفسه وتشتدّ قوّة تأثيره في المخاطبين، وقد ورد الحثّ على هذا النوع من الاستعانة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)، وقد ورد أنّ الصبر هو الصوم[١].

ومن هذا المنطلق من الحرص الشديد على تبليغ الرسالة على أكمل وجه، كان صلّى الله عليه وآله حريصاً جدّاً على توفير مقوّمات إدامة الرسالة وحفظها من التلويث والانحراف الكلّي، ولذلك جاءت تدابيره في حفظ النبوّة والإمامة من الادّعاءات والتحريف موافقةً تماماً لما كانت تطلبه نفسه القدسيّة صلّى الله عليه وآله، فهو يبعث من خلال تدابيره الحكيمة برسالةٍ لكلّ الأجيال القادمة، مفادها أن يتوخّوا الحذر الشديد في قبول ما يصلهم من نصوص وفهم وقراءاتٍ دينيّةٍ نشأت بعيداً عن أهل العلم والمعرفة والعصمة والإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، فتكون تلك التدابير النبويّة صمّام أمانٍ لكلّ من يطلب الحقّ ويريد الثبات عليه، فهي عمليّةٌ استباقيّةٌ وقفت حائلاً أمام الطامحين والمانعين من طمس

---

(١) روي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿واستعينوا بالصبر﴾، أنّه قال: «**الصبر: الصيام**»، وقال: «**إذا نزلت بالرجل النازلة والشديدة فليصم؛ فإنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ﴾، يعني: الصيام**». [الفروع من الكافي، للكليني: ج٤ ص٦٣ ح٧].
وفي زاد المسير عند مروره بالآية، قال: «الأصل في الصبر: الحبس؛ فالصابر حابسٌ لنفسه عن الجزع، وسُمِّي الصائم صابراً لحبسه نفسه عن الأكل والشرب والجماع». [زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج الجوزي القرشي البغدادي: ج١ ص٦٢].

الحقيقة كاملاً[1]، حيث كانت الأهداف الأوّليّة هي الوصول إلى سدّة الحكم، ولكنّ إستراتيجيّة الانقلاب التاريخي كانت تهدف إلى مساحاتٍ أبعد بكثيرٍ من ذلك، حيث ابدال السلطة الدينيّة الممثّلة بخليفتها الشرعي بممثّليّةٍ أخرى، وهذا ما نجحوا فيه خلال فترةٍ زمنيّةٍ يسيرةٍ، حيث أوجدوا كياناً بديلاً كاملاً في إعلامه ومتلقّيه، من متكلّمين وفقهاء وخطباء، ونصوص يرتكنون إليها، ودعاة ومبشّرين بملازمات ذلك الانقلاب التاريخي الخطير، والذي مكّنهم من الانتشار والسطوة هو طول مدّة الحكم والنفوذ، والناس على دين ملوكهم.

الثمرات العلميّة للتدابير النبويّة

هنالك عدّة أهدافٍ علميّةٍ حقّقتها وستحقّقها التدابير النبويّة، وهي أهدافٌ قد لا يلتفت لها غير العلماء والمحقّقين والمهتمّين بالشأن الإسلامي، وهي:

---

(١) لم يألُ رسول الله صلّى الله عليه وآله جهداً في بيان معالم الدين، من الناحية التأسيسيّة ومن ناحية البقاء والإدامة، وهذا هو الموافق تماماً لما ورد عنه صلّى الله عليه وآله، فقد ورد عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «خطب رسول الله عليه السلام في حجّة الوداع فقال: **يا أيّها الناس والله ما من شيءٍ يُقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به، وما من شيءٍ يُقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلّا وقد نهيتكم عنه...**». [أصول الكافي، للكليني: ج٢ ص٧٤ ح٢؛ مصنّف، ابن أبي شيبة: ج٨ ص١٢٩ ح٣١]. فلا يقول أحدٌ ـ من أيّ الفريقين كان ـ بأنَّ الحقيقة غائبة، فالصحيح هو أنّ أدعياء ذلك هم الغائبون عن الحقيقة، حيث وقعوا ـ أو أوقعوا أنفسهم ـ تحت طائلة حاكميّة الماضي وسلطة روّاده التاريخيين وحملته من المعاصرين، ولم يُعطوا لعقولهم فرصةً للتأمّل فيما وصل إليهم، وهو تراثٌ مليءٌ بالتناقضات والمخالفات الشرعيّة، ولذلك فإنَّ واحدةً من مهامّنا في هذه العصور المتأخّرة كثيراً عن زمن النصّ هو العمل بموضوعيّةٍ ورويّةٍ على ذلك التراث الواصل والكشف عن مقدار الزيف الحاكم فيه، وترشيد الأمّة إلى ما ينبغي أن تكون عليه بعدما عاشت قروناً طوالاً منقادةً لقراءاتٍ خاطئةٍ. وهي مهمّةٌ صعبةٌ ومعقّدةٌ جدّاً، ولكنّها تمثّل مسؤوليّةً لابدّ من القيام بها. (منه دام ظلّه).

الهدف الأوّل: بيان جملةٍ من الخلفيّات العلميّة التي تقف وراء خاتميّة النبوّة، ورسوم الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، وذلك من خلال تقديم البيانات النبويّة التي وقفت حائلاً من الناحية النظريّة أمام المدّعيات المنافية، فلا يمكن المساس بخاتميّة النبوّة، كما لا يمكن المساس بالخلافة الإلهيّة، وما وقع تاريخيّاً من تجاوزاتٍ على مستوى النبوّة والإمامة والخلافة معاً هي مرفوضةٌ من الناحية النظريّة التي سجّلتها تلك التدابير النبويّة.

الهدف الثاني: لقد أوجدت هذه التدابير حراكاً علميّاً نحو إعادة القراءات المطروحة منذ زمان الانقلاب التاريخي وإلى يومنا هذا، وكلّما وقعت الأروقة العلميّة في سباتٍ وتقليدٍ أعمى للماضويّة وقفت هذه التدابير كموجّهٍ ومرشدٍ عقديّ وفكريّ وثقافيّ وسلوكيّ، وهذا ما جعل المتربّصين والنفعيّين أن يقفوا بالمرصاد تجاه أيّة قراءةٍ جديدةٍ للمعطيات التاريخيّة، فهم يدركون جيّداً أنّ التدابير النبويّة سوف تعمل على تغيير منطلقاتهم ومتبنيّاتهم وما يترتّب على ذلك من نتائج خطيرة تعصف بالبناء العقدي والفكري والثقافي للسقف العامّ من أبناء الأمّة، ولهذا المعنى والنتيجة أكثر من شاهدٍ وراصدٍ، ولعلّ الأعداد الكثيرة من الباحثين والمحقّقين الذي غيّروا قناعتهم في متبنّياتهم السالفة إنّما كان حراكهم بفعل تلك التدابير النبويّة، أو قل بأنّها تأثّرت كثيراً بتلك التدابير، وكأنّهم بواسطتها قد اكتشفوا للتوّ حجم التشويه التاريخي والانزياح الإفراطي عن مدرسة أهل البيت، فعاد ليقرأ النصوص الدينيّة من خلال نافذة التدبير النبويّة بعدما كان يقرأها ـ بفعل الضغط الماضوي والتراكم التاريخي ـ من خلال نافذةٍ أمويّة.

الهدف الثالث: وهو مبتنٍ على الهدف الثاني، فإنّ للتدابير النبويّة تأثيراً عظيماً على صياغة القناعات العقديّة والفكريّة والثقافيّة، وبالتالي فإنّ أرباب الفنّ عندما يرصدون النصوص سوف يجدون أنفسهم أمام مفترق طرق في نتاجهم الفكري والثقافي، فإمّا أن يواكبوا مسيرة التدابير في الكشف عن الحقائق المغيَّبة،

وإمّا أن يُغيّبوا أنفسهم في ظلمات الماضي السحيق، وهنا سيعيش الكثير من المفكّرين والمثقّفين في صراعٍ عميقٍ بين تيّارين متناقضين، أحدهما لا يحمل غير تبعات التاريخ والتشويه الماضوي، وآخر يحمل صوت الحقّ والحقيقة الذي عادةً ما يجد له أصداءً عاليةً وعميقةً في وجدانه، ولكنّه لا يجد له حضوراً في ذاكرته، فالذاكرة عادةً ما تحتفظ بالأمور الولائيّة، والولائيّات التاريخيّة يغلب عليها الطابع الأموي الغامق والخانق، فمَن استطاع أن يخرج من عنق الزجاجة سيرى الحقيقة بوضوح وسينأى بنفسه بعيداً عن خندقة الماضي، ومن لم ينتصر على ولاءاته الموروثة وبقي حبيساً في ظلمة الزجاجة الماضويّة فإنّه سوف يعيش ازدواجيّةً قاتلةً.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أهمّية توخّي الموضوعيّة والتحقيق والتأنّي بالنسبة للخارجين من عنق الزجاجة، فلا يقعون في أتون مرض التعويض، فالكثير من الذين اكتشفوا الحقيقة بواسطة التدابير النبويّة قد انساقوا وراء رغبةٍ جامحةٍ في التعويض عمّا فات فصار يكيل الاتّهامات والطعون، حتّى يبلغ بالبعض أن يخترق الخطوط الحمر، فيدخل في دهليز التضليل والتكفير، وهذا تعويضٌ سلبيّ، فإنّ الهدف من التدابير هو حفظ الوسطيّة والموضوعيّة وعدم الانسياق وراء الرغبة بالانتقام أو التعويض الإفراطي، فإنّه بذلك لم يكن قد تقدّم خطوةً إيجابيّة؛ حيث الانتقال من دائرة التفريط إلى دائرة الإفراط، ولذلك من حسن التدبير في قراءة التدابير النبويّة: توخِّي الموضوعيّة والاعتدال في محاكمة الآخر، لا بمعنى السكوت عنه، وإنّما بمعنى الالتزام بمقتضيات البحث العلمي، وعدم الانسياق وراء العواطف الجيّاشة التي غالباً ما تكون محصّلتها البعد عن الحقيقة، فيكون مثله مثل: «**حوزة خشناء يغلظ كلامها، ويخشن مسّها؛ ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم**»[1].

---

(١) نهج البلاغة: ج١ ص٣٢، خطبة رقم: ٣.

الهدف الرابع: العمل الجدّي والأكيد على تغيير المناهج الدراسيّة الدينيّة والتاريخيّة المتّبعة في معظم بلداننا الإسلاميّة، وتأسيس مناهج دراسيّةٍ دينيّةٍ وتاريخيّةٍ جديدةٍ وفقاً لما تقتضيه التدابير النبويّة، فكلّ مفردةٍ منهجيّةٍ مخالفةٍ لمفردةٍ من مفردات التدابير النبويّة ستكون باطلةً، أيّاً كانت خلفيّاتها ومصادرها؛ فلا شيء يعلو فوق سلطة التدابير النبويّة.

ومن الواضح أنّ هذا الهدف العظيم والخطير سيُواجه اعتراضاتٍ شديدةً واتهاماتٍ خطيرةً، فإنّ الكثير من أصول تربية الأمّة، وعلى المستويات كافّة، من العقيدة والشريعة والأخلاق، إنّما وُضعت في ظلّ مقتضيات الانقلاب التاريخي وتبعاته، فتلك المناهج التي أُسّست في قبال التدابير النبويّة لم تقتصر على مساحات التجاوزات الأولى، وإنّما تشعّبت وتورّمت، حتّى بلغ بها الأمر إلى عدّ نفس التدابير النبويّة ضرباً من الانحراف والتحريف والضلال والتضليل!

ولذلك فنحن ندرك وبعمقٍ حجم مسؤوليّة تغيير المناهج الدراسيّة، وفي المدرستين معاً، الشيعيّة والسنّية، فإنّ الانقلابيّين وأتباعهم لم يتطرّفوا وحدهم، وإنّما هنالك اتّجاهاتٌ مقابلةٌ تطرّفت ضدّهم؛ نتيجة ردّ الفعل، وهذا ما أطلقنا عليه في دراساتٍ سابقةٍ بإسلام الفعل وإسلام ردّ الفعل[1].

---

(١) تعرّض السيّد الأستاذ دام ظلّه، إلى إسلام الفعل وردّ الفعل في سلسلته الفكريّة «إسلام محوريّة القرآن»، حيث يقول هناك: «إنَّ قراءة التراث الروائي والتاريخي أيضاً بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى قراءة وتحليل الوقائع التاريخيّة الممتدّة بين فترة الخلافة وفترة حكم بني أُميّة، فإنّها فترةٌ مليئةٌ بالأحداث التي غيَّرت مجرى التاريخ، وغيَّرت ملامح الأخبار والروايات، بعد أن أبرزت جبهتين مختلفتين في الولاءات وفي العمل، فنتج عن ذلك ما أسميناه بسياسة الفعل وردّ الفعل، وقد نجحت سياسة الفعل إلى حدٍّ كبيرٍ في صناعة إسلام الفعل، كما أنَّ سياسة ردّ الفعل قد نجحت هي الأُخرى في صناعة إسلام ردّ الفعل، وما دام إسلاما الفعل وردّ الفعل قائمين فلا خلاص للإنسان كفردٍ، وللأُمّة

الثمرات العمليّة للتدابير النبويّة

مرَّت بنا[١] عدّة أهدافٍ عمليّةٍ حقّقتها لنا التدابير النبويّة، والتي كان منها: التأكيد والتنبيه على المخاطر القادمة، وتنبيه الأمّة إلى واقعيّة ارتباط الانحراف الفكري والعقدي والسلوكي بالمعطيات المادّية، وتنبيهها على عدم الاغترار بالكثرة، وفقاً للمنطق القرآني المادح للقلّة الشكورة، والذامّ للكثرة الكارهة للحقّ[٢]، والكشف عن استبدال أصحاب الانقلاب للهداية بالضلال، وإعطاء فرصة

كمجتمعٍ من التشظّي والتصدّع، ومن ازدياد وتعميق هوّة الخلاف والاختلاف بنحوٍ ينقطع معه كلّ أملٍ في الإصلاح، فإنَّ إسلام الفعل وإسلام ردّ الفعل ما هما إلّا تعبيرٌ آخر عن ديالكتيكيّةٍ جديدةٍ تحمل في رحمها تناقضاتها الذاتيّة، فلا مفرَّ من وقوع التناقض، كما لا مفرَّ من نتائج التناقض القاضية بإلغاء الآخر، فتكون سياسة التكفير والتضليل مجرّد إفرازاتٍ عمليّةٍ لذلك التناقض الذاتي... إذن لكي تستيقظ عامّة الناس من غفلاتها وانقيادها الأعمى للخاصّة، ولكي تستيقظ خاصّة الناس من تحزّباتها وانقيادها غير المُبرّر للسلطات، لكي يتحقّق ذلك، فلابدَّ من الانفتاح على المرجعيّات الحقيقيّة المتمثّلة بالقرآن والعقل القطعي، والخروج من الرؤى الضيّقة، وتجاوز الأسوار العلمائيّة المصطنعة، فإنَّ الأعمّ الأغلب من خلافاتنا ناشئةٌ من الفذلكات العلمائيّة التي لا تخرج عن كونها تُمارس إقصاءً تاريخيّاً للآخر، أو أنّها تُعاني من إقصاءٍ تاريخيّ من الآخر، فيُولِّد لنا الأوّل إسلام الفعل، ويُولِّد لنا الآخر إسلام ردّ الفعل». [يُراجع في ذلك: القسم الثالث من سلسلة «إسلام محوريّة القرآن»، تحت عنوان: مفاصل إصلاح الفكر الشيعي، المفصل الثاني والمفصل الثالث. وأيضاً يمكن مراجعته ضمن السلسلة في مجلداتها المعنونة بـ«مرتكزات أساسيّة لإعادة قراءة الفكر الشيعي»: ج١ الفصل السادس].

(١) في الفصل الأوّل من هذا الكتاب.

(٢) أمّا مدح القلّة فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣)، وأمّا ذمّ الكثرة فقد ورد في أكثر من آية، منه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠).

التصحيح على مدى التاريخ، بمعنى التأسّي بالنبيّ صلّى الله عليه وآله في حفظ الإسلام، فإنّه صلّى الله عليه وآله قد قام بإجراءات الحفظ وعلينا جميعاً ـ لاسيّما العلماء والنخب، وانطلاقاً من قاعدة التأسّي القرآنيّة[1] ـ أن نسلك هذا المسلك النبويّ في حفظ النبوّة من التشويه، وفي حفظ الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة من التحريف، والتوقّي من سلطة الركام المغلوط الذي صنع عقولاً، وجنّد قلوباً، وطوّع نفوساً، وبذلك نكون قد أدّينا أعظم تكاليفنا على نحو الوظيفة والتوظيف[2].

وفي طول هذه الأهداف العمليّة هنالك أهدافٌ أخرى لا تقلّ أهمّيةً عنها، بل هي في واقعها مكمّلةٌ للأهداف الآنفة، منها:

الهدف الأوّل: العمل على تنشِئة الأمّة، أفراداً وجماعاتٍ، على ما تقتضيه التدابير النبويّة، من مواجهة السلوكيّات المنبثقة من تلك الرؤى الأمويّة المنافية لسلطة الحقّ والموافقة لسلطة القبيلة.

الهدف الثاني: صناعة الشخصيّة المنتصرة للحقّ والمتحيّزة للتصحيح، والخروج من أزمة السلوك الجمعي المتّبع، الذين تنعدم فيه الشخصيّة، ويُختصر فيه الطموح، وتذوب فيه الاستقلاليّة، فيصير الإنسان فيه مقلّداً في كلّ شيء، كما هو حال الكثير من أتباع المنهج السلفي، الذين انساقوا لسلطة الماضي وحاكميّة السلف، وصار مبلغ علم الكثير منهم محصوراً في حفظ كلمات السلف! حتّى جعلوا من كلمات السلف نصوصاً دينيّة مُتَّبعةً، مع أنّها لا تعدو عن كونها قراءاتٍ وأفهاماً

---

(١) المأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

(٢) بيّن السيّد الأستاذ دام ظلّه الفرق بين الوظيفة والتوظيف في الفصل الأوّل من هذا الكتاب، وهو بعبارةٍ موجزةٍ: الوظيفة أداءٌ لنفس التكليف، وأمّا التوظيف فهو تسخير أداء التكليف في تحصيل هدفٍ يقصده الفاعل، وهو طلب الكمال، كما في اعتبار أداء الصلاة وظيفةً، وفي تحصيل الكمال بسببها توظيفاً.

خاصّةً بأصحابها، والتي هي في الغالب وليدة ظروفها وبيئتها.

من هنا نقول ـ وقد أكّدنا ذلك في دراساتٍ أخرى[1] ـ بأنّ الخروج من الماضويّة وسلطة السلف هو من أهمّ الأصول والأسس والأعمال التصحيحيّة للخروج من تناقضاتنا التاريخيّة، وهنا نضيف لذلك: بأنّ الخروج من الماضويّة وسلطة السلف هدفٌ لا يمكن تحقيقه بعيداً عن الرجوع إلى التدابير النبويّة والعمل بها.

الهدف الثالث: أداء التكليف الواقعي لكلّ شخصٍ متّبعٍ للتدابير النبويّة، بل إنّ في ذلك تحقيقاً لأهمّ وأشرف التكاليف الدينيّة؛ نظراً لتوقّف صحّة تكاليف كثيرةٍ على مدى صحّة الاعتقاد بما جاءت به التدابير النبويّة، فهي أشبه ما تكون بالعرش الذي ينبغي إثباته أوّلاً قبل الشروع بالنقش، ولذلك لابدّ لكلّ مكلّفٍ من الالتفات إلى التكليف الملزم بمتابعة ما جاء في تلك التدابير النبويّة، وقد ألزمنا القرآن الكريم بمتابعة ما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الحشر: ٧)، بل لا مجال للاجتهاد عليه، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وهذا أمرٌ إجماعيّ بلا ريب، ومن مصاديق المتابعة اللزوميّة: متابعته صلّى الله عليه وآله في ما تقتضيه التدابير النبويّة في الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، فلا معنى للاجتهاد في تلك النصوص الصريحة للتدابير النبويّة، وإذا ما كان هنالك اجتهادٌ

---

(١) في سلسلته الفكريّة والتحقيقيّة: «إسلام محوريّة القرآن»، أو «مرتكزات أساسيّة لإعادة قراءة الفكر الشيعي». وهي من أعمق وأجرأ الدراسات الفكريّة التي طرحها السيّد الأستاذ (دام ظلّه) ضمن مشروعه الإصلاحي في قراءة التراث الديني وواقع الأمّة.

يُذكر فلابدَّ أن يكون ـ كما نبّهنا لذلك ـ اجتهاداً في النصّ لا أن يكون اجتهاداً على النصّ أو ما يسمّى بالاجتهاد في مقابل النصّ، فذلك خروجٌ صريحٌ على الكتاب والسنّة[1]، والذي حاول كثيرٌ من أتباع النهج الأموي تخريج ذلك وجعله مورداً لكسب الأجر! فللمصيب أجران وللمخطئ أجرٌ واحدٌ! مع أنّ هذه القاعدة لو صحَّت فإنّها إنّما تصحّ في صورة الاجتهاد في النصّ لا في صورة الاجتهاد المقابل للنصّ، كما هو واضح.

ما ينبغي للعلماء فعله

إنّ من أهمّ التكاليف الأساسيّة التي يضطلع بها العلماء العاملون: أن يدركوا أوّلاً موقعهم في الأمّة ومدى تأثيرهم عليها، وكيفيّة انقيادها لهم، وهذا ما يجعل

---

(١) من قبيل ما رووه عن معاوية من أنّه كان يُجيز الربا، فعن عطاء بن يسار: «أنَّ معاوية بن أبي سفيان باع سقايةً من ذهبٍ أو ورقٍ بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ينهى عن مثل هذا، فقال معاوية: ما أرى بهذا بأساً! فقال أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية؟ أُخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه، لا أساكنك بأرض». [الرسالة، محمّد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ): ص٤٤٦، رقم: ١٢٢٨؛ كتاب المسند، الشافعي (ت: ٢٠٤هـ): ص٢٤٢؛ سنن ابن ماجة: ج١ ص٨ ح١٨؛ صحيح سنن النسائي: ج٣ ص٢٢٩ ح٤٥٨٦؛ المجموع (شرح المهذّب)، محيى الدين النووي: ج١٠ ص٣٠؛ تهذيب الكمال، للمزي: ج٢ ص٤٦٩؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠ ص٢٧].

وفي شرح النهج ممَّا جاء من سيرة معاوية: «وأمّا أفعاله المجانبة للعدالة الظاهرة، من لبسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضّة، حتّى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **إنَّ الشارب فيها ليجرجر في جوفه نار جهنّم**، وقال معاوية: أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً! فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية! أنا أخبره عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهو يخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أبداً». [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٥ ص١٣٠].

تكاليفهم في غاية الأهمّية والخطورة، فإذا ما وجدوا تشويهاً لصورة الحقّ في المسوّدات التاريخيّة والأخبار المرويّة والأقوال المحكيّة فإنّ وظيفتهم الشرعيّة تقتضي تنديدهم بالباطل ورفع صوتهم بالحقّ، وإذا ما وجدوا الأمّة تسير في طرقٍ شائكةٍ، وعلى سننٍ باطلةٍ، وبدعٍ مفتعلةٍ، فإنّهم ملزمون بمواجهة كلّ ذلك، وإن كلَّفهم ذلك تكذيبهم أو التجاوز على مقامهم، بل حتّى إن كلّفهم ذلك إزهاق أنفسهم، فإنّ سكوتهم ما هو إلّا إقرارٌ بالباطل وإيغالٌ في الفتنة، وقد ورد النهي الشديد عن كتم العلم لاسيّما عند انتشار البدع، فممَّا روي في ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهر العالم علمه، فمَن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[1].

من هنا ينبغي أن نُوجز ما يجب على كلّ عالم دينٍ بما يلي:

أوّلاً: إعادة قراءة النصوص الروائيّة والتفسيريّة والتاريخيّة في ضوء ما تقتضيه التدابير النبويّة، لا في ضوء ما تقتضيه الأجندات السلطويّة، ولا في ضوء ما تقتضيه التبعيّة السلبيّة لأفهام السلف، ولا في ضوء النسق العامّ الذي تفرضه أنماط السلوك الجمعي والإمّعيّة والأسر الفكري.

ثانياً: اعتماد الأدوات العلميّة في القراءة والتمحيص، والابتعاد قدر الإمكان عن كانتونات الإجماع والشهرة، فإنّها ممارساتٌ قمعيّةٌ تحجب العقل عن التأمّل، والفكر عن التصوّر، والقلب عن التحوّل، وهي لا تختلف كثيراً عن سلطة السلف والماضويّة على العقل والفكر، ولذلك لابدّ أن لا يكون لغير البحث والتحقيق وطلب الحقيقة حضورٌ في عقول العلماء والأروقة العلميّة.

ثالثاً: أن يعمل العلماء بكلّ جديّةٍ وهمّةٍ على تغيير المناهج الدراسيّة العلميّة

---

(١) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص١٣٥ ح١٦٢؛ وقريب منه ما روي في: الجامع الصغير، السيوطي: ج١ ص١١٥ ح٧٥١؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٥٤ ص٨٠.

الدينيّة في المدرستين معاً (الشيعيّة والسنّية)، وتطهير المناهج من الأساليب القمعيّة التي غالباً ما تقف خلفها روحٌ أمويّةٌ شاحبة اللون، لا تحترم نصّية النصّ، وتسوق العقل والفكر إلى مستنقعات الفئويّة والطائفيّة والقبليّة والعشائريّة، وغير ذلك من أساليب دحر الإنسانيّة وتقزيم الفكر.

ولا ريب أنّ العمل على تغيير وتصحيح المناهج العلميّة الدينيّة سيكون له صلةٌ وثيقةٌ بالدعوة لتنقية التراث (الروائي والتفسيري والتاريخي) من الوضع والزيف والدسّ والتدليس والتحريف، وهذا ما سنبحث شطراً منه في ذيل هذا الفصل، والذي ستكون به خاتمة هذا الكتاب.

رابعاً: لابدّ أن يتمتّع العلماء بقدرٍ كبيرٍ من الحريّة والشموليّة، فلا تستقطبهم عبوديّاتٌ مصطنعةٌ، ولا تختصرهم دوائر متحيّزة، وهذه الحريّة والشموليّة كفيلتان بالقضاء على الحالات القهقريّة والرجعيّة الأصوليّة، ولذلك فلا يمكن للباحث أن يكون باحثاً ـ فضلاً عن أن يكون مستوعباً لحركة التاريخ ولطبيعة الإرث الواصل إليه ـ من دون أن يعيش الحريّة في أعماقه، والشموليّة في تفكيره وتنظيره.

خامساً: لابدّ من الصدق مع النفس في تخطّي تبعات الماضي وضغوطاته، فيعيش أزمة السؤال وهموم الجواب عليه، فيسأل ويسأل حتّى تستقرّ النقاط على الحروف، ولا يكون مسلوباً لخدعةٍ تاريخيّةٍ فرضتها أفهامٌ قاصرةٌ قد منعت السؤال عن سيرة الماضين، القرآن الكريم لا يسألنا عن أفعالهم، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٤)، ولكنّه لم يمنعنا من السؤال، بل حثّ على السؤال، وأطلق مساحة السؤال؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ (آل

عمران: ١٣٧)، وهل السير في الأرض إلّا قراءة تاريخهم والاطّلاع على سيرتهم، فكيف بهم إذا كانوا طريقاً لوصول الدين والنصوص إلينا؟

نعم، تلك أمّةٌ قد خلت، ولكنّنا لم نخلُ منها ومن آثارها، لازلنا أتباعاً لها، بل ونقولها وبكلّ شجاعةٍ ووضوحٍ: لازلنا ضحايا لها، فكيف يمكننا السكوت، ولذلك لابدّ من المواجهة، ولابدّ من الصدق في تخطّي سلطة الماضي وتبعاته، وإلّا فإنّنا سنمارس لعبة الدوران، وسنقبع في دوامة الاجترار من الماضي السحيق، وعندئذٍ لا نجد فرقاً كبيراً بيننا وبين مَن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**﴾ (المائدة: ١٠٤).

سادساً: لابدّ للعالم الباحث المحقّق أن يكون متزوّداً بروح التحليل والنقد، فلا يكون مشتغلاً بفهم ما قال السلف، وإنّما لابدّ من تحليل ذلك ونقده، فليس للسلف علينا غير التقدير والاحترام، وأمّا في صورة معاينة أقوالهم وأفهامهم وتراثهم فهو عندنا أشبه ما يكون بالجسد العليل تحت مبضع الجراح، وبهذا المبضع النقدي نكون على بيّنةٍ من أمرنا.

هذه خلاصة ما ينبغي أن يكون عليه العلماء الباحثون المحقّقون العاملون، وهنالك وظائف أخرى ـ لا تقل أهمّيةً عمّا ذكرناه ـ يمكن استنباطها من مجموع هذه الأبحاث الخاصّة في التدابير النبويّة.

القراءة الموضوعيّة للتاريخ

لابدّ لنا من تقديم قراءةٍ موضوعيّةٍ لتاريخ الإسلام عموماً ولتاريخ الصحابة خصوصاً، وقد تقدّمت منّا عدّة إشاراتٍ لذلك، وهنا نودّ البحث في ثلاث مسائل مهمّةٍ، هي:

المسألة الأولى: أهمّية القراءة الموضوعيّة للتاريخ

المسألة الثانية: ملامح القراءة الموضوعيّة للتاريخ

المسألة الثالثة: النتائج المترتّبة على القراءة الموضوعيّة للتاريخ

المسألة الأولى: أهمّية القراءة الموضوعيّة للتاريخ

إنّ الانجراف الفكري نحو مُخَلَّفات التاريخ، والارتضاع الثقافي منه، والاصطفاف الحزبي والطائفي والفئوي في ظلّ الانقسامات التاريخيّة، كلّ ذلك يدعونا إلى تقديم قراءةٍ موضوعيّةٍ لجميع مفردات التاريخ الإسلامي، لاسيّما مفردات القرن الهجري الأوّل منه، بل لا سبيل للخلاص من التبعات التاريخيّة من دون إعمال أدوات البحث العلمي والتحقيق المهني، والنظر الدقيق في الأحداث المتتالية التي لازلنا نعاني من احتراقاتها وانكساراتها الجمّة.

إنّ إشكاليّة التناقضات التاريخيّة تكمن في كونها قد تحوّلت من أحداثٍ ماضويّةٍ إلى روافد عقائديّةٍ وخزينٍ فكريٍّ وثقافيٍّ لم ننفكّ حتّى عن ألفاظه فضلاً عن معانيه ومضامينه، وإذا ما غضضنا الطرف عن تجلية الموقف الصحيح من تلك الأحداث، ولم نمحّصه ولم نخضعه للقراءة النقديّة، فإنّنا سائرون باتّجاه تناقضاتٍ جديدةٍ في غاية التعقيد، ومنتهون إلى صراعاتٍ شائكةٍ ومعقّدةٍ، ولذلك لابدّ من تطهير المدوّنات التاريخيّة من الزيف الهائل الذي ضرب بجميع صفحاته، فلم يترك لنا حادثةً إلّا وبثّ فيها سُمّاً زعافاً، ولا يمكننا الخلاص من تأثيره بمجرّد الكفّ عنه، أو غضّ الطرف عنه، فذلك مجرّد إيغالٍ منّا في الخطايا التاريخيّة، وتغذيةٍ لنتوءات التناقض والانشطار على النفس والواقع.

إنّ مشكلات الموروث التاريخي ليست ابتكاراً أو اكتشافاً حديثاً، فقد عانى منها جميع المصلحين، ولا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ بعض المؤرّخين أنفسهم قد عانوا من نقل تلك التناقضات، وكثيراً ما كانوا يصطدمون بعواصف الزيف العاتية فتجرفهم رغماً عنهم، نظراً لوجود السلطان المنافح عن ذلك الزيف، فكانوا

يتوسّلون بالرمزيّة والإشارة وبالتنبيه إلى وجود أقوالٍ أخرى، والمظنون أنّ بعضهم لم تكن تنقصه الجرأة أو الشجاعة وإنّما كان يُدرك جيّداً بأنّ بضاعته سوف تبور في زمن الزيف، وأنّ عليه أن يسلك طريقاً يعتمد فيه على فطنة القارئ ووعيه ليصل إلى المساحات الفارغة ليملأها أو ليفهمها من خلال تأمّلاتٍ عميقةٍ، وهذا ما سنتحدّث عنه في المسألة الثانية.

إذن فالتناقضات التاريخيّة عاشها الكثير من أبناء الأمّة، وتولّد عندهم الشعور العميق بضرورة التصحيح، ولكنّهم غالباً ما يفتقدون للأدوات الفنيّة والإمكانيّات المختلفة التي تمكّنهم من الخوض في ذلك، وليست ببعيدةٍ عنّا دعوات التغيير وكتابة التاريخ بين الفينة والأخرى، وبذلك فنحن لا نضيف لأصل الدعوة شيئاً يُذكر، وإنّما نفترق عنهم بأنّنا نمتلك أدوات التغيير، وقد وضعنا أقدامنا على أُولى الخطوات في طريق التصحيح، حيث انطلقنا من الموروث الروائي[1] والذي سيليه الموروث التفسيري والتاريخي، لننتهي إلى المحصّلة النهائيّة في قراءة تراثنا الديني، والخروج برؤيةٍ تصحيحيّةٍ تشمل الواقعين النظري والعملي، نرجو من الله تعالى أن يُوفّقنا لإتمام ذلك.

المسألة الثانية: ملامح القراءة الموضوعيّة للتاريخ

وهذه هي المسألة الأهمّ من مجموع المسائل الثلاث، والتي قلَّما جرى العمل والتنظير فيها، حيث كان ولا زال الطابع السردي هو الحاكم في المصنّفات التاريخيّة، فلا تكاد تجد رؤيةً علميّةً ناهضةً، وإنّما هي تسجيلُ وقائع، وحتّى التحليلات العلميّة المهمّة التي قدّمها بعض الأعلام من الفريقين معاً في قراءاتهم

---

(١) في سلسلته الفكريّة والتحقيقيّة «إسلام محوريّة القرآن»، وعلى مستوى النظريّة والتطبيق، وقد صدر منها القسم الأوّل، وهو: «الموروث الروائي بين النشأة والتأثير»، وسيتبعه أقسامٌ أربعةٌ في طريقها للطباعة والنشر، ثمّ تليها الأقسام التطبيقيّة.

للنصوص التاريخيّة فإنّها في الغالب لم تخضع لمنهجٍ علميٍّ واضح؛ نظراً لحاكميّة الطابع السردي، كما هو الحال في عالم التفسير حيث لا زلنا نعاني من حاكميّة النزعة الروائيّة فيه.

ولأجل هذا الغياب غير المنطقي لأسس وملامح القراءة الموضوعيّة للتاريخ ارتأينا التعريف بأهمّ هذه الأسس والملامح؛ بغية تحقيق الانطلاقة العلميّة والقراءة الموضوعيّة، وحيث إنّ هذه الأسس والملامح كثيرة فقد ارتأينا الوقوف على الضروري منها، وهي:

الملمح الأوّل: الالتزام بالقراءة التحليليّة التأمّليّة

الانتقال من القراءة السردية إلى القراءة التحليليّة التأمّليّة، وبعبارةٍ فنيّةٍ: التحوّل من المنهج السردي المعلوماتي إلى المنهج التركيبي التحليلي التأمّلي، فالمنهج السردي لا يعدو في خطّته عن صفّ السطور والمعلومات الحاكية عن الأحداث والوقائع الخارجيّة، وأمّا المنهج التركيبي التحليلي التأمّلي ففيه مرحلتان أساسيّتان غير المرحلة السرديّة التي توفّر المادّة الأساسيّة للبحث والتحليل والتأمّل، أمّا المرحلة الأولى فهي التحليل الدقيق لمفردات النصوص المنقولة والبحث في الخلفيّات والنتائج بشكلٍ أوّلي، وأمّا المرحلة الثانية فهي البحث عن السطور المفقودة، وذلك من خلال التأمّل في ربط الأحداث وعلاقة بعضها ببعض؛ لينتهي الباحث إلى تحديد الخلفيّات والنتائج بشكلٍ نهائيّ.

إذن هنالك نصٌّ منقولٌ (المنهج السردي) يمثّل مرحلةً سابقةً على أصل المنهج التركيبي المتمثّل بالتحليل والتأمّل، والتحليل بحثٌ دقيقٌ في مفردات النصّ، والتأمّل بحثٌ عن مفرداتٍ متعلّقةٍ بالنصّ لم ينقلها المؤرّخ، ولو لاحظنا مجموع ما عندنا من مدوّناتٍ تاريخيّةٍ نجدها ـ في الغالب ـ تعتمد على المنهج السردي.

الملمح الثاني: الالتزام بالقراءة الموضوعيّة

لابدّ من التحوّل من القراءة التجزيئيّة إلى القراءة الموضوعيّة، فهنالك وحدة موضوعٍ تجمع عدّة نصوصٍ في حادثةٍ واحدةٍ، ولا يصحّ قراءتها بشكلٍ انفصاليّ، وإنّما لابدّ أن تُقرأ بشكلٍ مجموعيّ، أو قل: بنحو الأسلوب الموضوعي، كما هو الحال في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم[١]، فإنّ القراءة التجزيئيّة ما هي إلّا امتدادٌ للنزعة الروائيّة التجزيئيّة الحاكمة على الوسط العلمي لقرونٍ مديدةٍ وإلى يومنا هذا، وإذا ما كانت النزعة الروائيّة وأسلوب التفسير التجزيئي ـ كما يرى سيّدنا الأستاذ الشهيد محمّد باقر الصدر ـ سبباً حقيقيّاً في إعاقة الفكر الإسلامي القرآني عن النموّ المكتمل، وأنّه قد ساعد على اكتسابه حالةً تشبه الحالات التكراريّة، حتّى أنّه لقرونٍ طويلةٍ متراكمةٍ مرّت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي لم يحقّق فيها الفكر الإسلامي مكاسب حقيقيّةً جديدة[٢]، فإنّ هذه النزعة قد كانت سبباً حقيقيّاً أيضاً في التمزّق الاجتماعي، ونشوء المذاهب والمدارس المختلفة، بل ونشوء الصراع الطائفي، وهي بعينها المعمول بها في النصوص التاريخيّة، بل هي في النصوص التاريخيّة أشدّ وأعمق.

الملمح الثالث: ملاحظة أزمنة المصنّفات التاريخيّة

لابدّ من ملاحظة أزمنة المصنّفات التاريخيّة، حيث هنالك نوعٌ من الترجيح للكتب المتقدّمة زمناً، وإن كان تقدّمها لا يشكّل قاعدة، ولكنّ القرب من أزمنة الحوادث يجعل الحديث عنها أكثر موضوعيّة، بخلاف المصنّفات المتأخّرة فإنّها لا تمثّل مصادر أوّليّةً معتمدةً، وإنّما هي مصادر ثانويّة، كما هو الحال في مصنّفات علم الحديث.

---

(١) للوقوف على تفاصيل التفسير الموضوعي، يُنظر في ذلك: كتاب «منطق فهم القرآن»، أو كتاب «مناهج التفسير»، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن.

(٢) انظر: المدرسة القرآنيّة، محمّد باقر الصدر: الدرس الأوّل.

الملمح الرابع: التحقيق في سيرة المؤرّخين

إنّ التحقيق في السيرة العلميّة والحياتيّة للمؤرّخين وإن كان أمراً ثانويّاً بالنسبة للقراءة الموضوعيّة للتاريخ، إلّا أنّه كثيراً ما يساعد على الكشف عن خلفيّات التحيّز وعدم الموضوعيّة، فالمؤرّخ الذي يمثّل الاتّجاه الأموي أو الاتّجاه العباسي أو الاتّجاه العثماني، ليس من السهل أن يكون مصدراً موثوقاً به، ولابدّ من الاحتياط الشديد في التعاطي مع نقولاته التاريخيّة، كما هو الحال مع ابن تيميّة الحرّاني وابن كثير الدمشقي وابن خلدون والخطيب البغدادي وابن العربي القاضي، ومن كان في رتبتهم ممَّن أسقطوا ميولهم على النقل التاريخي، كما أنّ مصادر النقل هي الأخرى لابدّ من التدقيق فيها، كمنقول الزهري[1] ومعظم رجال بني أميّة.

الملمح الخامس: تطبيق نظريّة حساب تراكم الاحتمالات

بغية الوصول إلى أعلى درجات التصديق ينبغي الاستفادة من نظريّة حساب تراكم الاحتمالات[2]، سواءٌ لحصول التصديق بصحّة الخبر المنقول أو التصديق

---

(١) إذا أطلق لقب «الزهري» فيُراد به محمّد بن شهاب الزهري (٥٨ـ١٢٤هـ)، وهو من عمّال بني أميّة ومحلّ اعتمادهم، وقد جاء في سيرته في معظم كتب الرجال في مدرسة أهل البيت بأنّه «عدوّ». انظر: رجال الطوسي: ص١١٩، رقم: ١٢١٨؛ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، ابن المطهّر الأسدي الحلّي: ص٣٩٢، رقم: ٢؛ رجال ابن داود: ص٢٧٣، رقم: ٤٥٦؛ نقد الرجال: ج٤ ص٢٣٠، رقم: ٤١٨؛ معجم رجال الحديث، الخوئي: ج١٧ ص١٩٠، رقم: ١٠٩٨٧، وقيل بأنّه أوّل من دوّن الحديث، وكان يحفظ (٢٢٠٠) حديث، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمّاله: «عليكم بابن شهاب فإنّكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنّة الماضية منه». [الأعلام، للزركلي: ج٧ ص٩٧].

(٢) نظريّة حساب الاحتمالات هي تعبيرٌ آخر عن الدليل الاستقرائي، قال السيّد الشهيد الصدر: «وقد نطلق على الدليل الاستقرائي بالمعنى الذي حدّدناه اسم: الدليل الاحتمالي، أو: الدليل القائم على حساب الاحتمالات؛ لأنّ الدليل الاستقرائي لمّا كان مردّه في

بكذبه، فهذه النظريّة هي الطريق الأمثل للوصول إلى مرتبة العلم أو الاطمئنان بمضمون الخبر، فكلّ قرينةٍ لها قيمةٌ احتماليّةٌ تصديقيّةٌ، وبجمع القرائن والنسب الاحتماليّة نصل للمطلوب للإثبات أو النفي.

المسألة الثالثة: النتائج المترتّبة على القراءة الموضوعيّة للتاريخ

من أهمّ النتائج المترتّبة على القراءة الموضوعيّة للتاريخ:

النتيجة الأولى: التخلّص من النتائج الجزئيّة أو التجزيئيّة المفضيّة للخلاف والاختلاف والانقسام، فالقراءة الموضوعيّة جامعةٌ لرؤيةٍ مشتركةٍ.

النتيجة الثانية: تساعدنا هذه القراءة الموضوعيّة على استخدام الاستقراء، والاستقراء هو الطريقة المثلى للوقوف على حيثيّات الحادثة المنقولة، فالأسلوب الموضوعي هو طريقٌ للوقوف على الأفهام المختلفة في النقل، وهذا ما يُثري الباحث ويساعده كثيراً في التحليل والتأمّل.

النتيجة الثالثة: إنّ الأسلوب الموضوعي يُمكِّن قارئ النصوص التاريخيّة من الوصول إلى رؤيةٍ تاريخيّةٍ عن الواقعة المنقولة، والتي قد ترتقي إلى مستوى النظريّة، فتكون أشبه بالنظريّة القرآنيّة المستنبطة من النصوص القرآنيّة بواسطة أسلوب التفسير الموضوعي.

النتيجة الرابعة: كثيراً ما تساعدنا القراءة الموضوعيّة على اكتشاف السطور المفقودة، لأنّها تعتمد على طريقة حساب الاحتمالات، وهذه الطريقة تجعلنا

التحليل العلمي إلى عمليّة تجميع القرائن، فهو يتضمّن قياس قوّة الاحتمال الناتج عن كلّ قرينةٍ وجمع القوى الاحتماليّة لمجموع القرائن وفقاً لقوانين... وقياس تلك القوى الاحتماليّة وجمعها هو ما يسمّى بحساب الاحتمالات، وحيث إنَّ الدليل الاستقرائي يتضمّن ويعتمد عليه فهو يقوم على أساس حساب الاحتمالات». [المعالم الجديدة للأصول (دروسٌ تمهيديّةٌ في علم الأصول)، محمّد باقر الصدر: ص١٦٢].

نتناول الحادثة من وجوهٍ مختلفةٍ، وهذه الوجوه المختلفة في التصوير ستساعدنا كثيراً على تشخيص المساحات المفقودة، وبعبارةٍ أخرى: إنّ أفضل الطرق وأقصرها في الكشف عن الحلقات المفقودة في الحوادث التاريخيّة هي الطريقة الاستقرائيّة أو حساب الاحتمالات، وهذه الطريقة هي الأداة المعرفيّة الأساسيّة في أسلوب القراءة الموضوعيّة للأحداث.

النتيجة الخامسة: إنّ القراءة الموضوعيّة سوف تُمكّن القارئ من توجيه النقد الموضوعي والبنّاء؛ لأنّها تعطيه تصوراتٍ كاملةً أو شبه كاملةٍ عن الأحداث، ولذلك فإنّ الكثير من النقود غير الموضوعيّة هي في واقعها ناشئةٌ إمّا من موقفٍ شخصيّ للناقد أو من قصورٍ في معلوماته، وهذا القصور هو نتيجةٌ طبيعيّةٌ للقراءة التجزيئيّة وليس للقراءة الموضوعيّة، ولذلك فإنّ الارتقاء بالمنهج النقدي إنّما يكون بواسطة اعتماد الطريقة الموضوعيّة في قراءة الأحداث.

تزييف القداسة وقداسة الزيف

من أبرز معطيات النصوص التاريخيّة المقروءة لدينا: ذلك الانسياق الخطير لتزييف القداسة وتحويل أهلها إلى أناسٍ مطعونٍ بهم، وفي قبال هذا الخطير الكبير هنالك خطرٌ كبيرٌ أيضاً أو أكبر، وهو تسرية القداسة إلى كلّ مزيَّف، ولذلك فعندما نجد نصوصاً تاريخيّة تُسيء إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، أو ترفع من شأن صحابيّ على حساب شخصيّة الرسول صلّى الله عليه وآله، فهذا نوعٌ من التزييف للقداسة المتمثّلة برسول الله صلّى الله عليه وآله وتقديس الزيف المنسوب لشخصٍ لا واقعيّة لاتّصافه بذلك الوصف الإيجابي المزيَّف.

ولو راجعنا التراث الأموي سنجد عشرات النصوص المنقولة فيه والمسيئة إلى شخصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، أي: تزييف القداسة والمقدّس، كما نجد الكثير من التمحّلات والأكاذيب التي تهدف إلى رفع شأن خصوم أهل

البيت عليهم السلام، بل ورفع شأن بني أميّة أنفسهم، أي: تقديس المزيّف.

إنّ من أعظم الدواهي والبلايا التي أُصيبت بها الأمّة في ماضيها وحاضرها: سريان النهج الأموي في تزييف القداسة وتقديس المزيّف، فصار الناس في حيص بيص[1] لا يدرون ماذا يُراد بهم، يُتاه بهم فلا يعرفون وجهة الحقّ، وبهذا التزييف للقداسة وتقديس المزيّف حاد كثيرٌ من الناس عن وجهتهم التي وجَّهها لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله بحديث الثقلين المتمثّلين بكتاب الله وعترته الطاهرة من أئمّة البيت عليهم السلام، وهذا ما حذّر منه إمام الأمّة ورئيس العترة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «**فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم؟! بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّ وأعلام الدين وألسنة الصدق؟! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش**»[2]، فإذا ما تكشّف للملأ حجم تزييف المقدّس في تراثنا وعقولنا وثقافتنا وتصوّراتنا، وتكشّف لهم حجم تقديس المزيّف، فإنّهم سوف يكونون قد قطعوا نصف الطريق في تحصيل المعرفة ونصف الطريق في ملازمة الحقّ؛ فبعد التكشّف لابدّ من الاتّباع لكلمة الحقّ وإلا لم يعطوا الكلمة الحقّة حقّها.

---

(١) «حيص بيص» هو من ألقاب أبي الفوارس شهاب الدين سعد بن محمّد بن سعد بن الصيفي البغدادي (ت: ٥٧٤هـ)، وإنّما قيل له ذلك لأنّه رأى الناس يوماً في حركةٍ مزعجةٍ، وأمرٍ شديدٍ، فقال: ما للناس في حيص بيص؛ فبقي عليه هذا اللقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدّة والاختلاط؛ تقول العرب: وقع الناس في حيص بيص، أي: في ضيقٍ وشدّة. ومن قولهم: وقع فلان في حيص بيص، إذا وقع في خطّةٍ ملتبسةٍ لا يجد موضعاً للتفصّي عنها، تقدّم أو تأخّر، من: حاص عن الشيء، إذا حاد عنه، وباص: إذا تقدّم. [انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١٩ ص٥٦٣؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: ج١ ص٢٩٨].

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص١٥١ـ١٥٤، خطبة رقم: ٨٧.

كلمة الحقّ وحقّ الكلمة

إنّ كلمة الحقّ وليدة البحث والتحقيق في هذا الركام الموروث، فإذا ما بلغنا كلمة الحقّ فإنّها ستقتضي منّا حقّ الكلمة، وحقّ الكلمة هو الاتّباع والملازمة، ومن دون ذلك الاتّباع نكون كالذي أخذته العزّة بالإثم، وهنا ينبغي التنبيه إلى أنّ كلمة الحقّ تتطلّب ثلاثة أمور، وهي: البحث عنها، وملازمتها، والترويج لها، فإذا ما بحثنا ووصلنا وروَّجنا لها نكون قد أدّينا حقّ الكلمة، وأمّا البحث عنها فذلك ما يفرضه السعي الذاتي للكمال، وكما قيل بأنّ الحكمة ضالّة المؤمن[1]، فالحكمة هي كلمة الحقّ، فتكون كلمة الحقّ هي ضالّة المؤمن[2].

وأمّا ملازمة كلمة الحقّ فذلك ما يفرضه العقل السليم وتسوقنا إليه سيرة العقلاء، وإلَّا سنكون أقرب للعجماوات منّا إلى حقيقة الإنسان، وأمّا الترويج لكلمة الحقّ فذلك ما تفرضه علينا مسؤوليّتنا الشرعيّة والأخلاقيّة، وإلَّا نكون مصداقاً صريحاً لكاتمي البيّنات والهدى، فيكون المصير ما تقرّره الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٩).

ولا ريب بأنّ العلماء هم أولى الناس باتّباع الحقّ ونصرته، وهذا ما ينبغي أن نقف عنده قليلاً، فإنّ العلماء إذا انتصروا للحقّ انتصر الحقّ وعلت رايته، وإذا

---

(١) جاء في الروضة عن جابر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الحكمة ضالّة المؤمن، فحيثما وجد أحدكم ضالّته فليأخذها**». [الروضة من الكافي، للكليني: ج١٥ ص٣٩٩ ح١٥٠٠١].

(٢) ورد خبرٌ صريحٌ في كون كلمة الحقّ هي ضالّة المؤمن، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **كلمة الحقّ ضالّة المؤمن، حيث وجدها فهو أحقّ بها**». [كنز الفوائد، الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ): ص٢٦٥؛ مستدرك سفينة البحار، علي النمازي الشاهرودي: ج٩ ص١٦٣].

خذلوه أو كتموه فقد أضلّوا الأمّة بسكوتهم، وضلّوا هم بجنايتهم.

وما ورد في بعض الأدعية: «**وأظهر كلمة الحقّ واجعلها العليا، وأدحض كلمة الباطل واجعلها السفلى، إنّك على كلّ شيءٍ قدير**»[١]، إنّما يراد به النهوض بكلمة الحقّ لتكون عاليةً بفضل الله تعالى ومعونته، ومواجهة كلمة الباطل لتكون هي السفلى، لا أن نترك النصرة والمواجهة ثمّ نسمّي أنفسنا دعاة الحقّ وأصحاب كلمة الحقّ، ولذلك نجد الشارع المقدّس قد حثّ كثيراً على العمل بما نعلم، وكما جاء في الخبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العلم مقرونٌ إلى العمل، فمَن علم عمل، ومَن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه**»[٢]، أي: ارتحلت حقيقة العلم وانتفى جدواه، وصار قشراً وصحراء قفراً لا نفع فيها، وبقي أن نُنبّه إلى ضرورة الالتزام بكلمة الحقّ والعمل في ضوئها في السرّاء والضراء، وفي الرضا والغضب، كما ورد في بعض الأدعية الشريفة: «**وأسألك اللّهُمَّ كلمة الحقّ في الغضب والرضا**»[٣]، ولا ريب أنّ العلماء أولى بذلك.

العلماء رهنٌ باتّباعهم للحقّ ونصرته

إنّ قيمة العلم تكمن في حقيقته ونشره والعمل به، ومنه يتّضح أنّ قيمة العالم بحقيقة علمه ونشره له والعمل به، فإذا لم يكن العالم مدركاً لحقيقة علمه، ولم يكن ناشراً له، ولم يكن عاملاً به، فهو ليس بعالم، بل هو أسوأ حالاً من الجاهل نفسه، ولذلك نقول بأنّ العالم هو رهنٌ باتّباعه للحقّ ممَّا علم، وهو رهنٌ بنشر ما علمه من الحقّ، وهو رهنٌ بالعمل بما علمه من الحقّ، فإذا كان العالم رهناً بذلك كلّه فهو من العلماء الربّانييّن، وإلّا فهو من المتهتّكين، ومن روائع ما ورد

---

(١) كامل الزيارات، ابن قولويه: ص٩٤،

(٢) أصول الكافي، للكليني: ج١ ص١٠٩ ح١١٢.

(٣) إقبال الأعمال، للسيد ابن طاووس: ج٣ ص١٣٧.

عن أمير المؤمنين عليّ في ذلك، قوله عليه السلام: «**ما قصم ظهري إلّا رجلان، عالمٌ متهتّك، وجاهلٌ متنسّك، هذا يُنفِّر عن حقّه بهتكه، وهذا يدعو إلى باطله بنسكه**»[1].

ولا ريب أنّ العلماء إذا لم ينهضوا بمهامّهم الحقيقيّة في اتّباع الحقّ ونصرته فإنّهم سوف يُربّون أجيالاً خانعةً للباطل وأهله، وما نراه في واقعنا من تردٍّ على مستوى المعرفة والوعي والعمل بالحقّ تقف خلفه أسبابٌ كثيرةٌ، من أهمّها خنوع العلماء وظلم السلاطين، وإذا ما خاف العلماء من السلاطين الظلمة ارتدّت الأمّة على الأعقاب، ولذلك فالقاعدة الصحّية هي أن يخشى السلاطين من العلماء لتمسّكهم بكلمة الحقّ، لا أن يخشى العلماء من السلاطين، وإذا ما وقعت الخشية في قلب عالمٍ من سلطانٍ ظالمٍ فذلك أمرٌ يكشف عن علوّ كلمة الباطل ودنوّ كلمة الحقّ في نفس ذلك العالم مجازاً فضلاً عن السلطان الظالم.

فطوبى لصولة العالم بكلمة الحقّ في محضر السلطان الظالم، وفي هذا المعنى الجليل نحتاج أن نسوق مثلاً طيّباً على كلمة الحقّ في محضر السلطان الجائر، يكشف فيها عن سرّ بوحه بكلمة الحقّ من كون ذلك هو ميثاقاً أخذه الله تعالى على العالم، فقد روى الشيخ الصدوق عن إبراهيم بن محمّد الثقفي، عن عليّ بن هلال الأحمسي، قال: حدّثنا شريك، عن عبد الملك بن عمير، قال: «بعث الحجّاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تزعم أنّ ابنَي عليّ ابنا رسول الله؟ قال: نعم. وأتلو عليك بذلك قرآناً. قال: هات. قال: أعطني الأمان. قال: لك الأمان. قال: أليس الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأنعام: ٨٤)، ثمّ قال: ﴿**وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي: ص٤٧٩؛ فيض القدير، المناوي: ج٦ ص٣٧٨، رقم: ٩٢٩٤.

(الأنعام: ٨٥)، أفكان لعيسى أب؟ قال: لا.

قال: فقد نسبه الله عزّ وجلّ في الكتاب إلى إبراهيم.

قال: ما حملك على أن تروي مثل هذا الحديث؟

قال: ما أخذ الله على العلماء في علمهم أن لا يكتموا علماً علموه»[١].

وهنا تحضرني كلمةٌ جليلة للشيخ الأميني يقول فيها: «ثمّ قيّض المولى سبحانه في كلّ قرنٍ وفي كلّ قطرٍ رجالاً نصروا الحقيقة، وأحيوا كلمة الحقّ، وأماتوا بذرة الضلال، وقابلوا تلكم الأضاليل المحدثة بحججٍ قويّةٍ، وبراهين ساطعةٍ، فجاءت الأمّة الإسلاميّة تتبع الطريق المهيع، وتسلك جدد السبيل، تباعاً وراء الكتاب والسنّة، تعظّم شعائر الله ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾، إلى أن ألقى الشرّ جرانه، وجاد الدهر بولائد الجهل، وربّتهم أيدي الهوى، وأرضعتهم أمّهات الضلال، وشاخلتهم [أي: صادقتهم] رجالات الفساد، وتمثّلوا في الملأ بشراً سويّاً، وسجيّتهم الضلال، فجاسوا خلال الديار وضلّوا وأضلّوا واتّبعوا سبيل الغيّ وصدّوا عن سبيل الله...»[٢]، فتلك الثلّة الأولى عظَّمت شعائر الله ونطقت بكلمة الحقّ، وأمّا الثلّة الثانية فقد نكثت ميثاق العلم بحفظه واتّباعه ونصرته، ولنعم ما جاء في ذلك كلمةٌ قيّمةٌ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام ضمن خطبته الشهيرة المسمّاة بالخطبة الشقشقيّة، يقول فيها: «**لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم...**»[٣]، فليس للعالم أن يقارّ على ما يشاهده

---

(١) أمالي الصدوق: ص٧٣٠ ح٣.

(٢) الغدير، عبد الحسين الأميني: ج٥ ص٨٩.

(٣) نهج البلاغة: ج١ ص٣٦.

قال الشيخ محمّد عبده: «والكظّة: ما يعتري الآكل من امتلاء البطن بالطعام، والمراد:

من تزييف للحقائق، ومن سَوقٍ منهجيٍّ مدبّرٍ نحو الضلال والتضليل.

ما ينبغي للنخب من الباحثين والمحقّقين فعله

وفي طول المهامّ العظيمة التي يجب أن ينهض بها العلماء العاملون، هنالك مهامّ عظيمةٌ أخرى لابدّ أن ينهض بها الباحثون والمحقّقون من الفضلاء والأكاديميّين، فهؤلاء هم النخبة من الأمّة ولهم دورٌ عظيم[1]، فهم الأداة الفاعلة للعلماء في تحصين الأمّة من الشبهات والتغرير بالباطل، أو قل: هم المسؤولون عن القيام بدور التحصين الفكريّ للأُمَّة من الزيف التاريخي والتشويه القاتل في الموروث الروائي، ومعنى التحصين هو الشروع بتفهيم الأُمَّة ما هم عليه من أخطاءٍ تاريخيّة، وما ينبغي أن يكونوا عليه بعد كشف الزيف التاريخي، ومن أدوارهم المهمّة: العمل على استيعاب الأُمّة على مختلف توجّهاتهم ومشاربهم، بمعنى: إعطاء المقابل فرصة التعبير عن مكنوناته وموروثاته، ثمّ الانتقال إلى بيان الثغرات الكثيرة التي تحفّ بمعلوماتهم.

ومن هنا يتّضح أنّ دور النُخب ـ بكافّة شرائحهم ـ ليس دوراً مضافاً أو هامشيّاً، وإنّما هو دورٌ أساسيٌّ في التعاطي مع الموروث الروائي والتاريخي، ومن ذلك ما يتعلّق بالتدابير النبويّة في حفظ النبوّة والخلافة الإلهيّة، ولذلك فإنّ على هذه الطبقة المتقدّمة أن تعي دورها الحقيقي في التغيير، كما عليهم أن يخرجوا من القراءة السلبيّة وسلبيّات القراءة للوسط العلمائي، فإنّ الحياة السويّة قائمةٌ على

استئثار الظالم بالحقوق، والسغب: شدّة الجوع». [المصدر السابق].

(١) لقد تناول السيّد الأستاذ دام ظلّه دور العلماء والنخب والأمّة بالتفصيل في موسوعته الفكريّة (إسلام محوريّة القرآن)، ولذلك نهيب بالقرّاء المتابعين مراجعة ذلك ولو بشكله المختصر الذي ورد في كتابه الموجز «إسلام القرآن وإسلام الحديث... مُلخَّص المشروع الإصلاحي للمرجع الديني»: المحور الخامس (دور العلماء والنُخب والأُمّة في إنجاح المشروع). والذي جاء تفصيله في الجزء الأوّل، الفصل الثامن من كتابه (المرتكزات الأساسيّة لإعادة قراءة الفكر الشيعي).

أساس التكامل وليس على أساس التفرّد في القرار والتطبيق، كما أنّ على العلماء الواعين أن يدركوا عمق مسؤوليّة النخب ودورهم المفصلي في الأهداف الكبرى، وتحقيق الحصانة وتدعيم العمل الوقائي، فهم الوسائل الفعليّة في تطبيق ما نظَّر له العلماء العاملون، ولذلك فمن العسير على العلماء إيصال صوتهم ونتاجهم الديني إلى الأمّة دون الاستعانة بالوسط النخبوي، فهم وسائله الإعلاميّة، وهم أذرعه الحاضنة والمتفهمّة لمشكلات المجتمع.

ما ينبغي للأمّة فعله

أوّل حقيقة ينبغي أن نقف عندها ويطّلع عليها أبناء الأمّة هي: أن ندرك جميعاً بأنّ الأمّة ليست وجوداً منفعلاً فاقداً للإرادة، وإنّما هي ـ كما يريد القرآن لها ـ أُمَّةٌ فاعلةٌ متحرِّكةٌ قادرةٌ على التعبير عن إرادتها، أو قل: هي أُمَّةٌ تساهم في بناء محطَّاتها القادمة، وفاعلةٌ في صنع خواتيمها المستقبليّة، من خلال الارتقاء بها إلى مستوى التفقّه في الدين، والخلاص من شبح الهمج الرعاع.

فإذا ما كانت الأمّة متفقّهةً أو ساعيةً في تحصيل التفقّه فإنّها ـ ولا ريب ـ ستعيش همَّ التغيير وتحمل أداة السؤال في الكشف عمَّا تجهل، وهذه هي أمّة القرآن، التي تعيش إسلام العلم والتنوير وليس إسلام الجهل والتعتيم، وأمّة القرآن هي أمّة العقل والبرهان، وهذا ما يجعلها تعي مسؤوليّتها التي تتطوّر شيئاً فشيئاً حتّى تبلغ مرحلة المشاركة الفعليّة في صناعة القرار، وإذا ما بلغت الأمّة شرف الإسهام في صناعة القرار فإنّها لن تخضع بعد ذلك لسلطانٍ جائرٍ، بل ستكون معينةً بقوّةٍ للوسط العلمائي والنخبوي في الانعتاق من مقرّرات الحكومات الظالمة، وبذلك تكون الأمّة سنداً حقيقيّاً لهما في الخلاص من التبعيّة للحكومة الفاسدة في عرْض المفاهيم الدينيّة والقيم الأخلاقيّة.

وهنا ينبغي التنبيه إلى ضرورة نهوض الأمّة بمسؤوليّةٍ قيميّةٍ، وهي عدم

السماح باستغفالها من قبل علماء السوء، وعدم استخدامهم من قبل السلطان الجائر، فعلماء السوء وسلاطين الجور لا يرون في الأمّة أيّ مساحةٍ قيميّةٍ، وإنّما هم أرقامٌ يحقّقون بها مآربهم، وهذه المسؤوليّة القيميّة المطلوب تحقيقها لأبناء الأمّة يقف خلفها الأداء الإيجابي والمسؤول للعلماء والنخب ونهوضهما بمسؤوليّتهما تجاههم، فالأمّة أشبه ما تكون بالأرض الصالحة للزراعة تستقبل ما يزرع فيها، ولذلك نجد من الضروري جدّاً أن تكون الأمّة على مقدارٍ من الوعي لكي لا تكون مستودعاً للأفكار المنحرفة، ولا تكون بيادق صمّاء بيد الانتهازيّين من علماء السوء والنخب المنحرفة وسلاطين الجور، فإنّ هؤلاء جميعاً كانوا سبباً مباشراً في تضييع التدابير النبويّة على مدى قرونٍ طويلةٍ، وأوهموا الأمّة ببدائل أخرى، فكانوا ممَّن زيَّفوا القداسة والمقدّس، وكانوا من صنّاع القداسة للمزيّف.

الدعوة لتنقية التراث الروائي

ممّا تقدّم تبرز أمامنا قضيّة في غاية الأهمّية والخطورة، وهي مسألة التعاطي مع تراثنا الروائي والتفسيري والتاريخي، فالأمّة بعلمائها العاملين ونخبها الفاعلة وسائر أبنائها يتحمّلون مسؤوليّة التعاطي مع هذا التراث، وهذا ما يفرض عدّة أولويّات، لعلّ من أهمّها: العمل الجدّي على تنقية التراث الروائي سواءٌ على مستوى التفسير أو التاريخ أو غيرهما، من الزيف الذي أُلحق به، وهي مهمّةٌ معقّدةٌ وتتطلّب جهوداً عظيمةً وحثيثةً.

ومن الأولويّات الأخرى ما يتعلّق بنفس إعادة قراءة التراث الديني، ونعني بذلك ما له صلةٌ وثيقةٌ بالتدابير النبويّة، وإنّ التدابير النبويّة من أكثر اللوائح التي تعرّضت للتشكيك والتضييع، بل وللتزييف أيضاً، لإدراكهم المسبق بأنّ هذه التدابير هي من أهمّ الخطط الإجرائيّة لحفظ التراث من التزييف، وحيث إنّهم كانوا يسيرون باتّجاه أجندات أخرى لا تنسجم مع خطّ الرسالة فقد سخّروا كلّ

طاقتهم الماليّة والإعلاميّة للقضاء على تلك التدابير، لاسيّما في ما يتعلّق منها بحفظ الإمامة الإلهيّة والخلافة الشرعيّة، فأسقطوا اللوائح من أعمدتها، واضطهدوا وقتلوا قادة وأتباع التدابير النبويّة، وهذا ما نجده صريحاً في الإسلام الأموي، الذين لم يألوا جهداً في حربهم لأهل البيت عليهم السلام، لتكون حربهم حلقةً من حلقات حرب بني أميّة ضدّ الإسلام، في الجاهليّة وفي الإسلام[1].

إنّ دعوتنا لتنقية التراث قد لا تكون جديدةً، فهنالك صيحاتٌ تصدر بين فترةٍ وأخرى، ولكنّها دعواتٌ للتنقية والإصلاح والتغيير من دون أن تقدّم منهجاً واضحاً في ذلك، وحيث إننا قدّمنا منهجاً كاملاً للتنقية والإصلاح والتصحيح فإنّ دعوتنا لذلك تكون عمليّة، وهذا ما نقوم ونسعى لإنجازه[2].

تبصرة

ممَّا ينبغي الالتفات له: عدم الغفلة عن الاختلاف الكبير بين المنطق الإلهي والدنيوي، وأنّ الانتصار للحقّ إنّما يُنظر فيه المنطق الإلهي، والإنسان الإلهي الربّاني لا يليق به إلّا مواكبة المنطق الإلهي، فإذا ما رأى باطلاً فإنّه لا يسكت عنه البتّة، ولا يداهن الباطل أبداً، مهما كانت التضحيات، كي لا يقع في حبائل الشيطان فيلبس الحقّ بالباطل؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٤٢)، وهذا الانتصار للحقّ ومواكبة المنطق الإلهي لا يمنع من توفير أسباب

---

(١) لم يكن هنالك مَن هم أكثر حرصاً على سفك دماء أهل البيت عليهم السلام من بني أميّة، فمارسوا إرهاباً منقطع النظير، فهذا عمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على مكّة المكرّمة لمّا بلغه أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد خرج من مكّة طالباً العراق، خطب بجلاوزته قائلاً: اركبوا كلّ بعيرٍ بين السماء والأرض فاطلبوه، فكان الناس يعجبون من قوله هذا، فطلبوه فلم يُدركوه. [انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ج٢ ص٦؛ العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي: مقتل الإمام الحسين بن علي].

(٢) أي: في مشروعه الفكري (إسلام محوريّة القرآن).

النجاح والانتصار بحسب المنطق الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ**﴾ (الأنفال: ٦٠)، وتوفير مقدّمات النجاح وأسباب الانتصار لا يحجب عن بصيرتنا من النظر إلى النتائج المتوخّاة بحسب المنطق الإلهي لا بحسب المنطق الدنيوي، كما هو ديدن الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام في مواجهاتهم التاريخيّة مع خطّ المترفين والمستكبرين، ولا ريب أنّ هذه المواجهة التاريخيّة بين خطّ الأنبياء وخطّ المترفين لم تنته فصولها بعد.

مسك الختام

لو تأمّلنا في أسباب الإجراءات النبويّة لحفظ النبوّة والخلافة، من قبيل: الفشل التاريخي لحركة الإنسان، وعدم ترك مجالٍ للاحتجاج عليه، وإعلام الطامحين والطلقاء بكشف مخطّطهم الإقصائي، وقِصَر المساحة الزمنيّة للتبليغ، والسير على طريقة الرسل عليهم السلام، وأنّ الرسول صلّى الله عليه وآله ليس بدعاً منهم، وغيرها من الأسباب التي لم نسلّط عليها الضوء؛ لكون الهدف والعبرة ليسا في رفع أرصدة الأسباب أو الإجراءات، وإنّما لما تتضمّنه من فوائد جمّةٍ في الكشف عن حيثيّات مجتمع بيئة النزول ـ كما تقدّم منّا ذلك ـ فإنّنا سنجد أنّنا معنيّون بهذه الإجراءات بشكلٍ مباشرٍ، فهي إجراءاتٌ تجاوزت بيئة النزول وأزمنة النصّ؛ لسببٍ واضحٍ ويسيرٍ، وهو أنّنا لم تنقطع حاجتنا عن الدفاع عن النبوّة والإمامة الشرعيّة إلى يومنا هذا، وما نلاحظه من تمحّلاتٍ مشكّكةٍ في البعثة النبويّة ووحيانيّة القرآن شاهدٌ صريحٌ على ذلك، وأمّا موضوعة الإمامة فإنّها على قدمها لازالت موضوعةً حيّةً تتطلّب منّا بحوثاً وتحقيقاتٍ جديدةً في ضوء الإجراءات النبويّة ومعطياتها، وهذا ما نريد فتح نوافذ جديدةٍ فيه من خلال إعادة قراءة تراثنا الروائي، سواءٌ في التفسير أو التاريخ أو غيرهما.

إنّ معظم تلك الأسباب والخلفيّات المؤسّسة للإجراءات النبويّة هي ليست

نقوداتٍ موجهةً إلى فئةٍ بعينها، وإنّما هي تقريراتٌ لواقع حال الإنسان في رحلته التاريخيّة، فاحتاج الأمر إلى تعريفٍ بواقع الحال، وإلى تصويرٍ لضبط حركتنا التاريخيّة القادمة، وقد وقع السابقون في متاهاتٍ كثيرةٍ لم تمكّن الكثير منهم من قراءة الأحداث بصورةٍ سليمةٍ، نتيجة الابتعاد عن حيثيّات تلك الإجراءات النبويّة، ولذلك فمن المنطق بمكان أنّ الأمّة سوف تكرّر تلك الأخطاء والوقوع في تلك المتاهات أو الاستغراق في تبعات تلك المتاهات التاريخيّة.

بعبارة موجزة: إنّ الحجّة ملقاةٌ علينا في قراءة التراث والوقائع في تلك الإجراءات النبويّة بشكلٍ أكبر وأعمق من الأجيال السابقة التي لم تكن تعي عناصر كثيرةً في تشكيل البنية الفكريّة والعقديّة للإسلام، من قبيل العصمة والتنصيب الإلهي والوراثة الإلهيّة، وغير ذلك.

وفضلاً عن الحجّة المؤكّدة الملقاة علينا فإنّنا نواجه أخطر نماذج للأمويّة التاريخيّة، وهو التزييف الأموي الجديد (الحنبلي التأسيس، التيمي التفصيل، الوهّابي التطبيق) الذي يريد منّا ـ كما أسلفنا ـ أن نحمل ثقافتنا عن أهل البيت عليهم السلام من خلال رؤيةٍ أمويّةٍ قاتمةٍ، فنسمع ونطيع ولا نسأل ولا نتأمّل، وقد عرفنا بأنّ هذا تزييفٌ لا يمكن له أن يحقّق نجاحاته إلّا بتعطيل العقل تماماً، ولذلك نجد أتباع الأمويّة المعاصرة يُساقون كالخراف إلى مذبح الولاء الكاذب الذي يتساوى فيه بحسب الظاهر الإمام عليّ عليه السلام مع معاوية، والإمام الحسين عليه السلام مع يزيد[1]، وأمّا بحسب الباطن، ومن خلال مقولاتٍ تيميّةٍ وهّابيّةٍ فيُقدّمون الإمام

(١) فنجد زعيم الانفصاليين عن القاعدة الوهابيّة يسمّي نفسه بالحسيني، فهو في حقيقته المظلمة، وفكره المتطرّف، وسلوكه المنحرف أنموذجٌ مطابقيّ ليزيد الفاجر الفاسق، ولكنّه يريد إيهام البسطاء بأنّه حسينيّ أو من الدوحة الحسينيّة، وهذا هو أبشع أنماط التزييف التاريخي، وأبشع أنواع المصالحة، بل وأبشع صور النفاق التي اعترضت أمّة الإنسان، كما أنّ هذا التزييف وهذا النفاق سيفضي إلى أعظم مظلوميّةٍ تعرّض لها أهل البيت عليهم السلام.

عليّاً عليه السلام بصورة رجلٍ شاذٍّ وصاحب فتنة، ويُقدّمون الإمام الحسين عليه السلام بصورة رجلٍ خارجٍ على إمام زمانه، إنّها مصالحةٌ لا تبقي ولا تذر من الحقّ شيئاً، أفرغت القيم عن محتواها وصارت قشوراً جوفاء قد تمّ تعبئتها بالزيف الأموي، فلم يكتفوا بالزيف التاريخي الذي أثكلوا به الأمّهات، وأبرزوا المخدّرات، ورمّلوا النسوة، ويتّموا الأطفال، حتّى جاؤوا ليكملوا أدوار الماضين بنحوٍ يفخر الماضون بزيف ورثتهم، أكثر من فخر الورثة بزيف الماضين من أسلافهم.

إنّ أُولى النتائج الفعليّة لتجميد التدابير النبويّة في عصورنا هذه هو الانجراف مع هذا الزيف الأموي الخطير، الذي يعمل بكلّ دهاءٍ وخبثٍ على إيقاع الأمّة في غيبوبةٍ قاتلةٍ وانسلاخٍ تامٍّ عن جميع القيم الإلهيّة والإنسانيّة.

وأخيراً لابدّ من التأكيد على كون البحث في الإجراءات النبويّة يعتبر من المحاور الأساسيّة لفهم تلك الحقبة التاريخيّة، العصيبة في مواقفها، والمليئة بالتناقضات والصراعات في تفاصيلها، والمعقّدة في نتائجها، كما أنّها تعتبر من أهمّ مفاتيح الكشف عن إرهاصات الانقلابات المتتالية على الخلافة الشرعيّة.

والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على خاتم النبيّين محمّد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وعلى مَن اهتدى بهديهم من الأوّلين والآخرين إلى قيام يوم الدين، ولله الحمد من قبلُ ومن بعد.

إنَّ الأمويّين المعاصرين من خلال هذه الرؤية المزيّفة بحسب تعبير السيّد الأستاذ دام ظلّه: «يريدون النفوذ إلى وجدان المسلم، متترّسين بأسلحتهم الضاربة، التفسيق والتضليل والتكفير والتقتيل والتمثيل! ». ولذلك نجده دام ظلّه، يحذّر كثيراً من هذا السلوك غير السوي الذي يُراد للأمّة الاتّصاف به والسير عليه.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ضبطه وصحَّحه محمّد سالم هاشم، منشورات ذوي القربى، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، قم المقدّسة.

٣. الآحاد والمثاني، لأحمد بن أبي عاصم بن الضحاك (ت: ٢٨٧هـ)، تحقيق: الدكتور باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، السعودية.

٤. الأحاديث المختارة (أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما)، للإمام الضياء المقدسي الحنبلي، تحقيق: الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

٥. الاحتجاج، تأليف أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليقات وملاحظات: السيّد محمّد باقر الخرسان، منشورات مطابع النعمان، بإشراف: حسن الشيخ إبراهيم الكتبي، ١٩٦٦م، النجف الأشرف.

٦. الإحكام في أُصول الأحكام، علي بن حزم الأندلسي الظاهري، تحقيق: لجنة من العلماء، الناشر: دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، بيروت.

٧. الإحكام في أُصول الأحكام، علي بن محمّد الآمدي (ت: ٦٣١هـ)، علَّق عليه: الشيخ عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، دمشق.

٨. الاختصاص، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، صحّحه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري، رتّب فهارسه: السيّد محمود الزرندي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

٩. اختيار معرفة الرجال، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تصحيح وتعليق: المير داماد الاسترابادي والسيّد محمّد باقر الحسيني، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، الناشر: مؤسّسة آل البيت، مطبعة بعثت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
١٠. الأدب المفرد، للإمام الحافظ محمّد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: مؤسّسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، بيروت.
١١. الأربعون حديثاً، الشيخ سليمان الماحوزي البحراني (ت: ١١٢١هـ)، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، مطبعة أمير، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، قم.
١٢. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري، أحمد بن محمّد القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ)، الناشر: دار التراث العربي، بيروت.
١٣. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (سلسلة مؤلّفات الشيخ المفيد)، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الناشر: دار المفيد للطباعة، قم المقدّسة.
١٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ (ت: ٤٦٣هـ)، مطبوع بهامش كتاب الإصابة، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ، مصر.
١٥. أُسُد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري أبي الحسن عزّ الدين علي بن محمّد بن عبد الكريم الجزري الشافعي، انتشارات إسماعيليان، طهران.
١٦. الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، الناشر: دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، بيروت.
١٧. الإصابة في تمييز الصحابة، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(ت: ٨٥٢هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمّد معوض، تقديم وتقريظ: الدكتور محمّد عبد المنعم البري، والدكتور عبد العتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ، بيروت.

١٨. الأُصول من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، قم المقدَّسة.

١٩. أصول وتاريخ الفرق الإسلاميّة، جمع وترتيب: مصطفى بن محمّد بن مصطفى، ١٤٢٤هـ، منشور في المكتبة الشاملة.

٢٠. أضواء على السنّة المحمّدية، للشيخ محمود أبو ريه، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الخامسة، مزيدة ومنقّحة، قم المقدّسة.

٢١. الاعتقادات، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: عصام عبد السيّد، دار المفيد طباعة والنشر التوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة.

٢٢. أعلام النبوّة، أبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب الماوردي، تحقيق : محمّد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، بيروت.

٢٣. أعلام النساء، عمر رضا كحالة، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ، بيروت.

٢٤. إعلام الورى بأعلام الهدى، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، قم المشرّفة.

٢٥. الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت.

٢٦. إقبال الأعمال، للسيّد رضيّ الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ، قم المقدّسة.

٢٧. الأمالي، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأُولى، قم.

٢٨. الأمالي، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، قم.

٢٩. الإمام الحسين، للعلّامة عبد الله العلايلي اللبناني، الناشر: دار مكتبة التربية، طبعة جديدة، ١٩٨٦م، بيروت.

٣٠. الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء)، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: الدكتور طه محمّد الزيني، الناشر: مؤسّسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

٣١. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد حميد الله، الناشر: دار المعارف، مصر.

٣٢. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، حقّقه وعلّق عليه: الشيخ محمّد باقر المحمودي، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ م، بيروت.

٣٣. الأنوار الباهرة بفضائل أهل البيت النبويّ والذرّية الطاهرة، لأبي الفتوح عبد الله بن عبد القادر التليدي المغربي، الناشر: مكتبة الإمام الشافعي، دار ابن حزم، بيروت.

٣٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، للعلّامة الشيخ محمّد باقر المجلسي، نشر: مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٣٥.بحث حول الإمامة، للسيّد كمال الحيدري، بقلم: جواد علي كسّار، نشر: دار فراقد.

٣٦.البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨هـ، بيروت.

٣٧.البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقّن سراج الدين أبي حفص عمر بن عليّ بن أحمد الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ)، تحقيق: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، الرياض، السعوديّة.

٣٨.بشارة المصطفى، لأبي القاسم محمّد بن علي الطبري، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٩.بصائر الدرجات، محمّد بن الحسن الصفار، تحقيق ميرزا محسن باغي، الناشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٤هـ، طهران.

٤٠.بصائر ذوي التمييز في لطاف الكتاب العزيز، للشيخ مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي، طبعة القاهرة، ١٣٨٥هـ.

٤١.بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، للحافظ الجليل نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي (ت:٨٠٧هـ)، حقّقه وعلّق عليه: مسعد عبد الحميد محمّد السعدني، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، مصر.

٤٢.بلاغات النساء، لأبي الفضل بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور (ت: ٣٨٠هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم المقدّسة.

٤٣.بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، للشّيخ محمّد تقي الشيخ التستري، منشور في المكتبة الشاملة.

٤٤.البيان في تفسير القرآن، للسيّد أبي القاسم الخوئي، نشر: مؤسّسة إحياء تراث الإمام الخوئي، الطبعة الأُولى، قم المقدّسة.
٤٥.بيان مشكل الآثار، للإمام المحدّث الفقيه المفسّر أبي جعفر أحمد بن محمّد الطحاوي (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، بيروت.
٤٦.بيت الأحزان (في ذكر أحوال سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام)، للشيخ المحدّث عبّاس القمّي (ت: ١٣٥٩هـ)، الناشر: دار الحكمة، طبعة أمير، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، قم المقدّسة.
٤٧.تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت.
٤٨.تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، إسماعيل بن أبي الفداء، منشور في المكتبة الشاملة.
٤٩.تاريخ آل زرارة، أبو غالب الزراري (ت: ٣٦٨هـ)، طبع مطبعة ربّاني، إيران.
٥٠.تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت؛ ومنشور أيضاً في المكتبة الشاملة.
٥١.تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، لابن جرير الطبري، تحقيق: نخبة من العلماء، نشر: مؤسّسة الأعلمي، بيروت.
٥٢.تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق: إبراهيم صالح، الناشر: دار صادر، بيروت.
٥٣.التاريخ الكبير، للشيخ المحدّث محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: المكتبة الإسلاميّة، ديار بكر، بإشراف: الدكتور محمّد عبد

المُعيد خان.

٥٤.تاريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة النبويّة)، لأبي زيد عمر بن شبه النميري البصري (١٧٣ـ٢٦٢هـ)، تحقيق فهيم محمّد شلتوت، من منشورات دار الفكر، مطبعة القدس، تاريخ الطبع ١٤١٠هـ.

٥٥.تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبي، مؤسّسة ونشر ثقافة أهل بيت عليهم السلام، قم؛ ودار صادر، بيروت.

٥٦. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

٥٧.تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

٥٨.تأويل مختلف الحديث، تأليف أبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، حقّقه وصحّحه: الشيخ إسماعيل الأسعردي، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.

٥٩.تبديد الظلام وتنبيه النيام، تأليف: إبراهيم السليمان الجبهان، الناشر: دار المجمع العلمي بجدّه، ١٣٩٩ من الهجرة.

٦٠.التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمّد الإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، بيروت.

٦١.التبيان في أقسام القرآن، للإمام أبي عبد الله محمّد بن القيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٦٢.التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة

الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.
٦٣. تثبيت الإمامة (إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام)، للإمام الزيدي اليمني يحيى بن الحسين بن القاسم (ت: ٢٩٨هـ)، الناشر: دار الإمام السجّاد عليه السلام، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ، بيروت.
٦٤. تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ أبي محمّد الحسن بن علي بن شعبة الحرَّاني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم.
٦٥. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلاء محمّد عبد الرحمن المباركفوري، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، بيروت.
٦٦. تذكرة الحفاظ، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، مُصحَّح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكّي، نشر إحياء التراث العربي.
٦٧. التذكرة الحمدونية في التاريخ والأدب، لأبي المعالي محمّد بن حمدون البغدادي (ت: ٥٦٢هـ)، منشور في (موقع الوراق)، وفي المكتبة الشاملة.
٦٨. تذكرة الخواصّ، للسبط ابن الجوزي الحنفي، تقديم السيّد محمّد صادق بحر العلوم، الناشر: مكتبة نينوى الحديثة، طهران.
٦٩. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، للحافظ ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت:٥٧١هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحمودي، الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، إيران.
٧٠. التصوّف... المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير، الناشر: إدارة ترجمان السنّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، لاهور، باكستان.
٧١. تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمّة الأربعة، للإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٢. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمّد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن

السيوطي، نشر دار المعرفة، بيروت.
٧٣.تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، نشر: دار الفكر، ١٤١٥هـ، بيروت.
٧٤.تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمّد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت.
٧٥.تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، الرياض، السعودية.
٧٦. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الناشر: مؤسّسة التأريخ العربي، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٧٧. أيضاً: تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، نشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت.
٧٨.تفسير القمّي، عليّ بن إبراهيم القمّي، تصحيح: السيّد طيب الجزائري، نشر: مؤسّسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
٧٩.التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين محمّد الرازي، (طبعة الأحد عشر جلداً)، منشورات محمّد علي بيضون، الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، بيروت.
٨٠.تفسير غريب القرآن، للفقيه المحدّث والمفسّر اللغوي الشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق وتعليق: محمّد كاظم الطريحي، انتشارات الزاهدي، قم المقدّسة.
٨١. تفسير فرات الكوفي، لأبي القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي؛ تحقيق: محمّد الكاظم، نشر: المطبعة التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ، طهران.
٨٢.تفسير مجاهد، لأبي الحجّاج مجاهد بن جبر التابعي المكّي المخزومي، قدّم له

وحقّقه وعلّق حواشيه: عبد الرحمن الطاهر بن محمّد السورتي، نشر: مجمع البحوث الإسلاميّة، إسلام آباد، باكستان.

٨٣. تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: السيّد هاشم المحلاتي، نشر: مؤسّسة إسماعيليان، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ، قم المقدّسة.

٨٤. التفسير والمفسّرون، للدكتور محمّد حسين الذهبي المصري، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٨٥. تقوية الإيمان بردّ تزكيه ابن أبي سفيان، محمّد بن عقيل بن عبد الله بن يحيي العلوي، الناشر: دار البيان العربي ، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، بيروت.

٨٦. تلخيص الشافي، للشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، طبعة النجف.

٨٧. تهذيب الأحكام، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، حقّقه وعلّق عليه: السيّد حسن الموسوي الخرسان، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٩٠هـ، طهران.

٨٨. تهذيب التهذيب، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، نشر: دار الفكر، الطبعة الأُولى، ١٤٠٤هـ، بيروت.

٨٩. تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: الدكتور بشّار عواد معروف، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، بيروت.

٩٠. الثاقب في المناقب، لابن حمزة عماد الدين أبي جعفر محمّد بن علي الطوسي، تحقيق: نبيل رضا علوان، الناشر: مؤسّسة أنصاريان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، مطبعة الصدر، قم المقدّسة.

٩١. الثقات، محمّد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيّد شرف الدين أحمد، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، بيروت.

٩٢.جامع الأحاديث (الجامع الصغير والجامع الكبير)، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر، ١٤١٤هـ، بيروت.

٩٣.الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمّد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمّد شاكر وآخرون، والأحاديث مذيّلةٌ بأحكام الألباني عليها، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٤.الجامع الصحيح، محمّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

٩٥.جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد البرّ النمري القرطبي الأندلسي (ت: ٤٩٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.

٩٦.الجزء المتمّم لطبقات ابن سعد، محمّد بن سعد، منشور في: موقع جامع الحديث؛ ومنشور في المكتبة الشاملة.

٩٧.الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، تحقيق: الدكتور علي حسن ناصر، والدكتور عبد العزيز إبراهيم العسكر، والدكتور حمدان محمّد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، الرياض، السعوديّة.

٩٨.الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) للإمام أبي زيد عبد الرحمن بن محمّد الثعالبي المالكي، تحقيق: الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، والشيخ علي محمّد معوّض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، بيروت.

٩٩.جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، تأليف: محمّد بن أحمد بن ناصر الدمشقي الباعوني الشافعي (ت: ٨٧١هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحمودي، الناشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، قم.

١٠٠.حديث الثقلين سنداً ودلالةً... قراءةٌ في أبحاث سماحة المرجع الديني

السيّد كمال الحيدري، رسالة ماجستير للطالب أسعد حسين علي الشمري، مؤسّسة الهدى للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى، ١٤٣٥هـ، العراق.

١٠١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، بيروت.

١٠٢. حياة الحيوان، للشيخ كمال الدين محمّد بن موسى الدميري المصري (ت: ٨٠٨هـ)، الناشر: مصطفى الحلبي، مصر.

١٠٣. حياة محمّد، محمّد حسين هيكل، الطبعة الأولى، ١٣٥٤هـ.

١٠٤. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت: ٥٧٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم المقدّسة.

١٠٥. الخصال، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

١٠٦. خصائص الأئمّة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، للشريف الرضي محمّد بن الحسين بن موسى الموسوي، تحقيق وتعليق الدكتور محمّد هادي الأميني، نشر الآستانة الرضويّة المقدّسة (مجمع البحوث الإسلاميّة)، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦هـ، إيران.

١٠٧. خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب النسائي الشافعي (ت: ٣٠٣)، حقّقه وصحح أسانيده ووضع فهارسه: محمّد هادى الأميني، الناشر: مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

١٠٨. خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب النسائي الشافعي (ت: ٣٠٣)، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي، الناشر: مكتبة المعلّا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، الكويت.

١٠٩. خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، تأليف: العلّامة أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر الأسدي الحلّي،، طبع ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.

١١٠. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، للمحدّث الحافظ جلال الدين السيوطي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، بيروت.

١١١. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، نشر: دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٧٩هـ، مصر.

١١٢. دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيميّة (مختارات)، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحراني، تحقيق: الدكتور محمّد السيّد، الناشر: مؤسّسة علوم القرآن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، دمشق.

١١٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد المعطى قلعجي، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، بيروت.

١١٤. الدولة الأمويّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، للشيخ الدكتور علي محمّد محمّد الصلابي، منشور في المكتبة الشاملة.

١١٥. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، تأليف: العلّامة الحافظ محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري، عن نسخة دار الكتب المصريّة، ونسخة الخزانة التيموريّة، عنيت بنشره مكتبة القدسيّ لصاحبها: حسام الدين القدسي، ١٣٥٦هـ، القاهرة.

١١٦. ربيع الأبرار، محمود بن عمر الزمخشري، منشورت الرضيّ، ١٤١٠هـ، قم المقدّسة.

١١٧. رجال ابن داود، لتقيّ الدين الحسن بن على بن داود الحلّي، نشر: المطبعة

الحيدريّة، ١٩٧٢م، النجف الأشرف.
١١٨. رجال الطوسي، للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٥هـ، قم المشرّفة.
١١٩. الرسالة، للإمام محمّد بن إدريس الشافعي، بتحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر.
١٢٠. الرسائل العشر، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: واعظ زاده الخراساني، نشر: جامعة المدرسين، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
١٢١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني البغدادي، المقابلة والتعليق: محمّد أحمد الأمد، وعمر عبد السلام السلامي، نشر: إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ، بيروت.
١٢٢. الروض الآنف في تفسير السيرة النبويّة لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (ت: ٥٨١هـ)، الناشر: دار الجيل، القاهرة؛ منشور في المكتبة الشاملة.
١٢٣. الروضة النديّة شرح الدرر البهيّة، تأليف: محمّد صدّيق خان بن حسن القنوجي البخاري، حقّقه: محمّد صبحي حسن حلّاق، الناشر: دار المعرفة، بيروت؛ ومنشور في المكتبة الشاملة؛ وفي موقع مكتبة المدينة المنوّرة.
١٢٤. روضة الواعظين، للشيخ الشهيد العلّامة محمّد بن الفتّال النيسابوري (ت: ٥٠٨هـ)، تقديم: العلامة السيّد محمّد مهدي السيّد حسن الخرسان، منشورات الرضي، قم.
١٢٥. الروضة من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة،

الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.
١٢٦. الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري، الناشر: دار الندوة الجديدة، بيروت.
١٢٧. زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد الجوزي القرشي البغدادي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، بيروت.
١٢٨. سبل السلام، (شرح بلوغ المرام)، تأليف: السيّد محمّد بن إسماعيل الكحلاني (ت:١١٨٢هـ)، المراجعة والتعليق: محمّد عبد العزيز الخولي، طبع ونشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الرابعة، ١٩٦٠م، القاهرة.
١٢٩. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمّد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمّد معوّض، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، بيروت.
١٣٠. السقيفة وفدك، لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصري البغدادي (ت: ٣٢٣هـ)، تقديم وجمع وتحقيق: الدكتور الشيخ محمّد هادي الأميني، شركة الكتبي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ؛ والطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، بيروت.
١٣١. سلسلة الأحاديث الصحيحة، للعلّامة محمّد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض ـ السعودية.
١٣٢. السلطة وصناعة الوضع والتأويل... دراسةٌ تحليليّةٌ تطبيقيّةٌ في حياة معاوية بن أبي سفيان، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم:

علي المدن، دار فراقد، قم.

١٣٣. سنن ابن ماجة، للحافظ ابن ماجة محمّد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر، بيروت.

١٣٤. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت؛ ومنشور أيضاً في المكتبة الشاملة.

١٣٥. سنن أبي داود، للحافظ أبي داود محمّد بن الأشعث السجستاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللحّام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م، بيروت.

١٣٦. سنن البيهقي، للمحدّث الحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، نشر: دار الفكر، بيروت.

١٣٧. سنن الترمذي، محمّد بن عيسى الترمذي، تحقيق: عبد الوهّاب عبد اللطيف، نشر: دار الفكر، ١٤٠٣هـ، بيروت.

١٣٨. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي الشافعي (ت: ٣٠٣)، تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، وسيّد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، بيروت.

١٣٩. سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، للمحدّث أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م، بيروت.

١٤٠. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيميّة، تحقيق: علي بن محمّد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله، نشر: دار عالم الفوائد.

١٤١. سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: محمّد نعيم العرقسوسي، ومأمون صاغرجي، بإشراف: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ، بيروت.

١٤٢. السيرة الحلبيّة (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، عليّ بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت: ١٠٤٤هـ)، دار المعرفة، بيروت.
١٤٣. السيرة النبويّة، أحمد بن زيني دحلان الشافعي (مطبوع في هامش السيرة الحلبية)، طبعة البهيّة، مصر.
١٤٤. السيرة النبوية، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: ١٣٩٥هـ، بيروت.
١٤٥. سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله (سيرة ابن هشام)، تأليف: أبي عبد الله بن إسحاق بن يسار المطّلبي (ت: ١٥١هـ): هذّبها: أبو محمّد عبد الملك بن هشام بن أيّوب الحميري (ت: ٢١٨هـ)، تحقيق وضبط وتعليق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: مكتبة محمّد علي صبيح وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ، القاهرة.
١٤٦. شذرات الذهب، لابن العماد عبد الحيّ الحنبلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، والطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، بيروت.
١٤٧. شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندراني، تعليق: الميرزا أبي الحسن الشعراني، نشر: مؤسّسة التأريخ العربي، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، بيروت.
١٤٨. شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي، تحقيق: السيّد محمّد الحسيني الجلالي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم.
١٤٩. الشرح الكبير على متن المقنع، للإمام شمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمّد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت: ٦٨٢هـ)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت.

١٥٠. شرح المقاصد في علم الكلام، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (ت: ٧٩٣هـ)، مطبعة القدسي، القاهرة.
١٥١. شرح المواقف، للقاضي عضد الدين الجرجاني، الناشر: مطبعة السعادة، ١٣٢٥هـ، مصر.
١٥٢. شرح ميمية أبي فراس الحمداني، تأليف: السيّد علي بن الحسين الهاشمي النجفي، الناشر: مطبعة الحيدرية، ١٣٥٧هـ، النجف الأشراف.
١٥٣. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، نشر: دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت.
١٥٤. الشعر والشعراء، لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، الناشر: دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة.
١٥٥. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، للحافظ الكبير عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحنفي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ محمّد باقر المحمودي، نشر: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية التابع لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ، طهران.
١٥٦. الشيعة والتشيّع فرقٌ وتاريخٌ، إحسان إلهي ظهير، الناشر: إدارة ترجمان السنّة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م، لاهور، باكستان.
١٥٧. الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، تحقيق: محمّد عبد الله عمر الحلواني، محمّد كبير أحمد شودري، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.
١٥٨. الصحاح تاج اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطّار، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، بيروت.
١٥٩. الصحبة والصحابة بين الإطلاق اللغوي والتخصيص الشرعي (محاضرة ألقيت في أحديّة الدكتور راشد المبارك)، للشيخ الأستاذ حسن بن فرحان

المالكي.
١٦٠. صحيح ابن حبّان، محمّد بن حبّان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.
١٦١. صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار الفكر، ١٤٠١هـ، بيروت.
١٦٢. صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير)، للشيخ محمّد ناصر الدين الألباني، الطبعة المجدّدة والمزيدة والمنقّحة، الناشر: المكتب الإسلامي، طبعة ١٤٠٨هـ، بيروت؛ ومنشور في المكتبة الشاملة.
١٦٣. صحيح مسلم (الطبعة المحقّقة)، مسلم بن الحجّاج النيسابوري، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦٤. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري النيسابوري، نشر: دار الفكر، بيروت.
١٦٥. صحيفة الزهراء عليها السلام، تأليف: جواد القيوّمي الأصفهاني، تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٣ش.
١٦٦. الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم، للشيخ زين الدين أبي محمّد على بن يونس العاملي (ت: ٨٧٧هـ)، تحقيق: محمّد الباقر البهبودي، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ، إيران.
١٦٧. الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة، لأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن محمّد بن علي بن حجر الهيتمي، الناشر: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٣هـ، بيروت.
١٦٨. وأيضاً: تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمّد الخراط،

الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، بيروت.
١٦٩. الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة، لابن القيّم الجوزية أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر أيّوب الزرعي (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: الدكتور علي بن محمّد دخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، الرياض.
١٧٠. الضعفاء الكبير (ضعفاء العقيلي)، للحافظ أبي جعفر محمّد بن عمر بن موسى العقيلي (ت: ٣٢٢هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المكتبة العلميّة، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ، بيروت.
١٧١. طبقات الشافعيّة الكبرى، تأليف: عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، منشور في موقع مشكاة للكتب الإسلاميّة، وفي المكتبة الشاملة.
١٧٢. الطبقات الكبرى، محمّد بن سعد، نشر دار صادر، بيروت.
١٧٣. طبقات المفسّرين، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنةٌ من العلماء، بإشراف: دار النشر، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.
١٧٤. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، لرضيّ الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاووس الحلّي (ت: ٦٦٤هـ)، مطبعة الخيام، ١٣٩٩هـ، قم المقدّسة.
١٧٥. طرق حديث (من كذب عليّ متعمّداً)، لسليمان بن أحمد بن أيّوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: علي حسن علي عبد الحميد، وهشام إسماعيل السقّا، الناشر: المكتب الإسلامي في عمّان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، الأردن.
١٧٦. عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، للسيّد مرتضى العسكري، نشر: توحيد، الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ، إيران.
١٧٧. العدّة في أُصول الفقه، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق: محمّد رضا الأنصاري، نشر: محمّد تقي علاقبنديان، الطبعة الأُولى،

١٤١٧هـ، قم المقدّسة.

١٧٨. العِدَد القوية لدفع المخاوف اليوميّة، للفقيه الجليل رضيّ الدين علي بن يوسف المطهّر الحلّي (ت: ٧٢٦)، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي العامّة، مطبعة سيّد الشهداء عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، قم المقدّسة.

١٨٠. العقد الفريد، لابن عبد ربّه الأندلسي (ت: ٣٢٧هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٨١. عقيدة أبي طالب، للسيّد طالب الرفاعي، الناشر: نشر مركز الأبحاث العقائديّة؛ ومنشور أيضاً في المكتبة الشاملة.

١٨٢. علل الشرائع، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، نشر: المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٦م، النجف الأشرف.

١٨٣. عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، للحافظ ابن بطريق يحيى بن الحسن الأسدي الحلّي (ت: ٦٠٠هـ)، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في قم المشرّفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٨٤. عمر بن الخطّاب، عبد الكريم الخطيب، دار الجيل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، مصر.

١٨٥. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي: القاضي أبو بكر بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ)، الناشر: المكتبة العصرّية، الطبعة الأولى، بيروت.

١٨٦. عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام)، للشيخ عبد الله البحراني (ت: ١١٣٠هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، ١٤٠٧هـ، قم.

١٨٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: حسين الأعلمي، نشر: مؤسّسة الأعلمي

للمطبوعات، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ، بيروت.

١٨٨. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (السيرة النبويّة)، تأليف: محمّد بن عبد الله بن يحيى بن سيّد الناس (ت: ٧٣٤هـ)، الناشر: مؤسّسة عزّ الدين، ١٤٠٦هـ.

١٨٩. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمّد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر: دار الحديث، الطبعة الأُولى، ١٩٩٧م، قم المقدّسة.

١٩٠. الغارات، إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي، تحقيق: السيّد جلال الدين المحدّث، من سلسلة انتشارات: أنجمن آثار ملّي، الطبعة الثانية.

١٩١. الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، للشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، نشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ، بيروت.

١٩٢. غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي، مطبوع في دائرة العثمانيّة في الهند.

١٩٣. غريب الحديث، لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، صنع فهارسه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، بيروت.

١٩٤. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبويّة الشماليّة، تأليف: بريك بن محمّد بريك أبو مايلة العمري، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، المدينة المنوّرة.

١٩٥. الغيبة، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، والشيخ على أحمد ناصح، نشر: مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الأُولى المحقَّقة، ١٤١١هـ، قم المقدّسة.

١٩٦. الفائق في غريب الحديث، للعلّامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة

الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.

١٩٧. فتاوى الإسلام سؤالٌ وجوابٌ، بإشراف: الشيخ محمّد صالح المنجد، قام بجمعها: أبو يوسف القحطاني، منشورٌ في ملتقى أهل الحديث.

١٩٨. فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، للإمام الحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت.

١٩٩. فتح القدير (الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير)، محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني، نشر: عالم الكتب، بيروت.

٢٠٠. فتح الملك العلى، للإمام المحدّث أحمد بن محمّد بن الصديق الحسني المغربي (ت: ١٣٨٠هـ)، حقّقه وعلّق حواشيه وصحّح أسانيده: محمّد هادي الأميني، الناشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إيران.

٢٠١. الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي الأسدي (ت: ٢٠٠هـ)، تحقيق: أحمد رتب عرموش، الناشر: دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ، بيروت.

٢٠٢. فتوح البلدان، تأليف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه: الدكتور صلاح الدين المنجد، النشر والطبع: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٥م، القاهرة.

٢٠٣. الفتوح، أحمد بن الأعثم الكوفي (ت: ٣١٤هـ)، نشر: دار الأضواء، بيروت.

٢٠٤. فدك في التاريخ، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، تحقيق الدكتور عبد الجبار شرارة، الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ ه، قم المقدّسة.

٢٠٥. فرائد السمطين، للشيخ المحدّث إبراهيم بن محمّد بن المؤيّد الجويني الشافعي (ت: ٧٣٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحمودي، الناشر:

مؤسّسة المحمودي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ، بيروت.

٢٠٦. فردوس الأخبار بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الهمداني الديلمي (ت: ٥٠٩هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٠٧. الفروع من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدث أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، قم المقدّسة.

٢٠٨. فصل الخطاب في سيرة ابن الخطّاب، تأليف: الدكتور علي محمّد الصلابي، منشور في المكتبة الشاملة.

٢٠٩. الفصول المختارة، للشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: السيّد علي مير شريفي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، بيروت.

٢١٠. الفصول في الأُصول، أحمد بن علي الرازي الجصّاص (ت: ٣٧٠هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور عجيل جاسم النشمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٢١١. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، تحقيق: الدكتور وصيّ الله محمّد عبّاس، نشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٢١٢. فضائل سيّدة النساء، لأبي حفص عمر بن أحمد شاهين (ت: ٣٨٥هـ)، تحقيق: أبي إسحاق الحويني الأثري، الناشر: مكتبة التربية الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، القاهرة.

٢١٣. فضائل فاطمة الزهراء، للحاكم النيسابوري، تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا.

٢١٤. الفضائل، لأبي الفضل سديد الدين شاذان بن جبرائيل القمّي (ت: ٦٠٦هـ)، منشورات المطبعة الحيدريّة، ١٩٦٢م، النجف الأشرف.

٢١٥. فيض القدير في شرح الجامع الصغير، محمّد عبد الرؤف المناوي، تحقيق: أحمد

عبد السلام، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ، بيروت.
٢١٦. كامل الزيارات، للشيخ الجليل جعفر بن محمّد بن قولويه القمّي (ت: ٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيوّمي، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، إيران.
٢١٧. الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري أبي الحسن عز الدين علي بن محمّد بن عبد الكريم الجزري الشافعي (ت: ٦٣٠هـ)، نشر: دار صادر، ١٤٠٢هـ، بيروت.
٢١٨. الكامل في اللغة والأدب، لأبي العبّاس محمّد ين يزيد المبرّد (ت: ٢٨٥هـ)، طبعة النهضة، مصر.
٢١٩. الكامل في ضعفاء الرجال، للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، ويحيى مختار غزاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، بيروت.
٢٢٠. كتاب الاستغاثة، لأبي القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى (ت: ٣٥٢هـ)، نسخه وعلّق عليه: أسفنديار بن سلام الله الحسني الحسيني الطباطبائي.
٢٢١. كتاب الأمّ، للإمام محمّد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٢٢٢. كتاب التمحيص، للشيخ أبي علي محمّد بن همّام الإسكافي: (ت: ٣٣٦هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم المقدّسة.
٢٢٣. كتاب الرياض نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي (قراءةٌ نقديّةٌ لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعيّة)، حسن بن فرحان المالكي، الناشر: مؤسّسة اليمامة الصحفيّة، ١٤١٨هـ، الرياض، السعوديّة.
٢٢٤. كتاب السنّة، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحّاك بن مخلد الشيباني (ت: ٢٨٧هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، بيروت.

٢٢٥. كتاب الغيبة، محمّد بن إبراهيم النعماني (ت: ٣٨٠هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طبع ونشر: مكتبة الصدوق، طهران.
٢٢٦. كتاب الفتن، تأليف: أبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي: (ت: ٢٢٩هـ)، تحقيق وتقديم: الأستاذ الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ.
٢٢٧. كتاب المسند، للإمام أبي عبد الله محمّد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: مطبعة بولاق الأميريّة، والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، نشر: دار العلميّة، بيروت.
٢٢٨. كتاب المواقف، تأليف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، بيروت.
٢٢٩. كتاب الهواتف، لأبي بكر عبد الله بن محمّد بن عبيد بن سفيان، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: مؤسّسة الكتب الثقافيّة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، بيروت.
٢٣٠. كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، لأبي بكر محمّد بن الطيّب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الناشر: مؤسّسة الكتب الثقافيّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، بيروت.
٢٣١. الكشف الحثيث عمّن رمي بوضع الحديث، تأليف: برهان الدين الحلبي (ت: ٨٤١هـ)، حققه وعلَّق عليه: صبحي السامرائي، الناشر: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربيّة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، بيروت.
٢٣٢. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسّر المحدّث الشيخ إسماعيل بن محمّد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ)، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، بيروت.

٢٣٣. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلّي (ت: ٦٩٣هـ)، الناشر: دار الأضواء، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٢٣٤. كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، تأليف: العلّامة الحلّي الحسن بن يوسف بن المطهّر (ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق: حسين الدركاهي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، طهران.
٢٣٥. الكشف والبيان في تفسير القرآن، لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ).
٢٣٦. كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، لأبي القاسم على بن محمّد بن على الخزّاز القمّي الرازي (ت: ٤٠٠هـ)، تحقيق: السيّد عبد اللطيف الحسيني الكوه كمري الخوئي، الناشر: انتشارات بيدار، مطبعة الخيام، ١٤٠١هـ، قم المقدّسة.
٢٣٧. كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق أبي جعفر بن علي بن الحسين بن بابويه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ، قم المقدّسة.
٢٣٨. كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي، نشر: مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ، بيروت.
٢٣٩. كنز الفوائد، للمحدّث العلّامة أبي الفتح محمّد بن علي الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ)، الناشر: مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، قم.
٢٤٠. لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، منشور في موقع يعسوب، مأخوذ من المكتبة الشاملة، والنسخة موافقة للمطبوع.
٢٤١. لسان الميزان، للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٩٧١م، بيروت.

٢٤٢. لمحات في الكتاب والحديث والمذهب، لآية الله الصافي الكلبايكاني، الناشر: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، طهران.
٢٤٣. اللهوف في قتلى الطفوف (مقتل الحسين عليه السلام)، تأليف: علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسيني (ت: ٦٦٤هـ)، الناشر: أنوار الهدى، مطبعة مهر، قم.
٢٤٤. لواعج الأشجان في مقتل الحسين، للسيّد محسن الأمين العاملي (ت: ١٣٧١هـ)، الناشر: مكتبة بصيرتي، إيران.
٢٤٥. لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة لشرح الدرّة المضيّة في عقد الفرقة المرضيّة، شمس الدين، أبو العون محمّد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ)، الناشر: مؤسّسة الخافقين ومكتبتها، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، دمشق.
٢٤٦. المبسوط، شمس الدين السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)، تحقيق: جمع من الأفاضل، الناشر: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٢٤٧. متشابه القرآن ومختلفه، للشيخ الجليل أبي جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، دار بيدار للنشر، الطبعة الأُولى، ١٣٦٩ش، قم المقدّسة.
٢٤٨. مثير الأحزان، للشيخ الجليل ابن نما الحلّي، تأليف: نجم الدين محمّد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلّي (ت: ٦٤٥هـ)، منشورات: المطبعة الحيدريّة، ١٩٥٠م، النجف الأشرف.
٢٤٩. مجمع البحرين، للشيخ فخر الدين البحراني، تنظيم: محمود عادل، تحقيق: أحمد الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، طهران.
٢٥٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، نشر: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٨م، بيروت.

٢٥١. مجمع النورين، الشيخ أبو الحسن زين الدين علي بن أحمد المرندي (ت: ١٣٤٩هـ)، ١٣٢٨هـ، طهران.
٢٥٢. المجموع (شرح المهذَّب)، للإمام محيى الدين بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، نشر: دار الفكر، بيروت.
٢٥٣. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، منشور في المكتبة الشاملة، وهو مطابقٌ للمطبوع.
٢٥٤. مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز، منشور في المكتبة الشاملة.
٢٥٥. المحاسن والمساوئ، محمّد بن إبراهيم البيهقي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعارف، ١٩٩١م، القاهرة.
٢٥٦. المحاسن، تأليف: الشيخ الثقة الأقدم أبي جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني، نشر: مؤسّسة الأعلمي، ١٤٢٩هـ، طهران.
٢٥٧. محاضرات في الإلهيّات، للشيخ جعفر السبحاني، تلخيص: الشيخ علي الربّاني، الناشر: مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.
٢٥٨. المحتضر، حسن بن سليمان الحلّي، منشورات المطبعة الحيدريّة، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ، في النجف.
٢٥٩. المحصول في علم أصول الفقه، للإمام المفسّر فخر الدين محمّد بن عمر بن الحسين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٢٦٠. المحلّى، للإمام أبي محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد محمّد شاكر، الناشر: دار الفكر، بيروت.
٢٦١. مختصر الفتاوى المصرية، لابن تيميّة الحرّاني، تأليف: الشيخ بدر الدين أبي عبد الله بن محمّد بن علي الحنبلي، منشور في المكتبة الشاملة.

٢٦٢. مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلّي، منشورات المطبعة الحيدريّة، الطبعة الأُولى، ١٩٥٠م، النجف الأشرف.
٢٦٣. المخصّص، للشيخ ابن سيده أبي الحسن على بن إسماعيل الأندلسي (ت: ٤٥٨هـ)، طبعة بولاق، مصر.
٢٦٤. المدرسة القرآنيّة، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، نشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر قدّس سرّه، الطبعة الثانية المحقّقة، ١٤٢٤هـ، قم.
٢٦٥. المدوّنة الكبرى، للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، الناشر: مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ، مصر.
٢٦٦. مرآة المقاصد في دفع المفاسد، العلّامة أحمد رفعت أفندي الحنفي، طبعة إبراهيم أفندي، إسلامبول.
٢٦٧. مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمؤرِّخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي بن المسعودي، تحقيق: أمير مهنًّا، منشورات مؤسّسة النور للمطبوعات، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ، بيروت.
٢٦٨. مرويّات الإمام الزهري في المغازي، تأليف: محمّد بن محمّد العواجي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، مصدر الكتاب: «موقع مكتبة المدينة الرقمية»؛ ومنشور في المكتبة الشاملة.
٢٦٩. المزار، للشيخ المفيد محمّد بن النعمان، تحقيق: السيّد محمّد باقر الأبطحي، نشر: مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه، الطبعة الأولى، قم المقدّسة.
٢٧٠. المسائل الصاغانية، للشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: السيّد محمّد القاضي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، إيران.

٢٧١. مستدرك سفينة البحار، للشيخ العلّامة علي النمازي الشاهرودي، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٩هـ، قم المقدّسة.

٢٧٢. المستدرك على الصحيحين، محمّد بن محمّد الحاكم النيسابوري، تحقيق: الدكتور يوسف المرعشلي، نشر: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ، بيروت.

٢٧٣. المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، للعلّامة الحافظ محمّد بن جرير الطبري الإمامي، تحقيق: الشيخ أحمد المحمودي، الناشر: مؤسّسة الثقافة الإسلاميّة، الطبعة الأولى، قم المقدّسة.

٢٧٤. المستصفى في علم الأُصول، للإمام لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، طبعه وصحّحه: محمّد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.

٢٧٥. مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي (ت: ٢٠٤)، الطبعة المزيدة بفهارس للأحاديث النبويّة الشريفة، نشر: دار الحديث، بيروت.

٢٧٦. مسند أبي يعلي، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنّى التميمي (ت: ٣٠٧هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، بيروت.

٢٧٧. المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد حمزة الزين، الناشر: دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٧٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (الطبعة الحديثة)، الأحاديث مذيّلةٌ بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، الناشر: مؤسّسة قرطبة، القاهرة.

٢٧٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، نشر دار صادر، بيروت (الطبعة القديمة).

٢٨٠. مسند الشاميّين، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي،

نشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، بيروت.

٢٨١. مصباح المتهجد، للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، الناشر: مؤسّسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ بيروت.

٢٨٢. مصنّف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، للحافظ عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، ضبطه وعلّق عليه: الأستاذ سعيد محمّد اللحّام، نشر: دار الفكر، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ، بيروت.

٢٨٣. المصنّف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي.

٢٨٤. معالم الإسلام الأموي (من القدح في العترة النبويّة الطاهرة إلى استباحتها)، محاضرات المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: إبراهيم البصري، دار مشعر للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ، طهران.

٢٨٥. المعالم الجديدة للأصول (دروسٌ تمهيديّةٌ في علم الأصول)، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، إصدار مكتبة النجاح، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ، طهران.

٢٨٦. معاني الأخبار، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه، صحّحه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ، قم المقدّسة.

٢٨٧. المعجم الأوسط، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

٢٨٨. معجم البلدان، للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ، بيروت.

٢٨٩. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، طبع: دار إحياء التراث العربي، نشر: مكتبة ابن تيميّة، الطبعة الثانية، القاهرة.

٢٩٠. معجم رجال الحديث، للسيّد أبي القاسم الخوئي، تحقيق: لجنة التحقيق، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ.

٢٩١. معرفة الثقات، للحافظ أحمد بن عبد الله العجلي (ت: ٢٦١هـ)، الناشر: مكتبة الدار، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، المدينة المنوّرة.

٢٩٢. المعرفة والتاريخ، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت: ٢٧٧هـ)، تحقيق: الدكتور أكرم العُمَري، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، بيروت.

٢٩٣. المعيار والموازنة، للشيخ أبي جعفر محمّد بن عبد الله الإسكافي المعتزلي (ت: ٢٢٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحمودي.

٢٩٤. المغازي، للواقدي أبي عبد الله محمّد بن عمر بن واقد (ت: ٢٠٧هـ)، المحقق: مارسدن جونس، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

٢٩٥. المغني، عبد الله بن قدامه (ت: ٦٢٠هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٩٦. مفردات غريب القرآن، للعلّامة الراغب الأصفهاني، طبعة مصر.

٢٩٧. المُفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، تأليف: الإمام الحافظ أبي العبّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق وتعليق ونشر: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ، دمشق.

٢٩٨. مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للمؤرّخ أبي مخنف الأزدي الغامدي، من منشورات المكتبة العامّة للسيّد المرعشي النجفي، تعليق: ميرزا حسن الغفاري، ١٣٩٨هـ، المطبعة العلميّة في قم المقدّسة.

٢٩٩. مقتل الإمام الحسين، للخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد السماوي، الناشر: مكتبة مفيد، قم المقدّسة.

٣٠٠. مكارم الأخلاق، للشيخ الجليل رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل

الطبرسي، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م، قم المقدّسة.
٣٠١. الملل والنحل، لأبي الفتح محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، الناشر: دار المعرفة، ١٤٠٤هـ، بيروت.
٣٠٢. من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، قم المقدّسة.
٣٠٣. المناقب، للموفّق بن أحمد البكري المكّي الحنفي الخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، قم المقدّسة.
٣٠٤. المناقب للإمام الحافظ ابن شهر آشوب أبي عبد الله محمّد بن علي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته: أساتذةٌ من النجف الأشرف، الناشر: المكتبة والمطبعة الحيدريّة، ١٩٥٦م، النجف.
٣٠٥. مناهج التفسير، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ، قم المقدّسة.
٣٠٦. مِنَّةُ الرَّحْمَنِ فِي نَصِيحَةِ الإِخْوَانِ (نصيحةٌ في العقيدة والعمل والسلوك)، تأليف الشيخ الدكتور: ياسِر بُرهامِيّ، منشور في المكتبة الشاملة.
٣٠٧. المنخول من تعليقات الأصول، للإمام أبي حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، حقّقه وخرّج نصّه وعلّق عليه: الدكتور محمّد حسن هيتو، الناشر: دار الفكر المعاصر، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ، بيروت.
٣٠٨. منطق فهم القرآن، للمرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن، الناشر: دار فراقد، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، قم المقدّسة.
٣٠٩. منهاج السنّة النبويّة، أحمد عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمّد رشاد سالم، الناشر: مؤسّسة قرطبة، الطبعة الأولى،

١٤٠٦هـ، القاهرة.

٣١٠. منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، للشهيد الثاني الشيخ زين الدين بن علي العاملي (ت: ١٠١١هـ)، تحقيق: رضا المُختاري، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.

٣١١. المهذّب، تأليف: القاضي عبد العزيز بن البرّاج الطرابلسي (ت: ٤٨١هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المشرّفة.

٣١٢. موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، تحقيق: محمّد عبد الرزّاق حمزة، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.

٣١٣. الموروث الروائي بين النشأة والتأثير، تقريراً لأبحاث المرجع الديني السيّد كمال الحيدري، بقلم: الدكتور طلال الحسن.

٣١٤. الموفّقيات، لأبي عبد الله الزبير بن بكّار بن عبد الله الزبيري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: سامي مكّي العاني، طبعة بغداد، ١٩٧٢م، العراق.

٣١٥. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين أبي عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمّد البجاوي، نشر: دار المعرفة، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢هـ، بيروت.

٣١٦. الميزان في تفسير القرآن، للسيّد العلّامة الطباطبائي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدَّسة.

٣١٧. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لابن حزم الأندلسي، تحقيق: دكتور عبد الغفار سليمان البنداري، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦هـ، بيروت.

٣١٨. نثر الدرّ، لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي (ت: ٤٢١هـ)، تحقيق: محمّد علي قرنة، مراجعة: علي محمّد البجاوي، الناشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة؛ منشور أيضاً في المكتبة الشاملة.

٣١٩. النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، تأليف: العلّامة المحقّق السيّد محمّد بن عقيل العلوي (ت: ١٣٥٠هـ)، دار الثقافة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، قم المقدّسة.

٣٢٠. النصب والنواصب... دراسةٌ تاريخيّةٌ عقديّةٌ، تأليف: بدر بن ناصر بن محمّد العواد، طبعة الرياض، السعوديّة.

٣٢١. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، تأليف: العلّامة الفقيه المحدّث أبي عبد الله محمّد بن جعفر الحسنيّ الكتّاني (ت: ٣٤٥هـ)، الناشر: دار الكتب السلفية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية المصحّحة ذات الفهارس العلميّة، مصر.

٣٢٢. نظم درر السمطين، جمال الدين محمّد بن يوسف الزرندي الحنفي، من مخطوطات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة، ١٩٥٨م، النجف الأشرف.

٣٢٣. نقد الخطاب السلفي... ابن تيميّة نموذجاً، للأستاذ رائد السمهوري، مؤسّسة طوى للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م، لندن.

٣٢٤. النهاية في غريب الحديث، للإمام مجد الدين المبارك بن محمّد بن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناجي، نشر: مؤسّسة إسماعيليان، الطبعة الرابعة، ١٣٦٤ش، قم المقدّسة.

٣٢٥. نهج الإيمان، زين الدين علي بن يوسف بن جبر، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، نشر: مجمع الإمام الهادي عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، مشهد.

٣٢٦. نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام، جمع: الشريف الرضي، تحقيق وتعليق: الشيخ محمّد عبده، نشر: دار المعرفة، بيروت.

٣٢٧. نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين، تأليف: محمّد بن عفيفي الخضري، تحقيق: هيثم هلال، الناشر: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، بيروت.

٣٢٨. نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار منتقى الأخبار، للشيخ محمّد بن علي بن محمّد الشوكاني، الناشر: دار الجيل، ١٩٧٣م، بيروت.
٣٢٩. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدّسة.
٣٣٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلّكان، المحقّق: إحسان عبّاس، الناشر: دار صادر، بيروت.
٣٣١. وقعة صفّين، لابن مزاحم المنقري (ت: ٢١٢هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، المؤسّسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ.
٣٣٢. اليقين والتحصين، تأليف: السيّد رضيّ الدين علي بن الطاووس الحسني (ت: ٦٦٤هـ)، تحقيق: مؤسّسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، قم.
٣٣٤. ينابيع المودّة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق: السيّد علي جمال أشرف الحسيني، نشر: دار الأُسوة، الطبعة الأُولى، ١٤١٦هـ، قم المقدّسة.

الفهرس

الفصل الأوّل

تدابير الحفظ من التكاليف النبويّة

الفصل الثاني

التدابير النبويّة في مواجهة أدعياء النبوّة

الفصل الثالث

التدابير النبويّة لحفظ الخلافة من الانقلاب المرتقب

الفصل الرابع

التركيز على شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام

الفصل الخامس

فاطمة الزهراء والتدابير النبويّة

الفصل السادس

القتال على التنزيل والتأويل

الفصل السابع

التدابير النبويّة لحفظ الخلافة من الانقلاب الأموي

الفصل الثامن

محاولات إفشال التدابير النبويّة

الفصل التاسع

وحدة المضمون بين الأمويّة والسلفيّة والوهّابيّة

الفصل العاشر

الثمرات والعبر في التدابير النبويّة